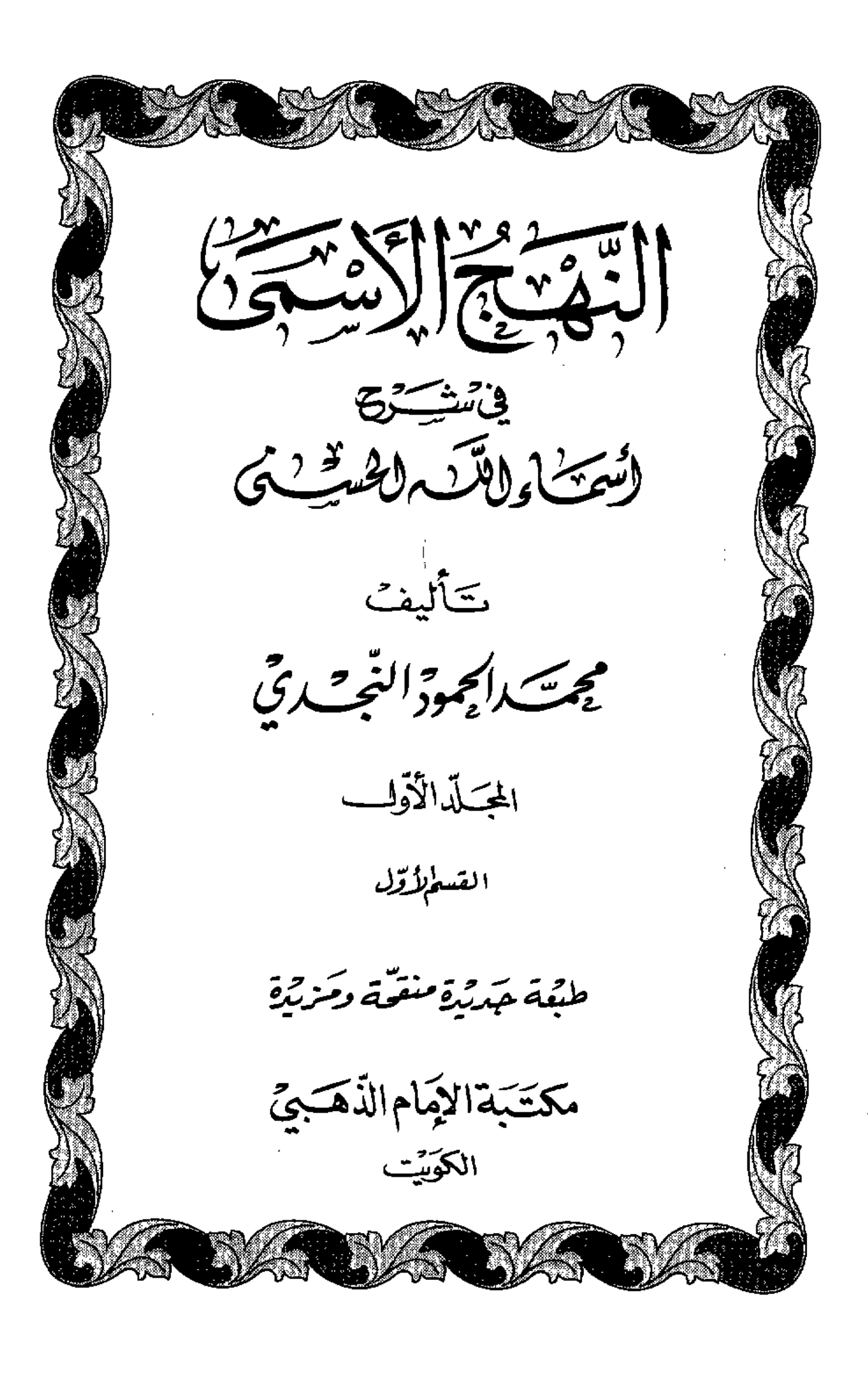


النهج الأسمى

في شرح أسماء الله الحسنى

تأليف

محمد الحمود النجدي

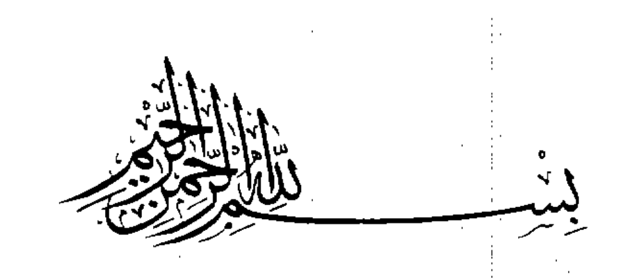
المجلد الأول

القسم الأول

طبعة جديدة منقحة ومزيدة

مكتبة الإمام الذهبي

الكويت



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١] .

أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

إن الله جل ذكره شرّف أهل العلم الشرعي على غيرهم فقال عز

من قائل ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩] .

وبين أنه يرفعهم درجات فقال سبحانه ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١] .

وأمر رسوله ﷺ بأن يسأله الزيادة في العلم لأنه زيادة في درجاته ، قال سبحانه ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] .

وأشد الناس خشية لله عز وجل هم العلماء ، قال سبحانه ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

ولا ريب أن الله لا يعني في هذه الآية علماء الدنيا[1] كالحساب والهندسة والطب والصناعة والزراعة وغيرها ، فإن أكثر هؤلاء لا يؤمن بالله فضلاً عن أن يخافه ويتقيه [2] .

وإنما المراد هم أهل العلم الشرعي ، العلم الذي جاءت به الرسل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، العلم الذي حواه كتاب الله العزيز.

وأشرف العلوم الشرعية هو العلم بأسماء الله الحسنى وصفاته

---

(١) وقد وصف الله أهل الكفر والشرك والضلال بالجهل وإن كانوا على علم دنيوي رفيع فقال ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ [البقرة: ١١٨] وقال في غير ما آية: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» ، فوصف أكثر أهل الأرض بالجهل على ما كانوا عليه من عمارة للدنيا ومهارة في الصناعة والزراعة . . . إلخ .

(٢) وأما المسلم الذي يتعلم من العلوم الدنيوية علمًا يقوي به من أمر أمته على أعدائها ، أو هي في حاجة إليه لتقوية نفسها عسكريًا فهو مأجور لقوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]

وكذا من تعلم صنعة يأكل منها ويكف بها وجهه عن الناس.

العلى لتعلقها بأشرف معلوم وهو الله سبحانه وتعالى .

والقرآن الكريم لا تكاد تخلو آية من آياته من صفة لله سبحانه أو اسم من أسمائه الحسنى .

قال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رحمه الله تعالى : والقرآن فيه من ذكر أسماء الله وصفاته وأفعاله ، أكثر مما فيه من ذكر الأكل والشرب والنكاح في الجنة ، والآيات المتضمنة لذكر أسماء الله وصفاته ، أعظم قدرًا من آيات المعاد ، فأعظم آية في القرآن آية الكرسي المتضمنة لذلك، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن النبي ﷺ أنه قال لأبي بن كعب : أتدري أي آية في كتاب الله أعظم ؟ قال ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] . فضرب بيده في صدره ، وقال : « **ليهنك العلم أبا المنذر** »[١] .

وأفضل سورة سورةُ أم القرآن ، كما ثبت ذلك في حديث أبي سعيد ابن المعلَّى في الصحيح ، قال له النبي ﷺ إنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته [٢] وفيها من ذكر أسماء الله وصفاته أعظم مما فيها من ذكر المعاد .

---

(١) رواه مسلم (١/٥٥٦)

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٧٤ ، ٤٦٤٧ ، ٥٠٠٦) وليس فيه قوله: «إنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن» وإنما وقع هذا في رواية أخرى ولصحابي آخر هو أبي بن كعب أخرجها الترمذي (٣٠٣٦) من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله خرج على أبي . . وقال: حسن صحيح، وأحمد (٣٥٧/٢، ٤١٣) ، (١١٤/٥)، والنسائي (١٣٩/٢)، وصححه ابن خزيمة (٥٠٠، ٥٠١)، والحاكم (٢٥٧/٢-٢٥٨) وقال : حديث صحيح، على شرط مسلم وإسناده صحيح، وأخرجه الدارمي (٤٤٦/٢) من الطريق السابق ولم يذكر أبيًا.

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ من غير وجه أن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] تعدل ثلث القرآن [١].

وثبت في الصحيح أنه بشّر الذي كان يقرأها ويقول: إني لأحبها لأنها صفة الرحمن بأن الله يحبه[٢] فبين أن الله يحب من يحب ذكر صفاته سبحانه وتعالى وهذا باب واسع اهـ [٣].

والعلم بأسماء الله جل ثناؤه وصفاته ومعرفة معانيها يحدث خشية ورهبة في قلب العبد، فمن عرف أن الله بكل شيء عليم، وأنه لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ويؤمن بذلك أشد خوفًا ممن لا يعلم ذلك، ومن يعلم أن الله لا يعجزه شيء وهو علي كل شيء قدير أتقي لله ممن لا يعلم، وهكذا في سائر الأسماء والصفات، ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله في الآية: إنما يخاف الله فيتقي عقابه بطاعته العلماء بقدرته على ما يشاء من شيء وأنه يفعل ما يريد، لأن من علم ذلك وأيقن بعقابه على معصيته فخافه ورهبه خشية منه أن يعاقبه اهـ كلامه [٤].

فالعلم بالله سبحانه إذًا يدعو إلى محبته وخشيته ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه، وفي هذا فوز العبد وسعادته في الدارين.

ولا يمكن معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلى

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٣، ٦٦٤٣، ٧٣٧٤) عن أبي سعيد الخدري، ومسلم (٨١١) عن أبي الدرداء وبرقم (٨١٢) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٥) ومسلم (٨١٣) عن عائشة.

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» (٥/ ٣١٠-٣١٢).

(٤) «جامع البيان في تفسير القرآن» (٢٢/ ٨٧).

وفهم معانيها .

٢ - والعلم بالله تعالى هو أحد أركان الإيمان بل هو أصلها، وما بعدها تبع لها . وليس الإيمان مجرد قول القائل (آمنت بالله) من غير علم بالله ! بل إن حقيقة الإيمان أن يعرفَ الربَّ الذي يؤمن به ، بل ويجب عليه أن يبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته حتي يبلغ درجة اليقين ، وبحسب علم العبد بربه تكون درجة إيمانه ، فكلما ازداد معرفةً بربه ازداد إيمانه ، والطريق الشرعي للعلم بالله وأسمائه وصفاته هو تدبر القرآن والسنة وفهم ما جاء فيهما .

٣ - ثم إنَّ الله تعالى خلق الخلق ليعبدوه ، قال تعالي : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦] . ولا يمكن أن يعبدوه دون أن يعرفوه ، فلابد من معرفتهم له سبحانه ليُحققوا الغاية المطلوبة منهم والحكمة من خلقهم .

والاشتغال بمعرفته سبحانه اشتغال العبد بما خلق له ، وتركه وتضييعه إهمالٌ لما خلق له ، وقبيحٌ بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة ، وفضله عليه عظيم متوال من كلِّ وجه ، أن يكون جاهلاً بربه معرضًا عن معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته .

٤ - والعالم بالله تعالى حقيقة يستدلُّ بما عَلِمَ من صفاته وأفعاله على ما يفعله وعلى ما يشرعه من الأحكام ، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته ، فأفعاله دائرةٌ بين العدل والفضل والحكمة كذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله ، فأخباره كلها حقٌّ وصدق ، وأوامره ونواهيه عدلٌ وحكمة ، وهذا العلم أعظم وأشهر من أن يُنَبَّه عليه لوضوحه .

وكيف يَصِحُّ في الأذْهانِ شيءٌ   إذ احتاجَ النَّهارُ إلي دَليل [1]

وقال أبو القاسم التيمي الأصبهاني في بيان أهمية معرفة الأسماء الحسنى : قال بعض العلماء : أولُ فرضٍ فرضه الله علي خلقه معرفته، فإذا عرَفه الناس عبدوه ، قال الله تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

فينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء الله وتفسيرها ، فيعظموا الله حقَّ عظمته .

قال : ولو أراد رجلٌ أن يتزوج إلى رجل ، أو يُزوِّجه أو يُعامله طلب أن يعرف اسمه وكنيته ، واسم أبيه وجده ،وسأل عن صغير أمره وكبيره ، فالله الذي خلقنا ورزقنا ونحن نرجو رحمته ونخاف من سَخْطَته أولى أن نعرف أسماءه ، ونعرف تفسيرها اهـ[2].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (١/ ١٠) بتصرف.

(٢) « الحجة في المحجة » (ق١٣أ) .

وأبو القاسم هو الإمام العلامة الحافظ شيخ الإسلام إسماعيل بن محمد بن الفضل القرشي التيمي ثم الطلحي الأصبهاني الملقب بـ « قوَام السنة » .

مولده سنة (٤٥٧ هـ) سمع أبا عمرو عبد الوهاب بن أبي عبد الله بن منده وخلقًا ، وحدث عنه : أبو سعد السمعاني وأبو طاهر السِّلَفِي وأبو القاسم بن عساكر وأبو موسى المديني وغيرهم.

قال السمعاني : أبو القاسم هو أستاذي في الحديث وعنه أخذت هذا القدر ، وهو إمام في التفسير والحديث واللغة والأدب ، عارفٌ بالمتون والأسانيد ، كنت إذا سألته عن المشكلات أجاب في الحال . مات سنة (٥٣٥) هـ .

من كتبه «الترغيب والترهيب» و « الحجة في المحجة» ويسمى بـ «السنة» و «دلائل النبوة »، وله في التفسير أربعة كتب ، و «سير السلف» مجلد ضخم ، و «المغازي» مجلد وغيرها . انظر ترجمته : «الأنساب» (٣/ ٣٦٨ - ٣٦٩)، «البداية والنهاية» (٢١٧/١٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٨٠ -٨٨).

فهذا كلّه كان دافعًا لي أن أكتب بحثًا ميسرًا في الأسماء الحسنى يبحث في معانيها اللغوية وفي حق ربنا تبارك وتعالى ، متحريًا في ذلك المنهج الذي سار عليه أئمة أهل السنة والجماعة ، منهج الفرقة الناجية ، متوخيًا البساطة في الطرح ، وأن أشارك بجهدي المتواضع من سبقني في الكتابة في هذا الموضوع المهم .

* * *

المصنفات في الأسماء الحسنى :

أفرد بعض الأئمة السابقين الأسماء الحسنى بمصنفات خاصة ، نذكر أشهرها :

١- «تفسير أسماء الله الحسنى» لأبي إسحاق إبراهيم بن السّري الزجاج ، طبع بتحقيق أحمد الدقاق - دار المأمون للتراث .

٢- «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري [١] .

٣- «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي - مطبوع بمصر .

٤- «الأمد الأقصي» لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي [٢] .

٥- «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي صاحب التفسير [٣] .

٦- «كتاب الأسماء والصفات» لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي النيسابوري - مطبوع ببيروت.

٧- «شرح أسماء الله الحسنى» وهو الكتاب المسمى «لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات» لفخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي - مطبوع بمصر .

---

(١) مخطوط في (٧٧ ورقة) - (شستربتي - ٣٦١٣) وعندي صورة عنها .

(٢) مخطوط .

(٣) مخطوط يوجد منه الجزء الثاني والثالث ، وعندي صورة عنها .

٨- «التحبير في الأسماء الحسنى» لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي [١].

٩- «شرح أسماء الله الحسنى» للإمام المحقق شمس الدين محمد ابن أبي بكر المشهور بابن قيم الجوزية [٢].

١٠- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديرني[٣] .

١١- أعلام الحسنى بمعاني الأسماء الحسنى» لجلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن الكمال الحضيري السيوطي .

وله أيضًا « أقوال العلماء في الاسم الأعظم » ، و « الدر المنظم في الاسم الأعظم »[٤].

منهج الكتاب :

وقد قسمت الكتاب إلى قسمين :

القسم الأول : الأسماء الواردة في القرآن العظيم.

القسم الثاني : الأسماء الواردة في السنة المطهرة الثابتة.

وقد سرت في القسم الأول على النحو التالي :

أولاً : ذكر المعنى اللغوي للاسم :

وذلك بالرجوع إلي معاجم اللغة العربية المعتمدة كـ «لسان العرب» لابن منظور، و«النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير و «غريب

(١) ذكره ابن كثير في تاريخه (١٢/ ١١٤) .

(٢) ذكره ابن رجب في « ذيل طبقات الحنابلة » (٢/ ٤٥٠)، والداودي (٢/ ٩٦)، ولم يشر إلى وجوده مخطوطًا أحد ممن ترجم لابن القيم رحمه الله.

(٣) مخطوط ومؤلفه من المتصوفة .

(٤) مخطوطة كلها .

الحديث» لأبي عبيد القاسم بن سـلام ، و«المفردات في غريـب القرآن» للراغـب الأصفهاني.

بالإضافة إلى كتب شروح الأسماء الحسنى - وسيأتي ذكرها - فإنها تتصدر لبيان المعنى اللغوي أيضًا .

ثانيًا : بيان ورود الاسم في القرآن الكريم :

وأذكر فيه عدد الآيات التي ورد فيها ذكر الاسم ، واضعًا بعضها أمام القاريء كأمثلة ، مع مراعاة تنويع الآيات لبيان اقتران الاسم بغيره من الأسماء الحسنى الأخري ، وتعدد سياق الآيات.

ثالثًا : بحث معني الاسم في حق الله تعالى :

وذلك عن طريق :

أ - الاطلاع على تفسير الآيات التي ذُكرت الاسماء الحسنى فيها ، في كتب التفاسير المختلفة مثل :

١ - «جامع البيان في تفسير القرآن» لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

٢ - «الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي.

٣ - «تفسير القرآن العظيم» لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي .

٤ - «فتح القدير» لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني .

٥ - «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي .

٦- «أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن» لمحمد الأمين بن محمد المختار الجَكَني الشنقيطي .

٧- «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» لعبد الرحمن ابن ناصر السعدي .

٨- «التفسير الكبير» لفخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي .

٩- «تفسير النسفي» لعبد الله بن أحمد بن محمود النسفي .

١٠- «الكشاف» لمحمود بن عمر الزمخشري [١].

ب - الرجوع إلى الكتب التي شرحت الأسماء الحسنى مثل :

١- «تفسير أسماء الله الحسنى» لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج .

---

(١) قال ابن خلدون : «ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير يعتني معرفة اللغة والإعراب والبلاغة كتاب «الكشاف» للزمخشري من أهل خوارزم العراق إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد ، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة ، حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة ، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكامنه ، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة ، وإذا كان الناظر فيه واقفًا مع ذلك على المذاهب السنية ، محسنًا للحجاج عنها ، فلا جرم أنه مأمون غوائله فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه في اللسان ، ولقد وصل إلينا في هذه العصور تآليف لبعض العراقيين وهو شرف الدين الطيبي من أهل توريز من عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيّفها ، ويبين أن البلاغة إنما تقع في الآية علي ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة فأحسن في ذلك ما يشاء مع امتاعه في سائر فنون البلاغة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾» اهـ من مقدمته (ص ٣٤٩).

لذلك لا يجوز لمن لم يدرس العقيدة السلفية الصحيحة أن يقرأ في هذا الكتاب وأمثاله ، خشية أن يعتقد ما جاء فيه من الباطل الذي قد لا يتنبه له .

وكذا يجب الحذر من بعض التفاسير التي يقع فيها التأويل لبعض الأسماء والصفات ، أو تذكر فيها أقاويل أهل التأويل دون ردها وبيان وجه الصواب ، كتفسير القرطبي والنسفي والرازي والشوكاني والألوسي .

٢- «شأن الدعـــاء» لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي الحافظ.

٣- «المنهاج في شعب الإيمان» لأبي عبد الله الحسين بن محمد الحليمي .

٤- «شرح أسماء الله الحسنى» لفخر الدين محمد بن عمر الرازي.

٥- «الاعتقاد والهداية إلي سبيل الرشاد» للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي .

٦- كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي أيضًا .

جـ - الرجوع إلى كتب اللغة المذكورة آنفًا ، لاحتوائها على شروح للأسماء الحسنى .

د - الاستعانة ببعض الكتب التي يقع فيها شروح لبعض الأسماء مثـل :

١- «العقيدة الطحاوية» لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي وشرحها لابن أبي العز الحنفي .

٢- «مدارج السالكين» لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية.

٣- «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.

٤- «تيسير العزيز الحميد في شـرح كتـاب التوحيد» لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.

وأختار من ذلك كله من العبارات أسهلها وأقربها للفهم وأتجنب التكرار قدر المستطاع.

رابعًا : بيان آثار الإيمان بالأسماء الحسنى :

وهو أصعب ما في هذا البحث ، لأنه يتطلب تتبع الاسم في الآيات الكثيرة ، والنظر فيها ، والتدبر لمعانيها ، والربط بين الخبر الذي تتحدث عنه الآية أو الحكم أو الموعظة والتذكير ، وبين الاسم الذي ختمت به الآية أو ذكر في أثنائها ، لمعرفة أثر الإيمان به.

واستعنت في ذلك بتفاسير الأئمة من السلف رحمهم الله تعالى وجزاهم عنا خير الجزاء ، فهم أتقى وأنقى ، وأعلم وأفهم ، وأقدر على الاستنباط من الآيات ومعرفة أسرارها.

وأين علمنا من علمهم وجهدنا من جهدهم ، هذا مع كثرة ذنوبنا وتقواهم ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴾ [البقرة: ٢٨٢] .

ولا أدعي الإحاطة في بحثي هذا ، فإن هذا لا يمكن ادعاءه هنا. وذلك أن إحصاء الأسماء الحسنى ، ومعرفة معانيها ودلالاتها ، وآثار الإيمان بها شيء عظيم جدًا ، بل هو أصل للعلم بكل المعلومات .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم ، فإن المعلومات سواه -أي سوى الله سبحانه- إما أن تكون خلقًا له تعالى أو أمرًا ، إما علمٌ بما كوّنه أو علمٌ بما شرعه ، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه ، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنى، وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه ، فأمره كله مصلحة وحكمة ورحمة ولطف وإحسان ، إذ مصدره أسمائه الحسنى ، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث ولم يخلق خلقه باطلاً ولا سدى ولا عبثًا .

وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده ، فوجود من سواه تابع لوجوده، تبع المفعول المخلوق لخالقه، فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه.

فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسمائه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم ، لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها اهـ[1].

خامسًا : وأخيراً تخريج الأحاديث التي ترد في البحث :

فإن كانت في الصحيحين أو في أحدهما فإني أكتفي بالعزو إليهما، وإن كانت في خارج الصحيحين خرجتها قدر المستطاع مع الكلام عليها حسب القواعد الحديثية .

وأسأل الله العليّ القدير أن أكون قد وفقت للصواب في كتابة هذا الجزء من الكتاب ، وأن ييسر لي كتابة باقيه .

اللهم اجعل ما نخطه بأيدينا حجة لنا لا علينا يوم نلقاك .

اللهم رجح به ميزاننا في يوم لا وزن فيه للدينار والدرهم وإنما هي الحسنات والسيئات إنك سميع قريب مجيب.

وصلِّ اللهم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً .

وكتبه

محمد بن حمد الحمود

الكويـت - في يوم الثلاثاء السابع

من شهـر ربيع الأول سنـة ست وأربع

مائـة وألف مـن الهجـرة النبويـة المشرفة[2].

***

(١) انظر كتابه القيم: «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٣).

(٢) وتمَّ إعادة النظر فيه وتنقيحه والزيادة عليه في سنة (١٤١٢ هـ) **ثم في هذه السنة (١٤١٧هـ)** .

مذهب أهل السنة والجماعة في الأسماء الحسنىٰ

مذهب أهل السنة والجماعة في الأسماء الحسنىٰ هو مذهبهم في الصفات عمومًا، وذلك أن أسماء الله سبحانه وتعالىٰ دالةٌ علىٰ صفاته كماله، فهي مشتقة من الصفات ، فهي أسماء وهي أوصاف ، وبذلك كانت حسنىٰ.

والذي درج عليه سلف الأمة ومن تابعهم بإحسان واتفقوا عليه هو : الإقرار والتصديق لآيات الأسماء والصفات وأحاديثها ، وإمرارها كما جاءت وإثباتها ، دون تشبيه أو تعطيل أو تحريف أو تأويل .

وإليك بعض النقول عنهم التي تثبت ذلك :

١- قال أحمد الدورقي : سمعت وكيعًا يقول : نسلم هذه الأحاديث كما جاءت ولا نقول كيف كذا ، ولا لم كذا ، يعني مثل حديث «**يحمل السماوات علىٰ إصبع**» و«**قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن**»[1].

٢- عن يونس بن عبد الأعلىٰ : سمعت الشافعي يقول وقد سئل عن صفات الله وما يؤمن به فقال :

«لله تعالىٰ أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه أمته لا يسع أحدًا من خلق الله قامت عليه الحجة ردها ، لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله ﷺ القول بها فيما روىٰ عنه العدول.

فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر ، أما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل ، لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية

(١) إسناده صحيح . أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب «السنة» (ص ٥٥) حدثني أحمد بن إبراهيم وهو ابن كثير الدورقي وهو ثقة حافظ عن وكيع به.

والفكر ، ولا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها .

وتثبت هذه الصفات وينفى عنها التشبيه كما نفى التشبيه عن نفسه فقال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] اهـ [١].

٣- وقال في «الرسالة» : ولا يبلغ الواصفون كنه عظمته الذي هو كما وصف نفسه وفوق ما يصفه به خلقه [٢].

٤- وعن محمد بن إسماعيل الترمذي : سمعت نعيم بن حماد يقول :

« من شبه الله بخلقه فقد كفر . ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر . وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيهًا » ا هـ [٣].

وقال الترمذي بعد روايته لحديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: « **إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربِّيها لأحدِكم كما يربي أحدُكم مُهرَه** .. » الحديث.

وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يُشبه هذا من الروايات من الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، قالوا : قد ثبتت الروايات [٤] في هذا ويُؤْمَن بها ولا يُتوهم ولا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في « آداب الشافعي» عن يونس بن عبد الأعلى به وإسناده صحيح. كما في «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم (ص ٥٩) وأورده الذهبي في « العلو للعلي الغفار» (ص١٢١) الجملة الأولى منه فقط.

(٢)« الرسالة» (ص٦) .

(٣) أخرجه الذهبي في « العلو للعلي الغفار » (ص١٢٦) وصححه ووافقه محقق الكتاب الشيخ محمد ناصر الدين الألباني «مختصر العلو» (ص١٨٤).

(٤) تنبيه : وقع في الترمذي الطبعة المصورة عن طبعة المكتبة السلفية بالمدينة المنورة : «قد تثبت الروايات في هذا ...» والصحيح : قد ثبتت الروايات ، وبين العبارتين فرق كبير كما هو ظاهر .

يقال كيف .

هكذا روي عن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك، أنهم قالوا في هذه الأحاديث : أمرُّوها بلا « كيف » ، وهكذا قول أهلِ العلم من أهل السنة والجماعة [1].

وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات وقالوا هذا تشبيه .

وقد ذكر الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه اليد والسمع والبصر فتأولت الجهمية هذه الآيات وفسَّروها على غير ما فسَّر أهل العلم، وقالوا : إن الله لم يخلق آدم بيده . وقالوا : إنما معنى اليد القوة .

وقال إسحاق بن إبراهيم (هو ابن راهويه) : إنما يكون التشبيه إذا قال: يدّ كيدٍ أو مثلُ يدٍ ، أو سمعٌ كسمعٍ أو مثل سمعٍ . فإذا قال : سمعٌ كسمعٍ أو مثلُ سمعٍ فهذا تشبيه ، وأما إذا قال كما قال الله يدٌ وسمعٌ وبصرٌ ولا يقول « كيف » ولا يقول مثلُ سمعٍ ولا كسمعٍ فهذا لا يكون تشبيهًا وهو كما قال الله تبارك في كتابه ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١] اهـ [2].

وهذا ما ذهب إليه أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري الذي رجع إلى مذهب أهل السنة والجماعة وترك ما كان عليه من علم الكلام المبتدع المخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ [3].

قال رحمه الله في كتابه: «اختلاف المصلين ومقالات المسلمين » بعد أن ذكر فرق الخوارج والروافض والجهمية وغيرهم :

---

(١) قولهم (أمرّوها كما جاءت) ردٌّ على المعطلة وقولهم (بلا كيف) ردٌّ على الممثلة .

(٢) الترمذي الزكاة (٦٥٩) وحديث أبي هريرة مخرج في الصحيحين .

(٣) أقول : فيا ليت الذين ينتسبون إليه اليوم يرجعون إلى الحق والصواب وترك التعصب لمذهبهم الباطل كما تركه إمامهم رحمه الله .

« ذكر مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث... ... جملة قولهم: الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، بما جاء عن الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ ، لا يردون من ذلك شيئًا.

وأن الله على عرشه كما قال ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]

وأن له يدين بلا «كيف» كما قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وأن أسماء الله لا يقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوراج.

وأقروا أن لله علمًا كما قال: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١].

وأثبتوا السمع والبصر، ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة.

... ...» إلى آخر كلامه في إثبات الصفات [(١)].

وهذه العقيدة هي التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، وهي التي تلقاها التابعون منهم، وتواصوا بها جيلاً بعد جيل، محذرين بعضهم البعض من مخالفتها والشطط عنها.

ودان بهذه العقيدة أئمة السلف الماضين من المحدثين والفقهاء والمفسرين واللغويين والمصنفين [(٢)].

---

(١) انظر: «مقالات الاسلاميين» من (ص ٢٩٠).

(٢) قال الذهبي رحمه الله: «ولو ذكرنا قول كل من له كلام في إثبات الصفات من الأئمة لاتسع الخرق، وإذا كان المخالف لا يهتدي بمن ذكرنا أنه يقول: الإجماع على إثباتها من غير تأويلها، أو لا يصدقه في نقله فلا هداه الله ولا خير والله فيمن رد على مثل الزهري ومكحول والأوزاعي والثوري والليث بن سعد ومالك وابن عيينة وابن المبارك ومحمد بن الحسن والشافعي والحميدي وأبي عبيد وأحمد بن حنبل وأبي عيسى الترمذي وابن سريج وابن جرير الطبري وابن خزيمة وزكريا الساجي وأبي الحسن الأشعري أو يقول مثل قولهم من الإجماع -أي ذكروا أن العلماء أجمعوا على هذه العقيدة- مثل =

كيف لا ، والله قد زكى اعتقاد نبيه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين بقوله جل ثناؤه ﴿ **فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ** ﴾ [البقرة: ١٣٧ -١٣٨] .

فمذهب أهل الحق - كما قلنا آنفًا - إثبات الأسماء الحسنى والواردة بالكتاب العزيز وبالسنة المطهرة والإيمان بها ، وبما دلت عليه من المعاني والإيمان بما تعلقت بها من الآثار.

فمثلاً نؤمن بأن الله سبحانه « رحيم » ومعناه : أنه ذو رحمة ، ومن آثار هذا الاسم : أنه يرحم من يشاء .

مثال ثان : نؤمن بأن الله « قدير » ومعناه : أنه ذو قدرة ومن آثار هذا الاسم : أنه على كل شيء قدير ، وهكذا القول في جميع الأسماء.

* * *

= الخطابي وأبي بكر الاسماعيلي وأبي القاسم الطبراني وأبي أحمد العسال . . . إلخ» من كتاب « صفات رب العالمين » للذهبي - انظر مقدمة « العلو للعلي الغفار » (ص ٥٢).

مسألة

الاسم عين المسمى أو غيره

هذه المسألة من المسائل الحادثة التي لم يعرفها السلف الأوائل من الصحابة والتابعين ، ولم ينقل عنهم أنهم خاضوا فيها ، كما قال ابن جرير رحمه الله تعالى : ثم حدث في دهرنا هذا حماقات خاض فيها أهل الجهل والغباء ونوكي الأمة والرعاع يُتعب إحصاؤها ويُمل تعدادها، فيها القول في اسم الشيء ، أهو هو أم هو غيره.

وقال : وأما القول في الاسم أهو المسمى أم غير المسمى ، فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فَيُتبع ، ولا قول من إمام فيستمع ، فالخوض فيه شين والصمت عنه زين . اهـ [1].

ولكن لما كان الكلام في هذا الأمر مستمرًا من أهل البدع والضلالات ، اضطر أهل السنة للرد على هؤلاء ، وتفنيد أقوالهم الباطلة المخالفة لكتاب الله وسنة نبيه وبيان الحق في هذه المسألة .

وقبل أن ندخل في بيان هذه المسألة لنتعرف على المعنى اللغوي للفظة «اسم» .

قال الزّجّاج [2]: معنى قولنا اسمٌ هو مشتق من السُّمُوِّ وهو الرفعة،

---

(١) «صريح السنة» (ص ١٧ - ١٨) و(ص ٢٦) .

(٢) الزّجّاج: هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق النحوي صاحب كتاب « معاني القرآن» كان من أهل الفضل والدين حسن الاعتقاد جميل المذهب وله مصنفات حسان في الأدب وكان يخرط الزجاج وإليه نسبته ، لزم المبرد وتعلم منه النحو . توفي في جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة . انظر ترجمته «تاريخ بغداد» (٦/ ٨٩) ، «وفيات الأعيان» (١/ ٤٩) ، «معجم الأدباء» (١/ ١٣٠).

والأصل فيه : سِمْوٌ مثل قِنْوٍ وأقناء .

وقال الجوهري مثله .

قال ابن سِيدَه [1]: والاسم اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض لتفصل به بعضه من بعض كقولك مبتدئًا : اسم هذا كذا ، وإن شئت قلت : أُسم هذا كذا .

وقال أبو العباس[2] : الاسم رسمٌ وسِمَـةٌ توضـع على الشيء تعـرف به[3].

قال الأزهري[4] : ومن قال إن اسمًا مأخوذ من وسمت فهو غلط ، لأنّه لو كان اسمٌ من سِمَتِه لكان تصغيره وسيمًا مثل تصغير عدةٍ وصلة وما أشبههما .

قال ابن تيمية : وهو مشتق من «السمو» وهو العلو كما قال النحاة

(١) علي بن إسماعيل أبو الحسن المعروف بابن سيده إمام في اللغة وآدابها ولد بمرسية (شرق الأندلس) سنة (٣٩٨ هـ) وانتقل إلى دانية فتوفي بها سنة (٤٥٨هـ)، كان ضريرًا ونبغ في آداب اللغة ومفرداتها، فصنف «المخصص» سبعة عشر جزءًا وغيره . انظر «وفيات الأعيان» (٣/ ٣٣٠)، «بغية الملتمس» (٤٠٥) و«لسان الميزان» (٤/ ٢٠٥)، «الأعلام» (٤/ ٢٦٣).

(٢) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر: أبو العباس الأزدي ثم الثمالي المعروف بالمبرد، شيخ أهل النحو وحافظ علم العربية، كان من أهل البصرة فسكن بغداد، قال الخطيب البغدادي: كان عالمًا فاضلاً موثوقًا به في الرواية ، حسن المحاضرة، مليح الأخبار، كثير النوادر. توفي سنة خمس وثمانين ومائتين . «تاريخ بغداد» (٣/ ٣٨٠)، «وفيات الأعيان» (٤/ ٣١٣)، «لسان الميزان» (٥/ ٤٣٠)، «الأعلام» (٧/ ١٤٤).

(٣) «اللسان» (٣/ ٢١٠٩ - ٢١١٠).

(٤) هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الأزهري الهروي ولد بخراسان سنة (٢٨٢هـ) وتوفي بها سنة (٣٧٠هـ)، وكان فقيهًا شافعي المذهب غلبت عليه اللغة فاشتهر بها وكان متفقًا على فضله وثقه ودرايته وورعه، له كتاب «تهذيب اللغة». «ابن خلكان» (٤/ ٣٣٤)، «طبقات الشافعية» (٢/ ١٠٦)، «الأعلام» (٥/ ٣١١).

البصريون ، وقال النحاة الكوفيون هو مشتق من «السِمة» وهي العلامة، وهذا صحيح في « الاشتقاق الأوسط » وهو ما يتفق فيه حروف اللفظين دون ترتيبها ، فإنه في كليهما «السين والميم والواو» والمعنى صحيح ، فإن السمة والسيما : العلامة ، ومنه يقال : وسمته أسمه كقوله : ﴿ **سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ** ﴾ [القلم: ١٦] ، ومنه التوسم كقوله : ﴿ **لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾ [الحجر: ٧٥] .

لكن اشتقاقه من «السمو» هو الاشتقاق الخاص الذي يتفق فيه اللفظان في الحروف وترتيبها ومعناه أخص وأتم ، فإنهم يقولون في تصريفه : سميت ولا يقولون وسمت ، وفي جمعه أسماء لا أوسام ، وفي تصغيره سميّ لا وسيم . ويقال لصاحبه مسمى لا يقال موسوم ، وهذا المعنى أخص . فإن «العلو» مقارن «للظهور» كلما كان الشيء أعلى كان أظهر .

فالاسم يظهر به المسمى ويعلو ، فيقال للمُسَمِّي : سَمِّه أي أظهره، وأعله أي أعل ذكره بالاسم الذي يذكر به ، لكن تارة بما يحمد به ويذكر تارة بما يذم به ، كما قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا** ﴾ [مريم: ٥٠] وقال: ﴿ **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** ﴾ [الشرح: ٤] وقال ﴿ **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ** ﴾ [الصافات: ٧٨ -٧٩] .

وقال في النوع المذموم: ﴿ **وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ** ﴾ [القصص: ٤٢] وقال تعالى: ﴿ **نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [القصص: ٣]، فكلاهما ظهر ذكره ، لكن هذا إمام في الخير وهذا إمام في الشر .

وما ليس له اسم ، فإنه لا يذكر ولا يظهر ولا يعلو ذكره ، بل هو

كالشيء الخفي الذي لا يعرف ولهذا يقال : الاسم دليل على المسمى ، وعلم على المسمى ونحو ذلك .

ولهذا كان أهل الإسلام والسنة الذين يذكرون أسماء الله يعرفونه ويعبدونه ويحبونه ويذكرونه ويظهرون ذكره .

والملاحدة : الذين ينكرون أسماءه وتُعرض قلوبهم عن معرفته وعبادته، ومحبته وذكره، حتى ينسوا ذكره ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ** ﴾[التوبة: ٦٧].

﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [الحشر: ١٩] .

﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف ٢٠٥] .

والاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور في القلب ، قد يراد به مجرد اللفظ ، وقد يراد به مجرد المعنى فإنه من الكلام ، والكلام اسم للفظ والمعنى ، وقد يراد به أحدهما ، ولهذا كان من ذَكَر الله بقلبه أو لسانه فقد ذكره ، لكن ذكره بهما أتم.

والله تعالى قد أمر بتسبيح اسمه وأمر بالتسبيح باسمه كما أمر بدعائه بأسمائه الحسنى ، فيدعى بأسمائه الحسنى ، ويسبح اسمه ، وتسبيح اسمه هو تسبيح له ، إذ المقصود بالاسم المسمى ، كما أن دعاء الاسم هو دعاء المسمى . قال تعالى: ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ﴾ [الإسراء: ١١٠] [(١)].

❋ ❋ ❋

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٢٠٧ - ٢١٠) باختصار .

بيان المسألة

قال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رحمه الله تعالى : فصل في الاسم والمسمى ، هل هو هو أو غيره ؟ أو لا يقال هو هو ، ولا يقال هو غيره ؟ أو هو له ؟ أو يفصّل في ذلك ؟

فإن الناس قد تنازعوا في ذلك ، والنزاع اشتهر بعد الأئمة ، بعد أحمد وغيره ، والذي كان معروفًا عند « أئمة السنة » أحمد وغيره : الإنكار على الجهمية الذين يقولون أسماء الله مخلوقة ، ويقولون : الاسم غير المسمى ، وأسماء الله غيره ، وما كان غيره فهو مخلوق .

وهؤلاء هم الذين ذمهم السلف وغلّظوا فيهم القول ، لأن أسماء الله من كلامه ، وكلام الله غير مخلوق ، بل هو المتكلم به ، وهو المسمى لنفسه بما فيه من الأسماء .

والجهمية يقولون : كلامه مخلوق ، وأسماؤه مخلوقة ، وهو نفسه لم يتكلم بكلام يقوم بذاته ولا سمى نفسه باسم هو المتكلم به ، بل قد يقولون : إنه تكلم به وسمى نفسه بهذه الأسماء ، بمعنى أنه خلقها في غيره ، لا بمعنى أنه نفسه تكلم بها الكلام القائم به ، فالقول في أسمائه هو نوع من القول في كلامه ا هـ [1].

ويقول شارح « العقيدة الطحاوية » :

طالما غلط كثير من الناس في ذلك وجهلوا الصواب فيه، فالاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى.

فإذا قلت: قال الله كذا، أو سمع الله لمن حمده ونحو ذلك فهذا

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ١٨٥ - ١٨٦).

المراد به المسمّى نفسه.

وإذا قلت: الله اسم عربي والرحمن اسم عربي والرحيم من أسماء الله تعالى ونحو ذلك، فالاسم ها هنا المراد لا المسمّى، ولا يقال غيره، لما في لفظ الغير من الإجمال.

فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق. وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له، حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم، فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى اهـ[1].

وزيادة في الإيضاح نقول إن الاسم يأتي في مواضع من الكلام ويراد به التسمية:

بَوَّبَ لذلك البخاري في كتاب التوحيد: باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها. وخرّج بعده أحاديث منها: الذكر الذي يقال عند النوم «**باسمك ربي وضعت جنبي...**» وحديث أنس في التسمية عند الذبح، وحديث ابن عمر في النهي عن الحلف إلا بالله.

قال ابن بطال: مقصود بهذه الترجمة تصحيح القول بأن الاسم هو المسمى فلذلك صحت الاستعاذة بالاسم كما صحت بالذات اهـ[2].

وجاء في القرآن الكريم الأمر بتنزيه الاسم في قوله: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ [الأعلى: ١] وقوله: ﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ [الحاقة: ٥٢] وقوله: ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٧٨] فدلّ هذا على أنه أمر بتسبيح الله تعالى ودلّ العقل على أن المسبَّح هو الله تعالى

---

(١) «العقيدة الطحاوية» (ص ١٣١).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩).

لا غيره. لأن تسبيح الاسم وذكره هو تسبيح المسمى وذكره.

فإن المسبِّح والذاكر إنما يسبح اسمه ويذكر اسمه، فيقول: (سبحان ربي الأعلى) فهو نطق بلفظ (ربي الأعلى)، والمراد هو المسمى بهذا اللفظ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى.

ويأتي في موضع آخر ويراد به الاسم نفسه:

كحديث أنس أن النبي ﷺ اتخذ خاتمًا من فضة ونقش فيه «**محمدٌ رسول الله**»[1]، فالمراد هنا نقش الاسم والتسمية.

وقول النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا معَ عَبْدِي مَا ذَكَرني وتَحركَتْ بي شفتاه**»[2] فمعلوم أن المراد تحرك شفتاه بذكر اسم الله وهو القول، ليس المراد أن الشفتين تتحرك بنفسه تعالى[3].

وكذا حديث: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا**» المراد به التسمية.

وأهل السنة والجماعة الذين قالوا بأن الاسم هو المسمى، لا ينازعون

---

(١) رواه البخاري (٥٨٧٢).

(٢) رواه البخاري تعليقًا (١٣/٤٩٩) وفي «خلق أفعال العباد» (ص٨٧) موصولاً وأحمد (٢/٥٤٠) وابن حبان (٢٣١٦) كلهم عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر والأوزاعي عن إسماعيل بن عبد الله بن المهاجر عن كريمة ابنة الحسحاس المزنية قالت: سمعت أبا هريرة يقول في بيت أم الدرداء يقول قال رسول الله ﷺ فذكره. وإسناده صحيح.
ورواه أحمد (٢/٥٤٠) عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبيد الله عن أم الدرداء عن أبي هريرة به.
ورواه الحاكم (١/٤٩٦) عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبيد الله عن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنهما به وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
قال ابن حجر: «ورجح الحفاظ طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر وربيعة بن يزيد وحديث ربيعة عزاه للبيهقي في «الدلائل» ـ ويحتمل أن يكون عند إسماعيل عن كريمة ـ وعن أم الدرداء معًا».

(٣) مجموع الفتاوى (٦/١٩٨).

في أن الاسم غير المسمى من جهة أن الأسماء أقوال وأنها ليست هي المسميات فهذا لا ينازع فيه أحد من العقلاء.

لكنهم قالوا ذلك ـ أي أن الاسم هو المسمى ـ ردًا على الجهمية والمعتزلة الذين قالوا إن الاسم غير المسمى، ويقصدون أن أسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق، وأن الله كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء وهذا كله من الباطل المعلوم شرعًا وعقلاً.

وهناك قول آخر في هذه المسألة ينقل عن أهل السنة وهو أن «الاسم للمسمى» ذكره ابن جرير حيث قال: «وحسب امرء من العلم به، والقول فيه، أن ينتهي إلى قول الله عز وجل ثناؤه الصادق وهو قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]» اهـ[1].

قال شيخ الإسلام: وأما الذين يقولون أن «الاسم للمسمى» كما يقوله أكثر أهل السنة، فهؤلاء وافقوا الكتاب والسنة والمعقول، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] وقال: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]» اهـ[2].

شناعة قول الجهمية في هذه المسألة:

قال ابن أبي حاتم في كتاب «الرد على الجهمية»: ذكر نعيم بن حماد

---

(١) «صريح السنة» (ص ٢٧).

(٢) «مقالات الإسلاميين» (ص١٧٢) وانظر في هذه المسألة «مجموع الفتاوى» (٦/ ١٨٥ـ٢١٢)، «بدائع الفوائد» (١/ ١٦ ـ ٢٢)، «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (٢/ ٢٠٤ ـ ٢١٥)، «شرح الأسماء» للرازي (ص١٨ ـ ٢٦)، «الفصل» لابن حزم (٥/ ٢٧ ـ ٣٦).

أن الجهمية قالوا إن أسماء الله مخلوقة لأن الاسم غير المسمى وادَّعوا أن الله كان ولا وجود لهذه الأسماء ثم خلقها ثم تسمى بها.

قال: قلنا لهم إن الله قال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وقال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [يونس: ٣] فاخبر أنه المعبود ودل كلامه على اسمه بما دل به علي نفسه فمن زعم أن اسم الله مخلوق فقد زعم أن الله أمر نبيه أن يسبح مخلوقًا.

ونقل عن إسحاق بن راهويه عن الجهمية أن جهمًا قال: لو قلت إن لله تسعة وتسعين اسمًا لعبدت تسعة وتسعين إلهًا. قال: فقلنا لهم إن الله أمر عباده أن يدعوه بأسمائه فقال: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] والأسماء جمع أقله ثلاثة، ولا فرق في الزيادة على الواحد بين الثلاثة وبين التسعة والتسعين[1].

وقالت الجهمية لمن قال إن الله لم يزل بأسمائه وصفاته: قلتم بقول النصارى حيث جعلوا معه غيره.

فأجابوا -أي أهل السنة-: بأنا نقول إنه واحد بأسمائه وصفاته فلا نَصف إلا واحدًا بصفاته كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] وصفه بالوحدة مع أنه كان له لسان وعينان وأذنان وسمع وبصر، و لم يخرج بهذه الصفات عن كونه واحدًا ولله المثل الأعلى[2].

وقال الشافعي: من حلف باسمٍ من أسماء الله فَحَنَثَ فعليه الكفارة،

---

(١) «الفتح» (١٣/ ٣٧٨).

(٢) «الفتح» (١٣/ ٣٨١) وعزاه الحافظ من قول الإمام أحمد في كتاب «السنة» لابنه عبد الله ولم أجده فيه ولا في كتاب «الرد على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد.

لأن اسم الله غيرُ مخلوق، ومن حلف بالكعبة أو بالصفا والمروة فليس عليه الكفارة، لأنه مخلوق، وذاك غيرُ مخلوق[1].

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» (ص ١٩٣) قال: حدثني الربيع بن سليمان المرادي قال: سمعت الشافعي يقول فذكره.

وسنده صحيح، الربيع ثقة وكان من أصحاب الشافعي.

وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١١٣) والبيهقي مختصراً في «الأسماء» (ص ٢٢٥ ـ ٢٥٦) عن الربيع به.

ولله الاسماء الحسنى

وفيها مباحث:

أولاً : وصف الله أسماءه بالحسنى:

اعلم أن الله سبحانه وصف أسماءه بالحسنى في أربع آيات من القرآن العظيم وهي:

١- قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٢- قوله تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ [الإسراء: ١١٠].

٣- قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ [طه: ٨].

٤- قوله تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ [الحشر: ٢٤].

ثانيًا : قوله «الحسنى»:

الحسنى تأنيث الأحسن، كالكبرى والصغرى تأنيث الأكبر والأصغر.

وفي وصف الأسماء بالحسنى وجوه:

أ - أن أسماءه سبحانه دالةٌ على صفات كمال عظيمة وبذلك كانت حسنى.

ب - ما وعد عليها من الثواب بدخول الجنة لمن أحصاها.

جـ - أن حسنها شرف العلم بها، فإن شرف العلم بشرف المعلوم، والبارئ أشرف المعلومات، فالعلم بأسمائه أشرف العلوم.

د ـ ومن تمام كونها حسنى أنه لا يدعى إلا بها [1].

أخبر تعالى أنهم يبتدؤن دعاءهم بتعظيم الله وتنزيهه ويختمونه بشكره والثناء عليه وحمده.

فجعل تنزيهه دعاءً وتحميده دعاءً.

فالأول دعاء السؤال والثاني دعاء الثناء، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكذلك لا يُسأل إلا بها[2].

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الإلحاد في اللغة: هو الزيغ والميل والذهاب عن سنن الصواب، ومنه يمسى الملحد ملحدًا، لأنه مال عن طريق الحق، ومنه:

اللحد: وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملتحد وهو مفتعل من ذلك، وقوله تعالى: ﴿**وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً**﴾ [الكهف: ٢٧] أي: لن تجد من تعدل إليه أو تهرب وتميل إليه.

والإلحاد في أسماء الله تعالى وتقدس أنواع:

النوع الأول: أن تسمى الأصنام بها ، فسمّوا الأحجار والأشجار والأوثان التي كانوا يعبدونها «آلهة» وسمّوا اللاَّت من الإلهية والعزى من العزيز ومناة من المنان.

فهذا إلحاد لأنهم عدلوا ومالوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

---

(١) انظر : «أحكام القرآن» لابن العربي (٢/٨٠٣ ـ ٨٠٤) و«شرح الأسماء» للرازي (ص٤٧) و«تيسير الكريم الرحمن» لعبد الرحمن بن ناصر (٣/٥٩).

(٢) انظر: «لسان العرب» (٢/١٣٨٥) و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/٨١٥ ـ ٨١٦) و«تيسير الكريم الرحمن» (٢/٥٩) و«بدائع الفوائد» (١/١٦٤ ، ٣/٥).

النوع الثاني: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول اليهود - عليهم لعنة الله المتتابعة - إنه «فقير» وقولهم إنه استراح بعد أن خلق الخلق، وقولهم «يد الله مغلولة» وأمثال ذلك من الإلحاد في أسمائه وصفاته.

قال ابن تيمية: «وقد نزّه الله نفسه عمّا وصفوه به من الفقر والبخل والإعياء، فالإعياء من جنس العجز المنافي لكمال القدرة، والفقر من جنس الحاجة إلى الغير المنافي لكمال الغنى، والبخل من جنس منع الخير وكراهة العطاء المنافي لكمال الرحمة والإحسان، وكمال القدرة والرحمة» . اهـ [1].

النوع الثالث: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها وأنها مجرد أعلام فقط، لا تتضمن صفاتٍ ولا معاني ، وهو مذهب الجهمية وأتباعهم.

فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون: لا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به. وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلاً وشرعًا ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم، وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها فكلاهما ملحد في أسمائه[2].

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٧/ ٨٧).

(٢) وقد حكى الله عن المشركين أنهم جحدوا اسمه «الرحمن» في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] وبين أنهم يكفرون بهذا الاسم في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠] فما حال هؤلاء الذين جحدوا جميع صفاته وأسمائه، نعوذ بالله من الخذلان.

ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب.

وكل من جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك، فليستقل أو ليستكثر[1].

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله سبب ضلال الجهمية وأتباعهم فقال: «سبب هذا الضلال أن لفظ «التشبيه» و «التركيب» لفظ فيه إجمال، وهؤلاء أنفسهم ـ وجماهير العقلاء ـ يعلمون أنه ما من شيئين إلا وبينهما قدر مشترك، ونفي ذلك القدر المشترك، ليس هو نفي التمثيل والتشبيه الذي قام الدليل العقلي والسمعي على نفيه.

وإنما التشبيه الذي قام الدليل على نفيه، ما يستلزم ثبوت شيئ من خصائص المخلوقين لله سبحانه وتعالى، إذ هو سبحانه ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى: ١١] لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

ولهذا اتفق جميع طوائف المسلمين وغيرهم في الرد على هؤلاء الملاحده وبيان أنه ليس كل ما اتفق شيئان في شئ من الأشياء يجب أن يكون أحدهما مثْلاً للآخر.

ولا يجوز أن ينفي عن الخالق سبحانه كل ما يكون فيه موافقة لغيره في معنى ما، فإنه يلزمه عدم بالكلية، كما فعلـه هؤلاء الملاحدة، بل يلزم نفي وجوده ونفي عدمه وهو غاية التناقض والإلحـاد والكفر والجهل» اهـ[2].

فالجهمية هم نفاة الأسماء والصفات ويقولون : إنما يسمى بها

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٩ ـ ١٧٠).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٥/ ٣٢٧).

مجازًا، أو المقصود بها غيره، أو لا يعرف معناها.

وأصل تلبيسهم: هو أن إطلاق هذه الأسماء على الله فيه تشبيه له بخلقه ولذا فيجب نفي الأسماء عنه.

ونقل الشهرستاني عن الجهم بن صفوان قوله: «لا يجوز أن يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه، لأن ذلك - بزعمه - يوجب تشبيهًا» اهـ[1].

النوع الرابع: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علوًا كبيرًا.

فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة - الذين سبق ذكرهم - فإن أولئك نفوا صفات كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه.

فهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق حتى كأنهم عبدو صنمًا، والجهمية نفوا صفات الخالق وعطلوها حتى كأنهم عبدوا عدمًا.

تنبيه: اعلم أن الجهمية والمعتزلة ـ إلى يومنا هذا يسمون من أثبت شيئًا من الصفات مشبهًا كذبًا منهم وافتراء ـ حتى إن منهم من غلا ورمى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك، قال ثمامة بن الأشرس من رؤساء الجهمية: ثلاثة من الأنبياء مشبهة، موسى حيث قال: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ**﴾ [الأعراف: ١٥٥] وعيسى حيث قال: ﴿**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ**﴾ [المائدة: ١١٦] ومحمد ﷺ حيث قال: «**ينزل ربنا...**».

وجل المعتزلة تدخل عامة الأئمة مثل: مالك وأصحابه، والثوري وأصحابه، والأوزاعي وأصحابه، والشافعي وأصحابه، وأحمد وأصحابه،

---

(١) «الملل والنحل» (١/ ٧٩).

وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد وغيرهم في قسم المشبهة[1].

فهم يزعمون أن من قال إن الله فوق العرش فقد اعتقد أنه محدود ومحصور، والحدود لا تكون إلا للمخلوق فهذا القول تشبيه. وأن من قال إن لله علمًا وقدرة وكلامًا فقد جعل الله محلاً للأعراض وهي لا تقوم إلا بالجواهر فهو مشبه.

ومن قال إن لله سبحانه يدًا ووجهًا وقدمًا وعينين فقد شبه الله بخلقه، إلى آخر ما يرمون به الرسل وأتباع الرسل من الألقاب التي يفترونها.

تمامًا كما كانت قريش تُسمي النبي ﷺ تارة مجنونًا وتارة شاعرًا وتارة كاهنًا وتارة مفتريًا.

النوع الخامس: تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له (أبًا) وتسمية الفلاسفة له (موجبًا بذاته) أو (علة فاعلة بالطبع)، وقول الكرامية إنه (جسم) وقول بعضهم إنه (جوهر) ونحو ذلك[2].

بَراءَةُ أهل السُّنة مِن الإلحادِ في أسمائه:

وبرأ الله أتباع رسوله ﷺ وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظًا ولا معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريًا من التشبيه وتنزيههم خليًا من التعطيل[3].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ١١٠).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٩ ـ ١٧٠) و«لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (١/ ١٢٨) و«مختصر الصواعق المرسلة» (٢/ ١١٠ ـ ١١١).

(٣) «بدائع الفوائد» (١/ ١٧٠).

قال العلامة المحقق ابن القيم: «إن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء وهي أوصاف وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنى ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان وبالعكس، فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر إنك أنت المنتقم[1]، و: اللهم أعطني فإنك أنت الضار المانع ونحو ذلك.

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف، لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها، ويوصف بها، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها وأثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فعلم أن (القويّ) من أسمائه ومعناه الموصوف بالقوة، وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له، لم يسم قويًا وعزيزًا» اهـ[2].

وقال في النونية:

أسماؤُه أوصافُ مدحٍ كلُّها	مُشْتقةٌ قد حَمَلَتْ لمعانِ
إياكَ والإلحادَ فيها إنَّه	كُفْرٌ مَعَاذَ اللهِ من كُفْرانِ
وحَقيقةُ الإلحادِ فيها الميلُ	بالإشراكِ والتَّعطيلِ والكفرانِ

---

(١) قد عرفت سابقًا أن المنتقم ليس من أسماء الله إنما جاء في الكتاب مقيدًا كقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢] انظر: «مجموع الفتاوى» (٨/ ٩٦).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٨).

تنبيهات وفوائد جليلة:

التنبيه الأول: ما يوصف به الرب سبحانه أو يخبر به عنه أقسام:

أ - ما يرجع إلى نفس الذات كقولك ذات وموجود وشئ.

ب - ما يرجع إلى صفات معنوية كالعليم، والقدير، والسميع والبصير وتُسمى (صفات ذاتية).

جـ - ما يرجع إلى أفعاله كالخالق والرازق وتسمى (صفات فعلية).

د - ما يرجع إلى التنزيه المحض ولابد من تضمنه ثبوتًا إذ لا كمال في العدم المحض، كالقدوس والسلام.

هـ - ما دل على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة بل هو دال على معان نحو المجيد، العظيم، الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ولفظه يدل على هذا فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، ومنه: ﴿**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ**﴾ [البروج: ١٥]، لسعة العرش وعظمته، والعظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال وكذلك الصمد.

و - صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما، نحو الغني الحميد، العفو القدير، والحميدالمجيد، ونحو ذلك فإن الغنى من صفات الكمال والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر فله ثناءٌ من غناه وثناءٌ من حمده وثناء من اجتماعهما وكذلك نظائرهما[1].

التنبيه الثاني: يجب أن يعلم أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشئ والموجود والقائم

---

(١)انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ١٥٩ ـ ١٦١).

بنفسه والشارع، فإن هذا يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

قال ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل»: ثم أنت تسميه قديمًا وواجب الوجود وذاتًا ونحو ذلك مما لم يرد به الشرع، والشارع يفرّق بين ما يُدعى به من الأسماء، فلا يُدعى إلا بالأسماء الحسنى، وبين ما يُخبر بمضمونه عنه من الأسماء لإثبات معنى يستحقه نفاه عنه نافٍ لما يستحقه من الصفات، كما أنه من نازعك في قدمه أو وجوب وجوده قلت مخبرًا عنه بما يستحقه: إنه قديم وواجب الوجود[1].

وقال في موضع آخر: فالفرق بين مقام المخاطبة ومقام الإخبار، فرق ثابت في الشرع والعقل، وبه يظهر الفرق بين ما يُدعى الله به من الأسماء الحسنى، وبين ما يخبر به عنه عزّ وجلّ مما هو حق ثابت، لإثبات ما يستحقه سبحانه من صفات الكمال، ونفي ما تنزه عنه عزّ وجلّ من العيوب والنقائص، فإنه الملك القدوس السلام، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وقال تعالى: **﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾** [الأعراف: ١٨٠]، مع قوله: **﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾** [الأنعام: ١٩] ولا يقال في الدعاء: يا شيء» اهـ[2].

التنبيه الثالث: إن أسماء الله توقيفية:

وهذا هو مذهب الجمهور من أهل السنة والجماعة، أن أسماء الله توقيفية لا يجوز تسميته بما لم يرد به السمع.

---

(١) (٤/ ١٤٠)، ولفظة قديم لم ترد في دليل فالاستعاضة عنها بما ورد وهو (الأول) أصح.

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٢٩٨).

وذلك أن أسماء الله تعالى وصفاته من الأمور الغيبية التي لا يمكن لنا أن نعرفها إلا عن طريق الرسل الذين يطلعهم الله على ما يشاء من الغيب ثم هم يبلغونه للناس، ولا يجوز القياس فيها أو الاجتهاد لأن هذا الباب ليس من أبواب الاجتهاد.

فالمنهج الصحيح لمعرفة توحيد الله عزّ وجلّ وأسمائه وصفاته هو الاعتماد على (الوحي) الذي أوحاه الله سبحانه وتعالى إلى الرسول ﷺ، وأمره باتباعه قال تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ [محمد: ١٩].

وقال: ﴿ **اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وقال: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء: ٢٥][(١)].

وأمرنا نحن باتباع رسوله ﷺ وما جاء به من الوحي الشريف:

قال تعالى: ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ** ﴾ [الأعراف: ٣].

وقال سبحانه: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وغيرها من الآيات الكثيرة.

ولو كان العقل قادراً على معرفة أسماء الله وصفاته، وما يجوز أن يوصف به مما لا يجوز، لما احتاج الناس إلى الوحي، ولأصبح إرسال الرسل إلى الناس من العبث، تعالى الله وتقدس عما يقول الظالمون

---

(١) في هذه الآية إخبار من الله تعالى لنبيه ﷺ أن بالسمع والوحي عرف الأنبياء الذين من قبله التوحيد وصفات ربهم لا بالعقل أو الفكر.

علوا كبيراً.

وتسمية الله سبحانه بما لم يرد به الدليل يدخل في الإلحاد في أسمائه الحسنى[1] وقد يقع صاحبه في التشبيه لأن المشبهة وصفوا الله بما لم يأذن به.

قال أبو إسحاق الزجاج: «لا يجوز لأحد أن يدعو الله بما لم يصف به نفسه»[2].

قال أبو سليمان الخطابي: «ومن علم هذا الباب، أعني: الأسماء والصفات، ومما يدخل في أحكامه ويتعلق به من شرائط، أنه لا يتجاوز فيها التوقيف، ولا يستعمل فيها القياس، فيلحق بالشيء نظيره في ظاهر وضع اللغة ومتعارض الكلام.

فالجواد لا يجوز أن يقاس عليه السخي وإن كانا متقاربين في ظاهر الكلام وذلك أن السخي لم يرد به التوقيف كما ورد بالجواد ، و«القوي» لا يقاس عليه الجلْدُ، وإن كانا يتقاربان في نعوت الآدميين، لأن باب التجلد يدخله التكلف والاجتهاد، ولا يقاس على « القادر» المطيق ولا المستطيع، وفي أسمائه العليم ومن صفته العلم، فلا يجوز قياسًا عليه أن يسمى عارفًا لما تقتضيه المعرفة من تقديم الأسباب التي بها يتوصل إلى علم الشيء ، وكذلك لا يوصف بالعاقل.

وهذا الباب يجب أن يراعى ولا يُغفل ، فإن عائدته عظيمة والجهل به ضار وبالله التوفيق » اهـ [3].

---

(١) انظر الكلام على الإلحاد وأنواعه (ص٣٦) وما بعدها .

(٢) «الفتح» (١١/ ٢٢٣).

وقال السفاريني في نظمه للعقيدة:

لكنَّها في الحقِّ تَوقيفيَّة لَنا بذا أدلة وَفيَّة

ثم شرح البيت فقال: «لكنها ـ أي الأسماء الحسنى ـ في القول الحق المعتمد عند أهل الحق توقيفية بنص الشرع وورود السمع بها، ومما يجب أن يعلم أن علماء السنة اتفقوا على جواز إطلاق الأسماء الحسنى والصفات العلى على الباري جلّ وعلا إذا ورد الإذن من الشارع، وعلى امتناعه على ما ورد المنع عنه» اهـ[1].

وقال الفخر الرازي: «مذهب أصحابنا أنها توقيفية[2]. واختاره الغزالي واحتج بأنه اتفق على أنه لا يجوز لنا أن نسمي الرسول باسم ما سماه الله به، ولا باسم ما سمى هو نفسه به، فإذا لم يجز ذلك في حق الرسول، بل في حق أحد من آحاد الناس. فهو في حق الله تعالى أولى»[3].

وأما المعتزلة والكرامية فقالوا: «إن اللفظ إذا دلّ العقل على أن المعنى ثابت في حق الله سبحانه جاز إطلاق ذلك اللفظ على الله تعالى سواء ورد التوقيف به أو لم يرد»[4].

التنبيه الرابع: لا يجوز أن يشتق له أسماء من الأفعال التي وردت في الكتاب والسنة مقيدة، كما غلط فيه بعض المتأخرين، فجعل المضل، الفاتن، الماكر، المستهزيء من أسمائه الحسنى، فإن هذه الأسماء لم يأت السمع بإثباتها وإنما وردت كأفعال مخصوصة ومعينة فلا يجوز

(١) «لوامع الأنوار البهية» (١/ ١٢٤).

(٢) «شرح أسماء الله» (ص ٣٦)، لكنه اختار أن الصفات غير توقيفية وهو مخالف للحق.

(٣) «المقصد الأسنى» (ص١٠٩).

(٤) «شرح أسماء الله» (ص٣٦) وقال الرازي بعده: وهو قول القاضي أبي بكر الباقلاني.

اشتقاق أسماء منها على وجه الإطلاق[1].

التنبيه الخامس: يجوز أن يشتق من الأسماء الحسنى الفعل والمصدر، فيخبر عنه به فعلاً ومصدراً، نحو السميع البصير القدير، يطلق عليه منه، السمع والبصر والقدرة ويخبر عنه بالأفعال من ذلك، نحو: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ**﴾ [المجادلة: ١]، ﴿**فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ**﴾ [المرسلات: ٢٣]، ﴿**أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ**﴾ [الكهف: ٢٦]، هذا إن كان الفعل متعدياً.

فإن كان لازماً لم يخبر عنه به نحو «الحي»، بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل فلا يقال حَيِيَ[2].

التنبيه السادس: قال ابن القيم: «إن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالرب تبارك وتعالى فعاله عن كماله.

والمخلوق كماله عن فعاله فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل.

فالرب لم يزل كاملا فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به» اهـ[2].

التنبيه السابع: إن الاسم من أسمائه الحسنى له دلالات ثلاثة:

١- دلالة مطابقة: إذا فسرنا الاسم بجميع مدلوله.

٢- دلالة تضمن: إذا فسرناه ببعض مدلوله.

٣- دلالة التزام: إذا استدللنا به على غيره من الأسماء التي يتوقف

---

(١) انظر: «لوامع الأنوار» (١/ ١٢٥ ـ ١٢٦)، و«بدائع الفوائد» (١/ ١٦٣)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤١٥).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٢).

عليها هذا الاسم.

ومثال ذلك (الرحمن) دلالة على الرحمة والذات دلالة مطابقة، وعلى أحدهما دلالة تضمن لأنها داخلة في الضمن، ودلالة على الأسماء التي لا توجد الرحمة إلا بثبوتها كالحياة والعلم والقدرة ونحوها دلالة التزام[1].

التنبيه الثامن: إن أسماء الله سبحانه وتعالى كلها من قبيل المحكم، وليست من المتشابه كما يقول بعض المفوضة المبتدعة، لأن معانيها معروفة في لغة العرب غير مجهولة، وإنما المجهول هو الكنه والكيفية فقط، كما مر عليك آنفًا في أقوال أئمة السلف.

* * *

---

(١) المصدر السابق وانظر: «الأجوبة والأسئلة الأصولية على العقيدة الواسطية» (ص٤٦) للشيخ عبد العزيز السلمان.

حديث: « لله تسعة وتسعون اسمًا»

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لله تسعة وتسعُونَ اسمًا مائة إلا واحدة لا يحفظها أَحَدٌ إلا دَخَلَ الجنة، وهو وِترٌ يحبُّ الوِتر».

وفي رواية: «مَنْ أحصَاهَا دَخَلَ الجنَّة»[1].

وفيه مباحث:

أولاً: «لله تسعة وتسعون اسمًا مائة إلا واحدة»[2] هل المراد به حصر الأسماء الحسنى في هذا العدد أو أنها أكثر من ذلك، ولكن اختصت هذه بأن من أحصاها دخل الجنة ؟

فذهب جمهور العلماء إلى الثاني، ونقل النووي اتفاق العلماء عليه، وقال: ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى وليس معناه أنه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث: أن هذه الأسماء من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها، لا الإخبار بحصر الأسماء.

وقال أبو سليمان حمد الخطابي: «إنما هو بمنزلة قولك إن لزيد ألف درهم أعدّها للصدقة، وكقولك: : إن لعمرٍو مائة ثوبٍ من زاره خلعها عليه، وهذا لا يدل على أنه ليس عنده من الدراهم أكثر من ألف درهم، ولا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦، ٦٤١٠، ٧٣٩٢) ومسلم (٢٦٧٧/ ٥، ٦).

(٢) فائدة: التكرار في قوله تسعة وتسعون مائة إلا واحدة هو التأكيد كقوله: ﴿ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] وقوله: ﴿لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].

من الثياب أكثر من مائة ثوب، وإنما دلالته أن الذي أعده زيد من الدراهم للصدقة ألف درهم، وأن الذي أرصده عمرٌو من الثياب للخلع مائةُ ثوب».

والذي يدلّ على صحة هذا التأويل حديث عبد الله بن مسعود وقد ذكره محمد بن إسحاق بن خزيمة في المأثور:

«أن النبي ﷺ كان يدعو : **«اللهم إني عبدُك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حُكمك، عدلُ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسمٍ هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك، أو أستأثرت به في علم الغيب عندك...إلخ»**[1] فهذا يدلك على أن لله أسماءً لم يُنزلها

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) وابن حبان (٢٣٧٢ ـ موارد) والحاكم (١/ ٥٠٩) والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٢) كلهم عن فضيل بن مرزوق ثنا أبو سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال عبد الله بن مسعود فذكره. وقال الحاكم: حديث صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه من أبيه.

فتعقبه الذهبي بقوله: قلت: أبو سلمة لا يدري من هو ولا رواية له في الكتب الستة.

قال الحافظ في «تعجيل المنفعة» (ص ٤٩٠ ـ ٤٩١): أبو سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن روى عنه فضيل بن مرزوق. مجهول قاله الحسيني وقال مرة لا يدري من هو، وهو كلام الذهبي في «الميزان»، وقد ذكره ابن حبان في «الثقات» وأخرج حديثه في صحيحه، وقرأت بخط الحافظ بن عبد الهادي: يحتمل أن يكون خالد بن سلمة، قلت: وهو بعيد لأن خالداً مخزومي وهذا جهني وقد ذكره في «الفتح» (١١/ ٢٢٠) وسكت عليه.

ونقل العلامة الألباني عن الشيخ أحمد شاكر رحمه الله قوله في تعليقه على المسند (٥/ ٢٦٧): «وأقرب منه عندي أن يكون هو: موسى بن عبد الله أو ابن عبد الله الجهني ويكنى أبا سلمة فإنه من هذه الطبقة» اهـ. واختاره الألباني وجزم به بدليل إخراج ابن حبان والطبراني رواية من طريق موسى الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه انظر: «الصحيحة» (١٩٩).

وأما سماع عبد الرحمن من أبيه فقد أثبته كثير من العلماء كابن معين والبخاري فقد =

في كتابــه، حجبهــا عن خلقه، ولم يظهرها لهم اهـ[1].

وقال شيخ الإسلام ـ كما في «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٨١) ـ بعد نقله كلام الخطابي: «وأيضًا فقوله: «**إن لله تسعة وتسعين**» تقيده بهذا العدد، بمنزلة قوله تعالى: ﴿**تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾ [المدثر: ٣٠] فلما استقلوهم قال: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**﴾ [المدثر: ٣١]. فأن لا يعلم أسماءه إلا هو أولى اهـ.

وقال في «درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٣٣٢ ـ٣٣٣): والصواب الذي عليه الجمهور أن قول النبي ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**» معناه: أن من أحصى التسعة والتسعين من أسمائه دخل الجنة، ليس مراده أنه ليس له إلا تسعة وتسعون اسمًا، ثم ذكر حديث عبد الله بن مسعود السابق.

وقال : وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[2].

فأخبر أنه ﷺ لا يحصي ثناءً عليه، ولو أحصى جميع أسمائه لأحصى صفاته كلها فكان يحصي الثناء عليه لأن صفاته إنما يعبر عنها بأسمائه.

وخالف ابن حزم ههنا، فذهب إلى الحصر في العدد المذكور ورد عليه الحافظ ابن حجر في «الفتح» فقال: وابن حزم ممن ذهب إلى

= روى في «التاريخ الصغير» ما يدل على سماعه وأبو حاتم وسفيان الثوري وشريك. وأثبت سماعه المزي في «التحفة» (٧/ ٧٤).

(١) «شأن الدعاء» (ص٢٤) واختاره الحافظ في «الفتح» (١١/ ٢٢٠) ونقله عن القرطبي صاحب «المفهم»، ونقله ابن بطال عن القاضي أبي بكر الطيب، وكذا البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص١٧ ـ ١٨).

(٢) رواه مسلم (٤٨٦) عن عائشة.

الحصر في العدد المذكور، وهو لا يقول بالمفهوم أصلاً، ولكنه احتج بالتأكيد في قوله ﷺ: «**مائة إلا واحدًا**» قال: لأنه لو جاز أن يكون له اسم زائد على العدد المذكور، لزم أن يكون له مائة، فيبطل قوله: «**مائة إلا واحدًا**».

قال الحافظ: «وهذا الذي قاله ليس بحجة على ما تقدم، لأن الحصر المذكور عندهم باعتبار الوعد الحاصل لمن أحصاها، فمن ادعى أن الوعد وقع لمن أحصى زائدًا على ذلك أخطأ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكون هناك اسم زائد» اهـ[1].

وقد تكلم العلماء ـ ومنهم الرازي في «شرح الأسماء»[2] ـ عن سر هذا العدد المخصوص بكلام كثير، والذي نراه أن تفويض علمه لله أقرب إلى الصواب، لأن الله لم يطلعنا على حكمة ذلك، فهو كأعداد الصلوات، والله تعالى أعلم.

ثانيًا: معنى قوله: «**من أحصاها**» وهو يحتمل وجوها:

أ - أن يعدها حتى يستوفيها حفظًا ويدعو ربه بها، ويثني عليه بجميعها، كقوله تعالى: ﴿**وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا**﴾ [الجن: ٢٨].

واستدل له الخطابي بقوله ﷺ ـ كما في الرواية الأخرى ـ «**من حفظها دخل الجنة**»[3].

وقال النووي: قال البخاري وغيره من المحققين: معناه حفظها، وهذا هو الأظهر لثبوته نصًا في الخبر.

---

(١) «الفتح» (١١/٢٢١).

(٢) (ص٧٣ ـ ٨٢).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٢٦).

وقال في «الأذكار»: وهو قول الأكثرين[1].

وقال ابن الجوزي: لَمَّا ثَبَتَ في بعض طرق الحديث «من حفظها» بدل «من أحصاها»، اخترنا أن المراد «العدّ» أي: من عدها ليستوفيها حفظـًا.

وردّ هذا القول الحافظ فقال: وفيه نظر، لأنه لا يلزم من مجيئه بلفظ «حفظها» تعيين السرد عن ظهر قلب بل يحتمل الحفظ المعنوي.

وقال الأصيلي: ليس المراد بالإحصاء عدّها فقط لأنه قد يعدها الفاجر، وإنما المراد العلم بها.

وكذا قال أبو نعيم الأصبهاني وابن عطية[2].

ب - أن يكون المراد بالإحصاء «الإطاقة»، كقوله تعالى: ﴿**عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ**﴾ [المزمل: ٢٠] أي لن تطيقوه، وكقول النبي ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا..**»[3]. أي: لن تبلغوا كل الاستقامة.

---

(١) «الأذكار» (ص ٩٤).

(٢) «الفتح» (١١/٢٢٦).

(٣) حديث صحيح لطرقه:

الأولى: أخرجها الإمام أحمد (٥/٢٧٦ ـ ٢٧٧، ٢٨٢) وابن ماجه (٢٧٧) والدارمي (١/١٦٨) والحاكم (١/ ١٣٠) والطبراني في «الصغير» (١/١١) كلهم من طريق سالم ابن أبي الجعد عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ: «**اسْتَقِيموا ولن تُحصوا واعلموا أن خَيرَ أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوُضوءِ إلا مُؤمن**» وفيه انقطاع فإن سالمًا لم يسمع من ثوبان، قاله أحمد وغيره، لكنه قد توبع كما في الطريق الثانية والثالثة.

الثانية: وهي لأحمد أيضًا (٥/ ٢٨٠) من طريق حريز بن عثمان عن عبد الرحمن بن ميسرة عن ثوبان وهي بلفظ: «**استقيموا تفلحوا..**» وابن ميسرة هو الحضرمي أبو سلمة الحمصي. قال الحافظ في «التقريب»: مقبول، أي حيث يتابع.

الثالثة: لأحمد أيضًا (٥/٢٨٢) والدارمي (١/١٦٨) من طريق الوليد بن مسلم ثنا ابن =

فيكون المعنى: أن يطيق الأسماء الحسنى ويُحسن المراعاة لها، وأن يعمل بمقتضاها، وأن يعتبرها فيلزم نفسه بواجبها.

فإذا قال: يا رحمن يا رحيم، تذكر صفة الرحمة، واعتقد أنها من صفات الله سبحانه، فيرجو رحمته ولا ييأس من مغفرته.

وإذا قال: «السميع البصير» علمَ أنه يراه ويسمعه وأنه لا تخفى عليه خافية، فيخافه في سره وعلنه ويراقبه في كافة أحواله.

وإذا قال: « الرزاق» اعتقد أنه المتكفل برزقه يسوقه إليه في وقته فيثق بوعده ويعلم أنه لا رازق له سواه. . . إلخ[1].

وقال أبو عمر الطلمنكي: «من تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته التي يستحق بها الداعي والحافظ ما قال رسول الله ﷺ، المعرفة بالأسماء والصفات وما تتضمن من الفوائد وتدل عليه من الحقائق، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالمًا لمعاني الأسماء، ولا مستفيدًا بذكرها ما تدل عليه من المعاني» اهـ[2].

= ثوبان حدثني حسان بن عطية أن أبا كبشة السلولي حدثه أنه سمع ثوبان يقول فذكره.

وإسناده حسن رجاله ثقات، سوى ابن ثوبان وهو عبد الرحمن بن ثابت، صدوق يخطيء (وقد وقع عند الدارمي أبو ثوبان وهو خطأ).

الرابعة: لابن ماجة (٢٧٨) عن ليث عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو به وفيه ليث وهو ابن أبي سليم ضعيف.

الخامسة: لابن ماجه أيضًا (٢٧٩) عن إسحاق بن أسيد عن أبي حفص الدمشقي عن أبي أمامة بلفظ: «**استقيموا ونعمًا أن استقمتم...**» وفيه أبو حفص مجهول.

(١) انظر: «شأن الدعاء» (ص ٢٧ ـ ٢٨)، «الفتح» (١١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

(٢) «الفتح» (١١/٢٢٦) وأبو عمر. وقيل: أبو جعفر هو أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري المقري وكان من المجودين في القراءة وله تصانيف في القراءة، روى الحديث وعمّر حتى جاور التسعين وروى عنه محمد بن عبد الله الخولاني. «معجم البلدان» (٤/ ٣٩) =

جـ - أن يكون الإحصاء بمعنى العقل والمعرفة فيكون معناه أن من عرفها، وعقل معانيها، وآمن بها دخل الجنة، وهو مأخوذ من الحصاة وهي العقل، والعرب تقول: فلانٌ ذو حصاة، أي : ذو عقل، ومعرفة بالأمور[1].

قال القرطبي: المرجو من كرم الله تعالى أن من حصل له إحصاء هذه الأسماء على إحدى هذه المراتب مع صحة النية أن يدخله الله الجنة.

وهذه المراتب الثلاثة للسابقين والصديقين وأصحاب اليمين» اهـ[2].

د - أن يكون معنى الحديث أن يقرأ القرآن حتى يختمه فيستوفي هذه الأسماء كلَّها في أضعاف التلاوة، فكأنه قال: من حفظ القرآن وقرأه فقد استحق دخول الجنة[3].

قلت: لكن قد يفوته بعض الأسماء الواردة بالأحاديث النبوية الزائدة على القرآن.

ثالثًا : طعن أبو زيد البلخي[4] في صحة الخبر بأن دخول الجنة ثبت في القرآن مشروطًا ببذل النفس والمال فكيف يحصل بمجرد حفظ ألفاظ

= و«الأعلام» (١/ ٢١٢).

(١) «شأن الدعاء» (ص ٢٨ ـ ٢٩)، الفتح (١١/ ٢٢٥).

(٢) «الفتح» (١١/ ٢٢٥).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٢٩) وانظر فيما سبق أيضًا «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٢٢ ـ ٢٤) والرازي في «شرح الأسماء» (ص ٨١ ـ ٨٢).

(٤) أبو زيد البلخي: هو أحمد بن سهل صاحب التصانيف المشهورة. قال ابن النديم في «الفهرست» (ص ١٩٨): كان فاضلاً في علوم كثيرة وكان يسلك طريق الفلاسفة ويقال له جاحظ زمانه وكان يرمى بالإلحاد، وقال الحافظ في «اللسان» (١/ ١٨٤): ويظهر في غضون كلامه ما يدل على انحلال من الازدراء بأهل العلوم الشرعية وغير ذلك، مات سنة اثنتين وعشرين وثلاث مائة.

تعدّ في أيسر مدة؟

قال الحافظ:

«وتعقب بأن الشرط المذكور ليس مطّردًا ولا حصر فيه، بل قد تحصل الجنة بغير ذلك، كما ورد في كثير من الأعمال غير الجهاد إن فاعله يدخل الجنة، وأما دعوى أن حفظها يحصل في أيسر مدة فإنما يرد على من حمل «الحفظ والإحصاء» على معنى أن يسردها عن ظهر قلب، فأما من أوّله على بعض الوجوه المتقدمة فإنه يكون في غاية المشقة، ويمكن الجواب عن الأول بأن الفضل واسع» اهـ[1].

وقد ذكر الرازي أن من أخذ هذا الحديث دون الزيادة التي فيها تفصيل الأسماء كان المراد بقوله: «**من أحصاها**» أي من طلبها في القرآن وفي جملة الأحاديث الصحيحة حتى يلتقط منها تلك الأسماء التسعة والتسعين . ومعلوم أن ذلك مما لا يمكن تحصيله إلا بعد تحصيل علم الأصول والفروع حتى يقدر على التقاط هذه الأسماء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومعلوم أن من حصل هذه العلوم، واجتهد حتى بلغ درجة يمكنه معها التقاط هذه الأسماء من الكتاب والسنة فقد بلغ الغاية القصوى في العبودية»[2] اهـ باختصار.

رابعًا: قوله: «وهو وتر يحب الوتر».

الوتْر: هو الفرد، ومعناه في صفة الله جلّ وعلا الواحد الذي لا شريك له ولا نظير له، المتفرد عن خلقه البائن منهم بذاته وصفاته فهو سبحانه وتر.

وجميع خلقه شفع خلقوا أزواجًا. قال سبحانه: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ**

(١) «الفتح» (١١/ ٢٢٧).

(٢) «شرح الأسماء» للرازي (ص ٨٢).

﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فالمراد أن الله يحب الوتر من كل شئ وإن تعدد ما فيه الوتر، ولذلك أمر بالوتر في كثير من الأعمال والطاعات كما في الصلوات الخمس ووتر الليل وأعداد الطهارة وتكفين الميت، وفي كثير من المخلوقات كالسماوات والأرض[1].

ضعف الطرق التي فيها سرد الأسماء:

وقد وقفت على ثلاثة طرق:

الأولى: ما أخرجه الترمذي (٣٥٧٤) وابن حبان (٢٣٨٤) والحاكم (١/ ١٦) والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٢٧) وفي «الأسماء والصفات» (ص ١٥ ـ ١٦) وفي «الاعتقاد» (ص ٥٠) والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ٣٢، ٣٣) كلهم من طريق الوليد بن مسلم أخبرنا شعيب بن أبي حمزة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: **«إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة غير واحدة من أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس...»**.

قال الترمذي عقب الحديث: «هذا حديث غريب حدثنا به غيرُ واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولا نعلم في كبير شئ من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث، وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح» اهـ.

ولم ينفرد به صفوان بن صالح كما قال الترمذي فقد أخرجه البيهقي

---

(١) انظر: «الفتح» (١١/ ٢٢٧).

في «الأسماء» (ص ١٥) من طريق موس بن أيوب النصيبي وهو ثقة عن الوليد بن مسلم.

وهذه الطريق هي أحسن الطرق على ضعف فيها كما سيأتي بيانه.

الثانية: ما أخرجه ابن ماجه (٣٨٦١) من طريق عبد الملك بن محمد الصنعاني ثنا زهير بن محمد التميمي ثنا موسى بن عقبة حدثني عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة به مع اختلاف في سرد الأسماء ونقص وتقديم وتأخير.

قال البوصيري في «الزوائد»: «لم يخرج أحد من الأئمة الستة عدد أسماء الله الحسنى من هذا الوجه ولا من غيره غير ابن ماجه والترمذي مع تقديم وتأخير وطريق الترمذي أصح شئ في الباب».

قال: «وإسناد طريق بن ماجه ضعيف لضعف عبد الملك بن محمد» اهـ.

قلت: عبد الملك بن محمد هو الحميري البرسمي قال فيه الحافظ: لين الحديث.

الثالثة: أخرجها الحاكم (١٧/١) والبيهقي في الأسماء (ص ١٨ ـ ١٩) وفي «الاعتقاد» (ص ٥١) من طريق خالد بن مخلد القطواني ثنا عبد العزيز بن حصين بن الترجمان ثنا أيوب السختياني وهشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ به.

قال الحاكم: عبد العزيز بن الحصين بن الترجمان ثقة وإن لم يخرجاه.

فتعقبه الذهبي بقوله: بل ضعفوه.

وقد ذكر من ضعفه في «الميزان» (٦٢٧/٢): قال البخاري: ليس

بالقوي عندهم، وقال ابن معين: ضعيف، وقال مسلم: ذاهب الحديث، وقال ابن عدي: الضعف على رواياته بيّن.

وقال البيهقي في «الأسماء» (ص ١٩) : «ويحتمل أن يكون التفسير وقع من بعض الرواة وكذلك في حديث الوليد بن مسلم ولهذا الاحتمال ترك البخاري ومسلم إخراج حديث الوليد في الصحيح» اهـ.

ونقل الحافظ في «التلخيص» (٤/ ١٧٣) عن ابن العربي قوله : «لا نعلم هل تفسير هذا الأسامي في الحديث أو من قول الراوي».

وقال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٣٧٩): «فالحديث الذي فيه ذكر ذلك ـ أي الأسماء الحسنى ـ هو حديث الترمذي روى الأسماء الحسنى في جامعه من حديث الوليد بن مسلم عن شعيب عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة . ورواها ابن ماجه في سننه[1] من طريق مخلد بن زياد القطواني عن هشام بن حسان بن محمد بن سيرين عن أبي هريرة، وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين ليستا من كلام النبي ﷺ وإنما كل منهما من كلام بعض السلف، فالوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين كما جاء مفسرًا في بعض طرق حديثه». وانظر : «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٩٦ ـ ٩٧) و (٢٢/ ٤٨٢).

وقال ابن كثير في «التفسير» (٢/ ٢٦٩): «والذي عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما

(١) تنبيه: قول ابن تيميه رحمه الله رواها ابن ماجه من طريق مخلد بن زياد عن هشام... إلخ وهم إنما رواها من طريق زهير بن محمد ثنا موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبي هريرة به، والطريق المذكورة للترمذي .

رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك.

أي أنهم جمعوها من القرآن، كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان ابن عيينة[1] وأبو زيد اللغوي والله أعلم» اهـ.

وقال الحافظ في «الفتح» (١١/ ٢١٥): «واختلف العلماء في سرد الأسماء هل هو مرفوع أو مدرج في الخبر عن بعض الرواة، فمشى كثير منهم على الأول، واستدلوا به على جواز تسمية الله تعالى بما لم يرد في القرآن بصيغة الاسم لأن كثيرًا من هذه الأسماء كذلك، وذهب آخرون إلى أن التعيين مدرج لخلو أكثر الروايات عنه ونقله عبد العزيز النخشبي عن كثير من العلماء».

ثم نقل عن الحاكم قوله إن العلة فيه مجرد تفرد الوليد بن مسلم وأنه أوثق ممن رواه بدون ذكر الأسماء.

وردّ عليه الحافظ بقوله: «وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط بل الاختلاف فيه والاضطراب وتدليسه واحتمال الإدراج» اهـ.

وقد نقل الحافظ ما يدل علي الإدراج، وهو ما أخرجه عثمان

---

(١) يشير إلى ما أخرجه أبو نعيم عن الطبراني عن أحمد بن عمر والخلال عن ابن أبي عمرو حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين سألت أبا جعفر بن محمد الصادق عن الأسماء الحسنى فقال: هي في القرآن، ذكره الحافظ في «الفتح» (١١/ ٢١٧).

وكذا رواية سفيان بن عيينة قال: وروينا في « فوائد تمام» من طريق أبي الطاهر بن السرح عن حبان بن نافع عن سفيان بن عيينة الحديث، يعني حديث «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا**» قال: فوعدنا سفيان أن يخرجها لنا من القرآن فأبطأ، فأتينا أبا زيد فأخرجها لنا فعرضناها على سفيان فنظر فيها أربع مرات وقال: نعم هي هذه، ثم ساق الحافظ ما ذكره جعفر وأبو زيد من الأسماء وقال في نهايتها: وفيها اختلاف شديد وتكرار وعدة أسماء لم ترد بلفظ الاسم اهـ.

الدارمي في «النقض على المريسي»[1] عن هشام بن عمار عن الوليد فقال عن خليد بن دعلج عن قتادة عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة فذكره بدون التعيين، قال الوليد وحدثنا سعيد بن عبد العزيز مثل ذلك وقال: كلها في القرآن «هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم» وسرد الأسماء.

وأخرجه أبو الشيخ بن حيان من رواية أبي عامر القرشي عن الوليد ابن مسلم بسند آخر فقال: «حدثنا زهير بن محمد عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبي هريرة، قال زهير: فبلغنا أن غير واحد من أهل العلم قال: إن أولها أن تفتتح بلا إله إلا الله وسرد الأسماء» اهـ.

وهذه الرواية هي رواية ابن ماجه السابقة ولكن وقع فيها سرد الأسماء أولاً ثم بعد أن انتهى سردها، قال زهير: فبلغنا من غير واحد من أهل العلم، أن أولها يفتح بقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شئ قدير، لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى.

قال الحافظ: «والوليد بن مسلم أوثق من عبد الملك الصنعاني، ورواية الوليد تشعر بأن التعيين مدرج» اهـ.

قلت: بل عبد الملك لين الحديث كما نقلنا آنفًا من قول الحافظ نفسه!

وقال في «بلوغ المرام» (ص٢٥٤): «والتحقيق أن سردها إدراج من بعض الرواة» اهـ.

وقال الصنعاني في «سبل السلام» (١٠٨/٤): اتفق الحفاظ من أئمة

---

(١) طبع بمصر باسم «الرد على المريسي» بتحقيق محمد حامد الفقي.

الحديث أن سردها إدراج من بعض الرواة» اهـ[1].

خلاصة القول أن هذه الزيادة مدرجة في الحديث ولا يصح رفعها.

* * *

(١) قد خالف في ذلك بعض العلماء كالنووي رحمه الله فقد حسنه في كتابه «الأذكار» (ص ٨٥).

الاسم الأعظم للرب تبارك وتعالى

وقد ورد فيه عدة أحاديث صحيحة وهي:

١- حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك أني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. فقال: **«لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب»**.

وفي رواية فقال: **«والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»**[1].

(١) إسناده صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٩٣، ١٤٩٤) والترمذي (٣٥٤٢) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه: (٣٨٥٧) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩٤٠٩، ١٧٤٥٦) وابن حبان (٢٣٨٣) والحاكم (١/ ٥٠٤) من طريق مالك بن مغول عن عبد الله بن بريدة الأسلمي عن أبيه به. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. قلت: وهو على شرط مسلم فقط، والرواية الثانية للترمذي.

وأخرجه أحمد (٤/ ٣٣٨) وأبو داود (٩٨٥) والنسائي (٣/ ٥٢) عن عبد الوارث بن سعيد ثنا حسين المعلم عن ابن بريدة حدثني حنظلة بن علي أن محجن بن الأدرع حدثه أن رسول الله ﷺ دخل المسجد إذا رجل قد قضى صلاته وهو يتشهد فقال: اللهم إني أسألك يا الله بأنك الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد أن تغفر لي ذنوبي إنك أنت الغفور الرحيم. فقال رسول الله ﷺ: **«قد غفر له»** ثلاثًا وإسناده صحيح ولم يأت فيه ذكر أنه دعا بالاسم الأعظم.

وأخرجه الحاكم (١/ ٥٠٤) عن الحسن بن الصباح ثنا الأسود بن عامر أنبا شريك عن أبي إسحاق عن ابن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنك أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد فقال: **«لقد سأل الله باسمه** =

٢- حديث أنس رضي الله عنه قال: كنت جالسًا مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنّان المنّان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيوم. فقال النبي ﷺ: **«دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»**(١).

= **الأعظم والأكبر الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»** وقال صحيح على شرط مسلم وقد ساقه شاهدًا للحديث الأول. قال الترمذي: «وروى شريك هذا الحديث عن أبي إسحاق عن ابن بريدة عن أبيه وإنما أخذه أبو إسحاق عن مالك بن مغول» اهـ. وقد رواه الطحاوي في «المشكل» (١/٦١) عن شريك بن عبد الله عن أبي إسحاق ومالك بن مغول عن ابن بريدة عن أبيه، وشريك بن عبد الله هو النخعي القاضي صدوق يخطئ كثيرًا.

(١) أخرجه أحمد (٣/١٥٨، ٢٤٥) وأبو داود (١٤٩٥) والنسائي (٣/٥٢) وابن حبان (٢٣٨٢) «زوائد» والحاكم (١/٥٠٣) والطحاوي في «المشكل» (١/٦٢) عن خلف بن خليفة عن حفص بن أخي أنس عن أنس بن مالك به وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم قلت: خلف بن خليفة صدوق اختلط في الآخر.

وأخرجه أحمد (٣/١٢٠) وابن أبي شيبة (٩٤١٠، ١٧٤٥٧) وابن ماجه (٣٨٥٨) عن وكيع ثنا أبو خزيمة عن أنس بن سيرين عن أنس بن مالك به. وإسناده حسن. أبو خزيمة هو نصر بن مرداس وقيل صالح بن مرداس. قال أبو حاتم: لا بأس به، وقال الحافظ: صدوق. فالحديث صحيح بهذين الطريقين.

وأخرجه أحمد (٣/٢٦٥) قال: ثنا إسحاق بن إبراهيم الرازي ثنا سلمة بن الفضل حدثني محمد بن إسحاق عن عبد العزيز بن مسلم عن عاصم عن إبراهيم بن عبيد الله بن رفاعة عن أنس قال: مر رسول الله ﷺ بأبي عياش زيد بن صامت الزرقي وهو يصلي فذكره. وقد أخرجه الطحاوي في «المشكل» (١/٦٢) دون ذكر عاصم في الإسناد، عبد العزيز ابن مسلم قال الحافظ: مقبول أي حيث يتابع وإلا لين الحديث، ومحمد بن إسحاق صاحب المغازي مدلس وقد عنعن هنا، وسلمة بن الفضل صدوق كثير الخطأ. ورواه الحاكم (١/٥٠٤) ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا الربيع بن سليمان ثنا عبد الله بن وهب أخبرني عياض بن عبد الله الفهري عن إبراهيم بن عبيد عن أنس بن مالك به دون ذكر اسم الصحابي، وفيه عياض بن عبد الله قال ابن معين: ضعيف الحديث، وقال البخاري: منكر الحديث وقال الساجي: روى عنه ابن وهب أحاديث فيها نظر. =

٣- حديث أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «اسم الله الأعظم في سور من القرآن ثلاث، في البقرة وآل عمران وطه»[(١)].

ويلاحظ أن الاسم الذي تكرر في هذه الأحاديث هو (الله) فقد ورد

= وأخرجه الترمذي (٣٦١٢) ثنا محمد بن أبي ثلج ثنا يونس بن محمد أخبرنا سعيد بن زربيٍّ عن عاصم الاحول وثابت عن أنس به، وفيه سعيد بن زربي وهو العباداني. قال البخاري: عنده عجائب وضعفه ابوداود والنسائي وقال أبو حاتم: عنده عجائب من المناكير.

(١) صحيح لطرقه: أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦) والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٦٣) والطبراني في الكبير (٧٧٥٨) عن عمرو بن أبي سلمة الدمشقي سمعت عيسى بن موسى سمع غيلان بن أنس يحدث عن القاسم عن أبي أمامة به، وزاد الطحاوي قال أبو حفص: فنظرت في هذه السور الثلاث فرأيت فيها شيئًا ليس في القرآن مثلها. آية الكرسي ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وفي آل عمران ﴿الم ① اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [١، ٢] وفي طه﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [١١١]. وأبو حفص هو عمرو ابن أبي سلمة التنيسي، صدوق له أوهام وغيلان بن أنس قال الحافظ: مقبول أي حيث يتابع وإلا فلين.

تنبيه: وقع عند الطحاوي علاء بن أنس وهو تصحيف.

ورواه الطحاوي (١/ ٦٣) والطبراني في «الكبير» (٧٩٢٥) والحاكم (١/ ٥٠٥) من طريق هشام بن عمار ثنا الوليد بن مسلم ثنا عبد الله بن العلاء أنه سمع القاسم أبا عبد الرحمن يحدث عن أبي أمامة فذكره وفي رواية الحاكم قال القاسم: فالتمستها أنه الحي القيوم. وإسناده حسن.

القاسم هو ابن عبد الرحمن الشامي صدوق يرسل كثيرًا. وقال البخاري وغيره: سمع من أبي أمامة. انظر: «التهذيب» (٨/ ٣٢٢) ، وهشام بن عمار صدوق كبر فصار يتلقن لكن تابعه عمار بن نصر عند الحاكم (١/ ٥٠٦) أخبرنا أبو عبد الله الصفار ثنا أبو بكر بن أبي الدنيا حدثني عمار بن نصر ثنا الوليد بن مسلم بمثل الإسناد السابق وزاد: فالتمستها فوجدت في سورة البقرة آية الكرسي ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفي سورة طه ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾. والصفار هو محمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني الصفار. قال الذهبي في «السير» (١٥/ ٤٣٧): الشيخ الإمام المحدث القدوة، وعمار بن نصر صدوق ، فالإسناد حسن.

تنبيه: وقع في رواية الطبراني عبد الله بن العلاء بن زيد والصحيح بن زبر بالموحدة وهو ثقة من رجال البخاري.

في الحديث الأول وورد في الحديث الثاني بصيغة «اللهم». وإنما كان الأصل فيه «يا الله» فلما حذفوا الياء من أول الحرف زادوا الميم في آخره ليرجع المعنى الذي في «يا الله»[1].

وكذلك ورد في الآية التي استخرجها القاسم[2] من سورة البقرة وسورة آل عمران.

وأما قوله في طه ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١] فالظاهر أنه أخطأ فيه كما قال الطحاوي رحمه الله: «وقد يحتمل أن يكون هو ما في «طه» سوى ذلك وهو قول الله تعالى فيها: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [طه: ٧، ٨] الآية. فيرجع ما في «طه» إلى مثل ما رجع إليه ما في سورة البقرة وما في سورة آل عمران أنه الله تعالى[3].

وأما حديث أسماء بنت يزيد قالت قال رسول الله ﷺ: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وفاتحة آل عمران ﴿الم ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢] فهو حديث ضعيف[4].

---

(١) انظر تفصيل القول فيها في «التفسير القيم» (ص ٢٠٢).

(٢) ورد في «مشكل الآثار» أن الذي استخرجها من القرآن هو أبو حفص عمرو بن أبي سلمة الدمشقي.

(٣) «مشكل الآثار» (١/ ٦٣).

(٤) الحديث رواه الإمام أحمد (٥/ ٤٦١) وأبو داود (١٤٩٦) والترمذي (٣٤٧٢) وابن ماجه (٣٨٥٥) وابن أبي شيبة (٩٤١٢، ١٧٤٥٥) والدارمي في «السنن» فضائل القرآن (٢/ ٤٥٠) والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٦٤) كلهم من طريق عبيد الله بن أبي زياد القداح ثنا شهر بن حوشب عن أسماء مرفوعًا، وهذا إسناد ضعيف، فعبيد الله بن أبي زياد ضعفه ابن معين وأبو داود والنسائي وأبو حاتم وقال: لا يحتج به إذا انفرد وقال الحافظ في «التقريب»: ليس بالقوي، وكذا شهر بن حوشب فقد ضعفه شعبة وابن عون وموسى=

وقد اختار القول بأن الاسم الأعظم لله تعالى هو (الله) الطحاوي كما سبق وكذا ابن القيم فقــد قــال ـ بعد أن بيّن لوازم أسماء الله الحسنى ـ : فاسم (الله) دالٌ على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث ، فإنه دالٌ على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال وعن العيوب والنقائص ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاســم العظيــم كقــوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ويقال: «الرحمن والرحيم والقدوس والسلام والعزيز والحكيم» من أسماء الله ولا يقال: (الله) من أسماء (الرحمن) ولا من أسماء (العزيز) ونحو ذلك.

«فعلم أن اسمه (الله) مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دالٌ عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم (الله) واسم (الله) دالٌ على كونه مألوهًا معبودًا، تألهه الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمن لكمال الملك والحمد، وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أفعاله.

وصفات الجلال والجمال أخص باسم (الله). وصفات الفعل والقدرة، والتفرد بالضر والنفع، والعطاء والمنع، ونفوذ المشيئة وكمال

= ابن هارون والنسائي وقال الحافظ في «التقريب»: صدوق كثير الإرسال والأوهام ، فالحديث ضعيف بهذه الطريق والله أعلم.

القوة وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف أخص باسم «الرحمن» وكرر إيذانًا بثبوت الوصف وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته»[1].

وقد ساق فخر الدين الرازي في كتابه «شرح أسماء الله الحسنى» حجج من قال: «إن الاسم الأعظم هو (الله) منها:

١- إن هذا الاسم ما أطلق على غير الله تعالى فإن العرب كانوا يسمون الأوثان آلهة إلا هذا الاسم فإنهم ما كانوا يطلقونه على غير الله سبحانه وتعالى والدليل عليه قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ [مريم: ٦٥] معناه هل تعلم من اسمه الله سوى الله، ولما كان هذا الاسم في الاختصاص بالله تعالى على هذا الوجه، وجب أن يكون أشرف أسماء الله سبحانه وتعالى.

٢- إن هذا الاسم هو الأصل في أسماء الله سبحانه وتعالى وسائر الأسماء مضافة إليه. قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠] فأضاف سائر الأسماء إليه، ولا محالة أن الموصوف أشرف من الصفة، ولأنه يقال: الرحمن الرحيم الملك القدوس كلها من أسماء الله تعالى، ولا يقال الله اسم الرحمن الرحيم فدل هذا على أن الاسم هو الأصل.

فإن قيل لفظ (الله) قد جعل نعتًا في قوله تعالى في أول سورة إبراهيم: ﴿**إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي**

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٢ ـ ٣٣).

الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١، ٢] قلنا: قرأ نافع وابن عامر بالرفع على الاستئناف وخبره فيما بعده والباقون بالجر عطفًا على قوله العزيز الحميد، وقال أبو عمرو: والخفض على التقديم والتأخير تقديره: صراط الله العزيز الحميد.

٣- قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] خص هذين الاسمين بالذكر وذلك يدل على أنهما أشرف من غيرهما، ثم إن اسم (الله) أشرف من اسم (الرحمن).

وأما أولاً: فلأنه يقال قدمه في الذكر[1].

وأما ثانيًا: فلأن اسم الرحمن يدل على كمال الرحمة ولا يدل على كمال القهر والغلبة والعظمة والقدس والعزة، وأما اسم الله فإنه يدل على كل ذلك، فثبت أن اسم (الله) تعالى أشرف.

٤- هذا الاسم له خاصية غير حاصلة في سائر الأسماء وهي أن سائر الأسماء والصفات إذا دخل عليه النداء أسقط عنه الألف واللام، ولهذا لا يجوز أن يقال: يا الرحمن يا الرحيم، بل يقال: يا رحمن يا رحيم، أما هذا الاسم فإنه يحتمل هذا المعنى فيصح أن يقال: يا الله. وذلك أن الألف واللام فى هذا الاسم صار كالجزء الذاتي فلا جرم لا يسقطان حالة النداء وفيه إشارة لطيفة، وذلك لأن الألف واللام للتعريف فعدم سقوطهما عن هذا الاسم يدل على أن هذه المعرفة لا تزول أبدًا ألبتة اهـ باختصار[2].

---

(١) وأيضًا كل الناس يقدمون هذا الاسم في الذكر على سائر الأسماء وكذا في الخطب والمواعظ.

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» (٩١ ـ ٩٦).

مسألة

* هل اسم (الله) مُشْتَقٌّ أو هو اسمٌ جَامد؟

اختلف العلماء في ذلك على قولين أصحهما أنه: مشتق.

قال ابن القيم رحمه الله: «زعم السهيلي وشيخه أبو بكر بن العربي أن اسم الله غير مشتق[1]، لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق، ولاريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى، وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألم بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب وهي قديمة والقديم لا مادة له فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسمه (الله) ثم الجواب عن الجميع.

إننا لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منها تولد الفرع من أصله، وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلاً وفرعًا ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة.

وقال: ولا محذور في اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى اهـ[2].

---

(١) وذهب الزجاج أيضًا أنه غير مشتق. انظر: «تفسير الأسماء» (ص ٢٥).

(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٢ ـ ٢٣).

أَصلُ كلمة (الله) في اللغة

قال ابن الأثير[1]: «هو مأخوذ من إله وتقديرها فعلانية، بالضم، تقول: إله بين الإلهية والألُهانية، وأصله من أَلِهَ يأْلَهُ إذا تحيّر، يريد إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف همه إليها، أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد» اهـ[2].

قال أبو الهيثم: فالله أصله إله، قال الله عز وجل: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ**﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال: ولا يكون إلهًا حتى يكون معبودًا، وحتى يكون لعابده خالقًا ورازقًا ومدبرًا وعليه مقتدرًا، فمن لم يكن كذلك فليس بإله وإن عُبد ظلمًا بل هو مخلوق ومُتعبدٌ. قال: وأصل إله وِلاهٌ فقلبت الواو همزة كما قالوا للوشاح إشاح، وللوجاح إجاح، ومعنى وِلاهٍ أن الخلق يَولَهونَ إليه في حوائجهم ويَضرعون إليه فيما يصيبهم ويفزعون إليه في كل ما ينوبُهُم كما يَوله كل طفل إلى أمه.

وقد سمت العرب الشمس لما عبدوها إلاهَة.

---

(١) هو مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير صاحب كتاب «النهاية في غريب الحديث والأثر» وكتاب «جامع الأصول» وغيرها ولد سنة (٥٤٤ هـ) بجزيرة ابن عمر ـ بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام - وكان به نقرس فكان يُحمل في محفة، توفي سنة (٦٠٦هـ) بالموصل. «السير» للذهبي (٢١/ ٤٨٨)، «وفيات الأعيان»(١٤/ ١٤١)، «الأعلام» (٥/ ٢٧٢).

(٢) «النهاية» (١/ ٦٢).

وقد ضعّف الزجاج هذا القول (وهو أن أصل إله ولاه)[3].

وقال ابن سِيدَه: والإلاهة والألوهة والأُلوهية العبادة، وقد قريء ﴿ويَذَرَكَ وآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وقرأ ابن عباس ﴿ويَذَرَكَ وإلاهَتَكَ﴾ بكسر الهمزة أي وعبادتك، وهذه الأخيرة عند ثعلب كأنها هي المختارة. قال: لأن فرعون كان يُعبد ولا يَعبد فهو على هذا ذو إلاهةٍ لا ذو آلهة والقراءة الأولى أكثر والقراء عليها.

قال ابن بَرِّي[1]: يقوي ما ذهب إليه ابن عباس في قراءته ﴿ويَذَرَكَ وإلاهَتَكَ﴾ قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وكانت العرب في الجاهلية يدعون معبوداتهم من الأوثان والأصنام آلهة وهي جمع إلاهة. قال الله عز وجل ﴿ويَذَرَكَ وآلِهَتَكَ﴾ وهي أصنام عبدها قوم فرعون معه، و(الله) أصله إلاه، على فعال بمعنى مفعول لأنه مألُوه أيّ: معبود، كقولنا إمام فِعال بمعنى مفعول لأنه مؤتم به، فلما أُدخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرته في الكلام[2].

وقال ابن القيم: القول الصحيح أن (الله) أصله الإله. كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم.

* * *

---

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٢٥).

(٢) هو عبد الله بن بري بن عبد الجبار المقدسي الأصل المصري، أبو محمد من علماء العربية النابهين ولد سنة (٤٩٩هـ) بمصر ونشأ بها وتوفي سنة (٥٨٢ هـ)، ولي رياسة الديوان المصري، له «الرد على ابن الخشاب» ط و «غلط الضعفاء من المحدثين» ط. الأعلام(٤/ ٧٤).

(٣) انظر: «لسان العرب» (١/ ١١٤ ـ ١١٥) وكذا الأقوال السابقة.

* **تنبيه:**

لا يشرع ذكر الله باسم الجلالة (الله) مفردًا:

وذلك أن بعض الجاهلين من المسلمين يذكر الله باسم الجلالة مفردًا ، فيجعلون لهم أورادًا يرددون فيها لفظ الجلالة (الله) مرات عديدة كألف أو ألفين أو أكثر، وأحيانًا يجتمعون على ذلك في حلقات وهم جالسون أو وهم واقفون يتمايلون ذات اليمين وذات الشمال، ويقفزون بين الحين والآخر، ويُصاحب ذلك دقات الطبول وأصوات المزامير!! وتشتد الأصوات حتى لا تسمع إلا (هو هو هو) أو (أه أه أه) أو (حع حع حع) ويزعمون بعد هذه البدعة النكراء والفعلة الشنعاء أنهم يذكرون الله!!!

ومن قال أنه يشرع للمسلم أن يردد هذا الاسم مفردًا؟! أو غيره من الأسماء؟! إن الأذكار التي جاءت عن النبي ﷺ لم تكن على هذه الصورة أبدًا، ولم يسن لهم ذلك في حديث قط، بل كل الأذكار الصحيحة الواردة عنه نجد فيها أن لفظ الجلالة لا يذكر مفردًا، من ذلك قوله ﷺ: «**من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطَّت عنه خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر**»[1].

وقوله: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[2].

وقوله: «**أحب الكلام إلى الله أربع لا يضرك بأيهن بدأت : سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»[3].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

وهكذا سائر الأذكار الواردة عنه ﷺ، ولم يأت في حديث قط أنه ردَّد هذا الاسم (الله) مفردًا.

* أحب الأسماء إلى الله تعالى: عبد الله وعبد الرحمن، كما جاء في الحديث الصحيح، وكشف عن سر ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله في كلامه على «الأسماء والكنى» في كتابه الممتع «زاد المعاد»: «ولما كان الاسم مقتضيًا لمسماه، ومؤثرًا فيه كان أحب الأسماء إلى الله ما اقتضى أحبَّ الأوصاف إليه، كعبد الله وعبد الرحمن، وكان إضافة العبودية إلى اسم الله واسم الرحمن، أحبَّ إليه من إضافتها إلى غيرهما، كالقاهر والقادر، فعبد الرحمن أحبُّ إليه من عبد القادر، وعبد الله أحبُّ إليه من عبدِ ربِّه، وهذا لأن التعلق الذي بين العبد وبين الله إنما هو العبوديةُ المحضة، والتعلقُ الذي بين الله وبين العبد بالرحمة المحضة، فبرحمته كان وجوده وكمالُ وجوده، والغاية التي أوجده لأجلها: أن يتألَّه له وحده محبة وخوفًا، ورجاء وإجلالاً وتعظيمًا، فيكون عبدًا لله، وقد عبده لما في اسم الله من معنى الإلهية التي يستحيل أن تكون لغيره. ولما غَلَبَت رحمته غضبه، وكانت الرحمةُ أحبَّ إليه من الغضب، كان عبد الرحمن أحبَّ إليه من عبد القاهر»[1].

* * *

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٣٤٠).

الرَّحْمَنُ - الرَّحِيم
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٢، ٣)

* المعنى اللغوي:

الرحمة هي الرقة والتعطّف، والاسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، و(رحمن) أشد مبالغة من (رحيم)، لأن بناء فعلان أشد مبالغة من فعيل ونظيرهما نديم وندمان.

وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا[١].

واتفق أكثر العلماء على أن اسم (الرحمن) عربي لفظه.

وقال ابن الحصار بعد سرده للحديث القدسي: «**أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من اسمي...**»: فقد دل هذا الحديث الصحيح على الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق[٢].

وقال ثعلب: إنه عبراني الأصل وكان رخمانا بالخاء المعجمة[٣].

---

(١) «جامع البيان» (١/ ٤٣).

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٥٤ ب).

(٣) «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٢٠٧) و«لسان العرب» (٣/ ١٦١١).

فائدة: اختلف الأئمة في وقوع المُعَرَّب في القرآن ـ أي ما هو بغير لغة العرب ـ فالأكثرون ومنهم الشافعي وابن جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر وابن فارس على عدم وقوعه فيه لقوله تعالى﴿ **قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ﴾ [يوسف: ٢] وقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** ﴾ [فصلت: ٤٤] وقد شدد الشافعي النكير على القائل=

اما انكـــار كفار قريش يـوم الحديبيــة لما قال رســول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: « اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)» . فقال سهيل: أما (الرحمن) فوالله ما أدري ما هي ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

فاظاهر أنه إنكار جحود وعناد وتعنت، ومما يدل على أنهم كانوا يعرفون هذا الاسم قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

وقد جاء في بعض أشعار الجاهلية، كقول سلامة بن جندب الطهوي:

عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم ... وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

= ذلك . انظر: «الرسالة» (ص ٤٠ ـ ٥٣).

وقال ابن جرير : ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن إنها بالفارسية والجبشية والنبطية أو نحو ذلك. إنما اتفق فيها توارد اللغات فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام بعد أن حكى القول بالوقوع عن الفقهاء والمنع عن أهل العربية: والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعًا، وذلك أن هذه الأحرف أصولها اعجمية كما قال الفقهاء لكنها وقعت للعرب فعرّبتها بالسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب فمن قال: إنها عربية فهو صادق ومن قال أعجمية فصادق ومال إلى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون. انظر : «الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي (١/ ١٧٨ ـ ١٨٠) .

(١) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) والتصريح بأن الكاتب هو علي رضي الله عنه جاء في رواية أخرى للبخاري ايضًا برقم (٢٦٩٨).

وقد ردّ ابن جرير بشدة علي من قال أن العرب كانت لا تعرف (الرحمن) فقال: وقد زعم أهل الغباء أن العرب كانت لا تعرف الرحمن» اهـ. وبين أن ذلك كان جحوداً[1].

*** ورود الاسمين في القرآن الكريم:**

ذُكر (الرحمن) في القرآن سبعًا وخمسين مرة منها قوله تعالى: ﴿ **وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقوله سبحانه: ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً** ﴾ [مريم: ٩٣].

وقوله: ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ [طه: ٥].

وقوله: ﴿ **الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً** ﴾ [الفرقان: ٢٦].

وأما اسمه (الرحيم) فقد ذكر مائة وأربع عشرة مرة منها:

قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ٥٤].

وقوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ وهو كثير في الكتاب، انظر مثلاً [البقرة: ١٧٣، ١٨٢، ١٩٩].

وقولـه تعالى: ﴿ **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٢٩].

وقولـه سبحـانه: ﴿ **فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٣٩].

---

(١) «جامع البيان»(١/ ٤٤).

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ترددت مرارًا في الشعراء.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

وقوله: ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦].

*** معنى الاسمين في حق الله تعالى:**

الاسمان كما قلنا مشتقان من الرحمة و(الرحمن) أشد مبالغة من (الرحيم)، ولكن ما الفرق بينهما ؟ هناك قولان في الفرق بين هذين الاسمين:

الأول: إن اسم (الرحمن): هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة. و(الرحيم): هو ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فذكر الاستواء باسمه (الرحمن) ليعم جميع خلقه برحمته.

وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. فخص المؤمنين باسمه (الرحيم)[١].

ولكن يشكل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

القول الثاني: هو أن (الرحمن) دال علي صفة ذاتية و(الرحيم) دال على صفة فعلية.

قال ابن القيم رحمه الله: «إن (الرحمن) دال على الصفة القائمة به

(١) انظر: «جامع البيان» (١/٤٣)، وقد ذكر أقوالاً أخرى، إن شئت فراجعها (ص ٤٤ ـ ٤٥).

سبحانه، و «الرحيم» دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل.

فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] ولم يجئ قط «رحمن بهم» فعلم أن (رحمن) هو الموصوف بالرحمة و(رحيم) هو الراحم برحمته. وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم ينجل لك صورتها» اهـ[1].

و(الرحمن) من الأسماء التي منع الله من التسمية بها كما قال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فعادل به الاسم الذي لا يشركه فيه غيره وهو (الله).

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان حدثنا زيد بن الحباب حدثني أبو الأشهب عن الحسن قال: (الرحمن) اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه تسمى به تبارك وتعالى[2]. ولذا فلا يجوز أن يصرف للخلق.

وأما (الرحيم) فإنه تعالى وصف به نبيه ﷺ حيث قال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فيقال: رجل رحيم. ولا يقال: رحمن.

قال ابن كثير: «والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره ومنها

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤).

(٢) وأورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١) وإسناده حسن.

ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن لأنه أخص وأعرف من الرحيم، لأن التسمية أولاً تكون بأشرف الأسماء فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص» اهـ[1].

*** آثار الإيمان بهذين الاسمين:**

١- إثبات صفة الرحمة لله رب العالمين:

من صفات الله الثابتة بالكتاب والسنة «الرحمة»، وهي صفة كمال لائقة بذاته كسائر صفاته العلى، لا يجوز لنا أن ننفيها أو نعطلها لأن ذلك من الإلحاد في أسمائه.

وأما قول الزمخشري وأصحابه أن الرحمة مجاز في حق الله تعالى وأنها عبارة عن إنعامه على عباده[2]، فهي نزعة اعتزالية قد حفظ الله تعالى منها سلف المسلمين وأئمة الدين فإنهم أقروا ما ورد على ما ورد، وأثبتوا لله تعالى ما أثبته له نبيه ﷺ من غير تصرف بكناية أو مجاز، وقالوا: لسنا أغير على الله من رسوله[3].

وقد ردّ ابن القيم رحمه الله تعالى على القائلين بأن رحمة الله مجاز ردًا مفصلاً، وأتى بما لا مزيد عليه في كتابه «الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة».

ولعظيم فائدتها فإنا نسوقها إليك باختصار:

الرد الأول: إن الإلحاد إما أن يكون بإنكار لفظ الاسم، أو بإنكار معناه، فإن كان إنكار لفظه إلحادًا فمن ادعى أن (الرحمن) مجاز لا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: «الكشاف» (١/ ٤٥).

(٣) انظر: «روح المعاني» (١/ ٦٠).

حقيقة فإنه يجوّز إطلاق القول بنفيها فلا يستنكف أن يقول ليس بالرحمن ولا الرحيم. كما يصح أن يقال للرجل الشجاع ليس بأسد على الحقيقة. وإن قالوا : نتأدب في إطلاق هذا النفي فالأدب لا يمنع صحة الإطلاق وإن الإلحاد هو إنكار معاني أسمائه وحقائقها فقد أنكرتم معانيها التي تدل عليها بإطلاقها، وما صرفتموها إليه من المجاز فنقيض معناها، أو لازم من لوازم معناها، وليس هو الحقيقة ولهذا يصرح غلاتهم بإنكار معانيها بالكلية ويقولون هي ألفاظ لا معاني لها.

الرد الثاني: إن هذا الحامل لكم على دعوي المجاز في اسم الرحمن هو بعينه موجود في اسم العليم والقدير والسميع والبصير وسائر الأسماء.

فإن المعقول من العلم صفة عرضية تقوم بالقلب إما ضرورية وإما نظرية، والمعقول من الإرادة حركة النفس الناطقة لجلب ما ينفعها ودفع ما يضرها، أو ينفع غيرها أو يضره.

والمعقول من القدرة القوة القائمة بجسم تتأتى به الأفعال الاختيارية فهل تجعلون إطلاق هذه الأسماء والصفات على الله حقيقة أم مجازاً؟

فإن قلتم حقيقة تناقضتم أقبح التناقض، إذ عمدتم إلى صفاته سبحانه فجعلتم بعضها حقيقة وبعضها مجازاً، مع وجود المحذور فيما جعلتموه حقيقة.

وإن قلتم لا يستلزم ذلك محذوراً، فمن أين استلزم اسم الرحمن المحذور؟ وإن قلتم الكل مجاز، لم تمكنوا بعد ذلك من إثبات حقيقة لله ألبتة، لا في أسمائه ولا في الإخبار عنه بأفعاله وصفاته وهذا انسلاخ من العقل والإنسانية.

الرد الثالث: إن نفاة الصفات يلزمهم نفي الأسماء من جهة أخرى، فإن العليم والقدير والسميع والبصير، أسماء تتضمن ثبوت الصفات في

اللغة فيمن وصف بها، فاستعمالها لغير من وصف بها، استعمال للاسم في غير ما وضع له، فكما انتفت عنه حقائقها فإنه تنتفي عنه أسماؤها، فإن الاسم المشتق تابع للمشتق منه في النفي والإثبات، فإذا انتفت حقيقة الرحمة والعلم والقدرة والسمع والبصر انتفت الأسماء المشتقة منها عقلاً ولغة، فيلزم من نفي الحقيقة أن تنفي الصفة والاسم جميعًا.

الرد الرابع: إنه كيف يكون أظهر الأسماء التي افتتح الله بها كتابه في أم القرآن وهي من أظهر شعار التوحيد، والكلمة الجارية على ألسنة أهل الإسلام وهي: بسم الله الرحمن الرحيم التي هي مفتاح الطهور والصلاة وجميع الأفعال، فكيف يكون مجازًا؟

الرد الخامس: قولهم الرحمة رقة القلب، تريدون رحمة المخلوق أم رحمة الخالق؟ أم كل ما سمي رحمة شاهدًا أو غائبًا؟

فإن قلتم بالأول صدقتم ولم ينفعكم ذلك شيئًا، وإن قلتم بالثاني والثالث كنتم قائلين غير الحق، فإن الرحمة صفة الرحيم وهي في كل موصوف بحسبه، فإن كان الموصوف حيوانًا له قلب فرحمته من جنسه رقة قائمة بقلبه وإن كان مَلَكًا فرحمته تناسب ذاته.

فإذا اتصف أرحم الراحمين بالرحمة حقيقة لم يلزم أن تكون رحمته من جنس رحمة المخلوق لمخلوق.

وهذا يطرد في سائر الصفات كالعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة إلزامًا ووجوبًا، فكيف يكون رحمة أرحم الراحمين مجازًا دون السميع العليم؟

الرد السادس: إنه من أعظم المحال أن تكون رحمة أرحم الراحمين التي وسعت كل شيء مجازًا ورحمة العبد الضعيفة القاصرة المخلوقة

المستعارة من ربه التي هي من آثار رحمته حقيقة. وهل في قلب الحقائق أكثر من هذا؟

الرد السابع: ما رواه أهل السنن عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «**أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسمًا من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته**»[1].

فهذا صريح في أن اسم الرحمة مشتق من اسمه (الرحمن) تعالى، فدل على أن رحمته لما كانت هي الأصل في المعنى كانت هي الأصل في اللفظ ومثل هذا قول حسان رضي الله عنه في النبي ﷺ:

فَشَقَّ له من اسمه لِيُجله ... فذُو العَرْشِ مَحمودٌ وهذا مُحمد

فإذا كانت أسماء الخلق الممدوحة مشتقة من أسماء الله الحسنى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/٤٩٨) والحاكم (٤/١٥٧) عن يزيد بن هارون أنبأنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال إن رسول الله ﷺ قال: **قال الله عز وجل**... فذكره، وهذا إسناد حسن، محمد بن عمرو هو ابن وقاص الليثي صدوق له أوهام، وللحديث طرق أخرى فقد أخرجه أبو داود (١٦٩٤) والترمذي (١٩٧٢) عن سفيان بن عيينة عن الزهري عن أبي سلمة عن عبد الرحمن بن عوف به. وقال الترمذي: صحيح. والحديث منقطع فإن أبا سلمة لم يسمع من أبيه شيئًا.

وجاء من طريق أخرى موصولاً: فقد أخرج أحمد (١/١٩٤) وأبو داود (١٦٩٥) وابن حبان (٢٠٣٣) والحاكم (٤/١٥٧) الحديث من طريق معمر عن الزهري ثني أبو سلمة أن أبا الرداد الليثي أخبره عن عبد الرحمن بن عوف به. وقد نقل الترمذي عن البخاري قوله أن هذا خطأ من معمر. ولكن معمر لم يتفرد فقد تابعه شعيب بن أبي حمزة وهو من اثبت الناس في الزهري عند الإمام أحمد (١/١٩١) والحاكم (٤/١٥٨)، ومتابعة أخرى عند الحاكم لسفيان بن عيينة (٤/١٥٨) وثالثة عند الحاكم أيضًا لمحمد بن أبي عتيق (٤/١٥٨)، وأبو الردَّاد وقيل ردّاد الليثي، قال الحافظ: مقبول.

وللحديث طريق أخرى عند أحمد (١/١٩١) عن هشام الدستوائي عن يحيى بن أبي كثير عن إبراهيم بن عبد الله بن قارظ أن أباه حدثه أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف.. فذكره. وعبد الله بن قارظ لا يعرف. فالحديث بجملة هذه الطرق صحيح.

كانت أسماؤه يقينًا سابقة فيجب أن تكون حقيقة، لأنها لو كانت مجازًا، لكانت الحقيقة سابقة لها، فإن المجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له فيكون اللفظ قد سمي به المخلوق ثم نقل إلى الخالق وهذا باطل قطعًا.

الرد الثامن: ما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**لما قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ كِتابًا فهو مَوضوعٌ عنده فوقَ العَرشِ: إنَّ رحمتي سَبَقَت غَضَبي**» وفي لفظ : «**غلبت**».

وقال تعالى: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾ [الأنعام: ٥٤]، فوصف نفسه سبحانه بالرحمة وتسمّى بالرحمن قبل أن يكون بنو آدم.

فادعاء المدعي أن وصفه بالرحمن مجاز من أبطل الباطل.

الرد التاسع: إنه من المعلوم أن المعنى المستعار يكون في المستعار منه أكمل في المستعار له، وأن المعنى الذي دل عليه اللفظ بالحقيقة أكمل من المعنى الذي دل عليه بالمجاز، وإنما يستعار لتكميل المعنى المجازي تشبيهه بالحقيقي، كما يستعار الشمس والقمر والبحر للرجل الشجاع والجميل والجواد.

فإذا جعل الرحمن والرحيم والودود وغيرهما من أسمائه سبحانه حقيقة في العبد، مجازًا في الرب، لزم أن تكون هذه الصفات في العبد أكمل منها في الرب تعالى.

الرد العاشر: إن الله سبحانه وتعالى فرق بين رحمته ورضوانه وثوابه المنفصل فقال تعالى: ﴿**يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ**﴾ [التوبة: ٢١].

فالرحمة والرضوان صفته، والجنة ثوابه، وهذا يبطل قول من جعل

الرحمة والرضوان ثوابًا منفصلاً مخلوقًا، وقول من قال هي إرادته الإحسان، فإن إرادته الإحسان هي من لوازم الرحمة، فإنه يلزم من الرحمة أن يريد الإحسان إلى المرحوم فإذا انتفت حقيقة الرحمة انتفى لازمها وهو إرادة الإحسان[1].

٢- ظهور آثار رحمة الله سبحانه على الخلق بجلاء:

قال ابن القيم رحمه الله: «إن ظهور هذه الصفة في الوجود كظهور أثر صفة الربوبية والملك والقدرة، فإن ما لله على خلقه من الإحسان والإنعام شاهد برحمة تامة وسعت كل شئ كما أن الموجودات كلها شاهدة له بالربوبية التامة الكاملة.

وما في العالم من آثار التدبير والتصريف الإلهي شاهد بملكه سبحانه.

فجعل صفة الرحمة واسم الرحمة مجازًا كجعل صفة الملك والربوبية مجازاً ولا فرق بينهما في شرع ولا عقل ولا لغة.

وإذا أردت أن تعرف بطلان هذا القول، فانظر إلى ما في الوجود من آثار رحمته الخاصة والعامة.

فبرحمته أرسل إلينا رسوله ﷺ، وأنزل علينا كتابه وعلّمنا من الجهالة، وهدانا من الضلالة، وبصّرنا من العمى، وأرشدنا من الغي.

وبرحمته عرفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا، وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم، وأرشدنا لمصالح ديننا ودنيانا.

وبرحمته أطلع الشمس والقمر وجعل الليل والنهار وبسط الأرض

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٢/ ١١٢ ـ ١٢٦) وبقيت بعض الردود على القائلين بالمجاز نستوفيها في الفقرات التالية إن شاء الله تعالى.

وجعلها مهادًا وفراشًا وقرارًا وكفاتًا للأحياء والأموات.

وبرحمته أنشأ السحاب وأمطر المطر وأطلع الفواكه والأقوات والمرعى.

ومن رحمته سخر لنا الخيل والإبل والأنعام وذللها منقادة للركوب والحمل والأكل والدر.

وبرحمته وضع الرحمة بين عباده ليتراحموا بها وكذلك بين سائر أنواع الحيوان، فهذا التراحم الذي بينهم بعض آثار الرحمة التي هي صفته ونعمته، واشتق لنفسه منها اسم (الرحمن الرحيم) وأوصل إلى خلقه معاني خطابه برحمته وبصرهم ومكن لهم أسباب مصالحهم برحمته.

وأوسع المخلوقات عرشه وأوسع الصفات رحمته، فاستوى على عرشه الذي وسع المخلوقات بصفة رحمته التي وسعت كل شئ.

ولما استوى على عرشه بهذا الاسم الذي اشتقه من صفته وتسمى به دون خلقه، كتب مقتضاه على نفسه يوم استوائه على عرشه حين قضى الخلق كتابًا فهو عنده وضعه على عرشه **«إن رحمته سبقت غضبه»** وكان هذا الكتاب العظيم الشأن كالعهد منه سبحانه للخليقة كلها بالرحمة لهم والعفو عنهم والصفح عنهم والمغفرة والتجاوز والستر والإمهال والحلم والأناة. فكان قيام العالم العلوي والسفلي بمضمون هذا الكتاب، الذي لولاه لكان للخلق شأن آخر.

وكان عن صفة الرحمة الجنة وسكانها وأعمالهم، فبرحمته خلقت وبرحمته عمرت بأهلها وبرحمته وصلوا إليها وبرحمته طاب عيشهم فيها.

وبرحمته احتجب عن خلقه بالنور ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

ومن رحمته أنه يعيذ من سخطه برضاه ومن عقوبته بعفوه ومن نفسه بنفسه.

ومن رحمته أن خلق للذكر من الحيوان أنثى من جنسه وألقى بينهما المحبة والرحمة، ليقع بينهما التواصل الذي به دوام التناسل وانتفاع الزوجين، ويمتع كل واحد منهما بصاحبه.

ومن رحمته أحوج الخلق بعضهم إلى بعض لتتم مصالحهم، ولو أغنى بعضهم عن بعض لتعطلت مصالحهم، وانحل نظامهم، وكان من تمام رحمته بهم أن جعل فيهم الغني والفقير، والعزيز والذليل، والعاجز والقادر، والراعي والمرعي، ثم أفقر الجميع إليه ثم عمّ الجميع برحمته.

ومن رحمته أنه خلق مائة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض فأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة نشرها بين الخليقة ليتراحموا بها، فبها تعطف الوالدة على ولدها والطير والوحش والبهائم وبهذه الرحمة قوام العالم ونظامه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ [الرحمن: ١ - ٤] كيف جعل الخلق والتعليم ناشئًا عن صفة الرحمة متعلقًا باسم (الرحمن)، وجعل معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم وختمها بقوله: ﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٧٨] فالاسم الذي تبارك هو الاسم الذي افتتح به السورة، إذ مجيء البركة كلها منه، وبه وضعت البركة في كل مبارك فكل ما ذكر عليه بورك فيه، وكل ما أخلي منه نزعت منه البركة» اهـ[١].

---

(١) مختصر الصواعق (٢/١٢١ - ١٢٤).

٣- سعة رحمة الله تعالى:

قال تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

يخبر تعالى شأنه عن رحمته التي وسعت وشملت كل شئ في العالم العلوي والسفلي، البر و الفاجر، المسلم والكافر، فما من أحد إلا وهو يتقلب في رحمة الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار.

ولكن للمؤمنين الرحمة الخاصة بهم، والتي يسعدون بها في الدارين ولذلك قال في تمام الآية السابقة: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فالكافر لا رحمة له في الآخرة.

وفتح الله تعالى أبواب رحمته للتائبين فقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال ﷺ في ذلك: «لو يَعلمُ المؤْمنُ ما عندَ الله من العُقُوبة ما طَمِعَ بجنته أحد، ولو يَعلمُ الكَافرُ ما عند الله من الرّحمة ما قَنِطَ من جنته أحد»[1].

وسمى الله تعالى وحيه إلى أنبيائه بالرحمة كما في قوله تعالى مُخبراً عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ [هود: ٢٨] يشير إلى ما خَصَّه الله به من الوحي والعلم والحكمة.

وكذلك قال صالح عليه السلام: ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣].

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٧٥٥) عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة به.

وقوله تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] .

ويختار لوحيه رجالاً يَختصُّهم بذلك، بعلمه وحكمته كما قال سبحانه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٤].

٤- رحمة الله تغلب غضبه :

وقد ثبت في ذلك حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لما خلق الله الخلق كتب في كتابه ـ وهو يكتب على نفسه وهو وضع عنده على العرش ـ إن رَحمتي تَغلِب غَضَبي**»وفي رواية: «**إن رحمتي سَبَقت غضبي**»(1).

وهذا الحديث موافق لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقوله: «**وهو يكتب على نفسه**» لأنه لا آمر له سبحانه ولا ناهي يوجب عليه ما يلزمه المطالبة به، ولكن الله ينجز عباده ما وعدهم وهو لا يخلف الميعاد.

٥- لله جل ثناؤه مائة رحمة :

عن أبي هريـــرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله خَلَقَ الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ـ وفي رواية: كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض ـ فأمسكَ عنده تسعًا وتسعين رحمةً وأرسلَ في خلقهِ كلهم رحمة واحدة**».

وفي رواية: «**إن لله مائة رحمة، أنزل منها رَحمةً واحدةً بين الجنِ والإنسِ والبهائمِ والهوامِّ، فبها يَتَعاطفـون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها ـ وفي رواية: حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ـ**

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٤، ٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٣، ٧٥٥٤) ومسلم (٢٧٥١).

وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة يَرحَمُ بها عبادَه يَومَ القيامة»[1].

٦- الله سبحانه وتعالى أرحم بعباده من الأم بولدها:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي - وفي رواية البخاري: تسعى - إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا رسول الله ﷺ: «**أترونَ هذه المرأة طَارحة ولَدها في النار؟**» قلنا: لا والله! وهي تقدر على أن لا تَطْرَحَه. فقال رسول الله ﷺ: «**اللهُ أرحَمُ بعبادِه من هذه بولدها**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٩٤٦٩) ومسلم (٢٧٥٢/١٨ ـ ١٩)، (٢٧٥٣/٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤).

فائدة: قال الرازي كتابه «الأسماء الحسنى» مستعرضًا بعض التساؤلات على صفة «الرحمة»:

السؤال الثاني:

ما معنى كونه رحيمًا وكونه أرحم الراحمين فإن الرحيم إذا رأى مبتلى أو معدومًا وهو يقدر على إزالة البلاء عنه فإنه لابد وأن يزيله، والرب سبحانه وتعالى قادر على إزالة كل محنة ودفع كل بلية ثم نرى الدنيا طافحة بالشرور والآفات والمحن والبليات وهو تعالى قادر على إزالتها ثم إنه لا يزيل شيئًا منها بل نرى أنه خلق السباع والمؤذيات وسلط بعضها على بعض حتى إن بعضها يقتل بعضًا وبعضها يغتذي من بعض، فكيف تتحقق الرحمة مع أن الأمر كذلك؟.

فأجاب بعدة أجوبة قول أهل السنة منها: هو أن (الرحيم) هو الذي يفعل الرحمة ويوصل النعمة، وليس من شرط كونه رحيمًا أن لا يفعل إلا الرحمة فهو تعالى رحيم، كريم، جواد، ودود، رؤوف في حق بعض عباده، وقهار جبار منتقم في حق آخرين اهـ. انظر: (ص١٦١ ـ ١٦٣) وبنحوه قال ابن العربي «الأسنى» (ورقة ٢٦٠ ب).

والمسألة لها تعلق بالقدر فإن الله سبحانه لا يقدر الشر المحض لأنه منزه عنه كما قال ﷺ: «والخير كله بيديك والشر ليس إليك..» رواه مسلم، فما كان شرًا لبعض الناس قد يكون فيه خير لغيره فوجود الشر في الأرض إنما هو الحكمة. راجع «الطحاوية» (ص ٤١٢).

٧- اتصاف الإنسان بالرحمة:

الرحمة من الأخلاق العظيمة التي حض الله سبحانه عباده على التخلق بها فقد مدح بها أشرف رسله فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن أسمائه ﷺ: «**نبي الرحمة**»(١).

ومدح النبي ﷺ أفضل أصحابه من بعده بهذه الصفة فقال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر..**»(٢).

وبين ﷺ أن الرحمة تنال عباده الرحماء فقال: «**إنما يرحم الله من عباده الرحماء**» وفي رواية «**لا يَرْحَم الله من عباده إلا الرحماء**»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٣٥٥).

(٢) حديث صحيح أخرجه أحمد (٣/ ١٨٤) وابن ماجه (١٥٥) عن وكيع عن سفيان عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**أرحم أمتي أبو بكر وأشدها في دين الله عمر وأصدقها حياء عثمان وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأقرؤها أبيّ وأعلمها بالفرائض زيد بن ثابت ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**» وقد تابعه وهيب بن خالد وسفيان هو الثوري. أخرجه أحمد (٣/ ٢٨١) والنسائي في «فضائل الصحابة» (١٣٨).

وتابعهما عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي عند ابن ماجه (١٥٤) والنسائي في فضائل الصحابة (١٨٢) وابن حبان (٢٢١٨، ٢٢١٩) وزاد: «**وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على رجل أصدق ذي لهجة من أبي ذر أشبه عيسى في ورعه ألا وإن لكل أمة أمينا وأمين هذه الأمة أبوعبيدة بن الجراح**» وعبد الوهاب ثقة تغير قبل موته.

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٤، ٥٦٥٥، ٦٦٠٢، ٦٦٥٥، ٧٣٧٧، ٧٤٤٨)، ومسلم (٩٢٣) =

وقال ﷺ: «مَنْ لا يَرحَم الناسَ لا يَرحمه الله»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتُقبلون صبيانكم؟. فقالوا: نعم. فقالوا: لكنا والله ما نُقبّل. فقال رسول الله ﷺ: «وأملِكُ إن كان الله نَزَعَ منكم الرحمة» ـ وفي رواية: «من قلبك الرحمة»[2].

وهذه الأحاديث وغيرها فيها بيان فضل الرحمة والتخلق بها، وأن الشقي هو الذي نزعت من قلبه الرحمة، لأن ذلك معناه المنع من الدخول في رحمة الله.

٨- طاعة الله ورسوله سبب للرحمة:

واعلم أنه كلما كان الإنسان أقرب إلى الله تعالى كانت رحمة الله أولى به أي كلما كان العبد طائعًا لله ولرسوله ﷺ عاملاً بما أمره به الله ورسوله ﷺ منتهيًا عما نهاه الله ورسوله عنه، كان استحقاقه للرحمة أعظم. قال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال عز وجل: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

= من حديث أسامة بن زيد وفيه بكاءه ﷺ على ابن بنته لما رفع إليه وقول سعد بن عبادة يا رسول الله ما هذا؟. فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله...

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٦) ومسلم (٢٣١٩) عن جرير بن عبد الله واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٩٨) ومسلم (٢٣١٧) وقاله النبي ﷺ للأقرع بن حابس.

٩- تسمية الله سبحانه وتعالى بعض النعم بالرحمة :

وقد سمى الله سبحانه بعض نعمه بالرحمة ، كالمطر في قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** ﴾ [الأعراف: ٥٧]، أي: يرسل الرياح تبشر بقدوم الغيث.

وسمى رزقه بالرحمة في قوله : ﴿ **وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا** ﴾ [الإسراء: ٢٨] أي : إذا سألك أقاربك وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة فقل لهم قولاً ميسورًا أي : عدهم باللين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله .

وسمى الله كتابه العزيز بالرحمة في غير ما آية كقوله تعالى : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل: ٨٩] وقوله : ﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وسمى الله سبحانه الجنة بالرحمة وهي أعظم رحمة خلقها الله لعباده الصالحين ، قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٧] وقوله : ﴿ **يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ [الإنسان: ٣١] وغيرها من الآيات.

١٠ - العزم عند سؤال الله سبحانه الرحمة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ، ليعزم في المسألة ، فإنه لا مُستكرِهَ له**» وفي رواية: «**وليعزم مسألته إنه يفعل ما يشاء لا مكره له**»[1].

أي : إذا دعوتم الله فاعزموا في الدعاء أي: اجزموا ولا ترددوا، من

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩، ٧٤٤٧).

عزمت على الشئ إذا صممت على فعله، وقيل: عزم المسألة الجزم بها من غير ضعف في الطلب.

وقوله: «**لا مكره له**» لأن في الاستثناء والتعليق صورة المستغني عن الشئ. أو لأن التعليق يوهم إمكان إعطائه على غير المشيئة، وليس بعد المشيئة إلا الإكراه، والله لا مكره له[1].

اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

* * *

(١) انظر: «الفتح» (١١/ ١٤٠)، (١٣/ ٤٥١).

الملك ـ المالك ـ المليك

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٤ ، ٥ ، ٦)

*** المعنى اللغوي:**

المُلك : معروف وهو يذكر ويؤنث كالسلطان ، ومُلك الله تعالى وملكوته سلطانه وعظمته وعزته.

والمَلْك والمَلِك والمَليك والمالك : ذو الملك.

قال ابن سيده : المَلك والمُلك والمِلْك : احتواء الشيء والقدرة على الاستبداد به .

وتملَّكه : أي ملكه قهرًا ، وأملكه الشيء وملَّكه إياه تمليكًا جعله مِلكًا له ، وأملكوه : زوجوه، شبه الزوج بملك عليها في سياستها .

والملكوت مختص بِملِك الله تعالى وهو مصدر مَلَكَ أدخلت فيه التاء نحو جبروت ورهبوت ورحموت ، قال تعالى : ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وملكت العجين: شددت عجنه أي : قوي عليه فأجاد عجنه[1].

*** وروده في القرآن العظيم :**

ورد الملك في القرآن خمس مرات منها قوله تعالى : ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾ [طه: ١١٤].

وقوله تعالى : ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ**﴾ [الحشر: ٢٣].

(١) «النهاية» (٤/٣٥٨)، «اللسان» (٦/٤٢٦٦)، «غريب الحديث» لأبي عبيد (٣/٣٢٩)، «المفردات» للراغب (ص ٤٧٢).

وقوله تعالى: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٢].

وورد المالك مرتين، في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وأما المليك فلم يرد إلا مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

*** المعنى في حق الله تعالى:**

قال الزجاج : «وقال أصحاب المعاني : الملك ، النافذ الأمر في ملكه، إذ ليس كلُّ مالك ينفذُ أمره أو تصرفه فيما يملكه . فالملك أعمُّ من المالك والله تعالى مالك المالكين كلِّهم ، وإنما استفادوا التصرف في أملاكهم من جهته تعالى» اهـ[1].

قال الخطابي : الملك : هو التامُ الملك الجامع لأصناف المملوكات ، فأما المالك : فهو الخاصُّ الملك[2].

وقال الليث : المَلِكُ هو الله تعالى وتقدَّس ، مَلِكُ الملوك، له الملك ، وهو مالك يوم الدين وهو مليك الخلق أي: ربهم ومالكهم[3].

وقال ابن جرير: الملك الذي لا مَلِكَ فوقه ولا شئ إلا دونه[4].

قال ابن كثير : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ﴾ [الحشر: ٢٣] أي : المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا مُمانعة ولا مدافعة[5].

---

(١) «تفسير أسماء الله الحسنى» (ص ٣٠).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٤٠).

(٣) «اللسان» (٦/ ٤٢٦٦).

(٤) «جامع البيان» (٢٨/ ٣٦).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٤٣).

وما ذكروه من ثبوت الملكية المطلقة لله وحده لا شريك له وأن له كمال التصرف والقدرة في ملكه ظاهر جدًا في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٤٩]. وقوله : ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] وقوله : ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢]. فذكر ملكه العظيم الشاسع ثم ذكر قدرته التامة في ملكه وأنه لا يعجزه شيء.

وكقوله تعالى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أي : لا يثقل عليه ولا يعجزه حفظ هذا الملك العظيم.

وقد قال الزجاج : إنَّ أصل المَلْك في الكلام : الربط والشدّ ، يقال: ملكت العجين أملكُهُ مَلْكًا، إذا شددت عجنه، وإملاك المرأة من هذا إنما هو ربطها بالزواج[1]. وهذا الربط والشدّ يرجع حاصله إلى القدرة التامة الكاملة.

أما الناس فقد تملك مع العجز عن التصرف كأن يكون المالك صبيًا أو مجنونًا، ووليهما لا مُلك له مع أن التصرف ثابت له.

مسألة : أيهما أبلغ الملك أو المالك ؟

قال الشوكاني: وقد اختلف العلماء أيهما أبلغ ملك أو مالك؟ فقيل إن مَلِك أعمّ وأبلغ، إذ كل ملك مالك، وليس كل مالك ملك، ولأن أمر الملك نافذ على المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك.

---

(١) «أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص ٣٠).

قاله أبو عبيد والمبرد ورجحه الزمخشري.

وقيل مالك أبلغ لأنه يكون مالكًا للناس وغيرهم، فالمالك أبلغ في مدح الخالق من ملك، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك، وإذا كان الله تعالى مالكًا كان ملكًا. واختار هذا القاضي أبو بكر بن العربي.

ثم قال الشوكاني: «والحق أنَّ لكلٍّ واحدٍ من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر، فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعتق ونحوها، والملك يقدر علي ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية، فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور، والملك أقوى من المالك في بعض الأمور، والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته والمالك صفة لفعله اهـ[1].

*** آثار الإيمان بهذه الأسماء:**

١ - إن الملك الحقيقي لله وحده لا يشركه فيه أحد، وكل من مَلَكَ شيئًا فإنما هو بتمليك الله له، قال ﷺ: «**لا مالك إلا الله**» وفي رواية: «**لا ملك إلا الله**»[2].

وقد يسمى بعض المخلوقين مَلِكًا، إذا اتسع ملكه إلا أن الذي يستحق هذا الاسم هو الله جل وعز لأنه مالك الملك، وليس ذلك لأحد غيره، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذلُّ من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير[3].

---

(١) «فتح القدير» (١/ ٢٢).

(٢) الفقرة الأخيرة من حديث رواه مسلم (٢١٤٣) عن أبي هريرة.

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٤٠).

فالمخلوقات لا تملك شيئًا، وقد أنكر تعالى على المشركين الذين عبدوا هذه المخلوقات التي هي مثلهم في الضعف والعبودية لله تعالى وأنها لا تملك من السماوات والأرض شيئًا ولا مثقال ذرة ولا تنفع أحدًا ولا تضره.

قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [النحل: ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٦].

وقال سبحانه: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ[١] ﴾ [فاطر: ١٣].

فالله تبارك وتعالى هو المالك لخزائن السماوات والأرض، بيده الخير، يرزق من يشاء، وهو المالك للموت والحياة والنشور، والنفع والضر وإليه يرجع الأمر كله، فهو المالك لجميع الممالك، العلوية والسفلية وجميع من فيهما مماليك لله فقراء مدبرون.

وهو سبحانه كل يوم هو في شأن يتصرف في ملكوته كيف يشاء، فعن أبي الدرداء رضي الله قال عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩] قال: «مِنْ شأنه أن يغفر ذنبًا ويُفرّج كربًا ويرفع

(١) «القطمير»: هو اللفافة التي تكون نواة التمرة، أي لا يملكون من السموات والأرض شيئًا ولا بمقدار هذه اللفافة.

قومًا ويخفض آخرين»[1]. قال تعالى: ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله عز وجل قال: أنا الدهر، الأيام والليالي لي، أجددها وأبليها، وآتي

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا بصيغة الجزم (٨/ ٦٢٠) موقوفًا على أبي الدرداء وأخرجه موصولاً ابن ماجه (٢٠٢) وابن حبان (١٧٦٣) وابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠١) عن هشام بن عمار ثنا الوزير بن صبيح ثنا يونس بن حلبس عن أم الدرداء عن أبي الدرداء به. وقال البوصيري في «الزوائد» (ص/٢٨): هذا إسناد حسن لتقاصر الوزير عن درجة الحفظ والاتقان قال فيه أبو حاتم: صالح. وقال دحيم: ليس بشئ. وقال أبو نعيم: «كان يعد من الأبدال ربما أخطأ وذكره ابن حبان في الثقات» اهـ. وقد تابع هشام بن عمار صفوان ابن صالح وذلك في رواية البزار (٢٢٦٣) وزاد هو وابن أبي عاصم: ويجيب داعيًا.
ورواه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٧٣) عن الوزير صبيح سمعت يونس ابن ميسرة يحدث عن أم الدرداء عن النبي ﷺ به. وهذا مرسل فإن أم الدرداء هي الصغرى، وأما الكبرى فلا رواية لها في الكتب الستة، والصغرى ثقة فقيهة من الثالثة قاله الحافظ في «التقريب».
وأخرجه من طريق أخرى ابن عساكر عن يحيى بن إسماعيل عن أبيه عن أم الدرداء مرفوعًا به.
قال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٦٢٣): «وصله المصنف - أي البخاري - في «التاريخ» وابن حبان في «الصحيح» وابن ماجه وابن أبي عاصم والطبراني عن أبي الدرداء مرفوعًا، وأخرجه البيهقي في «الشعب» من طريق أم الدرداء عن أبي الدرداء موقوفًا، وللمرفوع شاهد آخر عن ابن عمر أخرجه البزار، وآخر عن عبد الله بن منيب أخرجه الحسن بن سفيان والبزار وابن جرير والطبراني» اهـ.
وحديث ابن عمر في البزار (٢٢٦٨) وفيه محمد بن عبد الرحمن البيلماني ضعيف متهم.
وحديث ابن منيب أخرجه ابن جرير (٢٧/ ٧٩) وابن أبي عاصم (٣٠١) معلقًا.
قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٧): رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» والبزار وفيه من لم أعرفهم. قلت: فيه عمروبن بكر وهو السكسكي متروك، وهو لا يصلح شاهدًا للحديث وكذا الحديث الذي قبله. وانظر: «تغليق التعليق» (٤/ ٣٣٢).

بملوك بعد ملوك»[1].

ولكن من الناس من يطغى ويظن أنه المالك الحقيقي وينسى أنه مستخلف فقط فيما آتاه الله من مُلك ومال وجاه وعقار، فيتكبر ويتجبر ويظلم الناس بغير حق، كما حكى الله سبحانه عن فرعون عليه لعنة الله الذي نسي نفسه وضعفها وزعم لنفسه الملك بل والألوهية، قال تعالى عنه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].

ودعا قومه إلى هذه الضلالة الكبرى فاستجابوا له فعاقبهم الله جميعًا، قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا[2] انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤ - ٥٦]. وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦].

وإهلاك الله سبحانه لفرعون وقومه عبرة لكل ظالم متكبر من ملوك الأرض، تفرعن على الناس فيما آتاه الله من ملك، وظن أنه مخلد، ونسي أن ملكه زائل وأن إقامته في ملكه مؤقتة وأن الموت مدركه لا

(١) حديث حسن: أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٩٦): ثنا ابن نمير ثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن ذكوان عن أبي هريرة مرفوعًا ورجاله رجال الشيخين سوى هشام بن سعد فمن رجال مسلم وحده فقد أخرج له في الشواهد قاله الحاكم، وفي حفظه شيء، قال الحافظ في «التقريب»: صدوق له أوهام ورمي بالتشيع. ومع قوله هذا فقد حكم لإسناده بالصحة في «الفتح» (١٠/٥٦٥) والحديث حسن فقط وأصله في الصحيحين.

(٢) آسفونا: أي أغضبونا.

محالة، قال تعالى منبهًا عباده إلى ذلك: ﴿ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [المائدة: ١٨].

٢- وإذا كان الملك المطلق إنما هو لله وحده لا شريك له، فالطاعة المطلقة إنما هي له وحده لا شريك له، لأن من سواه من ملوك الأرض إنما هم عبيدٌ له وتحت إمرته.

فلابد من تقديم طاعة الملك الحق على طاعة من سواه وتقديم حكمه على حكم غيره، لأن طاعته سبحانه أوجب من طاعة غيره بل لا طاعة لأحد إلا في حدود طاعته، أما في معصيته فلا سمع ولا طاعة.

٣- عدم جواز التسمية بملك الملوك:

وقد ورد في ذلك الحديث المتفق عليه حديث سفيان بن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أخنع اسم عند الله** ـ وقال سفيان غير مرة: **أخنع الأسماء عند الله ـ رجلٌ تسمى بملك الأملاك**» وفي رواية: «**أخنى الأسماء يوم القيامة..**».

قال سفيان: يقول غيره ـ أي غير أبي الزناد ـ تفسيره: شاهان شاه[1].

ومعنى أخنع: أوضع اسم وأذله. قال أبو عبيد: الخانع الذليل، وخنع الرجل ذل. قال ابن بطال: وإذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمى به أشد ذلاً.

ومعنى أخنى: أي أفحش اسم من الخنا وهو الفحش في القول.

وجاء في رواية مسلم: «**أغيظُ رَجُلٍ على الله يَومَ القِيامةِ وأَخبثه وأغيظه عليه**».

---

(١) رواه البخاري (٦٢٠٥، ٦٢٠٦) ومسلم (٢١٤٣/٢١).

قال ابن حجر: واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمي بهذا الاسم لورود الوعيد الشديد، ويلتحق به ما في معناه مثل خالق الخلق وأحكم الحاكمين وسلطان السلاطين وأمير الأمراء[1].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة أيضًا قال قال رسول الله ﷺ: **«اشتد غَضَبُ الله على مَن زَعَمَ أنه ملكُ الأملاك لا ملك إلا الله»**[2].

قال المناوي في شرحه: «أي من تسمى بذلك ودعي به وإن لم يعتقده فإنه لا ملك في الحقيقة إلا الله، وغيره وإن سمي ملكًا أو مالكًا فإنما هو بطريق التجوز، وإنما اشتد غضبه عليه لمنازعته لله في ربوبيته وألوهيته، فهو حقيق بأن يمقته عليه فيهينه غاية الهوان ويذله غاية الذل ويجعله تحت أقدام خلقه لجرأته وعدم حيائه في تشبهه به في الاسم الذي لا ينبغي إلا له، فهو ملك الملوك وحده حاكم الحكام وحده، فهو الذي يحكم عليهم كلهم لا غيره» اهـ[3].

(١) «الفتح» (١٠/ ٥٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٩٢) قال: ثنا محمد بن جعفر وروح قالا ثنا عوف عن خلاس عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«اشتد غضب الله عز وجل على رجل قتله نبيه وقال روح: قتله رسول الله واشتد غضب ..»** فذكره، وهذا إسناد صحيح رجاله رجال الصحيحين وخلاس: هو ابن عمرو الهجري. قال أحمد: ثقة ثقة. وقال أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل يقول: لم يسمع من أبي هريرة شيئًا. قال ابن حجر في مقدمة «الفتح» (ص٤٠١): روايته عنه عند البخاري أخرج له حديثين قرنه فيهما معًا بمحمد بن سيرين وليس له عنده غيرهما فالحديث لا ينزل عن رتبة الحسن وله طريق أخرى ضعيفة عند الطبراني في «الكبير» (١٢١١٣) من طريق أبي شيبة إبراهيم بن عثمان ثنا إسماعيل بن أبان ثنا أبو شيبة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس مرفوعًا وليس فيه: لا ملك إلا الله.

قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٥٠): وفيه أبو شيبة إبراهيم بن عثمان وهو متروك.

(٣) «فيض القدير» (١/ ٥١٤).

وقال ابن القيم رحمه الله :

ولما كان المُلْكُ الحق لله وحده، ولا مَلِكَ على الحقيقة سواه ، كان أخنع اسم وأوضعه عند الله ، وأغضبه له اسم «شاهان شاه» أي : ملكُ الملوك ، وسلطان السلاطين ، فإن ذلك ليس لأحد غير الله ، فتسميةُ غيره بهذا من أبطل الباطل ، والله لا يحب الباطل.

وقد ألحق بعض أهل العلم بهذا «قاضي القضاة» وقال: ليس قاضي القضاة إلا من يقضي الحق وهو خير الفاصلين، الذي إذا قضى أمرًا فإنما يقول له : كن فيكون[1].

٤- الله سبحانه مالك يوم الدين وملكه :

فالمُلك في ذلك اليوم العظيم لله وحده لا ينازعه فيه أحد من ملوك الأرض وجبابرتها ، قال تعالى : ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ [الفاتحة: ٤][2].

وقال تعالى : ﴿ **وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ** ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقال تعالى : ﴿ **الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الحج: ٥٦].

وقال تعالى : ﴿ **الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ** ﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقال تعالى : ﴿ **يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾ [غافر: ١٦].

وقد جاء مايبين ذلك من السنة الشريفة:

فعن عبد الله بن مسعود قال : جاء حَبرٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! أو يا أبا القاسم! إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على

---

(١) «الزاد» (٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤١).

(٢) وتقرأ أيضًا ﴿مَلِكِ يوم الدين﴾ وهي قراءة نافع المدني وغيره.

إصبع والأرضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزُهُن فيقول : أنا الملك أنا الملك . فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال الحَبر، تصديقًا له ، ثم قرأ ﴿ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧][1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : **«يَقبضُ الله تَبارك وتعالى الأرضَ يومَ القِيامةِ ويَطوي السماء بيمينه ثم يقول : أَنَا الملك ، أين ملوك الأرض»**[2].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : **«يَطوي الله عز وجل السماوات يَومَ القِيامةَ ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول : أنا الملك ، أين الجَبارون ؟ أين المتكبرون ؟ »**[3].

فهل يجيبه أحد من طغاة الأرض وفراعنتها، كلا بل الجميع خاشعون صامتون ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨].

ومن الرحمة للخلق أن الله سبحانه هو الملك الوحيد يوم القيامة لأنه الذي يحاسب بالعدل ولا يظلم ولا يجور ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١١ ، ٧٤١٤ ، ٧٤١٥ ، ٧٤٥١ ، ٧٥١٣) ، ومسلم (٢٧٨٦/ ٢٠، ٢١ ، ٢٢) واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١٢ ، ٦٥١٩)) ومسلم (٢٧٨٧).

(٣) رواه مسلم (٢٧٨٨) ، وقد تفرد بذكر الشمال فيه عمر بن حمزة - أحد رواة الحديث وقد ضُعف - وقد رواه عن ابن عمر أيضًا نافع وعبيد الله بن مقسم بدونها ورواه أبو هريرة وغيره عن النبي ﷺ كذلك وثبت عند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رفعه **«المقسطون يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين»** انظر : «الفتح» (١٣/ ٣٩٦).

وانظر التحقيق على «إبطال التأويلات» (١/ ١٧٨ - ١٧٩).

[فصلت: ٤٦]، وقال : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قال الرازي : «الحكم الثاني من أحكام كونه ملكًا ، أنه ملك لا يشبه سائر الملوك لأنهم إن تصدقوا بشيء انتقص ملكهم ، وقلّت خزائنهم ، أما الحق سبحانه وتعالىٰ فملكه لا ينتقص بالعطاء والإحسان بل يزداد ، بيانه أنه تعالىٰ إذا أعطاك ولدًا لم يتوجه حكمه إلا علىٰ ذلك الولد الواحد ، أما لو أعطاك عشرة من الأولاد كان حكمه وتكليفه لازمًا علىٰ الكل ، فثبت أنه تعالىٰ كلما كان أكثر عطاء كان أوسع ملكًا .

الحكم الثالث من أحكام كونه ملكًا كمال الرحمة ، والدليل عليه آيات إحداها : ما ذكر في هذه السورة من كونه ربًا رحمانًا رحيمًا وهو قوله تعالىٰ : ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣، ٤].

وثانيها : قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢] ثم قال بعده : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ﴾ [الحشر: ٢٣] ثم ذكر بعده كونه قدوسًا عن الظلم والجور ثم ذكر بعده كونه سلامًا ، وهو الذي سلم عباده من ظلمه وجوره ، ثم ذكر بعده كونه مؤمنًا ، وهو الذي يؤمن عبيده من جوره وظلمه ، فثبت أن كونه ملكًا لا يتم إلا مع كمال الرحمة .

وثالثها : قوله تعالىٰ : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦] لما أثبت لنفسه الملك أردفه بأن وصف نفسه بكونه رحمانًا ، يعني إن كان ثبوت الملك له في ذلك اليوم يدل علىٰ كمال القهر فكونه رحمانًا يدل علىٰ زوال الخوف وحصول الرحمة .

ورابعها: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٢].

فذكر أولاً كونه ربًا للناس ثم أردفه بكونه ملكًا للناس.

وهذه الآيات دالة على أن المَلِك لا يحسن ولا يكمل إلا مع الإحسان والرحمة، فيا أيها الملوك اسمعوا هذه الآيات، وارحموا هؤلاء المساكين، ولا تطلبوا مرتبة زائدة في الملك على ملك الله تعالى» اهـ[1].

* * *

(١) «التفسير الكبير» للرازي (١/ ٢٣٩).

القُدُّوس
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٧)

* **المعنى اللغوي:**

وله معنيان في اللغة:

الأول: أن (القدوس) فعول من القُدْس وهو الطهارة، والقَدَس بالتحريك السطل بلغة أهل الحجاز لأنه يُتقدس منه أي: يتطهر منه، وجاء في التنزيل﴿ **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ [البقرة: ٣٠].

قال الزجاج: معنى نقدس لك أيّ: نطهر أنفسنا لك. ولهذا قيل بيت المقْدِس أيّ: البيت المطهر أو المكان الذي يُتطهر به من الذنوب.

وقال الفرّاء: الأرض المقدسة الطاهرة وهي دمشق وفلسطين وبعض الأردن، وروح القدس هو جبريل عليه السلام معناه روح الطهارة أيّ: خلق من الطهارة.

والمعنى الثاني: أن القدس البركة، والأرض المقدسة أيّ: المباركة، وهو قول قتادة وإليه ذهب ابن الأعرابي، ويقويه أنَّ الله تعالى قد بيّن أن الأرض المقدسة مباركة وذلك في قوله: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾ [الإسراء: ١] وقوله سبحانه: ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٧١] وهي الأرض المقدسة.

و(القدوس) على وزن: «فُعول» بالضم من أبنية المبالغة[1].

*** ورود الاسم في القرآن العظيم:**

وقد ورد هذا الاسم في القرآن مرتين. مرة في سورة الحشر وهو قوله سبحانه: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ**﴾ [آية: ٢٣]. ومرة في مطلع سورة الجمعة وهو قوله تعالى: ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ [الجمعة: ١].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى:**

قال قتادة: القدوس أي: المبارك[1].

وعن ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ [البقرة: ٣٠]: «ونحن نسبح بحمدك: ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ونصلي لك، ونقدس لك: ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك» اهـ[2].

وقال البيهقي: (القدوس) هو الطاهر من العيوب المنزه عن الأولاد والأنداد، وهذه صفة يستحقها بذاته[3].

(١) «النهاية» لابن الأثير (٥/ ٢٣)، «اللسان» (٥/ ٣٥٤٩)، «أسماء الله الحسنى» (ص ٣٠)، «شأن الدعاء» (ص ٤٠)، وقد قرأ الجمهور (القدوس) بضم القاف وقرأ أبو ذر وأبو السماك بفتحها. وقال ثعلب: كل اسم على فعول فهو مفتوح الأول مثل: سفود وكلوب وسمور وتنور إلا السبوح والقدوس فإن الضم فيهما الأكثر وقد يفتحان.

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٨/ ٣٦) حدثنا بشر ثنا يزيد ثنا سعيد عن قتادة به. بشر هو ابن معاذ العقدي صدوق، ويزيد هو ابن زريع ثقة ثبت، وسعد هو ابن أبي عروبة من أثبت الناس في قتادة فالإسناد حسن.

(٢) «جامع البيان» (١/ ١٦٧).

(٣) «الاعتقاد» للبيهقي (ص ٥٤) وانظر كذلك: «النهاية» لابن الأثير (٤/ ٢٣) و«شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (ص ١٨٦).

وقال الغزالي : هو المنزه عن كل وصف يدركه حس ، أو يتصوره خيال ، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير ، أو يقضي به تفكير[1].

وقال ابن كثير في معنى القدوس : أي المنزه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال[2].

وبنحوه قال الشوكاني[3].

وقال الألوسي: (القدوس) البليغ في النزاهة عما يوجب نقصانًا، أو الذي له الكمال في كل وصف اختص به، أو الذي لا يحد ولا يتصور[4].

وقال ابن القيم في النونية:

هذا ومن أوصافه القدوس ذو الـ   تنزيه بالتعظيم للرحمن[5].

❁ آثار الإيمان بهذا الاسم:

١- تقديس الله سبحانه وتنزيهه عن النقائص وأنه موصوف بكل كمال، وصفات الكمال هي ما وصف به نفسه سبحانه في كتابه أو ما وصفه به رسوله ﷺ.

وليس معنى التنزيه هو تعطيل صفات الله ونفي معاني أسمائه الحسنى كما ظنه الجهمية والمعتزلة ومن شابههم من الفرق الضالة، وإنما هو تنزيهه عن مشابهة الخلق كما قال تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١].

فتنزيه أهل السنة ليس فيه تعطيل، وإثباتهم ليس فيه تشبيه، والآية

(١) «المقصد الأسنى» (ص٣٨).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٦٣).

(٣) «فتح القدير» (٥/ ٢٠٧).

(٤) «روح المعاني» (٢٨/ ٦٢).

(٥) «النونية» (٢/ ٢٣٣).

السابقة فيها تنزيه وإثبات، وكل تنزيه ونفي في الكتاب فإنما هو لثبوت كمال ضده، فمثلاً نفي الله عن نفسه الظلم بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وذلك لثبوت كمال العدل له سبحانه وهكذا، وأما النفي المحض فلا كمال فيه وهو مذموم.

وقال الحليمي: (القدوس) ومعناه الممدوح بالفضائل والمحاسن، والتقديس مضمن في صريح التسبيح، والتسبيح مضمن في صريح التقديس، لأن نفي المَذَامّ إثباتٌ للمدائح، كقولنا: لا شريك له ولا شبيه له، إثبات أنه واحد أحد، وكقولنا: لا يعجزه شيء، إثبات أنه قادر قوي، وكقولنا: إنه لا يظلم أحدًا، إثبات أنه عدل في حكمه.

وإثبات المدائح له نفي للمذام عنه كقولنا: إنه عالم، نفي للجهل عنه، وكقولنا: إنه قادر، نفي للعجز عنه، إلا أن قولنا هو كذا، ظاهره التقديس، وقولنا ليس بكذا، ظاهره التسبيح، لأن التسبيح موجود في ضمن التقديس، والتقديس موجود في ضمن التسبيح.

وقد جمع الله تبارك وتعالى بينهما في سورة «الإخلاص» فقال عزَّ اسمه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فهذا تقديس، ثم قال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فهذا تسبيح، والأمران راجعان إلى إفراده وتوحيده ونفي الشريك والتشبيه عنه[1].

٢- وكما أنه مُنزه عن النقائص في صفاته وأسمائه الحسنى، فهو أيضًا منزه عن النقص في أقواله وأفعاله.

فقوله: الصدق وخبره الحق، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ

---

(١) «المنهاج» في شعب الإيمان» (١/١٩٧) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٣٨).

حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] وقال: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢].

وفعله منزه عن الخطأ والنسيان وغيرها من الآفات، قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقًا فيما قال وأخبر ووعد، وعدلاً فيما حكم وشرع من أحكام.

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥- ١١٦] أي تعالى وتقدس وتنزه عن أن يخلق شيئًا عبثًا أو سفهًا.

٣- كان النبي ﷺ يكثر من ذكر هذا الاسم في ركوعه وسجوده. فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سبُّوح قدوس رب الملائكة والروح**»[1].

وكان يسبح الله به بعد فراغه من الوتر كما جاء في حديث أبي بن كعب قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر بسبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد فإذا سلم قال: سبحان الملك القدوس ثلاث مرات»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٧).

(٢) إسناده صحيح. أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٢٣) وأبو داود (١٤٣٠) والنسائي في (الوتر) (٣/ ٢٤٤) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩٧٦٢) عن طلحة الأيامي عن زر عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه عن أبي بن كعب مرفوعًا به.

وأخرجه أحمد (٣/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧) والنسائي (٣/ ٢٤٥ ـ ٢٤٧)، (٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥١) بطرق كثيرة عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه عن النبي ﷺ به، وقيل إن هذا مرسل لكن عبد الرحمن بن أبزي صحابي صغير ومراسيل الصحابة حجة، وقد حسن الحديث الحافظ في «التلخيص» (٢/ ١٩) فقصر.

السَّلَام
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٨)

*** المعنى اللغوي:**

السلام والسلامة: البراءة، وتسلم منه: تبرأ.

قال ابن العربي: السلامة العافية، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] معناه تسلمًا وبراءة، والسلام. في الأصل: السلامة يقال: سَلِم يسلَم سلامًا وسلامة.

ومنه قيل للجنة: دار السلام لأنها دار السلامة من الآفات، وقوله عز وجل: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧] معناه أن من اتبع هدى الله سلم من عذابه وسخطه[١].

وقال الرازي: وأيضًا الصواب من القول سمي سلامًا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ وذلك لسلامته من العيب والإثم[٢].

وإذا قال المسلم للمسلم: السلام عليكم، فكأنه يخبره بالسلامة من جانبه ويؤمنه من شره وغائلته، وأنه سلم له لا حرب عليه.

---

(١) انظر: «لسان العرب» (٣/٢٠٧٨)، «النهاية» لابن الأثير (٢/٣٩٢)، «تفسير أسماء الله» الحسنى للزجاج (ص ٣٠).

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (ص ١٨٧).

* وروده في القرآن الكريم :

ورد مرة واحدة في قوله تعالىٰ : ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ . .﴾ [الحشر : ٢٣].

* معنىٰ الاسم في حق الله تعالىٰ :

قال ابن كثير : السلام أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله[1].

وقال الألوسي في تفسيره : السلام ذو السلامة من كل نقص وآفة[2].

وقال البيهقي : السلام هو الذي سلم من كل عيب وبرئ من كل آفة، وهذه صفة يستحقها بذاته.

وقيل: هو الذي سلم المؤمنون من عقوبته[3].

وقال القرطبي: (السلام) أيّ: ذو السلامة من النقائص ، ونقل عن ابن العربي قوله : اتفق العلماء رحمة الله عليهم علىٰ أن معنىٰ قولنا في الله (السلام) النسبة، تقديره ذو السلامة ، ثم اختلفوا في ترجمة النسبة علىٰ ثلاثة أقوال :

الأول : معناه الذي سلم من كل عيب وبرئ من كل نقص.

الثاني : معناه ذو السلام ، أي المُسلّم علىٰ عباده في الجنة ، كما قال: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

الثالث : أن معناه الذي سلم الخلق من ظلمه.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٣٤٣).

(٢) «روح المعاني» (٢٨/٦٣).

(٣) «الاعتقاد» (ص٥٥).

قلت ـ أي القرطبي ـ : وهذا قول الخطابي وعليه والذي قبله يكون صفة فعل ، وعلى أنه البريء من العيوب والنقائص يكون صفة ذات ، وقيل السلام معناه المسلِّم لعباده[1].

وقال ابن القيم في «النونية»:

وهو السَّلام على الحقيقة سالمٌ   من كل تمثيلٍ ومن نقصانِ[2]

*** آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله سبحانه وتعالى هو (السلام) أي : السالم من كل نقص وآفة وعيب، فمعناه قريب من القدوس.

وقيل إن القدوس : إشارة إلى براءته عن جميع العيوب في الماضي والحاضر ، والسلام : إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شئ من العيوب في الزمان المستقبل ، فإن الذي يطرأ عليه شئ من العيوب تزول سلامته ولا يبقى سليمًا[3].

٢- الله سبحانه هو المسلم على عباده وأوليائه في الجنة ، قال تعالى: ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ** ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وقال سبحانه : ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٤٤]. وقال : ﴿ **سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ [يس: ٥٨].

فالله تعالى يحيي عباده في الجنة بالسلام عليهم ، والجنة هي دار السلام من الموت والمرض وسائر الآفات. قال تعالى : ﴿ **لَهُمْ دَارُ**

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٨/ ٤٦) وانظر: كذلك «فتح القدير» (٥/ ٢٠٧) وانظر قول الخطابي في «شأن الدعاء» (ص٤١).

(٥) «النونية» (٢/ ٢٣٣).

(٣) انظر: «التفسير الكبير» للرازي (٢٩/ ٢٩٣).

السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٧] وقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ﴾ [يونس: ٢٥].

٣- والله تعالى هو المسلم على أنبيائه ورسله، لإيمانهم وإحسانهم وطاعتهم له وتحملهم في سبيله أعظم الشدائد، فيؤمنهم في الآخرة فلا يخافون ولا يفزعون.

وقيل: سلم الله تعالى عليهم ليقتدي بذلك البشر فلا يذكرهم أحد بسوء[1].

قال تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩].

قال: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩].

وقال: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠].

وقال: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠].

وقال: ﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١].

وقال سبحانه: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩].

قال الخطابي: أخبرني أحمد بن إبراهيم بن مالك حدثنا موسى بن إسحاق الأنصاري عن صدقة بن الفضل قال سمعت سفيان بن عيينة يقول: أوحش ما تكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجًا مما كان، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم. قال: فأكرم الله فيها يحيى فخصه بالسلام فقال: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥]، كأنه

(١) ذكره الألوسي (٢٣/ ٩٩) عن أبي حيان.

أشار إلى أن الله جل وعز سلَّم يحيى من شر هذه المواطن الثلاثة وأمَّنه من خوفها[1].

وكذا عباده المؤمنين فإن الملائكة تسلم عليهم عند قبض أرواحهم وتطمئنهم وتؤمنهم. قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [النحل: ٣٢]. فالملائكة تبشرهم بالفوز بالجنة والنجاة من عقاب الله والنار.

٤- الأمر بإفشاء هذا الاسم وأنه سبب في دخول الجنة:

وقد ورد الأمر من النبي ﷺ بإفشاء السلام بين المسلمين كما جاء في حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَلا أدُلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[2].

قال النووي: «وفيه الحث العظيم على إفشاء السلام وبذله للمسلمين كلهم من عرفت ومن لم تعرف.

وقال: والسلام أول أسباب التآلف ومفتاح استجلاب المودة وفي إفشائه تَمَكُّن ألفة المسلمين بعضهم لبعض وإظهار شعارهم المميز لهم عن غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمات المسلمين» اهـ[3].

---

(١) أخرجه الخطابي في «شأن الدعاء» (ص٤٢) وسنده صحيح وقد أخرج مثله ابن جرير في تفسيره (١٦/ ٤٥) عن أحمد بن منصور الفيروزي كذا والظاهر أنه المروزي المعروف بزاج) قال أخبرني صدقة بن الفضل قال سمعت ابن عطية يقول ... فذكره.

(٢) أخرجه مسلم (٥٤).

(٣) «شرح مسلم» للنووي (٢/ ٣٦).

وإفشاء السلام من شعائر الإسلام العظيمة التي يتهاون فيها كثير من المسلمين وهي من أوائل ما دعا إليه النبي ﷺ عندما وصل إلى المدينة، فعن عبد الله بن سلاّم قال: أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه واستثبته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب. قال: وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: **«أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»**[1].

٥- لا يقال السلام على الله:

جاء ذلك في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نصلي خلف النبي ﷺ فنقول: السلام على الله. فقال النبي ﷺ: **«إن الله هو السلام ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»**[2].

قال البيضاوي ما حاصله: أنه ﷺ أنكر التسليم على الله وبيّن أن ذلك عكس ما يجب أن يقال، فإن كل سلام ورحمة له ومنه وهو مالكها ومعطيها[3].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٥/٤٥١) والترمذي (٢٦٠٣) وصححه، وابن ماجه (١٣٣٤، ٣٢٥١) والدارمي (١/ ٣٤٠) والحاكم (٣/١٣) ومحمد بن نصر المروزي في «قيام الليل» (ص ٢١) ـ من المختصر ـ بطرق عن عوف بن أبي جميلة عن زرارة بن أوفى عن عبد الله بن سلام مرفوعًا به.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣١، ٨٣٥، ١٢٠٢، ٦٢٣٠، ٦٢٦٥، ٦٣٢٨، ٧٣٨١) ومسلم في الصلاة (٥٦).

(٣) «الفتح» (٢/ ٣١٢).

وقال الخطابي : المراد أن الله هو ذو السلام فلا تقولوا السلام على الله فإن السلام منه بدأ وإليه يعود[1].

ولذلك أمر النبي ﷺ المسلمين أن يقولوا : التحيات لله . قال ابن حجر: جمع تحية ومعناها السلام. وقيل : البقاء. وقيل: العظمة. وقيل: السلامة من الآفات والنقص. وقيل : المُلك.

وقال ابن قتيبة : لم يكن يُحيًا إلا الملك خاصة ، وكان لكل ملك تحية تخصه فلهذا جمعت ، فكان المعنى التحيات التي كانوا يسلمون بها على الملوك كلها مستحقة لله.

وقال المحب الطبري : يحتمل أن يكون لفظ التحية مشتركًا بين المعاني المقدم ذكرها، وكونها بمعنى السلام أنسب هنا[2].

وجاء في حديث أنس قال قال جبريل للنبي ﷺ إن الله يقرئ خديجة السلام ، يعني فأخبرها. قالت : إن الله هو السلام وعلى جبريل السلام وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته[3].

قال العلماء : في هذه القصة دليل على وفور فقهها لأنها لم تقل «وعليه السلام» كما وقع لبعض الصحابة حيث كانوا يقولون في التشهد

---

(١) الفتح (٢/ ٣١٢).

(٢) المصدر السابق . وانظر كذلك «النهاية» لابن الأثير (١/ ١٨٣).

(٣) أخرجه النسائي في فضائل الصحابة» (٢٥٤) عن أحمد بن فضالة أنا عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس به وإسناده حسن فإن جعفر بن سليمان صدوق . وقد تابع عبد الرزاق قتيبة بن سعيد وذلك عند الحاكم (٣/ ١٨٦)، والحديث سكت عليه الحافظ في الفتح (٧/ ١٣٩) وهو دليل على التصحيح منه أو التحسين كما نص في المقدمة.

فائدة: يستفاد منه ردّ السلام على من أرسل السلام وعلى من بلّغه.

«السلام على الله» فنهاهم النبي ﷺ فعرفت خديجة رضي الله عنها لصحة فهمها أن الله لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى.

* * *

المُؤْمن

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩)

* **المعنى اللغوي:**

وله معنيان في اللغة.

الأول : التصديق.

قال الزجاج : أصل الإيمان التصديق والثقة. وقال الله عزَّ قائلاً: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: لفرط محبتك ليوسف لا تصدقنا[١].

والثاني : الأمان الذي هو ضد الإخافة . قال تعالى : ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤].

والأمان والأمانة بمعنى ، وقد أمنت فأنا آمنٌ وآمنت غيري من الأمن والأمان، والأمن ضدّ الخوف ، والأمانة ضدّ الخيانة ، والإيمان ضدّ الكفر، والإيمان: بمعنى التصديق ، ضده التكذيب، يقال : آمن به قوم وكذب به قوم ، وفي التنزيل العزيز : ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] أي الآمن يعني مكة ، ورجل أُمنة: يأمَنُ كل أحد ، وقيل : يأمنه الناس ولا يخافون غائلته. ورجل أَمنة : الذي يصدق ما يسمع ولا يُكذّب بشئ، وإذا كان يطمئن إلى كل واحد ويثق بكل أحد[٢].

---

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٣١).

(٢) «اللسان» (١/ ١٤٠ ـ ١٤١).

* وروده في القرآن الكريم :

ورد في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣].

معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال الضحاك عن ابن عباس: (المؤمن) أي : أَمِنَ خَلْقُه مِن أنْ يظلمهم.

وقال قتادة : المؤمن آمن بقوله أنه حق[١].

قال ابن جرير : (المؤمن) الذي يُؤمِّن خلقه من ظلمه . ونسبه إلى قتادة[٢].

وقال الشوكاني: (المؤمن) أي: الذي وهب لعباده الأمن من عذابه، وقيل: المصدق لرسله بإظهار المعجزات ، وقيل: المصدق للمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، والمصدق للكافرين بما أوعدهم به من العذاب، وقال مجاهد: المؤمن الذي وحد نفسه بقوله شهد الله أنه لا إله إلا هو[٣].

وقال الألوسي : (المؤمن) قيل : المصدق لنفسه ولرسله عليهم السلام فيما بلغوه عنه سبحانه إما بالقول أو بخلق المعجزة، أو واهب عباده الأمن من الفزع الأكبر أو مؤمنهم منه إما بخلق الطمأنينة في قلوبهم أو بإخبارهم أن لا خوف عليهم . وقيل : مؤمن الخلق من ظلمه . وقال ثعلب : المصدق للمؤمنين في أنهم آمنوا[٤].

---

(١) أخرجه ابن جرير عنه بإسناد حسن.

(٢) الطبري (٢٨/ ٣٦).

(٣) فتح القدير (٥/ ٢٠٧) وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٨/ ٤٦)، و«المنهاج» للحليمي (١/ ٢٠٢).

(٤) «روح المعاني» (٢٨/ ٦٣) وانظر: «تفسير أسماء الله» للزجاج (ص ٣١) و«النهاية» لابن=

وقال السعدي : (المؤمن) الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال ، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان ويدل على صدقهم وصحة ما جاءوا به[1].

*** آثار الإيمان بهذا الاسم:**

١- إن الله سبحانه وتعالى هو المؤمن الموحد لنفسه، وقد أخبر عن وحدانية نفسه في قوله تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ [آل عمران: ١٨].

فالله صدّق نفسه بهذا ، وتصديقه علمه بأنه صادق ، وهذا التصديق إيمان.

وأخبر تعالى أنه سيُري خلقه علامات وحدانيته ودلائل إلهيته وعظمته، قال تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت: ٥٣].

٢- إنه سبحانه صدق أنبياءه بإظهار الآيات الباهرة على أيديهم التي تبين للناس أنهم صادقون في ادعائهم أنهم رسل الله ولتحملهم على الدخول في دين الله، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال: ﴿ **وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ [آل عمران: ٥٠].

= الأثير (١/ ٦٩) وانظر : «الطحاوية» (ص٩٤) و«الاعتقاد» للبيهقي (ص ٥٥) و«شرح الأسماء للرازي (ص ١٨٩ ـ ١٩٠).

(١) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠١).

٣- إنه تعالى يصدق عباده ما وعدهم به من النصر في الدنيا والتمكين في الأرض ومن الثواب في الآخرة، ويصدق الكفار ما أوعدهم من العقاب والخذلان في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

ومن نظر إلى سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين علم صدق وعد الله لعباده المخلصين.

وقال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴾ [الاعراف: ٤٤].

وقال : ﴿ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَـٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤].

٤- إنه يأمن عذابه من لا يستحقه، ويهب الأمن لعباده المؤمنين يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الانعام: ٨٢].

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقال : ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾ [الانبياء: ١٠٣].

وقال : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٩].

٥- وأما المؤمن فقد وجب عليه أنْ يأمن المؤمنون شره وغوائله.

فقد قال ﷺ : «والله لا يُؤمنَ والله لا يُؤمنُ والله لا يؤمن» قيل : ومَنْ يا رسول الله ؟ قال : **الذي لا يأمَن جاره بَوائقَه**»[1] أي : لا يكون الرجل مؤمنًا كامل الإيمان حتى يأمن جاره بوائقه . أي : شروره وغوائله .

وقال أيضًا : «**المسلم مَنْ سَلِمَ المسلمونَ من لسَانه ويَده**»[2].

وعن فضالة بن عبيد قال قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع : «**ألا أخبركم بالمؤمن ! مَن أمنه الناسُ على أموالِهم وأنفسهم والمسلم مَن سَلِم الناسُ مِن لِسانه ويده**»[3].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٩ ، ١٠ ، ٦٤٨٤) ومسلم (٤٠ ، ٤٢) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي موسى الأشعري ومسلم (٤١) عن جابر بن عبد الله.

(٣) حديث صحيح: أخرجه الإمام أحمد (٦/٢١) ثنا علي بن إسحاق ثنا عبد الله أنا ليث أخبرني أبو هاني الخولاني عن عمرو بن مالك الجنبي حدثني فضالة بن عبيد به .
وبقية الحديث: «**والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب**».
وهذا إسناد صحيح أبو هاني: هو حميد بن هاني والليث: هو ابن سعد وعبد الله الراوي عنه: هو ابن وهب، وقد تابعه عبد الوارث بن عبيد الله عند ابن حبان (٢٥ -زوائد).
وأخرجه ابن ماجه (٣٩٣٤) عن عبد الله بن وهب عن أبي هاني عن عمرو بن مالك أن فضالة بن عبيد حدثه به ، فحدث به ابن وهب عن ابن هاني مباشرة، وأخرجه أحمد (٦/٢٢) ثنا قتيبة بن سعيد حدثني رشدين بن سعد عن حميد أبي هاني به . وفيه رشدين ضعيف.
وأخرج الترمذي (٢٧٦٢) والنسائي (٨/١٠٤) عن قتيبة أخبرنا الليث عن ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم**». وإسناده حسن، للكلام في محمد بن عجلان.

المُهَيْمِن
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٠)

* المعنى اللغوي :

قال بعضهم معناه الأمين، وهو من آمَنَ غيره من الخوف ، وأصله أأمن فهو مؤأَمِن بهمزتين قُلبت الهمزة الثانية ياءً كراهة اجتماعهما فصار مؤَيمن، ثم صُيرت الأولى هاءً كما قالوا هَراق وأراق .

وقال بعضهم : مُهيمن معنى مؤَيمن والهاء بدل من الهمزة كما قالوا هرقت وأرقت وكما قالوا إياك وهياك، وقال الأزهري: وهذا على قياس العربية صحيح، مع ما جاء في التفسير أنه بمعنى الأمين، قيل بمعنى مؤتمن[١] .

وقيل : إن (المهيمن) الرقيب الحافظ.

وقيل : إنه الشاهد تقول : فلانٌ مُهيْمني على فلان إذا كان شاهدُك عليه[٢] .

* وروده في القرآن العظيم :

ورد الاسم مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿**الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ**﴾ [الحشر: ٢٣].

وذكر الله معناه في قوله تعالى : ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا**

---

(١) «اللسان» (٦/ ٤٧٠٥).

(٢) «تفسير الأسماء» للزجاج (ص٣٢) وانظر: «أحكام القرآن» للقرطبي (٦/ ٢١٠).

لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى:**

قال ابن جرير: وقوله المهيمن اختلف أهل التأويل في تأويله فقال بعضهم: (المهيمن) الشهيد، قاله مجاهد وقتادة وغيرهم[١].

وقال أيضًا: وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب، يقال: إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده قد هيمن فلان عليه فهو يهيمن هيمنة وهو عليه مهيمن. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل إلا أنهم اختلفت عباراتهم عنه[٢].

وقال ابن كثير: قال ابن عباس وغير واحد أي: الشاهد على خلقه بأعمالهم، بمعنى هو رقيب عليهم كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦] وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦] وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ [الرعد: ٣٣][٣].

وقال الحليمي: (المهيمن) ومعناه لا ينقص للمطيعين يوم الحساب من طاعاتهم شيئًا فلا يثيبهم عليه، لأن الثواب لا يعجزه، ولا هو مُسْتكرهٌ عليه فيحتاج إلى كتمان بعض الأعمال أو جحدها، وليس ببخيل فيحمله استكثار الثواب إذا كثرت الأعمال على كتمان بعضها، ولا يلحقه نقص بما يثيب فيحبس بعضه، لأنه ليس منتفعًا بملكه حتى إذا نفع غيره به زال انتفاعه بنفسه.

---

(١) وقد رواه عنهما بأسانيد صحيحة. انظر (٢٨/٣٦).

(٢) «جامع البيان» (٦/١٧٢).

(٣)« تفسير ابن كثير» (٤/٣٤٣) وكذا قال الشوكاني في «فتح القدير» (٥/٢٠٨) وبمثله قال الألوسي في تفسيره (٢٨/٦٣). وانظر الجلالين (ص ٤٦٥).

وكما لا ينقص المطيع من حسناته شيئًا ، لا يزيد العصاة على ما اجترحوه من السيئات شيئًا فيزيدهم عقابًا على ما استحقوه ، لأنَّ واحدًا من الكذب والظلم غير جائز عليه ، وقد سمى عقوبة أهل النار جزاء ، فما لم يقابل منها ذنبًا لم يكن جزاء ، ولم يكن وِفَاقًا، فدل ذلك على أنه لا يفعله(١).

قال الرازي : في تفسيره وجوه :

الأول: (المهيمن) هو الشاهد ومنه قوله : ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال الشاعر:

إنَّ الكتابَ مُهيمنٌ لنبينا والحق يَعرفه أُولو الألباب

فالله سبحانه مهيمن أي : شاهد على خلقه بما يصدر منهم من قول أو فعل ، ولهذا قال : ﴿إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] فيكون المهيمن على هذا التقدير هو العالم بجميع المعلومات الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

الثاني : (المهيمن) هو المؤمن قلبت الهمزة هاء لأن الهاء أخف من الهمزة.

الثالث : قال الخليل بن أحمد: (المهيمن) هو الرقيب الحافظ ومنه قول العرب : هيمن فلان على كذا إذا كان محافظًا عليه.

الرابع : قال المبرد : (المهيمن) الحدب المشفق ، تقول العرب للطائر إذا طار حول وكره ورفرف عليه وبسط جناحه يذب عن فرخه : قد هيمن الطائر.

---

(١) المنهاج (١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٣ ـ ٦٤).

قال أمية بن أبي الصلت :

مَلِيكٌ على عَرشِ السماءِ مُهيمنٌ لعزتِهِ تَعنُو الوُجوه وتَسجد

الخامس : قال الحسن البصري : (المهيمن) المصدق ، وهو في حق الله تعالىٰ يحتمل وجهين:

أحدهما : أن يكون ذلك التصديق بالكلام ، فيصدّق أنبياءه بإخباره تعالىٰ عن كونهم صادقين.

الثاني : أن يكون معنىٰ تصديقه لهم هو أنه يظهر المعجزات علىٰ أيديهم.

السادس : قال الغزالي : اسم لمن كان موصوفًا بمجموع صفات ثلاث ، أحدها العلم بأحوال الشيء ، والثاني : القدرة التامة علىٰ تحصيل مصالح ذلك الشيء، والثالث : المواظبة علىٰ تحصيل تلك المصالح ، فالجامع لهذه الصفات اسمه «المهيمن» وأنىٰ أن تجتمع على الكمال إلا لله تعالىٰ[1].

وقال السَّعدي : (المهيمن) : المُطَّلع علىٰ خفَايا الأمور ، وخبايا الصدور، الذي أحَاطَ بكل شئ علمًا[2].

*** آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- إن الله سبحانه هو الشاهد علىٰ خلقه بما يصدر منهم من قول أو فعل ، لا يغيب عنه من أفعالهم شيء ، وله الكمال في هذا فلا يضل ولا ينسىٰ ولا يغفل : ﴿**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة: ٧٤] .

(١) «شرح الأسماء» (ص ١٩٢ ـ ١٩٤)، وانظر: قول الغزالي في «المقصد الأسنىٰ» (ص ٤١) وقد نقله بمعناه.

(٢) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠١).

٢- جعل الله تعالى كلامه المنزَّل على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ مُهيمنًا على ما قبله من الكتب ، فقال سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال ابن الحصـــار: ومعنى قوله تـــعالى : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أي: عالٍ ، وعلوه على سائر كتـــب الله ، وإن كان الكلُّ كلام الله تعالى بأمور:

أحدها: بما زاد عليها من السور ، فقد جاء في حديث الصحيح أن نبينا ﷺ خُصَّ بسورة الحمد وخواتيم سورة البقرة[(١)].

والأمر الثاني : أن جعله الله قرآنًا عربيًا مبينًا ، وكل نبي قد بينَّ لقومه بلسانهم ـ كما أخبر الله تعالى ـ ولكنْ للسان العرب مَزِيَّة في البيان.

والثالث : أنْ جعل نَظْمه وأُسلوبه معجزًا ، وإن كان الإعجاز في سائر الكتب المنزلة من عند الله سبحانه ، من حيث الإخبار عن المغَيبات ، والإعلام بالأحكام المحكمات ، وسنن الله المشروعات، وغير ذلك ، وليس فيها نظم وأسلوب خارج عن المعهود .

---

(١) يشير إلى ما أخرجه البخاري في مواضع منها (٨/ ١٥٦ ـ ١٥٧) من حديث أبي سعيد بن المعلى وفيه قولهﷺ: «**الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**».

أما خواتيم سورة البقرة، فليس حديثها في الصحيح ، وإنما أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٨٣) من حديث حذيفة وفيه : «**...وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة، من كنز تحت العرش لم يعطها نبي قبلي**» ورجاله ثقات رجال الشيخين ، انظر التعليق على كتاب «العرش» لابن أبي شيبة (٦٣).

فكان أعلى منها بهذه المعاني ، لهذا المعنى الإشارة بقوله الحق :
﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤][1].

* * *

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣١٥ ب ـ ٣١٦ أ).

العَزيز
جلّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١١)

*** المعنىٰ اللغوي:**

العزُّ في الأصل القوة والشدة والغلبة ، والعزُّ والعزةُ : الرفعة والامتناع ، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ أي : وله العزة والغلبة . ورجلٌ عزيز : منيعٌ لا يغلب ولا يقهر.

ويقال عزّني فلانٌ علىٰ الأمر : إذا غلبني عليه كقوله تعالىٰ : ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾وقوله تعالىٰ : ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: شددنا وقوّينا. وعزّ الشيء يَعزّ فهو عزيز قل حتىٰ ما كاد يوجد يعني أصبح نادرًا[١].

*** وروده في القرآن العظيم :**

ذكر (العزيز) في القرآن اثنتين وتسعين مرة منها :

قوله تعالىٰ : ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقوله تعالىٰ : ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤] .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء] وقد تكررت مرارًا.

وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقوله تعالىٰ : ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

---

(١) «اللسان» (٤/ ٢٩٢٥ ـ ٢٩٢٧) و«النهاية» (٣/ ٢٢٨) و«تفسير الأسماء» (ص ٣٣).

وقوله سبحانه: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [ص: ٦٦]

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى:**

قال قتادة: العزيز أي: في نقمته إذا انتقم[1].

وقال ابن جرير: (العزيز) الشديد في انتقامه ممن انتقم من أعدائه. وقال: (العزيز) في انتقامه ممن أراد الانتقام منه لا يقدر أحد يدفعه عنه[2].

وقال ابن كثير: (العزيز) أي: الذي قد عزّ كل شئ فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه[3].

وقال القرطبي: العزيز معناه المنيع الذي لا ينال ولا يغالب.

وقال ابن كيسان: معناه الذي لا يعجزه شئ دليله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

وقال الكسائي: (العزيز) الغالب ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] وفي المثل: «من عزّ بزّ» أي: من غلب سلب.

وقيل: العزيز الذي لا مثل له بيانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[4].

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٨/ ٣٦) ثنا بن عبد الأعلى ثنا ابن ثور عن معمر عنه. وهذا إسناد صحيح.

ابن عبد الأعلى: هو محمد بن عبد الأعلى الصنعاني: ثقة.

ابن ثور: هو محمد بن ثور الصنعاني، ومعمر: هو بن راشد، وأخرجه بإسناد آخر ثنا بشر ثنا يزيد ثنا سعيد عنه وهذا إسناد حسن وقد تقدم بيانه.

(٢) «جامع البيان» (٧/ ٩٠)، (٢٨/ ٣٦).

(٣) ابن كثير (٤/ ٣٤٣) و (٣/ ٤٥٧).

(٤) القرطبي (٢/ ١٣١) و«شأن الدعاء» للخطابي (ص ٤٧). وانظر: «فتح القدير» (٥/ ٢٠٨).

وقال البيهقي : وهو من صفات الذات[1].

وقال الحليمي : (العزيز) ومعناه الذي لا يُوصل إليه، ولا يمكن إدخالُ مكروهٍ عليه ، فإن (العزيز) في «لسان العرب» هو من : العزة والصلابة[2].

وقال السعدي : (العزيز) الذي له العزة كلها : عزة القوة ، وعزة الغلبة ، وعزة الامتناع ، فامتنع أن يناله أحدٌ من المخلوقات وقهر جميع الموجودات ، دانَت له الخليقة وخضعت لعظمته[3].

وهو ما نظمه ابن القيم في «النونية» بقوله :

وهو العزيزُ فلن يُرام جَنَابُه ... أنَّى يُرام جَنَابُ ذي السلطان؟!

وهو العزيزُ القَاهرُ الغلاَّبُ لم ... يَغْلبه شيءٌ هذه صِفتَانِ

وهو العزيزُ بقوةٍ هي وَصْفُهُ ... فالعزُّ حينئذٍ ثلاث معانِ

وهي التي كَمُلَتْ له سبحانه ... من كلِّ وجهٍ عادم النقصانِ[4]

وعلى هذا فيكون معنى الاسم على أربعة أوجه :

أ - (العزيز) : هو المنيع الذي لا يُرام جنابه .

ب - (العزيز) : هو القاهر الذي لا يغلب ولا يقهر .

جـ - (العزيز) : هو القوي الشديد .

---

(١) «الاعتقاد» (ص٥٥).

(٢) «المنهاج» (١/ ١٩٥) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٣٣).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٠٠ ـ ٣٠١).

(٤) «النونية» (٢/ ٢١٨).

د - العزيز بمعنى نفاسة القَدْر، وأنه سبحانه لا يعادله شيئ، ولا مِثْلَ له ولا نظير.

*** آثار الإيمان بهذا الاسم:**

١- الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى من أسمائه العزيز الذي لا يغلب ولا يقهر، يعطي المسلم شجاعة وثقة كبيرة به، لأن معناه أن ربه لا يُمانع ولا يُرد أمره وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءوا . والناظر في قصص الرسل والأنبياء عليهم أفضل الصلوات والتسليم يرى ذلك واضحًا جليًا، فمثلاً في قصة موسى عليه الصلاة والسلام حاول فرعون أن يمنع خروج هذا الصبي إلى الدنيا ، بأن أمر بقتل جميع الذكور من بني إسرائيل لأنه علم أنه سيخرج فيهم نبي ينتزع منه ملكه ولكن يأبي الله العزيز إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فولد موسى عليه الصلاة والسلام ، وكان أن تربى موسى في قصر فرعون وفي بيته وتحت رعايته ، ولما حاول أن يقتله أهلكه الله هو وقائده هامان وجنوده أجمعين .

وهكذا الأمر أيضًا بالنسبة ليوسف عليه الصلاة والسلام فقد أراد إخوته قتله في أول الأمر ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كان يريد منه أمرًا لابد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها فصرفهم الله عنه بمقالة «روبيل» فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب وهو أسفله[1].

ولما حاول اليهود قتل عيسى ﷺ رفعه الله إليه وكان الله عزيزًا حكيمًا.

وهكذا الأمر بالنسبة لنبينا محمد ﷺ فقد مكر به كفار قريش ليقتلوه

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٧٠).

أو يحبسوه أو يخرجوه من بلدته ، وحاولوا أن يصدوا الناس عن الإيمان به وبدعوته وحاربوه وألبوا عليه القبائل وحرضوا عليه اليهود والمنافقين في المدينة ، ولكن ذلك كله لم يمنع الإسلام من الانتشار في أرض الجزيرة العربية ، والسيطرة عليها، وظهور الغلبة والتمكين في الأرض للإسلام والمسلمين ولله الأمر من قبل ومن بعد .

٢- إن العزيز في الدنيا والآخرة هو من أعزه الله . قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فمن طلب العز فليطلبه من رب العزة كما قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠] أي : من كان يحب أن يكون عزيزًا في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى فإنه يحصل له مقصوده لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعًا .

وبذلك تعلم ضلال من بحث عن العزة عند غير الله تعالى ، وبغير طاعته والتزام نهج المؤمنين ، فعادى رب العزة وشريعته ، وحارب حزبه المؤمنين ووالى أعداء الله من المشركين واليهود والنصارى وغيرهم ظنًا منه أن هذا هو سبيل العزة وطريقها ، قال تعالى منكرًا عليهم : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩].

ومع عظم الطاعة تزداد العزة ، فأعز الناس هم الأنبياء ثم الذين يلونهم من المؤمنين المتبعين لهم.

قال فخر الدين الرازي : وعزة كل أحد بقدر علو رتبته في الدين

فإنه كلما كانت هـذه الصفـة فيـه أكمـل كان وجدان مثله أقل وكان أشد عزة وأكمـل رفعـة ولهـذا قال تعـالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨][1].

٣- كثيراً ما اقترن اسمه (العزيز) مع (الرحيم) كما في سورة الشعراء وغيرها، فالله عزيز في رحمته، رحيم في عزته وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة، فهو رحيم بلا ذل[2].

٤- من أسباب العزة العفو والتواضع :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : **«مَا نَقَصَتْ صدقةٌ من مالٍ وما زَادَ اللهُ عَبْداً بعَفْوٍ إلا عِـزاً، وما تَواضَـعَ أحَـدٌ لله إلا رَفَعَـه الله»**[3].

فمن عفا عن شيء مع قدرته على الانتقام ، عظم في القلوب في الدنيا، أو في الآخرة بأن يعظم ثوابه أو فيهما ، ومن تواضع رجاء التقرب إلى الله دون غرض غيره. رفعه الله عند الناس وأجل مكانه.

٥- سمَّى الله تبارك وتعالى كتابه (العزيز) في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ

(١) «شرح الأسماء» (ص ١٩٦).

(٢) ابن كثير (٣/ ٤٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) والترمذي (٢٠٩٨) وقال: حديث حسن صحيح. وجاء من حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ: **«ما من آدمي إلا في رأسه حكَمَةٌ بيد مَلَك فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته وإذا تكبر قيل للملك: دع حكمته»**. رواه الطبراني في «الكبير» برقم (١٢٩٣٩) والبزار بنحوه عن أبي هريرة ومداره على عليّ بن زيد بن جدعان وهو ضعيف لسوء حفظه وقد أورد له شيخنا محمد ناصر الدين الألباني شاهداً يرويه ابن عساكر في «مدح التواضع» وحسنه. انظر: «الصحيحة» رقم (٥٣٨).

الحكمة: بالتحريك ما يجعل تحت حنك الدابة يمنعها المخالفة كاللجام والحنك متصل بالرأس.

الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

قال قتادة : أعزه الله لأنه كلامه وحفظه من الباطل[1].

فكلامه تعالى عزيز محكم لا يتطرق إليه الباطل.

قال ابن جرير : لا يستطيع ذو باطل بكيده تغييره بكيده وتبديل شئ من معانيه عما هو به وذلك هو الإتيان من بين يديه ، ولا إلحاق ما ليس منه فيه وذلك إتيانه من خلفه وقوله : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]. يقول تعالى ذكره هو تنزيل من عند ذي حكمة بتدبير عباده وصرفهم فيما فيه مصالحهم، حميد: يقول محمود على نعمه عليهم بأياديه عندهم[1].

* * *

(١) أخرجه ابن جرير (٢٤/٧٩) عنه بإسناد حسن.

الجبَّار
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٢)

*** المعنىٰ اللغوي:**

جَبَرَ الرجلُ علىٰ الأمر يَجبرُه جَبْرًا وجُبُورًا وأجبره : أكرَهَه عليه. والجَبْر خلاف الكسر جَبَر العظم يَجبُره جَبْرًا والجَبْر أن تُغني الرجل من الفقر، أو يَجبر عظمه من الكسر، وتجبر النبتُ والشجر: اخضَرَّ وأورق.

و(الجبار) : العظيم القوي الطويل . قال الله تعالىٰ : ﴿**إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ**﴾ [المائدة: ٢٢].

قال اللحياني : أراد الطول والقوة والعظم .

قال الأزهري : كأنه ذهب به إلىٰ الجبار من النخيل . وهو الطويل الذي فات يد المتناول ، ونخلةٌ جبارة أي : عظيمة سمينة.

وتجبر الرجل إذا تكبر. قال تعالىٰ : ﴿**وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا**﴾ [مريم: ٣٢] أي : متكبرًا علىٰ عبادة الله تعالىٰ[١].

*** وروده في القرآن الكريم:**

ورد هذا الاسم في القرآن مرة واحدة في قوله تعالىٰ : ﴿**الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ**﴾ [الحشر: ٢٣] .

---

(١) انظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ٢٣٥) و«لسان العرب» (١/ ٥٣٥) و«تفسير الأسماء» للزجاج (ص/ ٣٤)، و«شأن الدعاء» (ص ٤٨).

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال الطبري: (الجبار): يعني المصلح أمور خلقه المصرفهم فيما فيه صلاحهم[1] وقال قتادة: جبر خلقه على ما يشاء من أمره[2].

وقال الخطابي: (الجبار) هو الذي جبر الخلق على ما أراد من أمره ونهيه، يقال: جبره السلطان وأجبره بالألف.

ويقال: هو الذي جبر مفاقر الخلق وكفاهم أسباب المعاش والرزق.

ويقال: بل الجبّار العالي فوق خلقه من قولهم: تجبر النبات إذا علا واكتهل ويقال للنخلة التي لا تنالها اليد طولاً الجبارة[3].

وقال الشوكاني: (الجبار): جبروت الله عظمته، والعرب تسمي الملك: الجبار[4].

وقال السعدي: (الجبار): هو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى الرؤوف الجابر للقلوبِ المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لاذَ به ولجأ إليه[5].

قلت: وهو ما نظمه ابن القيم في «النونية»:

وكذلك الجبَّارُ من أوْصَافه ... والجَبْرُ في أوْصَافِه قِسْمانِ
جَبْرُ الضَّعيفِ وكلُّ قلبٍ قد غَدَا ... ذا كَسْرَةٍ فالجبر منه دَانِ

---

(١) الطبري (٢٨/ ٣٦) وابن كثير (٤/ ٣٤٣).

(٢) رواه ابن جرير عنه بإسناد صحيح.

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٤٨) وراجع «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٣٤ ـ ٣٥) و«الاعتقاد» للبيهقي (ص ٥٥) والقرطبي (١٨/ ٤٧) وروح المعاني (٢٨/ ٦٣).

(٤) «فتح القدير»: (٥/ ٢٠٨).

(٥) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠١).

والثاني جَبْرُ القَهْر بالعزِّ الذي ... لا ينبغي لِسواه من إنسانِ
وله مسمًى ثالث وهو العُلُو ... فليس يَدْنُو منه من إنسانِ
من قولهم جَبَّارة للنَّخْلةِ الـ ... عليا التي فَاتَتْ لكلِّ بنانِ[1]

فيكون معنى الجبار على وجوه:

١- (الجبار): هو العالي على خلقه ، وفعّال من أبنية المبالغة.

٢- (الجبار): هو المصلح للأمور من جبر الكسر إذا أصلحه وجبر الفقير إذا أغناه.

٣- (الجبار) هو القاهر خلقه على ما أراد من أمر أو نهي[2]. كما قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] أي: لست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى ولم تكلف بذلك.

وعلى المعنى الأول يكون من صفات الذات وعلى المعنى الثاني والثالث يكون من صفات الفعل.

*** آثار الإيمان بهذا الاسم:**

١- إن الله تعالى هو الجبار الذي له العُلُوُّ على خلقه، علو الذات، وعلو القَدْر والصفات، وعلو القهر والجبر[3]، لا يدنو منه الخلق إلا بأمره، ولا يشفعون أو يتكلمون إلا من بعد إذنه، لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه.

٢- جَبَرَ الله تعالى خَلْقَــه على ما أراد أنْ يكونــوا عليه من خَلْق، لا يمتنع عليه شــئ منهــم أبدًا ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن

(١) «النونية» (٢/ ٢٣٢).

(٢) انظر: «شرح الأسماء» للرازي (ص ١٩٧ ـ ١٩٨) ولسان العرب (١/ ٥٣٤).

(٣) ويأتي الكلام على العلو بالتفصيل عند أسمائه تعالى (العلي ـ الأعلى ـ المتعال).

فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

[فصلت: ١١ ـ ١٢].

أي: استجيبا لأمري، وانفعلا لفعلي، طائعتين أو مكرهتين.

٣- والله سبحانه جبر خلقه أيضًا على ما شاء من أمر أو نهي، بمعنى أنه شرع لهم من الدين ما ارتضاه هو، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

فشرع لهم من الشرائع ما شـاء، وأمرهم باتباعها ونهاهم عن العدول عنها، فمن أطاع فلـه الجنة ومن عصى فله النار. ولم يجبر أحدًا من خلقه على إيمـان أو كفـر، بل لهـم المشيئـة في ذلـك كما قال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

[الكهف: ٢٩].

وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠] وهم مع ذلك لا يخرجون

عن مشيئته[1].

ولو شاء الله لهدىٰ الناس جميعًا، ولم يجعل لهم اختيارًا كما قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].

٤- الجبروت لله وحده وقد مدح الله بهذا الاسم نفسه وأما في حق الخلق فهو مذموم فما الفرق؟.

الفرق أنه سبحانه قهر الجبابرة بجبروته وعلاهم بعظمته لا يجري عليه حكم حاكم فيجب عليه انقياده، ولا يتوجه عليه أمر آمر فيلزمه امتثاله، آمر غير مأمور، قاهر غير مقهور ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وأما الخلق فهم موصوفون بصفات النقص مقهورون مجبورون تؤذيهم البقة وتأكلهم الدودة، وتشوشهم الذبابة، أسير جوعه، وصريع شبعه ومن تكون هذه صفته كيف يليق به التكبر والتجبر؟![2].

وقد أنكرت الرسل علىٰ أقوامها صفة التجبر والتكبر في الأرض بغير الحق كما قال تعالىٰ عن هود ﷺ أنه قال لقومه: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٣٠، ١٣١] إلىٰ أن قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥]. ولكنهم عاندوا واتبعوا

---

(١) وأما الجبرية الضلال فإنهم نفوا أن يكون للعبد أي فعل أو اختيار، فقالوا: الإنسان كالميت الذي لا فعل له، أو كالشجر الذي تحركه الريح! والفاعل في الحقيقة هو الله!! وهو مع ذلك ملوم ومحاسب على فعله!! هذا هو التوحيد عندهم!
وسيأتي مزيد من التفصيل في الكلام على خلق أفعال العباد، انظر آثار الإيمان بـ(الخالق) رقم (٣).

(٢) شرح الأسماء للرازي (ص ١٩٩).

أمر جبابرتهم فهلكوا أجمعين. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩)﴾ [هود: ٥٩].

وقد كان التجبر سببًا للطبع على قلوبهم فلم تعرف معروفًا ولم تنكر منكرًا ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وقد توعد الله سبحانه الجبابرة بالعذاب والنكال، توعدهم بجهنم وبئس المهاد، قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٥ - ١٧].

وقال ﷺ: «يَخرج عنقٌ من النار يوم القيامة له عينان تُبصران وأُذُنان تَسمعان ولسانٌ ينطق يقول: إني وكِّلتُ بثلاثـة: بكـلِّ جبّار عَنيد، وبكل من دعَا مع الله إلهًا آخر وبالمصورين»[1].

وقال ﷺ: « تَحاجّت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبّرين والمتجبّرين...»[2].

٥- الأرض كلها خبزة بيد الجبار سبحانه وتعالى يوم القيامة:

عن أبي سعيد الخدريّ قال قال رسول الله ﷺ: «تَكُونُ الأَرضُ يومَ القِيامة خُبزةً واحدةً يَتكفَّؤها الجبَّارُ بيده كما يكفأ أحدُكم خبزته في السفر نُزُلاً لأهل الجنة..»[3].

(١) رواه أحمد (٢/٣٣٦) والترمذي (٢٦٩٨) كلاهما من طريق عبد العزيز بن مسلم عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعًا وإسناده صحيح، رجاله رجال الشيخين.

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦).

(٣) رواه البخاري (٦٥٢٠) ومسلم (٢٧٩٢) ومعنى «يكفؤها الجبار بيده»: أيّ: يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتستوي لأنها ليست منبسطة كالرقاقة ونحوها وتكون كالرغيف العظيم ويكون ذلك طعامًا نزلاً لأهل الجنة.

٦- وكان النبي ﷺ يدعو بين السجدتين فيقول: «**اللهم اغفِر لي وارْحَمني واجْبُرْني وارْفَعني واهْدِني وعافني وارزقني**»[(١)].

فكان يدعو بما دلّ عليه اسم (الجبار) جل وعلا.

قال ابن الأثير: واجبرني أي: أغْنِني، من جَبَر الله مصيبته: أي: ردّ عليه ما ذَهَب منه وعوضه، وأصله من جَبْر الكسر[(٢)].

وكان يعظم ربه أيضًا بهذا الاسم في الصلاة في الركوع والسجود كما جاء في حديث عوف بن مالك الأشجعي أنه كان يقول في ركوعه: «**سُبْحَانَ ذِي الجَبروتِ والمَلكوتِ والكِبْرياءِ والعَظَمة**»[(٣)]، وفي سجوده مثل ذلك.

* * *

---

(١) رواه أبو داود (٨٥٠) والترمذي (٢٨٣) وابن ماجه (٨٩٨) والحاكم (١/ ٢٧١) وصححه من طريق كامل أبي العلاء عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول بين السجدتين: «**اللهم اغفر**» إلخ. ورجاله ثقات سوى كامل أبو العلاء: وهو ابن العلاء التميمي الكوفي صدوق يخطيء كذا في «التقريب»، فالحديث إسناده حسن والله أعلم.

(٢) «النهاية» (١/ ٢٣٦).

(٣) حديث حسن: أخرجه أبو داود (٨٧٣) والنسائي (٢/ ٢٢٣) من طريق معاوية بن صالح عن عمرو بن قيس عن عاصم بن حميد عن عوف بن مالك الأشجعي.
معاوية بن صالح: هو بن حُدير صدوق له أوهام ، وعمرو بن قيس: هو ابن ثور ثقة وعاصم: هو السكوني مخضرم صدوق، فالحديث حسن بهذا الإسناد.

المُتَكَبِّر ـ الكَبِير(١)
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٣ ـ ١٤)

*** المعنى اللغوي:**

يقال كَبُرَ بالضم يكبُر أي: عَظُمَ فهو كبير.

قال ابن سيده: الكبر: نقيض الصغر، وكَبَّر الأمر: جعله كبيرًا، واستكبره رآه كبيرًا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ [يوسف: ٣١] أي أعظمنه. والتكبير: التعظيم، والتكبر والاستكبار: التعظم، والكِبْرُ: الرفعة في الشرف، والكبرياء: الملك كقوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨] والكبرياء أيضًا: العظمة والتجبر.

والتاء التي في (المتكبر) ليست تاء التعاطي والتكلف كما يقال فلان يتعظم وليس بعظيم ويتسخى وليس بسخي وإنما هي تاء التفرد والتخصص.

قال الأزهري: التفعل قد يجيء بغير التكلف ومنه قول العرب: فلان يتظلم أي: يظلم، فلان يتظلم أي: يشكو من الظلم ـ وهذه الكلمة من الأضداد ـ فثبت أن هذا البناء غير مقصور على التكلف(٢).

وقال الرازي بعد أن ساق كلام الأزهري: وأنا أقول يمكن أن يجاب بوجه آخر وهو أن المتفعل هو الذي يحاول إظهار الشيء ويبالغ في ذلك

(١) ولقرب معناهما فإننا نتكلم عنهما في فصل واحد.

(٢) «النهاية» (٤/ ١٣٩ ـ ١٤٠)، «لسان العرب» (٥/ ٣٨٠٧ ـ ٣٨١٠).

الإظهار، ثم إن كان صادقًا فيه كان ذلك الإظهار منه صفة مدح، وإن كان كاذبًا كان صفة ذم[1].

*** ورود الاسمين في القرآن الكريم:**

سمى الله سبحانه وتعالى نفسه بـ(المتكبر) في آية واحدة من القرآن الكريم في قوله ﴿**الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ**﴾ [الحشر: ٢٣].

وأما اسمه (الكبير) فقد ورد في ستة مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**﴾ [الرعد: ٩]، وقوله: ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾ [الحج: ٦٢]، وقد جاء مقترنًا باسمه (العلي) و (المتعال).

*** معنى الاسمين في حق الله تعالى:**

قال قتادة: (المتكبر) أي: تكبر عن كل شر[2].

وقيل (المتكبر): هو الذي تكبر عن ظُلم عباده، وهو يرجع إلى الأول[3].

وقال الخطابي: هو المتعالي عن صفات الخلق، ويقال: هو الذي يتكبر على عُتاةِ خلقه إذا نازعوه العظمة[4].

وقال القرطبي (المتكبر): الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله وقيل: (المتكبر) عن كل سوء، المتعظم عما لا يليق به من صفات الحدث والذم. وأصل الكبر والكبرياء الامتناع وقلة الانقياد. قال حُميد بن ثور:

---

(١) «شرح الأسماء» للرازي (ص٢٠١).

(٢) رواه الطبري (٢٨/ ٣٧) عنه بإسناد صحيح.

(٣) انظر: الطبري (٢٨/ ٣٧) وابن كثير (٤/ ٣٤٣).

(٤) «شأن الدعاء» (ص ٤٨) و «الاعتقاد» (ص٥٥).

عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت

بها كبرياء الصعب وهي ذلول[1]

وقال عبد الله النسفي: هو البليغ الكبرياء والعظمة[2].

وأما ما قاله العلماء في معنى اسمه (الكبير) فإنه مشابه لما ذكرنا من معنى (المتكبر).

قال ابن جرير: (الكبير) يعني العظيم الذي كل شيء دونه ولا شيء أعظم منه[3].

وقال الخطابي: (الكبير) هو الموصوف بالجلال وكِبَر الشأن فصغر دون جلاله كل كبير، ويقال: هو الذي كَبُر عن شَبَهِ المخلوقين[4].

وعلى هذا يكون معنى (المتكبر) و(الكبير):

١- الذي تكبر عن كل سوء وشر وظلم.

٢- الذي تكبر وتعالى عن صفات الخلق فلا شيء مثله.

٣- الذي كبر وعظم فكل شيء دون جلاله صغير وحقير.

٤- الذي له الكبرياء في السموات والأرض أي: السلطان والعظمة.

*** آثار الإيمان بهذين الاسمين:**

١- إن الله أكبر من كل شيء، وأكبر من أنْ يُعرف كُنْه كبريائه وعظمته وأكبر من أن نحيط به علمًا. قال تعالى: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٠]،

(١) القرطبي (١٨/٤٧) و«فتح القدير» (٥/٢٠٨).

(٢) «تفسير النسفي» (٤/٢٤٥).

(٣) «جامع البيان» (١٣/٧٥) و (١٧/١٣٧) وانظر ابن كثير (٢/٥٠٣) و (٣/٢٣٢) والشوكاني (٣/٦٨).

(٤) «شأن الدعاء» (ص ٦٦).

فالله جلت عظمته أكبر من أن نعرف كيفية ذاته أو صفاته ولذلك نهينا عن التفكر في الله لأننا لن ندرك ذلك بعقولنا الصغيرة القاصرة المحدودة ، فقد قال ﷺ : «**تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في الله عز وجل**»[1].

وقد وقع الفلاسفة في ذلك وحاولوا أن يدركوا كيفية وماهية ربهم بعقولهم فتاهوا وضلوا ضلالاً بعيداً ولم يجنوا سوى الحيرة والتخبط والتناقض فيما سطروه من الأقوال والمعتقدات.

فمن أراد معرفة ربه وصفاته فعليه بطريق الرسول ﷺ لأنه أعلم الخلق بالله وصفاته، فعليه أُنزل الكتاب العزيز الذي لا تكاد الآية منه تخلو من صفة لله سبحانه سواء كانت ذاتية أو فعلية أو اسم من أسمائه الحسنى، وعليه أيضًا أنزلت السنة الشارحة والمفصلة للكتاب، فطريقه ﷺ هو الطريق الأسلم ومنهجه هو المنهج الأقوم، فمن اتبعه كان من الناجين، ولذلك بيّن في الحديث الصحيح أن الفرقة الناجية هي ما كان عليه هو وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين في المعتقد والعبادة والسلوك.

٢- إن التكبر لا يليق إلا به سبحانه وتعالى، فصفة السيد التكبر والترفع وأما العبد فصفته التذلل والخشوع والخضوع.

وقد توعد الله سبحانه المتكبرين بأشد العذاب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ [الأحقاف: ٢٠].

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط واللالكائي في السنة (٢/ ٥٢٥) والبيهقي في «الشعب» (١٢٠) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٦٦ - ٦٧) وقد حسنه الألباني حفظه الله بمجموع طرقه انظر: «السلسلة الصحيحة» (١٧٨٨).

وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

واستكبارهم هذا: هو رفضهم الانقياد لله ولأوامره ورفضهم عبادة ربهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، فرفضوا الإذعان لكلمة التوحيد وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: ٣١] يبين أنهم رفضوا الحق الذي جاءت به الرسل وردّوه ولم يقبلوه، وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] يبين أنهم احتقروا أتباع الرسل لكونهم من ضعفة الناس وفقرائهم فلم يدخلوا في جماعتهم ولم يشاركوهم في الإيمان بما جاءت به الرسل[١].

وكان الكبر سببًا للطبع على قلوبهم فلم تعد تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا. قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

فالحاصل أن الكبر كان سببًا في هلاك الأمم السابقة، بل كان السبب في هلاك إبليس عليه لعنة الله وطرده من رحمة الله أنه أبى أن يسجد لآدم ﷺ واستكبر على أمر ربه سبحانه، قال تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

٣- ولا يكاد يخلو طاغية في الأرض من هذا المرض العضال،

---

(١) وهذا كله يبينه حديثُ النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثال ذرة من كبر، قال رجلٌ: إن الرجل يحبُ أن يكون ثوبهُ حسنًا ونعلُهُ حسنةً. قال: إن الله جميلٌ يحبُ الجمال. الكبرُ بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس» رواه مسلم (٩١) وغيره عن عبد الله بن مسعود. فوضح ﷺ الكبر بأنه بطر الحق أي: دفعه وإنكاره تكبرًا وترفعًا وتجبرًا. وغمط الناس أي: احتقارهم وازدراؤهم.

الذي كثرت الآيات فيه والأحاديث المحذرة منه، والآمرة بالتواضع.

ودواؤه أن يتذكر العبد دومًا أنه لا حول له ولا قوة إلا بربه وأن الله هو الكبير المتعال على الخلق أجمعين، القادر على الانتقام من الأقوياء للضعفاء والمساكين كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٣٤] أي: والنساء اللاتي تتخوفون أن يعصين أزواجهن فذكروهن بالله فإن هي رجعت وإلا هجرها، فإن أقبلت وإلا ضربها ضربًا غير مبرّح، فإذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها مما أباحه الله فلا سبيل له عليها، قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب فإن الله العلي الكبير وليّهن، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن[1].

فذكّر الله الرجال بأنه هو العلي الكبير ليحذرهم من الظلم والتكبر والطغيان على المرأة الضعيفة.

٤- والكبر يمنع أيضًا من طلب العلم والسؤال عنه، لأن المتكبر يترفع عن الجلوس بين يدي العالم للتعلم ويرى أن في ذلك مهانة له ويؤثر البقاء على الجهل فيجمع بين الكبر والجهل، بل قد يجادل ويناقش ويخوض في المسائل بدون علم حتى لا يقال أنه لا يعلم فيصغر عند الناس، قال تعالى ذكره: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ⑧ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨، ٩].

أي: ومن الناس من يجادل في الله بغير علم صحيح ولا نقل صريح

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٩١ - ٤٩٢).

بل بمجرد الرأي والهوى وإذا دعي إلى الحق ثنى عطفه أي: لوى رقبته مستكبرًا عما يدعى إليه من الحق كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] فأخبر تعالى أن له في الدنيا الخزي وهو الإهانة والذل لأنه استكبر عن آيات الله فجوزي بنقيض قصده وله في الآخرة عذاب النار المحرقة.

ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

وقد ذم السلف الكبر في العلم فمن أقوالهم:

من أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن خالط الأنذال حقر ، ومن جالس العلماء وقر.

وقال إبراهيم بن الأشعث: سألت الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعته ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه.

وقال سعيد بن جبير : لا يزال الرجل عالمًا ما تعلم فإذا ترك التعلم وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون.

ونبي الله موسى عليه الصلاة والسلام لم تمنعه منزلة النبوة من أن يطلب العلم ممن هو دونه فقال للخضر عليه الصلاة السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

ولم يزل علماء السلف يستفيدون من طلبتهم ما ليس عندهم. قال الحميدي وهو تلميذ الشافعي: صحبت الشافعي من مكة إلى مصر فكنت استفيد منه المسائل وكان يستفيد مني الحديث.

وقال أحمد بن حنبل: قال لنا الشافعي أنتم أعلم بالحديث مني فإذا صح عندكم الحديث فقولوا لنا حتى آخذ به.

وما أحسن قول القائل:

ليس العمى طول السؤال وإنما

تمام العمى طول السكوت على الجهل[1]

* * *

(١) انظر فيما سبق «جامع بيان العلم وفضله» (١/١٧١ ـ ١٧٥) و«تذكرة السامع والمتكلم» (ص٢٨ ـ ٢٩).

الخَالق ـ الخَلاَّق
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٥، ١٦)

*** المعنى اللغوي:**

اعلم أن الخلق في كلام العرب على وجهين:

أحدهما : الإنشاء على مثال أبدعه لم يسبق إليه أحدثه بعد إذ لم يكن.

والآخر: التقدير، وخلَقَ الأديم يَخْلقه خَلْقًا: قدّره لما يريد قبل القطع وقاسه ليقطع منه مزادة أو قربة أو خفًا.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿**يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ**﴾ [الزمر: ٦] أي يخلقكم نطفًا ثم علقًا ثم مضغًا.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿**وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا**﴾ [العنكبوت: ١٧] أي تقدرونه وتهيئونه، وهو كذب كقوله تعالى: ﴿**إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ**﴾ [ص: ٧].

وقال زهير يمدح رجلاً:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفْري

أي: أنت إذا قدّرت أمرك قطعته وأمضيته، وغيرك يقدّر ثم لا يشرع في الأمر[1].

---

(١) «النهاية» (٢/ ٧٠) و«اللسان» (٢/ ١٢٤٤) و«تفسير الأسماء» (ص ٣٥ ـ ٣٧).

وروده في القرآن الكريم:

ورد اسمه «الخالق» في أحد عشر موضعًا في القرآن منها:

قوله تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ**﴾ [الحشر: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ**﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩].

وغيرها من الآيات.

وجاء الاسم بصيغة المبالغة مرتين في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ**﴾ [الحجر: ٨٦]، وقوله سبحانه: ﴿**بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ**﴾ [يس: ٨١].

*** المعنى في حق الله تبارك وتعالى:**

الخلق كما بيّنا يراد به الإيجاد والإبداع تارة، والتقدير تارة أخرى، فمن الآيات التي تدل على المعنى الأول قوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**﴾ [يس: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩]. ولو كان الخلق ها هنا عبارة عن التقدير لصار معنى الآية إنا كل شيء قدرناه بقدر فيكون تكريرًا بلا فائدة.

وكذا قوله تعالى: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً**﴾ [الفرقان: ٢] فلو كان الخلق عبارة عن التقدير لصار معنى الآية وقدر كل شيء فقدره تقديراً.

وكذا قوله تعالى: ﴿**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ**﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فلا يليق بلفظ الخلق هنا إلا الإيجاد، وقوله تعالى: ﴿**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا**

خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١] مثلها أيضًا في المعنى، بل قد جاءت بعض الآيات ذكر فيها الخلق مقرونًا باليد كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

قال ابن جرير في تفسيرها:

«قال الله لإبليس إذ لم يسجد لآدم وخالف أمره: يا إبليس ما منعك أن تسجد، يقول: أيُّ شيء منعك من السجود لما خلقت بيديّ، يقول: لخلق يديَّ، يخبر تعالى ذكره بذلك أنه خلق آدم بيديه كما حدثنا ابن المثنى قال ثنا محمد بن جعفر قال ثنا شعبة قال أخبرني عبيد المكتب قال سمعت مجاهدًا يحدث عن ابن عمر قال: «**خلق الله بيده: العرش وعدن والقلم وآدم ثم قال لكل شيء: كُن فكان**»[1].

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] بقول مجاهد وهو قوله: فتبارك الله أحسن الخالقين. قال يصنعون ويصنع الله والله خير الصانعين، ثم قال لأن العرب تسمي كل صانع خالقًا[2].

وقال الخطابي: (الخالق): هو المبدع للخلق والمخترع له على غير مثال سبق. قال سبحانه: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

فأما في نعوت الآدميين فمعنى الخلق التقدير كقوله عز وجل: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩][3].

---

(١) «جامع البيان» (٢٣/١١٩) والأثر الذي ذكره إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين سوى عبيد المكتب وهو ابن مهران فمن رجال مسلم. وتابع شعبة عبد الواحد بن زياد عند الدارمي «الرد على المريسي» (ص ٩٠) وذكره الذهبي في «العلو» (ص ٦٦).

(٢) (١٨/٩).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٤٩).

وقال الزّجّاج: فالخلق في اسم الله تعالى هو ابتداءُ تقدير النشء، فالله خالقها ومنشئها وهو متممها ومدبرها فتبارك الله أحسن الخالقين[1].

وقال الحليمي: قال الله عز وجل: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣].

ومعناه: الذي صنّف المبدعات، وجعل لكل صنف منها قدراً، فوجد فيها الصغير والكبير والطويل والقصير، والإنسان والبهيم والدابة والطائر، والحيوان والموات، ولا شك في أن الاعتراف بالإبداع يقتضي الاعتراف بالخلق، إذ كان الخلق هيئة الإبداع فلا يغني أحدهما عن الآخر.

وقال: «الخلاق» ومعناه: الخالق خَلْقًا بعد خَلْق[2].

***

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٣٦ ـ ٣٧) وانظر: «الاعتقاد» للبيهقي (ص ٥٦) و«النهاية» لابن الأثير (٢/ ٧٠).

(٢) «المنهاج» (١/ ١٩٣) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الإبتداع والاختراع له، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٢٥ ـ ٢٦)

البَارئ
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٧)

* المعنى اللغوي:

قال ابن الأعرابي: برئ إذا تَخلَّصَ، وبرئ إذا تنزه وتباعد، وبرئ إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي إعذار وإنذار.

وأصبح بارئًا من مرضه وبريئًا كقولك صحيحًا وصحاحًا، وقد أبرأه الله من مرضه إبراءً.

وقال الأخفش: يقال برئت العود وبروته إذا قطعته وبريت القلم بغير همز إذا قطعته وأصلحته.

والبرية: الخلق وأصلها الهمز وقد تركت العرب همزها.

وقال الفرّاء: وإذا أخذت البرية من البرَي وهو التراب فأصلها غيرُ الهمز[1]. وقد وردت في القرآن كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم ثلاث مرات في القرآن، مرة في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ﴾ [الحشر: ٢٤].

---

(١) «النهاية» (١/ ١٢٢) و«اللسان» (١/ ٢٣٩) و«تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٣٧) و«شرح الأسماء» للرازي (ص ٢٠٧) و«شأن الدعاء» (ص ٥٠).

ومرتين في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

*** المعنى في حق الله تعالى:**

قال ابن جرير: (الباريء) الذى برأ الخلق فأوجدهم بقدرته[١].

وقال الزّجّاج: (الباريء) يقال برأَ الله الخلق فهو يبرؤهم برءًا: إذا فطرهم.

والبَرْءُ: خلق على صفة ، فكل مبروءٍ مخلوق، وليس كل مخلوق مُبروءًا وذلك لأنّ البَرء من تبرئة الشئ من الشيء من قولهم: برأتُ من المرض، وبَرِئت من الدَّين أبرأ منه، فبعض الخلق إذا فُصل من بعض سمّي فاعله بارئًا[٢].

وقال الشوكاني: البارئ الخالق، وقيل إن (الباريء) هو: المبدع المحدث[٣].

وقال الخطابي: البارئ هو الخالق. ثم قال: إلا أنّ لهذه اللفظة من الاختصاص بالحيوان ما ليس لها بغيره من الخلق وقلّما يستعمل في خلق السماوات والأرض والجبال فيقال: برأ الله السماء كما يقال: برأ الله الإنسان وبرأ النَسَم[٤].

وقال ابن كثير: الخلق هو التقدير، والبرء هو الفري وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئًا ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل.

---

(١) «تفسير ابن جرير» (٣٧/٢٨).

(٢) «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٢٧).

(٣) «فتح القدير» (١/ ٨٦).

(٤) «شأن الدعاء» (ص ٥١) و«النهاية» لابن الأثير (١/ ١١١).

قال الشاعر يمدح آخر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـــ ـــض القوم يخلق ثم لا يفري[1]

وقال الحليمي رحمه الله: وهذا الاسم يحتمل معنيين أحدهما: الموجد لما كان في معلومه من أصناف الخلائق. وهذا هو الذى يشير إليه جل وعز: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢] ولا شك أن إثبات الإبداع والاعتراف به للباري جل وعز ليس يكون على أنه أبدع بغتة من غير علم سبق له بما هو مبدعه، لكن على أنه كان عالمًا بما أبدع قبل أن يُبدع، فكما وجب له عند الإبداع اسم البديع، وجب له اسم (الباريء).

والآخر: أن المراد بالباريء قالب الأعيان، أي: أنه أبدع الماء والتراب والنار والهواء لا من شيء، ثم خلق منها الأجسام المختلفة كما قال جل وعز: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وقال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١] وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] وقال: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤] وقال: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٣٤٣) عند قوله تعالى: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] وقال الرازى: فإن فسرنا الخالق ها هنا بالمقدّر حَسُنَ انتظام هذه الأسماء الثلاثة على هذا الترتيب. «الأسماء» (٢٠٦).

فيكون هذا من قولهم: برأ القوَّاسُ القوسَ، إذا صنعها من موادها التي كانت لها فجاءت منها لا كهيئتها، والاعتراف لله عز وجل بالإبداع يقتضي الاعتراف له بالبرء، إذ كان المعترف يعلم به نفسه أنه منقول من حال إلى حال، إلى أن صار ممن يقدر على الاعتقاد والاعتراف»[1].

ويمكن أن نلخص القول في معنى (الباريء) على وجوه:

١- أن (الباريء) هو الموجد والمبدع ، من برأ الله الخلق إذا خلقهم. وبهذا يكون الاسم مشابهًا ومرادفًا لـ(الخالق).

٢- (الباريء) هو الذي فصل بعض الخلق عن بعض، أي: ميز بعضه عن بعض، وأن أصله من البرء الذي هو القطع والفصل.

٣- أن (الباريء) يدل على أنه تعالى خلق الإنسان من التراب كما قال: ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ** ﴾ [طه: ٥٥]، وأن أصله من البري وهو التراب[2].

٤- وهناك معنى رابع ذكره الزمخشري فقال: (الباريء) هو الذي خلق الخلق بريئًا من التفاوت: ﴿ **مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ** ﴾ [الملك: ٣][3]. أي: خلقهم خلقًا مستويًا ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا نقص ولا عيب ولا خلل، أبرياء من ذلك كله.

* * *

(١) «المنهاج» (١/ ١٩٢ -١٩٣) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداع والاختراع له، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٢٤).

(٢) انظر: «شرح الأسماء» للرازي (ص ٢٠٧ - ٢٠٨).

(٣) «الكشاف» (١/ ٢٨) و«روح المعاني» (٢٨/ ٦٤).

المُصَوِّر
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٨)

*** المعنى اللغوي:**

الصَّوَر بالتحريك : الميل ، ورجلٌ أصْوَر أي مائل وصُرْت إلى الشيء وأصرته ـ بالتحريك ـ إذا أملته إليك كقوله تعالى : ﴿**فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**﴾ أي أملهن وأجمعهن إليك ، وتصوّرت الشيء توهمت صورته لي ، والتصاوير : التماثيل، وصُورة الأمر كذا وكذا أي صفته. وضربه فتَصوَّر أي سقط[1].

*** ورود الاسم بالكتاب العزيز:**

ورد الاسم في قوله تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ**﴾ [الحشر: ٢٤] مرة واحدة في القرآن، وجاء بصيغة الفعل مرات كقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ [آل عمران: ٦] وقوله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ**﴾ [الأعراف: ١١]. وقوله سبحانه ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ [التغابن: ٣].

*** المعنى في حق الله تعالى:**

قال ابن جرير: المصور خلقه كيف شاء وكيف يشاء.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ**

(١) «النهاية» (٣/ ٥٨) و«اللسان» (٤/ ٢٥٢٣).

صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧، ٨] أي صرفك وأمالك إلى أيّ صورة شاء، إما إلى صورة حسنة وإما إلى صورة قبيحة أو إلى صورة بعض قراباته[١].

وقال الزجاج: المصوّر هو مُفَعِّلٌ من الصورة وهو تعالى مصور كل صورة لا على مثالٍ احتذاه ولا رسمٍ ارتسمه تعالى عن ذلك علواً كبيراً[٢].

وقال ابن كثير في معنى قوله تعالى: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]: أي الذي إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون على الصفة التي يريد والصورة التي يختار كقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] ولهذا قال: (المصور) أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها[٣].

وقال الخطابي: (المصور) هو الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة ليتعارفوا بها فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].

وقال: التَّصوُّر التخطيط والتشكيل، ثم قال: وخلق الله جل وتعالى الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خِلَقٍ: جعله علقةً ثم مضغةً ثم جعلها صورةً وهو التشكيل الذي به يكون ذا صورة وهيئةٍ يعرف بها ويتميز بها عن غيره بسماتها: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤][٤].

وبهذا يكون معنى (المصور):

١- أن (المصوّر): هو الذي أمال خلقه وعدلهم إلى الأشكال

(١) الطبري (٢٨/٣٧)، (٣٠/٥٥).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٣٧).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/٣٤٤).

(٤) «شأن الدعاء» (ص ٥١ - ٥٢) و«فتح القدير» (٥/٢٠٨) و«الاعتقاد» للبيهقي (ص ٥٦).

والهيئات التي توافق تقديره وعلمه ورحمته والتي تتناسب مع مصالح الخلق ومنافعهم، وأن أصل (المصوّر) من الصَوَر وهو الإمالة.

٢- أن (المصوّر) هو الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة، وهيئات متباينة، من الطول والقصر، والحسن والقبح، والذكورة والأنوثة، كل واحد بصورته الخاصة.

*** آثار الإيمان بهذه الأسماء:**

(الخالق ـ الخلاّق ـ الباريء ـ المصور):

١- أخبر تعالى عن نفسه أنه هو الخالق وحده وما سواه مخلوق، قال تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [الرعد: ١٦]. وقال سبحانه: ﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ**﴾ [فاطر: ٣].

فكل ما سوى الله مخلوق محدث، كائن بعد أن لم يكن، وكل المخلوقات سبقها العدم كما قال عز وجل: ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾ [الإنسان: ١].

وهذا قول الرسل جميعًا وأتباعهم، وخالف في ذلك الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته وأن لم يكن معدومًا أصلاً، بل لم يزل ولا يزال، ولكن الكتاب يرد ذلك ويرفضه[1].

٢- أن الله سبحانه لم يزل خالقًا كيف شاء ومتى شاء ولا يزال، لقوله سبحانه: ﴿**كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**﴾ [آل عمران: ٤٧].

وقوله: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**﴾ [القصص: ٦٨]. وقوله: سبحانه: ﴿**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ [البروج: ١٥، ١٦].

---

(١) قال ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» (٢/١٦٧): وقد نقل غير واحد أن أول من قال بقدم العالم من الفلاسفة هو أرسطو.

وليس بعد خلق الخلق استفاد اسم (الخالق)، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم (الباري)، وذلك من كماله، ولا يجوز أن يكون فاقدًا لهذا الكمال، أومعطلاً عنه في وقت من الأوقات، قال تعالى: ﴿**أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ١٧](١).

٣- إن الله تعالى ذكره خالق كل شيء. قال تعالى: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [غافر: ٦٢] .

ومن جملة مخلوقاته العباد وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يدل هذا على أن العبد ليس بفاعل على الحقيقة ولا مريد ولا مختار، بل هو فاعل لفعله حقيقةً، وأن إضافة الفعل إليه إضافة حق، وأنه يستوجب عليه المدح والذم والثواب والعقاب، ولكن لا يدل هذا أنه واقع بغير مشيئة الله وقدرته.

والدليل على أن أفعال العباد مخلوقة قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾(٢) [الصافات: ٩٦] فأفعالهم لله تعالى خلق ولهم كسب، ولا ينسب

---

(١) انظر الطحاوية (ص ١٣٧)، وقد خالف في ذلك المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الكلاَّبية والأشاعرة فإنهم قالوا: أنه تعالى صار قادرًا على الفعل بعد أن لم يكن قادرًا عليه، لكون الفعل صار ممكنًا بعد أن كان ممتنعًا، وأنه انقلب من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي!!

وقد ردّ عليهم أبو جعفر الطحاوي رحمه الله تعالى بقوله: «ما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئًا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليًا، كذلك لا يزال عليها أبديًا» اهـ.

راجع «الطحاوية» (ص ١٢٧) وانظر شرح ابن أبي العز الحنفي فقد أجاد وأفاد.

(٢) أورد ابن كثير عند تفسير هذه الآية حديثًا رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص ٢٥): قال ثنا عليّ بن عبد الله ثنا مروان بن معاوية ثنا أبو مالك عن ربعي بن حراش عن حذيفة قال قال النبى ﷺ: «**إن الله يصنع كل صانع وصنعته**» ثم قال البخاري: «**فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة**» اهـ. والحديث إسناده صحيح، رجاله ثقات وأبو =

شيء من الخلق لغير الله تعالى، فيكون شريكًا وندًا ومساويًا له في نسبة الفعل إليه، وقد نهى الله سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] وقد وقع في ذلك القدرية نفاة القدر، الذين جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى، ولهذا كانوا «مجوس هذه الأمة» بل أردأ من المجوس من حيث إن المجوس أثبتوا خالقَين، خالقًا للخير وخالقًا للشر، وأما هؤلاء فقد أشركوا جميع العباد في الخلق فقالوا هم يخلقون أفعالهم، وخالفوا بذلك الكتاب والسنة وأهل الحق[1].

٤- خلق الله عظيم محكم فلا يستطيع مخلوق أن يخلق مثله، فضلاً عن أن يخلق أفضل منه، قال سبحانه وتعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]. وفي الآية تحدٍ لجميع الخلق من الجن والإنس وغيرهم.

وقد أثبت الله عجزهم عن خلق خلق ضعيف حقير كالذباب مثلاً ولو اجتمعوا على ذلك وتعاونوا عليه، قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝٧٣ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

٥- ولذلك حرم الله على عباده أن يصوروا الصور ذات الأرواح لما فيها من مضاهاة لخلق الله، أي تشبيه ما يصنعونه ويصورونه من الصور بما يصنعه ويصوره الله كما جاء في رواية مسلم: «الذين يُشبِّهون بخلق الله»[2].

= مالك هو سعد بن طارق الأشجعي وأخرجه الحاكم (١/ ٣١) بالطريق السابق والبيهقي في «الأسماء» (ص ٤٩١).

(١) انظر: «العقيدة الطحاوية» (ص٤٩٣ - ٥٠٢) و«الفتح» (١٣/ ٤٩١ - ٤٩٥).

(٢) «مسلم بشرح النووي» (١٤/ ٨٨).

وبذلك تعلم حُرمة تصوير ذوات الأرواح بما يسمى بـ«الكاميرا» لأن المضاهاة تكون فيها =

وقد وردت أحاديث كثيرة في توعد المصورين بأشد العذاب كقوله ﷺ: «**إن أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة المصورون**»[1]، وقوله ﷺ: «**إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم أحيوا ما خلقتم**»[2]، وهو أمر تعجيز ويستفاد منه صفة تعذيب المصور وهو أن يكلف نفخ الروح في الصورة التي صورها وهو لا يقدر على ذلك فيستمر تعذيبه. قاله الحافظ[3].

وجاء في الحديث القدسي قوله تعالى: «**ومن أظلم ممن ذهب ـ أي قصد ـ يخلق خلقًا كخلقي فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة**»[4].

فتحداهم الخالق سبحانه بأن يخلقوا ذرة وهي النملة الصغيرة، ثم زاد في التحدي بأن طلب منهم أن يخلقوا حبة أو شعيرة وهو من الجماد الذي لا حركة فيه نسبيًا إذا ما قيس بالنسبة للنمل الذي يتحرك.

وقال بعض المُلْحدة يومًا: أنا أخلق! فقيل له: فأرِنا خلقك؟ فأخذ لحمًا فشرَّحه، ثم جعل بينه رَوْثًا ثم جعله في كُورٍ وختمه ودفعه إلى من حفظه عنده ثلاثةَ أيام، ثم جاء به إليه فكسر الخاتم وإذا الكور ملآن دودًا، فقال: هذا خلقي!! فقال له بعض من حضر: فكم عدده؟ فلم يدر، فقال: كم منه ذكور وكم منه إناث، وهل تقوم برزقه؟ فلم يأت بشيء، فقال له: الخالق الذي أحصى كل ما خَلَقَ عددًا، وعرف الذكر من الأنثى، ورزق ما خلق، وعلم مُدَّة بقائه وعلم نفاد عمره، قال الله عز

= أشد من الرسم باليد، والتفريق بينهما لا يستند إلى دليل من شرع أو عقل.

(١) رواه البخاري (٥٩٥٠) ومسلم (٢٠١٩) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) رواه البخاري (٥٩٥١) ومسلم (٢١٠٨) من حديث ابن عمر.

(٣) «الفتح» (١٠/ ٣٨٤).

(٤) رواه البخاري (٥٩٥٣، ٧٥٥٩) ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة.

وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠] وقال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [السجدة: ٧][(١)].

وقد قسم النووي رحمه الله المصورين إلى ثلاثة أقسام:

أ - من فعل الصورة لتعبد وهو صانع الأصنام ونحوها فهذا كافر وهو أشدهم عذابًا.

ب - من فعل الصورة وقصد مضاهاة خلق الله تعالى واعتقد ذلك، فهذا كافر له من أشد العذاب ما للكفار ويزيد عذابه بزيادة قبح كفره.

ج - من لم يقصد بالصورة العبادة ولا المضاهاة فهو فاسق صاحب ذنب كبير ولا يكفر كسائر المعاصي اهـ[(٢)].

٦- وجود هذا الخلق العظيم المحيط بنا من كل ناحية دليل على قدرة الخالق وعلى عظمته وكماله، فالإنسان يعجز في كثير من الأحيان عن معرفة جوانب كثيرة من الأرض التي يعيش عليها، مع أنها صغيرة جدًا إذا ما قيست بالنسبة لبقية الكون الفسيح المليء بملايين النجوم المضيئة والشموس والأقمار والتي يعجز عن حصرها أو عدّها، وهذا كله في السماء الدنيا، التي فوقها ست سماوات طباق، بعضها فوق بعض وفوقهن جميعًا الكرسي، ومن عظمة خلق هذا الكرسي واتساعه أنه يستوعب السماوات السبع والأرض جميعًا، قال تعالى: ﴿وسع كرسيه السموات والأرض﴾ [البقرة: ٢٥٤] والعرش أعظم من ذلك والخالق سبحانه فوق العرش، وهو جلت عظمته أكبر من كل شيء وأعظم.

وبذلك تعلم أن خلق الإنسان ضعيف جدًا، إذا ما قورن بالسماوات

---

(١) «الحجة في المحجة» (ورقة ١٦ ب).

(٢) «شرح مسلم» (١٤/ ٩١) انظر: «الفتح» (١٠/ ٣٨٣ - ٣٨٤).

السبع والكرسي والعرش كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ - ٢٩].

٧- وأخيرًا يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى ما خلق هذا الخلق العظيم لهوًا ولعبًا، ولا خلقه عبثًا وإنما خلقه لغاية عظيمة، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثًا بلا قصد ولا حكمة لنا فيكم، فتعالى الله أي: تقدس وتنزه عن ذلك ثم ذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات[1].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٦ - ١٨].

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض بالحق - أي بالعدل - ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى وأنه لم يخلق ذلك عبثًا ولا لعبًا[2].

وأبان تعالى عن هذه الغاية العظيمة بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

* * *

(١) من «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٥٩) ملخصًا.

(٢) المصدر السابق (٣/ ١٧٤ - ١٧٥).

الغافر - الغفور - الغفّار
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٩- ٢٠ - ٢١)

*** المعنى اللغوي:**

أصل الغَفْر: التغطية والستر، غفر الله له ذنوبه أي: سترها، وتقول العرب: اصْبُغ ثوبك بالسّواد فهو أغْفَرُ لوسخه أي أحملَ له وأعطى له، وكذا غَفَرَ الشيب بالخضاب وأغْفَرَه أي: ستره، والمغفرة: التغطية والمِغْفر: هو حلق يتقنع به المتسلح يقيه ويستره[1].

*** ورود الأسماء في القرآن الكريم:**

سمى الله نفسه بالغفور في إحدى وتسعين آية، وأما اسمه (الغفار) فقد جاء في خمس آيات، فعلم أن ورود (الغفور) في القرآن أكثر بكثير من (الغفار) و(الغفار) أبلغ من «الغفور» وكلاهما من أبنية المبالغة.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

وقال سبحانه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

وقال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣] وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ

---

(١) «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٣٧) و«النهاية» (٣/ ٣٧٣) و«اللسان» (٤/ ٣٢٧٣) و«غريب الحديث» لأبي عبيد (٣/ ٣٤٨).

حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

وأما الغفار ففي قوله تعالى: ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥].

وقوله عز وجل: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [ص: ٦٦].

وقول سبحانه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

وأما الغافر فقد ورد مرة واحدة في القرآن وذلك في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

*** معنى الأسماء في حق الله تعالى:**

قال الزجاج: ومعنى الغَفْرُ في حقِّ الله سبحانه هو الذي يسترُ ذنوب عباده ويغطيهم بستره[1].

وقال الخطابي: فالغفار الستار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته، ومعنى الستر في هذا: أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهرهُ في عيونهم[2].

وقال أبو عبيد: والمغفرة من الذنوب إنما هو إلباس الله الناس الغفران وتغمّدهم به[3].

وقال الحليمي: (الغافر): وهو الذي يستر على المذنب، ولا يؤاخذه فيشهره ويفضحه.

(الغافر): وهو المبالغ في الستر، فلا يشهر المذنب لا في الدنيا

---

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٣٨).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٥٢) وانظر: «النهاية» (٣/ ٣٧٣) و«تفسير الطبري» (١٤/ ٢٧)، (١٥/ ١٧٤) و«الاعتقاد» للبيهقي (ص ٥٦).

(٣) «غريب الحديث» (٣/ ٣٤٨).

ولا في الآخرة.

(الغفور) : وهو الذي يكثر منه الستر على المذنبين من عباده، ويزيد عفوه على مؤاخذته[1].

وقال ابن العربي في (الأمد) : المسألة الثالثة في ترتيب هذه الأسماء الثلاثة، وفي ذلك ثلاثة أقوال:

أحدها: إن غافرًا فاعل من غَفَر، وإن قولنا «غفور» للمبالغة إذا تكرر، وإنّ «الغَفَّار» أشد مبالغةً منه.

الثاني: إن قوله (غافر) بستره في الدنيا، وإن (غفورًا) بستره في الآخرة، وإن (غفارًا) بستره عن أعين الخلائق، وعن أعين المذنبين، ليكون لكل لفظٍ فائدة يختص بها.

قال: والقول الأول هو أصح، وما بعده تحكم لا يشهد له لغة ولا حقيقة[2].

وقال السعدي: (العفو - الغفور - الغفار) : الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفًا، وبالغفران والصفح عن عباده مَوْصُوفًا، كل أحد مُضطرٌ إلى عفوه ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وَعَدَ بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ** ﴾ [طه: ٨٢][3].

وقال ابن القيم في «النونية»:

---

(١) «المنهاج» (١/١٠٢) وذكرها ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٥٥ - ٥٦).

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٢٨٦ أ - ٢٨٦ ب).

(٣) «تيسير الكريم» (٥/٣٠٠).

وهو الغَفُورُ فلو أَتَى بقُرابها   من غيرِ شِرْكٍ بل من العِصْيانِ
لأتاه بالغُفْــران مِــلْءَ قُــرابِها   سبحانه هو وَاسِعُ الغفران[1]

*** آثار الإيمان بهذه الأسماء:**

١- وصف الله سبحانه نفسه بأنه غفار وغفور للذنوب والخطايا والسيئات لصغرها وكبيرها، وحتى الشرك إذا تاب منه الإنسان واستغفر ربه، قَبل الله توبته وغفر له ذنبه، قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣] وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [النساء: ١١٠].

فمهما عظمت ذنوب هذا الإنسان فإن مغفرة الله ورحمته أعظم من ذنوبه التي ارتكبها قال تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ [النجم: ٣٢].

وقد تكفل الله سبحانه بالمغفرة لمن تاب وآمن، قال تعالى: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ**﴾ [طه: ٨٢].

بل من فضله وجوده وكرمه أن تعهد بأن يبدِّل سيئات المذنبين إلى حسنات، قال تعالى عن التائبين: ﴿**فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [الفرقان: ٧٠].

٢- ولكن لا يجوز للمسلم أنْ يُسرف في الخطايا والمعاصي والفواحش بحجة أنَّ الله غفور رحيم، فالمغفرة إنما تكون للتائبين الأوّابين، قال تعالى: ﴿**إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٥]، وقال سبحانه: ﴿**إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النمل: ١١].

---

(١) «النونية» (٢/ ٢٣١).

فاشترط تبدل الحال من عمل المعاصي والسيئات إلى عمل الصالحات والحسنات لكي تتحقق المغفرة والرحمة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨ ، ١١٦] يبين أن المقيم على الشرك حتى الوفاة لا غفران لذنوبه لأنه لم يبدل حسنًا بعد سوء، وكذا قوله تعالى عن المنافقين: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] لأنهم لم يخلصوا دينهم لله ولم يصلحوا من أحوالهم وأما إذا حصل ذلك فإن المغفرة تحصل لهم مع المؤمنين قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

فلا بد من الأخذ بالأسباب المؤدية إلى المغفرة، وأما إن مات وهو مقيم على الكبائر من غير أن يتوب فإن مذهب أهل السنة والجماعة أنه ليس له عهد عند الله بالمغفرة والرحمة، بل إن شاء غفر له وعفا عنه بفضله كما قال عز وجل: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾]النساء: ٤٨، ١١٦] ، وإن شاء عذبه في النار بعدله، ثم يخرجه منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يدخله الجنة وذلك للموحدين خاصة.

٣- اتصاف الله سبحانه بأنه (غفّار) للذنوب والسيئات، فضل من الله ورحمة عظيمة للعباد، لأنه غني عن العالمين، لا ينتفع بالمغفرة لهم، لأنه سبحانه لا يضره كفرهم أصلاً، ولا يغفر لهم خوفًا منهم أيضًا، لأنه قوي عزيز، قد قهر كل شيء وغلبه ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وقد نبه الله عباده إلى هذا الأمر في القرآن الكريم عدة مرات، باقتران اسمه «الغفور» مع (العزيز) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله: ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥] فمع عزته وقهره، إلا أنه

غفور رحيم.

الفرق بين العفو والغفران:

قال بعض العلماء: إن الغفران سِتْرٌ لا يقع معه عقاب.

والعفو إنما يكون بعد وجود عذاب وعتاب[1].

* * *

(١) الكتاب الأسنى ورقة (٢٨٦ ب) وفيه نظر! وسيأتي الكلام عليه في (العفو).

القَاهر - القَهَّار
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٢٢ ، ٢٣)

*** المعنى اللغوي:**

القَهْر الغلبة والأخذُ من فوق ، وقهره يَقْهرُهُ قهراً : غلبه ، وتقول : أخذتهم قهراً ، أي : من غير رضاهم ، وأقْهَرَ الرجلَ : صار أصحابه مقهورين[1].

وقال الزجاج: القهر في وضع العربية : الرياضةُ والتذليل ، يقال : قَهَر فلان الناقة : إذا راضها وذللها[2].

*** وروده في القرآن العظيم :**

(القهار) فعّال ، مبالغة من (القاهر) فيقتضي تكثير القهر، وقد ورد الاسم (القاهر) في الكتاب العزيز مرتين في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] وفي قوله وتعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

و(القهار) ورد ست مرات منها قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦] وقوله تعالى : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

---

(١) «النهاية» (٤/ ١٢٩) ، «لسان العرب» (٥/ ٣٧٦٤).

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٣٨).

* معنى الاسمين في حق الله تعالى :

قال ابن جرير: (القاهر) المذلل المستعبد خلقه العالي عليهم ، وإنما قال فوق عباده لأنه وصف نفسه تعالى بقهره إياهم ومن صفة كل قاهر شيئًا أن يكون مستعليًا عليه ، فمعنى الكلام إذًا: والله الغالب عباده المذلل لهم ، العالي عليهم بتذليله لهم وخلقه إياهم ، فهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه[1].

وقال ابن كثير: وهو (القاهر) فوق عباده أي : هو الذي خضعت له الرقاب، وذلّت له الجبابرة، وعنت له الوجوه وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه[2].

وقال الخطابي: (القهار) : هو الذي قهر الجبابرة من عُتاةِ خلقه بالعقوبة وقهر الخلق كُلَّهم بالموت[3].

وقال الزجاج: والله تعالى قهر المعاندين بما أقام من الآيات والدلالات على وحدانيته وقهر جبابرة خلقهِ بعزِ سلطانه وقهر الخلق كلّهم بالموت[4].

وقال الحليمي : (القاهر) ومعناه: إنه يدبر خلقه بما يريد ، فيقع في ذلك ما يشق ويثقل ويغم ويحزن ، ويكون منه سلب الحياة أو نقص الجوارح ، فلا يستطيع أحدٌ ردَّ تدبيره ، والخروج من تقديره.

---

(١) «جامع البيان» (٧/ ١٠٣) ، (٧/ ١٣٨ - ١٣٩) ، (١٢/ ١٣٠).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٢٦) ، (٢/ ١٣٨ ، ٤٧٩) ، (٤/ ٧٤).

(٣) «شأن الدعاء» (ص ٥٣) وانظر: «فتح القدير» (٣/ ٧٤) ، «روح المعاني» (١٢/ ٢٤٤).

(٤) «تفسير الأسماء» (ص ٣٨).

وقال في (القهار) : أنْ يَقْهر ولا يُقهر بحال[1].

وقال ابن القيم في «النونية»:

وكذلك القَهَّارُ مِنْ أوْصافه فالخلقُ مَقْهُورونَ بالسُّلْطانِ

لو لم يكن حيًا عَزِيزًا قادرًا ما كان مِنْ قَهْرٍ ولا سُلْطانِ[2]

*** آثار الإيمان بهذين الاسمين :**

١ - إن القهار على الحقيقة هو الله وحده سبحانه ، هو قهر وغلب عباده أجمعين ، حتى إن أعتى الخلق يتضاءل ويتلاشى أمام قهر الله وجبروته ، فها هو الموت الذي كتبه الله على عباده لا يستطيع الخلق رده أو دفعه عن أنفسهم، ولو أوتوا من القوة والجبروت ما أوتوا، وقد ذكر الله الموت قريبًا من وصفه نفسه بـ (القاهر) ليذكّرهم بشيء قد قهرهم به أجمعين وذلك في قوله : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١- ٦٢].

ومما قهرهم به أيضًا : الأمراض والمصائب والنكبات التي لا يملكون ردّها عن أنفسهم.

وما أحسن قول من قال : القهار الذي طاحت عند صولته صولة المخلوقين ، وبادت عند سطوته قوى الخلائق أجمعين ، قال تعالى : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] فأين الجبابرة والأكاسرة ! عند ظهور هذا الخطاب وأين الأنبياء والمرسلون ، والملائكة المقربون

(١) «المنهاج» (١/ ٢٠٢) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦١).

(٢) «النونية» (٢/ ٢٣٢) ، وانظر: «تيسير الكريم» (٥/ ٢ ، ٣).

في هذا العتاب ، وأين أهل الضلال والإلحاد ، والتوحيد والإرشاد ، وأين آدم وذريته ، وأين إبليس وشيعته ، وكأنهم بادوا وانقضوا زهقت النفوس ، وتبددت الأرواح وتلفت الأجسام والأشباح ، وتفرقت الأوصال ، وبقي الموجود الذي لم يزل ولا يزال[1].

٢- وأما صفة القهر في الخلق ، فغالبًا ما تكون مذمومة لقيامها على الظلم والطغيان ، والتسلط على الضعفاء والفقراء كما قال فرعون لعنه الله : ﴿ **سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وقال تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ** ﴾ [الضحى: ٩] أي : لا تسلَّط عليه بالظلم وادفع إليه حقه ، وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله تعالى ، فغلّظ في أمره بتغليظ العقوبة على ظالمه ، وقوله: ﴿ **وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ** ﴾ [الضحى: ١٠] أي : لا تزجره ولا تُغلظ له القول.

﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ [الضحى: ١١] قال القرطبي: وهذه هي النعمة العظمى ، وهي ما مَنَّ الله عليه من الرسالة والنبوة والخُلة والمحبة والعلم والحكمة ، فأوجب عليه أن يُظْهِر ذلك ويُشيعه ويحدث به ، ويُعلِّم الجاهل غيرَ مُمتنٍّ عليه ولا مُتطاول ولا قاهر له.

وكذلك قال معاوية بن الحكم السلمي: «فبأبي هو وأمي ، ما رأيت مُعَلِّمًا قبله ولا بعده أحسنَ تعليمًا منه ، فوالله ما كَهَرني ولا ضربني ولا شتمني» الحديث خرّجه مسلم[2].

وقرئ ﴿ **فلا تكهر** ﴾ بالكاف وهي قراءة عبد الله بن مسعود ، قال

(١) انظر: «شرح الأسماء» للرازي (ص ٢٢٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٥٣٧).

الكسائي: كَهَرَهُ وقَهَرَه بمعنى[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٦١] يستفاد منه صفة العلو لله سبحانه على عباده، سواء علو «المكانة والرتبة» أو علو «المكان والجهة» وقد تظافرت أدلة الكتاب والسنة عليه ـ أي الثاني ـ كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وقوله: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦][2].

٤- أنه سبحانه هو الذي قهر الخلق جميعًا على ما أراد[3].

٥- إن الله هو القهار المستحق للعبادة والألوهية وما سواه من الآلهة فإنما هي مخلوقات عاجزة مقهورة، لا تملك أن ترد الضر عن نفسها فكيف تقهر غيرها، وبهذا جادل نبي الله يوسف ﷺ صاحبيه في السجن فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] فبين لهم أن آلهتهم متعددة متفرقة، والعابد لها متحير أيُّها يرضي، وأيها مسخرة ومقهورة لله وفي قبضته، وليس لها من الألوهية إلا الاسم الذي أعطي لها زورًا وبهتانًا دون حجة ولا برهان: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

* * *

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٠٤ أ).

(٢) وسيأتي الكلام على «العُلُو» عند الكلام عن أسمائه (العلي ـ الأعلي ـ المتعال) في الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

(٣) وهو من معاني «الجبَّار» وقد تقدم الكلام عليه.

الوَهَّاب
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٢٤)

*** المعنىٰ اللغوي :**

قال ابن سِيدَهْ: وهب لك الشيء يهبه وهْبًا ووَهَبًا بالتحريك ، ووهبتُ له هبة وموهبة ووهْبًا إذا أعطيته. ورجلٌ واهبٌ ووهَّابٌ ووهوبٌ ووهّابةٌ أي : كثير الهبةِ لأمواله . والهبة : العطية الخالية عن الأعواض والأغراض . والوهّاب مبالغة على وزن فعّال[1].

*** وروده في الكتاب العزيز :**

ورد الاسم ثلاث مرات في القرآن الكريم ، مرة في سوة آل عمران في قوله تعالىٰ : **﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا من لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾** [آية: ٨].

ومرتين في سورة ص في قوله تعالىٰ: **﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾** [آية: ٩].

وقوله: **﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾** [آية: ٣٥].

*** معنىٰ الاسم في حق الله سبحانه :**

قال ابن جرير في تفسير قوله: **﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾** : يعني إنك

(١) «النهاية» (٥/ ٢٣١) ، «اللسان» (٦/ ٤٩٢٩) ، «تفسير الأسماء» (ص ٣٨).

أنت المعطي عبادك التوفيق والسداد للثبات على دينك وتصديق كتابك ورسلك.

وقال: الوهاب لمن يشاء من خلقه، ما يشاء من ملك وسلطان ونبوّة.

وقال: إنك وهاب ما تشاء لمن تشاء، بيدك خزائن كل شيء تفتح من ذلك ما أردت لمن أردت[1].

وقال الخطابي: (الوهاب): هو الذي يجود بالعطاء عن ظهر يدٍ من غير استثابة[2] أي: من غير طلب للثواب من أحد.

وقال الحليمي: (الوهاب): وهو المتفضل بالعطايا المنعم بها لا عن استحقاق عليه[3].

وقال النسفي: (الوهاب): الكثير المواهب المصيب بها مواقعها الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته[4].

وقال ابن القيم في «النونية»:

وكذلكَ الوهَّابُ من أسْمائِهِ فانظر مَوَاهِبَهُ مَدَىٰ الأزمانِ
أهلُ السَّمواتِ العُلىٰ والأرضِ عن تلكَ المَوَاهب ليس يَنفكَّانِ[5]

*** آثار الإيمان بهذا الاسم:**

١- إن الوَهَّاب هو الله وحْده، بيده خزائن كل شيء، الذي له

(١) الطبري (٣/ ١٢٥)، (٢٣/ ٨٢، ١٠٣).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٥٣)، «الاعتقاد» (ص ٥٧)، وانظر: «المقصد الأسنى» (ص ٤٨).

(٣) «المنهاج» (١/ ٢٠٦) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٧٦).

(٤) «تفسير النسفي» (٤/ ٣٥)، الألوسي (٢٣/ ١٦٨).

(٥) «النونية» (٢/ ٢٣٤).

مُلك السماوات والأرض ومن فيهن قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠].

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه خالق السماوات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء . ثم قال : فجعل الناس أربعة أقسام منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورًا وإناثًا ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا ، فيجعله عقيمًا لا نسل له ولا ولد له، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي : بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ، ﴿قَدِيرٌ﴾ أي : على ما يشاء من تفاوت الناس في ذلك[1].

فالله سبحانه يهب ما يشاء لمن يشاء ، لأنه مالك الملك وأما العباد فإنهم ملكٌ لله سبحانه ، والعبد لا يملك أن يهب شيئًا على الحقيقة . قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥].

٢- الفرق بين هبة الخالق والمخلوق:

قال الخطابي رحمه الله : فكُلُّ من وهب شيئًا من عرض الدنيا لصاحبه فهو واهب ، ولا يستحق أن يسمى وهّابًا إلا من تصرفت مواهبُهُ في أنواع العَطَايا فكثرت نوافله ودامت ، والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالاً أو نوالاً في حالٍ دون حال ، ولا يملكون أن يهبوا شفاءً لسقيمٍ، ولا ولدًا لعقيم ، ولا هدىً لضالٍ ، ولا عافيةً لذي بلاء ، والله الوهاب سبحانه يملك جميع ذلك، وسع الخلق جودُهُ ، فدامت مواهبه

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٢١).

واتصلت مِنَنُه وعوائده»[1].

وأكثر الخلق إنما يهبون من أجل عوض ينالونه ، كأن يهب لأجل أن يمدح بين الناس ، أو يهب من أجل الثواب في الآخرة[2].

٣- النبوة والكتاب هبة من الله يختص بها من يشاء من عباده، وقد أنكر أقوام الرسل هذا الأمر فحكى الله عن قوم صالح عليه الصلاة والسلام أنهم قالوا : ﴿أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

وقال سبحانه عن كفار قريش: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص: ٨ ـ ٩].

يقول ابن جرير رحمه الله: «يقول تعالى ذكره أم عند هؤلاء المشركين المنكرين وحي الله إلى محمد خزائن رحمة ربك يعني مفاتيح رحمة ربك يا محمد ، العزيز في سلطانه ، الوهاب لمن يشاء من خلقه ما يشاء من ملك وسلطان ونبوة ، فيمنعوك يا محمد ما منّ الله به عليك من الكرامة ، وفضّلك به من الرسالة»[3].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال عن موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١].

---

(١) «شأن الدعاء» (ص ٥٣).

(٢) انظر: «شرح الأسماء» للرازي (ص ٢٢٤ ، ٢٢٥) ، و «المقصد الأسنى» (ص ٤٩).

(٣) «جامع البيان» (٢٣/ ٨٢).

وقال سبحانه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣].

٤- الملك والسلطان هبة من الله سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقال سبحانه: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٣، ٥٤] وهذا استفهام إنكار أي: ليس لهم نصيب من الملك بل الله وحده هو المالك للملك الذي يهب ما يشاء لمن يشاء.

وقد دعا سليمان عليه الصلاة والسلام ربه: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥]، دعاه أن يهبه ملكًا لا يكون لأحد من بعده فاستجاب الوهاب سبحانه له: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٦ - ٣٩].

سخر الله له الريح التي تجري بأمره حيث أراد أي: تحمله حيث شاء، والشياطين التي تعمل له ما يشاء من تماثيل ومحاريب وقصور وقدور وجفان، ويغوصون في البحار يستخرجون له اللآليء. فيا له من ملك عظيم يعجز أعظم البشر مالاً وسلطانًا أن يهب شيئًا منه، ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا ﴾ هذه هبة الله لمن يريد من خلقه [1].

(١) **فائدة**: إن قال قائل: ما وجه رغبة سليمان إلى ربه في الملك وهو نبي من الأنبياء وإنما يرغب في الملك أهل الدنيا المؤثرون لها على الآخرة؟ أم ما وجه مسألته إياه إذ سأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده وما كان يضره أن يكون كل من بعده يؤتى مثل الذي =

٥- الذرية هبة من الله أيضًا. قال جلّ ذكره: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] وقد مرّ قريبًا كلام ابن كثير عليها.

وقد وهب الله سبحانه بعض الأنبياء الذرية بعد كبر السن ووهن العظم. قال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وكذا زكريا ﷺ وهبه الله الولد بعد ما طعن في السن وشاخ، وكانت امرأته عاقرًا أيضًا كما بين الله ذلك في مطلع سورة مريم، لكن ذلك لم يمنع زكريا عليه الصلاة والسلام من الطمع في هبة الله الوهاب، فدعا ربه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨] فاستجاب الله دعاءه: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠] أي: شفى امرأته من العقم، فحملت بيحيى عليه الصلاة والسلام فسبحان الكريم الوهّاب.

* * *

= أوتي من ذلك أكان به بخل؟ أم حسدٌ للناس؟ قيل: أما رغبته إلى ربه فيما يرغب إليه من الملك فلم تكن إن شاء الله به رغبة في الدنيا، ولكن إرادة منه أن يعلم منزلته من الله في إجابته فيما رغب إليه، وقبوله توبته وإجابته دعوته، وإما مسألته ربه ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] أي: وهب لي ملكًا تخصني به لا تعطيه أحدًا غيري تشريفًا منك لي وتكرمة لتتبين منزلتي منك به من منازل من سواي. اهـ من «جامع البيان» (٢٣/ ١٠٦) باختصار وتصرف.

الرَّزَّاق - الرَّازق
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٢٥، ٢٦)

*** المعنى اللغوي:**

الرزق : ما ينتفع به ، يقال : رزق الخلق رَزْقًا ورِزْقًا ، فالرَزْق بفتح الراء هو المصدر الحقيقي ، والرزق بكسر الراء الاسم ويجوز أن يوضع موضع المصدر ، والجمع أرزاق ، والرَّزَّاق من أبنية المبالغة[١].

*** ورود الاسمين في القرآن الكريم :**

ورد الاسم مفردًا مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات: ٥٨] . وقد قرأ ابن محيصن وغيره (الرَّازق)[٢].

وورد بصيغة الجمع خمس مرات منها قوله تعالى : ﴿**وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ [المائدة: ١١٤] وقوله سبحانه : ﴿**وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ [الجمعة: ١١].

*** معنى الاسمين في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير: هو الرزّاق خلقه المتكفل بأقواتهم[٣].

قال الخطابي: هو المتكفل بالرزق والقائم على كل نفس بما يقيمها

---

(١) «النهاية» (٢/ ٢١٩) ، «اللسان» (٣/ ١٦٣٦) ، «الأسنى» ورقة (٣٢٥ ب).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٥٦) ، «روح المعاني» (٢٧/ ٢٤).

(٣) «جامع البيان» (٢٧/ ٨).

من قوتها وسع الخلق كلهم رزقُهُ ورحمتُهُ ، فلم يختص بذلك مؤمنًا دون كافر ، ولا وليًا دون عدّو ، يسوقه إلى الضعيف الذي لا حَيْلَ له ، ولا مُتَكَسَّب فيه ، كما يسوقه إلى الجَلْد القوي ذي المرة السَّوي ، قال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٠] وقال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦][1].

وقال الحليمي في معنى : (الرازق) : المُفِيضُ على عباده ما لم يجعل لأبدانهم قوامًا إلا به ، والمنعم عليهم بإيصال حاجتهم من ذلك إليهم ، لئلا تتنغص عليهم لذة الحياة بتأخره عنهم ولا يفقدوها أصلاً لفقدهم إياه.

وقال في معنى (الرزّاق) : وهو الرزاق رزقًا بعد رزق ، والمكثر الموسع له[2].

قال ابن الأثير: (الرزاق) : وهو الذي خلق الأرزاق وأعطى الخلائق أرزاقها وأوصلها إليهم[3].

وقال السَّعدي: (الرزاق) لجميع عباده فما من دابةٍ في الأرض إلا على الله رزقها ، ورزقه لعباده نوعان:

١- رزقٌ عام شمل البر والفاجر ، والأولين والآخرين وهو رزق الأبدان.

---

(١) «شأن الدعاء» (ص ٥٤) ، «الاعتقاد» (ص ٥٧).

ونقله الأصبهاني (ورقة ١٨ ب) إلى قوله: ولا وليًا دون عدو ، وزاد: ويرزق من عَبَدَه ومن عَبَدَ غيره ومن أطاعه ومن عصاه، والأغلب من المخلوق أنه يرزق فإذا غضب منع.

(٢) «المنهاج» (١/ ٢٠٣) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٦).

(٣) «النهاية» (٢/ ٢١٩) ، وانظر: «المقصد الأسنى» (ص ٥٠).

٢- ورزق خاص وهو [رزق] القلوب، وتغذيتها بالعلم والإيمان.

والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين ، وهذا خاص بالمؤمنين على مراتبهم منه بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته[1].

وقوله قريبٌ مما ساقه ابن القيم في «النونية»:

وكذلك الرزَّاق من أسْمائهِ والرزْقُ من أفْعَاله نوعانِ

رزقٌ على يدِ عَبْدِهِ ورسولِهِ نوعان أيضًا ذانِ معروفان

رِزْقُ القُلوبِ العلم والإيمان والـ رزق المُعَدُّ لهذه الأبدانِ

هذا هو الرزقُ الحلالُ وربُّنَا رَزَّاقه والفَضْلُ للمنانِ

والثاني سَوْقُ القُوتِ للأعضاءِ في تلكَ المجاري سَوْقِهِ بوزَانِ

هذا يكون من الحلالِ كما يكـ ون من الحرامِ كلاهما رزقان

والله رَازِقُهُ بهذا الاعتبا ر وليس بالإطلاق دُونَ بيانِ[2]

---

(١) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠٢).

(٢) «النونية» (٢/ ٢٣٤) وقال الشارح لها أحمد بن إبراهيم بن عيسى رحمه الله: ذكر الناظم رحمه الله في هذه الأبيات أن الرزق نوعان: رزق القلوب: العلم والإيمان ، على يد عبده ورسوله محمد ﷺ.

والنوع الثاني: الرزق المعد للأبدان ، والله تعالى هو رازقه، لكنه يساق إلى الأعضاء ، ويكون من الحلال والحرام ، والله رازقه بهذا الاعتبار ، وهذه المسألة قد اختلف فيها ، فقيل: إن الحرام رزق، وكل يستوفي رزقه حلالاً كان أو حرامًا لحصول التغذي بهما جميعًا ، غير أنَّ العبد يستحق الذم والعقاب على أكل الحرام، خلافًا للمعتزلة ، فإنهم قالوا: الحرام ليس برزق ، فسروه تارة بمملوك يأكله المالك، وتارة بما لا يمنع عن الانتفاع به، وذلك لا يكون إلا حلالاً، فيلزمهم على التفسير الأول أن ما يأكله الدواب ليس برزق، مع ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فيكون مصادمًا للقرآن ! لأنه يقتضي أن تكون كل دابة مرزوقة ، ولا ينفعهم زعمهم =

* آثار الإيمان بهذين الاسمين :

١ - إن المتفرد بالرزق هو الله وحده لا شريك له ، قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣] وقال سبحانه : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

ينبه الله عباده إلى الاستدلال على توحيده وإفراده بالعبادة، أنه سبحانه هو المستقل بالخلق والرزق لا يشاركه أحد في ذلك ، وإذا كان كذلك، فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد ، ولهذا قال تعالى بعد ذلك : ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي : كيف تصرفون بعد هذا البيان عن عبادة الله وحده.

وقد أنكر الله على المشركين عبادتهم للأوثان والأصنام مع أنها لا

= أن تسمية ما يأكله الدواب رزقًا مبني على تشبيهه بما هو مملوك الإنسان فيأكله ، فيكون لفظ الرزق مجازًا عما تأكله الدواب ، فلا يلزم أن تكون كل دابة مرزوقة حقيقة ، لأنا نقول: هذا التأويل مخالف لظاهر القرآن ، وهو خلاف المتعارف في اللغة فلا يصح ارتكابه من غير ضرورة.

ثم إن تفسيرهم الرزق بذلك ليس بمطرد ولا منعكس ، لدخول ملك الله تعالى ، وخروج رزق الدواب والعبيد والإماء يلزمهم أيضًا على الوجهين أنَّ من أكل الحرام طول عمره لم يرزقه الله تعالى أصلاً ، وهو خلاف الإجماع الحاصل من الأمة قبل ظهور المعتزلة ، أنْ لا رازق إلا الله ، وإنْ استحق العبد اللومَ والذم على أكل الحرام ، والإضافة إلى الله تعالى «معتبرة في مفهوم الرزق ، وكلٌّ أحدٍ مستوف رزق نفسه ، حلالاً كان أو حرامًا ولا يتصور أنْ يأكل الإنسان غير رزقه ، أو يأكل غيره رزقه ، لأن ما قدر الله تعالى غذاءً لشخص يجب أنْ يأكله ، ويمتنع أن يأكله غيره، والله أعلم.

وتكلم بنحو هذا القرطبي في «الأسنى» ورقة (٣٢٦ ب).

تملك لهم رزقًا ولا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا . قال سبحانه : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

فأخبر تعالى أنها لا تملك لهم رزقًا ولا تستطيع ذلك ثم قال سبحانه: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] أي: لا تجعلوا له الأنداد والأشباه والأمثال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤] أي: أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو المتفرد بالخلق والرزق وأنتم بجهلكم تشركون به[١].

وكذا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠] أي: لا يقدر شركاؤكم على شيء من ذلك أبدًا، بل لو أمسك الله سبحانه الرزق عن الناس ، فلا يملك أحد أن يفتحه عليهم من دون الله، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] وقوله جل وعلا: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١] أي: أمَّن هذا الذي يطعمكم ويسقيكم ويأتي بأقواتكم إن أمسك ربكم رزقه الذي يرزقكم عنكم[١].

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا انصرف من الصلاة : «**لا إله إلا الله وحده لا شَريكَ له ، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قَدير، اللهم لا مَانعَ لما أَعطيتَ ولا مُعطي لما منعتَ ولا ينفعُ ذَا الجدِّ منكَ الجد**»[٢].

٢- إن الله عز وجل متكفل برزق من في السماوات والأرض، قال سبحانه : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

---

(١) «جامع البيان» (٢٩/ ٦).

(٢) رواه البخاري (٦٦١٥) ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة.

وقـــال : ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠] . قال ابن كثير : إي : لا تطيق جمعه ولا تحصيله ، ولا تدخر شيئًا لغد ، ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ أي : يقيض لها رزقها على ضعفها وييُسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذّر في قرار الأرض والطير في الهواء، والحيتان في الماء[1].

٣- قال القرطبي: والفرق بين القُوت والرزق، أن القوت ما به قَوام البُنْية مما يؤكل ويقع به الاغتذاء.

والرزق كل ما يدخل تحت مُلْكِ العبد: مما يؤكل ومما لا يؤكل، وهو مراتب أعلاها ما يغذي.

وقد حصر رسول الله ﷺ وجوه الانتفاع في الرزق في قوله: «**يقول ابن آدمَ مالي مالي!! وهل لك من مَالك إلا ما أكلتَ فأفنيت، أو لَبستَ فأبليتَ، أو تَصَدَّقتَ فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للناس**»[2].

وفي معنى اللباس يدخل المركوب وغير ذلك مما ينتفع به الإنسان، والقوت رزق مخصوص، وهو المضمون من الرزق الذي لا يقطعه عجز، ولا يجلبه كيس، وهو الذي أراد تعالى بقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فلا ينقطع هذا الرزق إلا بانقطاع الحياة[3].

٤- وكل ذلك بلا ثقـل ولا كلفـة ولا مشقة، قـال الطحـاوي رحمه الله: «رازق بلا مؤنة» اهـ[4]. بل لو سألوه جميعًا فأعطاهم لم

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٢٠).

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٨، ٢٩٥٩) ولفظه هنا في الموضع الأول دون قوله: «**وما سوى ذلك..**» فهو في الموضع الثاني مع اختلاف في أوله.

(٣) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٢٦ ب - ٣٢٧ أ).

(٤) «العقيدة الطحاوية» (ص ١٢٥).

ينقص ذلك من ملكه شيئًا، كما جاء في قوله تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيطُ إذا أُدخل البحر**»[1].

٥- إن الله سبحانه لم يختص برزقه من آمن في الحياة الدنيا، وإنما كان الرزق في الدنيا للجميع، للمؤمنين والكافرين، وهذا من عظيم لطفه سبحانه كما قال: ﴿**اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ**﴾ [الشورى: ١٩].

وعن أبي موسى الأشعري قال قال النبي ﷺ: «**ما أحدٌ أصبرُ على أذى سمعهُ من الله، يدعون له الولد، ثم يعافيهم ويرزقهم**»[2].

ومعناه أن الله سبحانه واسع الحلم حتى مع الكافر الذي ينسب له الولد فهو يعافيه ويرزقه.

٦- إن الله سبحانه متحكم في أرزاق عباده فيجعل من يشاء غنيًا كثير الرزق، ويقتر على آخرين، وله في ذلك حكم بالغة. قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ**﴾ [النحل: ٧١]، وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا**﴾ [الإسراء: ٣٠].

قال ابن كثير: أي: خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر[3] فمن العباد من لا يصلح حاله إلا بالغنى فإن أصابه الفقر فسد حاله ومنهم العكس﴿**إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا**﴾ [الإسراء: ٣٠]، وقال ابن كثير في معنى قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ**﴾ [الشورى: ٢٧]:

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى.

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٩)، (٧٣٧٨) ومسلم (٢٨٠٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣/٣٨).

ولو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشرًا وبطرًا ، ثم قال تعالى : ﴿ **وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ** ﴾ [الشورى: ٢٧] وهذا كقوله سبحانه : ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾ [الحجر: ٢١].

٧-كثرة الرزق في الدنيا لا تدل على محبة الله تعالى ، ولكن الكفار لجهلهم ظنوا ذلك ، قال تعالى عنهم : ﴿ **وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** ﴾ [سبأ: ٣٥ - ٣٧].

فظن الكفار والمترفون أن كثرة الأموال والأولاد دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة، وقد ردّ الله هذا بقوله: ﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦].

ثم قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ** ﴾ أي: ليست كثرة الأموال والأولاد ، هي التي تقرب من الله أو تبعد ﴿ **إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ أي : إنما يقرب من الله الإيمان به ، وعمل البر والصالحات. وهذا كقوله ﷺ : «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم**» وفي رواية: «**ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[1].

وبين تعالى أنهم يرضون بالحياة الدنيا وأرزاقها ويطمئنون إليها ويفرحون بها لأنهم لا يرجون بعثًا ولا حسابًا، غافلين عن الآخرة

---

(١) الروايتان لمسلم (٢٥٦٤/ ٣٣، ٣٤) عن أبي هريرة.

وأهوالها. قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ ـ ٨] وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

ولم يعلموا أن الدنيا عند الله لا تزن شيئًا كما جاء في حديث سهل ابن سعد قال قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شَرْبَةَ ماء**»(١).

ولذلك فإن الله يعطيها لمن يحب ولمن لا يحب فليس كثرة الرزق دليلاً علي الكرامة ولا قلّته دليلاً علي الإهانة ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥ـ ١٦].

وقوله سبحانه في آخر آية الرعد السابقة: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦] دليل علي قصر عمر الدنيا وقلة خطرها بالنسبة للآخرة كما قال ﷺ: «**ومَا الدنيا في الآخِرة إلا مِثل ما يَجعلُ أحدُكم أصبُعه في اليم فلينظر بم يرجع**»(٢).

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٢٢) والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٥٣) من حديث عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سهل مرفوعًا، وعبد الحميد ضعفه غير واحد ولكن للحديث طرق منها:

١- ما أخرجه الخطيب في «التاريخ» (٤/ ٩٢) والقضاعي في «مسند الشهاب» رقم (١٤٣٩) من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعًا به.

٢- ما أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» رقم (١٤٤٠) من حديث محمد بن عمار عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة مرفوعًا، وصالح صدوق اختلط فالحديث صحيح لطرقه وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٨٦، ٩٤٣).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨) عن المستورد بن شداد.

٨- إن تقوى الله وطاعته سبب عظيم للرزق والبركة فيه . قال سبحانه عن أهل الكتاب : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال جل شأنه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣] أي: من جهة لا تخطر بباله ، وقال سبحانه : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ [الجن: ١٦].

وتأذن بالزيادة لمن شكر ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

٩- والعكس صحيح أيضًا فإن المعصية تنقص الرزق والبركة، لأن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، قال سبحانه: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

قيل: الفساد في البر القحط وقلة النبات وذهاب البركة ، والفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم. وقيل: هو كساد الأسعار وقلة المعاش.

١٠- أعظم رزق يرزق الله به عباده هو «الجنة» التي أعدها الله لعباده الصالحين وخلق فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل رزق يعد الله به عباده الصالحين في القرآن فغالبًا ما يراد به الجنة كقوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [سبأ: ٤]. وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [الحج: ٥٨].

وقوله سبحانه: ﴿ **وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا** ﴾ [الطلاق: ١١].

فهو أحسن الرزق وأكمله وأفضله وأكرمه، لا ينقطع ولا يزول﴿ **إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ** ﴾ [ص: ٥٤].

اللهم ارزقنا جنتك و رضوانك وأنت خير الرازقين.

* * *

«الفتَّاح»

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٢٧)

* المعنى اللغوي:

الفتح نقيض الإغلاق ، والفتح : النصر ، والاستفتاح طلب النصر ومنه قوله تعالى : ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩].

وقال الأزهري: الفتحُ : أن تحكم بين قوم يختصمون إليك كما قال سبحانه مخبرًا عن شعيب ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] أي : اقض بيننا.

والفُتاحة والفتاحة: أن تحكم بين خصمين، قال الأسعر الجُعفي:

ألا من مُبْلغٌ عمرًا رسولاً   فإني عن فُتاحَتِكم غنيٌّ

والفتاح من أبنية المبالغة[1].

* وروده في القرآن العظيم:

ورد الاسم مفردًا مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

وورد بصيغة الجمع مرة واحدة أيضًا في قوله عز وجل: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

---

(١) «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٣٩)، «النهاية» (٣/٤٠٦ - ٤٠٧)، «لسان العرب» (٥/٣٣٣٧)، والأسعر الجعفي: شاعر جاهلي.

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال قتادة رحمه الله : افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، اقضِ بيننا وبين قومنا بالحق[1].

وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية السابقة : احكم بيننا وبينهم بحكمك الحق الذي لا جور فيه ولا حيف ولا ظلم ، ولكنه عدلٌ وحق، وأنت خير الفاتحين يعني: خير الحاكمين[1].

وقال في موضع آخر : وهو الفتاح العليم ، القاضي العليم بالقضاء بين خلقه، لأنه لا تخفى عنه خافية ولا يحتاج إلى شهود تُعرِّفه المحق من المبطل[2].

وقال الزجّاج : والله تعالى ذكره فتح بين الحق والباطل فأوضح الحق وبينَّه وأدحض الباطل وأبطله، فهو الفتّاح[3].

وقال الخطابي رحمه الله: (الفتاح) : هو الحاكم بين عباده . وقال: وقد يكون معنى (الفتاح) أيضًا الذى يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده ، ويفتح المُنغلق عليهم من أمورهم وأسبابهم ويفتح قلوبهم ، وعيون بصائرهم ، ليبصروا الحق، ويكون الفاتح أيضًا بمعنى الناصر كقوله سبحانه : ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩][4].

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٩/ ٣) وإسناده صحيح.

(٢) المصدر السابق (٢٢/ ٦٥) وانظر ابن كثير (٢/ ٢٣٢)، (٣/ ٥٣٨)، القرطبى (١٤/ ٣٠٠)، الألوسي (٩/ ٥).

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٣٩).

(٤) «شأن الدعاء» (ص ٥٦) ، انظر : «الاعتقاد» (ص٥٧) ، «النهاية» (٣/ ٤٠٦ - ٤٠٧) ، و«المنهاج» للحليمي (١/ ٢٠٢) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٢).

وبنحوه قال السعدي[1].

وهو ما نظمه ابن القيم في «النونية»:

وكذلكَ الفتَّاح من أسْمائه ... والفَتْح فى أوصَافِهِ أمْرانِ

فتحٌ بحُكمٍ وهو شَرْعُ إلَهِنَا ... والفتّحُ بالأقْدارِ فتحٌ ثَانِ

والرَّبُّ فتَّاحٌ بذينِ كليهما ... عَدْلاً وإحْسانًا من الرحمنِ[2]

و على هذا يكون معنى الاسم:

١- (الفتّاح) : الحاكم الذي يقضي بين عباده بالحق والعدل، بأحكامه الشرعية والقدرية.

٢- أنه يفتح لهم أبواب الرحمة والرزق وما انغلق عليهم من الأمور.

٣- أنه بمعنى الناصر لعباده المؤمنين، وللمظلوم على الظالم، وهذا يعود إلى الأول.

*** آثار الإيمان بهذا الاسم:**

١- الله سبحانه هو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة بالقسط والعدل، يفتح بينهم في الدنيا بالحق بما أرْسَلَ من الرسل، وأنزل من الكتب.

يقول القرطبي رحمه الله في هذا الاسم: ويتضمن من الصفات كل ما لا يتم الحكم إلا به، فيدلُّ صريحًا على إقامة الخلق وحفظهم في الجملة، لئلا يستأصل المقتدرون المستضعفين في الحال.

ويدل علي الجزاء العدل على أعمال الجوارح والقلوب في المآل،

---

(١) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠٢).

(٢) «النونية» (٢/ ٢٣٤).

ويتضمن ذلك أحكامًا وأحوالاً لا تنضبط بالحدّ، ولا تحصى بالعد.

وهذا الاسم يختص بالفصل والقضاء بين العباد بالقسط والعدل، وقد حكم الله بين عباده في الدنيا بما أنزل من كتابه، وبيّن من سنة رسوله، وكلُّ حاكمٍ إما أنْ يحكم بحكم الله تعالى أو بغيره، فإن حكَمَ بحكم الله فأجره على الله، والحاكم في الحقيقة هو الله تعالى، وإن حكم بغير حكم الله فليس بحاكم إنما هو ظالم ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٥][1].

٢- ذكرنا أن الله سبحانه يحكم بين عباده في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويفتح بينهم بالحق والعدل، وقد توجهت الرسل إلى الله الفتّاح سبحانه أن يفتح بينهم وبين أقوامهم المعاندين فيما حصل بينهم من الخصومة والجدال.

قال نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨].

وقال شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿ **رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقال: ﴿ **وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** ﴾ [إبراهيم: ١٥][2].

وقد استجاب الله سبحانه لرسله ولدعائهم ففتح بينهم وبين أقوامهم بالحق، فنجى الرسل وأتباعهم وأهلك المعاندين المعرضين عن الإيمان بآيات الله وهذا من الحكم بينهم في الحياة الدنيا.

---

(١) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٠٦ أ - ٣٠٦ ب).

(٢) يُلاحظ أن طلب الرسل الفتح من الله كان بعد ظهور العناد من أقوامهم وإعراضهم عن الحجج القاهرة وتهديدهم الرسل بالرجم بالحجارة والقتل.

٣- وكذا يوم القيامة فإن الله سبحانه هو الفتّاح الذي يحكم بين عباده فيما كانوا يختلفون فيه في الدنيا.

قال سبحانه : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٦] ففي ذلك اليوم يقضي الله سبحانه ويفصل بين العباد ، فيتبين الضال من المهتدي ، وهو سبحانه لا يحتاج إلى شهود ليفتح بين خلقه ، لأنه لا تخفى عليه خافية وما كان غائبًا عما حدث في الدنيا ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٧]، وقال: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١][1].

وقد سمى الله يوم القيامة بيوم «الفتح» في قوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [السجدة: ٢٩].

٤- إن الله سبحانه متفرد بعلم مفاتح الغيب التي ذكرها في قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقد عدّدها في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

قال القرطبي: مفاتح جمع مَفتح هذه اللغة الفصيحة ويقال مفتاح، ويجمع مفاتيح، المِفتح عبارة عن كل ما يَحُلُّ غَلَقًا، محسوسًا كان كالقُفل على البيت، أو معقولاً كالنظر، ثم قال: وهو في الآية استعارة على التوصل

---

(١) وفي اقتران اسمه تعالى (الفتاح) بـ (العليم) إعلام بأنه سبحانه يفتح بين الخلائق عن علم كامل.

إلى الغيوب كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان.

ولذلك قال بعضهم : هو مأخوذ من قول الناس افتح عليّ كذا ، أي : أعطني أو علّمني ما أتوصل إليه به ، فالله تعالى عنده علم الغيب وبيده الطرق الموصلة إليه لا يملكها إلا هو فمن شاء إطلاعه عليها أطلعه ومن شاء حجبه عنها حجبه، ولا يكون ذلك من إفاضته إلا على رسله بدليل قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٩] وقوله: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ** ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧][1].

وقال في «الأسنى»: والفتح في اللغة حَلّ ما استغلق من المحسوسات والمعقولات ، والله سبحانه هو «الفتّاح» لذلك، فيفتح ما تغلق على العباد من أسبابهم ، فيغني فقيرًا ، ويُفرِّج عن مكروب ، ويسهل مطلبًا وكل ذلك يسمى فتحًا ، لأن الفقير المتغلّق عليه باب رزقه فيُفتح بالغنى، وكذلك المتحاكمان إلى الحاكم ، يتغلّق عليهما وجه الحكم فيفتحه الحاكم عليهما، ولذلك سمى الحاكم فتّاحًا لأنه يحل ما استغلق من الخصوم، تقول: افتح بيننا ، أي : احكم ، ومنه قول شعيب: ﴿ **رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ** ﴾ [الأعراف: ٨٩] أي : احكم ، ﴿ **وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴾ أي : الحاكمين[2].

٥- إن الفتح والنصر من الله سبحانه فهو يفتح على من يشاء ويخذل من يشاء، وقد نسب الله الفتوح لنفسه، لينبه عباده على طلب النصر والفتح منه لا من غيره، وأن يعملوا بطاعته وينالوا مرضاته، ليفتح عليهم

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ١-٢).

(٢) «الكتاب الأسنى» ورقة (٣٠٥ أ).

وينصرهم على أعدائهم. قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وهو خطاب لرسوله الأمين ﷺ.

وقال جل ثناؤه: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ [المائدة: ٥٢]، وقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣][1].

٦- إن الله بيده مفاتيح خزائن السماوات والأرض. قال سبحانه: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]، فما يفتحه من الخير للناس لا يملك أحد أن يغلقه عنهم، وما يُغلقه فلا يملك أحد أن يفتحه عليهم كما قال جل وعلا: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

فلو فتح الله المطر على الناس فمن ذا الذي يحبسه عنهم، حتى لو أدى المطر إلى إغراقهم وإهلاكهم مثلما حدث لقوم نوح عليه الصلاة والسلام، فقد وصلت المياه إلى رؤوس الجبال، فما استطاعوا أن يردوها عن أنفسهم، ولوحبس عن عباده القطر والنبات سنين طويلة لما استطاعوا أيضًا أن يفتحوا ما أغلقه الله سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

٧- وقد يفتح الله سبحانه أنواع النعم والخيرات على الناس استدراجًا لهم، إذا تركوا ما أُمروا به، ووقعوا فيما نُهوا عنه كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا

---

(١) وانظر ما قبل هذه الآية من بيان أسباب النصر والفتح القريب وهو قوله تعلى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ..﴾ [الصف: ١١].

أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤][1].

٨- ومما يفتحه الله على من يشاء من عباده الحكمة والعلم والفقه في الدين، ويكون ذلك بحسب التقوى والإخلاص والصدق، ولذا تجد أن فهم السلف أعمق وعلمهم أوسع ممن جاء بعدهم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢].

قال القرطبي: وهذا الفتحُ والشرح ليس له حدٌّ، وقد أخذ كل مؤمن منه بحظ، ففاز الأنبياء بالقسم الأعلى، ثم من بعدهم الأولياء، ثم العلماء، ثم عوام المؤمنين ولم يخيب الله منه سوى الكافرين.

وكان النبي ﷺ يقول: لأصحابه: «**إذا دَخَلَ أحدكم المسجد فَلْيُسلِّم على النبي ﷺ وليقل: اللهم افْتَح لي أبوابَ رحمتك، وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللهم باعدني من الشيطان**»[2].

---

(١) وقد مر سابقًا بأن كثرة الرزق وانفتاحه لا تدل على محبة الله وعنايته.

(٢) إسناده حسن أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٠) وابن ماجه (٧٧٣) وابن السني (٨٥) والحاكم (١/٢٠٧) عن أبي بكر الحنفي حدثنا الضحاك بن عثمان حدثني سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعًا به.

قال الحاكم: على شرطهما وأقره الذهبي.

قلت: هو على شرط مسلم فقط، فإن الضحاك بن عثمان صدوق من رجال مسلم. وله شاهد من حديث أبي حميد وأبي أسيد:

أخرجه أحمد (٣/٤٩٨)، (٥/٤٢٥) والنسائي في سننه (٢/٥٣) عن أبي عامر حدثنا سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد قال سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل أحدكم فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك**». وإسناده صحيح.

«العَليمُ - العَالم - العَلاَّم»
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٢٨، ٢٩، ٣٠)

*** المعنى اللغوي:**

العلم : نقيض الجهل، عَلِمَ علمًا وعَلُمَ هو نفسه ورجل عالِم وعليمٌ من قوم علماء، وعَلاَّم وعلاَّمة إذا بالغت في وصفه بالعلم، أي : عالمٌ جدًا.

وعَلِمتُ الشيء : عرفته وخبرته ، وعَلِمَ بالشيء : شَعَر به. والعليم على وزن فعيل من أبنية المبالغة[1].

*** ورود الأسماء في القرآن الكريم:**

ورد اسمه (العليم) في مائة وسبعة وخمسين موضعًا من الكتاب منها:

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨].

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء: ٤].

---

(١) «النهاية» (٣/ ٢٩٢) ، «اللسان» (٤/ ٣٠٨٢).

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤] وقوله : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً ﴾ [النساء: ٧٠] وقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨].

أما (العالم) فقد ورد هذا الاسم في القرآن ثلاث عشرة مرة منها:

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ٩٤].

وقوله: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩].

وقوله: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [التغابن: ١٨].

ما (العلاّم) فقد ورد هذا الاسم في أربعة مواضع وهي:

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقوله: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [سبأ: ٤٨].

*** المعنى في حق الله تعالى:**

قال ابن جرير: إنك أنت يا ربنا العليم من غير تعليم بجميع ما قد كان وما هو كائن، والعالم للغيوب دون جميع خلقك.

وقال: إن الله ذو علم بكل ما أخفته صدور خلقه من إيمان وكفر،

وحق وباطل، وخير وشر، وما تستجنه مما لم تجنه بعد[1].

وقال الخطابي: هو العالم بالسَّرائر والخفيات التي لا يُدركها علم الخلق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم ولذلك قال سبحانه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦][2].

قال ابن منظور رحمه الله: فهو الله العالم بما كان وما يكون قبل كونه، وبما يكونُ ولَمَّا يكن بعدُ قبلَ أن يكون، لم يزل عالمًا ولا يزال عالمًا بما كان وما يكون ولا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، أحاط علمه بجميع الأشياء باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، على أتمِّ الإمكان[3].

وقال السعدي: وهو الذي أحَاطَ علمه بالظواهر والبواطن والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[4].

وهو ما نظمه ابن القيم رحمه الله في «النونية»:

وهو العَليمُ أحَاطَ عِلمًا بالذي في الكَونِ من سِرٍّ ومن إعلانِ
وبكلِّ شيءٍ علمه سبحانه فهو المُحيطُ وليس ذا نِسيانِ

(١) «الطبري» (١/ ١٧٥)، (١١/ ١٢٧).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٥٧) وأخرج ابن جرير (١٣/ ١٩) عن سعيد بن جبير كنا عند ابن عباس فحدَّث حديثًا فتعجب رجل فقال: الحمد لله فوق كل ذي علم عليم. فقال ابن عباس: بئسما قلت، الله العليم وهو فوق كل عالم. وإسناده صحيح.

(٣) «اللسان» (٤/ ٣٠٨٢ - ٣٠٨٣) وانظر: «النهاية» (٣/ ٢٩٢).

(٤) «تيسير الكريم» (٥/ ٢٩٩).

وكذاكَ يعلَمُ ما يكون غدًا وما قد كان والموجود في ذا الآن
وكذاك أمرٌ لم يكن لو كان كيـ ف يكونُ ذاك الأمرُ ذا إمكان[1]

*** آثار الإيمان بهذه الأسماء « العليم ـ العالم العلاّم» :**

١- إثبات العلم التام الكامل الشامل لله وحده ، ولا يشابهه أحد من مخلوقاته في كمال علمه :

وقد أثبت الله عز وجل لنفسه العلم الكامل الشامل في آيات كثيرة منها قوله تعالى: **﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾** [طه: ٩٨]، وقوله: **﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾** [غافر: ٧]، وقوله: **﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾** [الطلاق: ١٢].

ففي هذه الآيات إثبات علمه بكل شيء من الأشياء، دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، كما قال سبحانه: **﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾** [الأنعام: ٥٩]، وقال: **﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾** [الجن: ٢٨].

وقد أنكر بعض الفلاسفة ومن تابعهم كابن سينا علمه تعالى بالجزئيات، فقالوا إنه يعلم الأشياء على وجه كلي لا جزئي، وقد ردّ شيخ الإسلام ابن تيمية عليهم في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» بقوله: «وهذا مما يبيّن لك أن من قال من المتفلسفة إنه سبحانه يعلم الأشياء على وجه كلي لا جزئي، فحقيقة قوله إنه لم يعلم شيئًا من الموجودات، فإنه ليس في الموجودات إلا ما هو معيّن جزئي، والكليات إنما تكون في العلم، لاسيما وهم يقولون: إنما علم الأشياء لأنه مبدؤها

(١) «النونية» (٢/ ٢١٥).

وسببها، والعلم بالسبب يوجب العلم بالمسبب، ومن المعلوم أنه مبدع للأمور المعيّنة المشخصة الجزئية، كالأفلاك المعيّنة والعقول المعينة، وأول الصادرات عنه - على أصلهم - العقل الأول، وهو معين، فهل يكون من التناقض وفساد العقل في الإلهيات أعظم من هذا؟»[1].

وبين العلامة المحقق ابن القيم أن «الحمد لله» تتضمن الرد على منكري علمه تعالى بالجزئيات، قال: وذلك من وجوه:

أحدها: كمال حمده، وكيف يستحق الحمد من لا يعلم شيئًا من العالم وأحواله وتفاصيله، ولا عدد الأفلاك، ولا عدد النجوم، ولا من يطيعه ممن يعصيه، ولا من يدعوه ممن لا يدعوه؟

الثاني: أن هذا مستحيل أن يكون إلهًا، وأن يكون ربًا فلابد للإله المعبود، والرب المدبر من أن يعلم عابده ويعلم حاله.

الثالث: من إثبات رحمته، فإنه يستحيل أن يرحم من لا يعلم.

الرابع: إثبات ملكه، فإن ملكًا لا يعرف أحدًا من رعيته ألبتة ولا شيئًا من أحوال مملكته ألبته، ليس بملك بوجه من الوجوه.

الخامس: كونه مستعانًا.

السادس: كونه مسئولاً أن يهدي سائله ويجيبه.

السابع: كونه هاديًا.

الثامن: كونه منعمًا.

التاسع: كونه غضبانًا على من خالفه.

العاشر: كونه مُجازيًا، يُدين الناس بأعمالهم يوم الدين.

فنفي علمه بالجزئيات مبطل لذلك كله[2].

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٥/ ١١٣) وانظر (١٠/ ١٥١).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٦٧).

وكيف لا يحيط تعالى علمًا بكل شيء وهو قد خلق كل شيء ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

فقبح الله من رمى ربه بالجهل وعدم العلم وهو يأنف أن يوصف بشيء من ذلك.

٢- إن الله سبحانه لكمال علمه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، أي: أنه سبحانه يعلم الأمور الماضية التي وقعت، والأمور المستقبلة التي لم تقع بعد، ويعلم الأمور التي لن تقع لو فرض أنها تقع كيف تقع، وهذا من كمال علمه بالغيب وعواقب الأمور، وهو معتقد أهل السنة والجماعة، والأدلة على ذلك كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقوله تعالى لإبليس عليه لعنة الله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] وهو خبر عن المستقبل.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] أي: علم الله أنكم لن تستطيعوا القيام بما أمركم به من قيام

الليل ، لأنه سيكون منكم مرضى وآخرون يجاهدون في سبيل الله وآخرون مسافرون في الأرض يبتغون فضل الله في المكاسب فقوموا من الليل بما يتيسر.

وقوله تعالى :- ﴿ **فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقوله سبحانه : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [الحديد: ٢٢] أي : ما تقع من مصيبة في الأرض من قحط أو طوفان أو صاعقة وغير ذلك، ﴿ **وَلا فِي أَنفُسِكُمْ** ﴾ أي : من الأمراض والمصائب والبلاء ، إلا كان ذلك مكتوبًا في اللوح المحفوظ من قبل أن نخلق الخليقة ، ونبرأ النسمة ، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**كَتَبَ الله مَقاديرَ الخَلائق قبل أنْ يَخلق السماوات والأرض بخمسينَ ألف سنة ، قال : وكان عرشه على الماء**»[1].

٣- وقد خالف في ذلك القدرية - قبحهم الله - فقالوا إن الله لا يعلم الأمر قبل وقوعه وإنما يعلمه بعد وقوعه، وقد حدث القول بهذا في أواخر عصر الصحابة، فقد جاء عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فَوفِّق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سَيَكِلُ الكلام إليّ فقلت: أبا عبد الرحمن ! إنه قد

---

(١) رواه الإمام مسلم (٢٦٥٣).

ظهر قِبلنا ناسٌ يقرءون القرآن ويتَقَفَّرون العلم وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أُنُفٌ. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريءٌ منهم وأنهم برآءُ مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر! لو أن لأحدهم مِثلَ أحد ذهبًا فأنفقه ما قَبِلَ الله منه حتى يؤمن بالقدر...»[1].

ومعنى قول القدرية أن الأمر أُنُفٌ أيّ: مستأنف لم يسبق به قدر، ولا علم من الله تعالى، وإنما يعلمه بعد وقوعه، أي أن الله أمر العباد ونهاهم وهو لا يعلم مَنْ يطيعه ممن يعصيه، ولا مَنْ يدخل الجنة ممن يدخل النار حتى فعلوا ذلك، فعلمه بعد ما فعلوه[2].

٤- إن الخلق لا يحيطون علمًا بالخالق، أي: لا يعلمون شيئًا من ذاته وصفاته إلا ما أطلعهم الله سبحانه عليه، عن طريق رسله وكتبه المنزلة. قال تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠][3].

٥- وعلى وجه أعم، أنهم لا يعلمون شيئًا من المعلومات، إلا بتعليم الله لهم، فكل علم شرعي وقدري فمرجعه إلى الله العليم الحكيم، كما قالت الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وقال عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

---

(١) رواه مسلم (٨)، ومعنى يتقفرون العلم: يطلبونه ويتتبعونه. وقيل معناه: يجمعونه.

(٢) راجع إن شئت كتاب «الإيمان» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ص ٣٦٤ - ٣٦٩).

(٣) وعلى هذا، فلا يجوز لنا أن نثبت لله سبحانه اسمًا أو صفة لم ترد في كلام الله تعالى أو كلام رسوله ﷺ لأنهما طريقا العلم بأسماء الله وصفاته.

وقال مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وأنزل اللهُ عليْكَ الْكتابَ والْحكْمَةَ وعلَّمَك ما لَمْ تكُن تعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال عن يوسف ﷺ: ﴿رَبِّ قَدْ آتيْتنِي مِنَ الْمُلْك وَعَلَّمْتَنِي من تَأْوِيلِ الأَحَادِيث﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال عن داود ﷺ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وعن الخضر ﷺ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ من لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تبين أن أصل ومنشأ كل علم إنما هو من الله جل ثناؤه سواء كان شرعيًا أو دنيويًا.

٦- قلة ما بأيدينا من العلم بالنسبة لعلم الله تعالى:

ومع كثرة المعلومات التي تعلمها بنو آدم وتشعبها، إلا أنها قليلة جدًا بالنسبة لعلم الله تعالى الواسع، قال سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

وفي قصة الخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام: «**فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين. قال له الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثلَ ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر...**»[1].

٧- الفرق بين علم الخالق وعلم المخلوق:

علم الله جل ثناؤه لا يعتريه نقص أبدًا، من نسيان أو جهل، أو علم ببعض أمور الخلق وجهل بغيرها.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠١) ومسلم (٢٣٨٠) من حديث أبي بن كعب.

وهو سبحانه لا يشغله علم عن علم ، كما لا يشغله سمع عن سمع ، وأنى للمخلوق مثل هذه الصفات ، فهم يولدون جهلة لا يعلمون شيئًا ، ثم يتعلمون شيئًا فشيئًا ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [النحل: ٧٨].

فعلمهم قد سبقه الجهل، والله سبحانه كان وما زال عليمًا لم يسبق علمه جهل، ولا نقول إنه قد كان لا يعلم حتى خلق علمًا فعلم ، كما تقوله المبتدعة تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

واقرأ معي ما يقوله الخطابي رحمه الله عن علم الخلق . يقول : والآدميون ـ وإن كانوا يوصفون بالعلم ـ فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات دون نوع ، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال ، وقد تعترضهم الآفات فَيَخلُفُ علمهم الجهل، ويعقُبُ ذكرهم النسيان ، وقد نجد الواحد منهم عالمًا بالفقه غير عالم بالنحو ، وعالمًا بهما غيرَ عالم بالحساب والطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله سبحانه علم حقيقة وكمال، ﴿ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن: ٢٨][1].

٨- اختص الله نفسه سبحانه بعلوم الغيب. قال سبحانه: ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقال: ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ٦٥].

وذكر منها خمسة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

(١) «شأن الدعاء» (ص ٥٧).

قال الألوسي رحمه الله: وما في الإخبار يحمل على بيان البعض المهم لا على دعوى الحصر، إذ لا شبهة في أن ما عدا الخمس من المغيبات لا يعلمه إلا الله تعالى[1].

فعلم الغيب لا شك أنه أعظم وأوسع من أن يحصر في هذه الخمس فقط.

ومن زعم أن أحدًا يعلم الغيب غير الله سبحانه فقد كفر بالآيات السابقة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ومن زعم أنه ـ تعني النبي ﷺ ـ يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ [النمل: ٦٥][2].

* * *

(١) «روح المعاني» (٧/ ١٧١).

(٢) الجزء الأخير من حديث رواه مسلم (١٧٧).

السميع
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٣١)

*** المعنى اللغوي :**

السَّمع للإنسان وغيره : حِسُّ الأُذُن ، أو ما وَقَر في الأذن من شيءٍ تسمعه ، ورجل سميع : أي سامع، ورجل سمّاع : إذا كان كثير الاستماع لما يقال وينطق كقوله تعالى : ﴿ **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ** ﴾ [المائدة: ٤١].

والسميع على وزن فعيل من أبنية المبالغة.

قال الزجاج: ويجيء في كلامهم: سمع بمعنى أجاب[١].

*** ورود الاسم بالكتاب العزيز:**

ورد الاسم في الكتاب العزيز خمسًا وأربعين مرة منها قوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وقوله: ﴿ **قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [المائدة: ٧٦].

وقوله سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقوله: ﴿ **إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ** ﴾ [سبأ: ٥٠].

وقوله: ﴿ **وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ [المجادلة: ١].

---

(١) «النهاية» (٢/ ٤٠١) ، «اللسان» (٣/ ٢٠٩٦) ، «تفسير الأسماء» (ص ٤٢).

* **معنى الاسم في حق الله تعالى:**

قال ابن جرير رحمه الله: وقوله ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] يقول جل ثناؤه واصفًا نفسه بما هو به، وهو يعني نفسه: السميع لما تنطق به خلقه من قول[١].

قال ابن كثير رحمه الله: السميع لأقوال عباده[٢].

وقال الخطابي رحمه الله: (السميع) بمعنى السامع، إلا أنه أبلغ في الصفة، وبناؤه فعيل: بناء المبالغة كقولهم: عليم من عالم، وقدير من قادر.

وهو الذي يسمع السر والنجوى، سواء عنده الجهر والخفوت، والنطق والسكوت.

وقد يكون السماع بمعنى: القبول والإجابة كقول النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع**»[٣] أي: من دعاء لا يستجاب ومن هذا

(١) «جامع البيان» (٢٥/ ٩).

(٢) ابن كثير (٢/ ٨٢).

(٣) طرف من حديث صحيح رواه أنس وعبد الله بن عمرو وأبوهريرة رضي الله عنهم، أما حديث أنس فله طريقان:

الأول: رواه الإمام أحمد (٣/ ١٩٢، ٢٥٥) عن حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع وعمل لا يرفع وقلب لا يخشع وعلم لا ينفع**» ورجال إسناد أحمد ثقات رجال الشيخين في كلا الموضعين سوى حماد بن سلمة فمن رجال مسلم وحده، ورواه أيضًا من طريقه أبو خيثمة في «العلم» برقم (١٦٥) بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني حفظه الله وقال: صحيح على شرط مسلم.

والثاني: أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٣) والنسائي (٨/ ٢٦٣) من طريق خلف بن خليفة ثنا حفص بن عمر عن أنس بمثله وزاد: «**اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء الأربع**» وإسناده حسن، خلف بن خليفة صدوق اختلط في الآخر وحفص بن عمر هو ابن أخي أنس صدوق.

وأما حديث عبد الله بن عمرو فله طريقان أيضًا:

الأول: أخرجه الترمذي (٣٥٤٩) من طريق أبي بكر بن عياش عن الأعمش عن عمرو =

قول المصلي: «سمع الله لمن حمده»[1].

معناه: قبل الله حَمْدَ من حَمِدَه[2].

قال ابن القيم: «فعل السمع يراد به أربعة معان:

أحدها: سمع إدراك ومتعلقه الأصوات. الثاني: سمع فهم وعقل ومتعلقه المعاني. الثالث: سمع إجابة وإعطاء ما سئل. الرابع: سمع قبول وانقياد.

فمن الأول: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١].

= ابن مرة عن عبد الله بن الحارث عن زهير بن الأقمر به وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه. قلت: زهير بن الأقمر قال الحافظ: مقبول أي حيث يتابع وإلا فلين الحديث.

الثاني: أخرجه الحاكم (١/ ٥٣٤) عن الثوري عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذيل عنه.

وأما حديث أبي هريرة فله طريقان:

الأول: أخرجه أبو داود (١٥٤٨) والنسائي (٨/ ٢٦٣، ٢٨٤) وابن ماجه (٣٨٣٧) والحاكم (١/ ٥٣٤) كلهم من طريق الليث بن سعد عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أخيه عباد بن أبي سعيد أنه سمع أبا هريرة يقول كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم أعوذ بك من أربع من علم لا ينفع..**» فذكره

وقال الذهبي: صحيح. قلت: فيه عباد بن أبي سعيد. قال الحافظ: مقبول، أي حيث يتابع وإلا فلين.

والثاني: أخرجه النسائي (٨/ ٢٨٤) وابن ماجه برقم (٢٥٠) من طريق أبي خالد الأحمر عن ابن عجلان عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة مرفوعًا. وقال النسائي عقبه: سعيد لم يسمعه من أبي هريرة بل سمعه من أخيه عن أبي هريرة. وأصل الحديث عند مسلم (٢٧٢٢) عن زيد بن أرقم مطولاً وبدل قوله: «**ومن دعاء لا يسمع**» «**ومن دعوة لا يستجاب لها**».

(١) رواه البخاري في مواضع كثيرة منها (٦٩٠، ٧٢٢، ٧٣٢) ومسلم في مواضع منها (٤٠١، ٤٠٤، ٤٠٩).

(٢) «شأن الدعاء» (ص٥٩)، وانظر: «المنهاج» للحليمي (١/١٩٩) و«تيسير الكريم» (٥/ ٢٩٩).

ومن الثاني : قوله : ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، ليس المراد سمع مجرد الكلام بل سمع الفهم والعقل ومنه ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن الثالث: «سمع الله لمن حمده» وفي الدعاء المأثور : «اللهم اسمع» أي : أجب وأعط ما سألتك.

ومن الرابع: قوله تعالى: ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١] أي قابلون له ومنقادون غير منكرين، ومنه على أصح القولين ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] أي : قابلون ومنقادون» اهـ[١].

فمن معاني «السميع» المستجيب لعباده إذا توجهوا إليه بالدعاء وتضرعوا.

وقال في «النونية»:

وهو السَّميعُ يَرىٰ ويَسْمعُ كلَّ ما ... في الكونِ من سِرٍّ ومن إعلانِ
ولكلِّ صوتٍ منه سمعٌ حاضرٌ ... فالسِّرُّ والإعلان مستويانِ
والسَّمعُ منه واسعُ الأصواتِ لا ... يخفىٰ عليه بعيدُها والداني[٢]

*** آثار الإيمان باسمه (السميع) :**

١- إثبات صفة السمع له سبحانه وتعالىٰ كما وصف الله عز وجل نفسه.

قال الأزهري رحمه الله: والعجب من قوم فسّروا (السميع) بمعنىٰ المُسْمِع فراراً من وصف الله بأن له سمعًا، وقد ذكر الله الفعل في غير

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٧٥ - ٧٦).

(٢) «النونية» (٢/ ٢١٥).

موضع من كتابه، فهو سميع ذو سمع، بلا تكييف ولا تشبيه بالسَّمع من خلقه، ولا بصره كبصر خلقه ونحن نصف الله بما وصف به نفسه بلا تحديد ولا تكييف[1].

وقد بوّب البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد : باب «وكان الله سميعًا بصيرًا» .

قال ابن بطال: «غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال إن معنى «سميع بصير» عليم ، قال : ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء ولا يراها ، والأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتًا ولا يسمعها .

ولا شك أن من سمع وأبصر أَدْخَلُ في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر ، فصح أن كونه سميعًا بصيرًا يفيد قدرًا زائدًا على كونه عليمًا ، وكونه سميعًا بصيرًا يتضمن أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر ، كما تضمن كونه عليمًا أنه يعلم بعلم ولا فرق بين إثبات كونه سميعًا بصيرًا وبين كونه ذا سمع وبصر .

قال : وهذا قول أهل السنة قاطبة» اهـ[2].

٢- إن سمع الله تبارك وتعالى ليس كسمع أحد من خلقه ، فإن الخلق وإن وصفوا بالسمع والبصر كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، لكن هيهات أن يكون سمعهم وبصرهم كسمع وبصر خالقهم جل شأنه ، قد نفى الرب سبحانه المشابهة عن نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ

---

(١) «اللسان» (٣/ ٢٠٩٦).

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٢ - ٣٧٣).

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] لأن سمع الله وبصره مستغرق لجميع المسموعات والمرئيات لا يعزب عن سمعه مسموع وإن دق وخفي سرًا كان أو جهرًا .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل : **﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾** [المجادلة: ١] .

وفي رواية : «تبارك الذي وسع سمعه كل شيء»[١].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر فكنا إذا علونا كبّرنا. فقال : «**اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، تدعون سميعًا بصيرًا قريبًا** ... »[٢].

قال ابن بطال: في هذا الحديث نفي الآفة المانعة من السمع، والآفة المانعة من النظر، وإثبات كونه سميعًا بصيرًا قريبًا، يستلزم أن لا تصح أضداد هذه الصفات عليه[٣].

وفي بيان الفرق بين سمع الخالق والمخلوق، يقول أبو القاسم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٤٦) والبخاري تعليقًا (١٣/ ٣٧٢) والنسائي (٦/ ١٦٨) وابن ماجه برقم (١٨٨، ٢٠٦٣) وابن جرير (٢٨/ ٥) والآجري في «الشريعة» (ص ٢٩١) والحاكم (٢/ ٤٨١) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وهو كما قالا، والرواية الثانية رواية ابن ماجه والحاكم والآجري.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٨٦).

(٣) «الفتح» (١٣/ ٣٧٥).

الأصبهاني: خُلِق الإنسان صغيرًا لا يسمع، فإنْ سمع لا يعقل ما يسمع، فإذا عَقَل ميَّزَ بين المسموعات فأجاب عن الألفاظ بما يستحق، وميَّز الكلام المستحسن من المستقبح، ثم كان لسمعه مَدًى إذا جاوزه لم يسمع، ثم إنْ كلَّمه جماعة في وقتٍ واحد عَجَزَ عن استماع كلامهم، وعن إدراك جوابهم.

والله عز وجل السميع لدعاء الخلق وألفاظهم عند تفرقهم واجتماعهم مع اختلافِ ألسنتهم ولُغَاتهم، يعلم ما في قلب القائل قبل أن يقول، ويعجزُ القائل عن التعبير عن مراده فيعلم الله فيُعطيه الذي في قلبه، والمخلوق يزول عنه السمع بالموت والله تعالى لم يزل ولا يزال، يُفني الخلق ويرثهم فإذا لم يبق أحدٌ قال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] فلا يكون من يرد! فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦][(١)].

واشتراك المخلوق مع الخالق سبحانه في هذا الاسم لا يعني المشابهة، فإن صفات المخلوق تناسب ضعفه وعجزه وخَلْقه، وصفات الخالق تليق بكماله وجلاله سبحانه وتعالى.

٣- وقد أنكر الله تبارك وتعالى على المشركين الذين ظنوا أن الله لا يسمع السر والنجوى.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي - أو ثقفيان وقرشي - كثيرةٌ شحم بطونهم، قليلةٌ فقهُ قلوبهم. فقال أحدُهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخرُ: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمعُ إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ

---

(١) «الحجة في المحجة» (ورقة ١٤ب - ١٥أ).

سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢][1].

وكذا قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ﴾ [الزخرف: ٨٠].

٤- ورد الاسم مقرونًا بغيره من الأسماء كقوله تعالى: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ و ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ وهي تدل على الإحاطة بالمخلوقات كلها، وأن الله محيط بها، لا يفوته شيء منها ولا يخفى عليه، بل الجميع تحت سمعه وبصره وعلمه. وفي ذلك تنبيه للعاقل وتذكير، كي يراقب نفسه وما يصدر عنها من أقوال وأفعال، لأن خالقه وربه لا يخفى عليه شيء منها، وأنه سبحانه محصيها عليه ثم يجازي بها في الآخرة إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

ومتى آمن الناس بذلك وتذكّروه فإن أحوالهم تتغير من القبيح إلى الحسن ومن الشر إلى الخير.

وإذا نسوا ذلك وتناسوه وغفلوا عنه ففي ذلك ما يكفي لفساد الدنيا وخرابها، والناظر في أحوال الناس يرى ذلك واضحًا جليًا.

٥- الله هو (السميع) الذي يسمع المناجاة ويجيب الدعاء عند الاضطرار ويكشف السوء، ويقبل الطاعة.

وقد دعا الأنبياء والصالحون ربهم سبحانه بهذا الاسم ليقبل منهم طاعتهم أو ليستجيب لدعائهم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٧، ٧٥٢١) ومسلم (٢٧٧٥).

فإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام قالا : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] وهما يرفعان قواعد البيت الحرام .

وامرأة عمران عندما نذرت ما في بطنها خالصًا لله ، لعبادته ولخدمة بيت المقدس قالت : ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران: ٣٥] ثم أخبر تعالى أنه قبل منها ذلك : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران: ٣٧] .

ودعا زكريا ربه أن يرزقه ذرية صالحة ثم قال : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨] فاستجاب الله دعاءه.

ودعا يوسف عليه الصلاة والسلام ربه أن يصرف عنه كيد النسوة ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٤] .

وأمر بالالتجاء إليه عند حصول وساوس شياطين الإنس والجن . قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

قال ابن كثير : سميع لجهل الجاهل عليك ، والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شيء ، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه[1].

* * *

---

(١) ابن كثير (٢/ ٢٧٨).

البصير
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٣٢)

*** المعنى اللغوي:**

البصر في الخلق : حاسَّةُ الرؤية ، أو حِسُّ العين ، والجمع أبصار، ورجل بصير : مُبْصر ، خلاف الضرير وهو فعيل بمعنى مُفْعِل، أو هو فعيل بمعنى فاعل ، وهو أبنية المبالغة ، ورجل بصير بالعلم : عالم به ، والبصيرة: العلم والفطنة[1].

*** وروده في القرآن الكريم:**

ورد هذا الاسم في القرآن اثنتين وأربعين مرة منها قوله عز وجل: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [آل عمران: ١٥، ٢٠].

وقوله: ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [الحديد: ٤].

وقوله سبحانه: ﴿ **مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ** ﴾ [الملك: ١٩].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير : يعني جل ثناؤه بقوله : ﴿ **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة: ٩٦] والله ذو إبصار بما يعملون ، لا يخفى عليه شي من أعمالهم، بل هو بجميعها محيط ، ولها حافظ ذاكر ، حتى يذيقهم بها العقاب

---

(١) «اللسان» (١/ ٢٩٠).

جزاءها . وأصل بصير: مبصر، من قول القائل: أبصرت فأنا مبصر، ولكن صرف إلى فعيل، كما صرف مسمع إلى سميع، وعذاب مؤلم إلى أليم، ومبدع السماوات إلى بديع وما أشبه ذلك[1].

وقال الخطابي: البصير هو المبصر، ويقال البصير: العالم بخفيات الأمور[2].

وقال ابن كثير: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥، ٢٠] : أي : هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة وهو الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وما ذلك إلا لحكمته ورحمته[3].

وقال الألوسي: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: أي: خبير بهم وبأحوالهم وأفعالهم[4].

وقال السعدي: (البصير) الذي يُبصر كلَّ شيء وإن رقَّ وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السموات السبع.

وأيضًا سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة[5].

وقال ابن القيم في «النونية»:

وهو البصيرُ يَرَىٰ دبيبَ النَّملةِ الـ ... سوداءِ تحت الصَّخرِ والصَّوَّانِ
ويَرَىٰ مجاري القوت في أعضائها ... ويَرَىٰ عُروقَ بَيَاضِها بعيانِ

(١) «جامع البيان» (١/ ٣٤١).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٦٠ - ٦١) باختصار.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣٥٤)، (٤/ ٨١).

(٤) «روح المعاني» (٣/ ١٠١).

(٥) «تيسير الكريم» (٥/ ٢٩٩).

وَيَرَىٰ خياناتِ العيونِ بلَحظِها   وَيَرَىٰ كذلكَ تقلُّبَ الأجْفَانِ[1]

وعلىٰ هذا يكون لـ (البصير) معنيان :

الأول: أن له بصر يرىٰ به سبحانه وتعالىٰ .

الثاني: أنه ذو البصيرة بالأشياء الخبير بها .

*** آثار الإيمان بهذا الاسم (البصير) :**

١- إثبات صفة البصر له جل شأنه ، لأنه وصف نفسه بذلك وهو أعلم بنفسه.

وصفة البصر من صفات الكمال كصفة السمع، فالمتصف بهما أكمل ممن لا يتصف بذلك، قال تعالىٰ: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الانعام: ٥٠].

وقال: ﴿ **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [هود: ٢٤].

وقد أنكر إبراهيم ﷺ علىٰ أبيه عندما عَبَدَ مالا يُبصر ولا يسمع ﴿ **لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا** ﴾ [مريم: ٤٢].

وقال تعالىٰ مُوبخًا الكفار ومُسفهًا عقولهم لعبادتهم الأصنام التي هي من الحجارة الجامدة التي لا تتحرك ولا تملك سمعًا ولا بصرًا ﴿ **أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

أيّ : انتم اكمل من هذه الأصنام لأنكم تسمعون وتبصرون فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها !

---

(١) «النونية» (٢/ ٢١٥).

قال الأصبهاني: وأما (البصير) فهذا الاسم يقع مشتركًا، فيقال: فلانٌ بصير، ولله المثل الأعلىٰ، والرجل قد يكون صغيرًا لا يُبصر ولا يميز بالبصر بين الأشياء المتشاكلة، فإذا عَقَل أبصر فميَّزَ بين الرديء والجيد، وبين الحسن والقبيح، يُعطيه الله هذا مدَّةً ثم يسلبه ذلك، فمنهم من يسلبه وهو حي ومنهم من يسلبه بالموت.

والله بصير لم يزل ولا يزول، والخَلقْ إذا نظر إلىٰ ما بين يديه عَمِيَ عما خلفه وعما بَعدَ منه، والله تعالىٰ لا يعزب عنه مثقال ذرة في خَفيَّات مُظلم الأرض، وكل ما ذَكَرَ مخلوقًا به وصفه بالنَّكرة، فإذا وَصَفَ به ربَّه وصفه بالمعرفة[1].

٢- إن الله تبارك وتعالىٰ بصير بأحوال عباده خبير بها بصير بمن يستحق الهداية منهم ممن لا يستحقها، بصير بمن يصلح حاله بالغنىٰ والمال، وبمن يفسد حاله بذلك ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧] وهو بصير بالعباد شهيد عليهم، الصالح منهم والطالح، المؤمن والكافر ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦] بصير خبير بأعمالهم وذنوبهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧] وسيجزيهم عليها أتم الجزاء.

٣- ومن علم أن ربه مطلع عليه استحىٰ أن يراه علىٰ معصية أو فيما لا يحب.

ومن علم أنه يراه أحسن عمله وعبادته وأخلص فيها لربه وخشع فقد

---

(١) «الحجة في المحجة» (ورقة ١٥ أ).

جاء في حديث جبريل عليه السلام عندما سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

قال النووي رحمه الله: «هذا من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ لأنا لو قدّرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئًا مما يقدر عليه من الخضوع و الخشوع وحسن السمت، واجتماعه بظاهره وباطنه وعلى الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به.

فقال ﷺ: اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان، فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه، وهذ المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أن يعمل بمقتضاه، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمامه الخشوع والخضوع وغير ذلك»[2] اهـ.

* * *

(١) رواه مسلم (٨) وهو جزء من حديث عمر بن الخطاب الطويل.

(٢) «شرح مسلم» (١/١٥٧ - ١٥٨).

الحَكَم - الحاكم - الحكيم
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٣٣، ٣٤، ٣٥)

* المعنى اللغوي:

الحَكَم والحكيم بمعنى الحاكم ، وهـو القـاضي، فهو فعيل بمعنى فاعل ، أو هو الذي يُحكم الأشياء ويتقنهـا فهـو فعيل بمعنى مفعل .

وقيل : الحكم ذو الحكمة ، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، ويقال لمن يُحسن دقائق الصناعات ويتقنها : حكيم ، والحكيم يجوز أن يكون بمعنى الحاكم مثل قدير بمعنى قادر.

قال الزجّاج : «والحكَم والحاكم بمعنى واحد، وأصل : (ح ك م) في الكلام : المنع ، وسُمي الحاكم حاكمًا ، لأنه يمنع الخصمين من التظالم ، وحكَمة الدابة سُميت حكمة لأنها تمنعها من الجماح» اهـ .

والحُكم : العلم والفقه والقضاء بالعدل ، والحكيم : العالم وصاحب الحكمة[1].

* وروده في القرآن الكريم:

ورد اسمه (الحكم) في آية واحدة هو قوله تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

---

(١) «النهاية» (١/٤١٨ - ٤٢٠)، «اللسان» (٢/٩٥١ - ٩٥٤)، «تفسير الأسماء» (ص٤٣)، «شأن الدعاء» (ص ٦١).

وورد (الحاكم) بصيغة الجمع في خمس آيات منها:

قوله تعالى : ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

وقوله : ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

وأما الاسم (الحكيم) فقد ورد أربعًا وتسعين مرة منها:

قوله جل ذكره : ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨ ، ٢٤٠].

وقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

وقوله : ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨ ، ٧٣].

وقوله : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠].

وقوله : ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

وقوله : ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

*** المعنى في حق الله تبارك وتعالى :**

قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤] : قل فليس لي أن أتعدى حكمه وأتجاوزه لأنه لا حكَم أعدل منه ولا قائل أصدق منه[1].

---

(١) «جامع البيان» (٨/٧).

قال القرطبي: والمعنى أفغير الله أطلب لكم حاكمًا[1].

وقال الخطابي: الحكَم الحاكم ومنه المثل: « في بيته يُؤتى الحكَمُ» وحقيقته هو الذي سَلِمَ له الحُكم ورُدَّ إليه فيه الأمر، كقوله تعالى: ﴿**لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [القصص: ٨٨] وقوله: ﴿**أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [الزمر: ٤٦][2].

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ**﴾ [التين: ٨] أي: أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحداً[3].

وقال الحليمي: معنى (الحكم): وهو الذي إليه الحكم، وأصل الحكم منع الفساد، وشرائع الله تعالى كلها استصلاح العباد[4].

*** أيهما أبلغ الحكَم أو الحاكم:**

قيل أن الحكَم أبلغ من الحاكم، إذ لا يستحق التسمية بحَكَم إلا من يحكم بالحق، لأنها صفة تعظيم في مدح، والحاكم جارية على الفعل، فقد يسمّي بها من يحكم بغير الحق اهـ[5].

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: «ويقال حاكم وحُكّام لمَن يحكم بين الناس، قال الله تعال: ﴿**وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ**﴾ [البقرة: ١٨٨] والحكَم المتخصص بذلك فهو أبلغ. قال الله تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي**

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٧٠).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٦١).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٢٧).

(٤) «المنهاج» (٢٠٧) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، وتبعه البيهقي في «الأسماء» (ص ٨٠).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٧٠).

حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال عز وجل: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]اهـ[١].

وقد ورد في الحديث الصحيح ما يفيد كراهة التكني بالحكم[٢].

وأما عن معنى (الحكيم):

فقد قال الزجاج: «الحكيم من الرجال يجوز أن يكون فعيلاً في معنى فاعل، ويجوز أن يكون في معنى مُفْعِل، والله حاكم وحكيم.

والأشبه أن تَحمِل كلٌّ واحد منهما على معنى غير معنى الآخر، ليكون أكثر فائدة، فحكيم بمعنى مُحكمٌ والله تعالى مُحكم للأشياء، متقن لها كما قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]» اهـ[٣].

وقال ابن جرير: (الحكيم) الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل.

وقال في موضع: حكيم فيما قضى بين عباده من قضاياه[٤].

قال ابن كثير: الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها بحكمته وعدله[٥].

وقال الحليمي: (الحكيم) ومعناه الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، وإنما ينبغي أن يوصف بذلك لأن أفعاله سديدة، وصُنْعَه متقن، ولا يظهر الفعل المتقن السَّديد إلا من حكيم، كما لا يظهر الفعل على وجه الاختيار إلا من حي عالم قدير[٦].

---

(١) «المفردات في غريب القرآن» (ص ١٢٧).

(٢) تجده في آثار الإيمان بهذا الاسم.

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٥٢) وانظر: «شأن الدعاء» (ص ٧٣).

(٤) «جامع البيان» (١/ ٤٣٦)، (٢/ ٣٦٣).

(٥) «تفسير القرآن» (١/ ١٨٤، ٣١٥، ٤٥٩)، وانظر: «روح المعاني» (٧/ ١١٧) و«الاعتقاد» (ص ٦٠).

(٦) «المنهاج» (١/ ١٩١) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات الابتداء والاختراع له وتبعه البيهقي في «الأسماء» (ص ٢٢).

وقد أطال ابن القيم رحمه الله الكلام على اسمه (الحكيم) في «النونية» فقد قال:

وهو الحَكِيمُ وذاكَ من أوصافه نوعانِ أيضًا ما هما عدمانِ
حكم وأحكام فكل منهما نوعانِ أيضًا ثابتا البرهانِ
والحكم شَرعيٌّ وكونيٌّ ولا يتلازمان وما هما سِيَّان
بل ذاكَ يوجدُ دون هذا مُفْردًا والعكسُ أيضًا ثم يجتمعان
لَنْ يخلو المربوبُ من أحادهما أو منهما بل ليس ينتفيان
لكنما الشَّرعي محبوبٌ له أبدًا ولن يخلو من الأكوان
هو أمرُهُ الديني جاءت رسله بقيامه في سَائِرِ الأزمان
لكنما الكوني فهو قَضَاؤُه في خلقه بالعدل والإحسان
هو كلُّه حقٌّ وعدلٌ ذو رضى والشأن في المقضي كل الشانِ
فلذاك نَرْضَى بالقَضَاءِ ونَسخُط الـ مَقْضيَّ حين يكون بالعِصْيان
فالله يرضى بالقَضَاء ويسخط الـ مقضيَّ ما الأمران متحدان
فقضاؤُه صِفَةٌ به قَامتْ وما الـ مقضي إلا صَنْعَةَ الإنسان
والكون محبوبٌ ومبغوضٌ له وكلاهما بمشيئة الرحمن
هذا البيانُ يزيلُ لَبْسا طالما هَلَكَتْ عليه الناسُ كلَّ زمان
ويحل ما قد عَقَّدوا بأُصولِهم وبُحوثِهم فافهمه فَهْمَ بيان
من وَافَقَ الكوني وافق سخطه أفلم يوافق طاعة الديان؟!
فلذاكَ لا يعدوه ذم أو فوا ت الحمد مع أجر ومع رضوان
وموافق الديني لا يعدوه أجر بل له عند الصواب اثنان[1]

(١) «النونية» (٢/ ٢١٨ - ٢١٩)، وانظر: «تيسير الكريم» (٥/٢٩٩، ٣٠٢-٣٠٣). وحاصل ما ذكره ابن القيم في هذه الأبيات: أن الحكيم من أوصافه، وأن حكمته نوعان: حكم، وأحكام، ثم بين أن الحكم نوعان: شرعي وكوني (قدري) وأنهما لا يتلازمان، بل قد =

* آثار الإيمان بهذه الأسماء:

١- أن الحكم لله وحده لا شريك له في حكمه، كما لا شريك له في عبادته، قال تعالى: ﴿وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، [يوسف: ٤٠، ٦٧].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠، ٨٨].

وقال: ﴿أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

وقال ابن الحصار: وقد تضمّن هذا الاسم - يعني (الحكم) - جميع الصفات العُلَى والأسماء الحسنى، إذْ لا يكون حكمًا إلا سميعًا بصيرًا عالمًا خبيرًا إلى غير ذلك، فهو سبحانه الحكم بين العباد في الدنيا والآخرة في الظاهر والباطن، وفيما شرع من شرعه، وحكم من حكمه وقضاياه على خلقه قولاً وفعلاً، وليس ذلك لغير الله تعالى، ولذلك قال وقوله الحق: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

= يوجد هذا دون هذا، وقد يجتمعان وأن الله سبحانه يحب الشرعي منهما الذي هو ما أمر به الرسل وأتباع الرسل وأمر بالرضى عنه وعدم الاعتراض والمنازعة ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] أما ما حكم به قدرًا وشاء أن يكون، فلا يلزم من مشيئته أن يكون محبوبًا لديه، كمشيئة وجود إبليس وجنوده وكفر الكافر وفسق الفاسق وهو لا يحب ذلك كله ﴿وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] ولم يأمر تعالى أن نحب كل ما خلقه وشاءه.

هذا هو مذهب السلف ومن خالفهم فيه فقد ضل وأضل.

﴿تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وقال: ﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]. فلم يزل حكيمًا قبل أن يحكم، ولا ينبغي ذلك لغيره[١].

قال الشنقيطي رحمه الله تعالىٰ:

«وبذلك تعلم أن الحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ما حرمه الله، والدين هو ماشرعه الله، فكل تشريع من غيره باطل، والعمل به بدل تشريع الله عند من يعتقد أنه مثله أوخير منه، كفر بواح لا نزاع فيه» اهـ[٢].

ثم بين رحمه الله أن الله سبحانه بصفاته العظيمة يستحق أن يكون له الحكم، فهل يوجد في البشر من له مثل صفات خالقه ليشارك ربه في الحكم، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا!

فتعال معي أخي القارئ لنطّلع علىٰ ما سطره في هذه المسألة في كتابه القيم «أضواء البيان» قال رحمه الله:

مسألة

اعلم أن الله جل وعلا بيّن في آيات كثيرة، صفات من يستحق أن يكون الحكم له، فعلىٰ كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة، التي سنوضحها الآن إن شاء الله، ويقابلها مع صفات البشر المشرعين للقوانين الوضعية، فينظر هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع.

سبحان الله وتعالىٰ عن ذلك. فإن كانت تنطبق عليهم ولن تكون، ليتبع تشريعهم.

---

(١) «الكتاب الأسنىٰ» ورقة (١٣٨٩).

(٢) «أضواء البيان» (١٦٢/٧).

وإن ظهر يقينًا أنهم أحقر وأخس وأذل وأصغر من ذلك ، فليقف بهم عند حدهم ، ولا يجاوزه بهم إلى مقام الربوبية.

سبحانه وتعالى أن يكون له شريك في عبادته ، أو حكمه أو ملكه.

فمن الآيات القرآنيه التي أوضح بها تعالى صفات من له الحكم والتشريع قوله هنا : ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ ، ثم قال مبينًا صفات من له الحكم : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٠ - ١٢].

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين للنظم الشيطانية ، من يستحق أن يوصف بأنه الرب الذي تفوض إليه الأمور ، ويتوكل عليه ، وأنه فاطر السماوات والأرض أي : خالقهما ومخترعهما على غير مثال سابق ، وأنه هو الذي خلق للبشر أزواجًا ، وخلق لهم أزواج الأنعام الثمانية المذكورة في قوله تعالى :﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] الآية ، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وأنه ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ، وأنه هو الذي : ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] أي يضيقه على من يشاء وهو : ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فعليكم أيها المسلمون أن تتفهموا صفات من يستحق أن يشرع ويحلل ويحرم، ولا تقبلوا تشريعًا من كافر خسيس حقير جاهل.

ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]، فقوله فيها : ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ كقوله في هذه

﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦].

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأن له غيب السماوات والأرض؟ وأن يبالغ في سمعه وبصره لإحاطة سمعه بكل المسموعات وبصره بكل المبصرات؟ وأنه ليس لأحد دونه من ولي؟ سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؟

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨].

فهل في الكفرة الفجره المشرعين من يستحق أن يوصف بأنه الإله الواحد؟ وأن كل شيء هالك إلا وجهه؟ وأن الخلائق يرجعون إليه؟ تبارك ربنا وتعاظم وتقدس أن يوصف أخس خلقه بصفاته[1].

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢].

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين النظم الشيطانية، من يستحق أن يوصف في أعظم كتاب سماوي، بأنه العلي الكبير؟

سبحانك ربنا وتعاليت عن كل مالا يليق بكمالك وجلالك.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ

(١) المقصود بأخس خلقه هم الكفرة الفجرة المشرعون للقوانين الوضعية، لا الإنسان عموماً.

عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٠ - ٧٣].

فهل في مشرعي القوانين الوضعية، من يستحق أن يوصف بأن له الحمد في الأولى والآخرة، وأنه هو الذي يصرف الليل والنهار مبينًا بذلك كمال قدرته، وعظمة إنعامه على خلقه.

سبحان خالق السماوات والأرض، جل وعلا أن يكون له شريك في حكمه أو عبادته، أو ملكه.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠].

فهل في أولئك من يستحق أن يوصف بأنه هو الإله المعبود وحده، وأن عبادته وحده هي الدين القيم» اهـ باختصار[١].

٢- الله سبحانه يحكم ما يريد، وما يشاء هو وحده لا شريك له.

قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١].

فالله سبحانه يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل ما أراد تحليله، وتحريم ما أراد تحريمه، وإيجاب ما شاء إيجابه عليهم، وغير ذلك من أحكامه وقضاياه. وله الحكمة البالغة في ذلك كله.

---

(١) راجع «أضواء البيان» (٧/ ١٦٣ - ١٧٣).

وليس لأحد أن يراجع الله في حكمه، كما يراجع الناس بعضهم البعض في أحكامهم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، فحكمه في الخلق نافذ، ليس لأحد أن يرده أو يبطله.

٣- كلام الله حكيم ومحكم، وكيف لا يكون بهذه الصفة وهو كلام أحكم الحاكمين ورب العالمين.

وقد وصف الله القرآن العظيم ـ وهو كلامه المنزّل على محمد ﷺ ـ بأنه حكيم ومحكم في ثمان آيات منها قوله تعالى: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقوله: ﴿الَمَ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ١ ـ ٢].

وقوله: ﴿يسَ ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١ ـ ٢].

وقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ..﴾ الآية [محمد: ٢٠].

وحكمة الله تقتضي ذلك، تقتضي أن يكون القرآن حكيمًا ومحكمًا، لأنه الكتاب الذي ليس بعده كتاب، ولأنه الكتاب الذي أنزله الله ليكون تشريعًا عامًا لكل مجتمع بشري ولكل فرد من أفراده، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فالقرآن حكيم في أسلوبه الرائع الجذاب ، وحكيم في هدايته ورحمته، وحكيم في إيضاحه وبيانه ، وحكيم في تشريعاته وحكيم في كل أحكامه، وحكيم في أمره ونهيه، وحكيم في ترغيبه وترهيبه ، وحكيم في وعده ووعيده ، وحكيم في أقاصيصه وأخباره ، وحكيم في أقسامه وأمثاله، وحكيم في كل ما اشتمل عليه ، بل هو فوق

ذلك وأعظم من ذلك.

والقرآن أيضًا محكم فلا حشو فيه، ولا نقص ولا عيب كما يكون في كلام البشر، الله أكبر ما أعظم هذا القرآن، لقد بلغ الغاية في البهاء والجمال والكمال[1].

٤- والإيمان بما سبق يقتضي تحكيم كتاب الله جل شأنه بيننا، لأنه لا يوجد كتاب مثل القرآن حكيمًا في كل شيء.

لأن ما شرعه الله سبحانه لعباده من الأحكام والمعاملات والقصاص والحدود وتقسيم المواريث وما يتعلق بالأحوال الشخصية في القرآن الكريم هي في منتهى الحكمة، لأنها تشريع الحكيم العليم سبحانه، الذي لا يدخل حكمه خلل ولا زلل، ولأنها قضاء من لا يخفى عليه مواضع المصلحة في البدء والعاقبة.

وقد نبه الله سبحانه عباده لهذا بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

ولذا فإنك تجد آيات الأحكام كثيرًا ما تشتمل خواتيمها على اسمه (الحكيم)، ومن الأمثلة على ذلك:

قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١].

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٢٤].

وقوله في القتل الخطأ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ إلى

(١) باختصار من كتاب «الهدى والبيان في أسماء القرآن» للشيخ صالح بن إبراهيم البليهي (ص ٢١٢).

قوله: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٩٢].

وقوله : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٠].

وقوله : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [التحريم: ٢]وغيرها من الآيات.

٥- وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يحكم بين الناس بما أُنزل إليه من الأحكام الربانية، وأن يترك ما سواها من الآراء والأهواء ، قال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال تعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [المائدة:٤٩].

ولم يكن هذا الأمر لمحمد ﷺ خاصة ، وإنما هو ما أمرت به جميع الرسل من قبله ، يبين هذا قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ [المائدة: ٤٤].

والمؤمنون يرضون بحكم الله، قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١].

أما من لم يرض بذلك وترك تشريع الحكيم العليم، وأخذ بآرائه وما يمليه عليه عقله من أفكار، أو اتبع أهواءه وما تشتهيه نفسه، فقد وقع في هاوية الكفر أو الظلم أو الفسق التي حكم الله بها عليه.

قال سبحانه : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

٦- الله سبحانه يؤتي حكمته من يشاء:

كما قال عن نفسه جل ثناؤه: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقد تنوعت عبارات المفسرين في تأويل قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ ﴾ فمنهم من قال : هي الإصابة في القول والفعل ، وقيل : هي الفقه في القرآن والفهم فيه . وقال بعضهم : هي الفهم والعقل في الدين والاتباع له . وقال آخرون : هي النبوة . وقيل هي : الخشية لله.

قال ابن جرير جامعًا بين الأقوال السابقة : «وقد بينا فيما مضى معنى الحكمة وأنها مأخوذة من الحكم وفصل القضاء، وأنها الإصابة بما دلّ على صحته، فأغنى عن تكريره في هذا الموضع.

فإذا كان ذلك كذلك معناه ، كان جميع الأقوال التي قالها القائلون الذين ذكرنا قولهم في ذلك ، داخلاً فيما قلنا من ذلك ، لأن الإصابة في الأمور ، إنما تكون عن فهم بها وعلم ومعرفة ، وإذا كان ذلك كذلك ، كان المصيب عن فهم منه بمواضع الصواب في أموره، فهو[1] خاشيًا لله فقيهًا عالمًا، وكانت النبوة من أقسامه لأن الأنبياء مُسدّدون مُفهمون ومُوفقون لإصابة الصواب في الأمور، والنبوة بعض معاني الحكمة.

(١) في الأصل «فهما». وما أثبتناه يقتضيه السياق.

فتأويل الكلام : يؤتي الله إصابة الصواب في القول والفعل من يشاء ، ومن يؤته الله ذلك فقد آتاه خيرًا كثيرًا» اهـ[1].

٧- وقد جاء في الحديث ما يدل على أنه من أوتي الحكمة ينبغي أن يغبط لعظم هذه النعمة عليه وهو قوله ﷺ : «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»[2].

وقد ذكر الله في كتابه بعض الذين آتاهم الحكمة وأكثرهم من الأنبياء .

فامتنّ على محمد ﷺ بذلك في قوله : ﴿**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾ [النساء: ١١٣].

وعل آل إبراهيم صلوات الله عليهم أجمعين : ﴿**فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيماً**﴾ [النساء: ٥٤].

وعلى عيسى عليه السلام: ﴿**وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ**﴾ [المائدة: ١١٠] .

وعلى داود عليه السلام: ﴿**وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ**﴾ [البقرة: ٢٥١] .

وعلى لقمان العبد الصالح: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ**﴾ [لقمان: ١٢].

والله سبحانه أعلم حيث يجعل حكمته .

٨- خَلْق الله سبحانه محكم لا خلل فيه ولا قصور. قال تعالى: ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [النمل: ٨٨] .

---

(١) «جامع البيان» (٣/ ٦٠ -٦١) وانظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٢٢).

(٢) رواه البخاري (١٤٠٩، ٧١٤١، ٧٣١٦) ومسلم (٨١٦) عن عبد الله بن مسعود.

وقال : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

أي : خلقهن طبقة بعد طبقة مستويات ليس فيها اختلاف ولا تنافر ولا نقص ولا عيب، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي : انظر إلىٰ السماء فتأملها هل ترىٰ فيها عيبًا أو نقصًا أو خللاً أو فطورًا وشقوقًا، ثم قال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أيّ : مهما كررت البصر مرتين أو أكثر لرجع إليك البصر خاسئًا عن أن يرىٰ عيبًا أو خللاً، وهو حسير أي :كليل قد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر ولا يرىٰ نقصًا[1].

قال الخطابي: ومعنىٰ الإحكام لخلق الأشياء ، إنما ينصرف إلىٰ اتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها، إذ ليس كلُ الخليقة موصوفًا بوثَاقَةِ البنيةِ، وشدةِ الأسر كالبقة، والنملة، وما أشبههما من ضعاف الخلق، إلا أن التدبير فيهما، والدلالة بهما علىٰ كون الصانع وإثباته، ليس بدون الدلالة عليه بخلق السماوات والأرض والجبال وسائر معاظم الخليقة، وكذلك هذا في قوله جل وعز : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، لم تقع الإشارة به إلىٰ الحُسنِ الرائق في المنظر ، فإن هذا المعنىٰ معدوم في القرد والخنزير والدب ، وأشكالها من الحيوان ، وإنما ينصرف المعنىٰ فيه إلىٰ حسن التدبير في إنشاء كل شيء من خلقه علىٰ ما أحبَّ أن يُنشئه عليه وإبرازه علىٰ الهيئة التي أراد أن يُهيئه عليها ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] اهـ[2].

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٩٦).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٧٣ - ٧٤).

٩- إن الله سبحانه خلق الخلق لحكمة عظيمة ، وغاية جليلة ، وهي عبادته تبارك وتعالى حيث قال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

ولم يخلقهم عبثًا وباطلاً كما يظن الكفار والملاحدة، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣].

وقال عز من قائل : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

وجعل يوم القيامة موعدًا لهم، ويرجعون إليه ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

١٠- كراهة التكني بأبي الحكم:

فعن هانيء بن يزيد أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم فدعاه رسول الله ﷺ فقال : «**إن الله هو الحَكَم ، وإليه الحُكم ، فلم تكنى أبا الحكم ؟** » فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين . فقال رسول الله ﷺ : «**ما أحسن هذا . فما لك من الولد ؟**» قال : لي شريح ومسلم وعبد الله . قال: «**فمن أكبرهم ؟**» قلت : شريح . قال : «**فأنت أبو شريح**»[1] .

---

(١) إسناده صحيح : أخرجه أبو داود (٤٩٥٥) والبيهقي عنه (١٠/ ١٤٥) والنسائي (٨/ ٢٢٦) عن يزيد بن المقدام بن شريح عن أبيه عن جده شريح عن أبيه هانئ به. وهذا إسناد =

فتغيير النبي ﷺ لكنية الصحابي دليل على كراهته التكني بهذا الاسم أو التسمي به.

قال ابن الأثير: وإنما كره له ذلك لئلا يشارك الله تعالى في صفته[1].

❋ ❋ ❋

= حسن، يزيد بن المقدام صدوق، وبقية رجاله رجال مسلم.

وقد أخرج الحاكم (٤/ ٢٧٩) الحديث مختصرًا ـ دون ذكره سبب التسمية وقول النبي ﷺ: «**إن الله هو الحكم**» ـ عن قيس بن الربيع عن المقدام بن شريح عن أبيه عن جده به.

قال الحاكم: تفرد به قيس بن الربيع وليس من شرط الكتاب. قلت: قيس بن الربيع صدوق تغير لما كبر أدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به.

ملاحظة: وقع في إسناد النسائي حذف المقدام بن شريح، وقد عزاه الحافظ المزي في التحفة للنسائي دون حذف، فالظاهر أنه خطأ مطبعي.

(١) «النهاية» (١/ ٤١٩).

اللطيف
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٣٦)

*** المعنى اللغوي:**

يقال : لَطَفَ به وله، بالفتح، يَلْطفُ لُطْفًا، إذا رفق به ، واللُّطْفُ واللَّطَفُ : البرُّ والتَّكرِمَةُ والتَّحَفِّي ، وألطَفَه وألْطَفْتُهُ : أتحفتُهُ ، والطَفَه بكذا أي برَّه به ، وهو لطيفٌ بالأمر أي رفيق ، وأم لطيفةٌ بولدها تلطفُ إلطافًا. فأما لَطُفَ ، بالضم ، يَلْطُفُ فمعناه صَغُرَ ودقَّ ، واللطيف من الكلام : ما غَمُضَ معناه وخفي.

واللطيف اسم الفاعل من لطف[1].

وروده في القرآن:

ورد هذا الاسم سبع مرات في القرآن الكريم منها قوله تعالي: ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الانعام: ١٠٣][2].

---

(١) «النهاية» (٤/ ٢٥١)، «اللسان» (٥/ ٤٠٣٦) وانظر «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٤٤) و«المفردات» (ص ٤٥٠).

(٢) استدلت المعتزلة ومن تابعها بهذه الآية على نفي رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، وهو استدلالٌ باطل! فإن الآية نفت الإدراك وهو غير الرؤية التي أثبتها الله في قوله: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، فهم ينظرون إلى ربهم ولكن لا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره يحيط بهم . انظر رد ابن جرير عليهم في تفسيره (٧/ ١٩٩ -٢٠٣) وابن كثير (٢/ ١٦٢).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقوله: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

وقوله: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال قتادة: قوله ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ لطف بيوسف وصنع له حتى أخرجه من السجن وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان، وتحريشه على إخوته[1].

قال ابن جرير: وهو اللطيف بعباده، الخبير بهم وبأعمالهم[2].

قال الخطابي: (اللطيف) هو البَرُّ بعباده، الذي يلطُفُ لهم من حيث لا يعلمون، ويُسبِّبُ لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون كقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

وحكى أبو عمر[3] عن أبي العباس عن ابن الأعرابي[4] قال:

(اللطيف): الذي يوصلُ إليك أَرَبَك في رفقٍ، ومن هذا قولهم: لطَفَ الله لك، أي: أوصل إليك ما تحب في رفق.

ويقال: هو الذي لَطُفَ عن أن يدرك بالكيفية. وقد يكون اللطف

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٤٧) عنه بسند حسن.

(٢) «جامع البيان» (٢٩/ ٥).

(٣) هو المعروف بغلام ثعلب واسمه محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم الزاهد المطرز اللغوي (٢٦١ - ٣٤٥هـ) من أكابر أهل اللغة، وأحفظهم لها. انظر: «نزهة الألباء» (ص ٢٠٦).

(٤) ابن الأعرابي: هو محمد بن زياد (١٥٠ - ٢٣١ هـ) رواية ناسب علامة باللغة، لم ير أحدٌ في علم الشعر أغزر منه «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٨٢)، «الأعلام» (٦/ ١٣١).

بمعنى الرِّقةِ والغموض.

يكون بمعنى الصِّغر في نُعوتِ الأجسام ، وذلك مما لا يليقُ بصفاتِ الباري سبحانه[1].

قال الشوكاني رحمه الله في قوله :﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ : لا تخفى عليه خافية، بل يصل علمه إلى كل خفي[2].

قال ابن القيم رحمه الله في «النونية»:

وهو اللطيفُ بعبده ولعبده   واللطف في أوصافه نوعان
إدراك أسرار الأمور بخبرة   واللطف عند مواقع الإحسان
فيريك عزتَه ويُبدي لطفه   والعبد في الغفلات عن ذا الشأنِ

وقال عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله : اللطيف : الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى الخبير، وبمعنى الرؤوف[3].

*** وعلى هذا يكون معنى (اللطيف) :**

١- إنه الذي لا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، أي : هو لطيف العلم.

٢- هو البر بعباده ، الذي يلطف ويرفق بهم من حيث لا يعلمون ، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون قال تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

---

(١) «شأن الدعاء» (ص ٦٢)، وانظر: «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٤٤).

(٢) «فتح القدير» (٤/ ٢٣٩)، و«روح المعاني» (٢١/ ٨٩).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٠١).

٣- هو الذي لَطُف عن أن يدرك بالكيفية. وعلى الأول والثالث يكون من أسماء الذات. وعلى الثاني يكون من أسماء الأفعال.

*** آثار الإيمان بهذا الاسم:**

١- إن الله سبحانه وتعالى لا يفوته من العلم شيء وإن دق وصغر، أوخفي وكان في مكان سحيق قال سبحانه: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام: ٥٩].

وجاء في قوله تعالى عن لقمان: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان: ١٦][1].

فالله لا يخفى عليه شيء، ولا الخردلة وهي الحبة الصغيرة التي لا وزن لها، فإنها ولو كانت في صخرةٍ في باطن الأرض، أو في السماوات فإن الله يستخرجها ويأت بها، لأنه اللطيف الخبير.

٢- وإذا علم العبد أن ربه متصفٌ بدقة العلم، وإحاطته بكل صغيرة وكبيرة، حاسب نفسه على أقواله وأفعاله، وحركاته وسكناته، فإنه في كل وقتٍ وحين، بين يدي اللطيف الخبير: ﴿**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤].

والله سبحانه يجازي الناس على أفعالهم يوم الدين، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، لا يفوته من أعمالهم شيء، فلا المحسن يضيع من

---

(١) قوله: ﴿**إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ**﴾ إشارة إلى الصغر، وقوله ﴿**فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ**﴾ إشارة إلى الحجاب، وقوله: ﴿**أَوْ فِي السَّمَوَاتِ**﴾ إشارة إلى البعد فإنها أبعد الأبعاد، ﴿**أَوْ فِي الأَرْضِ**﴾ إشارة إلى الظلمات فإن جوف الأرض أظلم الأماكن. انظر: «تفسير الرازي» (٢٥/ ١٤٨).

إحسانه مثقال ذرة، ولا المسيء يضيع من سيئاته مثقال ذرة.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

ثم هو بعد ذلك يزيد أجور الصالحين من فضله وكرمه ما يشاء، ويعفو ويتجاوز عن ذنوب من يشاء من عباده بلطفه وعفوه، ويعذّب بالذنوب من يشاء من عباده بعدله، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً.

٤- الله لطيف بعباده، أي كثير اللطف بهم بالغ الرأفة لهم.

قال الحليمي[١] في معنى (اللطيف) وهو الذي يريد بعباده الخير واليسر، ويقيض لهم أسباب الصلاح والبر[٢].

ومن لطفه بعباده أنه يسوق إليهم أرزاقهم، وما يحتاجونه في معاشهم.

قال القرطبي في تفسير الآية السابقة: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ..﴾ [لقمان: ١٦]: «وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى، وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه، لأن الخردلة يقال: إن الحِسَّ لا يدرك لها ثقلاً، إذ لا ترجح ميزانًا.

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الجرجاني، أبو عبد الله فقيه شافعي قاض، كان رئيس أهل الحديث في ما وراء النهر مولده بجرجان (٣٣٨هـ) ووفاته ببخاري (٤٠٣هـ)، له «المنهاج» في «شعب الإيمان» طُبع في دار الفكر - لبنان انظر: «الأعلام» (٢/ ٢٣٥).

(٢) «المنهاج في شعب الإيمان» (١/ ٢٠٢).

أي : لو كان للإنسان رزق مثقال حبة خَرْدَل في هذه المواضع ، جاء الله بها حتى يسوقها إلى من هي رزقه، أي : لا تهتم للرزق حتى تشتغل به عن أداء الفرائض ، وعن اتباع سبيل من أناب إليّ» اهـ[1].

قال الغزالي: إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، وما دق منها وما لطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في العلم تمَّ معنى اللطف، ولا يتصور كحال ذلك في العلم والفعل إلا لله تعالى.

فأما إحاطته بالدقائق والخفايا فلا يمكن تفصيل ذلك ، بل الخفي مكشوف في علمه كالجلي، من غير فرق ، وأما رفقه في الأفعال ولطفه فيها فلا يدخل أيضًا تحت الحصر ، إذ لا يعرف اللطف في الفعل ، إلا من عرف تفاصيل أفعاله وعرف دقائق الرفق فيها ، وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسعُ المعرفة بمعنى اسم (اللطيف) ، وشرح ذلك يستدعي طويلاً ثم لا يتصورً أن يفي بِعُشرِ عُشْرِهِ ، مجلدات كبيرة ، وإنما يمكن التنبيه على بعض جُمَلِهِ.

فمن لطفه: خلقه الجنين في بطن الأم في ظلمات ثلاث وحفظه فيها وتغذيته بواسطة السرة، إلى أن ينفصل، فيستقل بالتناول بالفم ، ثم إلهامه إياه عند الانفصال التقام الثدي وامتصاصه ولو في ظلام الليل ، من غير تعليم ومشاهدة . بل فلق البيضة عن الفرخ وقد ألهمه التقاط الحب في الحال.

ثم تأخير خلق السِن عن أول الخلقة، إلى وقت الحاجة لاستغناء الإغذاء باللبن عن السن، ثم إنباته بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٦٦).

الطعام، ثم تقسيم الأسنان إلى عريضة للطحن، وإلى أنياب للكسر، وإلى ثنايا حادة الأطراف للقطع، ثم استعمال اللسان الذي الغرض الأظهر منه النطق في رد الطعام إلى المطحن كالمجرفة.

ولوذكر لطفه في تيسير لقمة يتناولها العبد من غير كلفةٍ يتجشمها وقد تعاون على إصلاحها خلق لا يحصى عددهم، من مصلح الأرض وزارعها وساقيها وحاصدها ومنقيها وطاحنها وعاجنها وخابزها إلى غير ذلك، لكان لا يستوفي شرحه[1].

* * *

(١) «المقصد السنى» (ص ٦٢ - ٦٣).

الخبير
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٣٧)

*** المعنى اللغوي:**

الخِبْرُ والخُبْرُ والخِبْرَةُ والخُبْرة والمَخْبَرَةُ والمخْبُرةُ كُلُّه: العلم بالشيء، يقال: من أين خَبَرتَ هذا الأمر، أي: من أين علمت؟ وقولُهم: لأخْبُرنّ خُبْرَكَ: أي لأعلمن علمك، والخبر واحد الأخبار.

والخابرُ: المختبرُ المُجرِّبُ، ورجل خابر وخبير: عالم بالخبر.

وخَبَرْتُ الأمرَ أخبُرُهُ إذا عَرفْتُه على حقيقته.

والمُخْبَر خلاف المنظر.

والخبير: العالم بالشيء.

وقال الكسائي: الخبير الذي يخبر الشيء بعلمه[1].

وأنكر أبو علي الفارسي[2] على أبي إسحاق الزّجاج قوله أن (الخبير)

---

(١) «اشتقاق أسماء» الله للزجاجي (ص ١٢٧)، «الصحاح» للجوهري (٢/٦٤١)، «النهاية»(٢/٦)، «اللسان» (٢/ ١٠٩٠).

(٢) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد الفارسي النحوي، ولد في «فسا» - من أعمال فارس - سنة (٢٨٨ هـ) ودخل بغداد سنة (٣٠٧ هـ) وتجوَّل في كثير من البلدان، وقدم حلب سنة (٣٤١هـ) فأقام مدة عند سيف الدولة، وعاد إلى فارس فصحب ابن بويه وتقدم عنده فعلمه النحو وصنف له كتاب «الإيضاح» في قواعد العربية، قال الذهبي: وكان متهمًا بالاعتزال، لكنه صادقٌ في نفسه. «الميزان» (١/ ٤٨٠ - ٤٨١)، «نزهة الألباء» (ص ٢٣٢)، «الأعلام» (٢/ ١٧٩ - ١٨٠).

من قولهم : خَبَرتُ الأرضَ: إذا شققتها، وفلانٌ خبيرٌ بالشيء إذا كان عالمًا به، وكأنه هو الذي بحث عن ذلك الشيء حتى شقَّ عنه الأرض.

وقال: وهو عندنا من الخَبرِ الذي يُسمع لأن معنى الخبير العالم.

وقال: فالعلم أبدًا مع الخَبَر فما حاجةُ أبي إسحاق إلى أن يأخذه من الخَبْرِ والشَّقِّ[1]؟!

*** وروده في القرآن الكريم:**

ورد اسم (الخبير) في القرآن خمسًا وأربعين مرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١].

وقوله: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى:**

قال ابن جرير : في قوله : ﴿نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ : العليم بسرائر عباده وضمائر قلوبهم، الخبير بأمورهم الذي لا يخفى عنه شيء[2].

وقال: خبير بكل ما يعلمونه ويكسبونه من حسن وسيء، حافظٌ ذلك عليهم ليجازيهم على كل ذلك[3].

---

(١) انظر: «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٤٥).

(٢) «جامع البيان» (٢٨/ ١٠٣) وانظر أيضًا (٢/ ٣٢٠).

(٣) المصدر السابق (٧/ ١٥٨).

قال الخطابي : «هو العالِمُ بكُنْه الشيء ، المُطَّلعُ على حقيقتِه كقوله تعالى : ﴿فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان: ٥٩].

يقال : فلانٌ بهذا الأمرِ خبيرٌ ، وله به خَبْرٌ ، وهو أخبرُ به من فلان، أي : أعلم.

إلا أنَّ الخُبْرَ في صفة المخلوقين إنما يستعملُ في نوع العلم الذي يدخُلُه الاختبارُ ، ويُتوَصلُ إليه بالامتحان ، والاجتهاد ، دون النوع المعلوم ببدائه العقول.

وعلم الله سبحانه، سواءٌ فيما غَمضَ من الأشياء وفيما لَطُف ، وفيما تجلَّى به منه وظهر ، وإنما تختلف مدارك عُلُوم الآدميين الذين يَتَوصلون إليها بمقدِّماتٍ من حِسٍّ ، وبمعاناةٍ من نظرٍ وفكرٍ ، ولذلك قيل لهم: ليس الخَبَرُ كالمعاينة ، وتعالى الله عن هذه الصفات عُلواً كبيرًا» اهـ[1].

قال الغزالي : «(الخبير) : هو الذي لا تعزبُ عنه الأخبار الباطنة ، ولا يجري في الملك والملكوت شيء ولا يتحرك ذرة ولا يسكن، ولا يضطرب نَفَسٌ ولا يطمئن، إلا ويكون عنده خَبَرُهُ.

وهو بمعنى العليم، لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سُمي خِبْرةً، وسُمي صاحبها خبيراً» اهـ[2].

وقال السعدي: «العليم الخبير» وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء» اهـ[3].

---

(١) «شأن الدعاء» (ص ٦٣).

(٢) «المقصد الأسنى» (ص ٦٣).

(٣) «تيسير الكريم» (٥/ ٢٩٩).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١- إن الله هو الخبير، العالم ببواطن الأمور وخفياتها، عالم بما كان وما يكون، لا يفوته من العلم شيء وإن كان صغيرًا دقيقًا، وهذا لله وحده لا يشاركه فيه أحدٌ من خلقه.

٢- والله أخبر بنفسه، إذ لا أحد أعلم بالله من الله، قال سبحانه ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩] أي: اسأل عنه خبيرًا ـ و«الباء» هنا مكان «عن» ـ[1] وهو الله عز وجل[2].

وقيل: هو محمد ﷺ[3].

فيكون المعنى: فاسأل عنه خبيرًا، أي: عالمًا به، أي: بصفاته وأسمائه. وقيل: هو جبريل عليه السلام[4].

٣- إن الله خبير عليم بأعمال عباده وأقوالهم، وما يجول في صدورهم من خير أو شر.

قال سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ولذلك أمرنا سبحانه وتعالى أن نتقيه ونعمل بما يحب، وأن نبتعد عن كل ما يسخطه ويغضبه.

قال تعالى: محرضًا على التقوى والإحسان: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا

---

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص ٥٦٨) و«تفسير القرطبي» (١٣/٦٣) والشوكاني (٤/ ٨٤) وهو كقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١].

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٥/ ١٠٦) والشوكاني (٤/ ٨٤).

(٣) قاله ابن كثير (٣/ ٣٢٣).

(٤) ذكره البغوي (٥/ ١٠٦) ونقله الآلوسي (١٩/ ٣٩) عن ابن عباس.

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء: ١٢٨].

وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وحض على طاعته وطاعة رسوله ﷺ فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

وأمر بالإيمان به وبرسوله وبكتابه فقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء: ١٣٥]، تحذير من معصيته، وهي عدم إقامة الشهادة بالحق وعبر عنه بقوله: ﴿وَإِن تَلْوُوا﴾ أو كتمان الشهادة مع الحاجة إليها وعبر عنه بقوله: ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾، ثم جاء التحذير وهو قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ أي: فإن الله خبير بما تعملون، من عدم إقامتكم الشهادة وتحريفكم لها، وإعراضكم عنها بكتمانها، ويحفظ ذلك منكم عليكم حتى يجاريكم به يوم الجزاء، فاتقوا ربكم في ذلك.

٤- إن الله سبحانه خبيرٌ، قد أحاط بكل شيء خُبْرًا يخبر بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه، يعلم ما كان وما يكون وما سيكون.

فقد أخبر عن خلقه للسماوات والأرض في ستة أيام، واستوائه على عرشه فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ [الفرقان: ٥٩].

وأخبر عن نفسه سبحانه أنه يعلمُ مفاتح الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا هو، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وهذه الخمسة كلها غيبيةٌ مستقبلية.

وأخبر عما سيقع في يوم القيامة من الأهوال الكونية من انشقاق السماء وانفطارها، وارتجاف الأرض وزلزالها، ونسف الجبال وسيرها وتسجير البحار وانفجارها، وغير ذلك من الأهوال المنتظرة التي لم تقع.

وأخبر عن حال أهل الإيمان وما هم فيه من الاطمئنان والأمان من تلك الأهوال، ثم عن دخولهم الجنان بسلام.

وأخبر عن حال أهل الكفران، وما هم فيه عند قيامهم من تخبط الشيطان، لاتخاذهم إياه وليًا - في الدنيا - من دون الرحمن، واتباعهم لخطواته وتركهم لكلام الكريم المنان.

والله خبير بالطائفتين في ذلك اليوم المشهود، قال تعالى: **﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾** [العاديات: ٩ - ١١].

ولا يخبر بهذه الأمور كلها إلا الله وحده العليم الخبير، كما قال سبحانه **﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾** [فاطر: ١٤] أي: لا ينبئك أحد مثلي لأني عالم بالأشياء[١].

* * *

(١) «تفسير البغوي» (٥/ ٣٠٠) وانظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٥١).

الحليم
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٣٨)

* **المعنى اللغوي:**

الحِلْمُ بالكسر: الأناةُ والعَقْلُ، وجمعه أحْلامٌ وحُلُومٌ، وأحلامُ القومِ: حُلماؤُهُم، ورجل حليمٌ من قومٍ أحلامٍ وحُلَماء.

وحَلُمَ يَحْلُمُ حِلْمًا: صار حَليمًا، وحَلُمَ عنه وتحَلَّمَ سواءٌ، تَحلَّم تكلَّف الحِلم.

والحِلْمُ: نقيض السَّفَهِ.

أمّا الحُلْمُ والحُلُمُ فهو الرُّؤْيا والجمع أحْلامٌ يقال: حَلَمَ يحْلُمُ: إذا رأى في المنام[١].

وقال الراغب: الحِلْمُ ضَبطُ النفس والطبعِ عن هيجان الغضب وجمعه أحلامٌ. قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم﴾ [الطور: ٣٢]، قيل معناه: عُقولُهُم وليس الحِلْمُ في الحقيقةِ هو العقلُ،لكن فسَّروه بذلك لِكونِهِ من مُسَبَّبَاتِ العقل[٢].

والحليم اسم الفاعل من حَلُمَ[٣].

---

(١) «الصحاح» (٥/١٩٠٣)، «اللسان» (٢/٩٧٩ - ٩٨٠).

(٢) «المفردات» (ص ١٢٩).

(٣) «إشتقاق أسماء الله» (ص ٩٦).

* وروده في القرآن الكريم:

ورد الاسم في القرآن إحدىٰ عشرة مرة منها:

قوله تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١].

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

* معنىٰ الاسم في حق الله تعالىٰ:

قال ابن جرير: (حليم) يعني أنّه ذو أناة، لا يعجل علىٰ عباده بعقوبتهم علىٰ ذنوبهم(١).

وقال في موضع: حليمًا عمّن أشرك وكفر به من خلقه، في تركه تعجيل عذابه له(٢).

قال الخطابي: هو ذو الصَّفحِ والأناةِ، الذي لا يَستفزُّهُ غضبٌ، ولا يَستَخِفُّهُ جهلُ جاهلٍ، ولا عصيانُ عاصٍ.

ولا يستحقُّ الصافحُ مع العجزِ اسم الحِلْمِ، إنّما الحليمُ هو الصَّفُوحُ مع القدرة والمتأنّي الذي لا يَعجَلُ بالعقوبة.

وقد أنعمَ بعض الشعراءِ بيانَ هذا المعنىٰ في قولهِ:

لا يدركُ المجدَ أقوامٌ وإنْ كَرُمُوا حتى يَذِلُّوا وإنْ عَزُّوا لأقوامِ

(١) «جامع البيان» (٢/ ٣٢٧).

(٢) «جامع البيان» (٢٢/ ٩٥).

ويُشتَموا فترى الألوان مُسفرةً لا صَفحَ ذُلٍّ ولكن صفحَ أحْلامِ[1]

قال ابن الحصّار[2]: فإن قيل: فكيف يتضمّن الحلم الأناة، وقد قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك لخصلتين يُحبُّهما الله: الحِلم والأناة**»[3] فعدَّدهما؟ فاعلم أنّ الأناة، قد تكون مع عدم الحلم، ولايصحّ الحلمُ أبدًا إلا مع الأناةِ، والأنـاةُ تـرك العجلـةِ، فقد تكـون لعارضٍ يعرض، ولايكونَ الحِلمُ أبدًا إلا مُشتملاً على الأناة، فتأمّله!

وكذلك لا يكون الحليم إلا حكيمًا، واضعًا للأمور مواضعها، عالمًا قادرًا، إن لم يكن قادرًا كان حلمه متلبّسًا بالعجز والوهن والضعف،وإن لم يكن عالمًا [كان] تركه الانتقام للجهل، وإن لم يكن حكيمًا ربَّما كان حلمه من السَّفه وتتبع أمثال هذا..[4].

وقال الأصبهاني: (حليمٌ) عمَّن عصاه، لأنه لو أرادَ أخذه في وقته أخَذَه فهو يحلم عنه ويؤخره إلى أجله.

وهذا الاسم - وإن كان مشتركًا يوصف به المخلوق - فحلم المخلوقين حِلْمٌ لم يكن في الصِّغر ثم كان في الكبر.

---

(١) «شأن الدعاء» (ص ٦٣ - ٦٤)، وانظر: «النهاية» (١٠/ ٤٣٣ - ٤٣٤).

(٢) هو عليّ بن محمد الخزرجي أبو الحسن، الحصار، فقيه إشبيلي الأصل، منشأه بفاس، سمع بها وبمصر وغيرهما وجاور بمكّة وتوفي بالمدينة سنة (٦١١هـ)، له كتب في أصول الفقه، وكتاب «الناسخ والمنسوخ» سمعه منه الحافظ المنذري، و«البيان في تنقيح البرهان» و«عقيدة» في أصول الدين وشرحها في أربعة مجلدات وغيرها. «التكملة لوفيات النقلة» (٢/ ٣٠٩)، «الأعلام» (٤/ ٣٣٠ - ٣٣١).

(٣) رواه مسلم (١/ ١٨)

(٤) «الكتاب الأسنى» للقرطبي (ورقة ٢٦٤ ب).

وقد يتغير بالمرض والغضب والأسباب الحادثة ، ويفنى حلمُه بفنائه، وحلم الله عز وجل لم يزل ولا يزول.

والمخلوق يحلُم عن شيءٍ ولا يحلُم عن غيره ، ويحلم عمن لا يقدر عليه، والله تعالى حليمٌ مع القدرة[1].

قال ابن كثير: (حليم غفور) : أن يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه، وهو يحلم فيؤخِّر ويُنْظِر ويُؤجِّل ولا يَعجل، ويستر آخرين ويغفر[2].

قال ابن القيم في نونيته:

وهو الحليم فَلا يُعاجل عَبَده   بعقوبةٍ ليتوبَ من عصيانِ[3]

وقال السعدي: (الحليم) : الذي يَدُرُّ على خلقه النعم الظاهرة والباطنة ، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم ، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم ويستعتبهم كي يتوبوا ، ويُمهلهم كي يُنيبوا[4].

*** آثار الإيمان بهذ الاسم:**

١- إثبات صفة (الحلم) لله عزّ وجلّ، وهو الصفح عن العصاة من العباد، وتأجيل عقوبتهم رجاء توبتهم عن معاصيهم.

٢- وحلم الله سبحانه عن عباده، وتركه المعاجلة لهم بالعقوبة، من صفات كماله سبحانه وتعالى. فحلمه ليس لعجزه عنهم، وإنّما هو صفح وعفو عنهم، أو إمهال لهم مع القدرة، فإنَّ الله لا يعجزه شيء.

(١) «الحجة في المحجة» (ق ١٢١أ).

(٢) «التفسير» (٣/ ٥٦١) وانظر (١/٣١٨)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص ٥٨).

(٣) «النونية» بشرح أحمد بن إبراهيم بن عيسى (٢/٢٢٧).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/٣٠٤).

قال سبحانه: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ [فاطر: ٤٤].

وحلمه أيضًا ليس عن عدم علمه بما يعمل عباده من أعمال ، بل هو العليم الحليم الذي يعلم خائنة العين وما تخفى الصدور.

قال سبحانه : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾ [الأحزاب: ٥١].

وحلمه عن خلقه ليس لحاجته إليهم، إذ هو سبحانه يحلم عنهم ويصفح ويغفر مع استغنائه عنهم ، قال سبحانه : ﴿اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

٣- حِلْمُ الله عظيم ، يتجلى في صبره سبحانه على خلقه ، والصبر داخل تحت الحلم ، إذ كل حليم صابر، وقد جاء في السنّة وصف الله عزّ وجلّ بالصبر ، كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**ليس أحدٌ - أو ليس شيءٌ - أصبر على أذىً سَمِعهُ من الله، إنّهم لَيَدْعون له ولداً وإنّه ليعافيهم ويَرزُقهم**»[١].

قال الحليمي في معنى (الحليم) : الذي لا يحبس أنعامه وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكن يرزق العاصي كما يرزق المطيع، ويبقيه وهو منهمك في معاصيه، كما يُبقي البّر التقي، وقد يقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره، فضلاً عن أن يدعوه، كما يقيها الناسك الذي يسأله وربّما شغلته العبادة عن المسألة[٢].

وقد أخبر تعالى عن تأخيره لعقاب من أذنب من عباده في الدنيا ،

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٦٠٩٩)، (١٣/ ٧٣٧٨).

(٢) «المنهاج في شعبة الإيمان» (١/ ٢٠٠ -٢٠١) وانظر: «الأسماء للبيهقي(ص ٧٢ - ٧٣).

وأنَّه لو كان يؤاخذهم بذنوبهم أولاً بأوّل، لما بقي على ظهر الأرض أحد.

قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١].

وقال: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴾ [الكهف: ٥٨].

قال ابن جرير: «ولويؤاخذ الله عصاة بني آدم بمعاصيهم ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ يعني: الأرض من دابة تدبّ عليها ﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يقول: ولكن بحلمه يؤخِّر هؤلاء الظلمة، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يقول: إلى وقتهم الذي وقَّتَ لهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ يقول: فإذا جاء الوقت الذي وَقَّتَ لهلاكهم لا يستأخرون عن الهلاك ساعة فيمهلون ولا يستقدمون قبله حتى يستوفوا آجالهم» اهـ[1].

فتأخير العذاب عنهم إنّما هو رحمة بهم.

ولكنَّ النَّاس يغترون بالإمهال، فلا تستشعر قلوبهم رحمة الله وحكمته، حتّى يأخذهم سبحانه بعدله وقوته، عندما يأتي أجلهم الذي ضرب لهم.

ومن العجب! أن يريد الله للنَّاس الرحمة والإمهال، ويرفض الجهَّال منهم والأجلاف تلك الرحمة وذلك الإمهال، حين يسألون الله أن يعجِّل لهم العذاب والنقمة!

(١) «جامع البيان» (١٤/ ٨٥).

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس: ١١].

وقال: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ١٦].

وقال عن كفَّار مكّة: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وأمثال ذلك ممّا وقع من المسرفين السُّفهاء.

تنبيه: تأخير العذاب عن الكفَّار إنّما هو في الدنيا فقط، وأمّا في الآخرة فلا يخفَّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون.

فقال الأُقْليشي[1]: «أما تأخير العقوبة في الدنيا عن الكفرة والفجرة من أهل العصيان، فشاهد بالعيان، لأنَّا نراهم يكفرون ويَعْصُونَ، وهم مَعافُون في نعم الله يتقلبون.

وأما رفع العقوبة في الأخرىٰ، فلا يكون مرفوعًا إلا عن بعض من استوجبها من عُصاةِ الموحدين.

وأما الكفار فلا مَدْخَلَ لهم في هذا القسم، ولا لهم في الآخرة حظٌّ من هذا الاسم، وهذا معروفٌ بقواطع الآثار، ومُجمعٌ عليه عند أولي الاستبصار» اهـ[2].

٤- يجوز إطلاق صفة الحِلم على الخلق، فقد وصف الله عز وجل

---

(١) هو أحمد بن قاسم بن عيسى اللخمي الأقليشي الأندلسي، أبو العباس، عالم بالقراءات، ولد سنة (٣٦٣هـ)، سكن قرطبة، ورحل إلى الشرق، واستقرَّ وتوفي بطليطلة، له كتاب في «معاني القراءات» لعله المسمى «تفسير العلوم والمعاني المستودعة في السبع المثاني» مخطوط في الأزهرية وهو تفسير للفاتحة توفي سنة (٤١٠هـ)، نسبته إلى أقليش بالأندلس. «الأعلام» (١/١٩٧).

(٢) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٦٥ ب).

أنبياءه بذلك ، قال عز من قائل : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥]. وقال حكاية عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧] وقال ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠١] يعني بذلك إسحاق عليه السلام.

والحلم من الخصال العظيمة التي يريد الله من عباده أن يتخلقوا بها، وهي خصلةٌ يحبها الله ورسوله كما مرَّ آنفًا في حديث أشج عبد القيس.

قال القرطبي رحمه الله: «فمن الواجب على من عَرَفَ أن ربَّه حليم على من عصاه، أن يحلم هو على من خالف أمره، فذاك به أولى حتى يكون حليمًا فينال من هذا الوصف بمقدار ما يكسر سورة غضبه ويرفع الانتقام عن من أساء إليه، بل يتعود الصفح حتى يعودَ الحلم له سجيَّة.

وكما تحب أن يحلُمَ عنك مالكك، فاحلم أنت عمن تملك لأنك متعبدٌ بالحلم مثابٌ عليه قال الله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣]»[1].

* * *

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٦٥ ب - ٢٦٦ أ).

العظيم
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٣٩)

*** المعنى اللغوي :**

العِظَمُ: خلاف الصغر ، عَظُمَ يَعظُمُ عِظَمًا وعَظامَةٌ كَبُرَ ، وهو عَظيمٌ وعُظامٌ .

وعَظَّمَ الأمر : كبَّره ، وأعظمه ، واستعظمه : رآه عظيمًا ، فهو مُعْظَمٌ .

والتَّعظيم : التبجيل ، والعظمة : الكبرياء .

والتَّعظُّمُ في النفس : هو الكِبْرُ والزَّهْوُ والنَّخْوَةُ ، والعَظَمة والعَظَموت : الكِبْرُ[1].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد هذا الاسم تسع مرات منها :

قوله تعالى : ﴿ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقوله : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٦].

وقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٩٦] .

---

(١) «الصحاح» (٥/١٩٨٧) ، «اللسان» (٤/٣٠٠٤ - ٣٠٠٥).

* معنى الاسم في حق الله تعالى:

قال ابن جرير : «اختلفوا في معنى قوله (العظيم) :

فقال بعضهم : معنى العظيم في هذا الموضع المعظم، صرف المفعل إلى فعيل، كما يقال: العتيق بمعنى المعتق.

فقوله العظيم معناه: الذي يُعظِّمه خلقه ويهابونه ويتقونه.

وقال آخرون: بل تأويل قوله (العظيم) : هو أن له عظمة هي له صفة، وقالوا: لا نصف عظمته بكيفية، ولكنَّا نضيف ذلك إليه من جهة الإثبات، وننفي عنه أن يكون ذلك على معنى مشابهة العظيم المعروف من العباد، لأن ذلك تشبيهٌ له بخلقه وليس كذلك.

وأنكر هؤلاء ما قاله أهل المقالة التي قدمنا ذكرها.

وقالوا: لو كان معنى ذلك أنه مُعظمٌ، لوجب أن يكون قد كان غير عظيم قبل أن يخلق الخلق، وأن يبطل ذلك عند فناء الخلق، لأنه لا معظم له في هذه الأحوال.

وقال آخرون : بل قوله إنه (العظيم) وصف منه نفسه بالعظم.

وقالوا : كل ما دونه من خلقه فبمعنى الصغر ، لصغرهم عن عظمته» اهـ[1] .

وقال الزجاجي : «(العظيم) : ذو العظمة والجلال في ملكه وسلطانه عز وجل، كذلك تعرفه العرب في خطبها ومحاوراتها ، يقول قائلهم : من عظيم بني فلان اليوم؟ أي : من له العظمة والرئاسة منهم ؟ فيقال له: فلانٌ عظيمهم ، ويقولون : هؤلاء عظماءِ القوم أي : رؤساءهم ،

(١) «جامع البيان» (٣/ ٩) باختصار وتصرف يسير.

وذوو الجلالة والرئاسة منهم.

وقالوا في قوله عز وجل: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

تأويله: هلا أنزل هذا القرآن علي رجل من رجلين عظيمين من القريتين؟ أي: كان سبيله أن ينزل على عظيم رئيس، ولم يريدوا به عظم الخلقة» اهـ[١].

وقال الأصبهاني: العَظَمةُ صفةٌ من صفات الله، لا يقوم لها خَلْقٌ، والله تعالى خَلَقَ بين الخلقِ عظمةً يُعَظِّمُ بها بعضُهم بعضًا، فمن الناس من يُعظم لمال، ومنهم من يُعظم لفضل، ومنهم مَنْ يُعظم لعلمٍ، ومنهم من يُعظم لسلطانٍ، ومنهم من يُعظم لجاهٍ.

وكلٌّ واحدٍ من الخَلْق إنما يُعَظَّم بمعنى دون معنى، والله عز وجل يُعظم في الأحوال كلها.

فينبغي لمن عَرَف حقَّ عظمةِ الله، أن لا يتكلم بكلمةٍ يكرهها الله، ولا يرتكب معصيةً لا يرضاها الله، إذْ هو القائمُ على كل نفسٍ بما كسبت[٢].

وقال ابن الأثير: هو الذي جاوز قَدْرُه عز وجلَّ حدود العقول، حتى لا تَتَصور الإحاطة بكنهه وحقيقته[٣].

---

(١) «اشتقاق أسماء الله» (ص ١١١ - ١١٢)، واختاره الزجاج في «تفسير أسماء الله» (ص ٤٦)، والخطابي في «شأن الدعاء» (ص ٦٤ - ٦٥)، والقرطبي في تفسيره (٣/ ٢٧٩)، وانظر آثار الإيمان بهذا الاسم رقم (١).

(٢) «الحجة في المحجة» (ق/ ١٥ب - ١٦أ).

(٣) «النهاية» (٣/ ٢٥٩- ٢٦٠) باختصار، وانظر: «المقصد الأسنى» (ص ٦٤).

* آثار الإيمان بهذا الاسم:

١- إن الله سبحانه، هو العظيمُ المطلق، فهو عظيمٌ في ذاته، عظيم في أسمائه كلها، عظيم في صفاته كلها، فهو عظيم في سمعه وبصره، عظيم في قدرته وقوته، عظيم في علمه..، فلا يجوز قصر عظمته في شيء دون شيء، لأن ذلك تَحكُّمٌ لم يأذن به الله.

قال ابن القيم رحمه الله في نونيته مقرراً ذلك:

وهو العظيمُ بكلِّ معنىً يُوجبُ التَّعظيمَ لا يُحصِيه من إنسانِ[1]

فمن عظمته في علمه وقدرته أنه لا يشق عليه أن يحفظ السماوات السبع والأرضين السبع، ومن فيهما كما قال: ﴿**وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢- الفرق بين عظمة الخالق والمخلوق:

أن المخلوق قد يكون عظيمًا في حال دون حال، وفي زمان دون زمان، فقد يكون عظيمًا في شبابه، ولا يكون كذلك عند شيبه، وقد يكون ملكًا أو غنيًا معظمًا في قومه، فيذهب ملكه وغناه أو يفارق قومه وتذهب عظمته معها، لكن الله سبحانه هو العظيم أبداً.

قال الحليمي في (العظيم): ومعناه الذي لا يمكن الامتناع عليه بالإطلاق، لأن عظيم القوم إنما يكون مالك أمورهم، الذي لا يقدرون على مقاومته ومخالفة أموره، إلا أنه وإن كان كذلك، فقد يلحقه العجز بآفات تدخل عليه فيما بيده فتوهنه وتضعفه، حتى يستطاع مقاومته، بل قهره وإبطاله، والله جل ثناؤه قادر لا يعجزه شيء، ولا يمكن أن يُعصى

---

(١) «النونية» بشرح أحمد بن إبراهيم بن عيسى (٢/ ٢١٤).

كرهًا، أو يُخالف أمره قهرًا . فهو العظيم إذًا حقًا وصدقًا ، وكان الاسم لمن دونه مجازًا اهـ[1].

٣- على المسلم أنْ يعظِّم الله حق تعظيمه، ويقدره حق قدره، وإن كان هذا لا يُستقصى، إلا أن على المسلم أن يبذل قصارى ما يملك لكي يصل إليه.

وتعظيم الله سبحانه وتعالى أولاً ، إنما هو بوصفه بما يليق به من الأوصاف والنعوت التي وصف بها نفسه ، والإيمان بها وإثباتها له ، دون تشبيهها بخلقه ، ولا تعطيلها عمّا تضمنته من معاني عظيمة.

فمن شبَّه ومثَّل، أو عطَّل وأوَّل، فما عظَّم الله حق تعظيمه.

ومن تعظيمه جلَّ وعلا، الإكثار من ذكره في كل وقت وحين، والبدء باسمه في جميع الأمور، وحمده والثناء عليه بما هو أهل له، وتهليله وتكبيره.

ومن تعظيم الله سبحانه، أن يطاع رسول ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، فمن أطاع الرسول فقد أطاع المرسل ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ومن عصاه فقد عصى الله.

ومن تعظيم الله سبحانه أن يعظم رسوله ويوقَّر، قال تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩][2].

---

(١) «المنهاج» (١/ ١٩٥).

(٢) معنى «تعزروه» : أي : تعظموه ، انظر «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٨٥)، ومما يدخل في ذلك، تعظيم علماء المسلمين، أهل السنة والاتباع، وتوقيرهم وحبهم والدفاع عنهم، =

وأن لا يقدم على كلامه كلام أحد مهما كانت مكانته قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحجرات: ١].

ومن تعظيم الله سبحانه أن يصدق كتابه ، لأنه كلامه ، وأن يحكم في الأرض لأنـه شرعـه الذي ارتضاه للناس أجمعين . فمن لم يفعل فما عظَّم الله حق تعظيمه ، بل التحق بأشباهــه من اليهود الذين اتَّخذوا كتاب الله وراءهم ظهريًا واتبعوا شياطين الإنس والجن.

ومن تعظيم الله سبحانه ، أن تعظَّم شعائر دينه كالصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة وغيرها.

قال تعالى : ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ومن تعظيم الله سبحانه أن تجتنب نواهيه ومحارمه التي حرمها في كتابه، أو حرمها رسوله ﷺ قال تعالى : ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠] و من أعظم ما حرمه الله الشرك بأنواعه. ومقابل هذا أن يعمل المسلم بأوامره التي أمر بها ، والتي من أعظمها توحيده وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له .

٤- ليس أضل من ذلك الإنسان الذي أبى أن يعبد الله وحده، وأصرَّ على أن يشرك به ما لا يملك له رزقًا، ولا يملك له نفعًا ولا ضرًا، من أوثان وأحجار وأشجار، أو قبور وأضرحة، قد صار أصحابها عظامًا نخرة، فكيف تقضي لهم حاجة؟ أو تشفي لهم مريضًا؟ أو ترد لهم غائبًا؟ لكنه العمى والضلال البعيد، وهم في الآخرة في العذاب الشديد ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا

= وذكر مآثرهم الحسنة، وعلمهم وجهادهم ، وعلى رأسهم أصحاب نبينا ﷺ.

فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٣] ، فلما لم يعظمه حق التعظيم، عُذِّب العذاب العظيم .

وهذا في المشركين الذين أقروا بخالقهم وخالق السماوات والأرض، وأنه مُنزِّل المطر ومُحي الأرض بعد موتها ، فما بالك بأولئك الشيوعيين الأنجاس ، الذين أبت نفوسهم العفنة أن تقرَّ بخالقها ورازقها ومدبِّر أمرها ، والذين يُسمون أنفسهم بـ «اليساريين» وما أصدق هذه التسمية عليهم ، فهم أهل اليسار حقًا في الآخرة ﴿ **وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ** ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤] .

٤- أمر النبي ﷺ أن يُسبح بهذا الاسم في الركوع فقال : «.. **ألا وإني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا ، فأمَّا الركوع فَعظِّموا فيه الرَّبَّ عزَّ وجلَّ ، وأمَّا السجودُ فاجتهدوا في الدُّعاء ، فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم**»[1].

* * *

---

(١) رواه مسلم (١/ ٤٧٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الشَّكُور - الشَّاكر
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٤٠ ، ٤١)

* **المعنى اللغوي:**

الشُّكْرُ : عرفان الإحسان ونشره وهو الشُّكُورُ أيضًا .. وقيل : الشكر الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف ، يقال : شكرتُه وشكرت له وباللام أفصح[١]. ورجلٌ شكورٌ : كثير الشكر كما قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**﴾ [الإسراء: ٣] ، وهو من أبنية المبالغة ، يقال : شكر له يشكرُ شُكْرًا وشُكُورًا وشُكْرانًا .

والشكران: خلاف الكفران .

وأشكر الضرع واشتكر : امتلأ لبنًا، والشَّكِرَة : الممتلئة الضرع من النوق . والشَّكِيرُ : ما ينبت في أصل الشجرة من الورق وليس بالكبار .

والشكور من الدَّواب: ما يكفيه العلفُ القليل، وقيل: الذي يسمن على قلةِ العلف، كأنه يشكُر وإن كان ذلك الإحسان قليلاً، وشكره ظهور نمائه، وظهور العلف فيه[٢].

كما في حديث مسلم : «**حتى إن الدواب لتشكرَ من لحومهم**».

وقال الزّجّاج: «(الشكور) : هو فعول من الشُّكر ، وأصل الشكر

(١) واختاره الزجاجي في «الاشتقاق» (ص ٨٧).

(٢) «الصحاح» (٢/ ٧٠٢) «النهاية» (٢/ ٤٩٣) «اللسان» (٤/ ٢٣٠٥).

في الكلام: الظهور، وفيه يقال: شَكير النبت، وشَكِرالضرَّع إذا امتلأ وامتلاؤه: ظهور، ويقال دابة شكورٌ، وهو السريع السِّمنِ، فسرعة سَمنه ظهور أثر صاحبه عليه» اهـ[1].

فيكون أصل الشكر في اللغة هو الزيادة والظهور.

*** الفرق بين الشكر والحمد:**

الشكر مثل الحمد إلا أن الحمد أعمُّ منه ، فإنك تحمد الإنسان على صفاته الجميلة وعلى معروفه ، ولا تشكره إلا على معروفه دون صفاته .

قال ثعلب : الشكر لا يكون إلا عن يدٍ ، والحمد يكون عن يدٍ ، وعن غير يدٍ، فهذا الفرق بينهما[2].

وقال القرطبي : وتكلم الناس في الحمد والشكر هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين ؟ فذهب الطبري والمبرد إلى أنهما بمعنى واحد سواء، وهذا غير مرضي، والصحيح : أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان ، وهذا قول علماء اللغة ، الزجاج والقتبي وغيرهما» اهـ[3].

وقال ابن القيم : والفرق بينهما : أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته، والحمد أعم من جهة المتعلقات وأخص من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة، وباللسان

---

(١) «تفسير الأسماء» (ص ٤٧).

(٢) «اللسان» (٤/٢٣٠٥).

(٣) الكتاب الأسنى (ورقة ٣٤١)، والقتبي : هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، وانظر كلامه في الفرق بين الحمد والشكر في كتابه «أدب الكاتب» (ص ٣٧) طبعة ليدن.

ثناءً واعترافًا ، وبالجوارح طاعة وانقيادًا ، ومتعلقه : النعم دون الأوصاف الذاتية ، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه ، وهو المحمود عليها كما هو محمود على إحسانه وعدله ، والشكر يكون على الإحسان والنعم .

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد يقع بالقلب واللسان» اهـ[1].

*** ورود الاسمين في القرآن الكريم :**

ورد (الشكور) في القرآن أربع مرات وهي :

قوله تعالى : ﴿**لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾ [فاطر: ٣٠] .

وقوله : ﴿**إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ**﴾ [فاطر: ٣٤] .

وقوله : ﴿**وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ**﴾ [الشورى: ٢٣] .

وقوله : ﴿**إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ**﴾ [التغابن: ١٧] .

وأما (الشاكر) فقد ورد مرتين :

في قوله تعالى : ﴿**وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ١٥٨] .

وقوله : ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾ [النساء: ١٤٧] .

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٦).

*** معنى الاسمين في حق الله تعالى :**

قال قتادة : ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠] ، إنه غفور لذنوبهم شكور لحسناتهم(١).

وقال : إن الله غفور للذنوب ، شكور للحسنات يضاعفها(٢).

قال الخطابي : «(الشكور) : هو الذي يشكر اليسير من الطاعة فَيُثِيبُ عليه الكثير من الثواب ، ويعطي الجزيلَ من النعمة ، فيرضى باليسير من الشكر كقوله سبحانه ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

ومعنى الشكر المضافِ إليه : الرضى بيسير الطاعة من العبد والقبولُ له ، وإعظام الثواب عليه، والله أعلم . وقد يحتمل أن يكون معنى الثناء على الله عز وجل بالشكور ترغيب الخلق في الطاعة ، قَلَّتْ أو كثُرت ، لئلا يستقلُّوا القليل من العمل فلا يتركوا اليسير من جملته إذا أعوزهم الكثير منه اهـ(٣).

قال الزجاجي: « فإن قال قائل: فإذا كان الشكر منه عزّ وجلّ إنما هو مجازاة العاملين ومقابلة الأفعال بالثواب والجزاء، فقولوا إنه يشكر أيضًا أفعال الكفار لأنه يجازيهم عليها.

قيل له: ذلك غير جائز، لأنا قد قلنا: إن الشكر في اللغة إنما هو: مقابلة المنعم على فعله بالثناء والاعتراف بفعله، ولما كان المسيء من العباد لا يقال له منعم، ولم يستحق بذلك شكرًا، بل استحقّ الذم والسبَّ، لم يجز أن يكون الكفار محسنين في أفعالهم فيستحق الجزاء

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ٨٧، ٩٢) بإسناد حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٥/ ١٨) بالإسناد السابق.

(٣) «شأن الدعاء» (ص٦٥ - ٦٦).

عليها والمقابلة بالجميل ، بل كانوا مسيئين ، والمسيء مستحق للعقوبة والسبِّ ، فلم يجز أن يُسمى الفعل المقابل لفعالهم شكرًا» اهـ[1].

وقال البيهقي : «هو الذي يشكر اليسير من الطاعة، ويعطي عليه الكثير من المثوبة.

وشكره : قد يكون بمعنى ثنائه على عبده، فيرجع معناه إلى صفة الكلام، التي هي صفة قائمة بذاته» اهـ[2].

فالرب سبحانه وتعالى إذا أثنى على عبده فقد شكره.

وفي «المقصد» : «الرب تعالى إذا أثنى على أعمال عباده فقد أثنى على فعل نفسه، لأن أعمالهم من خلقه، فإن كان الذي أعطي فأثنى (شكور)، فالذي أعطى، وأثنى على المعطي فهو أحق بأن يكون شكورًا.

فثناء الله تعالى على عباده كقوله : ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وكقوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠، ٤٤] وما يجري مجراه، وكل ذلك عطية منه» اهـ[3].

وقال ابن القيم في «النونية»:

وهو الشكور فلن يُضيِّع سعيهم	لكن يضاعفه بلا حسبانِ
ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ	هو أوجبَ الأجرَ العظيمَ الشانِ
كلا ولا عملٌ لديه ضائعٌ	إن كان بالإخلاصِ والإحسانِ
إن عُذبوا فبعدلِه أو نُعموا	فبفَضله والحمدُ للمنانِ[4]

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص ٨٧).

(٢) «الاعتقاد» (ص ٥٩).

(٣) «المقصد الأسنى» (ص ٦٥) وانظر : «شرح الأسماء» للرازي (ص ٢٥٥).

(٤) «النونية» بشرح أحمد بن إبراهيم (٢/ ٢٣٠).

قال السعدي : (الشاكر، الشكور) : الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل ، ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب ، ويشكر الشاكرين ، ويذكر من ذكره ، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة تقرب الله منه أكثر[1].

*** آثار الإيمان بهذين الاسمين:**

١- إن الله سبحانه هو الشكور والشاكر على الإطلاق ، الذي يقبل القليل من العمل ويعطي الكثير من الثواب مقابل هذا العمل القليل .

ولذلك نهينا أن نستصغر شيئًا من أعمال البر ، ولو كان شيئًا يسيراً ، فقد قال ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه : «**لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئًا ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلْق**»[2].

وحثّ على عمل الصالحات ، صغيرها وكبيرها فإن الله لا يُضيع شيئًا ، فقال ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة**»[3].

وحثّ الناس على الصدقة - عند قدوم قوم من مضر أصابتهم الفاقة والفقر - فقال : «**تَصَدَّقَ رجلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره ، حتى قال : ولو بشق تمرة**»[4].

وبيَّن تعالى أنه يضاعف الأعمال الصالحة أضعافًا كثيرة بقدر ما يشاء، وذلك فضله يؤتيه من يشاء. قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ**

(١) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠٤).

(٢) رواه مسلم(٤/ ٢٦٢٦).

(٣) رواه البخاري (٣/ ٢٨١، ٢٨٣) (٦/ ٦١١) وغيرها ومسلم (٢، ٧٠٣) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٤) رواه مسلم (٢/ ١٠١٧) عن جرير بن عبد الله البجلي.

يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال سبحانه: **﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾** [النساء: ٤٠].

وقال: **﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾** [الشورى: ٢٣].

وقال: **﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾** [الحديد: ١١]، وغيرها من الآيات الكثيرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تصدَّق بعَدْل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يُرَبِّيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل»**[1]. أي: يربيها له كما يربي أحدكم مهره.

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجلٌ بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله فقال رسول الله ﷺ: **«لكَ بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»**[2].

ومن عظيم شكره سبحانه لعباده وفضله وكرمه عليهم، أنه يضاعف لهم الحسنات فقط، أما السيئات فإنها تكتب كما هي ولا تتضاعف قال تعالى: **﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾** [الأنعام: ١٦٠].

وقال: **﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾** [غافر: ٤٠].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٧٨)، (١٣/ ٤١٥) ومسلم (٢/ ٧٠٢) واللفظ للبخاري.

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٥٠٥) و«الخطام»: هو الحبل الذي تقاد به الناقة.

٢- ومما يجب معرفته أن ما يُقدمه المسلم في تقربه إلى الله سبحانه، من صلاة وصيام وحج وصدقة وجهاد ، وغيرها من أعمال البر المحدودة بالأعمار القصيرة ، والتي يتخللها التقصير والسهو والنسيان ، لا يمكن بحال أن تكون ثمنًا للجنة السرمدية ، بما فيها من مباهج وزخارف ولذَّات ، أو أن تنقذه من جحيم النار ولهيبها . فعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : «**سدِّدُوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدخِلَ الجنة أحدًا عَمَلُهُ**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «**ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة..**»[1].

وفي رواية «**لا يُدْخِلُ أحدًا منكم عملُهُ الجنةَ، ولا يُجيرُهُ من النار، ولا أنا إلا برحمةٍ من الله**»[2].

فدخول العبد الجنة وفوزه بها، ونجاته من النار إنما هو بفضل الله ورحمته.

٣- إن الله سبحانه شكره واجب على كل مكلف، كما قال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ**﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [النحل: ١١٤].

وقال: ﴿**كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ**﴾ [سبأ: ١٥].

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٢٩٤) ومسلم (٤/ ٢١٧١) عن عائشة.

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢١٧١) عن جابر رضي الله عنه.

قال القرطبي : «إن للشكر ثلاثة أركان:

١- الإقرار بالنعمة للمنعم.

٢- والاستعانة بها على طاعته.

٣- وشكر من أجرى النعمة على يده تسخيراً منه إليه.

وهذا الركن الثالث ، لم أره لأحدٍ ممن تكلم على الشكر ـ فيما أعلم والله أعلم ـ فله الحمد على ما ألهم وفهَّم وعلَّم» اهـ[١].

وزاد عليها المحقق ابن القيم فقال: «والشكر مبني على خمس قواعد:

خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختل من قواعد الشكر قاعدة.

وكل من تكلم في الشكر وحَدَّه، فكلامه إليها يرجع، وعليها يدور»[٢].

قلت: أما الإقرار بها ومعرفتها وذكرها على الدوام والتحدث بها، فقد أمر الله تعالى به عباده في غير ما آية:

فقال سبحانه: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧، ١٢٢].

وقال: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٤٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٤).

فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ** ﴾ [فاطر: ٣].

وقال: ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ [الضحى: ١١].

وفي «المدارج»: قال صاحب المنازل: الشكر اسم لمعرفة النعمة، لأنها السبيل إلى معرفة المنعم ولهذا سمى الله تعالى الإسلام والإيمان في القرآن: شكرًا.

قال ابن القيم: فمعرفة النعمة ركن من أركان الشكر، لا أنها جملة الشكر، كما تقدم. لكن لما كان معرفتها ركن الشكر الأعظم، الذي يستحيل وجود الشكر بدونه، فجعل أحدهما اسمًا للآخر[١].

وقد جاء في الحديث ما يبين عظمة تذكر النعمة والاعتراف بها وهو قوله ﷺ: «**سيّدُ الاستغفار أن يقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خَلقتَني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أَبُوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأَبُوءُ لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: ومن قالها من النهار مُوقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو مُوقنٌ بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة**»[٢].

قال الطيبي: «اعترف أولاً بأنه أنعم عليه، ولم يقيده لأنه يشمل أنواع الإنعام، ثم اعترف بالتقصير وأنه لم يقم بأداء شكرها، ثم بالغ فعدَّه ذنبًا

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٤٧).

(٢) رواه البخاري (١١/٩٧ - ٩٨، ١٣٠) عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه، وفي قوله: «**ما استطعت**»: إعلامٌ لأمته أن أحدًا لا يقدر على الإتيان بجميع ما يجب عليه لله، ولا الوفاء بكمال الطاعات، والشكر على النعم، فرفق الله بعباده فلم يكلفهم من ذلك إلا وسعهم «الفتح» (١١/ ١٠٠).

في التقصير وهضم النفس» اهـ[1].

ويكرر ﷺ الاعتراف بالنعمة في أدبار الصلوات في قوله: «...**له النعمة والفضل وله الثناء والحسن..**»[2].

وقد حثّ ﷺ على التحدث بنعم الله تعالى فقال: «**من أبلى بلاءً فذكره فقد شكره وإن كتمه فقد كفره**»[3].

---

(١) «الفتح» (١١/ ١٠٠) وقال الحافظ: ويحتمل أن يكون قوله «**أبوء لك بذنبي**» اعتراف بوقوع الذنب مطلقًا ليصح الاستغفار منه، لا أنه عدَّ ما قصر فيه من أداء شكر النعم ذنبًا.

(٢) رواه أحمد (٤/ ٥) ومسلم (١/ ٤١٥ -٤١٦) من حديث ابن الزبير وأوله: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد..**».

(٣) أخرجه أبو داود (٥/ ٤٨١٤) وأبو نعيم في «أخبار أصفهان» (١/ ٢٥٩) عن جرير عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ﷺ به ورجاله رجال الشيخين، إلا أن أبا سفيان لم يسمع من جابر إلا أربعة أحاديث، قاله ابن المديني، كما في التهذيب. ورواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٤٧) عن صدقه بن عبد الله عن الأزاعي عن أبي الزبير عن جابر أن النبي ﷺ قال: «**من أبلى خيراً فلم يجد إلا الثناء فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بباطل فهو كلابس ثوبي زور**» ثم قال: «كذا رواه صدقة عن الأوزاعي عن أبي الزبير واسمه محمد بن مسلم بن تدرس وتفرد به، والحديث مشهور بأيوب بن سويد عن الأوزاعي عن محمد بن المنكدر عن جابر» اهـ. قلت: صدقة ضعفه أحمد والبخاري وأبو زرعة والنسائي، كما في «التهذيب» (٤/ ٤١٦).

والروايةالتي ذكر أنها مشهورة، أخرجها ابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٥٦) قال أخبرنا محمد بن الحسين بن حفص الأشناني حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء ثنا أيوب بن سويد ذكره، وسنده حسن، ومحمد بن الحسين ـ وقع في المطبوعة: ابن الحسن ـ ثقة له ترجمة في «تاريخ بغداد» (٢/ ٢٣٤ - ٢٣٥) و«السير» (٤/ ٥٢٩) وله شاهد أخرجه البزار (١٩٤٣ - زوائد) عن صالح بن أبي الأخضر عن الزهري عن عروة عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «**من أتاه معروف فذكره فقد شكره، ومن تحلَّى بما لم ينل، فهو كلابس ثوبي زور**».

قال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١٤٩): «رواه البزار وفيه صالح بن أبي الأخضر وهو ضعيف. وقد رواه من هذا الوجه الخرائطي في فضيلة الشكر (٨٣) مع اختلاف في اللفظ».

قال ابن القيم : «الثناء علي المنعم المتعلق بالنعمة نوعان : عام وخاص ، فالعام : وصفه بالجود والكرم ، والبر والإحسان وسعة العطاء ونحو ذلك .

والخاص : التحدث بنعمته والإخبار بوصولها إليه من جهته ، كما قال تعالى : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وفي هذا التحديث المأمور به قولان :

أحدهما : أنه ذكر النعمة والإخبارَ بها ، وقوله : أنعم الله عليَّ بكذا وكذا .

والتحدث بنعمة الله شكر، كما في حديث جابر مرفوعًا : «**من صُنع إليه معروفٌ فلْيجزِ به ، فإن لم يجدْ ما يجزي به فَلْيُثْنِ ، فإنه إذا أثنى فقد شكَرَه ، وإنْ كَتَمه فقد كفره ، ومَن تحلَّى بما لم يعطَ كان كلابس ثَوْبَي زُور**»[1].

---

(١) حسن : رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢١٥) عن يحيى بن أيوب عن عمارة بن غزية عن شرحبيل مولى الأنصار عن جابر مرفوعًا به. ورواه مسدد - كما في «المطالب العالية» (٢/ ٤٠٤) وعنه أبو داود (٥/ ٤٨١٣) ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده - كما في «إتحاف السادة المهرة» - للبوصيري (٢/ق ١٤٢ ب) عن بشر ثنا عمارة بن غزية حدثني رجل من قومي عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : «**من أعطي عطاءً فوجد فَلْيَجز به ، فإن لم يجد فلْيُثن به ، فمن أثني به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره ، ومن تحلَّى بما لم يُعط كان كلابس ثوبي زور**» وحرَّك بشر السبابة والوسطى. وليس عند أبي داود: «**ومن تحلى..**» إلي آخره.

قال البوصيري: رواه مسدد والحارث بسند ضعيف لجهالة بعض رواته، ورواه الترمذي وحسنه، دون قوله: «**وحرك بشر..**» إلى آخره اهـ.

قال أبو داود: «رواه يحيى بن أيوب عن عمارة بن غزية عن شرحبيل عن جابر، قال: وهو شرحبيل - يعني رجلاً من قومي- كأنهم كرهوه لم يُسموه» اهـ. =

فذكر أقسام الخلق الثلاثة:

أ - شاكر النعمة المثني بها.

ب - والجاحد لها والكاتم لها.

جـ - والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها ، فهو متحلٍّ بما لم يعطه.

وفي أثر آخرمرفوع : **«مَنْ لم يَشكر القليلَ لم يَشكر الكثير، ومَن لم يشكر الناسَ لم يَشكر الله، والتَّحدث بنعمةِ الله شُكرٌ، وتَركه كُفرٌ، والجماعةُ رَحمة والفُرقة عَذَاب»**[1].

= قلت: قد جاء مصرحًا به في رواية البخاري السابقة، وهو شرحبيل بن سعد الخطمي المدني مولى الأنصار، ضعفه النسائي والدارقطني وذكره ابن حبان في «الثقات» وخرج له في صحيحه وكذا شيخه ابن خزيمة، وقد اختلط في آخره انظر : «التهذيب» ٤/ ٣٢١).
وقال الحافظ: صدوق اختلط بآخره.

وقد رواه الترمذي (٤/ ٢٠٣٤) عن إسماعيل بن عياش عن عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر مرفوعًا به . وقال : «حسن غريب، وفي الباب عن أسماء بنت أبي بكر وعائشة، ومعنى قوله : **«ومن كتم فقد كفر»** يقول: قد كفر تلك النعمة» اهـ .

قلت: في إسناده إسماعيل بن عياش وفي روايته عن الحجازيين ضعف وهذه منها فإن عمارة بن غزية أنصاري مدني ، وقد خالف يحيى بن أيوب : وهو الغافقي أبو العباس المصري صدوق ربما أخطأ ، وبشر بن المفضل وهو ثقة عابد .

والحديث يتحسن بما قبله والله أعلم.

والجملة الأخيرة : «ومن تحلَّى بما لم يعط» ، يشهد لها ما في البخاري (٩/ ٣١٧) ومسلم (٣/ ١٦٨١) عن أسماء : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : إن لي ضَرَّةً ، فهل عليّ جناحٌ أن أتشبع من مال زوجي بما لم يعطني؟ فقال رسول الله ﷺ : **«المُتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زور»** . وأخرجه مسلم (٣/ ١٦٨١) عن عائشة بمثله . وقد أشار إليهما الترمذي بقوله آنفًا : وفي الباب عن أسماء وعائشة.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨، ٣٧٥) وابن أبي الدنيا في الشكر (٦٤) ، الخرائطي في «فضيلة الشكر» (٨٢) ولم يذكر **«والجماعة رحمة..»** كلهم عن أبي وكيع الرؤاسي عن أبي عبد الرحمن الشامي عن الشعبي عن النعمان بن بشر مرفوعًا به. وسنده حسن . =

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية هو الدعوة إلى الله ، وتبليغ رسالته ، وتعليم الأمة .

قال مجاهد : هي النبوة ، قال الزجاج : أي بلِّغ ما أرسلت به وحدِّث بالنبوة التي آتاك الله» اهـ[1].

فإظهار النعمة والتحدث بها من صفات المؤمنين الشاكرين ، وأما أن يكتم المرء النعمة ، ويظهر أنه فاقدٌ لها إما بلسان الحال أو المقال ، فهو كفرٌ لها ، وهو من صفات الكافرين الجاحدين .

وإنما سُمي الكافر كافرًا، لأنه يُغطِّي نعمة الله التي أسبغها عليه ويجحدها ولا يُقرُّ بها[2].

وقد وصفهم الله بذلك في كتابه فقال : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣] .

وقال : ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [النحل: ٧١] .

وقال : ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٢] .

بل ربما نسبوا نعم الله تعالى التي أعطاهم[3] إلى أنفسهم وعلمهم

= تنبيه: قال محقق فضيلة الشكر للخرائطي: في الأصلين: أبو وكيع، وهو سهو والتصحيح من كتاب الشكر لابن أبي الدنيا، وهو أبو سفيان وكيع بن الجراح! كذا قال! ولا أدري على أي شيء استند لقوله هذا، إذ هو في كل المصادر السابقة: حدثنا أبو وكيع، وهو الجراح بن مليح: الرؤاسي، صدوق يهم.

وكذا إثباته زيادة «..**والجماعة رحمة والفرقه عذاب**» وليست عند الخرائطي كما في مخطوطة الظاهرية (ورقة ١٤أ).

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٤٨) باختصار يسير.

(٢) انظر : «الصحاح» (٢/ ٨٠٧)، «اللسان» (٥/ ٣٨٩٧ - ٣٨٩٨).

(٣) قال العلامة نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري في «تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان» المطبوع بهامش «تفسير ابن جرير» (١/ ١٠١): «هل لله تعالى على الكافر نعمة أم لا؟ أنكر ذلك بعض أصحابنا لوجوه: منها قوله: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ =

وخبـرتهم ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾

[الزمر: ٤٩ - ٥١].

ومعنى ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أيّ : بوجوه المكاسب والتجارات ، ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ ، أي : هذه النعم التي أوتيتها فتنة تختبر بها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون أن إعطائهم المال اختبار . ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن

= أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] فإنه لو كان له على الكفار نعمة لزم طلب صراط الكفار، لأن المبدل منه هو الصراط المستقيم في حكم المنحى . والجواب: أن قوله ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ يدفع ذلك.

ومنها قوله : ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] والجواب: أنه لا يلزم من أن لا يكون الإملاء خيراً أو نعمة لهم ، أن لا أصل الحياة وسائر أسباب الانتفاع نعمة، فإن الإملاء تأخير النقمة بعد ثبوت استحقاقها، فما قبل هذه الحالة لا يكون كذلك ، على أن نفس الإملاء تمتيع حالي ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦] ، وليس هذا كمن جعل السم في الحلواء على ما ظن، وإنما هو كمن ناول شخصًا حلواء لذيذة غير مسمومة، ولكن ذلك الشخص لفساد مزاجه، أو لاستعماله الحلواء لا كما ينبغي أفسد مزاج الحلواء أيضًا وصيَّره كالسم القاتل بالنسبة إليه، ولهذا قال ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

وكيف لا تعم نعم الله تعالى وقد قال على العموم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، كل ذلك في معرض الامتنان وشرح النعم، وقال ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] والشكر لا يكون إلا بعد النعمة» اهـ.

﴿قَبْلِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٠] يعني الكفار قبلهم: كقارون وغيره حيث قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئًا.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢].

أي: ألم يعلموا أن مصدر نعمتهم التي هم فيها هو الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وأنه تعالى يبسطها على من يشاء ويحبسها عمن يشاء، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢] أي: لا ينتفع بهذا ويتدبره إلا أهل الإيمان والعلم.

ب - وأما الاستعانة بها - أي: النعم - علي طاعة الله، فهو ما يقتضيه الشرع والعقل، فإن من أحسن إليك بشيء لا يجوز أن تقابله بالإساءة إليه، ومن فعل ذلك فهو في نظر الناس وقحٌ نذلٌ ناكرٌ للجميل، وجاحدٌ له. فكيف إذا استعان بإحسانه على الإساءة إليه، فهو أشد وقاحةً وجحودًا للجميل.

والنِّعم التي في الدنيا إنما خُلقت أصلاً ليستعين بها أهل الإيمان على طاعة الرحمن، وأما أهل الكفر والفجور فإنها محرمةٌ عليهم لأنهم يستعينون بها على معصية الله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فقوله تعالى: ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢] وقوله: ﴿قُلْ هِيَ

لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني أنها خلقت لهم، لا لغيرهم، لأنهم يستعينون بها على طاعته.

ويقول القرطبي: «واعلم أن على كل جارحة شكرًا يخصُّها، وعلى اللسان من ذلك مثل ما على سائر الجوارح، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن «الأعضاء تقول للسان : «**اتق الله فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا**»[1].

وشكر كل جارحةٍ إنما هو باستعمالها بتقوى الله العظيم في امتثال ما يخصها من الطاعات واجتناب ما يخصها من العصيان، فشكر البدن أن لا تستعمل جوارحه في غير طاعته.

وشكر القلب أن لا تشغله بغير ذكره ومعرفته.

وشكر اللسان أن لا تستعمله في غير ثنائه ومدحه.

وشكر المال أن لا تنفقه في غير رضاه ومحبته.

ووراء ذلك تطوعات الشاكرِ والشكور، قام رسول الله ﷺ من

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٩٥ - ٩٦) والترمذي (٤/ ٢٤٠٧) وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٠٩) والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣١٦) عن حماد بن زيد عن أبي الصهباء عن سعيد بن جبير عن أبي سعيد الخدري رفعه قال: «**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا**» . قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث حماد بن زيد، وقد رواه غير واحد عن حماد بن زيد ولم يرفعوه» اهـ.

قلت : قد رواه ثقات عن حماد ورفعوه مثل مسدد وعارم وعفان وغيرهم.

لكن فيه أبو الصهباء الكوفي لم يوثقه إلا ابن حبان، وقال الحافظ: مقبول، أي حيث يتابع وإلا فليِّن الحديث.

فالحديث ضعيف بهذه الطرق.

وعزاه السيوطي في الجامع إلى ابن خزيمة والبيهقي في «الشعب».

الليل حتى تورمت قدماه فقيل له: تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[1] ، أي: طالبًا للمزيد لقوله تعالى: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم: ٧] »اهـ[2].

وقد أحسن القائل:

أَنَالَكَ رزقه لتقوم فيه ... بطاعته وتشكرَ بعض حقِّه

فلم تشكرْ لنعمته ولكن ... قوِيتَ على معاصيه برزقه

جـ- أما شكر من أجرى الله سبحانه النعمة على يده، فقد أمر الله سبحانه به في قوله تعالى: ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾ [لقمان: ١٤] فأمر بشكره ثم بشكر الوالدين إذ كانا سبب وجوده في الدنيا، وسَهِرَا وتعبا في تربيته وتغذيته، فمن عقَّهما أو أساء إليهما فما شكرهما على صنيعهما، بل جحد أفضالهما عليه، ومن لم يشكرهما فإنه لم يشكر الله الذي أجرى تلك النعم على أيديهما، وقد قال ﷺ: «**لا يشكر الله مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ**»[3].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١١٣٠) (٨/ ٤٨٣٦) (١١/ ٦٤٧١) ومسلم (٤/ ٢٨١٩) عن المغيرة بن شعبة ورواه مسلم (٤/ ٢٨٢٠) عن عائشة.

(٢) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٤٢ - ٢٤٣).

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٢٤٩١) وأحمد (٢/ ٢٥٨، ٢٩٥، ٣٠٣ - ٣٠٤، ٣٨٨، ٤٦١، ٤٩٢) والبخاري في «الأدب» (٢١٨) وأبو داود (٥/ ٤٨١١) والترمذي (٤/ ١٩٥٤) والخرائطي في فضيلة الشكر (٨٠) وابن حبان في صحيحه (٢٠٧٠ - موارد) عن الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد: وهو القرشي عن أبي هريرة مرفوعًا به.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح، قلت: هو على شرط مسلم، ورواه الخرائطي (٨٠) حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي حدثنا علي بن القاسم حدثنا عبد العزيز ابن محمد الدراوردي عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا به، وسنده حسن، علي ابن القاسم الظاهر أنه عبد الأعلى بن القاسم الهمداني تحرف اسمه، وهو =

قال الخطابي : «هذا الكلام يُتأول على وجهين:

أحدهما : أن من كان طبعه وعادته كفران نعمة الناس ، وترك الشكر لمعروفهم ، كان من عادته كفران نعمة الله وترك الشكر له سبحانه.

والوجه الآخر : أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه، إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس، ويكفر معروفهم، لاتصال أحد الأمرين بالآخر» اهـ[1].

٤- وقد أكثر الله سبحانه من تعداد نعمه على عباده، فلم يترك لجاحد مجالاً أن ينكر نعم الله عليه، بل لو أراد أن يحصي الإنسان ما في جسده من نعم الله وأفضاله لعجز، فكيف لو أراد أن يحصي نعم الله سبحانه على الناس في حياتهم علي هذه الأرض؟!

قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

وفي «مختصر منهاج القاصدين» : من جملة نعم الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس، وآلة الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى في الحواس الخمس، التي هي آلة للإدراك.

فأولها: حاسة اللمس، وهو أول حس يخلق للحيوان، وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه، فإن الإحساس بما يبعد منه أتم لا محالة، فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك، فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بعد، ولكن لا تدري من أي ناحية جاءت الرائحة، فتحتاج

= صدوق كما في «التهذيب» (٦/ ٩٧) واخرجه ايضًا (٧٨) عن ابن أبي ليلى عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري، وسنده ضعيف لضعف عطية.

(١) «معالم السنن» (٤/ ١١٣).

أن تطوف كثيرًا حتى تعثر على الذي شممت رائحته ، وربما لم تعثر ، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك، وتدرك جهته فتقصدها بعينها ، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصًا ، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب ، فربما قصدك عدو بينك وبينه حجاب ، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب، فتعجز عن الهرب، فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من وراء الحجرات عند جريان الحركات، ولا يكفي ذلك، لو لم يكن لك حس الذوق ، إذ به تعلم ما يوافقك وما يضرك ، بخلاف الشجرة، فإنه يصب في أصلها كل مائع، ولا ذوق لها فتجذبه ، وربما يكون ذلك سبب جفافها، ثم أكرمك الله تعالى بصفة أخرى ، هي أشرف من الكل، وهو العقل ، فبه تدرك الأطعمة ومنفعتها، وما يضر في المآل ، وبه تدرك طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها، فتنتفع به في الأكل الذي هو سبب صحتك ، وهو أدنى فوائد العقل ، والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ، وما ذكرنا من الحواس الخمس الظاهرة، فهي بعض الإدراكات ولا تظن أننا استوفينا شيئًا من ذلك فإن البصر واحد من الحواس ، والعين آلة له، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة: بعضها رطوبات، وبعضها أغشية مختلفة ، لكل واحدة من الطبقات العشر صفة ، وصورة ، وشكل ، وهيئة، وتدبير ، وتركيب ، لو اختلت طبقة واحدة منها أو صفة واحدة، لاختل البصر ، وعجز عنه الأطباء كلهم، فهذا في حس واحد، وقس حاسة السمع وسائر الحواس، ولا يمكن أن يستوفي ذلك في مجلدات، فكيف ظنك بجميع البدن؟![1].

وذكَّر الله الناس بنعمةٍ من نعمه العظيمة على الأرض وهي : نعمة

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٠٢ - ٣٠٣)، وانظر الكلام على باقي الأعضاء وحكمها (ص ٣٠٣ - ٣٠٥).

الليل والنهار فقال : ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

وقال سبحانه مُذكِّرًا لعباده أنه سخَّر لهم البحار والأنهار : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وقال سبحانه مُذكِّرًا لأصحاب نبيه ﷺ بنعمته العظيمة عليهم : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

ولو أردنا أن نُعدِّد نعم الله لطال المقام بنا ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤][1].

٥- وعن بيان حقيقة النعم وأقسامها يقول في «مختصر منهاج القاصدين» : اعلم أن كل مطلوب يسمى نعمة، ولكن النعمة في الحقيقة هي السعادة الأخروية، وتسمية ما عداها نعمة تجوزٌ.

والأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم أربعة أقسام:

أحدها : ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعًا، كالعلم، وحسن الخلق، وهو النعمة الحقيقية.

الثاني : ما هو ضارٌ فيهما جميعًا، وهو البلاء حقيقة.

القسم الثالث : ما ينفع في الحال، ويضر في المآل، كالتلذذ، واتباع الشهوات، فهو بلاء عند ذوي الأبصار، والجاهل يظنه نعمة.

---

(١) من أراد أن يتوسع في هذا المجال فليقرأ سورة الأنعام وإبراهيم والنحل والرحمن وغيرها، ويتبين ويتدبر ما ذكر فيها من نعم عظيمة جليلة ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

ومثاله : الجائع إذا وجد عسلاً فيه سم ، فإنه يعده نعمة إن كان جاهلاً ، فإذا علم ذلك عده بلاءً .

القسم الرابع : الضارٌّ في الحال ، النافع في المآل ، وهو نعمة عند ذوي الألباب ، بلاء عند الجهال .

ومثاله : الدواء الشنيع مذاقه في الحال ، الشافي في المآل من الأسقام، فالصبي الجاهل ، إذا كلف شربه ظنه بلاء ، والعاقل يعده نعمة ، وكذلك إذا احتاج الصبي إلى الحجامة، فإن الأب يدعوه إليها ويأمره بها، لما يلحظ في عاقبتها من الشفاء، والأم تمنعه من ذلك لفرط حبها وشفقتها، لكونها جاهلة بالمصلحة في ذلك، فالصبي يقلد أمه بجهله ، ويأنس إليها دون أبيه ، ويقدر أباه عدوًا ، ولو عقل لعلم أن الأم هي العدو الباطن في صورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض ألمها أشد من ألم الحجامة ، فالصديق الجاهل شر من العدو العاقل ، وكل إنسان صديق نفسه ، ولكن النفس صديق جاهل، فلذلك تعمل به مالا يعمل العدو.

٦- الفرق بين إنعام الخالق وإنعام الخلق:

أ - إن الله سبحانه وتعالى يعطي الخلق ويتفضل عليهم مع استغنائه عنهم، والمخلوق لا يعطي غالبًا إلا لمقصدٍ أو غرض.

ب - إنك ربما احتجت إلى شيء من المخلوق ولا يعطيكه، لكونه محتاجًا إليه، والله سبحانه غني عن كل شيء قال سبحانه: ﴿**وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ**﴾ [الأنعام: ١٤].

جـ - إنك ربما احتجت إلى شيء من المخلوق إلا أنه لا يمكنك

الوصول إليه فتبقى محرومًا عن عطيته.

والله سبحانه تصل إليه بدعائك ومناجاتك في كل وقت وحين ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

د - إنك إذا قصَّرت في خدمة المخلوق قطع عنك إنعامه ، والكافر يقصر بأعظم حقوق الله ويظل إنعامه سبحانه عليه كما قال ﷺ: «ما أَحَدٌ أَصبرُ على أذًى سمعه منَ الله، يَدْعونَ له الولد، ثم يُعَافيهم ويرزقهم»(١).

٧- وقد بيَّن تعالى أن أكثر الناس عن شكر هذه النعم والأفضال غافلون أو متغافلون ، وهم في نعم الله غارقون .

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

وقال : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وهذه الآيات تقابل قوله تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢].

لأن أعظم الشكر لله سبحانه هو توحيده وعبادته وحده لا شريك له، لأنه هو الذي خلق وأوجد من العدم ورزق الإنسان الأرزاق الكثيرة، ولم يشاركه في ذلك أحد، فلا يستحق أحد العبادة معه، ولكن أكثر الناس كما قال تعالى أعرضوا عن هذه الحقيقة، وجعلوا له أندادًا، ونسبوا لها الضر والنفع، والتصرف في الأرزاق، ودفع الأمراض، وقضاء الحاجات، وتفريج الكربات.

---

(١) رواه البخاري (١٠/٩٩ ٦٠٩٩) (١٣/٧٣٧٨) ومسلم (٤/٢٨٠٤) عن أبي موسى الأشعري.

فمن الشرك الذي يقع من العباد نسبتهم ما يحصل لهم من الأرزاق إلى المخلوقين ، قال البخاري في صحيحه : باب قول الله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢] قال ابن عباس: شكركم[١].

ثم روى حديث زيد بن خالد الجهني أنه قال : صلّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثرِ سماءٍ كانت من الليل ، فلما انصرف النبي ﷺ أقبل على الناس فقال : «**هل تدرون ماذا قال ربُّكم؟ قالوا:الله ورسوله أعلم قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافرٌ ، فأما من قال مُطِرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما من قال : بنوءِ كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مؤمن بالكواكب**» اهـ[٢].

وفي رواية رواية لمسلم : «**ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزلُ الله الغيثَ فيقولون : الكوكب كذا وكذا**»[٣].

قال ابن قتيبة : «كانوا في الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء[٤]، إما بصنعِهِ على زعمهم وإما بعلامته، فأبطل الشرع قولهم وجعله كفرًا ، فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعًا في ذلك فكفره كفر تشريك ، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة فليس بشرك لكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة، لأنه لم يقع في شيء من طرق الحديث بين

(١) قال الحافظ: «يحتمل أن يكون مراده أن ابن عباس قرأها كذلك ويشهد له ما رواه سعيد ابن منصور عن هشيم عن ابن بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون» وهذا إسناد صحيح» اهـ (الفتح ٢/ ٥٢٢).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٢/ ١٠٣٨) ومسلم (١/ ٧١، ٧٢).

(٣) مسلم (١/ ص ٨٤).

(٤) النوء: هو النجم الذي ينسب إليه المطر.

الكفر والشرك واسطة ، فيحمل الكفر فيه علي المعنيين لتناول الأمرين والله أعلم» اهـ[1].

ومن هذا قول الناس: لولا الطبيب لمات ابني، لولا البط أو الكلب لسرق اللصوص الدار، وما شابه ذلك من نسبة الفضل والنعمة لغير الله تعالى.

٧- ويجب أن يعلم أن الله تعالى لا يزداد ملكه شيئًا بشكر الناس له ونسبتهم الفضل إليه، كما أنه لايتضرر بكفرهم لأنه الغني الحميد، ولكنه تبارك وتعالى يحب أن يحمد ويشكر ويرضى عن العبد بذلك، ويكره أن يكفر به وبنعمته ويسخط على العبد بذلك، قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

بل المستفيد والمنتفع بالشكر هو الإنسان نفسه، كما أنه هو المتضرر بالكفر، قال تعالى عن سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وقال عن لقمان العبد الصالح: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

٨- والكفر بنعم الله تعالى مُؤذنٌ بزوالها عمن كفر بها، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾

[النحل: ١١٢، ١١٣].

---

(١) «الفتح» (٢/ ٥٢٤) نقلاً عن كتابه « الأنواء».

وهذه القرية هي مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، والناس حولها يتخطفون، يغير بعضهم على بعض ، ويقتل وينهب بعضهم بعضًا، أما مكة من دخلها كان آمنًا لا يخاف كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وكان من تمام النعمة عليهم إرسال محمد ﷺ إليهم، فكفروا به كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩].

ولهذا بدَّل الله حالهم فقال: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ويأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ، وذلك لعصيانهم رسولهم ﷺ، فدعا عليهم ﷺ بالقحط فعن عبد الله بن مسعود قال: إن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدبارًا قال: «اللهم سَبْعٌ كسبع يوسفَ»، فأخذتهم سَنَةٌ حصَّت كل شيء، حتى أكلوا الجلودَ والميتةَ والجيفَ، وينظر أحدُهم إلى السماء فيرى الدُّخان من الجوع فأتاهُ أبو سفيانَ فقال: يا محمد، إنك تأمُرُ بطاعة الله وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم، قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ إلى قوله : ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٠ - ١٦] ، فالبطشة الكبرى يوم بدر، وقد مضت الدخان والبطشة واللزام وآية الروم[1].

(١) رواه البخاري في عدة مواضع منها (٢/١٠٠٧، ١٠٢٠).

وأما الخوف فهو من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة فكانوا يخافون من سطوته وسراياه وجيوشه، وذهب أمنهم السابق، وبقوا كذلك إلى أن فتح الله تعالى على نبيه ﷺ مكة.

وكل ذلك بسبب كفرهم بنعمة الله وبطرهم وأشرهم ومعاداتهم لرسوله ﷺ ورفضهم لشريعته ودينه وإصرارهم على كفرهم ومعاصيهم، وللكافرين أمثالها وقد قصَّ الله سبحانه علينا قصة «سبأ» وأنهم كانوا في نعم كثيرة، وأموال ممدودة، وفواكة منتشرة، وأسفار بلا أخطار، ثم إنهم غيِّروا ما بأنفسهم فغيَّر الله سبحانه أحوالهم، فأرسل الله عليهم سيلاً عارمًا، جرف أشجارهم وحدائقهم وأموالهم، وبُدِّلوا بعد ذلك بأشجار مُرَّة أو ذات شوك، وأشجار لا ثمار لها، وكان خير الأشجار التي أعطوها شجر السدر وثمره يسير **﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾** [سبأ: ١٧].

﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩][(١)].

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من زوال النعمة في دعائه، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: **«اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحوُّل عافيتك، وفُجَاءة نقمتك، وجميع سخطك»**[(٢)].

٩- قال الحليمي: (الشاكر): ومعناه المادح لمن يطيعه والمثني

---

(١) ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فانظر فيما حولك من الدول ترى ذلك واضحًا جليًا.

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢٠٩٧)، وفَجأة بفتح الفاء وإسكان الجيم مقصورة على وزن ضربة، والفُجَاءة بضم الفاء وفتح الجيم والمد، لغتان، وهي: البغتة.

عليه، والمثيب له بطاعته فضلاً عن نعمته» اهـ[1].

فالله سبحانه وتعالى يمدح من أطاعه وسار على شريعته، والكتاب الكريم مملوء بمدح الأنبياء والشهداء والصالحين فمدح نبيه ﷺ بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ومدحه وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومدح نوحًا بأنه كان عبدًا شكورًا، وإبراهيم الخليل بأنه أواه منيب وأنه الذي وفَّى، وموسى الكليم بأنه كان مخلصًا وإسماعيل بأنه كان صادق الوعد صلوات الله عليهم أجمعين، وغير هذا مما أثنى به على عباده في كتابه كثير.

١٠- ولابن القيِّم رحمه الله كلام جامع فيما سبق من المسائل، نذكره إتمامًا للفائدة.

قال رحمه الله: «وأما شكر الرب تعالى، فله شأنٌ آخر كشأن صبره، فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر للقليل من العمل والعطاء، فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة.

(١) «المنهاج» (١/ ٢٠٥)، قال القرطبي في الكتاب الأسنى (ورقة ٣٤٣): «فعلى قول الحليمي يرجع مدلول هذا الاسم إلى ثنائه على المطيعين فيكون من صفات الذات لأنه يرجع إلى الكلام واختاره ابن العربي» اهـ.

ويشكر عبده بقوله بأن يثني عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى، ويلقي له الشكر بين عباده.

ويشكره بفعله، فإذا ترك له شيئًا أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئًا ردَّه عليه أضعافًا مضاعفة، وهو الذي وفقه للترك والبذل، وشكره على هذا وذاك.

ولما عَقَر نبيه سليمان الخيل غضبًا له[1]، إذ شغلته عن ذكره فأراد ألا تشغله مرة أخرى، أعاضه منها متن الريح[2].

ولما ترك الصحابة ديارهم، وخرجوا منها في مرضاته، أعاضهم عنها أن ملَّكهم الدنيا وفتحها عليهم.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن ، شكر له ذلك بأن مكَّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى خرقها أعداؤه ، شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيرًا خضرًا أقرَّ أرواحهم فيها ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه.

ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم، فنالوا منهم وسبوهم ، أعاضهم من ذلك بأن صلّى عليهم هو وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء

---

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣١ - ٣٣].

(٢) في الأصل: «الربح» وهو خطأ، لأنه يقصد الريح التي سخرت له، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]

في سمواته وبين خلقه، فأخلصهم بخالصةٍ ذكرىٰ الدار.

ومن شكره سبحانه: أنه يجازي عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، ويخفف به عنه يوم القيامة، فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان، وهو من أبغض خلقه إليه.

ومن شكره : أنه غفر للمرأة البغي بسقيهـا كلبًا كان قد جهده العطش حتىٰ أكل الثرىٰ ، وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك عن طريق المسلمين.

فهو سبحانه يشكر العبد علىٰ إحسانه لنفسه، والمخلوق إنما من أحسن إليه.

وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطىٰ العبد ما يحسن به إلىٰ نفسه، وشَكَرَه علىٰ قليله بالأضعاف المضاعفة التي لا نسبة لإحسان العبد إليها، فهو المحسن بإعطائه الإحسان وإعطاء الشكر، فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه؟

وتأمل قـولـه سبحانـه : ﴿**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**﴾ [النساء: ١٤٧].

كيف تجد في ضمن هذا الخطاب أنَّ شكره تعالىٰ يأبىٰ تعذيب عباده بغير جرم ، كما يأبىٰ إضاعة سعيهم باطلاً ، فالشكور لا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيء.

وفي هذا ردٌ لقول من زعم أنه سبحانه يكلفه ما لا يطيقه، ثم يعذبه علي ما لا يدخل تحت قدرته، تعالىٰ الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علوًا كبيرًا.

فشكره سبحانه اقتضىٰ أن لا يعذب المؤمن الشكور، ولا يضيع

عمله، وذلك من لوازم هذه الصفة، فهو منزه عن خلاف ذلك، كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده.

ومن شكره سبحانه: أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير، ولا يضيع عليه هذا القدر.

ومن شكره سبحانه: أن العبد من عباده يقوم له مقامًا يرضيه بين الناس فيشكره له، وينوه بذكره، يخبر به ملائكته وعباده المؤمنين، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام، وأثنى به عليه، ونوه بذكره بين عباده.

وكذلك شكره لصاحب يَس مقامه ودعوته إليه.

فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك، فإنه سبحانه غفور شكور، يغفر الكثير من الزلل، ويشكر القليل من العمل.

ولمّا كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة، كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطّلها واتصف بضدها.

وهذا شأن أسمائه الحسنى، أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يبغض: الكفور، والظالم، والجاهل، والقاسي القلب، والبخيل، والجبان، والمهين، واللئيم.

وهو سبحانه جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الراحمين، محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل الجود، ستار يحب أهل الستر، قادر يلوم على العجز، والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف،

عفو يحب العفو، وتر يحب الوتر، وكل ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها، وكل ما يبغضه فهو ما يضادها وينافيها اهـ[1].

رحمك الله يا ابن القيم ، ما أجوده من كلام وما أجمعه. اللهم وفِّقنا الله للعمل بما تحب وترضى، واكتبنا في عبادك الطائعين الشاكرين، آمين.

* * *

(١) «عدة الصابرين» (ص ٣٣٥ - ٣٣٧).

العليُّ - الأعلى - المتعال
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٤٢، ٤٣، ٤٤)

* **المعنى اللغوي:**

عُلْوُ كُلِّ شيءٍ وعِلْوُهُ وعُلاوَتُهُ وعَاليهِ وعاليتُهُ: أرفعه، يتعدَّى إليه الفعل بحرفٍ وبغير حرف، كقولك: قعدت عُلْوَهُ، وفي عُلْوِهِ.

قال ابن السِّكِّيت[1]: سِفْلُ الدارِ وعِلْوُها، وسُفْلُها وعُلْوُها، وعلا الشيءُ عُلُوًا، فهو عَلِيٌّ، عَلِيَ وتَعَلَّى.

ويقال علا فلانٌ الجبل إذا رقيه يعلوه عُلُوًا.

وعلا فلانٌ فلانًا إذا قهره، وعلوتُ الرجل: غلبته، وعلا في الأرض: تكبَّر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

والعليُّ: الرفيع، وتعالى: ترفَّعَ.

وفلانٌ من عِلْيَةِ الناس، وهو جمع رجلٍ عَلِيٍّ، أي: شريف رفيع[2].

وقال الزّجّاجي: وقال النحويون: تقدير (عليّ) من الفعل «فعيل»،

---

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن السِّكِّيت - وعرف بها لأنه كان كثير السكوت - البغدادي النحوي، ديِّنٌ خير حجة في العربية، قال ثعلب: أجمعوا أنَّه لم يكن أحدٌ بعد ابن الأعرابي أعلم بالعربية من ابن السِّكِّيت، وله من التصانيف نحوٌ من عشرين كتابًا، منها «إصلاح المنطق» قال الذهبي فيه: كتابٌ نفيسٌ مشكورٌ في اللغة. «تاريخ بغداد» (١٤/ ٢٧٣ - ٢٧٤)، و«العبر» (١/ ٤٤٣)، و«السير» (١٢/ ١٦).

(٢) «الصحاح» (٦/ ٢٤٣٤ - ٢٤٣٥)، «اشتقاق أسماء الله» (ص ١٠٨ - ١١١)، و«اللسان» (٤/ ٣٠٨٨ - ٣٠٩٠).

أصله «عَليوٌ» لأنّه من العلوِّ، فلامه واو فاجتمعت الواو والياء وسبقت الياء ساكنة فقلبت الواو ياءً وادغمت الأولىٰ في الثانية.

وذلك من حكم الواو والياء في كلامهم إذا اجتمعتا وسبقت إحداهما بسكون أن تقلب الواو أبدًا ياء، تقدّمت أو تأخّرت، وتدغم الياء الأولىٰ في الثانية صارت الياء هاهنا أغلب علىٰ الواو لأنّها أخفّ منها[1].

*** ورورد الأسماء في القرآن الكريم:**

ورد اسم (العليّ) في ثمانية مواضع منها: قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقولــه: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله: ﴿**فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ**﴾ [غافر: ١٢].

وقوله: ﴿**إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾ [الشورى: ٥١].

وأمّا (الأعلىٰ) فقد جاء في قوله: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾ [الأعلى: ١].

وقوله: ﴿**إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ**﴾ [الليل: ٢٠].

وأمّا (المتعال) فقد جاء مرّةً واحدةً في قوله: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**﴾ [الرعد: ٩].

*** معنىٰ الأسماء في حقّ الله تعالىٰ:**

قال ابن حرير رحمه الله: «وأمَّا تأويل قوله: ﴿**هُوَ الْعَلِيُّ**﴾ فإنَّه يعني والله العليّ، والعليّ الفعيل من قولك: علا يعلو علوًا، إذا ارتفع فهو عالٍ وعليّ، والعليّ ذو العلو والارتفاع علىٰ خلقه بقدرته.

ثمّ قال: واختلف أهل البحث في معنىٰ قوله ﴿**هُوَ الْعَلِيُّ**﴾ فقال بعضهم: يعني بذلك وهو العليُّ عن النظير والأشباه، وأنكروا أن يكون

---

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص ١١١).

معنى ذلك ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ المكان، وقالوا: غير جائز أن يخلو منه مكانه، ولا معنى لوصفه بعلو المكان لأنَّ ذلك وصفه بأنَّه في مكان دون مكان!!

وقال آخرون: معنى ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ على خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه، لأنَّه تعالى ذكره فوق جميع خلقه، وخلقه دونه كما وصف به نفسه أنَّه على العرش، فهو عالٍ بذلك عليهم» اهـ[1].

قال الخطابي: «(العليُّ): هو العالي القاهر، فعيل بمعنى فاعل، كالقدير والقادر والعليم والعالم، وقد يكون ذلك من العُلُوِّ الذي هو مصدر علا، يعلو، فهو عالٍ، كقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. ويكون ذلك من علاء المجد والشرف، يقال منه: عَلِيَ يَعْلَى عَلاءً، ويكون الذي علاَ وجلَّ أن تلحقَه صفات الخلق أو تُكَيِّفَهُ أوهامهم» اهـ[2].

وقال البغوي في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾: العالي على كلّ شيء[3].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، فكلّ شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته لا إله إلا هو ولا ربّ سواه لأنّه العظيم الذي لا أعظم منه، العليّ الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدّس وتنزَّه عزَّ وجلَّ عما يقول الظالمون المعتدون علوًّا كبيرًا» اهـ[4].

---

(١) «جامع البيان» (٣/ ٩)، وكلامه يدلّ على أنَّه يختار علوّ المكان لله سبحانه، فقد ذكره أولاً تفسيرًا للآية ثمّ ذكر الاختلاف فيه، وممّا يقوي ذلك أنَّه ذكر هذا التفسير للاسم في مواضع أخر ولم يذكر غيره، انظر (١٣٧/١٧)، (٢٤/ ٦، ٢٨).

(٢) «شأن الدعاء» (ص ٦٦).

(٣) «تفسير البغوي» (٥/ ٢٦).

(٤) «التفسير» (٣/ ٢٣٢).

وقال أبو بكر بن خزيمة رحمه الله : «وقال جلَّ وعلا : ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ [الأعلى: ١] ، فالأعلي مفهوم في اللغة أنَّه أعلى كل شيء، وفوق كلّ شيء ، والله قد وصف نفسه في غير موضع من تنزيله ووجوهه، وأعلمنا أنَّه العليّ العظيم ، أفليس العليّ ـ يا ذوي الحجى ـ ما يكون عاليًا ، لا كما تزعم المعطلة الجهمية أنَّه أعلى وأسفل ووسط ومع كلّ شيء ، وفي كلّ موضع من أرض وسماء ، وفي أجواف جميع الحيوان ، ولو تدبروا الآية من كتاب الله لفهمها لعقلوا أنَّهم جهال لا يفهمون ما يقولون ، وبان لهم جهل أنفسهم وخطأ مقالتهم.

قال الله تعالى لمّا سأله موسى عليه السلام أن يريه ينظر إليه قال : ﴿**لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ**﴾ [الأعراف: ١٤٢] إلى قوله : ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا**﴾ أفليس العلم محيطًا - يا ذوي الألباب ـ أنّ الله عزَّ وجلَّ لو كان في كل موضع ومع كلّ بشر وخلق ، ـ كما زعمت المعطلة ـ لكان متجليًا لكلّ شيء ، وكذلك جميع ما في الأرض لو كان متجليًا لجميع أرضه سهلها ووعرها ، وجبالها براريها ومفازها ، مدنها وقراها، وعمارتها وخرابها ، وجميع ما فيها من نبات وبناء ، لجعلها دكًا كما جعل الله الجبل الذي تجلّى له دكًا ، قال تعالى : ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا**﴾ اهـ[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «وهو سبحانه وصف نفسه بالعلو، وهو من صفات المدح له بذلك، والتعظيم، لأنَّه من صفات الكمال، كما مدح نفسه بأنَّه العظيم والعليم والقدير والعزيز والحليم ونحو ذلك، وأنَّه الحيّ القيوم، ونحو ذلك من معاني أسمائه الحسنى،

---

(١) كتاب «التوحيد» (ص ١١٢).

فلا يجوز أن يتّصف بأضداد هذه.

فلا يجوز أن يوصف بضدّ الحياة والقيومية والعلم والقدرة، مثل الموت والنوم والجهل والعجز واللغوب، ولا بضدّ العزّة وهو الذلّ، ولا بضدّ الحكمة وهو السَّفه.

فكذلك لا يوصف بضدّ العلو وهو السفول، ولا بضدّ العظيم وهو الحقير، بل هو سبحانه منزَّه عن هذه النقائص المنافية لصفات الكمال الثابتة له، فثبوت الكمال له ينفي اتّصافه بأضدادها وهي النقائص» اهـ[1].

وقال ابن القيم رحمه الله:

هذا ومن توحيدهم إثبات أو ... صاف الكمالِ لربِّنا الرحمن

كعلوِّه سبحانه فَوق السمـ ... ـاوات العُلىٰ بل فوقَ كلِّ مكان

فهو العليُّ بذاته سبحانه ... إذْ يستحيلُ خلاف ذَا ببيانِ

وهو الذي حقًّا على العرشِ استوىٰ ... قد قامَ بالتدبير للأكوانِ

وقال:

وهو العليُّ فكل أنواع العلـ ... ـوِّ له فثابتةٌ له بلا نُكران[2]

وقال السَّعديُّ: «العليّ الأعلى»: وهو الذي له العلوّ المطلق من جميع الوجوه: علوّ الذات، وعلوّ القدر والصفات، وعلوّ القهر.

فهو الذي على العرش استوىٰ، وعلى الملك احتوىٰ، وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال[3] اتّصف،

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٩٧ ـ ٩٨).

(٢) «النونية» (٢/ ٢١٣ - ٢١٤).

(٣) هكذا في المطبوعة ولعلّها: وبغاية الكمال اتّصف.

وإليه فيها المنتهى» اهـ[1].

إذن فجميع معاني العلوّ ثابتة له سبحانه وتعالىٰ.

كما قرّر ذلك ابن القيم في نونيته بقوله آنفًا:

وهو العليُّ فكل أنواع العلو له فثابتة له بلا نكران

*** آثار الإيمان بهذه الأسماء:**

١- إثبات العلوّ المطلق لله ربّ العالمين بكلّ معانيه، دون أن نعطّل أو نؤول شيئًا، ونثبت شيئًا لأنَّ ذلك تحكُّم لم يأذن الله به.

أولاً: تضمنت هذه الأسماء إثبات علوّ ذات ربِّنا سبحانه، وأنَّه عالٍ علىٰ كلّ شيء، وفوق كلّ شيء، ولا شيء فوقه، بل هو فوق العرش كما أخبر عن نفسه، وهو أعلم بنفسه.

وهذا اعتقاد سلف الأمة، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، من علماء الحديث والتفسير والفقه والأصول والسيرة والتاريخ والعربية والأدب وغيرهم[2].

وسنحاول باختصار ذكر ما يدلّ علىٰ علوّ ذاته سبحانه وتعالىٰ من آيات الكتاب، والأحاديث الشريفة.

*** فمن آيات الكتاب:**

١- قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ [الأعراف: ٥٤].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٠٠).

(٢) انظر النقول الكثيرة التي نقلها الذهبي رحمه الله في (العلوّ) وابن القيم رحمه الله في «اجتماع الجيوش الإسلامية» عن علماء الأمة في هذه المسألة.

وقد ذكر الاستواء في ست آيات أُخر في سورة [يونس: ٣]،[الرعد: ٢]، [طه: ٥]، [الفرقان: ٥٩]، [السجدة: ٤]، [الحديد: ٤].

٢- بيَّن تعالى في آيات كثيرة أنَّ «الروح» وهو جبريل عليه السلام والملائكة منه تتنزَّل، وإليه تعرج وتصعد.

منها قوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٣ ـ ٤].

وقوله عن ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

ومعلومٌ أنَّ التنزُّل لا يكون إلا من العلوِّ.

٣- وأخبر تعالى أنَّه يُنزِّل ملائكته بالوحي والكتاب على من يشاء من عباده، قال سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

٤- أنّ الأعمال الصالحة والكلام الطيِّب إليه يصعدان، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

قال الدارمي: فإلى من ترفع الأعمال، والله بزعمكم الكاذب مع العامل بنفسه في بيته ومسجده ومنقلبه ومثواه؟!! تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا» اهـ[1].

٥- قوله تعالى مخاطبًا المسيح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ

(١) «الردّ على الجهمية» (ص ٥٣).

يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨].

٦- أخبر تعالى عن تنزيله لآيات الكتاب في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤].

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

وقوله: ﴿حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١ ـ ٢].

وقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [النور: ١].

وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

قال أبو سعيد الدارمي رحمه الله: فظاهر القرآن وباطنه يدل على ما وصفنا من ذلك، نستغني فيه بالتنزيل عن التفسير، ويعرفه العامة والخاصة، فليس منه لمتأول تأول، إلا لمكذب به في نفسه مستتر بالتأويل.

ويلكم!! إجماع من الصحابة والتابعين وجميع الأمة، من تفسير القرآن والفرائض والحدود والأحكام: نزلت آية كذا في كذا، ونزلت آية كذا في كذا ، ونزلت سورة كذا في مكان كذا، ولا نسمع أحدًا يقول : طلعت من تحت الأرض ، ولا جاءت من أمام ولا من خلف ولكن كله : نزلت من فوق. وما يصنع بالتنزيل من هو بنفسه في كل مكان؟

إنما يكون شبه مناولة لا تنزيلاً من فوق السماء مع جبريل، إذ يقول

سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، والرب بزعمكم الكاذب في البيت معه وجبريل يأتيه من خارج ، هذا واضح، ولكنكم تغالطون.

فمن لم يقصد بإيمانه وعبادته إلى الله الذي استوى على العرش فوق سمواته، وبان من خلقه، فإنما يعبد غير الله ولا يدري أين الله» اهـ[١].

٧- قوله الله تعالى عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]، دليل على أن فرعون كان يريد الاطلاع إلى الله تعالى في السماء، وذلك أن موسى وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كانوا يدعونهم إلى الله بذلك.

*** وأما الأحاديث التي تدل على (العلو) فهي كثيرة منها:**

١- حديث معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه قال: وكان لي جارية ترعى غنمًا لي قِبَل «أُحد والجوَّانيَّة» فاطلعتُ ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاةٍ من غنمها وأنا رجلٌ من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكةً ، فأتيت رسول الله ﷺ فَعظَّمَ ذلك عليَّ ، قلت : يا رسول الله ! أفلا أعتقها ؟ قال **«ائتني بها»** فأتيته بها فقال لها: **«أين الله؟»** قالت: في السماء، قال: **«من أنا؟»** قالت: أنت رسول الله. قال: **«اعتقها فإنها مؤمنة»**[٢].

قال أبو سعيد الدارمي : «ففي حديث رسول الله ﷺ هذا دليل على أن الرجل إذا لم يعلم أن الله عز وجل في السماء دون الأرض فليس

---

(١) «الرد على الجهمية» (ص ٥٥).

(٢) رواه أحمد (٥/٤٤٨) ومسلم (١/٥٣٧).

بمؤمن، ولو كان عبدًا فأعتق لم يجز في رقبة مؤمنة، إذ لا يعلم أن الله في السماء» اهـ[1].

٢- الأحاديث الكثيرة في معراج النبي ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج، وقد تواترت[2] وأجمع عليها سلف الأمة وأئمتها[2].

٣- حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «**إن الله لا ينام، ولاينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل..**»[3].

٤- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل، وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرُجُ الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم- وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون**»[4].

٥- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلىٰ فراشها، فتأبىٰ عليه، إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتىٰ يرضىٰ عنها**»[5].

٦- حديث أبي سعيد الخدري: بعث علي بن أبي طالب إلىٰ رسول الله ﷺ بذهبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها، قال

(١) «الرد على الجهمية» (ص ٣٩).

(٢) ذكر ذلك ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ٢٩).

(٣) رواه أحمد (٤/٤٠٥) ومسلم (١/١٧٩).

(٤) رواه البخاري (٢/٥٥٥)، (٦/٣٢٢٣)، (١٣/ ٧٤٢٩، ٧٤٨٦)، ومسلم (١/٦٣٢).

(٥) رواه مسلم (٢/١٤٣٦ - ١٢١).

فقسمها.. وفيه فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: **«ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحًا ومساء؟..»**[1].

٧- حديث أنس أن زينب كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول زوَّجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات. وفي رواية: «وكانت تقول: إن الله أنكحني في السماء»[2] وغيرها من الأحاديث.

*** أما أقوال السلف في إثبات أن الله فوق العرش، فهي كثيرة ننقل ها هنا ما يتيسر:**

١- قال الشيخ أبو نصر السجزي[3] في كتاب «الإبانة» له:

«وأئمتنا كسفيان الثوري ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الله بن المبارك وفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي: متفقون على أن الله سبحانه بذاته فوق العرش، وأن علمه بكل مكان، وأنه يرى يوم القيامة بالأبصار، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا..»[4].

٢- قال عبد الله بن المبارك وسأله علي بن الحسن بن شقيق: «كيف ينبغي لنا أن نعرف ربنا عز وجل؟ قال: «على السماء السابعة على عرشه، ولا نقول كما تقول الجهمية: أنه ها هنا على الأرض»[5].

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٦٧) ومسلم (٢/ ٧٤٢) مطولاً.

(٢) رواه البخاري (١٣/ ٧٤٢٠، ٧٤٢١).

(٣) هو عبد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي الحافظ، كان قيمًا بالأصول والفروع له تصانيف حسان منها «الإبانة». «المنتظم» (٨/ ٣١٠).

(٤) «نقض تأسيس الجهمية» (٢/ ٣٨).

(٥) أخرجه عبد الله في «السنة» (٢٢، ٥٩٨) وإسناده صحيح.

٣- وقيل ليزيد بن هارون: من الجهمية؟ فقال: «من زعم أن الرحمن على العرش استوى على خلاف ما يَقِرُّ في قلوب العامة فهو جهمي»[1].

٤- وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في العقيدة المشهورة عنه: «طريقتنا طريقة المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الأمة، فما اعتقدوه اعتقدناه، فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في العرش واستواء الله عليه يقولون بها ويثبتونها، من غير تكييف، ولا تمثيل ولا تشبيه، وأن الله بائن من خلقه، والخلق بائنون منه، لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم، وهو مستوٍ على عرشه في سمائه دون أرضه»[2].

٥- وقال الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي[3] في كتابه «الحجة على تارك المحجة»: «إن قال قائل: قد ذكرت ما يجب على أهل الإسلام من

---

(١) أخرجه أبو داود في مسائله (٢٦٨ - ٢٦٩) وعبد الله في السنة (٥٤). وذكره البخاري في «خلق أفعال العباد» (٦٣) وسنده حسن إن شاء الله، وذكره الذهبي في «العلو» (مختصر العلو) (ص ١٦٧) وقال: (يَقِر) مخفف، و(العامة) مراده جمهور الأمة وأهل العلم، والذي وقر في قلوبهم من الآية، هو ما دل عليه الخطاب مع يقينهم بأن المستوى ليس كمثله شيء، هذا الذي وقر في فطرهم السليمة، وأذهانهم الصحيحة، ولو كان له معنى وراء ذلك لتفوهوا به ولما أهملوه، ولو تأول أحد منهم الاستواء لتوفرت الهمم على نقله، ولو نقل لاشتهر، فإن كان في بعض جهلة الأغبياء من يفهم من الاستواء ما يوجب نقصًا أو قياسًا للشاهد على الغائب، وللمخلوق على الخالق فهذا نادر، فمن نطق بذلك زُجر وعلِّم، وما أظن أن أحدًا من العامة يقر في نفسه ذلك، والله أعلم» اهـ.

وقال شيخ الإسلام ما معناه أن الناس جميعًا بفطرهم السليمة يتوجهون عند الدعاء إلى العلو لا إلى اليمين ولا إلى الشمال، وهذه فطرة الله التي فطر الناس عليها، حتى يأتيهم من يجهمهم وينقلهم إلي التعطيل». انظر: «اجتماع الجيوش» (ص ٨٤).

(٢) «تلبيس الجهمية» لابن تيمية (٢/ ٤٠).

(٣) هو العلامة المحدث أبو الفتح نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي، صاحب التصانيف، قال ابن عساكر: كان رحمه الله على طريقة واحدة من الزهد والتنزه عن الدنيا والتقشف، توفي في المحرم سنة تسعين وأربع مئة، وكتابه «الحجة» ذكر فيه أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسنة: «السير» (١٩/ ١٣٦)، «الأعلام» (٨/ ٢٠).

اتباع كتاب الله وسنة رسوله وما أجمع عليه الأئمة العلماء، والأخذ بما عليه أهل السنة والجماعة: فاذكر مذاهبهم، وما أجمعوا عليه من اعتقادهم، وما يلزمنا من المصير إليه من إجماعهم ؟ فالجواب: أن الذي أدركت عليه أهل العلم ومن لقيتهم وأخذت عنهم، ومن بلغني قوله من غيرهم - فذكر جمل اعتقاد أهل السنة، وفيه - وأن الله مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، كما قال في كتابه، أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا»[1].

٦- وقال ابن عبد البر في كتابه «التمهيد» بعد أن ذكر حديث «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا...**» : وفيه دليل على أن الله عز وجل في السماء على العرش من فوق سبع سموات ، كما قالت الجماعة، وهو من حجتهم على المعتزلة والجهمية في قولهم : إن الله عز وجل في كل مكان، وليس على العرش . والدليل على صحة ما قالوه أهل الحق في ذلك قول الله عز وجل: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ [طه: ٥]، وقوله. . وذكر آيات الاستواء ، ثم قال : وقال جلَّ ذكره : ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**﴾ [الأعلى: ١]، وكذلك قوله : ﴿**الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥] و ﴿**الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**﴾ [الرعد: ٩] و﴿**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ**﴾ [غافر: ١٥] و﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ**﴾ [النحل: ٥٠] والجهمي يزعم أنه أسفل.

قال: وأما قوله تعالى: ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ**﴾ [الملك: ١٦]، فمعناه من على السماء، يعني على العرش، وقد يكون في بمعنى على، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**﴾ [التوبة: ٢]، أي : على الأرض، وكذلك قوله: ﴿**وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾ [طه: ٧١]، وهذا كله يعضده قوله تعالى: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ**

---

(١) «تلبيس الجهمية» (٢/ ٤١).

﴿إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] ، وما كان مثله مما تلونا من الآيات في هذا الباب .

وهذه الآيات كلها واضحات في إبطال قول المعتزلة ، وأما ادعاؤهم المجاز في الاستواء وقولهم في تأويل استوىٰ : استولىٰ . فلا معنىٰ له، لأنه غير ظاهر في اللغة ومعنىٰ الاستيلاء في اللغة : المغالبة ، والله لا يغالبه ولا يعلوه أحد ، وهو الواحد الصمد ، ومن حق الكلام أن يحمل علىٰ حقيقته ، حتىٰ تتفق الأمة أنه أريد به المجاز ، إذ لا سبيل إلىٰ اتباع ما أنزل إلينا من ربنا إلا علىٰ ذلك ، وإنما يوجه كلام الله عز وجل إلىٰ الأشهر والأظهر من وجوهه ، ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم.

ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مُدع ، ما ثبت شيء من العبارات وجلَّ الله عز وجل عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطباتها ، مما يصح معناه عند السامعين والاستواء معلوم في اللغة ومفهوم ، وهو العلو والارتفاع علىٰ الشيء والاستقرار والتمكن فيه . قال أبو عبيدة في قوله تعالىٰ : ﴿اسْتَوَى﴾ قال علا ، قال : وتقول العرب: استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت ، وقال غيره : استوىٰ أي : انتهىٰ شبابه واستقر فلم يكن في شبابه مزيد».

قال أبو عمر: الاستواء الاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا الله عز وجل وقال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقال: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وقال: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقال الشاعر:

فأوردتهم ماء بفيفاء[1] قفرة وقد حلق النجم اليماني فاستوى

---

(١) «فيفاء»: بوزن صحراء ومعناها.

وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد استولى ، لأن النجم لا يستولي .

قال: ومن الحجة أيضًا في أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع، أن الموحدين أجمعين . من العرب والعجم إذا كربهم أمر أو نزلت بهم شدة . رفعوا وجوههم إلى السماء ، يستغيثون ربهم تبارك وتعالى ، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته ، لأنه اضطرار لم يؤنبهم عليه أحد . ولا أنكره عليهم مسلم» اهـ[١].

٧- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن نقل جملة من أقوال سلف الأمة وعلمائها:

«ونقل أقوال السلف من القرون الثلاثة، ومن نقلَ أقوالهم في إثبات أن الله فوق العرش يطول، ولا يتسع له هذا الموضع؛ ولكن نبهنا عليه» اهـ[٢].

*** النزاع في هذه المسألة محرم:**

والنزاع في إثبات العلو للرب سبحانه لا يجوز ، لأنه ليس من المسائل التي يجوز الاجتهاد فيها ، بل يجب التوقف عند النصوص الشرعية الواردة فيها.

قال شيخ الإسلام : ولم يكن هذا عندهم من جنس مسائل النزاع التي يسوغ فيها الاجتهاد ، بل ولا كان هذا عندهم من جنس مسائل أهل البدع المشهورين في الأمة : كالخوارج والشيعة[٣] والقدرية، والمرجئة ؛

(١) «التمهيد» (٧/ ١٢٩ - ١٣٤).

(٢) «تلبيس الجهمية» (٢/ ٤١).

(٣) يعني المتقدمين منهم، كما نبه عليه محقق الكتاب.

بل كان إنكار هذا عندهم أعظم من هذا كله، وكلامهم في ذلك مشهور متواتر.

ولهذا قال الملقب بإمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة فيما رواه عنه الحاكم: «من لم يقل إن الله فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه وجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ثم ألقي على مزبلة لئلا يتأذى بنتن ريحه أهل القبلة ولا أهل الذمة»[1] اهـ.

قلت: وتكفير السلف لهم، منقولٌ في كتب السنة والعقائد بالأسانيد الصحيحة:

١- فقد فقال الحسن بن عيسى مولى عبد الله بن المبارك: كان ابن المبارك يقول: الجهمية كفار[2].

٢- وقال الحسن بن عيسى : الجهمية !! ومن يشك في كفر الجهمية[3].

٣- وقال عبد الرحمن بن مهدي : الجهمية يستتابون ، فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم[4].

٤- وقال إسحاق البهلول لأنس بن عياض بن ضمرة : أُصلي خلف الجهمية ؟ قال : لا ، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥][5].

---

(١) «تلبيس الجهمية» (٢/ ٤١ - ٤٢).

(٢) أخرجه عبد الله في «السنة» (١٥) عنه، وإسناده صحيح، الحسن: هو أبو علي النيسابوري ثقة من رجال مسلم.

(٣) أخرجه عبد الله في «السنة» (١٦) عنه.

(٤) المصدر السابق (٤٨) وإسناده صحيح.

(٥) المصدر السابق (٧٢) وإسناده حسن، ابن بهلول صدوق، وأنس ثقة من رجال الستة.

وفيما ذكرنا كفاية لمن هداه الله وألهمه رشده ، وأما من أراد الله فتنته فلا حيلة فيه ، بل لا يزيده كثرة الأدلة إلا حيرةً وضلالاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢] .

والحمد لله رب العالمين.

❋ ❋ ❋

الحفيظ ـ الحافظ
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٤٥، ٤٦)

*** المعنى اللغوي:**

قال ابن سيده : الحفظ نقيض النسيان، وهو التعاهد وقلة الغفلة.

حفظ الشيء حفظًا، ورجل حافظ من قوم حفاظ[١].

قال الجوهري : حفظتُ الشيء حفظًا ، أي : حرسته ، وحفظته أيضًا بمعنى استظهرته ، والمحافظة : المراقبة[٢].

قال الأزهري : رجلٌ حافظ وقومٌ حُفَّاظٌ ، وهم الذين رزقوا حفظ ما سمعوا ، وقلّما ينسون شيئًا يعونه[٣].

قال الزجاجي : (الحفيظ) : الحافظ ، فعيل بمعنى فاعل.

وقال : حفظت الرجل: إذا أغضبته، أحفظه إحفاظًا، والحِفظة: الحقد والضغينة[٤].

*** ورودها في القرآن الكريم:**

ورد اسمه (الحفيظ) ثلاث مرات : في قوله تعالى : ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ**﴾ [هود: ٥٧].

---

(١) «اللسان» (٢/ ٩٢٩).

(٢) «الصحاح» (٣/ ١١٧٢).

(٣) «اللسان» (٢/ ٩٢٩).

(٤) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٤٦)، وانظر: «تفسير الأسماء» للزجاج (ص ٤٨) و «المفردات» للراغب (ص ١٢٤).

وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ: ٢١].

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [الشورى: ٦].

وأما (الحافظ) فقد ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤][١].

وورد مرتين بصيغة الجمع في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وقوله : ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

*** معنى الاسمين في حق الله تعالى :**

قال الخطابي : هو الحافظ، فعيل بمعنى فاعل ، كالقدير والعليم ، يحفظ السماوات والأرض وما فيها، لتبقى مدة بقائها، فلا تزول ولا تُدْثَر، كقوله عز وجل : ﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقال ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات: ٧]، أي: حفظناها حفظًا والله أعلم.

وهو الذي يحفظ عبده من المهالك والمعاطب، ويقيه مصارع السوء كقوله سبحانه: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] ، أي : بأمره . ويحفظ على الخلق أعمالهم، ويحصي عليهم

---

(١) قال ابن جرير (١٣/ ٨) : «و اختلفت القرّاء في قراءة قوله: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ فقرأ ذلك عامة قراء أهل المدينة وبعض الكوفيين والبصريين، ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ بمعنى: والله خيركم حفظًا، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين وبعض أهل الكوفة ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ﴾ بالألف على توجيه الحافظ إلى أنه تفسير للخير، كما يقال: هو خير رجلاً، والمعنى: فالله خيركم حافظًا، ثم حذفت الكاف والميم، والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، قد قرأ بكل واحدة منهما أهل علم بالقرآن، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب. وذلك أن من وصف الله بأنه خيرهم حفظًا فقد وصفه بأنه خيرهم حافظًا، ومن وصفه بأنه خيرهم حافظًا فقد وصفه بأنه خيرهم حفظًا» اهـ.

أقوالهم ، يعلم نياتهم وما تكِنُّ صدورهم ، ولا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية .

ويحفظ أولياءه ، فيعصمُهم عن مواقعة الذنوب ، ويحرسهم عن مُكايَدةِ الشيطان ، ليسلموا من شره ، وفتنته اهـ[1].

وقال الحليمي : «(الحافظ) ومعناه : الصائن عبده عن أسباب الهلكة في أمور دينه ودنياه اهـ[2].

قال القرطبي : فهذا الاسم يكون من أوصاف الذات ، ومن أوصاف الفعل .

فإذا كان من أوصاف الذات فيرجع إلى معنى (العليم) ، لأنه يحفظ بعلمه جميع المعلومات فلا يغيب عنه شيء منها ، كما يقال : فلان يحفظ القرآن، أي: هو حاضر في قلبه، وفي مقابلة هذا الحفظ النسيان ، وعلى هذا خرج قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ [مريم: ٦٤] ، وقوله : ﴿**قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى**﴾ [طه: ٥٢].

وإذا كان من صفات الفعل ، فيرجع إلى حفظه للوجود ، وضد هذا الحفظ: الإهمال ، و[على] هذا خرج قوله تعالى : ﴿**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا**﴾ [يوسف: ٦٤].

وقال : والحفظ أيضًا قد يكون بمعنى الجمع والوعي ، من ذلك قولهم : حفظت القرآن ، أي : جمعته ، إذا قرأته عن ظهر قلب ، وحفظت المتاع، إذا جمعته في الوعاء، والوعيُ والجمعُ حراسة فاعلم.

وقد يكون بمعنى الرقبة، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ**

---

(١) «شأن الدعاء» (ص ٦٧ – ٦٨).

(٢) «المنهاج» (١/ ٢٠٤).

﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦].

وقد يكون الحفظ بمعنى الأمانة، ومنه قول يوسف عليه السلام ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، أي: جَموعٌ لما يكون في الخزائن من مظان حقوقها، منوع لها من غير واجبها.

وقد يكون بمعنى الإحصاء عددًا وعلمًا» اهـ[1].

وقال ابن القيم في نونيته:

وهو الحفيظ عليهم وهو الكفيـ ـل بحفظهم من كل أمر عان[2]

وقال عبد الرحمن السعدي: (الحفيظ): الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أولياءه من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها[3].

*** آثار الإيمان بهذين الاسمين:**

١- إن الحافظ لهذه السماوات السبع والأرض وما فيهما هو الله وحده لا شريك له.

فهو سبحانه يحفظ السماوات أن تقع على الأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، أي: كالسقف على البيت، قاله الفرّاء[4]، وهو كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٣٦).

(٢) «النونية» (٢/٢٢٨).

(٣) «تيسير الكريم» (٥/٣٠١-٣٠٢).

(٤) «معاني القرآن» (٢/٢٠١) وكذا في «تفسير ابن كثير» (٣/١٧٧) فقد قال: وقوله ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي: على الأرض وهي كالقبة عليها.

﴿أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال بعض المفسرين في قوله ﴿مَّحْفُوظًا﴾ أي: من الشياطين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨][1].

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: وحفظنا السماء الدنيا من كل شيطان لعين، قد رجمه الله ولعنه، ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ يقول: لكن قد يسترق من الشياطين السمع مما يَحدثُ في السماء بعضها، فيتبعه شهاب من النار مبين، يبين أثره فيه إما بإخباله وإفساده، أو بإحراقه» اهـ[2].

وقيل: محفوظًا من الهدم والنقض، وعن أن يبلغه أحدٌ بحيلة.

وقيل: محفوظًا فلا يحتاج إلى عماد[3].

---

(١) قال بعض العلماء في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ هو استثناء منقطع، منهم الرازي فقد قال: «لا يمكن حمل لفظة «إلا» هاهنا على الاستثناء بدليل أن إقدامهم على استراق السمع لا يخرج السماء من أن تكون محفوظة منهم إلا أنهم ممنوعون من دخولها، وإنما يحاولون القرب منها، فلا يصح أن يكون استثناء على التحقيق، فوجب أن يكون معناه: لكن من استرق السمع» اهـ. «التفسير» (٩/ ١٦٩).
وقال القرطبي بعد أن ذكر قول الرازي: «وقيل: هو متصل، أي: إلا ممن استرق السمع، أي: حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئًا من الوحي وغيره إلا من استرق السمع فإنا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء، سوى الوحي، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئًا لقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢] وإذا استمع الشياطين إلى شيء ليس بوحي فإنهم يقذفونه إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم» اهـ «الجامع لأحكام القرآن» (١٠/ ١٠ - ١١) وانظر: «أضواء البيان» (٣/ ١٢٢) فقد ذكر القولين.

(٢) «جامع البيان» (١٤/ ١١).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٢٨٥).

والله يحفظ ذلك كله بلا مشقة ولا كلفة، ودون أدنى تعب أو نصب، كما قال سبحانه: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٢- أن المحفوظ هو ما حفظه الله سبحانه وتعالى وشاء له أن يحفظ ويبقى، وأما من شاء الله سبحانه أن يضيع أو يضمحل ويضعف أو يهلك، فإنه ضائع هالك لا محالة.

فقد تكفل الله بحفظ كتابه العزيز من التحريف والتغيير والتبديل، على مرِّ العصور والدهور، قال سبحانه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩].

فبقى كذلك ـ كما قال سبحانه ـ هذه القرون الطويلة محفوظًا بحفظ الله تعالى له، فهو من آيات الله الظاهرة للعيان، الدالة على صدق وعد الله جل شأنه.

ولقد أتى على المسلمين أيام فتن سوداء، انتشر فيها أهل البدع والأهواء، وأدخلوا على هذا الدين أنواع المحدثات، وافتروا على رسول الأمة ﷺ أنواع المفتريات، ولكنهم عجزوا جميعًا عن أن يحدثوا في هذا القرآن شيئًا، أو أن يغيّروا فيه حرفًا واحدًا، فبقي كما هو، وبقيت نصوصه كما أنزلها الله على نبيه ﷺ[1].

وكذا أماكن العبادة، فإن المحفوظ منها هو ما حفظه الله سبحانه

(١) وأما الكتب السابقة التي لم يكتب الله عز وجل لها البقاء والحفظ، فوكل حفظها إلى الناس كما قال سبحانه: ﴿**وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ**﴾ [المائدة: ٤٤] فما حفظها أهل الكتاب - إلا من رحم الله منهم - ولا رعوها حق رعايتها، فحرفوها وبدلوا آياتها، كما قصَّ الله ذلك في القرآن.

وتعالى وهو خير حافظًا.

قال ابن تيمية رحمه الله عن آيات الله العظيمة : وكذلك الكعبة ، فإنها بيت من حجارة بوادٍ غير ذي زرع، ليس عندها أحد يحفظها من عدو ، ولا عندها بساتين وأمور يرغب الناس فيها ، فليس عندها رغبة ولا رهبة ، ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة ، فكل من يأتيها يأتيها خاضعًا ذليلاً متواضعًا في غاية التواضع ، وجعل فيها من الرغبة ما يأتيها الناس من أقطار الأرض محبة وشوقًا من غير باعث دنيوي ، وهي على هذه الحال من ألوف من السنين ، وهذا مما لا يعرف في العالم لبنية[1] غيرها ، والملوك يبنون القصور العظيمة فتبقى مدة ، ثم تهدم لا يرغب أحد في بنائها ولا يرهبون من خرابها.

وكذلك ما بُني للعبادات قد تتغير حاله على طول الزمان، وقد يستولي العدو عليه كما استولى على بيت المقدس، والكعبة لها خاصة ليست لغيرها، وهذا مما حيّرَ الفلاسفة ونحوهم، فإنهم يظنون أن المؤثر في هذا العالم هو حركات الفلك، وأن ما بني وبقي فقد بُني بطالع سعيد، فحاروا في طالع الكعبة إذ لم يجدوا في الأشكال الفلكية ما يوجب مثل هذه السعادة والفرح والعظمة والدوام والقهر والغلبة، وكذلك ما فعل الله بأصحاب الفيل لما قصدوا تخريبها قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ - ٥].

قصدها جيش عظيم ومعهم الفيل، فهرب أهلها منهم فبرك الفيل

---

(١) بنية على وزن فعلية كناية عن الكعبة، يقول العرب: لا ورب هذه البنية.

وامتنع من المسير إلى جهتها ، وإذا وجهوه إلى غير جهتها توجه ، ثم جاءهم من البحر طير أبابيل أي جماعات في تفرقة فوجًا بعد فوج رموا عليهم حصى هلكوا به كلهم ، فهذا مما لم يوجد نظيره في العالم، فآيات الأنبياء هي أدلة على صدقهم » اهـ [(١)].

٣ ـ والله سبحانه وحده هـــو الذي يحفـظ الإنسان من الشرور والآفات والمهالك ، ويحفظه من عقابه وعذابه وسخطه ، إنْ هو حفظ حدود الله واجتنب محارمه ، فبتقوى الله وخوفه يُحفظ الإنسان ، وبقدر ذلك يكون الحفظ والكلاءة ، قال تعالى ﴿ **فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ** ﴾ [النساء: ٣٤] ، فالآية تدل على ذلك ، فلأنهن صالحات حافظات لمغيب أزواجهن ـ من عرض ومال وولد ـ حفظهن الله سبحانه ، وأعانهن وسددهن على ذلك.

فبحفظهن الله ـ أي أمره ودينه ـ حفظهن الله . وجاء في الحديث قوله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما : « **يا غلام إني مُعلِّمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك . . .** » [(٢)].

---

(١) « النبوات » (ص ١٦٠ ـ ١٦١).

(٢) رواه أحمد (١/٢٩٣) والترمذي (٤/٢٥١٦) وأبو يعلى (٤/٢٥٥٦) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٢٧) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/١٤٨ ـ ١٤٩) كلهم عن الليث بن سعد عن قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن عبد الله بن عباس أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال له رسول الله ﷺ : «يا غلام إني معلمك . . . ».
قال الترمذي : حسن صحيح ، وقال ابن رجب في « نور الاقتباس » (ص٣١) : وأجود أسانيده من رواية حنش عن ابن عباس التي ذكرناها ، وهو إسناد حسن لا بأس به اهـ.
وهو كما قال ، قيس بن الحجاج ، قال فيه أبو حاتم : صالح ، وقال الحافظ : صدوق .
وللحديث طرق كثيرة ، وهذا أجودها كما قال ابن رجب .

قال ابن رجب رحمه الله [1]: يعني احفظ حدود الله ، وحقوقه وأوامره ونواهيه ، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه بالاجتناب ، وعند حدوده فلا يتجاوز ولا يتعدي ما أمر به إلى ما نهي عنه، فدخل في ذلك فعل الواجبات جميعًا وترك المحرمات جميعًا» اهـ[2].

وقد مدح الله سبحانه عباده الذين يحفظون حقوقه وحدوده فقال في معرض بيانه لصفات المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿ **وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [التوبة: ١١٢] .

وقال : ﴿ **هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ** ﴾ [ق: ٣٢، ٣٣] .

٤ ـ ومن أعظم ما يجب على المسلم حفظه من حقوق الله هو التوحيد ، أن يعبده ولا يشرك به شيئًا ، كما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه إذ قال له رسول الله ﷺ : « **يا معاذ بن جبل ! قلت : لبيك رسول الله وسعديك ، قال : هل تدري ما حق الله على العباد ؟ قال قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، ثم سار ساعة ثم قال : يا معاذ بن جبل ! قلت : لبيك**

---

(١) هو زين الدين عبد الرحمن بن الحسين بن محمد البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن رجب ولد سنة (٧٣٦ هـ) قال ابن فهد المكي : الإمام الحافظ الحجة والفقيه العمدة ، أحد العلماء الزهاد ، والأئمة العباد ، مفيد المحدثين ، واعظ المسلمين... وقال : له المؤلفات السديدة والمصنافت المفيدة اهـ . من كتبه «شرح للبخاري» لم يكمله و«شرح الترمذي» نحو عشرين مجلدًا ، و«الذيل على طبقات الحنابلة» ، توفي في شهر رجب من سنة (٧٩٥ هـ) رحمه الله . «لحظ الألحاظ» (ص١٨٠ ـ ١٨٢) ، «الدرر الكامنة» (٢/ ٣٢١ ـ ٣٢٢) .

(٢) نور الاقتباس (ص٣٤).

رسول الله وسعديك ، قال : هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قال قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : أن لا يعذبهم » [1].

فهذا هو الحق العظيم الذي أمر الله سبحانه عباده أن يحفظوه ويراعوه ، وهو الذي من أجل حفظه أرسل الرسل وأنزل الكتب .

فمن حَفِظه في الدنيا ، حفظه الله تعالى من عذابه يوم القيامة ، وسلَّمه وأمَّنه منه ، وكان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ويجيره من النار .

وإن عذب بسبب ذنوبه ، فإنه أيضًا محفوظ بتوحيده من الخلود في نار جهنم مع الكفار الذين ضيَّعوا هذا الحق العظيم.

٥ ـ ومن أعظم ما أمر بحفظه من الواجبات : الصلاة ، قال تعالى ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ**﴾ [البقرة: ٢٣٨] . وقال ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾ [المؤمنون: ٩] وفي [المعارج : ٣٤] .

فمن حافظ على الصلوات وحفظ أركانها ، حفظه الله من نقمته وعذابه وكانت له نجاة يوم القيامة . قال ابن القيِّم رحمه الله : والصلاة مجلبة للرزق ، حافظة للصحة ، دافعة للأذى ، مطردة للأدواء ، مقوية للقلب ، مبيضة للوجه ، مفرحةٌ للنفس ، مذهبةٌ للكسل ، منشطةٌ للجوارح . ممدة للقوي ، شارحة للصدر ، مغذية للروح ، منوِّرة للقلب، حافظةٌ للنعمة ، دافعة للنقمة ، جالبة للبركة ، مبعدة من الشيطان ، مقربة من الرحمن.

وبالجملة : فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب وقواهما، ودفع المواد الرديئة عنهما ، وما ابتلى رجلان بعاهة أو داءٍ أو محنةٍ أو

---

(١) رواه البخاري (١٠/٣٩٧) ومسلم (١٠/٥٨ ـ ٥٩) عن معاذ.

بليةٍ إلاّ كان حظ المصلّي منهما أقل ، وعاقبته أسلم .

وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا ، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهرًا وباطنًا ، فما استدفعت شرور الدنيا والآخرة ، ولا استجلبت مصالحها بمثل الصلاة.

وسِرُّ ذلك : إن الصلاة صلةٌ بالله عز وجل ، وعلى قدر صلة العبد بربه عز وجل تفتح عليه من الخيرات أبوابها ، وتقطع عنه من الشرور أسبابها ، وتفيض عليه موارد التوفيق من ربه عزّ وجلّ ، والعافية ، والصحة ، والغنيمة والغنى ، والراحة والنعيم ، والأفراح والمسرات ، كلها مُحضَرَةٌ لديه ، ومسارعةٌ إليه اهـ [1].

ومما جاء في أن الصلاة تحفظ صاحبها قوله ﷺ عن الله عزَّ وجل أنَّه قال: « **يا ابْنَ آدم ! اركعْ لي مِنْ أولِ النَّهار أربع ركعات أَكْفِكَ آخره** » [2].

وقيل إن الصلاة تحفظ صاحبها الحفظ الذي نبَّه عليه في قوله : ﴿إنَّ

---

(١) « الطب النبوي » (ص٣٣٢).

(٢) صحيح : رواه الترمذي (٢/ ٤٧٥) وأبو نعيم في « الحلية » (١٣٧/٥) عن عبد الأعلى بن مسهر حدثنا إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء وأبي ذر . قال الترمذي : حسن غريب ، قال المنذري في « الترغيب » (١/ ٢٣٦) : في إسناده إسماعيل بن عياش ، ولكنه إسناد شامي اهـ. قلت : فإسناده حسن.

ورواه أحمد (٦/ ٤٤٠ ، ٤٥١) عن صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد عن أبي الدرداء بلفظ « يا بن آدم لا تعجز من الأربع ركعات أول نهارك أكفك آخره » قال المنذري في «الترغيب» (١/ ٢٣٦): ورواته كلهم ثقات اهـ وكذا قال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٣٥ - ٢٣٦). قلت: وهو كما قال، لكن شريح بن عبيد لم يسمع من أبي الدرداء، كما في «التهذيب» (٤/ ٣٢٨ ، ٣٢٩). ورواه أحمد (١٥٣/٤ - ٢٠١) وأبو يعلى في مسنده (١٧٥٧/٣) عن أبان بن يزيد عن قتادة عن نعيم بن همار عن عقبة بن عامر مرفوعًا به . =

﴿ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] (١) وأما من ضيَّع الصلاة فقد توعده الله سبحانه بالهلاك والشر العظيم .

قال سبحانه ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩] .

ومما أمر الله بحفظه السمع والبصر والفؤاد ، قال سبحانه ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦] . فاحفظ سمعك ، فلا تسمع إلاّ ما يرضيه ، واحفظ بصرك فلا تنظر إلاّ إلى ما يرضيه ، واحفظ قلبك وعقلك من أن يتعلق بما

قال المنذري (١/ ٢٣٦) : رواه أحمد وأبو يعلي ، ورجال أحدهما رجال الصحيح اهـ. كذا قال ! مع أن إسنادهما واحد ، وفيه عنعنة قتادة وهو مدلس.

وروه أحمد (٥/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧) وأبو داود (٢/ ١٢٨٩) عن الوليد بن مسلم ثنا سعيد بن عبد العزيز ثنا مكحول عن كثير بن مرَّة عن نعيم بن همَّار به ، (وقد سقط كثير من سند أحمد) . قال عبد الله: قال أبي : ليس بالشام رجل أصح حديثًا من سعيد بن عبد العزيز. وسنده صحيح لولا ما يخشى من إرسال مكحول ، لكن كثير بن مرة تابعي فسماع مكحول منه محتمل جدًا .

وقد تابع أبو الزاهرية (وهو حدير بن كريب) مكحولاً عند أحمد أيضًا (٥/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧) وأبو الزاهرية صدوق من رجال مسلم . وتابعهما أيضًا سليمان بن موسى ومحمد بن راشد الدمشقي عند أحمد (٥/ ٢٨٧) والدارمي (١/ ٣٣٨) ورواه أحمد (٥/ ٢٨٧) عن مكحول عن ابن مرة الغطفاني به .

والظهر أنه كثير بن مرة كما قال الحافظ في «التهذيب» (١٢/ ٢٢٩) و«التقريب» (ص٦٧٢). فالحديث بهذه الطرق ثابت بلا ريب .

فائدة : قال المناوي في « فيض القدير » (٤/ ٤٦٩) : قال ابن تيمية : هذه الأربع عندي هي : الفجر وسنتها وبه ردَّ تلميذه ابن القيم على من استدل بها على سنة الضحى اهـ.

قلت : وقد أورد أبو داود الحديث في « باب صلاة الضحى » وكذا المنذري والهيثمي .

(١) « المفردات » للراغب (ص ١٢٤).

يغضبه ويسخطه ، وينشغلا بغيره .

٧ ـ ومما أمر سبحانه وتعالى بحفظه الفروج ، قال سبحانه ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾ ، ومدح المؤمنين بذلك فقال ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦] وقال ﷺ : « **من يضمن لي ما بين لحييه ورجليه أضمن له الجنة** » [١].

٨ ـ ومما أمر الله بحفظه الأيمان ، فقال : ﴿ **وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ** ﴾ [المائدة: ٨٩] ، لأن حفظ اليمين يدل على إيمان المرء وورعه ، فكثير من الناس يتساهل في الحلف والقسم ، وقد تلزمه الكفارة وهو لا يدري، أو يعجز عنها ، فيقع في الإثم لتضييعه وعدم حفظه لأيمانه واستقصاء هذا يطول.

وبالجملة فالمؤمن مأمور بحفظ دينه أجمع، فلا يترك منه شيئًا لتعارضه مع هواه ومصلحته، بل هو مطيع لربه على أي حال، وفي كل زمان ومكان.

وكلما كان وفاءه بحفظ حدود الله وشرائعه أعظم ، كان حفظ الله له كذلك ، قال تعالى ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ** ﴾ [البقرة: ٤٠] .

وقال ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٥٢]

وقال ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ** ﴾ [محمد: ٧] .

قال ابن رجب رحمه الله : وحفظ الله سبحانه له يتضمن نوعين :

أحدهما حفظه له في مصالح دنياه ، كحفظه في بدنه وولده وماله.

وفي حديث ابن عمر قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء

---

(١) أخرجه البخاري (١١/٣٠٨) عن سهل بن سعد ، وأخرجه أيضًا (١٢/ ١١٣) عن سهل بلفظ : «**من توكل لي ما بين ...**».

الدعوات حين يمسي وحين يصبح : « **اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي ، اللهــم احفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي**»[1].

قال : ودعا رجل لبعض السلف بأن يحفظه الله ، فقال له : يا أخي لا تسأل عن حفظه ولكن قل يحفظ الإيمان .

يعني أن المهم هو الدعاء بحفظ الدين ، فإن الحفظ الدنيوي قد يشترك فيه البر والفاجر ، فالله تعالى يحفظ على المؤمن دينه ،ويحول بينه وبين ما يفسده عليه بأسباب قد لا يشعر العبد ببعضها وقد يكون يكرهه.

وهذا كما حفظ يوسف عليه السلام ـ قال ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف: ٢٤] . فمن أخلص لله خلَّصه من السوء والفحشاء وعصمه منهما من حيث لا يشعر ، وحال بينه وبين أسباب المعاصي المهلكة . قال : وفي الجملة فيمن حفظ حدود الله وراعى حقوقه ، تولي الله حفظه في أمور دينه ودنياه ، وفي دنياه وآخرته.

---

(١) حديث صحيح : رواه أحمد (٢/ ٢٥) وأبو داود (٥/ ٥٠٧٤) والنسائي (٨/ ٢٨٢) وفي «عمل اليوم والليلة» (٥٦٦) وابن ماجه (٣٨٧١) وابن حبان (٢٣٥٦ ـ موارد) والحاكم (١/ ٥١٧ ـ ٥١٨) وصححه ووافقه الذهبي ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص١٧٢ ـ ١٧٣) عن عبادة بن مسلم حدثني جبير بن أبي سليمان بن مطعم عن ابن عمر به . وإسناده صحيح ، رجاله ثقات.

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أنه ولي المؤمنين ، وأنه يتولي الصالحين ، وذلك يتضمن أنه يتولي مصالحهم في الدنيا والآخرة ، ولا يكلهم إلى غيره قال تعالى ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

وقال تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١] وقال ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] ، وقال ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦] [١].

٩ ـ الله سبحانه يحفظ أعمال عباده فلا يضيع شيء منها ولا يخفى عليه ، صغيرًا كان أو كبيرًا ، ويوافيهم بها يوم الحساب إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، ولا ينسى الله منها شيئًا وإن نسيه الناس ، قال تعالى ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة: ٦] ، وقال ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ [النبأ: ٢٩] . وقد وكَّل الله بذلك حفظة كرامًا من الملائكة.

قال تعالى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢] .

وقال ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: ٤] ، وغيرها. ولا يسقط من هذه الصحف شيئ ولو صغر ، قال تعالى :﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] وقال ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣] .

---

(١) من نور الإقتباس ، باختصار.

وهذا الأمر ليس من مهام الرسل ولا أتباع الرسل ، بل هو لله وحده كما قال سبحانه في ذلك ﴿ قَدْ جَاءكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الانعام: ١٠٤] .

وقال عن شعيب عليه السلام في خطابه لقومه ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود: ٨٦] .

وقال تعالى ﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠] وغيرها .

١٠ ـ يجوز إطلاق هذا الاسم على الخلق [1]، فقد جاء ذلك في قوله تعالى ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ [ق: ٣٢] . وقال يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥] .

(١) انظر المعنى اللغوي لهذا الإسم.

المُقيت
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٤٧)

* المعنى اللغوي :

قال الزجاج : قال أهل اللغة : إن المُقيتَ المقتدر على الشيء ، وقال الله عزَّ ذكره ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ [النساء: ٨٥] يريدُ ـ والله أعلم ـ مقتدرًا .

وقال الشاعر :

أليَ الفضلُ أم عليَّ إذا حُو   سبت إني على الحساب مقيتُ [١]

كذا قال في تفسير الأسماء.

وفي اللسان : قال الزجاج : إن « المقيت » بمعنى الحافظِ والحفيظ ، لأنه مشتق من القوتِ ، أي مأخوذ من قولهم : قَتُّ الرجل أَقوتُهُ ، إذا حفظتَ نفسه بما يقوته ، والقوت : اسم الشيء الذي يحفظ نفسه.

قال : فمعنى المقيت على هذا : الحفيظ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة من الحفظ ، قال : وعلى هذا فُسِّر قوله عز وجل ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ [النساء: ٨٥] أي حفيظًا اهـ. [٢].

---

(١) « تفسير الأسماء » (ص٤٨ ـ ٤٩) والبيت للسموأل بن عادياء في ديوانه (٨١) وهو في «الصحاح» (١/ ٢٦٢) ، و«اللسان» (٥/ ٣٧٦٩).

(٢) « اللسان » (٥/ ٣٧٦٩).

وقال الزَّجّاجي : المقيت : المقتدر على الشيء ، يقال : أقات على الشيء إذا اقتدر عليه ، قال الشاعر :

وذي ضغنٍ كَففتُ النفس عنه   وكنتُ على مساءته مقيتًا [(١)]

قال الأزهري : المقيت ، الميم فيه مضمومة وليست بأصلية ، وهو في المعتلاَّت[(٢)] .

قال القرطبي رحمه الله : هو اسم الفاعل من أقات يقيت إقاتةً فهو مقيت ، والياء فيه بدل من الواو لأنه مشتق من القوت [(٣)].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا**﴾ [النساء: ٨٥] .

*** المعنى في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير رحمه الله : اختلف أهل التأويل في تأويل قوله ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا**﴾ [النساء: ٨٥] .

فقال بعضهم تأويله : وكان الله على كل شيء حفيظًا وشهيدًا .

وقال آخرون معنى ذلك : القائم على كل شيء بالتدبير . وقال

---

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٣٦)،والبيت مختلف في نسبته ، انظر «اللسان» (٥/ ٣٧٦٩).

(٢) «اللسان» (٦/ ٤٢٤٢) ، وفي «شرح الأسماء» للزاري (ص ٢٦٧) : قال الأزهري : وأخبرت عن شمر أنه قال : ثلاثة أحرف في كتاب الله نزلت بلغة قريش « فسينغضون إليك رؤوسهم » أي يحركونها ، وقوله « فشرد بهم من خلفهم » أي نكل بهم من وراءهم، وقوله « وكان الله على كل شيء مقيتًا » أي مقتدراً.

(٣) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٢٣).

آخرون : هو القدير .

ثم قال : والصواب من هذه الأقوال ، قول من قال : معنى المقيت ، القدير ، وذلك أن ذلك فيما يذكر كذلك بلغة قريش وينشد للزبير بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ :

وذي ضغنٍ كَفَفتُ النفس عنه وكنتُ على مساءته مقيتًا

أي : قادرًا .

وقد قيل : إن منه قول النبي ﷺ « **كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقيت** »[1]. وفي رواية من رواها « يقيت » يعني : من هو تحت يديه

(١) حديث حسن : رواه أبو داود الطيالسي (٢٢٨١) وأحمد (٢/ ١٦٠، ١٩٣ ، ١٩٤، ١٩٥) وأبو داود (٢/ ١٦٩٢) والنسائي في الكبري ـ كما في التحفة (٦/ ٣٨٧) ـ والحاكم (١/ ٤١٥) والبيهقي (٧/ ٤٦٧) عن أبي إسحاق سمعت وهب بن جابر يقول : إن مولى لعبد الله بن عمرو قال له : إني أريد أن أقيم هذا الشهر هنا في بيت المقدس ، فقال له : تركت لأهلك ما يقوتهم هذا الشهر ؟ قال : لا ، قال : فارجع إلى أهلك فاترك لهم ما يقوتهم ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت** » قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وهب بن جابر من كبار تابعي الكوفة ! ووافقه الذهبي ! مع أنه قال في «الميزان» (٤/ ٣٥٠) : لا يكاد يعرف اهـ .وقال عنه ابن المديني مجهول ، ووثقه ابن معين والعجلي وقال الحافظ : مقبول .

وله شاهد أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٣٤١٤) عن إسماعيل بن عياش عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر مرفوعًا به .

قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٢٥) : رواه الطبراني من رواية إسماعيل بن عياش عن موسى بن عقبة (وقع في المجمع : عتبة وهو خطأ) ورواية إسماعيل عن الحجازيين ضعيفة اهـ . والحديث بهذين الطريقين حسن إن شاء الله .

ويشهد له ما أخرجه مسلم (٢/ ٦٩٢) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٢٢) (٥/ ٢٣).

عن طلحة بن مُصرف عن خيثمة قال : كنا جلوسًا مع عبد الله بن عمرو إذ جاءه قهرمان له فدخل ، فقال : أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا ، قال فانطلق فأعطهم ، قال : قال=

وفي سلطانه من أهله وعياله ، فيقدر له قوته ، يقال منه أقات فلان الشيء يقيته إقاتةً ، وقاته يقوته قياتةً ، والقوت الإسم.

وأما المقيت في بيت اليهودي الذي يقول فيه :

ليت شعري وأشعرن إذا ما قرّبوها منشورة ودعيت
ألىَ الفضل أم عليَّ إذا حو سبت إني على الحساب مقيت

فإن معناه: فإني على الحساب موقوف، وهو من غير هذا المعنى اهـ[1].

واختار أن معنى (المقيت) : القدير ، الفرَّاء [2]، والخطابي [3]، وابن قتيبة [4].

قال ابن العربي : وقد قال علماء اللغة أنه بمعنى (القادر) وليس فيه على هذا أكثر من السماع ، فلو رجعنا إلى الاستقراء وتتبع مسالك النظر لجعلناه في موارده كلها بمعنى القوت، ولكن السماع يقضي على النظر .

وعلى القول بأنه « القادر » يكون من صفات الذات.

وإن قلنا إنه اسم للذي يعطي القوت فهو اسم للوهاب والرزاق ، ويكون من صفات الأفعال اهـ[5].

وقال القرطبي بعد أن ذكر المعنى اللغوي : فالمعنى أن الله تعالى يعطي

= رسول الله ﷺ « كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوته ».

(١) « التفسير » (١١٨/٥ ـ ١١٩) ، وقد ذكر آثارًا في بيان معنى المقيت عن ابن عباس ومجاهد وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد ، أعرضت عن إيرادها لضعف أسانيدها.

(٢) « معاني القرآن » (١/ ٢٨٠).

(٣) « شأن الدعاء » (ص٦٨) ، وقال : والمقيت أيضًا : معطي القوت.

(٤) « غريب القرآن » (ص١٣٢) ، وقال : المقيت أيضًا : الشاهد للشيء الحافظ له.

(٥) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٢٤).

كل إنسان وحيوان قوته على ممر الأوقات ، شيئًا بعد شيء ، فهو يمدها في كل وقتٍ بما جعله قوامًا لها ، إلى أن يريد إبطال شيء منها فيحبس عنه ما جعله مادةً لبقائه فيهلك اهـ [1].

وقال في التفسير : وقال أبو عبيدة :المقيت الحافظ ، وقال الكسائي : المقيت المقتدر.

وقال النحاس : وقول أبي عبيدة أولى لأنه مشتق من القوت ، والقوت معناه مقدار ما يحفظ الإنسان [2].

وفي المقصد : المقيت معناه خالق الأقوات ، وموصلها إلى الأبدان وهي الأطعمة ، و إلى القلوب وهي المعرفة ، فيكون بمعنى « الرزاق » إلا أنه أخص منه إذ الرزق يتناول القوت وغير القوت ، والقوت ما يُكتفى به في قوام البدن.

وأما أن يكون بمعنى المستولي على الشيء ، القادر عليه ، والاستيلاء يتم بالقدرة والعلم ، وعليه يدل قوله تعالى ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا**﴾ [النساء: ٨٥] ، أي : مطلعًا قادرًا ، فيكون معناه راجعًا إلى القدرة والعلم، أما العلم فقد سبق ، وأما القدرة فستأتي ، ويكون بهذا المعنى وصفه بـ (المقيت) أتم من صفته بالقادر وحده وبالعالم وحده ، لأنه دالٌ على اجتماع المعنيين ، وبذلك يخرج هذا الاسم عن الترادف اهـ [3].

---

(١) الكتاب الأسنى (ورقة ٣٢٤) وهو ناقل عن الحليمي ، انظر « المنهاج » (١/ ٢٠٣) . وذكر المعنيين النسفي في تفسيره (١/ ٢٤٠).

(٢) القرطبي (٥/ ٢٩٦) ، وقول أبي عبيدة في « مجاز القرآن » (١/ ١٣٥).

(٣) المقصد الأسنى (ص٧١) وفي «الحجة» للأصبهاني (ق ٢٣ أ) قال : يُنزل الأقوات للخلق، ويقسم أرزاقهم ، وقيل : (المقيت) القدير.

وقال عبد الرحمن السعدي رحمه الله : المقيت الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات ، وأوصل إليها أرزاقها ، وصرَّفها كيف يشاء بحكمته وحمده [1].

*** آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ - إنَّ الله هو (المقيت) أي القدير على كلّ شيء ، وسيأتي بسط الكلام على ذلك في (القدير) إن شاء الله تعالى .

٢ - إنَّ الله سبحانه وتعالى هو المعطي لأقوات الخلق صغيرهم وكبيرهم ، قويهم وضعيفهم ، غنيّهم وفقيرهم ، قال تعالى ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [هود: ٦].

وقد قدَّر الله ذلك كلّه عند خلقه للأرض ، قال تعالى ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ** ﴾ [فصلت: ١٠].

قال ابن كثير : وقدَّر فيها أقواتها ، وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس [2].

وقال القرطبي : معنى « قدَّر فيها أقواتها » أي أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كلّ بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلدٍ إلى بلدٍ [3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٣٠٢).

(٢) « التفسير » (٤/ ٩٣)

(٣) « التفسير » (١٥/ ٣٤٢ - ٣٤٣).

٣ ـ قال القرطبي في الأسنى : وقد يقوت الأرواح إدامة المشاهدة ولذيذ المؤانسة ، قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** ﴾ [يونس: ٩][١].

وإلى هذا أحد أوجه قوله عليه الصلاة والسلام : « **إنّي لست كهيئتكم إنّي أبيت يطعمني ربّي ويسقيني** »[٢].

وأنشدوا :

فقوتُ الروح أرواح المعاني ... وليس بأن طعمتَ وأن شربْتا

فلكلّ مخلوق قوت ، فالأبدان قوتها المأكول والمشروب ، والأرواح قوتها العلوم ، وقوت الملائكة التسبيح ، وبالجملة فالله سبحانه هو المقيت لعباده ، الحافظ لهم ، والشاهد لأحوالهم ، والمطّلع عليهم، وقد تضمّن هذا الاسم جميع الصفات.

فيجب على كل مكلّفٍ أن يعلم أنَّ لا قائم بمصالح العباد إلاّ الله سبحانه ، وأنَّه الذي يقوتهم ويرزقهم .

وأفضل رزق يرزقه الله العقل ، فمن رزقه العقل أكرمه ، ومن حرمه ذلك فقد أهانه اهـ [٣].

* * *

---

(١) قال في التفسير (٨/ ٣١٢) : ﴿ **يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ** ﴾ أي يزيدهم هداية كقوله : ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾.

(٢) رواه البخاري (٤/ ٢٠٢) ومسلم (٢/ ٧٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها وهو مروي في الصحيحين بنحو هذا اللفظ من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عمر وأنس رضي الله عنهم .

(٣) الكتاب الأسنى (ورقة ٣٢٤ ـ ٣٢٥).

الحاسب ، الحسيب
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٤٨ _ ٤٩)

*** المعنى اللغوي :**

حَسَبْتُهُ أحسبُهُ حَسْبًا وحِسابًا وحُسبانًا وحِسابةً ، إذا عددته.

قال الكسائي : ما أدري ما حَسَبُ حديثك ، أي ما قَدْرُهُ.

والحَسَبُ أيضًا : ما يعدُّه الإنسان من مفاخر آبائه ، ويقال : حَسَبُهُ دينه ، ويقال ماله ، والرجل حسيبٌ.

وحاسبته من المحاسبة ، فالحَسْبُ : العدُّ والإحصاء .

واحتسبت بكذا أجرًا عند الله ، والاسم الحِسْبة وهي الأجر والجمع الحِسب.

ويقال أيضًا : إنّه لَحَسنُ الحِسبة في الأمر ، إذا كان حَسَنَ التدبير له.

وأحسبني الشيء ، أي كفاني ، وأحسبته وحَسَّبْتُه بالتشديد معنى، أي أعطيته ما يرضيه.

وحسبك درهم أي كفاك وهو اسم ، وشيءٌ حسابٌ ، أي كافٍ ، ومنه قوله تعالى ﴿ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ [النبأ: ٣٦] أي كافيًا .

وتقول :أعطي فأحسب أي أكثر حتى قال حسبي.

وقال ثعلب : أحسَبَه من كل شيء أعطاه حسبَه وما كفاه.

وهذا رجل حسبُكَ من رجلٍ ، وهو مدح للنكرة لأنّ فيه تأويل فعل كأنّه قال : مُحْسِبٌ لك ، أي كافٍ لك من غيره.

وقولهم : حسيبك الله ، أي انتقم الله منك.

وحَسِبته صالحًا أحسَبُهُ بالفتح أي ظننته [1].

وقال الراغب : والحسيب والمحاسب من يُحاسبك ، ثمّ يُعبرَّ به عن المكافئ بالحساب [2].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد اسمه (الحاسب) مرتين في صيغة الجمع :

وفي قوله تعالى ﴿ **أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** ﴾ [الانعام: ٦٢].

وقوله : ﴿ **وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [الانبياء: ٤٧] .

أما (الحسيب) فقد ورد ثلاث مرّات :

في قوله تعالى ﴿ **وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ [النساء: ٦] و[الأحزاب : ٣٩].

وقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا** ﴾ [النساء: ٨٦] .

*** المعنى في حق الله تعالى :**

قال الزجاج : الحسيب يجوز أن يكون من : حَسَبت الحسابَ .

ويجوز أن يكون أحسبَني الشيء إذا كفاني ، وقال الشاعر :

ونُحسِبُهُ إنْ كان ليس بجائع

فالله تعالى (مُحْسِبٌ) أي كافٍ ، فيكون فعيلاً في معنى مفعل ،

---

(١) « الصحاح » (١/١٠٩ ـ ١١١) ، « اشتقاق الأسماء » (ص ١٢٩ ـ ١٣٢) ، «غريب الحديث» لابن قتيبة (٣/ ٧١٩) ، و« اللسان » (٢/ ٨٦٣ ـ ٨٦٨).

(٢) « المفردات » (ص١١٧).

كأليم ونحوه.

ويجوز أن يكون من حسبتُ الحساب.

فالله تعالى محسوبٌ عطاياه وفواضله. وقال الشاعر :

إن يدعُ زيدٌ بني ذُهْلٍ لمغضبَةٍ نغضب لزُرعَه إنَّ الفضل محسوبُ [1]

قال أبو عبيدة: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦] أي كافيًا مقتدراً ، يقال : أحسبني هذا ، أي : كفاني [2].

قال ابن جرير في قولـه : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٦] وكفي بالله كافيًا من الشهــود الذين يُشهدهم والي اليتيم على دفعه مال يتيمه إليه [3].

وقال في قوله ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب :٣٩] وكفاك يا محمد بالله حافظًا لأعمال خلقه ، ومحاسبًا لهم عليها [4].

وقد اختار ابن جرير أنّ معنى (الحسيب) هو الحفيظ في قوله تعالى ﴿ وإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ [النساء: ٨٦].

فقد قال : يعنى بذلك جلَّ ثناؤه أنَّ الله كان على كلِّ شيءٍ ممّا تعملون أيُّها النّاس من الأعمال ـ من طاعةٍ أو معصيةٍ ـ حفيظًا عليكم حتى يجازيكم بها جزاءه.

---

(١) « تفسير الأسماء » (ص٤٩) ، والبيت الأوّل لامرأة من بني قشير ، « اللسان » (٢/٨٦٥)، والثاني لابن عنمة الضبي ، الأصمعية (٨٦).

(٢) « مجاز القرآن » (١/١٣٥).

(٣) « التفسير» (٤/١٧٦).

(٤) المصدر السابق (٢٢/١٢).

وقال : وأصل الحسيب في هذا الموضـع عندي ، فعيل من الحساب الذي هو في معنى الإحصاء ، يقال منه : حاسبت فلانًا على كذا وكذا ، وفلانٍ حاسبه على كذا ، وهو حسيبه ، وذلك إذا كان صاحب حسابه.

وقد زعم بعض أهل البصرة من أهل اللغة [1] أنَّ معنى الحسيب في هذا الموضع : الكافي ، يقال منه : أحسبني الشيء يحسبني إحسابًا ، بمعنى كفاني ، من قولهم ، حسبي كذا وكذا.

وهذا غلط من القول وخطأ . وذلك لأنَّه لا يقال في أحسبت الشيء: أحسبت على الشيء فهو حسيبٌ عليه وإنما يقال : هو حسبه وحسيبه. والله يقول﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا** ﴾ [النساء: ٨٦] اهـ [2].

قال الخطابي : الحسيب هو المكافئ ، فعيل بمعني مفعل ، كقولك : أليم بمعنى مؤلم ، تقول العرب : نزلت بفلان فأكرمني وأحسبني ، أي أعطاني ما كفاني حتى قلت : حسبي .

والحسيب أيضًا بمعنى : المحاسب ، كقولهم : وزير ونديم بمعنى موازر ومنادم . ومنه قول الله سبحانه ﴿ **كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾ [الإسراء: ١٤] ، أي : محاسبًا ، والله أعلم [3].

قال الحليمي : (الحسيب) ومعناه : المدرك للأجزاء والمقادير التي يعلم العباد أمثالها بالحساب من غير أن يحسب ، لأن الحاسب يُدرك الأجزاء شيئًا فشيئًا ، ويعلم الجملة عند انتهاء حسابه ، والله تعالى لا

---

(١) الظاهر أنّه يريد أبا عبيدة معمر بن المثنى البصري ، الذي تقدَّم قوله .

(٢) « التفسير » (٥/ ١٢٠).

(٣) « شأن الدعاء » (ص ٦٩ ـ ٧٠).

يتوقف علمه بشيء على أمر يكون وحال يحدث [1].

وقال ابن القيّم في نونيته :

وهُو الحسيبُ كفايةً وحمايةً والحسبُ كافي العبد كل أوان[2]

وقال السعدي رحمه الله : (الحسيب) هو العليم بعباده ، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها [3].

فيتلخص عندنا في معنى (الحسيب) و (الحاسب):

١ ـ إنه الكافي ، فعيل بمعني مفعل ، كقولك أليم بمعنى مؤلم ، فهو كافي المتوكلين عليه.

٢ ـ إنه المحاسب ، كالنديم بمعنى المنادم،كما قال تعالى : ﴿ **كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾ [الإسراء : ١٤] ، أي محاسبًا .

*** آثار الإيمان بهذين الاسمين :**

١ ـ إن الله سبحانه وتعالى هو الكافي لعباده ، الذي لا غنى لهم عنه أبدًا ، بل لا يُتصور لهم وجود بدونه ،فهو خالقهم وبارئهم ورازقهم وكافيهم في الدنيا والآخرة ، لا يشاركه في ذلك أحدٌ أبدًا ، وإن ظن

---

(١) « المنهاج » (١/ ٢٠٠) ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٦٥) في باب جماع أبواب ذكر الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، وزاد : وقد قيل : الحسيب هو الكافي فعيل بمعني مفعل تقول العرب : نزلت بفلان فأكرمني وأحسبني أي : أعطاني ما كفاني حتى قلت حسبي اهـ.

(٢) « النونية » (٢/٢٣٣) .

(٣) « تيسير الكريم » (٥/ ٣٠٢).

الناس أن غير الله يكفيهم فهو ظنٌ باطلٌ ، وخطأٌ محض ، بل كل شيء بخلقه وتقديره وأمره.

قال في «المقصد» : هو الكافي، وهو الذي من كان له كان حسبه ، والله تعالى حسيب كل أحد وكافيه ، وهذا وصف لا يتصور حقيقته لغيره، فإن الكفاية إنما يحتاج إليها المكفى، لوجوده ولدوام وجوده ولكمال وجوده.

وليس في الوجود شيء هو وحده كافٍ لشيء إلاّ الله تعالى ، فإنه وحده كافٍ لكلِّ شيء ، لا لبعض الأشياء ، أي هو وحده كافٍ يتحصل به وجود الأشياء ويدوم به وجودها ويكمل به وجودها .

ولا تظنن أنك إذا احتجت إلى طعام وشراب وأرض وسماء وشمس وغير ذلك ، فقد احتجت إلى غيره ولم يكن هو حسبك ، فإنه هو الذي كفاك بخلق الطعام والشراب والأرض والسماء ، فهو حسبك .

ولا تظنن أن الطفل الذي يحتاج إلى أمه ، ترضعه وتتعهده فليس الله حسيبه وكافيه ، بل الله كفاه إذ خلق أمه ، وخلق اللبن في ثديها وخلق له الهداية إلى التقامه ، وخلق الشفقة والمودة في قلب الأم حتى مكنته من الالتقام ، ودعته إليه وحملته عليه.

فالكفاية إنما حصلت بهذه الأسباب ، والله وحده المتفرد بخلقها لأجله ، ولو قيل لك أن الأم وحدها كافية للطفل وهي حسبه لصدقت به، ولم تقل إنها لا تكفيه لأنه يحتاج إلي اللبن فمن أين تكفيه الأم إذا لم يكن لبن ؟ ولكنك تقول : نعم ، يحتاجُ إلى اللبن ، ولكن اللبن أيضًا من الأم ، فليس محتاجًا إلى غير الأم ، فاعلم أن اللبن ليس من الأم ، بل هو والأم من الله ، ومن فضله وجوده.

فهو وحده حسب كل أحد ، وليس في الوجود شيء وحده وهو حسب شيء سواه،بل الأشياء يتعلق بعضها ببعض وكلها تتعلق بقدرة الله تعالى اهـ[1].

فالله وحده حسب كل أحد ، لا يشاركه في ذلك أحد ، وهذا هو المعنى الصحيح لقوله تعالى :﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنفال: ٦٤] ، وهو المعني الذي اختاره أكثر العلماء [2] والذي تؤيده الأدلة الكثيرة .

قال ابن القيّم رحمه الله بعد ذكره للآية السابقة : أي الله وحده كافيك ، وكافي أتباعك ، فلا تحتاجون معه إلى أحد.

قال : وهنا تقديران ، أحدهما : أن تكون الواو عاطفة لـ « مَن » على الكاف المجرورة ، ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار على المذهب المختار ، وشواهده كثيرة ، وشُبَه المنع منه واهية .

والثاني أن تكون الواو واو «مع»، وتكون «من» في محل نصب عطفًا على الموضع ، « فإن حسبك » في معنى « كافيك » ، أي : الله يكفيك ويكفي مَنِ اتّبعك ، كما تقول العرب: حسبك وزيدًا درهم، قال الشّاعر:

إذَا كانَت الْهَيْجَاءُ وانْشَقَّت العَصَا   فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدٌ

وهذا أصحُّ التقديرين.

---

(١) «المقصد الأسنى» (ص٧٢).

(٢) وهو الذي اختاره ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٢٦) وذكره بأسانيد عن الشعبي ـ لكن مدارها على شوذب مولى الشعبي ذكره ابن أبي حاتم ولم يحك فيه جرحًا ولا تعديلاً ـ وابن زيد، واقتصر عليه ابن كثير (٢/ ٣٢٤) واختاره الشنقيطي في « أضواء البيان » (٢/ ٤١٦) وقال : لدلالة الاستقراء في القرآن على أن الحسب والكفاية لله وحده اهـ.

وفيها تقدير ثالث : أن تكون « مَنْ » في موضع رفع بالابتداء أي : ومن اتبعك من المؤمنين ، فحسبُهُم الله.

وفيها تقدير رابع ، وهو خطأ من جهة المعنى ، وهو أن تكون «مَنْ» في موضع رفع عطفًا على اسم الله ، ويكون المعنى : حسبُك الله وأتباعُك ، وهذا وإن قاله بعضُ الناس[1] فهو خطأ محض ، لا يجوز حملُ الآية عليه ، فإن « الحسب » و « الكفاية » لله وحده ، كالتوكل والتقوى والعبادة ، قال الله تعالى : ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢] . ففرّق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسبَ له وحده ، وجعل التأييد له بنصره وبعباده ، وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث أفردوه بالحسب ، فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]

ولم يقولوا : حسبنا الله ورسوله ، فإذا كان هذا قولهم ، ومدح الرب تعالى لهم بذلك ، فكيف يقول لرسوله : الله وأتباعُك حسبُك ؟ وأتباعه قد أفردوا الرب تعالى بالحسب ، ولم يُشركوا بينه وبين رسوله فيه، فكيف يُشرك بينهم وبينه في حسب رسوله ؟! هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل.

ونظير هذا قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله ، كما قال تعالى :﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ

---

(١) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٤١٧) وقال : هو أحبُّ الوجهين إليَّ اهـ ونقله القرطبي (٨/ ٤٣) عن الحسن والنحاس.

﴿فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] . وجعل الحسبَ له وحده ، فلم يقل : وقالوا : حسبنا الله ورسوله ، بل جعله خالصَ حقِّه ، كما قال تعالى ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩] . ولم يقل : وإلى رسوله ، بل جعل الرغبة إليه وحدَه ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨] . فالرغبةُ ، والتوكل ، والإنابةُ ، والحسبُ لله وحده ، كما أن العبادةَ والتقوى ، والسجــود لله وحدَه ، والنــذر والحلف لا يكون إلاّ لله سبحانه وتعالى .

ونظير هذا قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦][1] . فالحسبُ : هو الكافي ، فأخبر سبحانه وتعالى أنَّه وحده كافٍ عبدَه ، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية ؟! والأدلة الدَّالّة على بطلان هذا التأويل الفاسد أكثر من أن تذكر ها هنا اهـ [2].

وبقدر ما يلتزم العبد بطاعة الله ورسوله ، تكون الولاية والكفاية ، ولذلك يتابع ابن القيّم كلامه قائلاً:

والمقصودُ أن بحسب متابعة الرسول تكونُ العزَّة والكفاية والنُّصرة ، كما أن بحسب متابعته تكونُ الهدايةُ والفلاح والنجاة ، فالله سبحانه علَّق سعادة الدارين بمتابعته ، وجعل شَقَاوة الدارين في مخالفته ، فلأتباعه الهدى والأمن ، والفلاحُ والعزَّة ، والكفاية والنصرة ، والولاية والتأييد ، وطيبُ العيش في الدنيا والآخرة ، ولمخالفيه الذِّلَّةُ والصَّغار ، والخوفُ والضلال ، والخِذلان والشقاءُ في الدنيا والآخرة .اهـ .

---

(١) وفي قراءة حمزة والكسائي « أليس الله بكاف عباده » .

الاستفهام للاستنكار ، أي أن كفاية الله لعبده ظاهرة لا يتسنى لأحد إنكارها لظهورها للعيان .

(٣) « زاد المعاد » (١/ ٣٥ ـ ٣٧).

٣ ـ والله سبحانه وتعالى (الحاسب) الذي أحصى كل شيء ، لا يفوته مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

قال تبارك وتعالى : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن: ٢٨] وقال ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: ٩٣، ٩٤] .

وكتب ذلك في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو [١].

وتصديق ذلك من كتاب الله قوله سبحانه ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢] ، والإمام هو أم الكتاب [٢].

وقوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢]

وقوله :﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ [النبأ: ٢٩] .

٤ ـ وأعمالك أيها الإنسان كلها محسوبة محصاة ، لا يضيع منها شيء ، ولا يُزاد عليك شيء ، فتجزى بها يوم القيامة ولا تظلم.

قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] .

وقال سبحانه : ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة: ٦].

وقد أمر الله سبحانه الحفظة بذلك ، أن يدونوا كل صغيرة وكبيرة .

قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٤٤).

(٢) انظر تفسير ابن جرير (٢٢/ ١٠٠) وغيره.

وهذا الحفظ والإحصاء الدقيق ، والحساب الذي لا يفوته شيء ، هو الذي يبهت أهل الأجرام ، الذين لا يبالون بأعمالهم صلحت أو فسدت ، يعملون السيئات بلا حساب ويظنون أنهم متروكون سدى ، لا حساب ولا عذاب ، قال تعالى عنهم ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف: ٤٩].

لذلك كان لزامًا علينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب ، وأن نزن أعمالنا قبل أن تُوزن.

قال الأُقليشيُّ : فأرباب القلوب ، المحسُّون بأوجاع الذنوب العالمون يقينًا بمحاسبة علاَّم الغيوب ، وإحصاء حسابه لجميع العيوب ، أقاموا في الدنيا موازين القسط على أنفسهم وأحصوا عليها بالحساب المحرِّر كلما برز عنها وصدر ثم حاسبوها محاسبة الشريك النحرير القائم بماله شريكه الذي انفصل عن شركته بعداوة وقعت بينه وبينه ، فانظر هل يسمح له بترك حبةٍ ، أو يسقيه من مائه عند ظمأه عبَّه ، فلذلك انتثرت ذنوب هؤلاء من الصحائف كما ينتثُر ورقُ الشجر اليابس بالريح العاصف . فإذا قدموا قضاء الموقف ، برزت لهم تلك الصحائف منيرة وقد استنارت فيها المعاني والأحرف ، لأنها مُمحَّضةٌ مخلَّصةٌ بدقيق المحاسبة وشديد المطالبة فكان حسابهم عرضًا لا مناقشة اهـ [1].

٥ ـ وحساب الخلق لا مشقة فيه على الخالق الحاسب ، بل هو يسير عليه .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ

(١) الكتاب الأسنى (ورقة ١٠٣ب).

﴿الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]

قال ابن جرير : ثم ردت الملائكة الذين توفوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم إلى سيدهم الحق ، ﴿أَلا لَهُ الْحُكْمُ﴾ يقول : ألا له الحكم والقضاء دون من سواه من جميع خلقه ، و ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ يقول: وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم أيها الناس ، وأحصاها وعرف مقاديرها ومبالغها.

لأنه لا يحسب بعقد يدٍ ، ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين اهـ [١].

فكما أن خلقهم وبعثهم لا مشقة فيه كما قال سبحانه ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] .

فكذلك حسابهم لا مشقة فيه ولا تأخير ، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]

فسبحان الله العظيم ، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

* * *

(١) « جامع البيان » (٧/ ١٤٠).

الكريم ، الأكرم
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٥٠ ، ٥١)

* **المعنى اللغوي :**

قال ابن سيدَه : الكرمُ نقيضُ اللُّؤم ، يكون في الرجل بنفسه وإن لم يكن له آباء ، ويستعمل في الخيل والإبل والشجر وغيرها من الجواهر إذا عنوا العِتق ، وأصله في الناس [1].

قال الجوهري : وقد كَرُمَ الرجل بالضم فهو كريم ، وقوم كِرَامٌ وكُرماء ،ونسوةٌ كرائم.

والكُرَامُ بالضم ، مثل الكريم ، فإذا أفرط في الكرم قيل كُرَّام بالتشديد وكارمتُ الرجل إذا فاخرته في الكرم ، فكَرَمته أكْرُمُهُ بالضم إذا غلبته فيه .

والكريم : الصفوح .

والأُكْرُومَةُ من الكرم ، كالأعجوبة من العجب ، وأكرَمَ الرجل : أتى بأولادٍ كرام .

وكَرُمَ السحابُ ، إذا جاء بالغيث.

وقيل لشجرة العنب : كَرْمَةٌ بمعنى كريمة ، وذلك لكثرة خيرها وقرب جناها .

---

(١) « اللسان » (١٥/ ٣٨٦١).

وقد يُسمى الشيء الذي له قَدْرٌ وخطرٌ : كريمًا ، ومنه قوله سبحانه في قصة سليمان عليه السلام وبلقيس ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٩] جاء في تفسيره : كتابٌ جليلٌ خطيرٌ ، وقيل : وصفته بذلك لأنه كان مختومًا ، وقيل : كان حسن الخط ، وقيل : لأنها وجدَتْ فيه كلامًا حسنًا اهـ [١].

والكَرْمُ : كرم العنب ، والقلادة أيضًا .

والمكْرُمَةُ : واحدة المكارم ، وأرض مكرَمَة للنبات إذا كانت جيدة النبات [٢].

قال الزجاج : الكرَمُ سرعة إجابة النَّفْسِ ، كريم الخُلُق وكريم الأصل.

وحكى الأحول[٣] جوزةٌ كريمةٌ ، أي : هَشَّةُ المكسر ، وكأن سرعةَ انكسارها وهشاشَتِها ، جُعل إجابةً منها ، فشُبه بها الكريمُ من الرجال، إذا كان سريعًا إلى الخيرات ، هذا هو الأصل ، والله تعالى سَبَبُ كُلِّ خير ومُسهِّلُه ، فهو أكرم الأكرمين اهـ [٤].

وقال الزجاجي : الكريم : الجواد ، والكريم : العزيز ، والكريم :

---

(١) « شأن الدعاء » (ص ٧٠ ـ ٧١).

(٢) « الصحاح » (٥/٢٠١٩ ـ ٢٠٢٠) ، وانظر «أساس البلاغة» (٥٤١ ـ ٥٤٢).

(٣) هو محمد بن الحسن بن دينار اللغوي المعروف بالأحول ، إمام في اللغة والشعر مشهور بها ، وله فيها تصانيف مفيدة ، منها : كتاب « الدَّواهي » وكتاب « الآباء والأمهات » ، وكتاب « ما اتفق لفظه واختلف معناه » ، وغير ذلك ، توفي سنة (٢٥٩ هـ) . «تاريخ بغداد» (٢/١٨٥)، «إشارة التعيين» (ص٣٠٦)، «الفهرست» (٧٩).

(٤) « تفسير أسماء الله » (ص٥٠ ـ ٥١).

الصَّفوح ، هذه ثلاثة أوجه للكريم في كـلام العـرب ، كلها جائز وصف الله عز وجل بها [1].

وقال الخطابي : قال بعض أهل اللغة : الكريم الكثير الخير ، والعرب تُسمي الشيء النافع الذي يدوم نفعه ويسهل تناوله كريمًا ولذلك قيل للناقةِ الحُوار : كريمة ، وذلك لغزارة لبنها ، وكثرة دَرِّها .

وللنخلةِ التي لا يُخلِفُ حَمْلُها ، وكانت مع ذلك غيرَ مُرْقِلَةٍ يصعب الرقّي فيها : هذه نخلة كريمة [2].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد اسمه (الكريم) ثلاث مرات :

في قوله تعالى ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾[3] [المؤمنون: ١١٦] .

وقوله : ﴿**وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ [النمل: ٤٠] .

وقوله : ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ**﴾ [الانفطار: ٦] .

أما الأكرم فورد في قوله تعالى ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾ [العلق: ٣]

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير : (كريم) ومن كرمه أفضاله على من يكفر نِعَمَه ،

---

(١) « اشتقاق أسماء الله » (ص١٧٦) ، وذكر مثله القرطبي في الأسنى (ورقة ٢٦٨ب).

(٢) الرَّقْلة مثل الرَّعْلة ، والجمع الرِقال ، وهي الطِوال من النخل . «الصحاح» (١٧١٢/٤).

(٣) في قراءة حفص « الكريم » بالكسر نعتًا للعرش ، وقرأ أبان بن تغلب وابن محيصن وأبو جعفر وإسماعيل عن ابن كثير « الكريمُ » بالرفع على أنه صفة للرب . انظر : «تفسير القرطبي» (١٥٧/١٢)، و«روح المعاني» (٧١/١٨).

ويجعلها وَصْلة يَتوَصلُ بها إلى معاصيه [1].

وقال الحليمي : (الكريم) ومعناه النَّفَّاع ، من قولهم : شاةٌ كريمة، إذا كانت غزيرة اللبن تُدر على الحالب ، ولا تقلص بأخلافها ، ولا تحبس لبنها .

ولا شك في كثرة المنافع التي مَنَّ الله تعالى بها على عباده ، ابتداء منه وتفضلاً ، فهو باسم الكريم أحق من كلٍّ كريم [2].

وقال القرطبي بعد أن ذكر أن الكريم له ثلاثة أوجه هي : الجواد والصَّفُوح والعزيز : وهذه الأوجه الثلاثةُ يجوز وصف الله عز وجل بها ، فعلى أنه جوادٌ كثير الخير صفوح لا بد من مُتَعلَّقٍ يصفح عنه و ينعم عليه.

وإذا كان بمعنى العزيز كان غير مقتضٍ مفعولاً في أحد وجوهه.

فهذا الاسم متردد بين أن يكون من أسماء الذاتِ ، وبين أن يكون من أسماء الأفعال .

والله جلَّ وعزَّ لم يزل كريمًا ولا يزال ، ووصفه بأنه كريم هو بمعنى نفي النقائص عنه ، ووصفه بجميع المحامد ، وعلى هذا الوصف يكون من أسماء الذات ، إذ ذلك راجعٌ إلى شرفه في ذاته وجلالة صفاته.

وإذا كان فعليًا كان معنى كرمه ما يصدرُ عنه من الإفضال والإنعام على خلقه.

---

(١) « التفسير » (١٩/ ١٠٤).

(٢) « المنهاج » (١/ ٢٠١) ، وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، وكذا البيهقي في «الأسماء» (ص ٧٣).

وإن أردت التفرقة بين (الأكرم) و (الكريم) ، جعلت الأكرم الوصف الذاتي ، والكريم الوصف الفعلي اهـ [(1)].

وقد حكى ابن العربي رحمه الله في معنى الكريم ستة عشر قولاً ، نوردها باختصار :

الأول : الذي يعطي لا لعوض .

الثاني : الذي يعطي بغير سبب.

الثالث : الذي لا يحتاج إلي الوسيلة .

الرابع : الذي لا يبالي من أعطى ولا من يحسن ، كان مؤمنًا أو كافرًا، مُقرًا أو جاحدًا.

الخامس : الذي يستبشر بقبول عطائه ويُسرُّ به.

السادس : الذي يعطي ويثني ، كما فعل بأوليائه حبَّبَ إليهم الإيمان وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ثمَّ قال : ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الحجرات: ٧، ٨] .

ويحكى أنّ الجنيد سمع رجلاً يقرأ ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ** ﴾ [ص: ٤٤] ، فقال : سبحان الله ! أعطى وأثنى ، المعنى : أنَّه الذي وهب الصبر وأعطاه ، ثمَّ مدحه به وأثنى .

السابع : أنَّه الذي يَعُمُّ عطاؤه المحتاجين وغيرهم

الثامن : أنَّه الذي يُعطي من يلومه.

التاسع : أنَّــه الـذي يعـطي قبل السؤال ، قال الله العظيم ﴿ **وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم: ٣٤] .

---

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٦٨ب ـ ٢٦٩ أ).

العاشر : الذي يُعطي بالتَّعرض.

الحادي عشر : أنَّه الذي إذا قَدَرَ عفى.

الثاني عشر : أنَّه الذي إذا وَعَدَ وفَّى.

الثالث عشر : أنَّه الذي تُرفَع إليه كل حاجةٍ صغيرة كانت أو كبيرة.

الرابع عشر : أنَّه الذي لا يُضيع من توسَّل إليه ولا يترك من التجأ إليه.

الخامس عشر : أنَّه الذي لا يعاتب .

السادس عشر : أنَّه الذي لا يعاقب اهـ [1].

أما (الأكرم) ، فقال الخطابي : هو أكرم الأكرمين ، لا يوازيه كريم، ولا يعادله نظير ، وقد يكون (الأكرم) بمعنى : الكريم ، كما جاء : الأعزُّ والأطول ، بمعنى العزيز والطويل [2].

قال القرطبي : أَنّ (الأكرم) الوصف الذاتي و (الكريم) الوصف الفعلي وهما مُشتقان من الكرم ، وإنّ اختلفا في الصيغة [3].

*** آثار الإيمان بهذين الاسمين :**

١ ـ تكلّم ابن العربي رحمه الله [4] كلامًا طيّبًا في تفصيل الأقوال السابقة ، فأجاد فيه وأفاد ، قال رحمه الله تعالى :

أ ـ أمّا إذا قلنا إنَّ الكريم هو الكثير الخير ، فمن أكثر خيرًا من الله

---

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٦٩ أ ـ ٢٧٠ب) وسيأتي تفصيله لهذه الأقوال في آثار الإيمان.

(٢) « شأن الدعاء » (ص١٠٣ ـ ١٠٤) ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٧٥).

(٣) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٧٥ أ).

(٤) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٧٠ أ ـ ٢٧٢ أ).

لعموم قدرته وسعة عطائه ، قال سبحانه ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] .

ب ـ وأمَّا إذا قلنا إنّه الدائم بالخير فذلك بالحقيقة لله ، فإنه كل شيء ينقطعُ إلاّ الله وإحسانه ، فإنَّه دائمٌ متصل في الدنيا والآخرة .

جـ ـ وأمَّا إن قلنا إنّه الذي يَسهل خيرهُ ، ويقربُ تناول ما عنده فهو الله بالحقيقة ،فإنه ليس بينه وبين العبد حجابٌ ، وهو قريب لمن استجاب ، قال الله سبحانه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

د ـ وأما إن قلنا إنَّ الكريم هو الذي له قدر عظيم ، وخطرٌ كبير ، فليس لأحدٍ قدر بالحقيقة إلا لله تعالى ،إذ الكلُّ له خلقٌ وملك ، إليه يضاف كل شيء ، ومن شرفه يشرفُ كل شيء ، وكرمُ كل كريمٍ من كرمه.

هـ ـ وأما إن قلنا إن الكريم هو المنزَّه عن النقائص والآفات ، فهو الله وحده بالحقيقة ، لأنه تقدَّس عن النقائصِ والآفات وحده على الإطلاق والتمام والكمال من كل وجهٍ ، وفي كل حالٍ ، بخلاف الخلق فإنهم إن كَرُموا من وجه ، سَفَلُوا من وجه آخر، كما قال الله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ [التين: ٤، ٥] .

و ـ وأما إن قلنا إنَّ الكريم بمعنى المُكرِم فمن المكرمُ إلا الله تعالى، فمن أكرمه الله أُكرِمَ ومن أهانه أهين [١].

(١) قال الله تعالى في هذا ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج: ١٨]

ز ـ وأما إن قلنا إن الكريم هو الذي لا يتوقع عِوَضًا ، فليس إلا الله وحده ، لأن كل شيء خَلْقه وملكه فما يعطي له وما يأخذه له ، وما يُعطي كل مُعطٍ أو يعمل كل عاملٍ ، فبقدرته وإرادته ، والعوضُ والمعوَّض خلق له.

ح ـ وأما إن قلنا إنَّ (الكريم) هو الذي يعطي لغير سبب فهو الله وحده ، لأنه بدأ الخلق بالنِّعم ، وختم أحوالهم بالنعم ، وإن جاء في الأخبار أنه أعطي بكذا أو عمل بكذا لكذا ، فالعطاءُ منه والسبب جميعًا ، والكلُّ عطاءٌ بغير سبب.

ط ـ وأما إن قلنا إنَّ (الكريم) هو الذي يُعطي بغير وسيلةٍ ، فالأجواد يتفاضلون ، فمنهم من يُعطي جِبلَّةً ، ومنهم من يعطي مراعاةً لحقِّ المتوسل ، والباري يعطي بغير وسيلة ، لأن حرمة النبي أو الولي الذي أعطى بها [1]، أعطى بمجرَّد المشيئة من غير وسيلة ، كما قال ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم: ١١].

ي ـ وأما إن قلنا إنَّ الكريم هو الذي لا يبالي من أعطى فهو الله وحده ، لأن الخلق جُبلت قلوبهم على حب من أحسن إليها ، وبغض

(١) مما هو معلوم عند المحققين من أهل السنة والجماعة أنه لا يجوز التوسل بحق النبي ﷺ أو بجاهه أو بحق أحد أو جاهه ، لأنه لم يثبت في ذلك شيء من الأحاديث ، ولم يرد عن أحد من الصحابة فعله ، وأن التوسل المشروع الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة هو ثلاثة أنواع :

١ ـ التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته.

٢ ـ التوسل بالأعمال الصالحة التي عملها العبد .

٣ ـ التوسل بدعاء الرجل الصالح الحي .

راجع كتاب « قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

من أساء إليها ، والباري يُعطي الكافر [1] والمتقين ، وربما خَصَّ الكافر في الدنيا بمزيد العطاء ، ولكنَّ الآخرة للمتقين.

ك ـ وأما إن قلنا إنه الذي يُري للقابل لعطائه مِنَّة ، فالباري تقدس عن تصور ذلك في حقه .

ل ـ وأما إن قلنا إنَّ (الكريم) هو الذي يُعطي من احتاج[2] ومن لا يحتاج فهو الله وحده ، لأنه يُعطي ويزيد على قدر الحاجة ، ويُعطي من يحتاج ومن لا يحتاج حتى يصب عليه الدنيا صبًّا .

م ـ وأما إنْ قلنا إنَّ (الكريم) هو الذي لا يُخصُّ بكبير من الحوائج دون صغيرها فهو الله تعالى روى أنه يَسألُ العبد ربَّه كل شيء في صلاته قال حتى . . . [3].

وذكر القشيري أن موسى عليه السلام قال في مناجاته : إنه لتعرض لي الحاجة أحيانًا فأستحيي أن أسألك ، فأسأل غيرك ، فأوحى الله إليه : يا موسى لا تسل غيري ، وسلني حتى ملح عجينك وعلف شاتك .

وذلك لأن أمرهُ بين الكاف والنون ، فسواءً الصغير والكبير ، بل الكبير عنده صغير ، والعسير يسير ، والصعب لين.

ن ـ وأما إنْ قلنا إنَّه الذي إذا وعد وَفَّى ، فإن كل من يعد يمكن أن يفي ، ويمكن أن يقطعه عُذرٌ ، ويحولُ بينه وبين الوفاء أمرٌ ، والباري صادق الوعدِ لعمومِ قدرته وعظيمِ ملكه، وإنه لا يتصوَّرُ أن يقطعَ به قاطع، ولا يحول بينه وبينه مانع.

س ـ وأما إن قلنا إن (الكريم) هو الذي لا يُضيع من التجأ إليه،

---

(١) كذا في الأصل ، ولعل الصواب : الكفار والمتقين حتى يتناسب السياق.

(٢) كذا في الأصل ، ولعل الصواب : من يحتاج .

(٣) كلمة غير مقرءة بالأصل الذي عندي ، ولعلها : الملح . . .

فهو الله وحده ، والألتجاء إليه : التزام الطاعه وحسن العمل ، وقدأخبر بذلك عن نفسه حين قال : ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠]

ع ـ وأما إن قلنا إِنَّه الذي لا يعاتب فقد قال الله تعالى ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣] [١]، وقد جعل الله للناس مراتب في العِقاب والحِساب والعِتاب.

ف ـ وأما إن قلنا إِنَّ (الكريم) هو الذي إِذا أعطى زاد على المُنَى فهو الله وحده ، فقد روى أنه أعطى أهل الجنة مُناهم ، ويزيدهم على ما يعلمون [٢] ، وقد روي أنه قال سبحانه : «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر بَلْهَ ما أُطلعتم عليه**»[٣].

قلت (أي القرطبي) : فهذا ما ذكر العلماء من الأقوال وبيانها ، ولم يذكر (أي ابن العربي) في سرد الأقوال : أَنَّه الذي أعطى وزاد على المنى فيكون سابع عشر قَولاً [٤]، ولم يذكر بيان أنه الذي يُعطي من يلومه، لأنه والله أعلم داخل في قوله : إنه الذي لا يبالي من أعطى ،

---

(١) قوله ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣] أي النبي ﷺ عرَّف لحفصة بعض ذلك الفعل الذي فعلته من إفشائها سره وقد استكتمها إياه . (ابن جرير ٢٨/١٠٣) وانظر : القرطبي (١٨/١٨٧).

(٢) من ذلك حديث المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى ربَّه: ما أدنى أهل الجنة منزلةً ؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أُدْخِلَ أهل الجنة الجنَّة فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي ربِّ كيف؟ وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذَاتهم؟ فيقول له: أترضى ان يكون لك مثلُ مُلْك مَلِك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيتُ ربِّ، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذَّت عينك فيقول رضيت ربِّ . . .» أخرجه مسلم (١/٧٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦/٣١٨) ، (٨/٥١٥ ، ٥١٦) ، (١٣/٤٦٥) ، ومسلم (٤/٢١٧٤، ٢١٧٥) عن أبي هريرة به وتمامه ثم قرأ : ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ...﴾ [السجدة: ١٧] . وأخرجه مسلم (٤/٢١٧٩) عن سهل بن سعد.

(٤) أي في الأقوال التي مضت في معني الاسم في حق الله تعالى.

ولا ذكر بيان أنه الذي يُعطي ويُثني لأنه في غاية البيان وهو مفسرٌ في سرد الأقوال .

ولا ذكر بيان أنه الذي يعطي بالتَّعرض ، وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤] ، فعرض ولم يسأل وأعطاه مُناه اهـ.

٢ ـ والكريم أيضًا من يستحيي أن يرد عبده عندما يسأله كما جاء في الحديث قوله ﷺ : **« إنَّ ربكم تبارك وتعالى حييٌ كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا »** [(١)].

(١) حديث حسن ، أخرجه أحمد (٥/٤٣٨) وأبو داود (٢/١٤٨٨) والترمذي (٥/٣٥٥٦) وابن ماجه (٢/٣٨٦٥) وابن حبان (٢/١١٩) والحاكم (١/٤٩٧) والخطيب في تاريخه (٣/٢٣٥ ـ ٢٣٦) كلهم عن جعفر بن ميمون الأنماطي حدثني أبـو عثمان النهدي عن سلمان قال قال رسول الله ﷺ فذكره.

قال الترمذي : حسن غريب ، وروى بعضهم ولم يرفعه.

وهو كما قال ، فإن جعفر بن ميمون قال فيه ابن معين : ليس بذاك ، وقال في موضع آخر: صالح الحديث ، وقال مرة : ليس بثقة ، وقال أبو حاتم : صالح ، وذكره ابن حبان وابن شاهين في الثقات ، وقال الحافظ : صدوق يخطئ.

فحديثه لا ينزل عن رتبة الحسن.

والموقوف الذي أشار إليه الترمذي هو ما رواه سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان « إن الله يستحيي أن يبسط العبد ... » أخرجه أحمد (٥/٤٣٨) والحاكم (١/٤٩٧) وقال : إسناد صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وللحديث المرفوع شاهد من حديث أنس ، أخرجه الحاكم (١/٤٩٧ ـ ٤٩٨) عن عامر ابن يساف عن حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري قال حدثني أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله رحيم حيي كريم يستحيي من عبده أن يرفع إليه يديه ثم لا يضع فيهما خيرًا» وصحح إسناده ، فتعقبه الذهبي بقوله : عامر ذو مناكير اهـ. قلت: قال ابن عدي في «الكامل» (٥/١٧٣٩) : منكر الحديث عن الثقات وقال :ومع ضعفه =

٣ ـ قال ابن الحصَّار : وأنا أقول : إنَّ (الكريم) هو الكثير الخير المتأتِّي لكل ما يُراد منه من غير تكلفٍ .

وبهذا الاعتبار سُمِّي السخيُّ ، والنخلةُ ، والناقة الغزيرة اللبن ، والشريف والجواد من الخيل ، وسائر ما وقع عليه هذا الوصف.

وإذا اعتبــرت جميــع ما قيل في معنى الكرم ، علمت أن الذي وجَبَ لله تعالى من ذلك لا يُحصى ، فأَوَّلُ ذلك شرفُ الذاتِ وكمال الصفات ، والنزاهةُ عن النقائصِ والآفات ، وقد تضمَّنَ ذلك قوله الحق ﴿ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾ [مريم: ٦٥] . وقوله: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله تعالى ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾ [الإسراء: ٤٤] ، تعظيمًا له وتقديسًا وتنزيهًا عن صفاتها.

فهو سبحانه الكثير الخير ، ومنه قوله عليه السلام : « **اللهمَّ لا خَيرَ إلا خَيرُكَ ولا إلهَ غَيرُك** »[1].

= يكتب حديثه ،وفي «تعجيل المنفعة» (ص٢٠٧) : قال أبو داود : ليس به بأس ، رجل صالح ، وقال العجلي: يكتب حديثه وفيه ضعف.

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠) ثنا حسن ثنا ابن لهيعه أنا ابن هبيرة عن أبي عبد الرحمن الحبلي أن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ « **من ردته الطيرة من حاجته فقد أشرك** » ، قالوا : يا رسول الله ، ما كفارة ذلك ، قال : « **أن يقول أحدهم : اللهم لا خير إلاّ خيرك ولا طير إلاّ طيرك ولا إله غيرك** » .. قال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٥): رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات اهـ . قلت : وهو من رواية غير العبادلة عن ابن لهيعة ، لكن قد رواه ابن وهب في جامعه (ص١١٠) وعنه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٩٣) عن ابن لهيعة به . وقد صحح رواية العبادلة عن ابن لهيعة عبد الغني بن سعيد الأزدي والساجي وغيرهما ، كما في «التهذيب» (٥/ ٣٧٨) .

وله شاهد حسن ، قال ابن وهب في جامعه (ص١١١) : وأخبرني أسامة بن زيد قال =

وهو الذي عمَّ الجميع بعطائه وفضله . وبكرمه أمهل المكذِّبَ له ، واستمرت عليه نعمته ، ومن كرمه أمهل إبليس وأنظره ، وتركه وما اختار لنفسه ، ولم يُعْجِله ولا عاجَلَه.

كل ذلك كرم منه وفضلٌ ، ومن كرم الله تعالى أن تفضل على العلماء بأن علَّمهم من علمه ، وأنارَ قلوبهم من نوره ، والشيطان يبخل ويأمر بالبخل بما ليس له ولا يبقى اهـ [1].

٤ ـ من كرم الله تعالى غفرانه للذنوب وعفوه عنها ، وتبديله السيئات بالحسنات ، كما قال سبحانه ﴿ **إلاَّ من تابَ وآمنَ وعَمِلَ عمَلاً صالحًا فأُوْلَئكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وكَانَ اللَّهُ غفُوراً رَّحيماً** ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وجاء في الحديث الصحيح ما يدل علي هذا الكرم العظيم ، وهو ما رواه أبو ذر الغفاري قال : قال رسول الله ﷺ : « **إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجًا منها ، رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغارَ ذنوبه وارفعوا عنه كبارَهَا ، فتعرض عليه صغارُ ذنوبه ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفقٌ من كبار ذنوبه أن تعرض عليه ، فيقال له ، فإن لك مكان كلٌ سيئة حسنةً ، فيقول : ربِّ ، قد عملتُ أشياء لا أراها ههنا ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ**

= سمعت نافع بن جبير بن مطعم يقول : سأل كعب الأحبار عبد الله بن عمرو فقال : هل تطير؟ فقال : نعم ، قال : فكيف تقول إذا تطيرت ؟ قال : أقول : اللهم لا طير إلاّ طيرك ، ولا خير إلا خيرك ولا رب غيرك ولا قوة إلاّ بك ،فقال كعب : أنت افقه العرب، وإنها لكذلك في التوراة.

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٧٢ب).

ضحك حتى بدت نواجذُهُ » [1].

٥ ـ ومن كرمه عزّ وجلّ ما جاء في قوله في الحديث القدسي : « **إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشرَ حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له سيئة واحدة » . وازد مسلم : « ومحاها الله ، ولا يَهلِك على الله إلا هالك »** [2].

قال القاضي عياض رحمه الله في معنى الزيادة السابقة : معناه من حتم هلاكه وسُدَّت عليه أبواب الهدى مع سعةِ رحمة الله تعالى وكرمه ، وجعله السيئة حسنة إذا لم يعملها ، وإذا عملها واحدةً ، والحسنة إذا لم يعملها واحدة ، وإذا عملها عشرًا إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فمن حُرِم هذه السعة ، وفاته هذا الفضل ، وكثرت سيئاته حتى غلبت ـ مع أنها أفراد ـ حسناتِه مع أنها متضاعفة فهو الهالك المحروم ، والله أعلم [3].

٦ ـ ومن كرمه عز وجل أنه يكتب الحسنات لمن لم يبلغ من الأطفال وما شابههم ولا يكتب عليهم السيئات ، والدليل على ذلك حديث ابن عباس عن النبي ﷺ لقي ركبًا بالرَّوحاء فقال : من القوم ؟ قالوا :

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٧٧) والترمذي (٤/ ٢٥٩٦) وقال : حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري (١١/ ٣٢٣) ومسلم (١/ ١١٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما . ورواه البخاري (١٣/ ٤٦٥) ومسلم (١/ ١١٧ ـ ١١٨) عن أبي هريرة مرفوعًا بنحوه.
ورواه مسلم (١/ ١٤٧) عن أنس بن مالك وهو حديث الإسراء الطويل ، في الجزء الأخير منه.

(٣) شرح مسلم (٢/ ١٥٢).

المسلمون ، فقالوا : من أنت ؟ قال : رسول الله ، فرفعت إليه امرأةٌ صبيًا فقالت : ألهذا حجٌّ ؟ قال : نعم ، ولك أجرٌ » [1].

وقد أورد ابن حبان هذا الحديث في صحيحه بعد ذكره لحديث « **رفع القلم عن ثلاثة ...** » بطريقين فقال : ذكر الخبر الدَّال على صحة ما تأولنا الخبرين الأولين ، اللذين ذكرناهما ،بأن القلم رفع عن الأقوام الذين ذكرناهم في كتبة الشرِّ عليهم ، دون كتبة الخير لهم [2].

٧ ـ ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله سبحانه ، فإنه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه : قيل يا رسول الله من أكرمُ الناس ؟ قال : « **أتقاهم ، فقالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فيوسف نبيُّ الله ابنُ نبي الله ابنِ خليل الله ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فعن معادَن العرب تسألون ؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإِسلام إذا فَقِهوا** » [3].

فأعظم أسباب الكرامة عند الله هو تقواه ، ولذا كان الرسل أكرم الخلق لطاعتهم صلوات الله عليهم أجمعين.

هذه هي الكرامة الحقيقية التي تبقى في الآخرة لأصحابها ، حتى يدخلوا بها دار الكرامة.

وأما ما يتمتع به كثير من الفجار والكفار من التكريم بين أقوامهم

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢١٩) ومسلم (٢/ ٩٧٤) عن ابن عباس به .

(٢) صحيح ابن حبان (١/ ٣٠٦).

(٣) رواه البخاري في مواضع منها (٦/ ٣٨٧) ومسلم (٤/ ١٨٤٦ ـ ١٨٤٧) . والحديث يدل على جواز تسمية الإنسان بـ « الكريم » كما هو ظاهر.

وعشائرهم وأهليهم ، واتفاع شأنهم وذكرهم بين الناس ، فتكريم زائل باطل مضمحل، منقلب إلي ضده يوم القيامة من المهانة والعذاب الشديد، قال سبحانــه عنهـم ﴿ خُـذُوهُ فَاعْتِلُـوهُ إِلَىٰ سَـوَاءِ الْجَحِيـمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٧ - ٤٩] .

قال الطبري رحمه الله : فإن قال قائل : وكيف قيل وهو يهان بالعذاب الذي ذكره الله ، ويذلُّ بالعتلِ إلى سواء الجحيم ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ ؟ قيل :إن قوله ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ غير وصف من قائل ذلك له بالعزة والكرم ، ولكنه تقريع منه له بما كان يصف به نفسه في الدنيا ، وتوبيخ له بذلك على وجه الحكاية ، لأنه كان في الدنيا يقول ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ فقيل له في الآخرة إذ عُذِّب بما عُذِّب به في النار ، ذق هذا الهوان اليوم ، فإنك كنت تزعم إنك أنت العزيز الكريم ، وإنك أنت الذليل المهين ، فأين الذي كنت تقول وتَدَّعي من العز والكرم؟ ! هلاّ تمتنع من العذاب بعزتك ؟!! [١].

٨ ـ سمى الله تبارك وتعالى كتابه « كريمًا » في قوله ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٧] .

قال الراغب : كل شيء شَرُفَ في بابه فإنه يوصف بالكرم [٢].

قال القرطبي : أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم، ليس

---

(١) « جامع البيان » (٢٥/ ٨٠) ، ومثلها قوله تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٥٧ ، ٥٨] ،وغيرها ، فاخرجهم الله من المقام الكريم وادخلهم دار المهانة والعذاب الأليم .

(٢) « المفردات » (ص ٤٢٩).

بسحرٍ ولا كهانة ، وليس بمفترى ، بل هو قرآن كريم محمود ، جعله الله تعالى معجزة لنبيه ﷺ ، وهو كريم على المؤمنين ، لأنه كلام ربهم ، وشفاء صدورهم ، كريم على أهل السماء لأنه تنزيل ربهم ووحيه.

وقيل : (كريم) أي : غير مخلوق .

وقيل (كريم) لما فيه من كريم الأخلاق ومعالي الأمور [1].

وقيل : لأنه يُكرِّم حافظه ، ويُعَظِّم قارئه اهـ [2].

٩ ـ وسمَّى الله تعالى ما أعدَّ لأنبيائه وأوليائه بالرزق الكريم ، كما في قوله : ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤] وغيرها.

وقوله ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء: ٣١] .

قال ابن جرير : وأما المدخل الكريم فهو الطيب الحسن المكرم بنفي الآفات والعاهات عنه ، وبارتفاع الهموم والأحزان ودخول الكدر في عيش من دخله فلذلك سماه الله كريمًا اهـ [3].

وفي سؤال موسى ﷺ ربه عن أعلى أهل الجنة منزلاً قال سبحانه : «أولئك الذين أردتُّ غرستُ كرامتَهم بيدي وختمتُ عليها، فلم تر عينٌ

---

(١) في «اللسان» (٥/ ٣٨٦٣) : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧] . أى : يُحمدُ ما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة.

(٢) « التفسير » (١٧/ ٢٢٤) .

(٣) « التفسير » (٥/ ٣٠)

ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر» . قال : ومصداقه في كتاب الله عز وجل ﴿ فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِي لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جزاءً ﴾ [السجدة:١٧] (٤) .

❋ ❋ ❋

(٤) رواه مسلم (١٧٦/١) عن المغيرة بن شبعة . قال النووي : أما أردت : فبضم التاء ، ومعناه : اخترت واصطفيت.

وأما غرست كرامتهم بيدي إلى آخره ، فمعناه : اصطفيتهم وتوليتهم فلا يتطرق إلى كرامتهم تغير ! وفي آخر الكلام حذف اختصر للعلم به تقديره : ولم يخطر على قلب بشر ما أكرمتهم به وأعددته لهم اهـ (شرح مسلم (٤٦/٣).

الرقيبُ
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٥٢)

* **المعنى اللغوي :**

قال الجوهري : الرقيب الحافظ ، والرقيب المنتظر . تقول : رَقَبتُ الشيء أرْقُبُهُ رُقُوبًا ، ورِقْبَةً ورِقبانًا بالكسر فيهما ، إذا رصدته [(١)].

والتَّرَقُّب : الانتظار ، وكذلك الارتقاب ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ [طه: ٩٤] ، معناه : لم تنتظر قولي ، والتَّرقُّب : تَنظُّرُ وتوقع شيء .

وراقب الله تعالى في أمره أي خافه والرقيب فعيل بمعني فاعل ، كعليم بمعنى عالم [(٢)].

* **وروده في القرآن الكريم :**

ورد هذا الاسم ثلاث مرات.

في قوله تعالى: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧] . وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]. وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٥٢] .

---

(١) « الصحاح » (١/١٣٨) .

(٢) « اشتقاق الأسماء » (ص ١٢٨) ، « اللسان » (٣/١٦٩٩ - ١٧٠٠).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١] يعني بذلك تعالى ذكره إن الله لم يَزَلْ عليكم رقيبًا ، ويعني بقوله : (عليكم) ، على الناس الذين قال لهم جل ثناؤه ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١] .

قال : ويعني بقوله (رقيبًا) : حفيظًا محصيًا عليكم أعمالكم ، متفقدًا رعايتكم حرمة أرحامكم، وصلتكم إياها ، وقطعكموها وتضييعكم حرمتها [١].

وقال في قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢] : وكان الله على كل شيء ما أحل لك وحرم عليك، وغير ذلك من الأشياء كلها حفيظًا لا يعزب عنه علم شيء من ذلك ، ولا يؤده حفظ ذلك كله.

حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي حفيظًا ، في قول الحسن وقتادة [٢].

وقال الزجاج : (الرقيب) هو الحافظ الذي لا يغيب عمًا يحفظه . يقال : رَقَبتُ الشيءَ أرقُبهُ رِقبة ، وقال الله تعالى ذكره ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] [٣].

قال الخطابي بعد أن نقل قول الزجاج: وهو (أي الرقيب) في نعوت الآدميين المُوَكَّلُ بحفظ الشيء، والمترصِّد له، المتحرِّزُ عن الغفلة فيه [٤].

---

(١) « التفسير (٤/ ١٥٢ ـ ١٥٣) ، وانظر (٧/ ٩٠).

(٢) « التفسير » (٢٢/ ٢٤ ـ ٢٥) ، والأثر الذي ذكره عن قتادة سنده حسن ، واختار هذا المعنى البيهقي في « الاعتقاد » (ص٦٠).

(٣) « تفسير الأسماء » (ص٥١).

(٤) « شأن الدعاء » (ص٧١ ـ ٧٢).

قال الحليمي : (الرقيب) وهو الذي لا يغفل عما خلق فيلحقه نقصٌ ، أو يدخل خلل من قِبَلِ غفلته عنه [1].

وفي المقصد : (الرقيب) هو العليم الحفيظ ، فمن راعى الشيء حتى لم يغفل عنه ، ولاحظه ملاحظةً لازمة دائمة ، لزومًا لو عرفه الممنوع عنه لما أقدم عليه ، سُمِّيَ رقيبًا ، وكأنه يرجع إلى العلم والحفظ، ولكن باعتبار كونه لازمًا دائمًا وبالإضافة إلى ممنوع عنه ، محروس عن التناول [2].

قال ابن الحصار : (الرقيب) المراعي أحوال المرقوب ، الحافظ له جملة وتفصيلاً ، المحصي لجميع أحواله.

وذلك راجع إلى العلم والمشاهدة ، وهو الإدراك والإحصاء ، وهو عَدُّ ما يَدِقُّ ويجلُّ من أقواله وأفعاله ، وحركاته وسكناته ، وسائر أحواله وتصرفاته ، ومراعاة وجوده وعدمه ، وحياته وموته.

فهو إذًا يتضمن صفات الذات بمتعلقات مخصوصةٍ من الأفعال اهـ[3].

وفي النونية لابن القيم :

وهو الرقيب على الخواطر واللوا   حظِ كيفَ بالأفعالِ بالأركانِ [4]

وقال السعدي : (الرقيب) المطَّلع على ما أكنته الصدور ، القائم

---

(١) « المنهاج » (٢٠٦/١) ، ذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، وتابعه البيهقي على ذلك في «الأسماء» انظر : (ص٩٩).

(٢) « المقصد الأسنى » (ص٧٤).

(٣) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٧٥ ب)

(٤) « النونية » (٢٢٨/٢).

على كل نفس بما كسبت ، الذي حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير [١].

* آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ ـ يجب على كل مكلف أن يعلم أن الله جل شأنه هو الرقيب على عباده ، الذي يراقب حركاتهم وسكناتهم ، وأقوالهم وأفعالهم بل ما يجول في قلوبهم وخواطرهم ، لا يخرج أحدٌ من خلقه عن ذلك قال سبحانه ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٥] . وقال ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧].

قال القرطبي : ورقيب بمعنى راقِب ، فهو من صفات ذاته ، راجعة إلى العلم والسمع والبصر ، فإن الله تعالى رقيب على الأشياء بعلمه المقدس عن مباشرة النسيان.

ورقيب للمبصرات ببصره الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، ورقيب للمسموعات بسمعه المُدرِك لكل حركة وكلام ، فهو سبحانه رقيب عليها بهذه الصفات ، تحت رِقبته [٢] الكليات والجزئيات ، وجميع الخفيات في الأرضين والسماوات ، ولا خفي عنده بل جميع الموجودات كلها على نمطٍ واحدٍ في أنها تحت رِقبته التي هي من صفته اهـ [٣].

فمن كان لذلك ملاحظًا غير غافل عنه ، راقب تصرفاته ، ومعاملاته وعباداته ، وسائر حياته ، وفي ذلك صلاح دنياه وآخرته ، بل بلوغه أعلى درجات الإيمان كما جاء في حديث جبريل عليه السلام عندما سأل

---

(١) « تيسير الكريم » (٥/ ١ - ٣).

(٢) في الأصل : رقيه ، ولا معنى لها هنا .

(٣) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٧٤ ب).

النبي ﷺ عن الإحسان فأجابه : « **أن تعبدَ الله كأنك تراهُ ، فإن لم تكن تراهُ فإنه يراك** »[1].

قال ابن القيم : « المراقبة » دوام علم العبد ، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه.

فاستدامته لهذا العلم واليقين : هي المراقبة، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيبٌ عليه ، ناظرٌ إليه ، سامعٌ لقوله ، وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نَفَس وكل طرفة عين .

قال : و « المراقبة » هي التعبد باسمه (الرقيب) ، الحفيظ ، العليم، السميع ، البصير ».

فمن عقل هذه الأسماء ، وتعبَّد بمقتضاها ، حصلت له المراقبة ، والله أعلم[2].

نموذج للمراقبة :

٢ ـ إذا فرغ العبد من فريضة الصبح ، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعةً لمشارطة نفسه فيقول للنفس : مالي بضاعة إلا العمر ، فإذا فني منِّي رأس المال وقع اليأس من التجارة وطلب الربح .

وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه ، وأخَّرَ أجلي وأنعم عليَّ به ، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يُرجِعني إلى الدنيا حتى أعمل صالحًا.

فاحسبي يا نفس أنك قد تُوفيت ثم رُددت ، فإياكِ أن تُضيعي هذا اليوم[3].

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٧) وانظر كلام النووي عليه في (ص٢٣٩) من هذا الجزء .

(٢) « مدارج السالكين » (٢/ ٦٥ ـ ٦٦) باختصار.

(٣) من « مختصر منهاج القاصدين » (ص ٣٩٨).

٣ ـ وينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل[١] هل حَرَّكه عليه هوى النفس ، أو المحرِّك له هـو الله تعـالى خاصة ؟ فإن كان الله تعالى أمضاه ، وإلا تركه ، وهذا هو الإخلاص.

قال الحسن : رحم الله عبدًا وقف عند همه ، فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر.

فهذه مراقبة العبد في الطاعة ، وهو أن يكون مخلصًا فيها .

ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع ، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب ، والشكر على النعم ، فإنه لا يخلو من نعمةٍ لا بد له من الصبر عليها ، وكل ذلك لا يخلو من المراقبة[٢].

٤ ـ المراقبة تثمر السعادة والانشراح وقرّة العين:

لا شك أن المراقبة تحتاج إلى حضور القلب بين يدي الله سبحانه ، وعدم الانشغال عنه ، سواء في العبادة أو خارجها ، وإلى امتلاء القلب بعظمة الله عز وجل ومحبته.

وهذا القرب والدنو من الله تعالى يبث في القلب سروراً عظيمًا .

قال ابن القيم : فإن سرور القلب بالله وفرحه به ، وقرّة العين به ، لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا ألبتة ، وليس له نظر يُقاس به ، وهو حالٌ من أحوال أهل الجنة ، حتى قال بعض العارفين : إنه لتمرٌّ بي أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنهم لفي عيشٍ طيب .

ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عز وجل ،

---

(١) وبعد العمل ، كما قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر : ١٨] فكرر الأمر بالتقوى قبل العمل وبعده.

(٢) « المصدر السابق » (ص ٤٠٠).

وبذل الجهد في طلبه ، وابتغاء مرضاته . ومن لم يجد هذا السرور ، ولا شيئًا منه فَليتَّهم إيمانه وأعماله ، فإن للإيمان حلاوة من لم يذقها فليرجع وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان.

وقد ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته ، فذكر الذوق والوجد ، وعلقه بالإيمان فقال : « **ذَاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَنْ رَضِيَ بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد رسولاً** »[1].

وقال : « **ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوةَ الإيمان : مَنْ كان اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما ، ومَنْ كان يحبُّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله ، ومن يَكرَهُ أنّ يعودَ في الكُفْرَ ـ بعد إذ أنقذه الله منه ـ كما يكرهُ أنْ يُلْقى في النار** »[2].

قال وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ يقول : إذا لم تجد للعمل حلاوةً في قلبك وانشراحًا فاتهمه ، فإن الرب تعالى شكور.

يعني أنه لا بد أن يُثيب العامل على عمله في الدنيا ، من حلاوة يجدها في قلبه ، وقوة انشراح وقرّة عين ، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول[3] .

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٠٨) ومسلم (١/ ٦٢) عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١/ ٦٠) ، (١٢/ ٣١٥) ، ومسلم (١/ ٦٦) عن أيوب عن أبي قلابة عن أنس مرفوعًا به .

ورواه البخاري (١/ ٧٢) ، (١٠/ ٤٦٣) ومسلم (١/ ٦٦) عن شعبة عن قتادة عن أنس مرفوعًا به.

ورواه مسلم (١/ ٦٧) عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مرفوعًا به ، بنحو حديثهم غير أنه قال « من أن يرجع يهوديًا أو نصرانيًا ».

(٣) علّق محمد الفقي هنا فقال : ذلك أن « الثواب » هو الراجع للعامل على عمله ، فللأعمال عاقبة تعود على صاحبها وتتصل بحياته وجميع شئونه ، فالصلاة تنهاه عن الفحشاء =

والقصد : أن السرور بالله وقربه ، وقرّة العين به ، تبعثُ على الازدياد من طاعته ، وتحثُّ على الجدِّ في السير إليه اهـ [1].

* * *

= والمنكر ، وتهذب الأخلاق وتربي أعلى تربية يحبها الربُّ سبحانه ، وهكذا الصيام يقوى العزيمة ويمكِّن للنفس اللوامة ، وللبصيرة أن تشرق فيرى الصراط السَّوي فيكون من المتقين ، وهكذا كل الأعمال الصالحة ، فإن لها ثوابًا يصلح الشئون كلها هنا ، فتسعد به الحياة في الأسرة والمجتمع.

كما أن أعمال السوء لها كذلك (أي لها عاقبة سيئة على صاحبها) ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ ﴾ [يونس: ٢٦] و ﴿ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ ﴾ [الروم: ١٠] اهـ .

(١) « مدارج السالكين » (٢/ ٦٨).

الواسع
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٥٣)

*** المعنى اللغوي :**

السَّعَةُ نقيضُ الضيق ، وقد وَسِعَهُ يَسَعه ويَسِعَه سَعَةً ، ووَسُعَ بالضم وساعَةً فهو وسِيعٌ .

وشيءٌ وسِيعٌ وأُسِيعٌ : واسِعٌ [(١)].

قال الجوهري : والوُسْعُ والسَعَةُ : الجِدَةُ والطاقة ، قال تعالى : ﴿ **لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ** ﴾ [الطلاق: ٧] ، أي : على قدر غناه وسعته ، والهاء عوض من الواو.

وأَوسَعَ الرجل ، إذا صار ذا سعةٍ وغنى [(٢)].

قال الزّجّاج : أصل السَعةُ في الكلام : كثرةُ أجزاء الشيء ، يقال : إناءٌ واسع ، وبيتٌ واسع ، ثم قد يستعمل في الغِنى ، يقال : فلانٌ يعطى من سعَةٍ ، يراد من غنًى وجده ، وفلانٌ واسعُ الرحلِ وهو الغني [(٣)].

وقال الراغب : السَّعة تقال في : الأمكنة ، وفي الحال ، وفي الفعل

---

(١) « النهاية » (٥/ ١٨٤) ، « اللسان » (٦/ ٤٨٣٥) ، وانظر : «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص٧٢).

(٢) « الصحاح » (٣/ ١٢٩٨).

(٣) «تفسير الأسماء » (ص ٥١).

كالقدرة والجود ، ونحو ذلك [1].

*** وروده في القرآن الكريم :**

جاء في القرآن تسع مرات منها :

قوله تعالى : ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ١١٥].

وقوله : ﴿ **وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقوله : ﴿ **وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٨]

وقوله : ﴿ **وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء: ١٣٠].

وقوله : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ [النجم: ٣٢].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ أي : جواد يَسع لما يُسأل [2].

قال ابن جرير : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ : يعني جل ثناؤه بقوله (واسع) يَسَعُ خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير[3]. وقال : ﴿ **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ : والله واسعٌ بفضله فينعم به على من أحب ، ويريد به من يشاء ، (عليم) بمن هو أهل لملكه الذي يؤتيه وفضله الذي يعطيه، فيعطيه ذلك لعلمه به وبأنه لما أعطاه أهل إما للإصلاح به ، وإما لأن ينتفع هو به [4] .

---

(١) « المفردات » (ص٥٢٣).

(٢) « مجاز القرآن » (١/ ٥١).

(٣) « جامع البيان » (١/ ٤٠٣) ، وقال مثله ابن كثير (١/ ١٦٠).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٣٨١).

قال الخطابي : (الواسع) هو الغني الذي وسع غناه مَفَاقر عباده ، ووسع رزقه جميع خلقه ، والسعة في كلام العرب : الغنى ، ويقال : الله يعطي عن سعة [1].

قال الحليمي : (الواسع) ومعناه الكثير مقدوراته ومعلوماته ، المنبسط فضله ورحمته ، وهذا تنزيهٌ له من النقص والعلة ، واعتراف له بأنه لا يعجزه شيء ولا يخفى عليه شيء ورحمته وسعت كل شيء [2].

وفي المقصد : (الواسع) مشتق من السَّعة ، والسعة تضاف مرةً إلى العلم إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة ، وتضاف أخرى إلى الإحسان وبسط النعم ، وكيفما قدر وعلى أي شيءٍ نزل.

فالواسع المطلق هو الله تعالى ، لأنه إنْ نظر إلى علمه فلا ساحة[3] لبحر معلوماته ، بل تنفد البحار لو كانت مداداً لكلماته ، وإنْ نظر إلى إحسانه ونعمه ، فلا نهاية لمقدوراته ، وكل سعة وإن عظمت فتنتهي إلى طرف ، والذي لا ينتهي إلى طرف هو أحقّ باسم السعةِ ، والله تعالى هو الواسع المطلق ، لأن كل واسع بالإضافة إلى ما هو أوسع منه ضيق ، وكل سعة تنتهى إلى طرف ، فالزيادة عليها مُتَصورة ، وما لا نهايةَ له ولا طرف فلا يُتصور عليه زيادة [4].

وقال الأصبهاني : ومن أسمائه (الواسع) : وسعت رحمتُه الخلقَ

---

(١) « شأن الدعاء » (ص٧٢) ، وبنحوه في «النهاية» (٥/ ١٨٤) وقال البغوي (١/ ٩٩) : أي غني يعطي من السعة.

(٢) « المنهاج » (١/ ١٩٨) ذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، وكذا البيهقي في «الأسماء» (ص٥٩).

(٣) كذا بالأصل ، ولعلها : فلا ساحل لبحر معلوماته . . .

(٤) « المقصد الأسنى » (ص٧٥).

أجمعين ، وقيل : وسع رزقه الخلق أجمعين ، لا تجد أحدًا إلا وهو يأكل رزقه ، ولا يقدرُ أن يأكلَ غيرَ ما رُزق [١].

وقال القرطبي : أي يوسع على عباده في دينهم ، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم [٢].

قال السعدي : الواسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها ، بحيث لا يحصي أحدٌ ثناءً عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، واسع العظمة والسلطان والملك ، واسع الفضل والإحسان ، عظيم الجود والكرم [٣].

قال الزجاج : فإن قال قائل : فإذا كان معنى الواسع عندك والغني سواء فما الوجه في تكرارهما ؟

قلنا له : قد مضى القول في هذا في [٤] شرح قولنا عليم وبصير [٥]، وما جاء في كلام العرب من اختلاف الألفاظ واتفاق المعاني اتساعًا وتبسيطًا في الكلام ، فبني لمعنى واحد من صفاته لفظتان ليكون ذلك أبلغ في المدح وأكمل في الوصف . ومع ذلك فالواسع قد يتضمن من المعنى ما لا يتضمنه الغني ، ويتصرف فيما لا يتصرف في الغني كقولنا : يا واسع الفضل ، يا واسع الرحمة ، وكقوله عز وجل ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

---

(١) « الحجة » (ق٢٣ب).

(٢) « التفسير » (٢/ ٨٤) وأحال الكلام عليه إلى « الكتاب الاسنى » ولم أجده في الجزء الثاني الذي عندي ، ولعله في الجزء الأول.

(٣) « تيسير الكريم » (٥/ ٣٠٥).

(٤) ليست في الأصل ويقتضيها السياق.

(٥) انظر : (ص٦٦) من « اشتقاق أسماء الله » .

أي عمَّت رحمتك كل شيء ، وأحاط علمك بكل شيء [1].

* آثار الإيمان بهذا الإسم :

١ ـ الله سبحانه وتعالى واسع في علمه ، واسع في حكمته ، فلو كان ماء البحر مدادًا للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمته ، وآياته وعلمه وشرعه وقدره ، لنفد ماء البحر قبل أن ينفد ما عند الله من علم وحكمة وآيات ، ولو مددنا البحر بمثل ما فيه ، كما قال تعالى : ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** ﴾ [الكهف: ١٠٩] .

وقال سبحانه : ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [لقمان: ٢٧] . أي لو أن أشجار الأرض كانت أقلامًا ، والبحار مدادًا ، وسبعة بحارٍ مثلها مدادًا، وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات في الله لنفدت البحار وتكسرت الأقلام ، ولم تنفد كلمات الله جلَّ شأنه.

وقد نظم ذلك ابن القيم بقوله :

كلماته جَلَّت عن الإحصاءِ والتـ ـعداد بل عن حصر ذي الحسبانِ
لو أنَّ أشجارَ البلادِ جميعها الأقلام تكتبها بكلِّ بنانِ
والبحر تلقى فيه سبعة أبحر لكتابة الكلمات كل زمانِ
نَفَدَت ولم تَنفد بها كلماته ليس الكلام من الإله بفانِ [2]

٢ ـ تقدم قول الحليمي رحمه الله أن (الواسع) معناه الكثير مقدوراته ومعلوماته.

(١) المصدر السابق (ص٧٣).

(٢) « النونية » (٢/٢١٧).

فقد جاء اسمه (الواسع) مقترنًا بـ (العليم) في سبع آيات من كتاب الله ، فالله سبحانه واسع العطاء ، كثير الإفضال على خلقه ، والخلق كلهم يتقلبون في رحمته وفضله ، يعطي من يشاء ويمنع ، ويخفض من يشاء ويرفع ، بعلمه الذي وسع كل شيء وحكمته .

وقد ذكر الله اعتراض بني اسرائيل على نبيهم حين قال لهم : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ** ﴾ [البقرة: ٢٤٧] . أي كيف يكون له الملك وليس من سبط النبوة و لا المُلك [١]، ونحن أحق بالملك منه ، ثم هو ليس من الأغنياء أصحاب الأموال والسعة في الرزق ليُفضَّل علينا [٢]، فَردَّ عليهم نبيهم عليه الصلاة والسلام بقوله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ** ﴾ [البقرة : ٢٤٧] أي : أن الله سبحانه قد زاده بسطةً وسعةً في العلم والجسم ، وهما خيرٌ من الملك والمال ،ثم ذكَّرهم بأنه مختار من قِبل الله سبحانه ﴿ **وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة : ٢٤٧].

قال ابن جرير : يعني تعالى بذلك : أن الملك لله وبيده دون غيره «يؤتيه» يقول : يؤتي ذلك من يشاء فيضعه عنده ويخصه به ويمنحه من أحب من خلقه ، يقول فلا تستنكروا يا معشر الملأ من بني إسرائيل أن يبعث الله طالوت ملكًا عليكم ، وإن لم يكن من أهل بيت المملكة ، فإن الملك ليس بميراث عن الآباء والأسلاف ، ولكنه بيد الله يعطيه من يشاء من خلقه ، فلا تتخيروا على الله .

وأما قوله ﴿ **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ فإنه يعني بذلك : والله واسع بفضله

---

(١) لأنه من سبط بنيامين بن يعقوب «ابن جرير» (٢/ ٣٧٨).

(٢) ولا يخفى أن في كلامهم هذا ردٌّ لكلام الله سبحانه ونبيه عليه الصلاة والسلام.

فينعم به على من أحب ، ويريد به من يشاء ، عليم بمن هو أهل لملكه الذي يؤتيه ، وفضله الذي يعطيه ، فيعطيه ذلك لعلمه به ، وبأنه لما أعطاه أهل ، إما للإصلاح به ، وإما لأن ينتفع هو به اهـ [1].

٣ ـ تقدم قول القرطبي في (الواسع) أنه الذي يُوسع على عباده في دينهم ، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم.

ومصداق ذلك من كتاب الله قوله سبحانه : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

وقوله : ﴿ **لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٣٣] .

وقوله : ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

وقوله : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء: ٢٨].

وقوله : ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [المائدة: ٦] .

وقال ﷺ : « **إن هذا الدين يسر ولن يُشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه ...** »[2].

فكل ما كلفنا الله سبحانه به من العبادات والشرائع هو مما تطيقه النفوس على وجه العموم ، ثم خفف الله عن المريض والمسافر ،

---

(١) « جامع البيان » (٢/ ٣٨١).

(٢) رواه البخاري (١/ ٩٣) والنسائي (٨/ ١٢١ ـ ١٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهذا الحديث يدل على أن الدين كله يُسر ، في عباداته ومعاملاته وأحكامه ليس فيه صعوبة ولا تكليف ما لا يطاق ، وليس معنى الحديث ما يفهمه كثير من العامة من ترك الالتزام بالدين وواجباته ، وارتكاب ما حرم الله ثم إذا ذُكر بضرورة الالتزام بدين الله قال متفلتًا من ذلك: الدين يسر !!

والمسن والفقير ، والمرأة والصغير ، وغيرهم من أصحاب الأعذار ، كل ذلك تخفيفًا وتوسعةً على عباده ، ورفعًا للضيق والحرج عنهم.

وأضرب على ذلك مثالاً مناسبًا لما نسمعه هذه الأيام من اتجاه الغرب لإباحة الطلاق بعد أن حرموه على أنفسهم وضيقوا ما وسع الله عليهم.

قال الله تعالى في كتابه العزيز عن الزوجين ﴿ **وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء: ١٣٠] . قال ابن جرير : يغْن الله الزوج والمرأة المطلقة من سعة فضله ، أما هذه فبزوج هو أصلح لها من المطلق الأول ، أو برزق واسع وعصمة ، وأما هذا فبرزق واسع وزوجة هي أصلح له من المطلقة أو عِفَّة ، وكان الله واسعًا يعني :

وكان الله واسعًا لهما في رزقه إياهما وغيرهما من خلقه ، حكيمًا فيما قضى بينه وبينها من الفرقة والطلاق ، وسائر المعاني التي عرفناها من الحكم بينهما في هذه الآيات وغيرها ، وفي ذلك من أحكامه وتدبيره وقضاياه في خلقه اهـ [1].

٤ ـ إن الله واسع المغفرة ، ومن سعة مغفرته أنه يغفر لكل من تاب وأناب مهما بلغت ذنوبه وخطاياه ، قال عزَّ من قائل ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر: ٥٣] .

وقال حملة العرش عن ربهم تبارك وتعالى ﴿ **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** ﴾ [غافر: ٧][2].

* * *

(١) « جامع البيان » (٥/ ٤٠٢) ، وبنحوه ابن كثير (١/ ٥٦٤).

(٢) وقد تكلمنا عن هاتين الصفتين (الرحمة والمغفرة) في أسمائه : الرحمن الرحيم والغفور، بما يغني عن إعادته هنا.

الرَّب
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٥٤)

*** المعنى اللغوي :**

قال الزجاجي : الرب : المصلح للشيء ، يقال : رَبَبتُ الشيء أَرُبُّه ربًا وربابةً ، إذا أصلحته وقمت عليه ، ورب الشيء مالكه.

ومصدر الرب : الربوبية ، وكل من ملك شيئًا فهو ربه ، يقال : هذا ربُّ الدار ورب الضيعة ، ولا يقال : الرب معرفًا بالألف واللام مطلقًا ، إلا لله عز وجل لأنه مالك كل شيء [١].

وقال الجوهري : والرَّباني : المتَألِّهُ العارف بالله تعالى ، وقال سبحانه : ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

ورَبَبْتُ القوم : سُسْتُهُم ، أي كنت فوقهم ، قال أبو نصر : وهو من الرُّبُوبِيَّة ، ومنه قول صفوان : لأن يَرُبَّني رجلٌ من قريش أحبُّ إليَّ من أن يَرُبُني رجلٌ من هوازن.

وربَّ الضيعةَ أي : أصلحها وأتمها ، وربَّ فلان ولده يَرُبُّهُ ربًا ، وربَّبهُ وتَربَّبهُ بمعنى ، أي ؛ رباه.

والمَربُوب : المُربَّى [٢].

---

(١) «اشتقاق أسماء الله» (ص٣٢ ـ ٣٣) وفي «الصحاح»:وقد قالوه (أي الرب) في الجاهلية للملِك.

(٢) « الصحاح » (١/ ١٣٠).

وقال ابن الأنباري [1] : «الرَّبُّ ينقسم على ثلاثة أقسام :

يكون الرب المالك ، ويكون الرب السيد المطاع ، قال الله تعالى : ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ [يوسف: ٤١] ، أي سيده .

ويكون الرب المصلح ، ربَّ الشيء إذا أصلحه» [2].

وقال الراغب : «الربُّ في الأصل التربية ، وهو إنشاءُ الشيءِ حالاً فحالاً إلى حدِّ التمام» [3].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد هذا الاسم في القرآن مرات كثيرة جدًا . أما عن وروده مفردًا ، فقد ورد في إحدى وخمسين ومئة مرة ، منها :

قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]

وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١].

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]

وقوله : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] .

---

(١) هو الإمام الحافظ اللغوي ذو الفنون ، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الأنباري ، المقرئ النحوي.

قال الخطيب : كان ابن الأنباري صدوقًا دينًا من أهل السنة .

قال الذهبي: له كتاب «الوقف والابتداء»، وكتاب «المشكل» و «غريب الحديث النبوي»، وغيرها . «تاريخ بغداد» (٣/ ١٨١ ـ ١٨٦) ، «السير» (١٥/ ٢٧٤)

(٢) «اللسان» (١٥٤٧/٣) ، وقد ذكر الطبري هذه الوجوه الثلاثة في تفسيره (٤٧/١ ـ ٤٨) ، والزجاجي (ص٣٢) و الخطابي في « شأن الدعاء » (ص ٩٩ ـ ١٠٠) والقرطبي في «الأسنى» (ورقة ٣٧٠ ب ٣٧١ أ) وزاد معنًى رابعًا وهو : المعبود.

(٢) « المفردات » (ص١٨٤).

وقوله : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

وقوله : ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: ٨] .

وقال : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] .

وقال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩].

وغيرها من الآيات الكثيرة .

*** المعنى في حق الله تعالى :**

قال الطبري بعد ذكره للوجوه الثلاثة التي تقدمت في معنى الرب : وقد يتصرف أيضًا معنى الرب في وجوه غير ذلك ، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة ، فربنا جلّ ثناؤه السيد الذي لا شبه له ولا مثل في سؤدده ، والمصلح في أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه ،و المالك الذي له الخلق والأمر [١].

قال ابن الأثير : الرب يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبِّر والمُربِّي والقيِّم والمُنعم ، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله تعالى ، وإذا أُطلق على غيره أُضيف ، فيقال : رب كذا [٢].

قال ابن كثير : والرب هو المالك المتصرف ، ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح ، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى.

ولا يستعمل الرب لغير الله ، بل بالإضافة ، تقول : رب الدار رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل [٣].

---

(١) « جامع البيان » (١/ ٤٨).

(٢) « النهاية » (١/ ١٧٩).

(٣) «التفسير»(١/ ٢٣)وانظر : «البغوي» (١/ ٢١) و« الاعتقاد» للبيهقي(ص٦٧) و«فتح القدير» للشوكاني (١/ ٢١).

وقال عبد الرحمن السعدي : (الرب) هو المربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم ، وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم ولهذا كثُر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل ، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة [1].

*** آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إن الله سبحانه هو الرب على الحقيقة ، فلا رب على الحقيقة سواه وهو رب الأرباب ومالك الملك ، وملك الملوك سبحانه وتعالى.

قال القرطبي : فالله سبحانه رب الأرباب ، ومعبود العُبَّاد ، يملك الممالك والملوك [2]،وجميع العباد ، وهو خالق ذلك ورازقه ، وكل ربٍّ سواه غير خالق ولا رازق ، وكل مخلوق فَمُمَلَّكٌ بعد أن لم يكن ، ومُنتَزَعٌ ذلك من يده ، وإنما يملك شيئًا دون شيء . وصفة الله مخالفةٌ لهذا المعنى ،فهذا الفرق بين صفات الخالق والمخلوقين.

فأما قول فرعون ـ لعنه الله ـ إذ قال : ﴿**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ**﴾ [النازعات: ٢٤] ، فإنه أراد أن يَستبدَّ بالربُوبيةِ العالية على قومه ، ويكون رب الأرباب فينازع الله في ربوبيته وملكه الأعلى ، ﴿**فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ**﴾ [النازعات: ٢٥] .

وقد قيل إن الرب مشتقٌّ من التربية فالله سبحانه مدبر لخلقه ومُربيهم ومُصلحهم وجابرهم والقائم بأمورهم ، قيوم الدنيا والآخرة ، كل شيء خَلْقه ، وكل مذكور سواه عبدُهُ وهو ربُّه ، لا يصلح إلا بتدبيره ، ولا يقوم إلا بأمره، ولا يَرُبُّه سواه ، ومنه قوله تعالى : ﴿**وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي**

---

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٥/٢٩٨).

(٢) في « الكتاب الأسنى » : المملوك ، و لعل الصواب ما أثبتناه.

حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣] ، فسمّى ولد الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها .

فعلى أنه مدبرٌ لخلقه ومُربِّيهم ومصلحهم وجابرهم يكون صفة فعلٍ ، وعلى أن الربَّ المالك والسيد يكون صفة ذات اهـ [١].

ويُبينُ الحليمي أن الله سبحانه يرعى العباد ويربيهم في أحوالهم وأطوارهم المختلفة فيقول : (الرب) وهو المبلغ كل ما أبدع حد كماله الذي قدره له ، وهو يسلُّ النُّطفة من الصُّلب ويجعلها علقة ، والعلقة مضغة ، ثم يجعل المضغة عظامًا ، ثم يكسو العظام لحمًا ، ثم يخلق في البدن الروح ويخرجه خلقًا آخر وهو صغير ضعيف ، فلا يزال يُنميه ويُنشئه حتى يجعله رجلاً ، ويكون في بدء أمره شابًا ثم يجعله كهلاً ثم شيخًا . وهكذا كل شيء خلقه فهو القائم عليه به ، والمبلغ إياه الحد الذي وصفه وجعله نهاية ومقدارًا له [٢].

٢ ـ فمن عرف ذلك لم يطلب غير الله تعالى له ربًا وإلهًا ، بل رضى به سبحانه وتعالى ربًا ، ومن كانت هذه صفته ذاق طعم الإيمان وحلاوته، كما قال ﷺ : « **ذَاقَ طعم الإِيمان من رضي بالله ربًا وبالإِسلام دينًا وبمحمد رسولاً** » [٣].

قال القاضي عياض رحمه الله : معنى الحديث صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه ، لأن رضاه بالمذكورات دليلٌ لثبوت معرفته ، ونفاذ بصيرته ، ومخالطة بشاشته قلبه ، لأن من رضي أمرًا سهل عليه،

---

(١) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٧١ أ ـ ب)

(٢) « المنهاج في شعب الإيمان » (١/ ٢٠٥) وقد ذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، وكذا البيهقي في « الأسماء » (ص٩٤).

(٣) رواه أحمد (١/ ٢٠٨) ومسلم (١/ ٦٢) والترمذي (٥/ ١٤) عن العباس بن عبد المطلب.

فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى ولذّت له، والله أعلم [1].

٣ ـ وقد تكلم العلامة ابن القيم عن ارتباط اسم (الرب) باسم (الله) و(الرحمن) كلامًا جيدًا حيث يقول :

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة ، وهي (الله ، والرب ، والرحمن) كيف نشأ عنها الخلق ، والأمر ، والثواب ، والعقاب ؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم ؟ فلها الجمع ، ولها الفرق .

فاسم (الرب) له الجمع الجامع لجميع المخلوقات . فهو رب كل شيء وخالقه ، والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته ، وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته ، وتحت قهره ، فاجتمعوا بصفة الربوبية ، وافترقوا بصفة الإلهية ، فالّهه وحده السعداء ، وأقروا له طوعًا بأنه الله الذي لا إله إلا هو ، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل ، والرجاء والخوف ، والحب والإنابة والإخبات والخشية ، والتذلل والخضوع إلا له .

وهنا افترق الناس ، وصاروا فريقين : فريقًا مشركين في السعير ، وفريقًا موحدين في الجنة .

فالإلهية هي التي فرقتهم ، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم .

فالدين والشرع ، والأمر والنهي ـ مظهره ، وقيامه ـ من صفة الإلهية . والخلق والإيجاد والتدبير والفعل : من صفة الربوبية . والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار : من صفة الملك . وهو ملك يوم الدين . فأمرهم بإلهيته ، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته .

---

(١) « شرح مسلم » للنووي (٢/ ٢).

وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله . وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة : فهي التعلق ، والسبب الذي بين الله وبين عباده.

فالتأليه منهم له ، والربوبية منه لهم . والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده ، بها أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه . وبها هداهم . وبها أسكنهم دار ثوابه . وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم . فبينهم وبينه سبب العبودية . وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته.

فـ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] مطابق لقوله : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣] فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها . فوسع كل شيء برحمته وربوبيته ، مع أن في كونه ربًا للعالمين ما يدل على علوه على خلقه ، وكونه فوق كل شيء ، كما يأتي بيانه إن شاء الله اهـ [(١)].

٤ ـ قال القرطبي رحمه الله : فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لاربَّ له على الحقيقة إلا الله وحده ، وأن يحسن تربية من جُعلت تربيته إليه ، فيقوم بأمره ومصالحه كما قام الحقُّ فَيُرَقِّيه شيئًا شيئًا وطورًا طورًا ، ويحفظه ما استطاع جهده ، كما حفظه الله .

قال ابن عباس وقد سئل عن الرباني فقال : هو الذي يعلم الناس بصغار العلم قبل كباره [(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤ ـ ٣٥)

(٢) لم أجده ، وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٢٢٣): وأولى الأقوال عندي بالصواب في الربانيين أنهم جمع رباني ، وأن الرباني المنسوب إلى الربان الذي يرب الناس ، وهو الذي يصلح أمورهم ويقوم بها ، يقال منه : رب أمري فلان فهو يربه ربًا وهو رابُّه ، فإذا أريد به =

فالعالم الرَّباني هو الذي يحقق علم الربوبية وربّى الناس بالعلم على مقدار ما يحتملوه ، فبذل لخواصِّهم جوهره ومكنونه ،وبذل لعوامِّهم ما ينالون به فضل الله ويدركونه اهـ[1].

(٥) ٤ ـ وقد دعا الأنبياء والصالحون الله سبحانه وتعالى بهذا الاسم وتضرعوا به إليه .

فدعا آدم عليه السلام وحواء به كما في قوله تعالى : ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] .

ونوح عليه السلام في دعائه ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨] .

وإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] .

وموسى عليه الصلاة والسلام ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف :١٥١] .

وعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٤] .

والرسول ﷺ وأمته في قوله :﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا

= المبالغة في مدحه قيل هو : ربان ، كما يقال هو نعسان من قولهم : نعس ينعس اهـ مختصراً .

(١) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٧١ ب).

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] .

وغير ذلك في كتاب الله كثير لا يحصى.

٦ ـ وقد نهى النبي ﷺ العبد أن يقول لسيده (ربي) فقال : « **لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وَضِّىء ربك ، وليقل : سيدي مولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدي أمَتي ، وليقُل : فتاي وفتاتي وغلامي** » [1].

قال الحافظ ابن حجر : وفيه نهي العبد أن يقول لسيده ربي ، وكذلك نهي غيره فلا يقول له أحد ربك ، ويدخل في ذلك أن يقول السيد ذلك عن نفسه ، فإنه قد يقول لعبده اسق ربك ، فيضع الظاهر موضع الضمير على سبيل التعظيم لنفسه.

والسبب في النهي أن حقيقة الربوبية لله تعالى ، لأن الرب هو المالك القائم بالشيء ، فلا توجد حقيقة ذلك إلا لله تعالى . قال الخطابي : سبب المنع أن الإنسان مربوب متعبد بإخلاص التوحيد لله ، وترك الإشراك معه ، فكره له المضاهاة في الاسم لئلا يدخل في معنى الشرك ، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد ، فأما ما لا تعبد عليه من سائر الحيوانات والجمادات فلا يكره إطلاق ذلك عليه عند الإضافة كقوله : رب الدار ورب الثوب.

قال ابن بطال : لا يجوز أن يقال لأحد غير الله رب ، كما لا يجوز أن يقال له إله .

وتعقبه الحافظ بقوله : والذي يختص بالله تعالى إطلاق الرب بلا إضافة ، أما مع الإضافة فيجوز إطلاقه كما في قوله تعالى حكاية عن

---

(١) رواه البخاري (٥/ ١٧٧) ومسلم (٤/ ١٧٦٥) عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه به.

يوسف عليه السلام ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾ [يوسف: ٤٢] ، وقوله : ﴿**ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ**﴾ [يوسف: ٥٠] ، وقوله عليه الصلاة والسلام في أشراط الساعة «**أن تلد الأمة ربها**» فدلَّ على أن النهى في ذلك محمول على الإطلاق ، ويحتمل أن يكون النهي للتنزيه ، وما ورد من ذلك فلبيان الجواز.

وقيل هو مخصوص بغير النبي ﷺ ولا يرد ما في القرآن ، أو المراد النهي عن الإكثار من ذلك واتخاذ استعمال هذه اللفظة عادة ، وليس المراد النهي عن ذكرها في الجملة اهـ [١].

قلت : وترك استعمال هذه الكلمة لورود النهي عنها أسلم وأحوط ، والله أعلم .

* * *

(١) « الفتح (٥/١٧٩).

الودود

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٥٥)

*** المعنى اللغوي :**

الوُدُّ مصدرُ المودَّة .

قال ابن سيده : الودُّ الحبُّ يكون في جميع مداخل الخير ، عن أبي زيد .

وَوَدِدْتُ الشيء أَوَدُّ ، وهو من الأمنية .

قال الفرّاء هذا أفضل الكلام ، وقال بعضهم : وَدَدْتُ ويفعل منه يَوَدُّ لا غير .

ذكر هذا في قوله تعالى :﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ﴾ [البقرة: ٩٦]، أي يتمنى [١].

قال الجوهري : ودِدْتُ الرجل أَوَدُّه وُدًّا ، إذا أحببته ، والوُدُّ والوَدُّ والوِدُّ ، : المَوَدَّةُ ، تقول : بوُدِّي أن يكون كذا .

والوَدُودُ المحبُّ [٢].

قال الزجاج : (الودود) يجوز أن يكون فعولاً بمعنى فاعل، ويجوز أن يكون فعولاً بمعنى مفعول [٣].

(١) « اللسان » (٦/٤٧٩٣) ، ولم أجد كلام الفراء في « معاني القرآن » عند الآية المذكورة.

(٢) « الصحاح » (٢/٥٤٩).

(٣) « تفسير الأسماء » (ص٥٢).

قال ابن العربي : اتفق أهل اللغة على أن المودَّة هي المحبة [1].

وجمع بين المعنيين الراغب فقال : الودُّ محبة الشيء وتمني كونه ، ويستعمل في كل واحد من المعنيين ، على أن التمني يتضمَّن معنى الوُد، لأن التمني هو تشهي حصول ما تودُّه [2].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرتين ، الأولى في قوله تعالى ﴿**وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ**﴾ [هود: ٩٠] . والثانية في قوله تعالى ﴿**إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ**﴾ [البروج: ١٣، ١٤] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير : (ودود) يقول : ذو محبةٍ لمن أناب وتاب إليه يوده ويحبه [3].

وقال في قوله : ﴿**وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ**﴾ : يقول تعالى ذكره وهو ذو المغفرة لمن تاب إليه من ذنوبه ، وذو المحبةِ له [4].

قال الزجاجي : فيه قولان :

أحدهما : أنه فعولٌ بمعنى فاعل ، كقولك : غفورٌ بمعنى غافر ، وكما قالوا : رجلٌ صبورٌ بمعنى صابر ، وشكور بمعنى شاكر ، فيكون الودود في صفات الله عز وجل على هذا المذهب أنه : يودُّ عباده الصالحين ويحبهم .

---

(١) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٨٣ أ)

(٢) « المفردات » (ص٥١٦).

(٣) «جامع البيان » (١٢/ ٦٤).

(٤) المصدر السابق (٣٠/ ٨٩) ، ونقل معناه ابن كثير (٤/ ٤٩٦).

والودُّ والمودة والمحبة في المعنى سواء .

فالله عز وجل ودودٌ لأوليائه والصالحين من عباده وهو محبٌ لهم.

والقول الآخر : أنه فعولٌ بمعنى فعولٍ ، كما يقال : رجل هيوبٌ أي: مهيب، فتقديره: أنه عز وجل مودود ، أي : يوده عباده ويحبونه.

وهما وجهان جيدان.

وقد تأتي الصفة بالفعل لله عز وجل ولعبده فيقال : العبد شكور لله، أي يشكر نعمته ، والله عز وجل شكور للعبد أي : يشكر له عمله ، أي يجازيه على عمله ، والعبد تواب إلى الله من ذنبه ، والله توابٌ عليه أي : يقبل توبته ويعفو عنه اهـ [1].

وبنحوه قال الخطابي وزاد : وقد يكون معناه أن يُوَدِّدَهم إلى خلقه ، كقوله جل وعز : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾ [مريم: ٩٦] [2].

وقال الحليمي : وقد قيل : هو الواد لأهل طاعته ، أي الراضي عنهم بأعمالهم والمحسن إليهم لأجلها والمادح لهم بها [3].

وقد قيل : هو الودود بكثرة إحسانه ، أي المستحق لأن يود فيعبد ويحمد [4].

---

(١) « اشتقاق أسماء الله » (ص١٥٢).

(٢) « شأن الدعاء » (ص٧٤).

(٣) قلت : وهذا تأويل للصفة ؛ لأن المحبة غير الرضى والإحسان والمدح والثناء عند أهل السنة والجماعة ، فالمحبة صفة ثابتة لله تبارك وتعالى في الكتاب والسنة.

(٤) « المنهاج» (١/ ٢٠٦) ، وقد ذكر ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، وكذا البيهقي في «الأسماء» (ص١٠١) ، وفي «الاعتقاد» (ص٦٠) قال : ومحبة الله عباده إرادته رحمتهم ومدحهم ! وكذا أوَّله الغزالي بقوله في «المقصد» (ص ٧٦) : ودّه إرادته =

قال ابن القيم في النونية :

وهو الودود يُحبهم ويُحبه أحبابه والفضلُ للمنانِ
وهو الذي جعل المحبة في قلو بهم وجازاهم بحبٍ ثانِ
هذا هو الإحسان حقًا لا مُعا وضةً ولا لتوقع الشكرانِ
لكن يحب شَكورهم وشُكورهم لا لاحتياج منه للشكرانِ[1]

قال السعدي : (الودود) الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم ، ويحبونه فهو أحب إليه من كل شيء ، قد امتلأت قلوبهم من محبته ، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه ، وانجذبت أفئدتهم إليه ودًا وإخلاصًا وإنابة من جميع الوجوه [2].

* آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ ـ قال القرطبي : فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله سبحانه هو (الودود) على الإطلاق ، المحبّ لخلقه ، والمثني عليهم والمحسن إليهم اهـ [3].

فالله سبحانه وتعالى يحب من أطاعه ويبغض من عصاه . يحب التوابين والمتطهرين والصابرين والمتوكلين والمقسطين والمؤمنين والمتقين والمحسنين ، وجميع الطائعين . ويبغض ويكره المعتدين والمفسدين

= الكرامة والنعمة وإحسانه وإنعامه وهو منزه عن ميل المودة . . .

وابن الأثير في النهاية (٥/ ١٦٤): أي أنه يحب عباده الصالحين، بمعنى أنه يرضى عنهم.

والرازي في «الأسماء» (٢٨٢): ومعنى قولنا: إنه يحب عبيده أي يريد إيصال الخيرات لهم.

(١) « النونية » (٢/ ٢٣٠) ، وقوله : يحب شكورهم إلخ . الأول بفتح الشين اسم فاعل من شكر يشكر فهو شكور ، والثاني بضم الشين مصدر (الشارح).

(٢) « تيسير الكريم » (٥/ ٣٠٢).

(٣) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٨٤ ب).

والمسرفين والخائنين والمستكبرين والفاسقين والظالمين والكافرين ، ولا يحب كل مختال فخورٍ ، ولا كل خوانٍ كفور ، وهذا كله في كتابه العزيز .

فيجب على العبد أن يتبع ما يحبه الله ويرضاه ، ويتجنب ما يبغضه ولا يحبه .

يقول القرطبي في تتمة كلامه السابق : ثم يجب عليه أن يتودد إلى ربه بامتثال أمره ونهيه ، كما تودد إليه بإدرار نِعَمه وفضله ، ويحبه كما أحبه .

ومن حب العبد لله رضاه بما قضاه وقدَّره ، وحب القرآن والقيام به ، وحب الرسول ﷺ وحب سنته والقيام بها والدعاء إليها ، قال الله العظيم ﴿ **قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١] ، فمن اتبع رسوله فيما جاء به ، وصدق في اتباعه، فذلك الذي أحب الله وأحبه الله .

واعلم أن مثال محبة الله تعالى بترك المناهي ، أكثر من مثالها بسواها من أعمال الطاعات ، فالأعمال الصالحة قد يعملها البرُّ والفاجر ، والانتهاء عن المعاصي لا تكون إلا بالكمال [و] إلا من مصدق .

قلت (القرطبي) وعلى هذا الحذو ـ والله أعلم ـ يترتب حب الله تعالى للعبد وحب الناس له ، وعليه يخرج الحديث الذي خرَّجه مالك والبخاري ومسلم وغيرهم واللفظ لمسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلانًا فأحبه، قال فَيُحبه جبريل ثم يُنادى في السماء فيقول : إن الله يحبّ فلانًا فأحبُّوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإذا**

أبغض الله عبدًا دعا جبريل فيقول :إني أبغض فلانًا فأبغضه فيبغضه جبريل، ثم ينادى في أهل السماء : إن الله يُبغض فلانًا فأبغضوه ، قال فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض » [1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وهو سبحانه يحب عباده الذين يحبونه، والمحبوب لغيره أولى أن يكون محبوبًا .

فإذا كنَّا إذا أحببنا شيئًا لله كان الله هو المحبوب في الحقيقة ، وحبنا لذلك بطريق التبع ، وكنَّا نحب من يحب الله لأنه يحب الله ، فالله تعالى يُحب الذين يحبونه ، فهو المستحق أن يكون هو المحبوب المألوه المعبود ، وأن يكون غاية كل حب [2].

٢ ـ أن المستحق أن يُحب لذاته هو الله سبحانه وتعالى، وكل محبة يجب أن تكون لله وفي الله، فإذا أحب العبد أحب لله وإذا أبغض أبغض لله، وإذا أعطى أعطى لله ، وإذا منع منع لله ، وإذا والى والى في الله وإذا عادى عادى في الله، وهكذا كل أعماله يجب أن تكون فيما يحبه الله ويرضاه .

وكذا فإنه لا يجوز للعبد أن يبغض من أحبه الله تعالى من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين، ولا يحب من أبغضه الله من الفساق والعاصين و المكذبين والمحاربين لله بأموالهم وأنفسهم، مهما كانت قرابتهم له .

فعن الأول يقول المصطفى ﷺ **« إن الله قال : مَنْ عادى لي وليًا فقد**

---

(١) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٨٤ب ـ ٣٨٥آ) ، والحديث في «الموطأ» (٢/٩٥٣) و«البخاري» (٦/٣٠٣) (١٣/٤٦١) ، (١٣/٤٦١) و«مسلم» (٤/ ٢٠٣٠) عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعًا به .

(٢) « درء تعارض العقل والنقل » (٤/١٥).

آذنته بالحرب ، وما تَقَرَّبَ إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يَسمعُ به وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يَبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكرهُ الموتَ وأن أكره مساءته». [1]

فالحديث يدل على أن معاداة أولياء الله إنما هى في الحقيقة معاداة الله ، ومن ذا الذي يطيق أن يعادي الله تعالى شأنه أو يحاربه ، ويدل أيضًا على أن الفرائض من أحب ما يتقرب به إلى الله تعالى ، ويليها النوافل.

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٣٤٠ ـ ٣٤١) والبيهقي في « الزهد » (٦٩٠) وفيه خالد بن مخلد وقد تكلم فيه ، وشريك بن عبد الله بن أبي نمر وقد انفرد به . قال الحافظ : ولكن للحديث طرق أخرى يدل مجموعها على أن له أصلاً اهـ . قلت : فمنها حديث عائشة رواه أحمد في مسنده (٦/ ٢٥٦) ثنا حماد وأبو المنذر قالا حدثنا عبد الواحد مولى عروة عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل من أذلَّ لي وليًا فقد استحل محاربتي . . .» بنحو حديث البخاري ، وأخرجه البيهقي في «الزهد» (٦٩٢ ، ٦٩٣) ، وعزاه الحافظ في «الفتح» (١١/ ٣٤١) إلى أحمد في «الزهد» وابن أبي الدنيا وأبي نعيم في «الحلية» .

وفيه عبد الواحد بن ميمون أبو حمزة قال البخاري : منكر الحديث وضعفه الدارقطني ، وقال ابن أبي حاتم قلت لأبي عامر العقدي كيف كان هذا الشيخ ؟ فقال : تعرف وتنكر «الجرح» (٦/ ٢٤) ، و انظر : «الميزان» (٢/ ٦٧٦) لكن قال أحمد بعد أن روى الحديث : وقال أبو المنذر قال حدثني عروة قال حدثتني عائشة ، وقال أبو المنذر : آذى لي .

فرواه أبو المنذر وهو إسماعيل بن عمر عن عروة مباشرة ، وإسماعيل بن عمر ثقة ، فالحديث بهذه الطرق صحيح والله اعلم .

وانظر الكلام على طرقه في «الفتح» (١١/ ٣٤١ ـ ٣٤٢).

وأما عن الثاني وهي أن لا يحب من عصى الله ،يقول تعالى ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

قال ابن تيمية رحمه الله :

وليس ما يستحق أن يكون هو المحبوب لذاته ، المراد لذاته ، المطلوب لذاته ، المعبود لذاته ، إلا الله . كما أنه ليس ما هو بنفسه مبدع خالق إلا الله ، فكما أنه لا ربّ غيره ، فلا إله إلا هو ، فليس في المخلوقات ما يستقل بإبداع شيء حتى يكون ربًا له ، ولكن ثمَّ أسباب متعاونة ولها فاعل هو سببها .

وكذلك ليس في المخلوقات ما هو مستحق لأن يكون المستقلّ بأن يكون هو المعبود المقصود المراد بجميع الأعمال ، بل إذا استحق أن يُحب ويُراد ، فإنما يراد لغيره ، وله ما شاركه في أن يحب معه ، وكلاهما يجب أن يحب لله ، لا يُحب واحدٌ منهما لذاته ، إذ ليست ذاته هي التي يحصل بها كمال النفوس وصلاحها وانتفاعها ، إذا كانت هي الغاية المطلوبة .

والله فطر عباده على ذلك ، وهو أعظم من كونه فطرهم على حب الأغذية التي تصلحهم ، فإذا تناولوا غيرها أفسدتهم ،فإن ذلك ، وإن كان كذلك ، ففي الممكن أن يجعل في غير ذلك ما يغذّيهم ، وأما كون الفطرة يمكن أن تصلح على عبادة غير الله ،فهذا ممتنع لذاته كما يمتنع لذاته أن يكون للعالم مُبدع غير الله ، قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] .

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟** »(1).

وفي «صحيح مسلم» عن عياض بن حمار ، عن النبي ﷺ أنه قال : «**يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء [كلهم] فاجتالتهم الشياطين وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا** »(2).

والفِطَر تعرف هذا أعظم مما تعرف ما يلائمها من الطعام والشراب ، لكن قد يحصل للفطرة نوع فساد ، فيفسد إدراكها ، كما يفسد إدراكها إذا وجدت الحلو مراً، وهذا هو أعرف المعروف الذي أمر الله الرسل أن تأمر به،والشرك أنكر المنكر الذي أمرهم بالنهي عنه،والشرك لا يغفره الله، فإنه فساد لا يقبل الصلاح.

ولهذا وجب التفريق بين الحب مع الله ، والحب لله ، فالأول شرك، والثاني إيمان.

قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال : ﴿ **أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ [التوبة: ٢٤].

فليس لأحد أن يحب شيئًا مع الله وأما الحبُّ لله فقال ﷺ في الصحيح : « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذا أنقذه الله منه ،**

---

(1) البخاري في مواضع منها (٣/٢١٩) ومسلم (٤/٢٠٤٧).

(2) مسلم (٤/٢١٩٧) ، ومعنى فاجتالتهم : استخفوهم فذهبوا بهم، وأزالوهم عما كانوا عليه.

كما يكره أن يلقى في النار » [1].اهـ [2].

٣ ـ حب الله سبحانه ورسوله ﷺ يقوى بقوة العلم الشرعي ، وكلما كان المسلم عالمًا بدين الله وأحكامه وشرائعه ، عاملاً به ، كان حُبُّه أقوى من غيره من الجاهلين ، وإن كانت محبة الله سبحانه توجد في الفطر ولكنها تقوى بالعلم وتخبو وتضعف بالشهوات والشبهات.

قال ابن تيمية رحمه الله : وكذلك حبُّ الله ورسوله حاصلٌ لكل مؤمن، ويظهر ذلك بما إذا خُيِّر المؤمن بين أهله وبين الله ورسوله ،فإنه يختار الله ورسوله .

والمؤمنون متفاضلون في هذه المحبة ، ولكن المنافقون ـ الذين أظهروا الإسلام ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم ـ ليسوا من هؤلاء ، وما من مؤمن إلا وهو إذا ذُكر له رؤية الله اشتاق إلى ذلك شوقًا لا يكاد يشتاقه إلى شيء .

وقد قال الحسن البصري : لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا [3].

والحب لله يَقْوى بسبب قوة المعرفة وسلامة الفطرة ، ونقصها من نقص المعرفة ومن خبث الفطرة بالأهواء الفاسدة.

ولا ريب أن النفوس تحب اللذة بالأكل والشرب والنكاح ، وقد

(١) مضى تخريجه في آثار الإيمان بـ(الرقيب).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٩/ ٣٧٤ ـ ٣٧٦) وقد وقع قوله تعالى ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ في غير موضعه فصوبناه.

(٣) أخرجه عبد الله في «السنة» (١/ ٢٦٣) (٢/ ٤٧١) والآجرى في «الشريعة» (ص٢٥٣) وفيه عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد ، قال يحيى : ليس بشيء ، وقال البخاري تركوه «الميزان» (٢/ ٦٧٢ـ ٦٧٣).

تشتغل النفوس بأدنى المحبوبَيْنِ عن أعلاهما ، لقوة حاجته العاجلة إليه ، كالجائع الشديد الجوع ، فإن ألمه بالجوع قد يشغله عن لذة مناجاته لله في الصلاة .

ولهذا قال ﷺ في الحديث الصحيح : **لا يصلين أحدكم بحضرة طعام ، ولا هو يدافع الأخبثين** [1].

وإن كانت الصلاة قرة عين العارفين ، والإنسان إنما يشتاق إلى ما يشعر به من المحبوبات ، فأما ما لم يشعر بِهِ فهو لا يشتاق إليه ، وإن كان لو شعر به لكان شوقه إليه أشد من شوقه إلى غيره اهـ [2].

* * *

(١) رواه مسلم (١/٣٩٣) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٦/٧٢ ـ ٧٣).

المجيد

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٥٦)

*** المعنى اللغوي :**

قال الزجاج : أصلُ المجد في الكلام: الكثرة والسَّعَة ، وهو مأخوذ من قولهم : أمجَدْتُ الدابةَ ، إذا أكثرتَ علفها.

فالماجد في اللغة : الكثير الشرف [١].

وقال الزجاجي : المجيد : الكريم ، والمجد الكرم ، يقال اشتقاقه من قول العرب : أمجدت الدابة علفًا ، إذا أكثرته لها ، فكأن المجيد المبالغ في الكرم ، المتناهي فيه [٢].

قال ابن سيده : المجد نيل الشرف ، وقيل : لا يكون إلا بالآباء ، وقيل : المجد الأخذ من الشرف والسؤدد ما يكفي ، وقد مَجدَ يمجد مجدًا ، فهو ماجد ، ومَجُدَ بالضم مَجادَةً فهو مجيد ، وتَمَجَّد ، والمجد: كرم فعاله [٣].

وقال الراغب : المجدُ السعة في الكرم والجلال [٤].

---

(١) « تفسير الأسماء » (ص٥٣).

(٢) « اشتقاق الأسماء » (ص١٥٢) ، وبنحوه في « شأن الدعاء » (ص٧٤ ـ ٧٥) و«الصحاح» للجوهري (٢/٥٣٦).

(٣) « اللسان » (٥/٤١٣٨) ، وفي « النهاية » (٤/٢٩٨) : المجد : الشرف الواسع .

(٤) « المفردات » (ص٤٦٣).

والمجيد فعيل من الماجد ، كالعليم من العالم والقدير من القادر .

ويتحصل عندنا في معنى (المجد) :

١ ـ أنه الشرف التام الكامل .

٢ ـ أنه السعة والكثرة.

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد هذا الاسم مرتين :

في قوله تعالى : ﴿**رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ**﴾ [هود: ٧٣] . وقوله سبحانه :﴿**وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ**﴾ [البروج: ١٤، ١٥][(١)] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال أبو عبيدة :﴿**حَمِيدٌ مَّجِيدٌ**﴾ أي : محمود ماجد [(٢)].

وقال ابن جرير : (مجيد) : ذو مجد ومدح وثناء كريم [(٣)].

وقال الخطابي : (المجيد) هو الواسع الكرم [(٤)].

وفي المقصد : (المجيد) هو الشريف ذاته الجميل أفعاله الجزيل عطاؤه ونواله [(٥)].

وقال ابن كثير : الحميد في جميع أفعاله وأقواله ، محمود ممجد في

---

(١) قرئ المجيد بالرفع نعتًا لله عز وجل ، وبالجر نعتًا للعرش . انظر: «إملاء ما منَّ به الرحمن» لأبي البقاء عبد الله العكبري (٢/ ٢٨٤) ، «القرطبي» (١٩/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧) .

(٢) « مجاز القرآن » (١/ ٢٩٣).

(٣) « جامع البيان » (١٢/ ٤٧).

(٤) « شأن الدعاء » (ص٧٤) وبه قال الأصبهاني في الحجة (ق١٨أ) وقال : وقيل (المجيد) في صفات الله تعالى الكريم الفعال ، ورجل ماجد مفضال كثير الخير.

(٥) « المقصد الأسنى » (ص٧٧) باختصار .

صفاته وذاته [1].

وقال الشوكاني : (مجيد) : كثير الإحسان إلى عباده ، بما يفيضه عليهم من الخيرات [2].

وقال ابن القيم :

وهو المجيدُ صفاته أوصاف تعظيم فشأن الوَصف أعظمُ شَان[3]

وقال عبد الرحمن السعدي : « المجيد الكبير العظيم الجليل ، وهو الموصوف بصفات المجد والكبرياء والعظمة والجلال ، الذي هو أكبر من كل شيء ، وأعظم من كل شيء وأجلُّ وأعلى ، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه ، قد مُلئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله والخضوع له والتذلل لكبريائه [4].

*** آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ قال الأزهري : الله تعالى هو (المجيد) تَمجَّد بفعاله ، ومجَّدهُ خلقه لعظمته [5].

فالله سبحانه له المجد العلي العظيم ، بفعاله العظيمة وصفاته العلية وبأسمائه الحسنى ، فلا مجدَ إلا مجده ، ولا عظمة إلا عظمته ، وكل مجد لغيره إنما هو منه عطاء وتفضل [6].

---

(١) « التفسير » (٢/٤٥٢).

(٢) « فتح القدير » (٢/٥١١).

(٣) « النونية » (٢/٢١٥) .

(٤) « تيسير الكريم » (٥/٣٠٠).

(٥) « اللسان » (٥/٤١٣٨).

(٦) راجع الكلام على اسمه (العظيم).

وفي اقتران (الحميد) مع (المجيد) بيان أنه محمود على مجده وعظمته وكمال صفاته ، فليس كل ذي شرف محمود ، وكذلك ليس كل محمود يكون ذو شرف .

قال الحليمي : (المجيد) ومعناه : المنيع المحمود ؛ لأن العرب لا تقول لكل محمود مجيدًا ، ولا لكل منيع مجيدًا .أو قد يكون الواحد منيعًا غير محمود ، كالمتآمر الخليع الجائر ، أو اللص المتحصن ببعض القلاع .

وقد يكون محمودًا غير منيع، كأمير السوقة والصابرين من أهل القبلة.

فلما لم يقل لكل واحدٍ منهما مجيد ، علمنا أن (المجيد) من جمع بينهما فكان منيعًا لا يرام ، وكان في منعته حسن الخصال جميل الفعال ، والباري ـ جلَّ ثناؤه ـ يُجل عن أن يرام وأن يوصل إليه ، وهو مع ذلك محسن مجمل لا يستطيع العبد أن يُحصي نعمته ، ولو استنفذ فيه مدته، فاستحق اسم المجيد وما هو أعلى منه اهـ [1].

٢ ـ إن الله سبحانه عطاؤه واسع ، وفضله سابغ ، قد شمل المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، مجد بذلك نفسه في قوله عز وجل ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم: ٣٤] [2].

٣ ـ مجد الله تعالى نفسه في كتابه العزيز في آيات كثيرة بل القرآن مليء بتمجيد الله وتعظيمه ، وكذا حديث رسوله ﷺ ، وأعظم آيات القرآن وسوره هي التي احتوت على ذلك ، كآية الكرسي في البقرة ،

---

(١) « المنهاج » (١/١٩٧) ذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، وكذا البيهقي في « الأسماء » (ص٥٧).

(٢) راجع البحث في اسمه (الرزاق) وغيره.

وسورة الفاتحة والإخلاص .

ومن أعظم ما يعظم به العبد ربه ويمجده هو تلاوة كتابه ، في آناء الليل وأطراف النهار ، فإنه لا أحد يحصى الثناء عليه والتمجيد له ، هو كما أثنى على نفسه .

في الحديث القدسي « **قال الله تعالى : قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى : حمدني عبدي ، وإذا قال الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى عليّ عبدي ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجّدني عبدي...**»[1].

ثم ذكره وتسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله ، وما يلتحق بها من الحوقلة والبسملة والحسبلة والاستغفار والدعاء بخيري الدنيا والآخرة .

وهذه الحال هي حال أهل الذكر ، من لا يشقى بهم الجليس ، من الأنبياء والصديقين ، والشهداء والصالحين ، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هَلُمّوا إلى حاجتكم ، قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم منهم : ما يقول عبادي ؟ قال تقول : يُسبِّحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك ، قال فيقول : كيف لو رأوني ؟ قال يقولون : لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادةً ، وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحًا ... ، حتى قال تعالى : فأُشهدكم أني قد غفرت لهم ، قال يقول : مَلَكٌ من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لا يشقى جليسهم** »[2].

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/٢٩٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا به.

(٢) رواه أحمد (٢/٢٥١ ـ ٢٥٢) والبخاري (١١/٢٠٨ ـ ٢٠٩) والترمذي (٥/٥٧٩ ـ ٥٨٠).

٤ ـ سمى الله تبارك وتعالى كتابه بـ (المجيد) في آيتين من كتابه :

في قوله تعالى : ﴿ **قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ** ﴾ [ق: ١] . وقوله : ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] .

قال قتادة : ﴿ **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ** ﴾ يقول : قرآن كريم [1]. فالقرآن مجيد أي شريف كريم عظيم ، ولا غرابة في ذلك فإنه كلام الله المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ومن مَجدِ القرآن وشرفه أنه لا يمكن للجن والإنس أن يأتوا بمثله ، بل بسورة منه ، قال تعالى ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ [الإسراء: ٨٨] .

وهذا يتجلى لنا في جوانب عديدة :

منها ، أنه لا يمكن للجن والإنس أن يأتوا بمثل ما فيه من التشريعات من أمر ونهي ، وحلال وحرام ، وما فيه من العبادات الدينية والمعاملات الدنيوية ، فهذا من أعظم إعجازه .

ومنها أن بلاغته وفصاحته ، وروعته وبهاءه ، وحسن تراكيبه وأسلوبه، وأخذه بالنفوس كله مما لا يضاهي .

ومنها كثرة فوائده التي لا تنقضي ، ولا يشبع منها العلماء على مر الدهور والعصور .

ومن شرفه ورفعته ، أن الله سبحانه حفظه وصانه من كيد الكفار والمنافقين ، ومن الحاقدين على هذا الدين ، حفظه من أن يبدلوه أو أن يحرفوه ، أو أن يزيدوا فيه أو ينقصوه ، قال سبحانه : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا**

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٨٩) بإسناد حسن.

﴿الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

ومن عظمة هذا الكتاب ومجده ، أن الله يرفع به من عمل به واتخذه دينًا ومنهاجًا ، ويخفض به ويذل من تركه وراء ظهره ، ورأى أن العمل به رجعية وتخلّف وجمود.

ففي صحيح مسلم عن عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عُمر بعُسْفَان ، وكان عمر يستعمله على مكة ، فقال : من استعملت على أهل الوادي ؟ فقال : ابنَ أبزي ، قال : ومن ابنُ أبزى ؟ قال : مولىً من موالينا ، قال : فاستخلفت عليهم مولى ؟ ! قال : إنه قارئٌ لكتاب الله عز وجل ، وإنه عالمٌ بالفرائض ، قال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قد قال «**إن الله يرفعُ بهذا الكتاب أقوامًا ويضعُ به آخرين**» [(١)].

فقد رفع الله تعالى هذا المولى لحفظه لكتابه وعلمه به مع انحطاط نسبه وشرفه على غيره من أهل مكة أهل الشرف والنسب.

وهكذا المجد والرفعة في الدرجات في الآخرة ، فإنما هي لمن أخذ بهذا الكتاب ، عمل به ، والذّل والمهانة والدركات لمن تركه وأعرض عنه.

* * *

(١) مسلم (١/ ٥٥٩) وابن ماجه (١/ ٧٨ ـ ٧٩).

الشَّهيد

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٥٧)

* **المعنى اللغوي :**

قال الزجاج : الشَّهيدُ الحاضر ، يقال شَهِدتُ الشيءَ ، وشهدت به ، وأصل قولهم شهِدت به من الشهادة التي هي الحضور .

واليوم المشهود يوم القيامة ؛ لأنه معلومٌ كونه لا محالة ، فكان معنى الشهيد : العالِم [١].

وقال الزجاجي : الشهيد في اللغة بمعنى الشاهد ، كما أن العليم بمعنى العالم ، والرحيم بمعنى الراحم ، والشاهد خلاف الغائب ، كقول العرب : فلان كان شاهداً لهذا الأمر ، أي : لم يغب عنه.

والشهيد أيضًا في اللغة : الشاهد الذي يشهد بما عاين وحضر ، كما يقال : فلانٌ شاهد على فلان وشهيده ، كما قال عز وجل ﴿**وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء: ٤١] ، أي شاهداً [٢].

وقال ابن سيده : الشاهد العالم الذي يُبين ما عَلِمه [٣].

---

(١) « تفسير الأسماء » (ص٥٣) ، وفي النهاية (٢/٥١٣) : الشاهد الحاضر.

(٢) « اشتقاق الأسماء » (ص١٣٢).

(٣) « اللسان » (٤/٢٣٤٨).

* **وروده في القرآن الكريم :**

ورد هذا الاسم في القرآن ثماني عشرة مرة ، منها : قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧] .

وقوله : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج: ١٧] .

وقوله : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سبأ: ٤٧] .

وقوله : ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦] .

وقوله : ﴿ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦] .

وقوله : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٦] .

* **معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير : ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ : وأنت تشهد على كل شيء ؛ لأنه لا يخفى عليك شيء [(١)] .

وقال في : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦] . والله على حقيقة ما أقول لكم شهيد يشهد لي به ، وعلى غير ذلك من الأشياء كلها [(٢)] .

---

(١) « جامع البيان » (٧/ ٩٠) وبنحوه في (١٧/ ٩٨).

(٢) المصدر السابق (٢٢/ ٧١).

وقال الزجاجي : فالله عز وجل لما كانت الأشياء لا تخفى عليه ، كان شهيدًا لها وشاهدًا لها ، أي عالمًا بها وبحقائقها ، علم المشاهدة لها؛ لأنها لا تخفى عليه خافية [1].

وقال الخطابي : هو الذي لا يغيب عنه شيء ، يقال : شاهد وشهيد، كعالم وعليم ، أي :كأنه الحاضر الشاهدُ الذي لا يعزب عنه شيء ، وقد قال سبحانه ﴿ **فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ** ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، أي من حضر منكم الشهر فليصمه.

ويكون الشهيد بمعنى : العليم ، كقوله : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ [آل عمران: ١٨] ، قيل معناه : عَلِم الله ، وقال أبو العباس أحمد بن يحيى [2] معناه : بينَّ الله أنه لا إله إلا هو .

وهو أيضًا الشاهد للمظلوم الذي لا شاهد له ولا ناصر ، على الظالم المتعدي الذي لا مانع له في الدنيا ، لينتصف له منه اهـ [3].

وفي المقصد : (الشهيد) يرجع معناه إلى (العليم) مع خصوص إضافة ، فإنه تعالى عالم الغيب والشهادة ، والغيب عبارة عما بطن والشهادة عما ظهر ، وهو الذي يشاهد .

فإذا اعتبر العلم مطلقًا فهو العليم .

وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير.

وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد.

وقد يعتبر مع هذا أن يشهد على الخلق يوم القيامة بما علم

---

(١) « اشتقاق الأسماء » (ص١٣٢).

(٢) هو المعروف بثعلب ، انظر : «تفسير ابن جرير» (٣/١٣٩) وغيره.

(٣) « شأن الدعاء » (ص٧٥ ـ ٧٦).

وشاهد منهم .

والكلام في هذا الاسم يقرب من الكلام في (العليم والخبير) فلا نعيده [1].

وقال ابن كثير : شهيدٌ على أفعالهم ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسرائرهم وما تُكنُّ ضمائرهم [2].

وقال السعدي : (الشهيد) أي المطلع على جميع الأشياء ، سمع جميع الأصوات خفيها وجليها ، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها ، صغيرها وكبيرها ، وأحاط علمه بكلِّ شيء ، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه [3].

*** آثار الإِيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إن الله عز شأنه هو عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه شيء وإن دقَّ وصغر ، فهو سبحانه شهيد على العباد وأفعالهم ، ليس بغائب عنهم ، كما قال سبحانه ﴿ **فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ** ﴾ [الأعراف: ٦، ٧] .

قال الأصبهاني : فينبغي لكلِّ عاملٍ أراد عملاً صَغُرَ العملُ أو كَبُر ، أنْ يقف وقفةً عند دخوله فيه، فيعلم أن الله شهيد عليه فيحاسب نفسه، فإن كان دخوله فيه لله: مضى فيه، وإلا ردَّ نفسه عن الدخول فيه وتَركه [4].

---

(١) « المقصد الأسنى » (ص٧٩) ، ونحوه في «النهاية» (٢/ ٥١٣).

(٢) التفسير (٣/ ٢١٠) وهو بنحو قول الأصبهاني في «الحجة» (ق ٢٣أ) إذ يقول : الشهيد على العباد بأعمالهم وأحوالهم قال الله عز وجل: ﴿ **إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ** ﴾ [يونس: ٦١] .

(٣) « تيسير الكريم » (٥/ ٣٠٣).

(٤) « الحجة » (ق٢٣ب).

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

فهو يقضي بين عباده بعلمه وسمعه وبصره الذي لم يفارقهم في الدنيا طرفة عين ، ولا يحتاج سبحانه إلى الشهود ؛ لأنه على كل شيء شهيد، كما جاء في جواب عيسى عليه الصلاة والسلام لربه يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

فإن عيسى عليه الصلاة والسلام يتبرأ يوم العرض من عبّاد الصّليب ، الذين اتخذوه وأمه إلهين مع الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ، بقوله : سبحانك ! ما أمرتهم بهذا ، وما يكون لي أن أنطق به ، وإنما أمرتهم بعبادتك وحدك لا شريك لك ، وأنا إنما عاينت وشهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم فأما ما وقع بعد إذ رفعتنى فإنى لم أشهده ولم أعلمه ، وأنت قد علمته وشهدته وأنت على كل شيء شهيد، ولا يغيب عنك شيء [1].

---

(١) وقريب من هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاةً عراةً غُرلاً ثم قال : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده =

٢ ـ الله سبحانه وتعالى أعظم شيء شهادة ، كما قال سبحانه ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٩] ، فإن شهادته سبحانه لا غلط فيها ولا ظلم تعالى عن ذلك.

قال ابن جرير : يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يكذبون ويجحدون نبوتك من قومك ، أي شيء أعظم شهادةً وأكبر ، ثم أخبرهم بأن أكبر الأشياء شهادةً ، الله الذي لا يجوز أن يقع في شهادته ما يجوز أن يقع في غيره من خلقه من السَّهو والخطأ والغلط والكذب.

ثم قل لهم : إن الذي هو أكبر الأشياء شهادةً ، شهيد بيني وبينكم بالمحق منَّا من المبطل ، والرشيد منا في فعله وقوله من السَّفيه ، وقد رضينا به حكَمًا بيننا اهـ (٢).

٣ ـ شهد الله سبحانه وتعالى لنفسه بأنه واحد أحد ، فرد صمد ، لا

= وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ إلى آخر الآية ، ثم قال : الا و إن أولَ الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ، الا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : ياربٌ أصحابي فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨] فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . رواه البخاري (٨/ ٢٨٦) ومواضع أخر ومسلم (٤/ ٢١٩٤ ـ ٢١٩٥) . فإنه ﷺ يتبرأ ممن ارتد عن هذا الدين بعده وممن أحدث فيه ما ليس منه من المبتدعة ، ويكل أمرهم إلى (الشهيد) سبحانه ، فإنه بأحوالهم أعلم وبما كانوا عليه أشهد.

(٢) « جامع البيان » (٧/ ١٠٣).

شريك له ولا وزير ، ولا ند ولا نظير ، وشهد ملائكته وأولو العلم بذلك، كما في قوله جلّ شأنه ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

فتضمنت الآية أعظم شهادة من أعظم شهيد .

قال ابن القيم رحمه الله : تضمنت هذه الآية الكريمة : إثبات حقيقة التوحيد ، والرد على جميع هذه الطوائف ـ التي فصل عقائدها الباطلة قبل هذا ـ والشهادة ببطلان أقوالهم ، ومذاهبهم . وهذا إنما يتبيّن بعد فهم الآية ، ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية ، والحقائق الإيمانية .

فتضمنت هذه الآية : أجلّ شهادة وأعظمها ، وأعدلها وأصدقها من أجلّ شاهد ، بأجلّ مشهود.

وعبارات السلف في (شهد) تدور على : الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار .

قال مجاهد : حكم وقضى . وقال الزجاج : بيّن . وقالت طائفة : أعلم وأخبر .

وهذه الأقوال كلها حق ، لا تنافي بينها . فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد ، وخبره وقوله ، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه. فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها : علم ومعرفة ، واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته.

وثانيها : تكلمه بذلك ونطقه به . وإن لم يُعلم به غيره ، بل يتكلم هو به مع نفسه ، ويذكرها وينطق بها ، أو يكتبها .

وثالثها : أن يُعلم غيره بما شهد به ، ويخبره به ،ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ، ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية ، والقيام بالقسط : تضمنت هذه المراتب الأربع : علمُ الله سبحانه بذلك ، وتكلمه به ، وإعلامه ، وإخباره خلقه به ، وأمرهم وإلزامهم به.

أما مرتبة العلم : فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة ، وإلا كان الشاهد شاهدًا بما لا علم له به . قال الله تعالى : ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] .

وأما مرتبة التكلم والخبر : فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به . وإن لم يتلفظ بالشهادة . قال تعالى : ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الانعام: ١٥٠] . وقال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] ، فجعل ذلك منهم شهادة ، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ، ولم يؤدوها عند غيرهم.

وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥] . فشهادة المرء على نفسه : هي إقرار المرء على نفسه . وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز « فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ » وقال تعالى ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الانعام: ١٣٠]

وهذا وأضعافه يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة ، كما هو مذهب مالك وأهل

المدينة، وظاهر كلام أحمد .

وأما مرتبة الإعلام والإخبار : فنوعان : إعلام بالقول ، وإعلام بالفعل . وهذا شأن كل معلِم لغيره بأمر : تارة يعلمه بقوله : وتارة بفعله. ولهذا كان من جعل داراً مسجداً وفتح بابها لكل من دخل إليها ، وأذن بالصلاة فيها ـ معلمًا أنها وقف ، وإن لم يتلفظ به . وكذلك من وُجد متقربًا إلى غيره بأنواع المسار ـ معلمًا له ولغيره : أنه يحبه ، وإن لم يتلفظ بقوله . وكذلك بالعكس.

وكذلك شهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه : يكون بقوله تارة ، وبفعله تارة أخرى .فالقول : هو ما أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ،مما قد علم بالاضطرار : أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو . وأخبر بذلك . وأمر عباده أن يشهدوا به .

وشهادته سبحانه ﴿أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ معلومة من جهة كل من بلَّغ عنه كلامه .

وأما بيانه وإعلامه بفعله : فهو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل والفطرة.

وهذا أيضًا يستعمل فيه لفظ الشهادة ، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة ، والإرشاد والبيان ، فإن الدليل يبيّن المدول عليه ويظهره ، كما يبينه الشاهد والمخبر بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ . وقد يسمى شاهد الحال نطقًا وقولاً له وكلامًا ، لقيامه مقامه ، وأدائه مؤداه . كما قيل :

وقالت العينان : سمعًا وطاعة وَحدَّرتا بالدُّر لمَّا يُثَقَّب

وقال الآخر :

شكى إليَّ جملي طول السُّرى صبرًا جُميلي ، فكلانا مبتلى

وقال الآخر :

امتلأ الحوض ، وقال : قَطْني مهلاً رويدًا ، قد ملأت بطني

ويسمى هذا شهادة أيضًا ، كما في قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] ، فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله ، فهي شهادة بكفرهم ، وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت بها عليهم.

والمقصود : أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه.

فإن دلالتها إنما هي بخلقه وجعله ، ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية ، فتطابقت شهادة القول وشهادة الفعل ، كما قال تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] ، أي أن القرآن هو الحق . فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية.

وهذه الشهادة الفعلية : قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير.

قال ابن كيسان : شهد الله بتدبيره العجيب ، وأموره المحكمة عند خلقه : أنه لا إله إلا هو .

وأما المرتبة الرابعة : وهي الأمر بذلك والإلزام به ، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه ، وتتضمنه. فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به ، وقضى وأمر ، وألزم عباده به كما قال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] ، وقال تعالى :﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]. وقال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥] ،

وقال تعالى : ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣] ، والقرآن كله شاهد بذلك .

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك : أنه إذا شهد ﴿أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فقد أخبر ، وبيّن ، وأعلم وحكم وقضى : أن ما سواه ليس بإله ، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل ، وإثباتها أظلم الظلم . فلا يستحق العبادة سواه ، كما لا تصلح الإلهية لغيره ، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهًا ، والنهى عن اتخاذ غيره معه إلهًا . وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات ، كما إذا رأيت رجلاً يستفتي ، أو يستشهد ، أو يستطب من ليس أهلاً لذلك ، ويدع من هو أهل ، فتقول له : هذا ليس بمفت ، ولا شاهد ، ولا طبيب ، المفتى فلان ، والشاهد فلان ، والطبيب فلان . فإن هذا أمر منك ونهي.

وأيضًا فإن الآية دلّت أنه وحده هو المستحق للعبادة . فإذا أخبر أنه وحده المستحق للعبادة تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم ، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم . فإذا شهد سبحانه أنه لا إله إلا هو تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده.

وأيضًا : فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية ، ويقال للجمل الخبرية : قضية وحكم ، وقد حكم فيها بكيت وكيت . قال تعالى : ﴿أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٤]، لكن هذا حكم لا إلزام معه ، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو :

متضمن للإلزام . والله سبحانه أعلم اهـ [١].

٤ ـ يجوز إطلاق هذا الاسم على الخلق

فقد سمي الله عز وجل الرسول ﷺ وأمته بذلك في آيات منها قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] . وقوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] وغيرهما .

وسماهم الله تعالى شهداء لأنهم يشهدون على الأمم يوم القيامة [٢].

ومن قتل في سبيل الله يسمى بالشهيد [٣].

---

(١) « التفسير القيم » (ص ١٧٤ ـ ١٧٩) مع اختصار.

(٢) أخرج البخاري (٨/ ١٧١ ـ ١٧٢) ، (٣١٦/١٣) والترمذي (٢٠٧/٥) عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك ياربِّ ، فيقول : هل بلَّغت ؟ فيقول : نعم ، فيقال لأمته : هل بلَّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمدٌ وامته ، فيشهدون أنه قد بلغ ، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ،الوسط : العدل ».

(٣) ذكر الرازي في سبب تسميته بذلك وجوهًا :

الأول : أن ملائكة الرحمن يحضرون ، ويرفعون روحه إلى منازل القدس ، فيكون فعيلاً بمعنى مفعول .

الثاني : يسمى شهيداً مبالغة من الشاهد ، ومعناه أنه شاهد لطف الله ورحمته و ما أعد له من الدرجات.

الثالث : قال النضر بن شميل : الشهيد هو الحي ؛ لأن كل من كان حيًا كان شاهدًا ومشاهدًا للأحوال ، والشهيد حي بعد أن صار مقتولاً ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] .

الرابع : سمي شهيداً لانه شهد الوقعة في المعركة.

الخامس : سمي شهيدًا لأنه من جملة من سيشهد يوم القيامة على الأمم الخالية قال =

وسمى الله تعالى الإنسان عمومًا بالشهيد ، من جهة أنه يشهد على نفسه ، ويعلم منها ما لا يعلمه غيره ، في قوله تعالى ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٦، ٧] [1].

* * *

= تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. «شرح الأسماء» (ص ٢٨٨).

ولا يخفى ما في القول الرابع من ضعف إذ ليس كل من شهد المعركة يسمى شهيداً .

(١) وهذا على تفسير من فسر الشهيد هنا بأنه الإنسان ، وقيل هو الله سبحانه شهيد على بني آدم بما يعمل انظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/١٦٢).

النهج الأسمى

في شرح أسماء الله الحسنى

تأليف

محمد الحمود النجدي

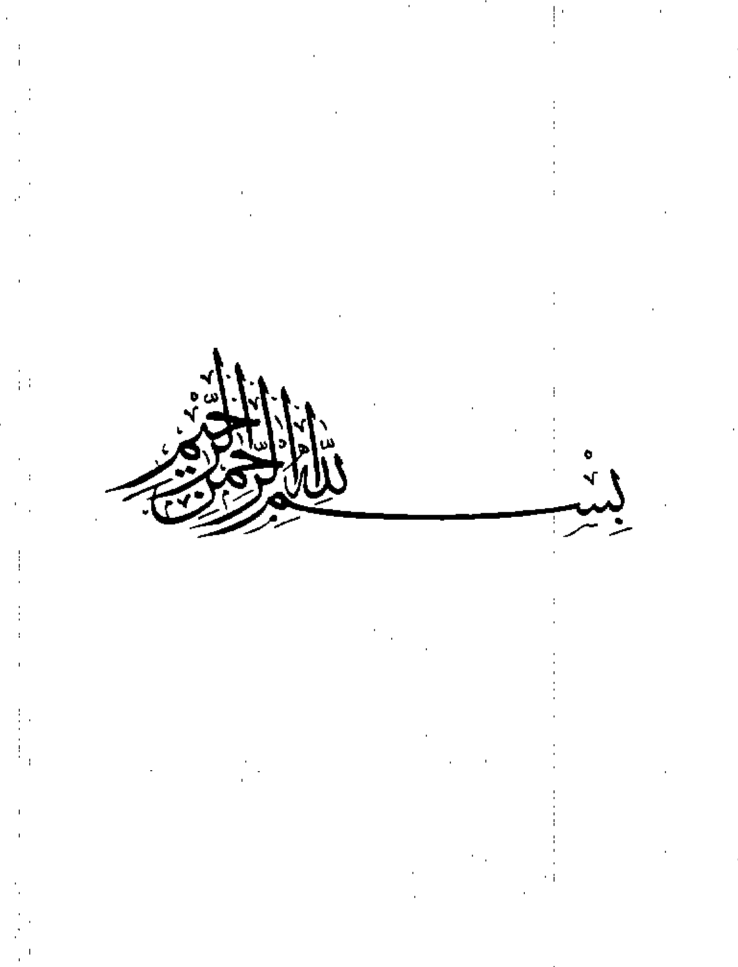
المجلد الثاني

القسم الأول

طبعة جديدة منقحة ومزيدة

مكتبة الإمام الذهبي

الكويت


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي بيَّن لأمته طريق النجاة، وحذرهم طرق الغَيِّ والهلكات ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً.

وبعد:

فهذا هو «**الجزء الثالث**» من «**القسم الأول**»[1]من كتابنا «النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى» نقدمه للقراء الكرام، عسى الله أن ينفعنا.

والذي حال بيننا وبينه ظروف وأشغال ليست بتقديرنا، ثم حرصنا على أن يخرج الكتاب بأكمل وجه وبأجزائه الثلاثة[2] بعد الزيادة وتصحيح الأخطاء الطباعية والتنقيح.

ويتبع هذا الجزء «**القسم الثاني**» من هذا الكتاب وهو الأسماء التي ثبتت في السنة المطهرة.

وأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يغفر لي زلاتي، وأن يتقبَّل

(١) وهو في الأسماء الحسنى التي ثبتت بالقرآن الكريم.

(٢) ثم رأينا أن يخرج الكتاب كاملاً في مجلدين اثنين.

مني حسناتي إنه غفور شكور.

وسبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبـــه

محمد بن حمد الحمود النجدي

الكويت(٦) شوال سنة (١٤١٢هـ)

الحقُّ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٥٨)

* **المعنى اللغوي:**

الحق نقيض الباطل ، وجمعه حقوقٌ وحِقَاقٌ ، وليس له بناء أدنى عدد.

وحقَّ الأمر يَحِق وحقوقًا : صار حقًا وثبت.

قال الأزْهري : معناه وَجَبَ يجب وجوبًا.

وقال ابن دريد : وحَقَّقَ الرجل إذا قال: هذا الشيء هو الحق، كقولك : صدَّق ، ويقال : أحقَقت الأمر إحقاقًا ، إذا أحكمته وصححتَه.

وحَقَّ الأمرُ يحُقُّه وأحقَّه : كان منه على يقين[1].

* **وروده في القرآن الكريم :**

ورد الاسم في عشر آيات من القرآن ، منها :

قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** ﴾ [الانعام: ٦٢].

---

(١) «اللسان» مادة حقق (٢/٩٣٩-٩٤٠) ، «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٤٦٠ - ١٤٦١) وانظر «تفسير الأسماء» للزجّاج (ص٥٣)، «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص١٧٨).

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٣٠].

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

وقوله تعالىٰ : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٤٤].

وقوله تعالىٰ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٦].

وقوله تعالىٰ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

وقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٥][(١)].

* معنىٰ الاسم في حق الله تعالىٰ :

قال ابن جرير في تفسير آية يونس : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ : ورجع هؤلاء المشركون يومئذٍ إلىٰ الله ، الذي هو ربهم ومالكهم الحق لا شك فيه ، دون ما كانوا يزعمون أنهم لهم أرباب من الآلهة والأنداد ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ يقول : وبطل عنهم ما

(١) والباقي من الآيات التي ذكر فيها الاسم : آية (١١٤) من سورة طه ، وآية (٣٠) من سورة لقمان .

كانوا يتخرصون من الفرية والكذب على الله بدعواهم أوثانهم أنها لله شركاء ، وأنها تقربهم منه زلفى[1] .

وقال في قوله : ﴿**فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ**﴾ يقول تعالى ذكره لخلقه : أيها الناس فهذا الذي فعل هذه الأفعال فيرزقكم من السماء والأرض ويملك السمع والأبصار ، ويخرج الحي من الميت والميت من الحي ، ويدبر الأمر : الله ربكم الحق لا شك فيه ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ**﴾ يقول : فأي شيء سوى الحق إلا الضلال وهو : الجور عن قصد السبيل .

يقول : فإذا كان الحق هو ذا ، فادّعاؤكم غيره إلهًا وربًا هو الضلال والذهاب عن الحق لا شك فيه فأنى تصرفون[2] .

وقال في قوله تعالى : ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ**﴾ يعني تعالى ذكره بقوله ذلك هذا الفعل الذي فعلت من إيلاجي الليل في النهار ، وإيلاجي النهار في الليل لأني أنا «الحق» الذي لا مثل لي ولا شريك ولا ند ، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلهًا من دونه هو الباطل الذي لا يقدر على صنعة شيء ، بل هو المصنوع[3] .

وقال الخطابي : الحقُّ هو المُتَحقِّقُ كونه ووجوده ، وكل شيء صح وجوده وكونهُ فهو حقٌّ ، ومنه قول الله سبحانه ﴿**الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ**﴾ [الحاقة: ١، ٢] معناه والله أعلم : الكائنةُ حقًا لاشك في كونها ، ولا مدفع لوقوعها .

---

(١) «جامع البيان» (١١/٧٩) .

(٢) المصدر السابق (١١/ ٨٠) .

(٣) المصدر السابق (١٧/١٣٧) باختصار.

ويقال : الجنة حقٌّ والنار حقٌّ والساعة حق ، يُراد أنَّ هذه الأشياء كائنة لا محالة .

والعرب تقول : إن فلانًا الرجلُ حقَّ الرجل، والشجاعُ حق الشجاع وحاقَّ الشجاع وحاقَّةَ الشجاع ، إذا أثبتوا له الشَجاعة وحقيقَتَها[1].

وقال الحليمي : (الحق) ما لا يسع إنكاره ، ويلزم ثبوته والاعتراف به ، ووجود الباري عزَّ ذكره أولى ما يجب الاعتراف به[2] ، ولا يسع جحوده إذ لا مُثْبَت يتظاهر عليه من الدلائل البينة الباهرة، ما تظاهرت على وجود الباري جلّ جلاله[3].

وقال القشيري[4] : (الحق) من أسمائه ، وهو بمعنى الموجود الكائن وكذا معناه في اللغة [5].

وقال الغزالي :(الحق) هو الذي في مقابلة الباطل ، والأشياء قد تُستبان بأضدادها ، وكل ما يخبر عنه فإما باطلٌ مُطلقًا ، وإما حقٌّ مُطلقًا

(١) «شأن الدعاء» (ص٧٦) باختصار يسير .

(٢) قال البيهقي في «الأسماء» (ص١٣) : يعني عند ورود أمره بالاعتراف به .

(٣) «المنهاج في شعب الإيمان» (١/ ١٨٤) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباري جل ثناؤه والاعتراف بوجوده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (١٢ ـ ١٣).

(٤) هو الشيخ الزاهد أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري الخراساني النيسابوري الشافعي الصوفي المفسر ، ولد سنة (٣٧٥ هـ) ، قال الخطيب : كتبنا عنه وكان ثقة وكان حسن الوعظ ، مليح الإشارة يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي ، وقال الذهبي : وكان عديم النظير في السلوك والتذكير ، لطيف العبارة ، طيب الأخلاق ، غواصًا على المعاني . مات سنة (٤٦٥ هـ) «تاريخ بغداد» (١١/ ٨٣) ، « السير » (١٨/ ٢٢٧ ـ ٢٣٣).

(٥) « التحبير في التذكير » (ص ٨٦) ط دار الكتاب العربي (١٩٦٨) .

وإما حقٌّ من وجه ، باطل من وجه ، فالممتنع بذاته هو الباطل مطلقًا ، والواجب بذاته هو الحق مطلقًا ، والممكن بذاته الواجب بغيره هو حق من وجه باطل من وجه[1].

وقال ابن الأثير : (الحق) هو الموجود حقيقة المُتحَقّق وجودُه وإلهيتُه ، والحق ضد الباطل [2].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله تعالى هو الحقُّ المبين ، لا شك ولا ريب في وجوده ، ولا يسع أحدًا إنكاره لظهور دلائل إثباته ، وكيف يخفى سبحانه وهو أحق باسم (الحق) من كل حق ، وهو سبحانه حقٌّ في ذاته ، حقٌّ في صفاته حقٌّ في أقواله ، حق في أفعاله .

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى : «الحق» في ذاته وصفاته ، فهو واجب الوجود ، كامل الصفات والنُّعوت ، وجوده من لوازم ذاته ، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به ، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفًا .

ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفًا .

فقـوله حق .

وفعـله حق .

ولقاؤه حق .

ورسله حق .

وكتـبه حق .

---

(١) «المقصد الأسنى» (ص٧٩) باختصار، ونحوه عند الرازي (ص٢٩٠) .

(٢) «النهاية» (١/٤١٣) .

ودينه هو الحق .

وعبادته وحده لاشريك له هي الحق .

وكل شيء يُنْسب إليه فهو حق .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ ﴾ [يونس: ٣٢] .

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١][١].

٢- وقد كان النبي ﷺ يَستفتح صلاته من الليل بذكر هذا المعنى ، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما : كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجَّد قال : «**اللهمَّ لك الحمدُ أنتَ قيِّمُ السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمدُ لك مُلْكُ السماوات والأرض ومن فيهن ، ولكَ الحمدُ أنت نُور السماوات والأرض ، ولك الحمدُ أنتَ مَلِكُ السماوات والأرض، ولك الحمدُ أنت الحقُّ ، ووعدكَ الحق ، ولقاؤك حقٌّ ، وقولك حقٌّ ، والجنةُ حقٌّ ، والنارُ حقٌّ ، والنبيونَ حقٌّ ، ومحمدٌ ﷺ حق ، والساعة حق...**» الحديث [٢].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٠٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٣/٣) (١١٦/١١) (٣٧١/١٣ ، ٤٢٣ ، ٤٦٥)، ومسلم (١/ ٥٣٢ - ٥٣٣) واللفظ للبخاري في التهجد .

قال الحافظ: «وإطلاق اسم (الحق) على ما ذكر من الأمور معناه : أنه لا بد من كونها ، وأنها مما يجب أن يصدق بها ، وتكرار لفظ (حق) للمبالغة في التأكيد». (الفتح ٣/ ٤).

٣- والله تعالى هو الإله والرب الحق ، الذي لا تنبغي الألوهية والربوبية إلا له عز وجل وحده لا شريك له ، وما سواه من الآلهة والمعبودات فباطل زائل ، وقد دلَّل الله سبحانه على ذلك بالأدلة الواضحة ، والبراهين الظاهرة في غير ما موضع من كتابه الكريم .

كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: ٣٤، ٣٥].

وقال تعالى آمرًا نبيه ﷺ أن يقول : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٤].

وقوله تعالى في «سورة الحج» : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ

بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦١ - ٦٦][1].

فذكر الله تعالى في هذه الآيات ـ وغيرها كثير ـ من دلائل ألوهيته الحقَّة وربوبيته أمرًا عظيمًا ، من كونه :

يرزق من السماء والأرض .

يملك السمع والأبصار .

يُخرج الحي من الميت وعكسه .

يُدبر الأمر .

يَبدؤ الخلق ثم يعيده .

يهدي إلى الحق .

يتوفى الأنفس .

يولج الليل في النهار وعكسه .

يحيي الأرض بالماء ويخرج نباتها .

يملك السماوات والأرض وما فيها .

يُسخِّر للناس ما في السماوات والأرض .

يُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه .

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

[لقمان: ١١].

٤- لما كان الله هو الحق ويحب الحق ويأمر به فإنه لا يستحيي من بيانه للناس ، وإظهاره لهم بأنواع الأمثلة الحسية التي تُعين على فهم

---

(١) وانظر الآيات (٢٥ ـ ٣٢) من سورة لقمان .

الحق وقبوله ، والإعراض عما سواه من الباطل .

قال تعالـى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ولا يستحيي من الأمر به والحثِّ عليه في سائر شئون الناس لأن في ذلك صلاحهم في معاشهم ومعادهم ، وفي تَرْكِ الحق حياءً أو خوفًا أو مُداهنة فَسَادُ حياة الناس ، ولنا في آية الحجاب عبرة وعظة ، في التمسك بالحق قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

قال ابن جرير الطبري في الآية : إن دخولكم بيوت النبي ﷺ من غير أن يؤذن لكم ، وجلوسكم فيها مستأنسين للحديث بعد فراغكم من أكل الطعام الذي دعيتم له ، كان يؤذي النبي ﷺ فيستحيي منكم أن يخرجكم منها إذا قعدتم فيها للحديث بعد الفراغ من الطعام ، أو يمنعكم من الدخول إذا دخلتم بغير إذن ، مع كراهيته لذلك منكم ، والله لا يستحيي من الحق أن يتبين لكم ، وإن استحيا نبيكم فلم يبين لكم كراهية ذلك حياءً منكم[1].

---

(١) «جامع البيان» (٢٢/٢٨) ، وانظر «تفسير ابن كثير» (٣/٥٠٣ ـ ٥٠٥) .

المُبين
جلَّ جلاله وتقَدَّست أسماؤه
(٥٩)

*** المعنى اللغوي :**

بان الشيءُ بيانًا : اتَّضح فهو بيِّنٌ .

وأبانَ الشيء فهو مُبين ، وأَبَنْتُهُ أنا : أي أوضحته، واستبان الشيء: وضح ، واستَبَنته أنا : عرفته ، وتبيَّن الشيء : وضح وظهر .

والتَبْيين: الإيضاح والوضوح ، والبيان: الفصاحة واللَسن.

والبَيْنُ: الفِراق ، تقول منه : بانَ يبين بينًا وبَيْنُونةً . تقول : ضربه فأبان رأسه من جسده وفصله ، فهو مُبين .

والمباينة : المفارقة .

والبين: الوصل أيضًا وهو من الأضداد [1].

وقال الزجاجي : (المبينُ) اسم الفاعل من أبان فهو مبينٌ إذا أظهر وبيَّن إما قولاً وإما فعلاً [2].

---

(١) «الصحاح» (٥/٢٠٨٢ ـ ٢٠٨٣)، و«اللسان» (١/٤٠٣ ـ ٤٠٤) مادة (بين) ، و«شأن الدعاء» (ص١٠٢) .

(٢) «اشتقاق أسماء الله» (ص١٨٠) .

* ورود الاسم في القرآن الكريم :

ورد مرة واحدة في قوله تبارك وتعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير : وقوله : ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ : يقول ويعلمون يومئذٍ أنَّ الله هو الحق الذي يُبيِّنُ لهم حقائق ما كان يَعدهم في الدنيا من العذاب ، ويزول حينئذٍ الشك فيه عن أهل النفاق الذين كانوا فيما يَعدهم في الدنيا يمترون (١).

وقال الزجاجي بعد أن بين المعنى اللغوي للاسم : . . فالله تبارك وتعالى المبين لعباده سبيلَ الرشاد ، والموضِّح لهم الأعمال الموجبة لثوابه والأعمال الموجبة لعقابه ، والمبين لهم ما يأتونه ويَذَرُونه (٢).

وقال الخطابي : (المبينُ) هو البَيِّنُ أمْرُهُ في الوحدانية ، وأنه لا شريك له (٣).

وقال الحليمي : (المبين) وهو الذي لا يَخْفَى ولا ينْكَتِم ، والباري جل ثناؤه ليس بخاف ولا منكتم ، لأنَّه له من الأفعال الدالَّة عليه ما يستحيل معها أن يخفى فلا يُوقف عليه ولا يُدرى (٤).

وقال الأصبهاني : (المبين) ومعناه البيِّنُ أمره، وقيل : البين

(١) «جامع البيان» (١٨/ ٨٤) .

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص ١٨١) .

(٣) «شأن الدعاء» (ص١٠٢) .

(٤) «المنهاج» (١/ ١٨٩) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباري جلَّ ثناؤه والاعتراف بوجوده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص١٣) .

الربوبية والملكوت ، يقال : أبان الشيء بمعنى بيَّنَ ، وقيل معناه : أبانَ للخلق ما احتاجوا إليه [1].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله تبارك وتعالى البيِّنُ أمره في الألوهية والربوبية فلا يخفى على خلقه بما نَصَبَ لهم من الدلائل والبينات الدالة عليه سبحانه وتعالى ، بل دلائل وحدانيته وملكه وربوبيته أوضح من الشمس في رابعة النهار :

وكيف يَصحُّ في الأذهان شيءٌ   إذا احتاجَ النَّهارُ إلى دليل[2]

٢- أنه تعالى (المبين) الذي أوضح لخلقه سُبُلَ النجاة من عقابه، والفوز بجنته ومرضاته ، بما فَطَر عليه الناس من التوحيد ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٣٠].

وبما أرسل إليهم من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين وأنزل إليهم الكتب ، قال سبحانه : ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال : ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد: ٢٥].

وأيدهم بالبراهين والمعجزات الدَّالة على صدقهم وصدق دعوتهم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن الآيات التي في الأرض ما يُحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به فلا تزال آيات

---

(١) «الحجة في المحجة» (ق ٢١أ) .

(٢) وانظر آثار الإيمان بـ (الظاهر) .

الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوتهم ، يُحدثها الله سبحانه وتعالىٰ في الأرض ، إقامة للحجة علىٰ من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل ، حتىٰ كأن أهل كلِّ قرنٍ يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره كما قال : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذه الإرادة لا تختص بقرنٍ دون قرن بل لا بد أنْ يُري الله سبحانه أهلَ كلِّ قرنٍ من الآيات ما يُبيِّنُ لهم أنه الله الذي لا إله إلا هو ، وأن رسله صادقون ، وآيات الأرضِ أعظم مما ذكر وأكثر ، فنبَّه باليسير منها علىٰ الكثير [1].

٣- وقد سمَّىٰ الله تعالىٰ رسوله ﷺ بـ (المبين) كما في قوله ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤] وقوله : ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩] وغيرهما من الآيات.

٤- وسمَّىٰ الله تعالىٰ كتابه بـ (المبين) في آيات كثيرة ، منها قوله تعالىٰ : ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقوله : ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١] .

وقوله : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

---

(١) «أقسام القرآن» (ص١٨٧) وانظر ما قبلها وما بعدها في بيان آيات الله تعالىٰ .

ووصفه بأنه آيات بينات :

كما في قوله : ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

ففي القرآن البيانُ البيِّنُ الواضح لكل ما يحتاجه بنو الإنسان في حياتهم بأروع عبارة وأجمل أسلوب .

في القرآن بيان كل شيء من البداية إلى النهاية ، حتى يستقر أهل الجنة في نعيمهم وأهل النار في جحيمهم .

فمعرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته ، وما يجب له تعالى وما لا يجب ، والعقيدة الإسلامية ، وأحكام العبادات والمعاملات ، وجميع الشئون الاجتماعية ، والأحوال الشخصية ، وكل ما تحتاجه المجموعة البشرية ، في كل زمان ومكان ، وأحكام المعاد والبعث والنشور ، والحساب والجزاء والعقاب وغير ذلك مما هو مبين وموضح ، وصدق الله تعالى : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢] (١).

* * *

---

(١) «الهدى والبيان في أسماء القرآن» للشيخ صالح البليهي رحمه الله (ص١٧٢) باختصار وتصرف يسير .

الوكيل ، الكفيل[1]

جل جلاله وتقدست أسماؤه

(٦٠ ـ ٦١)

***المعنى اللغوي :**

قال ابن سيده : وَكِلَ بالله وتوكَّل عليه واتكل : استسلم له ، يقال : توكَّل بالأمر إذا ضَمِن القيام به ، ووكَلْت أمري إلى فلان ، أي ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه ، وَوَكَّل فلانٌ فلانًا : إذا استكفاه أمرَه ثقةً بكفايته ، أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه .

وَوَكَل إليه الأمر : سلَّمه .

وَوَكَلَه إلى رأيه وَكْلاً ووكُولاً : تركه [2].

وقال الجوهري : والتوكُّل : إظهار العجز والاعتماد على غيرك ، والاسم التُّكْلان [3].

وقال الزجاجي : الوكيل فعيل ، من قولك : وكلت أمري إلى فلان وتوكل به ، أي جعلته يليه دوني وينظر فيه .

والوكيل : الكفيل أيضًا ، كذلك قالوا في قوله تعالى عز وجل في

---

(١) لقرب معناهما فقد جعلنا الكلام عليهما في فصل واحد.

(٢) «اللسان» (٦/ ٤٩٠٩) مادة (وكل) .

(٣) «الصحاح» (٥/ ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥) .

سورة يوسف ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦] أي : كفيل [١].

وقال الراغب الأصفهاني : (الوكيل) فعيلٌ بمعنى المفعول[٢] .

وأما (الكفيل) فهو من :

كَفَلَه يكفُلُه وكفَّله إياه ، والكافل : العائل ، وفي التنزيل العزيز ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧] [٣].

وفي الحديث : **«أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة ، له ولغيره»** والكافل : القائم بأمر اليتيم المربي له، وهو من الكفيل الضَّمين .

وقال ابن الأعرابي : كفيل وكافل ، وضمين وضامن بمعنى واحد . وفي «التهذيب» للأزهري : وأما الكافل فهو الذي كَفَلَ إنسانًا يَعُوله وينفق عليه [٤].

*** ورود الاسمين في القرآن الكريم :**

* ورد (الوكيل) في القرآن أربع عشرة مرة، منها :

قول تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقوله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٨١].

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ

---

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص١٣٦ ـ ١٣٧) .

(٢) «المفردات» (ص٥٣١).

وانظر «النهاية» (٥/ ٢٢١)، و«الكتاب الأسنى» للقرطبي (ق ٤١١أ) .

(٣) وقد قرئت بالتثقيل ونصب زكريا ، وذكر الأخفش أنه قُرئ ﴿وكَفِلها زكريا﴾ بكسر الفاء .

(٤) «اللسان» (٥/ ٣٩٠٦) ، «الصحاح» (٥/ ١٨١١) ، «النهاية» (٤/ ١٩٢) ، و«الأسنى» (ورقة ٤١٢ب).

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: ٢].

وقوله تعالى: ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل: ٩].

* وأما (الكفيل) فقد جاء مرة واحدة:

في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى:**

قال الفراء في قوله تعالى: ﴿ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾: كفيلاً بما وعدك [١].

وقال في قوله تعالى: ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾: يقال: ربًّا، ويقال: كافيًا [٢].

---

(١) «معاني القرآن» (٣/١٩٨)، وكذا قال ابن قتيبة في «غريب القرآن» (ص٢١٩) في قوله تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف: ٦٦] أي: كفيل.

(٢) «معاني القرآن» (٢/١١٦).

وقد أنكر الزجاج أن يكون معنى «الوكيل» هو الكافي، فقال في «شرح الأسماء» (ص٥٤): يحكى عن أبي زكريا الفراء أنه كان يذهب إلى أن قولنا: الوكيل هو الكافي، ونحن لا نعرف في الكلام وكلتُ، ولا وكلت إليه إذا: كُفيت، فلا ندري من أين له هذا القول! ولكن الوكيل فعيل بمعنى مفعول، من قولك: وكلت أمري إلى فلان: إذا سلمتَه إليه، والله تعالى موكول إلى تَطَوله الامور، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأُفَوِّضُ =

وقال ابن جرير في قوله تعالىٰ : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ : كفانا الله، يعني : يكفينا الله ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ يقول : ونعم المولىٰ لمن وليه وكفله ، وإنما وصف الله تعالىٰ نفسه بذلك ، لأن (الوكيل) في كلام العرب هو : المُسْنَدُ إليه القيام بأمر من أسند إليه القيام بأمره ، فلما كان القوم الذين وصفهم الله بما وصفهم به في هذه الآيات قد كانوا فَوَّضُوا أمرهم إلىٰ الله ، ووثقوا به ، وأسندوا ذلك إليه ، وصف نفسه بقيامه لهم بذلك ، وتفويضهم أمرهم إليه بالوكالة ، فقال : ونعم الوكيل الله تعالىٰ لهم[1].

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ : وتوكل أنت يا محمد علىٰ الله ، يقول : وفوّض أنت أمرك إلىٰ الله ، وثق به في أمورك ، وولها إياه ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ يقول : وكفاك الله ، أي : وحسبك بالله وكيلاً ، أي : فيما يأمرك ، ووليًا لها ودافعًا عنك وناصرًا[2].

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿وهو عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ : والله علىٰ كل ما خلق من شيء رقيب وحفيظ ، يقوم بأرزاق جميعه وأقواته وسياسته وتدبيره وتصريفه بقدرته[3] .

وقال الخطابي بعد أن ذكر قول الفراء أنه (الكافي) : ويقال معناه : أنه الكفيل بأرزاق العباد ، والقائم عليهم بمصالحهم ، وحقيقته : أنه

= أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر : ٤٤] اهـ . قلت : وما أنكره فيه نظر ! فإن من قام بأمر غيره فقد كفاه كما لا يخفىٰ ، راجع المعنىٰ اللغوي .

(١) «جامع البيان» (٤/١١٨ ـ ١١٩).

(٢) «جامع البيان» (٥/١١٣) .

(٣) «المصدر السابق» (٧/١٩٩) .

الذي يَستقلُّ بالأمر الموكول إليه ، ومن هذا قول المسلمين ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي : نعم الكفيل بأمورنا القائم بها [1].

وقال أبو عبد الله الحليمي : (الوكيل) وهو : الموكَّل والمفوَّض إليه علمًا بأن الخلق والأمر له ، لا يملك أحد من دونه شيئًا[2] .

فيتلخَّص في (الوكيل) ثلاثة معان:

١- الكفيل .

٢- الكافي .

٣- الحفيظ .

وأما (الكفيل) :

فقال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ : وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه على أنفسكم راعيًا ، يرعى الموفي منكم بعهد الله الذي عاهد على الوفاء به والناقض [3].

وساق بسنده إلى مجاهد في معنى (كفيلاً) قال : وكيلاً[4] .

وقال الحليمي : (الكفيل) ومعناه : المتقبل للكفايات ، وليس ذلك بعقد وكفالة[5] ككفالة الواحد من الناس ، وإنما هو على معنى أنه لما خلق المحتاج وألزمه الحاجة ، وقدَّر له البقاء الذي لا يكون إلا مع إزالة

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٧٧) ، وقال نحوه البيهقي في «الاعتقاد» (ص٦١) .

(٢) «المنهاج» (١/٢٠٨) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٨٧) .

(٣) «جامع البيان» (١٤/ ١١٠) .

(٤) المصدر السابق (١٤/١١١) وسنده ضعيف ، فيه : الحسين بن داود ، الملقب : سنيد ، ضُعِّف لكونه كان يُلقن شيخه حجاج بن محمد .

(٥) في «المنهاج» : وضمان ، وما أثبتناه من «الأسماء» للبيهقي .

العلة ، وإقامة الكفاية ، لم يُخْلِهِ من إيصال ما علق بقاؤه به إليه ، وإدْرَاره في الأوقات والأحوال عليه .

وقد فعل ذلك ربُّنا جل ثناؤه ، إذ ليس في وسع مرتزق أن يرزق نفسه ، وإنما الله جلَّ ثناؤه يرزق الجماعة من الناس والدواب ، والأجنة في بطون أمهاتها ، والطير التي تغدو خِماصًا وتروح بطانًا ، والهوام والحشرات ، والسباع في الفلوات[1] .

وقال القرطبي : (كفيلاً) يعني : شهيدًا ، ويقال : حافظًا ، ويقال : ضامنًا[2] .

* آثار الإيمان بهذين الاسمين :

١- إن الله سبحانه وتعالى هو القائم بأمر الخلائق أجمعين والمتكفل برزقهم وإيصاله لهم ، والرعاية لمصالحهم ، وما ينفعهم في دنياهم وأخراهم ، وهذا لا بد يتضمن أوصافًا عظيمة من أوصافه كحياته وعلمه وقدرته وقوته ورحمته وحكمته وجُوده وكرمه ووفاء عهده ، وصدق وعده.. إلى غير ذلك من الأوصاف الجليلة ، اللائقة بكماله وعظمته .

قال القرطبي : فيجبُ على كل مؤمنٍ أن يعلم أن كلَّ ما لا بدَّ له منه، فالله سبحانه هو الوكيل والكفيل المتوكل بإيصاله إلى العبد ، إما بنفسه فيخلقُ له الشَّبع والرِّي ، كما يخلق له الهداية في القلوب ، أو بواسطة سبب مَلَك أو غيره يوكل به[3] .

---

(١) «المنهاج» (١/ ٢٠٤) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٦٧) .

(٢) التفسير (١٠/ ١٧٠) .

(٣) «الأسنى» (ورقة ٤١٢ أ) .

٢- الفرق بين وكالة الخالق ووكالة المخلوق :

بينًّا فيما سبق أن الخلق قد يشركون مع الخالق في بعض دلالات الأسماء الحسنى كالسمع والبصر والحياة . . وغيرها من الصفات .

ولكن هذا لا يعني التشابه في الصفات لمجرد الاشتراك في الأسماء فأين سمع الإنسان من سمع الرحمن ، وأين بصره من بصره ، وأين علمه من علمه ، وأين التراب من رب الأرباب سبحانه وتعالى .

وإذا كان بعض الخلق قد يتوكل بغيره من الضعفاء واليتامى والمساكين والأرامل ، فلا يعني هذا أنه قد شابه الله تعالى في صفته ، فإن هذا المتوكل بأمر غيره ، هو نفسه محتاج إلى رزق الله ومَعُونته ورحمته وفضله .

قال ابن العربي : فإذا علمتم معنى (الوكيل) فلله في ذلك منزلته العلياء ، بأحكامٍ تختصُّ به أربعة :

الأول : انفراده بحفظ الخلق .

الثاني : انفراده بكفايتهم .

الثالث : قدرته على ذلك .

الرابع : إن جميع الأمر ، من خير وشر ، ونفع وضُرٍّ ، كل ذلك حادث بيده .

ثم قال :

المنزلة السُّفْلى للعبد وله في ذلك ثلاثة أحكام :

أن يتبرأ من الأمور إليه لتحصل له حقيقة التوحيد ويرفع عن نفسه شغب مشقة الوجوب . .

الثاني : أن لا يستكثر ما يَسئل فإن الوكيل غني ، ولهذا قيل : من علامة التوحيد كثرة العيال على بساط التوكل .

الثالث : أنك إذا علمت أن وكيلك غنيٌّ وفيٌّ قادر مَلِيٌّ ، فأعرض عن دنياك وأقبل على عبادة من يتولاَّك [1].

ونضيف بأن الوكيل يكون قادرًا على القيام بأمر مُوكله في وقت وعاجزًا عنها في وقت آخر ، غنيًا في وقت فقيرًا في آخر ، عالمًا بشيء جاهلاً بغيره ، حيا في وقت ميتًا في غيره ، والله جل شأنه يتعالى عن ذلك كله .

قال تعالى : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾ [النساء ٨١] .

وقال : ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ** ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال الغزالي مبينًا بعض الفروق أيضًا : (الوكيل) هو الموكول إليه الأمور ، ولكن الموكول إليه ينقسم إلى :

١- من وُكِلَ إليه بعضُ الأمور ، وذلك ناقص .

٢- وإلى من وُكل إليه الكلُّ ، وليس ذلك إلا الله تعالى :

والموكول إليه ينقسم إلى :

١- من يستحق أن يكون موكولاً إليه لا بذاته ولكن بالتوكيل والتفويض ، وهذا ناقص لأنه فقيرٌ إلى التفويض والتَّولية .

٢- وإلى من يستحق بذاته أن تكون الأمور مَوكُولةً إليه ، والقلوب

---

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٤١٢ أ ـ ٤١٢ ب) .

متوكلة عليه ، لا بتولية وتفويض من جهة غيره ، وذلك هو الوكيل المطلق .

والوكيل أيضًا ينقسم إلىٰ :

١- من يفي بما يُوكل إليه وفاءً تامًا من غير قصور .

٢- وإلىٰ من لا يفي بالجميع .

والوكيل المطلق هو الذي الأمور مَوكُولةٌ إليه ، وهو مَلِيٌّ بالقيام بها، وفيٌّ بإتمامها ، وذلك هو الله تعالىٰ فقط ، وقد فهمتَ من هَذا مقدار مدخل العبد في هذا الاسم[1] .

٣- وليس في إجراء هذا الاسم علىٰ الله تعالىٰ نقصٌ كما يتوهمه البعض ، من حيث مباشرة الرب تبارك وتعالىٰ لأمر الخلائق وما يصلح حالهم .

قال ابن الحصار : وقد ظنَّ بعض الناس أن هذا الاسم نقصٌ لا يجوز وصف الخالق به !! وهذا جهلٌ ورد للنصوص ، ولو علم أن اختراع الأفعال لا تصح إلا من الله وحده ، وأن من المستحيل أن ينوب عن الله سبحانه في ذلك أحدٌ غيره ، لعلم وجوب اتصافه سبحانه بهذا الاسم حقيقة ، وهو مجاز في غيره ، فمن عرف الله حق معرفته حُقَّ له أن يتوكل عليه في جميع أموره ، ويُفوِّض إليه جميع شؤونه ، قال الله تعالىٰ: ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [المائدة: ١١][2].

٤- حضَّ الله تبارك وتعالىٰ علىٰ التوكل عليه ، وتفويض الأمور إليه، وجعل هذا من صفات المؤمنين به ، فقال سبحانه :﴿ **وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا**

---

(١) «المقصد الأسنىٰ» (ص٨١) .

(٢)« الأسنىٰ» (ورقة ٤١٢ ب) .

إن كُنتُم مُّؤْمنينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] . وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال سبحانه : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

فالتوكل إذاً يزيد بزيادة الإيمان ، وينقص بنقصانه .

وكيف لا يتوكل المؤمن على الله وهو ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢].

وهو الكافي لمن توكل عليه وفوَّض أمره إليه ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء: ١٧١].

وقد أخبر سبحانه عن محبته لمن اتصف بهذه الخصلة فقال مخاطبًا نبيه ﷺ : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ووعدهم بالأجر العظيم والثواب الجزيل ، فقال : ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى: ٣٦].

وحرَّم سبحانه على عباده التوكل على غيره فهو وحده حسبهم ونعم الوكيل ، فقال : ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: ٢].

وقال: ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل: ٩].

وقال : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

٥- وقد بلغ النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين الغاية في التوكل على الله تعالى والإنابة له ، وتفويض الأمور إليه ،وقد مدحهم

ربهم تبارك وتعالى في كتابه الكريم في غير موضع .

فقال سبحانه : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤] .

وذلك أن النبي ﷺ أخبر أن أبا سفيان وأصحابه يقصدونهم ـ وذلك بعد غزوة أحد ـ فقال ﷺ : «حسبنا الله ونعم الوكيل» .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقيَ في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[1] .

وكذا ما كان منهم في «غزوة الخندق» من إظهار التوكل على الله وتسليم الأمر له ، وقد حكاه عنهم ربهم تبارك وتعالى في قوله : ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٢، ٢٣].

٦- ومن عجيب ما قصَّه النبي ﷺ على أصحابه عن بني إسرائيل في هذا الباب ، ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه «عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلفه ألف دينار فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم ، فقال كفى بالله شهيدًا ،

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٢٢٩) .

قال : فائتني بالكفيل قال : كفى بالله كفيلاً ، قال : صدقت، فدفعها إليه على أجلٍ مُسَمى فخرج في البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركبًا يركبُها يقدم عليه للأجل الذي أجَّله فلم يجد مركبًا ، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفةً منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها إلى البحر فقال : اللهم إنك تعلم أني كنت تسلَّفت فلانًا ألف دينار فسألني كفيلاً فقلت كفى بالله كفيلاً ، فرضي بك ، وسألني شهيدًا فقلت كفى بالله شهيدًا ، فرضيَ بذلك . وإني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر ، وإني أستودِعُكها ، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعلَّ مركبًا قد جاء بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطبًا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار فقال : والله ما زلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه . قال : هل كنت بعثت إليَّ بشيء؟ قال : أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه . قال : فإنَّ الله قد أدَّى عنك الذي بعثت في الخشبة ، فانصرف بالألف الدينار راشدًا» [1].

* * *

---

(١) الفتح (٤/٤٦٩) .

القَويُّ ـ المتينُ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٦٢ ـ ٦٣)

*** المعنى اللغوي :**

قال الجوهري : القوةُ خِلاف الضعف ، ورجل شديد القُوىٰ أي : شديد أسْرِ الخَلْق .

وأقوىٰ الرجل أي : نزل القَوَاء (وهي الأرض الخالية) [١].

وقال ابن الأعرابي : أقوىٰ إذا استغنىٰ ، وأقوىٰ إذا افتقر ، وأقْوىٰ القوم : إذا وقعوا في قِيٍّ من الأرض ، والقيُّ : الأرض المستوية الملساء وهي الخوية أيضًا [٢].

* أما المَتينُ في اللغة : فالمَتْنُ ما غلظ من الأرض وصلب ، وجمعه : مِتان .

وَمَتُنَ الشيء بالضم مَتَانةً فهو متين أي : صلبٌ . ورجل مَتْنٌ من الرجال أي صُلبٌ .

ومَتْنا الظهر : مُكْتَنَفا الصُلْبِ عن اليمين وشمال من عصب ولحم ، ويذكر ويؤنث[٣] .

---

(١) «الصحاح» (٦/٢٤٦٩ ـ ٢٤٧٠) .

(٢)« اللسان» (٥/٣٧٨٩) ، وانظر «النهاية» (٤/١٢٧) .

(٣) «الصحاح» (٦/ ٢٢٠٠)، «اللسان» (٥/ ٤١٣٠) ، «اشتقاق الأسماء» (ص ١٩٤ ـ ١٩٧)

* ورود الاسمين في القرآن الكريم :

أما (القوي) فقد جاء هذا الاسم في تسعة مواضع من الكتاب العزيز قوله تعالىٰ شأنه : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٥٢].

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ [هود: ٦٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

وقوله تعالىٰ : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٤].

وقوله تعالىٰ : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ [الشورى: ١٩].

وقوله تعالىٰ : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

وغيرها من الآيات .

وأما (المتين) فقد ورد مرة واحدة في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨].

* معنى الاسمين في حق الله تعالىٰ :

قال ابن جرير في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ : إنَّ الله قويٌّ لا يغلبه غالب ، ولا يرد قضاءه رادٌّ ، ينفذ أمره ويمضي قضاءه في خلقه شديدٌ عقابه لمن كفر بآياته وجحد حُجَجَه[1] .

وقال في قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ : إنَّ ربَّك هو القوي

---

(١) «جامع البيان» (١٠/ ١٧ - ١٨) .

في بطشه ، إذا بَطَش بشيء أهلكه ، كما أهلك ثمود حين بطش بها [1].

وقال الزَّجَّاج : (القوي) هو الكامل القدرة على الشيء ، تقول : هو قادرٌ على حَمله ، فإذا زدتَه وصفًا قلت : هو قوي على حمله ، وقد وَصَفَ نفسه بالقوة ، فقال عزَّ قائلاً : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨] [2].

وقال الخطابي : القوي قد يكون بمعنى : القادر ، ومن قَوِيَ على شيء فقد قدر عليه ، ويكون معناه : التامُّ القوة الذي لا يستولي عليه العجزُ في حال من الأحوال ، والمخلوق وإن وُصِفَ بالقوة ، فإن قوتَه مُتناهية ، وعن بعض الأمور قاصرة[3] .

وقال ابن كثير في قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ : أي لا يغلبه غالبٌ ، ولايفُوته هارب [4].

وقال السعدي : (القوي المتين) : هو في معنى العزيز .

قلت : وقد ذكره قبله فقال :

(العزيز) الذي له العزة كلها : عِزَّةُ القوة ، وعِزَّة الغلبة ، وعِزَّة الامتناع ، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات ، وقَهَرَ جميع الموجودات

---

(١) «جامع البيان» (١٢/ ٣٩) .

(٢) «تفسير الأسماء» (٢/ ٥٤) .

(٣) «شأن الدعاء» (ص٧٧) ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٤٣) وقال نحوه في «الاعتقاد» (ص٦١) .

(٤) «التفسير» (٢/ ٣٢٠) .

ودانت له الخَلِيقة ، وخضعت لعظمته [1].

وهو ما قد نظمه ابن القيم في «النونية» فقال :

وهو القويُّ له القوة جَمعًا تعـ ـالىٰ رب ذي الأكوانِ والأزْمَانِ

ثم قال :

وهو العـزيزُ فلن يُـرامَ جَنَـابُه أنَّىٰ يُرام جَـنَابُ ذِي السُّـلطانِ

وهو العزيزُ القَاهِرُ الغَلابُ لم يَـغلـبه شـيءٌ هـذه صِـفَتـانِ

وهو العزيزُ بقوةٍ هـي وَصْفُـهُ فـالعِـزُّ حيـنـئذٍ ثـلاثُ مَـعَانِ

وهي التي كَمُلَتْ له سبحـانه من كلِّ وجهٍ عادم النقصانِ[2]

*** أما معنىٰ (المتين) :**

فقد قال الفراء : قرأ يحيىٰ بن وَثاب (المتين) بالخفض ، جعله من نعت القوة ، وإن كانت أنثىٰ في اللفظ ، فإنه ذهب إلىٰ الحبل وإلىٰ الشيء المفتول ، أنشدني بعض العرب :

لكل دهرٍ قد لبست أثوبًا من ريطةٍ واليُمنَةَ المعصَّبا

فجعل المعصَّب نعتًا لليُمنة وهي مؤنثة في اللفظ ، لأن اليمنة ضرب وصنف من الثياب : الوشي، فذهب إليه .

وقرأ الناس (المتين) رفعٌ من صفة الله تبارك وتعالىٰ[3] .

وقال ابن جرير بعد أن ذكر قول الفراء :

والصواب من القراءة في ذلك عندنا ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ رفعًا علىٰ أنه

---

(١) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠٠ ـ ٣٠١) .

(٢) «النونية» (٢/ ٢١٨) .

(٣) «معاني القرآن» (٣/ ٩٠) .

من صفةِ الله جل ثناؤه ، لإجماع الحجة من القُرَّاء عليه ، وأنه لو كان من نعت القوة لكان التأنيث به أولى ، وإنْ كان للتذكير وجه[1] .

وقال ابن قتيبة : (المتين) : الشديد القوي[2] .

وقال الزجاج : أصله فعيلٌ من المتن الذي هو العُضو ، ويقال : مَاتَنْتُه على ذلك الأمر ، إذا : قاويته مُقاواةً .

وهو يفيد في حق الله سبحانه : التناهي في القوة والقدرة[3] .

وقال الخطابي : و(المتين) : الشديد القويُّ الذي لا تنقطع قوته ، ولا تَلحقه في أفعاله مشقةٌ ، ولا يمسُّه لُغُوب[4] .

وفي «المقصد» : القوة تدل على القدرة التامة .

والمتانة تدل على شدة القوة لله تعالى .

فمن حيث إنه بالغ القدرة تامها : (قوي) ، ومن حيث إنه شديد القوة : (متين)، وذلك يرجع إلى معاني القُدرة ، وسيأتي ذلك[5].

*** من آثار الإيمان بهذين الاسمين :**

١- أنَّ القوة لله تعالى جميعًا ، وحده لا شريك له ، فلا رادَّ لقضاءه، ولا مُعقب لحكمه ، ولا غالب لأمره ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ينصر من يشاء ، ويخذل من يشاء ، فالعزيز من أعزَّه الله ،

---

(١) «جامع البيان» (٢٧/ ٨ ـ ٩) ، وانظر «تفسير القرطبي» (١٧/ ٥٦ ـ ٥٧) .

(٢) «غريب الحديث» (ص٤٢) .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص٥٥) .

(٤) «شأن الدعاء» (ص٧٧) .

(٥) «المقصد الأسنى» (ص ٨١ ـ ٨٢) .

والذليل من أذلَّه ، والمنصور من نصره ، والمخذول من خذله ، فسبحان الملك القوي العزيز ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

٢- تَمَدَّحَ سبحانه بأنه هو الناصر لرسله صلوات الله عليهم أجمعين المعز لحزبه الموحدين ، لأنهم نصروا دينه بقلوبهم وأقوالهم وأفعالهم فاستحقوا نصر ربهم ووعده الصادق إذ يقول : ﴿ولَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ويقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧١، ١٧٢].

ويقول تعالى : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وانظر مثالاً على ذلك : نصر الله سبحانه لرسوله ﷺ ولأصحابه في «غزوة الأحزاب» ، التي اجتمع فيها أهل الكفر من جهات شتى لحرب المؤمنين المستضعفين في المدينة ، فنصر الله عباده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده بقوته لا شريك له ، وما كانت قوتهم لتغني عنهم شيئًا ، لولا تأييد الله تعالى لهم ، ورده الكفار لم ينالوا خيرًا ، قال تعالى مُمتنًا على عباده بذلك : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٩ - ١١] .

إلى أن قال تعالى : ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا

﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥] . فردَّهم الله تعالى خائبين ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، فسبحان من له القوة والجبروت .

٣- كثيرًا ما ينسى الإنسان نفسه وضعفه وحاجته ويُبارز ربَّه العَدَاء ، ويشرك به ما ليس له به علم ، ويُظَاهِر عليه ، ويفسد في الأرض ويتكبر فيها بغير الحق ، وخصوصًا إذا حَبَاه الله تعالى بالنعمة والملك والجاه والمال والولد .

وقد حكى الله تعالى لنا في كتابه عن أمم عَتَتْ عن أمره ورسله ، فحاسبها حسابًا شديدًا وعذَّبها عذابًا نكرًا .

قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٢١، ٢٢] .

منهم قوم هود عليه السلام ، الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٥] .

فماذا كان عاقبة أمرهم ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦] .

اغتروا بقوة أبدانهم ، وضخامة أجسادهم ، وعظيم بطشهم في البلاد والعباد ، فلم تغن عنهم من عذاب الله تعالى من شيء : ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا

﴿يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥] .

وأمم غيرهم كثير قصَّهم الله سبحانه علينا في كتابه ، جاءهم النذير ، فقابلوه بالنكير ، فأخذهم العزيز القدير ، ومأواهم جهنم وبئس المصير .

٤- لا قوة للعبد على طاعة الله تعالى إلا بقوة الله تعالى وتوفيقه ، ولا حول له على اجتناب المعاصي ودفع شرور النفس إلا بالله تعالى ، وقد نبَّه الشارع ﷺ أمته إلى ذلك بقوله لعبد الله بن قيس : **«يا عبد الله بن قيس ، ألا أُعلِّمُكَ كلمةً هي من كُنُوزِ الجنة : لا حَوْلَ ولا قُوةَ إلا بالله»** [(١)].

قال النووي : قال العلماء : سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى ، واعتراف بالإذْعان له ، وأنه لا صانع غيره ، ولا رادَّ لأمره ، وأن العبد لا يملك شيئًا من الأمر .

ثم قال : قال أهل اللغة : (الحول) الحركة والحيلة ، أي : لا حركة ولا استطاعة ولا حيلة إلا بمشيئة الله تعالى .

وقيل معناه: لا حول في دفع شر، ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله.

وقيل : لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ، ولا قوة على طاعته إلا بمعونته ، وحكي هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وكله متقارب [(٢)].

* * *

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (١١/٢١٣ ـ ٢١٤) ، وفي القدر (١١/ ٥٠٠) ، ومسلم بشرح النووي في الذكر (١٧/ ٢٥ ـ ٢٧) .

وقوله «كنز من كنوز الجنة» قال النووي: ومعنى الكنز هنا أنه ثوابٌ مدخر في الجنة ، وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم .

وقال الحافظ : وحاصله أن المراد أنها من ذخائر الجنة أو من محصلات نفائس الجنة

(٢) «شرح النووي» (١٧/ ٢٦ ـ ٢٧) .

الوَلِيُّ ـ المَوْلَىٰ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٦٤ ـ ٦٥)

*** المعنىٰ اللغوي :**

الوَلْيُ : القُرْبُ والدنو ، يقال : تباعد بعد وَلْيٍ .

«وكل مما يَليك» أي : مما يقاربك .

والوَلِيُّ : ضد العدو ، والموالاة ضد المعاداة ، يقال فيه : تولاّه .

والمَوْلَىٰ : المُعتِقُ والمُعتَقُ ، وابن العم ، والناصر ، والجار ، والصديق ، والتابع ، والمحب ، والحليف ، والشريك ، وابن الأخت.

والولي : المولىٰ .

والوَلي : الصِهر ، وكل من وَلِيَ أمر أحد فهو وَلِيُّه .

وولاّه الأمير عمل كذا، وولاه بيع الشيء، وتولىٰ العمل : أي تقلَّد.

وتولَّىٰ عنه : أي أعرض ، وولىٰ هاربًا : أي أدبر .

والولاية بالكسر : السلطان ، والوَلاية والوِلاية : النُّصرة [١].

وقال الزجاجي : «الولي» في كلام العرب علىٰ ضروب عشرة ، مخرجها كلها من قولهم : هذا الشيء يلي هذا الشيء ، وأوليت الشيء الشيء : إذا جعلته يليه لا حاجز بينهما [٢].

---

(١) «الصحاح» (٦/٢٥٢٨ ـ ٢٥٣١) ، «اللسان» (٦/ ٤٩٢٠ ـ ٤٩٢٦) مادة (ولي) .

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص ١١٣) .

* ورود الاسمين في القرآن الكريم :

ورد اسمه «الولي» في آيات كثيرة ، منها :

قوله تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧] .

وقوله تعالى : ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] .

وقوله تعالى :﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨] .

* وأما اسمه (المولى) فقد ورد اثنتي عشرة مرة ، منها :

قوله تعالى : ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

وقوله تعالى : ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠] .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ

﴿الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢] .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠] .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] .

* معنىٰ الاسمين في حق الله تعالىٰ :

* أما (الولي) :

فقال ابن جرير في قوله تعالىٰ : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ : نصيرهم وظهيرهم ، يتولاَّهم بعونه وتوفيقه ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يعني بذلك : يُخرجهم من ظلمات الكفر إلىٰ نور الإيمان (١) .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ : وكفاكم وحسبكم بالله ربكم وليًا يليكم ويلي أموركم بالحيَاطة لكم ، والحراسة من أن يَستفزَّكم أعداؤكم عن دينكم ، أو يصدوكم عن اتباع نبيكم (٢) .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ : يقول تعالىٰ ذكره لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد للمشركين من عبدة الأوثان : إنَّ وليي ونصيري ومعيني وظهيري عليكم الله الذي نزل الكتاب عليَّ بالحق، وهو يتولىٰ من صلح عمله بطاعته من خلقه(٣) .

---

(١) «جامع البيان» (٣/ ١٥) .

(٢) المصدر السابق (٥/ ٧٥) .

(٣) المصدر السابق (٩/ ١٠٣) .

وقال الزجاج : «الولي» هو فعيلٌ ، من الموالاة ، والولي : الناصر وقال الله تعالىٰ : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] . وهو تعالىٰ وليُّهم بأن يتولىٰ نصرهم وإرشادهم ، كما يَتَولىٰ ذلك من الصبي وليُّه ، وهو يتولىٰ يوم الحساب ثوابهم وجزاءهم[1] .

وذكر الخطابي نحو كلام الزجاج ، وزاد : والولي أيضًا المتولِّي للأمر والقائم به ، كولي اليتيم ، وولي المرأة في عقد النكاح عليها ، وأصله من الوَلْي ، وهو القُرْبُ[2].

وقال الحليمي : (الولي) وهو الوالي ، ومعناه : مالك التدبير ، ولهذا يقال للقيِّم علىٰ اليتيم : ولي اليتيم ، وللأمير : الوالي[3].

وقال في «المقصد» : (الولي) هو : المحب الناصر[4].

*** وأما (المولىٰ):**

فقال ابن جرير في قوله تعالىٰ : ﴿أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أنت وليُّنا بنصرك ، دون من عاداك وكَفَرَ بك ، لأنا مؤمنون بك ومطيعون فيما أمرتنا ونهيتنا ، فأنت وليٌّ من أطاعك وعَدُوٌّ من كفر بك فعصاك ، فانصرنا لأنَّا حزبك ، علىٰ القوم الكافرين الذين جحدوا وحدانيتك وعبدوا الآلهة والأنداد دونك ، وأطاعوا في معصيتك الشيطان.

والمولىٰ في هذا الموضع المفعل ، من ولي فلان أمر فلان فهو يليه

---

(١) «تفسير الأسماء» (ص٥٥) .

(٢) «شأن الدعاء» (ص٧٨) .

(٣) «المنهاج» (١/ ٢٠٤) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٦٧) ، وانظر «الاعتقاد» (ص٦٢) .

(٤) «المقصد الأسنىٰ» (ص٨٢) .

ولايةً وهو وليه ومولاه ، وإنما صارت الياء من ولي ألفًا لانفتاح اللام قبلها التي هي عين الاسم [1].

وقال الخطابي : و«المولى» الناصر والمعين ، وكذلك النصير : فعيلٌ بمعنى فاعل ، كما تقول : قديرٌ وقادر ، وعليم وعالم .

كقوله تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج : ٧٨] [2].

وقال الحليمي في معناه : أنه المأمول في النصر والمعونة ، لأنه هو المالك ، ولا مفزع للمملوك إلا مالكه [3].

*** من آثار الإيمان بهذين الاسمين :**

١- أنَّ الله جل جلاله ولي الذين آمنوا ، أي نصيرهم وظهيرهم ينصرهم على عدوهم ، وكفى به وليًا ونصيرًا ، فهو السميع لدعائهم وذكرهم ، القريب منهم ، يعتزون به ويستنصرونه في قتالهم .

جاء في حديث البراء رضي الله عنه في «غزوة أحد» أن أبا سفيان قال بعد أن أصيب المسلمون : أفي القوم محمد؟ فقال : (أي النبي ﷺ) : «**لا تجيبوه**» ، فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال : «**لا تجيبوه**» ، فقال : أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا ، فلو كانوا أحياء لأجابوا فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت عدو الله ، أبقى الله عليك ما يخزيك قال أبو سفيان : أعْلُ هُبَل ، فقال النبي ﷺ : «**أجيبوه**» ، قالوا : ما

---

(١) «جامع البيان» (٣/١٠٦) .

(٢) «شأن الدعاء» (ص ١٠١) .

(٣) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٣٥أ) ولم أجده في «المنهاج» ، ونقله عنه البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٨) بعد أن ذكر (الولي) .

نقول ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجلُّ ، قال أبو سفيان : لنا العزّى ولا عُزى لكم ؟ فقال النبي ﷺ : «أجيبوه» ، قالوا : ما نقول ؟ قال قولوا: «**الله مولانا ولا مولى لكم ...**» (١).

وفي هذه الغزوة تنبيهٌ للمسلمين ، وتحذير لهم ولمن بعدهم، وعبرة لمن يعتبر على مر العصور ، أنه بقدر ما يوافق المسلم كتاب ربه وسنة نبيه قولاً وعملاً واعتقادًا ، تكون له النُّصرة والمعونة من الله جل شأنه ، وما حصلت تلك الهزيمة في أحد إلا بسبب معصية الرماة ومخالفتهم لأمر نبيهم ﷺ بترك أماكنهم على الجبل ، بعد أن رأوا بشائر النصر وهرعوا إلى الغنيمة .

قال ابن القيم رحمه الله : والمقصود أنه بحسب متابعة الرسول تكُون العزَّة والكفاية والنُّصرة ، كما أنه بحسب متابعته تكونُ الهدايةُ والفلاح والنجاة ، فالله سبحانه علَّق سعادة الدارين بمتابعته ، وجعل شَقاوة الدارين في مخالفته ، فلأتباعه الهدى والأمن ، والفلاحُ والعزَّة ، والكفاية والنصرة ، والولاية والتأييد ، وطيبُ العيش في الدنيا والآخرة ، ولمخالفيه الذِّلَّة والصَّغَار ، والخوفُ والضلال ، والخِذلان والشقاءُ في الدنيا والآخرة (٢).

٢- الله عز وجل وليُّ المؤمنين بإنعامه عليهم ، وإحسانه إليهم ، وتوليه سائر مصالحهم ، فهو وليُّ نعمتهم .

فهل يصح هذا المعنى في الكفار ؟.

قال الزجاجي : فإن قال قائل : فقد أنعم الله عز وجل على الكافرين

---

(١) رواه البخاري (٧/٣٤٩ ـ ٣٥٠) .

(٢) «زاد المعاد» (١/٣٧) .

كما أنعم على المؤمنين ، أفيجوز أن تقول : ولي الكافرين ؟

قيل له : لم نقل إنه لا معنى للولي إلا هذا ، بل قلنا : إن هذا أحد وجوه الولي ، ومع ذلك فإن الله عز وجلّ اسْمه لما أنعم على المؤمنين فقابلوا إنعامه بالشكر والإقرار والطاعة والتوحيد ، جاز أن يقال الله ولي الذين آمنوا بإنعامه عليهم وقبولهم وشكرهم .

وإن كان قد أنعم على الكفار فلا يقال : هو وليهم لجحودهم ذلك وتركهم الإقرار ، كما قال عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] وقد أنذر من لم يخش أيضًا ولكن لما ينتفع بإنذاره غير من خشي قيل : « أنت منذرُ منَ يَخْشَها » ولم يقل أنت منذر من لم يخش إذ لم ينتفع بذلك الإنذار .

ومع ذلك فلما كان (الوليُّ) قد يكون بمعنى الناصر والموالي والمثني وغير ذلك ، لم يجز أن يقال : الله ولي الكافرين ، فيسبق إلى ظن السامع أنه يراد به أهل تلك الأوجه ، إذ كانت أشهر وأعرف وأكثر استعمالاً ، ومنع من إطلاق ذلك للكفار التنزيل ، لأنه قال عز وجل : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] (١).

وهذا كلام متين .

وقد تعرض لهذه المسألة العلامة المحقق ابن قيم الجوزية في كتابه المفيد «بدائع الفوائد» فقال : وأما المسألة الثامنة : وهي أنه خص أهل السعادة بالهداية دون غيرهم ، فهذه مسألةٌ اختلف الناس فيها ، وطال الحجاج من الطرفين وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا؟

فمن ناف محتج بهذه - يعني قوله تعالى : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص١١٤) ، وانظر كذلك «الكتاب الأسنى» (ورقة ١٣٣٤ ـ ب).

عَلَيْهِمْ﴾ - وبقوله تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فخصَّ هؤلاء بالإنعام ، فدلَّ على أن غيرهم غير منعم عليه ، ولقوله لعباده المؤمنين : ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة ، فأي نعمةٍ على من خُلق للعذاب الأبدي.

ومن مُثبتٍ محتجٌّ بقوله : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقوله لليهود : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وهذا خطاب لهم في حال كفرهم ، وبقوله في سورة النحل التي عَدَّد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨١ - ٨٣].

وهذا نصٌّ صريح لا يحتمل صرفًا ، واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمته ، وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم ، إلا من كابر وجحد حقَّ الله تعالى وكفر بنعمته .

وفصلُ الخطاب في المسألة :

أن النعمة المطلقة مختصةٌ بأهل الإيمان لا يشركهم فيها سواهم ، ومطلق النعمة عامة للخليقة كلهم برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم ، فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم فهذه غير مشتركة .

ومطلق النعمة عام مشترك .

فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة أصاب ، وإنْ أراد سلب مطلق

النعمة أخطأ ، وإنْ أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ ، وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب .

وبهذا تتفق الأدلة ويزول النزاع ، ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب ، والله الموفق للصواب[1] .

٣- ولا ينافي ما سبق أن نقول بأن الله جل شأنه مولى الخلق أجمعين بمعنى أنه سيدهم ومالكهم وخالقهم ومعبودهم ، كما قال تعالى في كتابه العزيز ﴿ **ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** ﴾ [الأنعام: ٦٢] .

قال ابن جرير رحمه الله : يقول تعالى ذكره : ثم ردَّت الملائكة الذين توفوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم إلى الله سيدهم الحق ﴿ **أَلا لَهُ الْحُكْمُ** ﴾ يقول: ألا له الحكم والقضاء دون من سواه من جميع خلقه : ﴿ **وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** ﴾ [2] .

وقال الشنقيطي رحمه الله : قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ** ﴾ هذه الآية الكريمة تدل على أن الله مولى الكافرين ، ونظيرها قوله تعالى : ﴿ **هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾ [يونس: ٣٠] .

وقد جاء في آية أخرى ما يدل على خلاف ذلك ، وهي قوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ** ﴾ [محمد: ١١].

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٢ ـ ٢٣) ، وقد سبق بيان شيء من هذه المسألة في الجزء الثاني من كتابنا (ص٥٠) ولم نذكر فيه هذا البحث النفيس للإمام ابن القيم ، وفيه إضافة لما سبق وتتميم ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

(٢) «جامع البيان» (٧/ ١٤٠) .

والجواب عن هذا: أن معنى كونه مولى الكافرين أنه مالكهم المتصرف فيهم بما شاء ، ومعنى كونه مولى المؤمنين دون الكافرين ، أي: ولاية المحبة والتوفيق والنصر ، والعلم عند الله تعالى .

وأما على قول من قال : إن الضمير في قوله ﴿رُدُّوا﴾ وقوله : ﴿مَوْلاهُمُ﴾ عائد إلى الملائكة فلا إشكال في الآية أصلاً ، ولكن الأول أظهر[1] .

٤- والله تعالى هو المحب لأوليائه من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين : ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الانعام: ١٢٧] أي : هو وليُّهم بسبب أعمالهم الصالحة التي قدموها وتقربوا بها إلى ربهم[2] .

٥- يصح إطلاق هذين الاسمين على العباد ، نطق به التنزيل ، كما في قوله تعالى : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] .

وقال تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٣٣] .

٦- وأولياء الله تعالى هم محبُّوه وناصرو دينه ، قال تعالى : ﴿أَلا إِنَّ

---

(١) «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» (ص ١١٦) للعلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

(٢) وانظر تفصيل ذلك في آثار الإيمان بـ (الودود) الجزء الأول (ص٤٢٢) .

أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤] .

ومن صفة الولي من عباد الله : أنه يحب الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ ، ويحب من يحب الله ورسوله ، ويبغض من يبغض الله ورسوله ، ويُوالي من والى الله ورسوله ، ويعادي من يعادي الله ورسوله ، يعمل بطاعة الله عز وجل وينتهي عن معصيته .

ولا تنال الولاية إلا بالإيمان الصادق ، والعلم الراسخ ، والعمل المتواصل الثابت ، والاهتداء بهدي الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح من هذه الأمة .

فولاية الله تعالى إذن كَسْبيةٌ ، لها أسبابها وأعمالها القلبية والبدنية ، وليست وَهْبيةً لا سبب لها ولا عمل ، كما يتفوَّه به جهال المتصوفة وزنادقتهم ، فنسبوا الولاية للمجانين والفسقة والظلمة والزنادقة من أهل وحدة الوجود والاتحاد ، بمجرد حصول بعض الخوارق والشعوذات الشيطانية على أيدي هؤلاء ، كالدخول في النيران ، وحمل الأفاعي ، وضرب بعضهم البعض بالسيوف والخناجر ، وغيرها من أفعال السحرة الفجرة [1].

فهذه هي ولايتهم البدعية ، أما الولاية السنية فطريقها لزوم الكتاب والسنة والعمل بها ، واتباع سبيل المؤمنين ، الأتقياء الأنقياء ، البررة

---

(١) انظر في تفصيل هذا الموضوع كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية الدمشقي .

الكرام قال تعالى موصيًا نبيه الكريم ﷺ : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

* * *

الحَميدُ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٦٦)

*** المعنى اللغوي :**

الحَمْدُ نقيض الذمِّ ، تقول : حَمِدت الرجل أحمدُه حمدًا ومَحمدةً ، فهو حميد ومحمود .

والتحميد أبلغ من الحمد ، والحمد أعمُّ من الشكر .

والمحمَّدُ : الذي كثرت خصاله المحمودة [١].

والحمد والشُّكر متقاربان ، والحمد أَعمهما ، لأنك تحمد الإِنسان على صفاته الذَّاتية وعلى عطائه ، ولا تشكره على صفاته[٢] .

والتَّحميد : حَمْدُكَ الله عز وجل مرةً بعد مرة .

وقال الأزهري : التحميد كثرةُ حمد الله سبحانه بالمحامد الحسنة ، والتحميد أبلغ من الحمد[٣] .

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد هذا الاسم سبع عشرة مرة ، منها :

---

(١) «الصحاح» (٢/٤٦٦ ـ ٤٦٧) و«اللسان» (٢/٩٨٧) مادة (حمد).

(٢) سبق بيان الفرق بين الحمد والشكر في الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣) ، وقد تعرض لبيان الفرق ابن تيمية رحمه الله ، كما في «مختصر الفتاوى المصرية» (ص٧٨) ، ويأتي كلام له أيضًا في آثار الإيمان بهذا الاسم .

(٣) «اللسان» (٢/٩٨٨) .

قوله تعالى : ﴿ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] .

وقوله تعالى : ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ [الحج: ٢٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان: ١٢] .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥] .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى: ٢٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال أبو عبيدة : (حميد مجيد) أي : محمود ماجد [1].

---

(١) «مجاز القرآن» (١/ ٢٩٣) .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ : ويعني بقوله (حميد) : أنه محمود عند خلقه بما أولاهم من نِعَمِهِ ، وبَسَط لهم من فضله [١].

وقال في قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١] : و(الحميد) : الذي استَوْجَب عليكم أيها الخلق الحمد بصَنَائِعه الحميدة إليكم ، وآلائه الجميلة لديكم ، فاستديموا ذلك أيها الناس باتقائه ، والمسارعة إلى طاعته فيما يأمركم به وينهاكم عنه [٢].

وقال الزجاج : (الحميد) هو فعيلٌ في معنى مفعولٍ، والله تعالى هو المحمودُ بكلِّ لسان ، وعلى كل حَال ، كما يقال في الدعاء : الحمد الله الذي لا يُحمدُ على الأحوالِ كلِّها سواه [٣].

وقال الخطابي : (الحميد) هو المحمودُ الذي استحق الحمد بفعاله ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وهو الذي يُحمدُ في السراء والضَّرَّاء ، وفي الشدة والرخاء ، لأنه حكيمٌ لا يجري في أفعاله الغلط ، ولا يعترضُهُ الخطأ ، فهو محمودٌ على كل حال [٤].

وقال الحليمي : (الحميد) هو المستحقٌّ لأن يحمد ، لأنَّه جل ثناؤه بَدَأَ فأَوْجَد ، ثم جمع بين النعمتيــن الجليلتين : الحياة والعقــل، ووَالى بين[٥] مِنَحِهِ ، وتابعَ آلاءَهُ ومِننَه ، حتى فاتَت العدَّ ، وإن استُفْرِغ فيها الجهد فَمَن ذا الذي يستحق الحمد سواه ؟ بل له الحمد كله لا لغيره ،

---

(١) «جامع البيان» (٣/٥٨) .

(٢) المصدر السابق (٥/٢٠٥) .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص ٥٥) .

(٤) «شأن الدعاء» (ص٧٨) .

(٥) في «الأسماء» للبيهقي (ص٥٩) : بعد منحه ، وكذا في «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٩٤ب).

كما أنَّ المنَّ منه لا من غيره [1].

وقال البيهقي : هو المحمود الذي يستحق الحمد ، وقيل : من له صفات المدح والكمال .

وهذه صفةٌ يستحقها بذاته [2].

وقال ابن كثير : وهو (الحميد) أي : المحمود في جميع أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، لا إله إلا هو ولا رب سواه [3].

وقال السعدي : (الحميد) في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فله من الأسماء أحسنها ، ومن الصفات أكملها وأحسنها ، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل[4].

وقال ابن القيم في النونية :

وهو الحميدُ فكلُّ حمدٍ واقعٍ ... أو كان مَفْرُوضًا مَدَى الأزمانِ
مَلأ الوُجُودَ جَميعه ونَظيره ... من غير ما عَدٍّ ولا حُسْبَانِ
هو أهلُهُ سُبحانه وبحمدهِ ... كلُّ المَحَامِدِ وَصْفُ ذِي الإِحْسَانِ[5]

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الإيمان بأنَّ الله جل ثناؤه هو المستحق للحمد على الإطلاق ، كما قال سبحانه عن نفسه ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢] ، والألف

(١) «المنهاج» (١/ ٢٠٢) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٥٩ ـ ٦٠) .

(٢) «الاعتقاد» (ص٦٢) ، وانظر «المقصد الأسنى» (ص٨٢) .

(٣) تفسيره (١/ ٣٢١) .

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠) .

(٥) «النونية» (٢/ ٢١٥) .

واللام في (الحمد) للاستغراق ، أي هو الذي له جميع المحامد بأسرها ، وليس ذلك لأحد إلا لله تعالى ، ولا نحصي ثناءً عليه ، هو كما أثنى على نفسه، فهو الحميد في ذاته وصفاته وفي أسمائه وفي أفعاله، فله الحمد على كل حال ، في كل زمان ومكان ، في الشدة والرخاء ، والعسر واليسر ، وفيما نحب ونكره ، كيف لا ! وهو العليم الحكيم ، الفعَّال لما يريد ، المختار لما يشاء ، فمهما يقضي ويقدِّر فهو الموافق للحكمة البالغة ، والعلم التام .

وكان ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع : «**اللهم ربَّنا لك الحمدُ ملءَ السماوات وملء الأرض وما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أَهل الثَّناء والمَجْد ، لا مانعَ لما أعطيت ، ولا معُطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ**»[1].

وكان ﷺ يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : «**اللهم لك الحمدُ أنتَ نُور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت قيَّام السماوات والأرض ولك الحمدُ أنت ربُّ السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ووعدك الحق ..** »[2].

وكان مـرة يصلي بأصحابـه فرفع رأسـه من الركـوع فقـال : «**سمع الله لمن حمـده**» فقـال رجـل وراءه : ربنا ولك الحمدُ حمداً كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، فلما انصـرف قال : من المتكلـم ؟ قال رجل : أنا ، فقـال ﷺ : «**رأيـتُ بضعـةً وثلاثين مَلَكـًا يَبْتَدِرُونها أيُّهـم**

(١) رواه مسلم (٣٤٧/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه أيضًا من حديث ابن أبي أوفى وأبي سعيد الخدري .

(٢) سبق تخريجه (ص ٤٤٠) .

يَكتُبها أوَّل» [1].

وكان ﷺ يسبِّح الله تعالى في أدبارِ الصلَوات ثلاثًا وثلاثين ويحمده ثلاثًا وثلاثين . . الذكر المشهور .

وقال ﷺ مُبيِّنًا عِظم حَمْدِ الله تبارك وتعالى : **«الطهُور شطرُ الإِيمان والحمدُ لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض . .»** [2].

وقال : **«أحب الكـلام إلى الله أربعٌ : سُبـحانَ الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، لا يَضرُّكَ بأيِّهن بدأت . .»**[3] .

وعن مطرِّف بن عبدالله بن الشخير قال : قال لي عمران بن حصين : إني لأحدثك بالحديث اليوم ، لينفعَكَ الله عز وجل به بعد اليوم ، اعلم أنَّ خيرَ عباد الله تبارك وتعالى يوم القيامة الحمَّادُون . . [4]

وهذا له حكم الرفع ، فهو مما لا يقال بالرأي [5].

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٢٨٤) من حديث رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٢٠٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٦٨٥) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٣٤) حدثنا إسماعيل أنا الجريري عن أبي العلاء بن الشخير عن مطرف به ، وتمامه : **«واعلم أنَّه لن تزال طائفةٌ من أهل الإِسلام يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتلوا الدجال ، واعلم أن رسول الله ﷺ قد أعمر من أهله في العشر فلم تنزل آية تنسخ ذلك ، ولم ينه عنه رسول الله ﷺ حتى مضى لوجهه ، ارتأى كل امرئ بعد ما شاء الله أن يرتئي»**.

وسنده صحيح ، مطرف هو ابن عبد الله بن الشخير ، وأبو العلاء هو يزيد بن عبد الله ، وهما أخوان ثقتان ، وإسماعيل هو ابن علية وهو ممن روى عن الجريري قبل الاختلاط .

(٥) قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٩٥) بعد أن ذكر الحديث : رواه أحمد موقوفًا وهو شبه=

وقال ﷺ في فضل الحمد على النعم : «**ما أنعمَ الله على عبدٍ نعمةً فقال : الحمدُ لله ، إلا كان الذي أعطاهُ أفضلَ مما أخذَ**» [1].

أي كان إلهامُ الله له من الحمد والشكر ، أفضل مما أخَذَ من النعمة.

وأخبر ﷺ أن حمدَ الله تعالى من أسباب رضاه عن العبد ، وذلك في قوله : «**إن الله ليرضى عن العبد أنْ يأكلَ الأكْلَةَ فيَحمَده عليها ، أو يشرب الشَّرْبَةَ فيحمده عليها**» [2].

٢- وقد اقترن هذا الاسم في الكتاب ببعض الأسماء الحسنى كقوله تعالى : ﴿**أن الله غني حميد**﴾ وقوله : ﴿**إنه حميد مجيد**﴾ وقوله : ﴿**الولي الحميد**﴾ وقوله : ﴿**العزيز الحميد**﴾ ، ويفيد ذلك قدرًا زائدًا على مفرديهما .

ففي الآية الأولى : له الحمد على غناه وجميل نعمه .

وفي الثانية : له الحمد على مَجْده وعظمته وكبريائه .

وفي الثالثة : له الحمد على تولِّيه المؤمنين بنصرته ورعايته لهم ،

= المرفوع ، ورجاله رجال الصحيح .

(١) حديث حسن .

أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٥٠) واللفظ له ، وابو بكر بن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم (٣٥٨) عن أبي عاصم الضحاك بن مخلد عن شبيب بن بشر عن أنس مرفوعًا به .

وسنده حسن ، شبيب بن بشر وثقه ابن معين ولينه أبو حاتم ، وقال الحافظ في «التقريب» : صدوق يخطئ .

وله شاهد ، يرويه الطبراني في «الكبير» (٨/ ١٩٣/ ٧٧٩٤) عن سويد بن عبد العزيز عن ثابت بن عجلان عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعًا بنحوه .

وفيه سويد بن عبد العزيز ، ضعيف ، وبذلك أعلَّه الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٩٥) .

(٢) رواه مسلم (٤/ ٩٥ ٢٠) .

ونعمته عليهم ، ومحبته لهم .

وفي الرابعة : له الحمد على عِزَّته وغلبته ، وعلى إعزازه لأوليائه ، ونصره لحزبه وجنده .

وفي هذه يقول العلامة أبو عبد الله ابن قيم الجوزية في بيانه لصفات الرب : صِفةٌ تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر ، وذلك قدر زائد على مفرديهما ، نحو (الغني الحميد) (العفو القدير) (الحميد المجيد) ، وهكذا عامة الصفات المُقْترنة ، والأسماء المزدوجة في القرآن .

فإن الغنى صفة كمال والحمد كذلك ، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر ، فله ثناء من غناه ، وثناء من حمده ، وثناء من اجتماعهما ، وكذلك (العفو القدير) و(الحميد المجيد) و(العزيز الحكيم) فتأمله ! فإنه من أشرْف المعارف [1] .

وعن معنى الاسمين (الحميد ـ المجيد) وسر اقترانهما في الكتاب يقول : أما الحميد فلم يأت إلا بمعنى المحمود ، وهو أبلغ من المحمود فإن «فعيلاً» إذا عدل به عن مفعول دلَّ على أن تلك الصفة قد صارت مثل السَّجِيَّة الغريزية والخُلُق اللازم ، كما إذا قلت : فلانٌ طريف أو شريف أو كريم ، ولهذا يكون هذا البناء غالبًا من فعل بوزن «شَرُفَ» وهذا البناء من أبنية الغرائز والسجايا اللازمة ككَبُرَ وصَغُرَ وحَسُنَ ولَطُفَ ونحو ذلك .

ولهذا كان (حبيب) أبلغ من (محبوب)، لأنَّ الحبيب هو الذي حصلت فيه الصفات والأفعال التي يُحَبُّ لأجلها ، فهو حبيب في نفسه ، وإن قُدِّرَ

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٦١) .

أن غيره لا يُحبه لعدم شعوره به أو لمانع منعه من حبه ، وأما المحبوب فهو الذي تَعلَّق به حب المحب فصار محبوبًا بحب الغير له ، وأما الحبيب فهو حبيب بذاته وصفاته تعلق به حب الغير أو لم يتعلق ، وهكذا الحميد والمحمود .

فالحميد الذي له من الصفات وأسباب الحمد ما يقتضي أن يكون محمودًا ، وإن لم يحمده غيره فهو حميد في نفسه ، والمحمود من تعلَّق به حَمْدُ الحامدين ، وهكذا المجيد والمُمَجَّد ، والكبير والمُكبَّر والعظيم والمُعَظَّم .

والحمد والمجد إليهما يرجع الكمال كله ، فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود ، فمن أحببته ولم تُثْن عليه لم تكن حامدًا له وكذا من أثنيت عليه لغرضٍ ما ولم تُحبه لم تكن حامدًا له حتى تكونُ مثنيًا عليه محبًا ، وهذا الثناء والحب تَبَعٌ للأسباب المقتضية له ، وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال ونعوت الجلال والإِحسان إلى الغير ، فإن هذه هي أسباب المحبة ، وكلما كانت هذه الصفات أجمع وأكمل ، كان الحمد والحب أتَمَّ وأعظم .

والله سبحانه له الكمالُ المطلق الذي لا نقصَ فيه بوجهٍ ما ، والإِحسان كلُّه له ومنه ، فهو أحقُّ بكلِّ حمدٍ وبكل حب من كل جهة ، فهو أهلٌ أنْ يُحَبَّ لذاته ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه ولإِحسانه ولكل ما صدر منه سبحانه .

وأما المجد فهو مستلزم للعظمة والسَّعَة والجلال ، كما يدل عليه موضوعه في اللغة ، فهو دَالٌّ على صفات العظمة والجلال ، والحمد يدل على صفات الإِكرام والله سبحانه ذو الجلال والإِكرام ، وهذا معنى

قول العبد : «لا إله إلا الله والله أكبر» ، فلا إله إلا الله دالٌّ على أُلوهيته وتفرده فيها ، فألوهيته تستلزم محبته التامة ، «والله أكبر» دالٌّ على مجده وعظمته وذلك يستلزم تمجيده وتعظيمه وتكبيره .

ولهذا يَقْرنُ سبحانه بين هذين النوعين في القرآن كثيرًا كقوله : ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وبركاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٣] وقوله سبحانه : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١] فأمر بحمده وتكبيره ، وقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٨] وقال : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧] .

وفي «المسند» و«صحيح أبي حاتم» وغيره من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال : «أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام» يعني الزموها وتعلقوا بها ، فالجلال والإكرام هو الحمد والمجد .

ونظير هذا قوله : ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠] وقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩] وقوله : ﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة: ٧] وقوله : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ [البروج: ١٤، ١٥] وهو كثير في القرآن [1].

٣- كلُّ ما يُحْمَدُ به العباد فهو من الله تبارك وتعالى ، فيرجع إليه سبحانه لأنه الواهب للصفات المحمودة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : وأيضًا فإن الله سبحانه

---

(١) «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» (ص١٨٦ ـ ١٨٧) ، ويأتي تخريج حديث : «ألظوا بياذا الجلال ..» في الاسم نفسه .

أخبر أنه له الحمد ، وأنه حميد مجيد ، وأن له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم ، ونحو ذلك من أنواع المحامد.

والحمد نوعان : حمدٌ على إحسانه إلى عباده ، وهو من الشكر .

وحمدٌ لما يستحقه هو بنفسه من نُعوت كماله ، وهذا الحمد لا يكون إلا لمَن [1] هو في نفسه مستحق للحمد ، وإنما يستحق ذلك من هو متصفٌ بصفات الكمال ، وهي أمور وجودية ، فإن الأمور العدمية المحضة لا حمد فيها ، ولا خير ولا كمال .

ومعلوم أن كل ما يحمد فإنما يحمد على ما له من صفات الكمال فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق ، والذي منه ما يحمد عليه هو أحقُّ بالحمد ، فثبت أنه المستحقُّ للمحامد الكاملة ، وهو أحق من كل محمودٍ بالحمد ، والكمال من كل كامل ، وهو المطلوب [2] .

* * *

---

(١) في الأصل: لا يكون إلا على ما هو في نفسه... ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) "مجموع الفتاوي" (٦/٨٣ ، ٨٤).

الحيُّ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٦٧)

*** المعنى اللغوي :**

الحياةُ : ضدُّ الموت ، والحيُّ ، ضد الميت .

وحَيِيَ حياةً ، وحيَّ يحيا ويَحَيُّ فهو حَيٌّ وللجميع حَيُّوا .

وأحياه الله فحيي وحيَّ ، والإدغام أكثر [1].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد هذا الاسم في خمس آيات من الكتاب العزيز ، وهي :

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿ الم ۝ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ١، ٢]

وقوله تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨] .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [غافر: ٦٥] .

---

(١) «الصحاح» (٦/٢٣٢٣) (حيا) ، و«اشتقاق الأسماء» (ص١٠٢) و«اللسان» (٢/١٠٧٥ - ١٠٧٦).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال الطبري : وأما قوله (الحي) فإنه يعني الذي له الحياة الدائمة ، والبقاء الذي لا أولَ له يُحَدُّ ، ولا آخر له يؤمد[1] إذ كان كل ما سواه فإنه وإنْ كان حيًا فلحياته أولٌ محدود ، وآخر مأمود ، ينقطع بانقطاع أمدها ، وينقضي بانقضاء غايتها [2].

وقال في آية آل عمران: وقال آخرون: معنى ذلك أن له الحياة الدائمة التي لم تزلْ له صفة ولا تزال كذلك ، وقالوا : إنما وَصَفَ نفسه بالحياة لأن له حياةً ، كما وصفها بالعلم لأن لها علمًا ، وبالقدرة لأن لها قدرة .

ومعنى ذلك عندي : أنه وَصَفَ نفسه بالحياة الدائمة التي لا فناء لها ولا انقطاع ، ونفى عنها ما هو حالٌ بكلِّ ذي حياةٍ من خلقه ، من الفناء وانقطاع الحياة عند مجيء أجله ، فأخبر عباده أنه المستوجب على خلقه العبادة والأُلُوهة .

و(الحيُّ) الذي لا يموت ولا يبيد ، كما يموت كل من اتُخِذَ من دونه

(١) من الأمد : وهو الغاية ومنتهى الأجل .

(٢) «جامع البيان» (٣/ ٤) .

وقد حكى بعد ذلك الاختلاف في تأويل هذا الاسم وما يدل عليه من الصفة ، فقال :

وقد اختلف أهل البحث في تأويل ذلك فقال بعضهم : إنما سمى الله نفسه «حيًا» لصرفه الأمور مصارفها ، وتقديره الأشياء مقاديرها ، فهو حي بالتدبير لا بحياة !

وقال آخرون : بل هو حي بحياة هي له صفة .

وقال آخرون : بل ذلك اسم من الأسماء تسمى به فقلناه تسليمًا لأمره اهـ كلام ابن جرير.

والعجب كيف سكت على القول الأول وهو من أقوال الجهمية نفاة الصفات ، إذ كلامهم هنا يقتضي نفي الصفة وتفسيرها بلوازمها وهو التقدير والتدبير .

والقول الأخير أيضًا هو مذهب المفوضة المبتدعة . والصواب هو القول الثاني ، وقد اختاره في الموضع الآتي ذكره .

ربًا ، ويبيد كل من ادَّعى من دونه إلهًا ، واحتج على خلقه بأن : من كان يبيد فيزول ويموت فيفنى ، فلا يكون إلهًا يستوجب أن يعبد دون الإله الذي لا يبيد ولا يموت ، وأن الإله هو الدائم الذي لا يموت ولا يبيد ولا يفنى ، وذلك الله الذي لا إله إلا هو[1] .

وقال الزجاج : (الحي) يُفيدُ دوام الوجود ، والله تعالى لم يَزلْ مَوجودًا ، ولا يزال موجودًا[2] .

وقال الزجاجي : (الحيُّ) في كلام العرب : خِلافُ الميت ، والحَيَوان خلاف الموات .

فالله عز وجل الحي الباقي ، الذي لا يجوز عليه الموت ولا الفناء عز وجل وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا .

ولا تعرف العرب عن الحيِّ والحياة غير هذا[3] .

وقال الخطابي : (الحي) من صفة الله تعالى : هو الذي لم يزل موجودًا وبالحياة موصوفًا ، لم تحدث له الحياة بعد موت ، ولا يعترضه الموت بعد الحياة ، وسائر الأحياء يَعْتَورُهُم الموت أو العدم في أحد طَرَفَي الحياة أو فيهما معًا، و﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] [4].

وذكر البيهقي العبارة الأولى للخطابي ثم قال : فالحياة له صفةٌ قائمةٌ بذاته [5].

وقال ابن كثير : (الحي القيوم): أي الحي في نفسه الذي لا يموت

---

(١) «جامع البيان» (٣/١٠٩/٦٢) وهنا قد صرَّح باختياره للمذهب الحق في معنى الاسم والحمد لله.

(٢) «تفسير الأسماء» (ص٥٦) .

(٣) «اشتقاق الأسماء» (ص١٠٢) .

(٤) «شأن الدعاء» (ص٨٠) .

(٥) «الاعتقاد» (ص٦٢) .

أبدًا ، القيم لغيره[1] .

ويأتي كلام السعدي وابن القيم عن هذا الاسم في معنى اسمه (القيوم) .

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- إن الله تبارك وتعالى حيٌّ بحياة هي له صفة ، حيٌّ أبدًا لا يموت والجن والإنس يموتون ، بل كل ما على الأرض، كما قال تعالى : **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾** [الرحمن: ٢٦، ٢٧] .

فهذا الاسم فيه إثبات صفة الحياة ، وهي من الصفات الذاتية ، فحياته سبحانه أكمل حياة وأتمها ، ويستلزم ثبوت كل كمال يُضادُّ نفيه كمال الحياة.

وقد فرَّ الزمخشري المعتزلي من إثبات هذه الصفة ففسرها بلازمها ، فقال في كشافه : (الحي) الباقي الذي لا سبيل عليه للفناء ، وهو على اصطلاح المتكلمين الذي يصح أن يَعْلم ويقدر[2] .

٢- وحياته جل وعلا مُنزهةٌ عن مشابهة حياة الخلق، فلا يجري عليها الموت أو الفناء ، ولا تعتريها السِّنَة ولا النوم ، والسِّنَةُ هي : النعاس الذي يكون في العين ويسبق النوم ، وكلاهما ينافي كمال القدرة والحياة ، لأن النوم قاهر للحي منَّا معطلٌ لحواسه وقدرته وعلمه ، ولا يصح أن يُوصف الله بذلك . وكيف يتصور جريان النوم عليه ، ولا قيام للسماوات والأرض إلا به؟! قال سبحانه: **﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا**

---

(١) «التفسير» (١/ ٣٠٨) .

(٢) «الكشاف» (١/ ٣٨٤) .

غفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

وقال ﷺ : « **إنَّ الله لا ينام ، ولا ينبغي له أنْ ينام ، يَرْفُع القسط ويخفضُهُ ، ويُرفع إليه عملُ النَّهارِ بالليل ، وعملُ الليلِ بالنَّهار**» [(١)].

٣- الله جلَّ شأنه هو الذي يهب أهل الجنة تلك الحياة الدائمة الباقية التي لا تفنى ولا تبيد ، قال سبحانه :﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ**﴾ [العنكبوت: ٦٤] .

فحياتهم دائمة بإدامة الله لها ، لا أنَّ الدوام وصفٌ لازمٌ لها لذاتها ، بخلاف حياة الرب تعالى ، وكذلك سائر صفاته ، فصفات الخالق كما يَليق به ، وصفات المخلوق كما يليق به .

فالحياة الدنيا كالمنام ، والحياة الآخرة كاليقظة[(٢)] .

٤- كان من دعاء المصطفى ﷺ أنه كان يقول : «**اللهم لكَ أسلمتُ وبكَ آمنتُ ، وعليك توكلتُ ، وإليك أنبت ، وبك خَاصمت ، اللهم إني أعوذُ بعزتك لا إله إلا أنت أن تُضِلَّني أنتَ الحيُّ الذي لا يموتُ ، والجنّ والإِنس يموتون**» [(٣)].

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥) ومسلم في الإيمان (١/١٦٢) عن أبي موسى رضي الله عنه .

(٢) انظر «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١٢٤) عند قول الطحاوي : «حيٌّ لا يموت قيوم لا ينام» .

(٣) أخرجه البخاري مختصراً في التوحيد (١٣/٣٦٨ ـ ٣٦٩) ومسلم في الذكر (٤/٢٠٨٦) والبيهقي في «الأسماء» (ص١١١ـ ١١٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .
(وإليك أنبت) : أي أقبلت بهمتي وطاعتي وأعرضت عما سواك.
(وبك خاصمت) : أي بك أحتج وأدافع وأقاتل .

القَيُّومُ

جل جلاله وتقدست أسماؤه

(٦٨)

* المعنى اللغوي :

القِيام نقيض الجلوس .

قال ابن بَرِّيٍّ : قد ترتجل العرب لفظة «قام» بين يدي الجُمَل فيصير كاللغو ، ومعنى القيام : العزم ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] أي : لما عَزَمَ ، وقوله تعالى : ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤] أي: عزموا فقالوا.

قال : وقد يجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح ، ومنه قوله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] وقوله تعالى : ﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥] أي : ملازمًا محافظًا .

ويجيء القيام بمعنى الوقوف والثبات ، يقال للماشي : قف لي ، أي: تحبس مكانك حتى آتيك ، وكذلك قم لي بمعنى قف لي ، وعليه فسَّروا قوله سبحانه : ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: ٢٠] .

ومنه التوقف في الأمر ، وهو الوقوف عنده من غير مجاوزة له . ومنه قامت الدابة إذا وقفت عن المسير ، وقام عندهم الحق ، أي ثبت ولم يبرح ، ومنه قولهم : أقام بالمكان هو بمعنى الثبات[1] .

(١) باختصار من «اللسان» (٥/ ٣٧٨١) (قوم) ، وانظر «الصحاح» (٥/ ٢٠١٦ ـ ٢٠١٨) .

وقال الزجاج : (القيوم) : هو فيعول من قام يقوم ، الذي بمعنى : دام ، لا القيام المعروف ، وقال الله تعالى ذكره : ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً** ﴾ [آل عمران: ٧٥] ، أي : دائمًا ، والله أعلم . القيوم هــو الدائم ، وكــان من قراءة عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «الحي القيَّام»[١] .

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد الاسم في ثلاث آيات من القرآن ، وهي :

قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [آل عمران: ٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً** ﴾ [طه: ١١١] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال أبو عبيدة : القائم وهو الدائم الذي لا يزول ، وهو فيعول[٢] .

وقال ابن جرير بعد أن ذكر اختلاف القراء في قراءة (القيوم) : فأما تأويل جميع الوجوه التي ذكرنا أن القرَّاء قرأت بها فمتقارب ، ومعنى ذلك كله :

---

(١) «تفسير الأسماء» (ص٥٦) . وقال الفراء في «معاني القرآن» (١/ ١٩٠) : (الحي القيوم) قراءة العامة ، وقرأها عمر بن الخطاب وابن مسعود (القيام) ، وصورة القيوم : الفيعول ، والقيام الفيعال ، وهما جميعًا مدح ، وأهل الحجاز أكثر شيء قولاً : الفيعال من ذوات الثلاثة فيقولون للصوّاغ : الصياغ ا هـ . وانظر «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص١٠٥ - ١٠٨) فقد ذكر نحو ما ذكره ابن بري من الأوجه في معنى (القيام) .

(٢) «مجاز القرآن» (١/ ٧٨) .

القيم بحفظ كل شيء ورزقه ، وتصريفه فيما شاء وأحب ، من تغيير وتبديل ، وزيادة ونقص .

وقال آخرون : معنى ذلك القيام على مكانه ، ووجهوه إلى القيام الدائم الذي لا زوالَ معه ولا انتقال، وأن الله عز وجل إنما نفى عن نفسه بوصفها بذلك التغيير والتَّنقل من مكان إلى مكان ، وحدوث التبدل الذي يحدث في الآدميين وسائر خلقه غيرهم . ونقله عن محمد بن جعفر بن الزبير .

ثم رجَّح ابن جرير فقال : وأولى التأويلين بالصواب ما قاله مجاهد والربيع ، وأن ذلك وَصْفٌ من الله تعالى وذكره نفسه بأنه القائم بأمر كلِّ شيء في رزقه ، والدفع عنه وتدبيره وصرفه في قدرته ، من قول العرب: فلانٌ قائم بأمر هذه البلدة ، يعني بذلك : المتولي تدبير أمرها .

فالقيوم إذ كان ذلك معناه الفيعول ، من قول القائل : الله يقوم بأمر خلقه[1] .

وقال الزجاجي : (القيوم) : فيعول من قام يقوم ، وهو من أوصاف المبالغة في الفعل ، وهو من قوله عز وجل : ﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ [الرعد: ٣٣] أي : يحفظ عليها ويُجازيها ويحاسبها[2] .

وقال الخطابي : (القيوم) هو : القائم الدائم بلا زوال ، ووزنه فيعول من القيام وهو نعتُ المبالغة في القيامة على الشيء .

ويقال : هو القَيِّمُ على كلِّ شيء بالرعاية له ، ويقال قمت بالشيء ،

---

(١) «جامع البيان» (٣/ ١١٠) ثم ذكر بعد ذلك أصل القيوم هو : القيووم ، وأصل القيام هو : القيوام ، وأما القيم فهو : الفيعل من قام يقوم ، وكلها أبلغ في المدح من القائم .

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص١٠٥) .

إذا وليته بالرعاية والمصلحة[1] .

وقال البيهقي : (القيوم) هو القائم الدائم بلا زوال .

فيرجع إلى صفة البقاء ، والبقاء صفة الذات .

وقيل : هو المدبِّر والمتولي بجميع ما يجري في العالم .

وهو على هذا المعنى من صفات الفعل[2] .

وقال القرطبي : (القيوم) من قام ، أي القائم بتدبير ما خلق[3] .

وقال السعدي : (الحي القيوم) كامل الحياة ، والقائم بنفسه ، القيوم لأهل السماوات والأرض ، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم ، فالحي : الجامع لصفات الذات ، والقيوم : الجامع لصفات الأفعال[4] .

وقال العلامة ابن القيم في النونية :

هذا ومِنْ أوْصَافِه القَيُّوم والـ ـقيوم في أوصَافِـهِ أمْرانِ
إحَداهما القَيُّوم قامَ بنفسه والكونُ قامَ به هما الأمْرانِ
فالأولُ اسْتغناؤُه عن غيرهِ والفَقْر من كلٍّ إليه الثاني
والوصف بالقيوم ذو شان عظـ ـيم هكذا مَوْصُوفُه أيضًا عظيم الشَّان
والحي يتلوه فأوصاف الكما ل هما لأفق سَمائها قُطْبانِ
فالحيُّ والقيوم لن تتخلفَ الـ أوْصَافُ أصلاً عنهما ببيان[5]

(١) «شأن الدعاء» (ص٨٠) .

(٢) «الاعتقاد» (ص٦٢) .

(٣) «التفسير» (٣/ ٢٧١) ، وبنحوه قال الحليمي في «المنهاج» (١/ ٢٠٠) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ،ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٤٨) .

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٠٣) .

(٥) «النونية» (٢/ ٢٣٦) .

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١- وَصْفُ الله تعالى ذكره بأنه قيوم بنفسه ، لا يحتاج في قيامه ودوامه إلى أحد ، يُطْعِم ولا يُطْعَم ، وكيف يحتاج إلى غيره أو أحد من خلقه ، وهم أنفسهم لا قيامَ لهم إلا بإقامة الحي القيوم لهم ؟!

فقيامه تعالى بذاته وليس ذلك إلا له تعالى .

٢- وصفه تعالى بأنه المدبر لأمر الخلائق في السماء والأرض ، المصرف لشؤونها ، لأنها ليست قائمة بنفسها بل محتاجة للحي القيوم الذي يرزقها ويحييها ويقيمها .

ولاشك أن من عَرَف هذه الصفة في ربه توكل عليه، وانقطع قلبه عن الخلق إليه ، وذلك أنهم محتاجون مفتقرون مثله إلى خالقهم في قيامهم وقعودهم ، وحياتهم وبعد مماتهم ، في دينهم ودنياهم ، فكيف يرجوهم بعد ذلك ؟!

٣- ومن كمال قيوميته تعالى أنه لا ينام ، إذ هو مختص بعدم السنة والنوم دون خلقه فإنهم ينامون[١] .

٤- اقترن هذا الاسم بالحي في ثلاثة مواضع كما سبق ، واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال ، ويدلُّ على بقائها ودوامها ، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلاً وأبدًا ، ولهذا كان قوله ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أعظم آية في القرآن ، كما ثبت ذلك في الصحيح عن النبي ﷺ[٢].

---

(١) انظر آثار الإيمان بـ (الحي) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٤١ ـ ١٤٢) ومسلم في صلاة المسافرين (١/ ٥٥٦) عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ : «**يا أبا المنذر أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: =

فعلى هذين الاسمين مَدارُ الأسماء الحسنى كلِّها ، وإليهما تَرجعُ معانيها ، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، فلا يتخلَّف عنها صفةٌ منها إلا لضعف الحياة ، فإذا كانت حياته تعالى أكملَ حياةٍ وأتمَّها ، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يُضادُّ نفيه كمالَ الحياة .

وأما (القيوم) فَمُتضمِّنٌ كمالَ غناه وكمال قدرته ، فإنه القائم بنفسه ، فلا يحتاج إلى غيره بوجهٍ من الوجوه، المقيم لغيره ، فلا قيام لغيره إلا بإقامته .

فانتظم هذان الاسمان صفاتِ الكمال أتمَّ انتظام[(١)] .

٥- جاء في السنة المطهرة ما يدل على عظمة هذين الاسمين ، والدعاء بهما مجتمعين ، حتى قال بعض العلماء إنهما الاسم الأعظم للرب تبارك وتعالى ، كما في حديث أنس رضي الله عنه قال : كنت جالسًا مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنَّان المنَّان ، بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حيُّ يا قيوم ، فقال النبي ﷺ : **«دعا الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجَاب ، و إذا سُئِل به أعطى»** [(٢)].

وقد سبق بيان أن الصواب في الاسم الأعظم هو (الله) جل جلاله وتقدست أسماؤه[(٣)] .

= قلت : الله ورسوله أعلم، قال: **«يا أبا المنذر أتدري أيُّ آية من كتاب الله معك أعظم؟»** قال قلت: **﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾** قال: فضرب على صدري وقال : **«ليَهْنك العلم أبا المنذر»** . أي ليكن العلم هنيئًا لك .

(١) انظر «شرح الطحاوية» (ص١٢٥) من ط المكتب الإسلامي ، و(١/ ٩١ ـ ٩٢) ط الرسالة.

(٢) سبق تخريجه في الجزء الأول (ص٦٤) .

(٣) انظر بيان هذه المسألة في الجزء الأول (ص ٦٣ ـ ٦٩) .

وعلىٰ كل حال فدعاء الله بهما من امتثال أمره في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠] .

٦- ومنها : حديث أنس أنه قال : «كان رسول الله ﷺ يدعو : يا حَيُّ يا قَيُّوم»[١] .

وفي رواية «كان من دعاء النبي ﷺ : أي حيُّ أي قيوم»[٢] .

٧- ومنها : حديث أنس بن مالك قال : قال النبي ﷺ لفاطمة : «ما **يَمنعُك أن تَسمعي ما أُوصيك به! أنْ تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت : يا حيُّ يا قَيُّوم برحمتكَ أسْتَغيثُ ، أصْلحْ لي شأني كلَّه ، ولا تكلني إلىٰ نفسي طَرْفَةَ عين»** [٣].

---

(١) حديث حسن ، أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦١٢) قال : أخبرنا محمد بن عقيل أخبرنا حفص حدثني إبراهيم عن الحجاج بن الحجاج عن قتادة عن أنس به .

ورجاله ثقات ، سوىٰ حَفْص وهو ابن عبد الله السليمي النيسابوري كاتب إبراهيم بن طهمان ذكره ابن أبي حاتم (٣/ ١٧٥) وقال سمعت أبي يقول : هو أحسن حالاً من حفص ابن عبد الرحمن ، وحفص بن عبد الرحمن هو البلخي ويعرف بالنيسابوري قال فيه : صدوق وهو مضطرب وحفص بن عبد الله أحسن حالاً منه .

والحجاج هو الباهلي الأحول ، وثقه ابن معين وأبو حاتم وأبو داود .

(٢) إسنادها صحيح ، أخرجها النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦١٣) وفي النعوت من «الكبرىٰ» ـ كما في «التحفة» (١/ ٢٣٤) ـ والبيهقي في «الأسماء» (١١٤) عن محمد بن عبد الأعلىٰ حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن أنس به .

ووقع عند البيهقي : «**يا حي يا قيوم**» ! والمثبت موافق للنسائي و«تحفة الأشراف» .

(٣) إسناده حسن ، أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٧٠) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٨) والبزار (٣١٠٧) «زوائد»، والحاكم (١/ ٥٤٥) والبيهقي في «الأسماء» (ص١١٢) من طرقٍ عن زيد بن الحباب حدثني عثمان بن موهب الهاشمي قال : سمعت أنس بن مالك يقول فذكره .

قال الحاكم : صحيح علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي !

٨- ومنها : حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قالَ أستغفرُ الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيوم وأتوبُ إليه ثلاثًا غُفِرت ذُنُوبه وإنْ كان فارًا من الزَّحْفِ»[1] .

= قال الهيثمي (١٠/١١٧) : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح!

كذا قالوا ! مع أن عثمان بن موهب ليس من رجال الشيخين !

بل تفرد بالإخراج عنه النسائي ، قال أبو حاتم : صالح الحديث .

وقال الحافظ : مقبول !

وأخرج الترمذي (٥/٣٥٢٤) ، وابن السني (٣٣٩) عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا كربه أمر قال : **«يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»** .

قال الترمذي : حديث غريب .

وفيه يزيد الرقاشي ، ضعيف .

وله شاهد من حديث ابن مسعود : أخرجه الحاكم (١/٥٠٩) وفيه عبد الرحمن بن إسحاق أبو شيبة الواسطي ، ضعيف ، والنضر بن إسماعيل ، ليس بالقوي .

ومع ذلك حسنه الألباني حفظه الله في «الكلم الطيب» (١١٨) !

وأخرجه البيهقي في «الأسماء» (ص١١٣) عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم عن ابن مسعود . وقال إنها مع إرسالها أصح من الطريق السابقة .

(١) حديث صحيح ، أخرجه الحاكم (١/٥١١) (٢/١١٧ ـ ١١٨) عن إسرائيل عن أبي سنان عن أبي الأحوص عن ابن مسعود به .

وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

فتعقبه الذهبي بقوله : أبو سنان هو ضرار بن مرة لم يخرج له البخاري .

قلت : وهو كما قال الذهبي من رجال مسلم فقط ، وهو ثقة ثبت .

والحاكم عاد في الموضع الثاني فقرر هذا بقوله : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٠٠) عن إسماعيل عن أبي سنان عن أبي الأحوص به.

وإسماعيل هو ابن يحيى الشيباني ـ كما في «تهذيب الكمال» ـ متهم بالكذب .

وللحديث شاهد من حديث زيد مولى رسول الله ﷺ .

فقد أخرجه أبو داود (١/١٧٨) والترمذي (٥/٣٥٧٧) والبيهقي في «الأسماء» (ص٤٧ ،=

قال أبو نعيم الأصبهاني : هذا يدل على أن بعض الكبائر تُغفر ببعض

= ١١٢) عن موسى بن إسماعيل حدثنا حفص بن عمر الشَّنِّي حدثني أبي عمر بن مرة قال سمعت بلال بن يسار بن زيد مولى النبي ﷺ قال: سمعت أبي يحدثنيه عن جدي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : **«من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له ، وإن كان قد فرَّ من الزحف»**.

قال الترمذي : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

قال ابن علان في «تخريج الأذكار» (٧/ ٢٨٨) : قال الحافظ المنذري إسناده جيد متصل ، فقد ذكر البخاري في تاريخه أن بلالاً سمع أباه يساراً ، وأن يساراً سمع من أبيه زيد مولى رسول الله ﷺ ا هـ.

قال مقيده عفا الله عنه : زيد مولى النبي ﷺ صحابي ليس له غير هذا الحديث ، قاله البغوي ، وبلال ويسار لم يوثقهما سوى ابن حبان في الثقات ، وقال الحافظ في كل منهما : مقبول .

وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري :

أخرجه أحمد (٣/ ١٠) والبيهقي في «الأسماء» (ص١١٢ ـ ١١٣) عن عبيد الله بن الوليد الوصافي عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا : **«من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر ، وإن كانت مثل رمل عالج ، وإن كانت مثل عدد ورق الشجر»** .

وفي سنده ضعيفان : عطية العوفي وهو مدلس أيضًا ، وعبيد الله بن الوليد .

وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٩٩) بسند حسن عن أبي سعيد الخدري موقوفًا بلفظ : **«من قال أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه خمس مرات غفر له وإن كان عليه مثل زبد البحر»** .

وله شاهد من حديث معاذ : خرجه ابن أبي شيبة أيضًا (١٠/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠) عن شريك عن أبي إسحاق عن معاذ بن جبل موقوفًا بنحو حديث ابن مسعود .

وأخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٣٦) عن معمر بن إسرائيل عن أبي إسحاق عن رجل عن معاذ، وفيه رجل لم يسم .

العمل الصالح ، وضابطه الذنوب التي لا توجب على مرتكبها حكمًا في نفس ولا مال ، ووجه الدلالة منه أنه مثل بالفرار من الزحف وهو من الكبائر ، فدل على أن ما كان مثله أو دونه يغفر إذا كان مثل الفرار من الزحف ، فإنه لا يوجب على مرتكبه حكمًا في نفسٍ ولا مال[1] .

* * *

(١) «الفتح» (١١/ ٩٨) .

الواحد ـ الأحد

جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه

(٦٩ ـ ٧٠)

* **المعنى اللغوي :**

أحَدٌ بمعنى الواحد ، وهو أول العدد ، تقول : أحدٌ واثنان ، وأحد عشر وإحدى عشرة .

قال الكسائي : تقول : لا أحدَ في الدار ، ولا تقل : فيها أحدٌ .

وأما قولهم : ما في الدار أحد ، فهو اسم لمن يصلح أن يخاطب ، يستوي فيه الواحد والجمع والمؤنث ، قال تعالى : ﴿**لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ**﴾ [الأحزاب: ٣٢] .

وقال : ﴿**فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**﴾ [الحاقة: ٤٧] .

وأستَأْحَدَ الرجل : انفرد[١] .

والوَحْدَة : الانفراد ، تقول : رأيته وحدَه .

ورجل واحد : متقدم في بأسٍ أو علم أو غير ذلك ، كأنه لا مِثلَ له فهو وحده لذلك[٢] .

وقال الزجاج : (الواحد) : وضع الكلمة في اللغة إنما هو للشيء الذي ليس باثنين ولا أكثر منهما[٣].

---

(١) «الصحاح» (٢/ ٤٤٠) (أحد) ، «اللسان» (١/ ٣٥) .

(٢) «الصحاح» (٢/ ٥٤٧ ـ ٥٤٨) (وحد) ، «اللسان» (٦/ ٤٧٧٩ ـ ٤٧٨٣) .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص٥٧) .

وقال في (الأحد) : قال أهل العربية : أصله «وَحَدٌ» ثم قلبت الواو همزَة ، وهذا الكلام عزيز جداً أن تُقلب الواو المفتوحة همزة ، ولم نعرف له نظيراً إلا أحرفًا يسيرة ، منها أناة ، وأحرف نظيرتها ، ويقال : هذا واحدٌ ووَحَدٌ ، كما قدمناه من سالم وسلم ، حاكم وحكم ، وقال النابغة :

علي مُستَأنسٍ وَحَدِ .

وقال بعض أصحاب المعاني : الفرق بين الواحد والأحد : أن الواحد يفيد وحدة الذات فقط ، والأحد يفيده بالذات والمعاني .

وعلى هذا جاء في التنزيل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أراد المنفرد بوحدانيته في ذاته وصفاته ، تعالى الله علُواً كبيراً [1] .

وقال أبو حاتم[2] في كتاب «الزينة» : (أحد) هو اسمٌ أكمل من الواحد ألا ترى أنك إذا قلت : فلانٌ لا يقوم له واحد ، جاز في المعنى أنْ يقوم اثنان فأكثر ، بخلاف قولك : لا يقوم له أحد .

وفي (الأحد) خصوصيةٌ ليست في الواحد ، تقول : ليس في الدار واحد ، فيجوز أن يكون من الدواب والطَّير والوحش والإنس فيعم الناس

---

(١) المصدر السابق (ص٥٨) وانظر «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص٩٢) .

(٢) هو الإمام العلامة أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد بن عثمان البصري المقرئ النحوي اللغوي ، صاحب التصانيف ، أخذ عن يزيد بن هارون وأبي عبيدة بن المثنى والأصمعي وغيرهم ، وحدث عنه أبو داود والنسائي والبزار وتخرج به أئمة منهم أبو العباس المبرد قال الحافظ : صدوق فيه دعابة .

من كتبه : «إعراب القرآن» ، «ما يلحن فيه العامة» ، «المقصور والممدود» ، «القراءات» وغيرها ، توفي سنة خمس وخمسين ومائتين وقيل سنة خمسين . انظر «التهذيب» (٤/٢٥٧ ـ ٢٥٨) ، «السير» (١٢/ ٢٦٨ ـ ٢٧٠) .

وغيرهم ، بخلاف ليس في الدار أحد ، فإنه مخصوصٌ بالآدميين دون غيرهم .

قال : ويأتي (الأحد) في كلام العرب بمعنى الأول وبمعنى الواحد ، فيستعمل في الإثبات وفي النفي نحو ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] أي : واحد وأول ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ [الكهف: ١٩] وبخلافهما فلا يستعمل إلا في النفي ، تقول : ما جاءني من أحد ، ومنه ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥] ﴿أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٧] ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [الحاقة: ٤٧] ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ [التوبة: ٨٤] . وواحد يستعمل فيهما مطلقًا يستوي فيه المذكر والمؤنث . قال تعالى : ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢] بخلاف الواحد فلا يقال كواحد من النساء بل كواحدة .

و(أحد) يصلح في الإفراد والجمع ، قلت : ولهذا وُصِفَ به في قوله تعالى : ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ بخلاف الواحد . و(الأحد) له جمع من لفظه وهو الأحدون والآحاد ، وليس للواحد جمع من لفظه ، فلا يقال : واحدون بل اثنان وثلاثة .

و(الأحد) ممتنع الدخول في الضرب والعدد والقسمة وفي شيء من الحساب بخلاف (الواحد) . انتهى كلامه .

نقله السيوطي ثم قال : وقد تحصل من كلامه سبعة فروق[1] .

*** ورود الاسمين في القرآن الكريم :**

ورد اسمه (الواحد) في ثنتين وعشرين آيةً ، منها :

قوله تعالى : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] .

---

(١) «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي (١/ ١٩١) ط الحلبي .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١] .

وقال تعالىٰ علىٰ لسان يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] .

وقال تعالىٰ : ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦] .

وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: ٤، ٥] .

وقال تعالىٰ : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤] .

وقال تعالىٰ : ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] .

* وأما اسمه (الأحد) فورد مرة واحدة في مطلع سورة الأخلاص وهو قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] .

*** معنىٰ الاسمين في حق الله تعالىٰ :**

قال ابن جرير في قوله تعالىٰ : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ : قد بيَّنا فيما مضىٰ معنىٰ الألوهية وأنها : اعتباد الخلق ، فمعنىٰ قوله : ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الذي يستحق عليكم أيها الناس الطاعة له ، ويستوجب منكم العبادة معبودٌ واحد ، وربٌّ واحد ، فلا تعبدوا غيره ولا تشركوا معه سواه ، فإن من تشركونه معه في عبادتكم إياه هو خلقٌ من خلقِ إلهكم مثلكم ، وإلهكم واحد لا مثل له ولا نظير .

ثم قال : واختلف في معنىٰ وحدانيته تعالىٰ ذكره ، فقال بعضهم :

معنى وحدانية الله معنى نفي الأشباه والأمثال عنه ، كما يقال : فلانٌ واحد الناس ، وهو واحدُ قومه ، يعني بذلك أنه ليس له في الناس مثل ، ولا له في قومه شبيهٌ ولا نظير فكذلك معنى قول الله واحد ، يعني به الله لا مثل له ولا نظير .

فزعموا أن الذي دلَّهم على صحة تأويلهم ذلك أن قول القائل (واحد) يفهم لمعان أربعة :

أحدها : أن يكون واحدًا من جنس ، كالإنسان الواحد من الإنس .

والآخر : أن يكون غير متصرف كالجزء الذي لا ينقسم . والثالث : أن يكون معنيًا به المثل والاتفاق ، كقول القائل : هذان الشيئان واحد ، يراد بذلك أنهما متشابهان حتى صارا لاشتباههما في المعاني كالشيء الواحد .

والرابع : أن يكون مرادًا به نفي النظير عنه والشبيه .

قالوا : فلما كانت المعاني الثلاثة من معاني الواحد مُنتفيةً عنه، صح المعنى الرابع الذي وصفناه .

وقال الآخرون : معنى وحدانيته تعالى ذكره معنى انفراده من الأشياء وانفراد الأشياء منه ، قالوا : وإنما كان منفردًا وحده لأنه غير داخلٍ في شيء ، ولا داخل فيه شيء ، قالوا : ولا صحة لقول القائل واحد من جميع الأشياء إلا ذلك ، وأنكر قائلو هذه المقالة المعاني الأربعة التي قالها الآخرون[1] .

وقال الخطابي : (الواحد) هو الفَرْدُ الذي لم يزلْ وحده ، ولم يكن

---

(١) «جامع البيان» (٢/٣٦) .

معه آخر .

وقيل : هو المنقطع القرين ، المعدوم الشريك والنظير .

وليس كسائر الآحاد من الأجسام المؤلفة ، إذ كلُّ شيءٍ سواه يُدعى واحدًا فهو واحدٌ من جهة غيرُ واحد من جهات .

والله سبحانه الواحد الذي ليس كمثله شيء .

وقال : والفرق بين (الواحد) و(الأحد) ، أن (الواحد) هو المنفرد بالذات لا يضامُّهُ آخر .

و(الأحد) : هو المنفرد بالمعنى لا يشاركه فيه أحد ، ولذلك قيل للمتناهي في العلم والمعرفة ، هو أحد الأحَدَين .

وقال : وأما الوحيد فإنما يوصف به في غالب العُرف المنفرد عن أصحابه ، المنقطع عنهم ، وإطلاقه في صفة الله سبحانه ليس بالبيِّن عندي صوابُه ، ولا أستحسنُ التسميةَ بعبد الوحيد كما استحسنها بعبد الواحد وبعبد الأحد ، وأرى كثيراً من العامة قد تسمَّوا به [1].

وقال البيهقي : (الواحد) هو الفرد الذي لم يزل وحده بلا شريك .

وقيل : هو الذي لا قَسيم لذاته ولا شبيه له ولا شريك .

وهذه صفةٌ يستحقها بذاته .

وقال في (الأحد) : الذي لا شبيه له ولا نظير[2].

وقال السعدي: (الواحد الأحد): وهو الذي تَوحَّدَ بجميع الكمالات، بحيث لا يُشاركه فيها مشارك ، ويجب على العبيد توحيده : عقدًا وقولاً

(١) «شأن الدعاء» (ص ٨٢ ـ ٨٣) باختصار .

(٢) «الاعتقاد» (ص ٦٣ ، ٦٧) .

وعملاً ، بأن يعترفوا بكماله المطلق ، وتفرده بالوحدانية ويفردوه بأنواع العبادة [1].

*** من آثار الإيمان بهذين الاسمين :**

١- الله جل ثناؤه هو الإله (الواحد الأحد) الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، في ذاته ولا في صفاته ولا أفعاله كما قال سبحانه : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١] وقال : ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ [مريم: ٦٥] وقال : ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ٤] .

فلا يجوز أن يُشَبَّه ربُّنا تعالى جَدُّه بشيء من مخلوقاته لأنه تعالى أخبرنا عن نفسه ـ وهو أعلم بنفسه ـ أنه ليس مشابهًا لشيء منها ، فكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، فهو الواحد الذي ليس له نِدٌّ ولا نظير ، ولا شبه ولا مثيل [2] .

قال سبحانه : ﴿**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ١٦٣] وقال : ﴿**إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ**﴾ [الصافات: ٤، ٥]

وقال : ﴿**وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [ص: ٦٥] .

وبيَّن أنه لم يأمر إلا بأن يعبد وحده ويفرد بالعبادة ، فقال ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ [التوبة: ٣١] ، وقال : ﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ**﴾ [الزمر: ٢]

وكفَّر وضلل من اتخذ إلهًا سواه أو معه ، فقال : ﴿**قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ**

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩) .

(٢) وهو المعنى الذي اختاره ابن جرير رحمه الله كما سبق

تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٦] .

وقال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧] .

وقال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣] .

وكيف يعبد غيره والله سبحانه قد تفرد بالخلق والإيجاد ، والرزق والإمداد ، والبسط والقبض ، والرفع والخفض ، والنفع والضر ، قال سبحانه : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢] .

وقد نَبَّه الله تعالى عقول الناس وفطرهم إلى هذا الأمر في مواضع كثيرة ، من أعظمها ما جاء في سورة النمل حيث ذكر الله تعالى عظيم مخلوقاته وتصرفاته ، في آيات تهتز لها الجبال فكيف أحلام الرجال ؟!

قال سبحانه : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن

﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤] .

٢- فهذه الآيات دالة على انفراده بالخلق والإيجاد والتصرف والتدبير فلا إله غيره ، ولا يستحق العبادة سواه ، وقد ختم كل آية بقوله ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أي أإله مع الله يعبد وقد تبين لكم ولكل ذي لب انفراده بهذا الخلق والتصرف ؟! تعالى الله عما يشركون .

وهذا التوحيدَ هو الذي من أجله أُرسلت الرسل وأنزلت الكتب ، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار ، وسعداء وأشقياء ، وهو معنى قول : لا إله إلا الله ، الذي دعت الرسل أقوامها إليه ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣] فهذه دعوة أول رسول أرسله الله تعالى بعد حدوث الشرك ، وتتابعت الرسل بعد ذلك كلهم يدعو إليها ويأمر بها كما قال سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد أمر الرسول ﷺ رسوله إلى أهل اليمن أن يبدأ أولاً بدعوتهم إلى توحيد الله تعالى ، كما في حديث ابن عباس قال : «لما بعث النبي ﷺ مُعاذًا إلى نحو أهل اليمن قال له : **إنك تقدم على قومٍ من أهل الكتاب فليكن أَولَ ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى ، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات ..**» .

فالعبد لا يدخل الإسلام حتى يُوحد الله تعالى بأن يشهد أن لا إله إلا الله ، ولا يقبل له عملٌ صالح حتى يحقق التوحيد ، ولذا لم يأمره

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (١٣/٣٤٧) .

ﷺ أن يأمرهم بالصلاة أولاً أو بالزكاة ، بل بالإيمان أولاً ، كما قال تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤] .

وقال : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] .

وغيرهما من الآيات التي اشترط الله تعالى فيها الإيمان لقبول العمل الصالح .

٣- الله تعالى هو الواحد الأحد الذي لا يجوز أن تُصْرَف العبادة لغيره فهو المعبود بحقٍّ وغيره يعبد بالباطل ، فلا يجوز لعبيده أن يتوجهوا لغير سيدهم بعبادةٍ من العبادات ، صلاةً كانت أو دعاءً أو ذبحًا أو نذرًا أو توكلاً أو رجاءً أو خوفًا أو خشوعًا أو خضوعًا ، بل يكونوا كما أمر نبينا ﷺ أن يقول : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] .

٤- جاء في الصحيح أن من نسب لله تعالى الولد فقد شتمه تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام : «**قال الله تعالى : كذَّبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أولُ الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولدًا ، وأنا الأحدُ الصَّمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفوًا أحد**»[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٨/ ٧٣٩) عن أبي هريرة ، وفي بدء الخلق (٦/ ٢٨٧).
وأخرجه في التفسير أيضًا (٨/ ١٦٨) عن ابن عباس .

٥- وجاء في فضل تهليل الله تعالى وتوحيده أحاديث جمة تقال في مواضع عديدة ، لتجديد التوحيد والإيمان بالله سبحانه ووحدانيته ، لما في ذلك من دفع المسلم للخير والعمل الصالح ، إذ أن منبعه هو التوحيد الخالص .

فمنها حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**من قال لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له ، له الملكُ ، وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير في اليوم مائة مرة ، كانت له عَدْلَ عشرِ رقاب ، وكتبت له مائةُ حسنة، ومُحيتْ عنه مائة سيئة ، وكانت له حِرْزًا من الشيطان يومَه ذلك حتى يُمسي ، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء به ، إلا رجلٌ عمل أكثر منه**» [1].

ومنها ما يقال في دبر الصلوات المكتوبات .

٦- عدلت السورة التي جاء فيها هذان الاسمان ثلث القرآن كما في الحديث الصحيح [2].

* * *

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٦/٣٣٨) وفي الدعوات (١١/٢٠١) ومسلم في الذكر والدعاء (٤/٢٠٧١) عن أبي صالح عن أبي هريرة به .

(٢) انظر تخريجه والكلام عليه في الكلام على اسمه (الصمد) .

الصَّمد
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٧١)

* **المعنى اللغوي :**

صَمَدَه يَصمدُهُ صَمْدًا ، وصَمَدَ إليه كلاهما : قَصَدَه .

والصَّمَدُ : السيد المطاع الذي لا يُقضى دونه أمر .

وقيل : هو الذي يُصمد إليه في الحوائج أي يُقصد ، وأنشد الجوهري :

علوتُه بحسامٍ ثم قلتُ له   خُذْها حذيفُ فأنتَ السَّيدُ الصَّمد

وأصْمَد إليه الأمر : أسنده .

والمصْمَدُ : لغة في المُصْمت وهو الذي لا جوف له .

والصَّمْدُ : المكان المرتفع الغليظ من الأرض[1] .

* **وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرةً واحدةً في قوله تعالى : ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ⑴ اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ [الإخلاص: ١، ٢] .

* **معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير رحمه الله : واختلف أهل التأويل في معنى (الصمد)

---

(١) «الصحاح» (٢/٤٩٩) ، «اللسان» (٤/٢٤٩٥ ـ ٢٤٩٦) ، «اشتقاق الأسماء» (ص٢٥٢ ـ ٢٥٣) ، و«الكتاب الأسنى» للقرطبي (ورقة ٢٩١ أ ـ ب) .

فقال بعضهم : هو الذي ليس بأجوف ولا يأكل ولا يشرب .

ذِكْرُ من قال ذلك [١] .

قال مجاهد : (الصمد) المصمت الذي لا جوف له[٢] .

وقال الحسن : (الصمد) الذي لا جوف له ، وعن عكرمة مثله[٣] .

وقال الشعبي : (الصمد) الذي لا يَطْعم الطعام .

وقال : الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب[٤] .

ثم قال ابن جرير : وقال آخرون : هو الذي لا يخرج منه شيء .

ذكر من قال ذلك :

قال عكرمة : (الصمد) الذي لم يخرج منه شيء، ولم يلد ولم يولد.

وفي رواية أخرى : الذي لا يخرج منه شيء[٥] .

ثم قال ابن جرير : وقال آخرون هو الذي لم يلد ولم يولد .

ذكر من قال ذلك[٦] .

وقال آخرون : هو السيد الذي قد انتهى سؤدده .

ذكر من قال ذلك :

قال أبو وائل : الصمد هو السَّيدُ الذي قد انتهى سؤدده [٧] .

---

(١) وسوف نقتصر على إيراد ما صح من الآثار دون ذكر أسانيدها ، كعادتنا في هذا الكتاب .

(٢) «جامع البيان» (٣٠/ ٢٢٢) وقد رواه بسندين صحيحين عنه .

(٣) المصدر السابق ، رواه بسندين صحيحين عن الحسن ، وبسند صحيح عن عكرمة .

(٤) المصدر السابق ، رواه بثلاثة أسانيد صحيحة .

(٥) المصدر السابق (ص٢٢٣) أخرجهما عنه بسندين صحيحين .

(٦) ذكر بعده آثاراً لا تصح ، وقد تقدم عن عكرمة مثله .

(٧) «جامع البيان» (٣٠/ ٢٢٣) عنه بسندين صحيحين .

وقال آخرون : بل هو الباقي الذي لا يفنى .

ذكر من قال ذلك :

كان الحسن وقتادة يقولان : الباقي بعد خلقه ، قال : هذه سورة خالصة ليس فيها ذكر شيء من أمر الدنيا والآخرة[1] .

وقال قتادة : (الصمد) : الدائم[2].

قال أبو جعفر : الصمد عند العرب هو : السيد الذي يُصمد إليه ، الذي لا أحد فوقه ، وكذلك تُسمي أشرافها ، ومنه قول الشاعر :

ألا بكر النَّاعي بخَيري بني أسد ... بعمرو بنِ مسعود وبالسَّيِّدِ الصَّمَد

فإذا كان ذلك كذلك ، فالذي هو أولى بتأويل الكلمة المعنى المعروف من كلام من نزل القرآن بلسانه» ا هـ[3].

وقال أبو عبيدة ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ : هو الذي يُصمد إليه ، ليس فوقه أحدٌ ، والعرب كذلك تسمي أشرافها[4].

وقال الزجاج : وأصحُّه : أنه السيد المصمود إليه في الحوائج[5].

---

(١) المصدر السابق ، وسنده حسن .

(٢) المصدر السابق (٣٠/٢٢٣ ـ ٢٢٤) وسنده صحيح .

(٣) «جامع البيان» باختصار ، وانظر «مجموع الفتاوى» (١٧/٢١٩ ـ ٢٢٥) لشيخ الإسلام فقد ذكر أكثر هذه الآثار بأسانيدها .

(٤) «مجاز القرآن» (٢/٣١٦) .

(٥) «تفسير الأسماء» (ص٥٨) وبنحوه قال الزجاجي في «اشتقاق الأسماء» (ص٢٥٢) ، والحليمي في «المنهاج» (١/٢٠١) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٥٨) .

وقال الخطابي : (الصَّمد) هو السيد الذي يُصمد إليه في الأمور ، ويقصد في الحوائج والنوازل ، وأصل الصَّمْد : القَصْدُ ، ويقال للرجل : اصْمِد صَمْدَ فلان ، أي : اقصد قصده ، وجاء في التفسير : أن الصمد : الذي قد انتهى سؤدده .

وقيل (الصمد) : الدائم .

وقيل : الباقي بعد فناء الخلق .

وأصحُّ هذه الوجوه ، ما شهد له معنى الاشتقاق ، والله أعلم [1].

وقال الشنقيطي : من المعروف في كلام العرب إطلاق الصمد على السيد العظيم ، وعلى الشيء المصمت الذي لا جوف له ، فمن الأول قول الزبرقان:

سِيروا جميعًا بنصفِ الليل واعْتَمروا ... ولا رهينةَ إلا سَيدٌ صَمد

ومن الثاني قول الشاعر :

شِهابُ حُرُوبٍ لا تزالُ جِيادُه ... عَوَابِس يَعْلُكنَ الشَّكيم المُصْمَدا

فإذا علمت ذلك ، فالله تعالى هو السيد الذي وحده الملجأ عند الشدائد والحاجات ، وهو الذي تنزَّه وتقدس وتعالى عن صفات المخلوقين كأكل الطعام ونحوه ، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا [2].

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٥٨) .

قال القرطبي في «الأسنى» (ورقة ٢٩٢ب) بعد ذكره لقول الخطابي (وأصح ما قيل فيه ما يشهد له الاشتقاق) : قلت : وهو قول أهل اللغة أجمعين ، فيما ذكر ابن الأنباري ، وقال القشيري : وهو الصحيح ولم يذكر أبو حامد غيره .

(٢) «أضواء البيان» (٢/١٨٧) .

وقال ابن القيم في نونيته :

وهو الإِله السَّيِّدُ الصَّمدُ الذي　　　حَمَدَتْ إليه الخَلْقُ بالإِذْعَان

الكاملُ الأوْصَافِ كَماله ما فيه　　　من كلِّ الوُجُوه مِن نُقْصَان[٢]

*** من آثار الإِيمان بهذا الاسم :**

كلٌّ ما سبق من الأقوال يصح أن يُوصف به ربُّنا سبحانه وتعالى ، كما قال الحافظ الطبراني في كتابه «السنة» ـ كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٧٠) بعد إيراده كثيرًا من هذه الأقوال في تفسير (الصَّمد) قال : وكل هذه صحيحة وهي صفات ربنا عزَّ وجل، هو الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج ، وهو الذي قد انتهى سُؤدده ، وهو الصمد الذي لا جوفَ له ، ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقي بعد خلقه .

وقال البغوي : والأولى أنْ يُحمل لفظ (الصَّمد) على كل ما قيل فيه لأنه محتملٌ له ، فعلى هذا يقتضي أن لا يكون في الوجود صمدٌ سوى الله تعالى ، العظيم القادر على كل شيء ، وأنه اسم خاص بالله تعالى انفرد به ، له الأسماء الحسنى والصفات العليا ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[٢] .

ولنفصِّل ما تُوجبه تلك المعاني من آثار إيمانية في قلب المؤمن بالله تعالى وصفاته .

فنقول :

١- قد احتوى هذا الاسم على أوصافٍ عظيمة ومدائح جميلة لربنا جل في علاه ، لا تنبغي إلا لمن تناهى سؤدده ، وعَظُمَ فضله وجُوده

---

(١) «النونية» (٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) .

(٢) «معالم التنزيل» (٧/ ٣٢١) .

وهو الله وحده .

فقد قالوا إن معنى (الصمد) : هو الذي ليس بأجوف أو لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب .

وهو كذلك فإنه سبحانه الغني عن كل شيء ، وهذا من صفات كماله كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤] .

وقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] .

وقد ردَّ الله تعالى على النصارى الذين قالوا بإلهية عيسى عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥] .

فدلت الآية على أن الإله الحق ينبغي أن يكون مستغنيًا عن الطعام والشراب .

٢- وقالوا : إن معنى (الصمد) : هو الذي لم يَلد ولم يُولد .

وهذا حقٌّ أيضًا ، فقد نفى الله سبحانه أن يكون له مثيل أو نظير أو مكافئ في آيات لا تُحصر ، كقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤] وغيرها .

وإذا ثبت إنه ليس لله تعالى مثيل ، بطل أن يكون متولدًا من شيء ، إذ الشيء لا يتولد إلا عن جنسه .

وبثبوت ما سبق ـ وهو أنه ليس لله تعالى مثيل ـ يبطل أن يكون لله

ولد ، إذ الولد لا يكون إلا عن زوجة ، والزوجة منتفية لعدم المثيل ، فينتفي الولد تبعًا .

قال سبحانه : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الانعام: ١٠١] .

٣- وقالوا : إن (الصمد) هو السيد الذي قد انتهى سؤدده .

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : (الصمد) السيد الذي قد كَمُلَ في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والجبار الذي قد كمل في جبروته ، والعالم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له[1].

فصفات السؤدد كلها كاملة له ، لا يشاركه في هذا شيء من مخلوقاته .

٤- وقالوا : إن (الصمد) الباقي الذي لا يفنى .

وهذ حقٌ لا مرية فيه فإنه سبحانه أولٌ بلا ابتداء، دائمٌ بلا انتهاء، كما قال سبحانه عن نفسه : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] وفسَّره النبي ﷺ بقوله : «اللهم أنتَ الأولُ فليس قبلك شيء ، وأنت

---

(١) رواه ابن جرير (٣٠/٢٢٣) وابن أبي حاتم ـ كما في «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٢٠) عن علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس به ، وفي روايته عن ابن عباس انقطاع ، قال دحيم : لم يسمع التفسير من ابن عباس : وقال أبو حاتم : علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مرسل إنما يروي عن مجاهد والقاسم بن محمد ، انظر «جامع التحصيل» (ص ٢٩٤) .

الآخر فليس بعدك شيء»[1].

وقال تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] .

وكل ما سبق ذكره من صفات السؤدد والكمال ، باقية له لم تزل ولا تزال ـ كذلك أبديًا ـ لا يطرأ عليها النقص ولا الآفات ولا الاختلال ، كما هو شأن المخلوق الذي يكون سؤدده وكماله في حال دون حال ، فسبحان الواحد الصمد ذي العزة والجلال .

قال الأُقْليشي : فعلى هذا يتشعَّبُ من صفات الصمد صفات السؤدد كلها من الجود والحلم وغير ذلك .

وإذا قلنا إن (الصمد) هو العالي من قولهم : بناءٌ مصمدٌ ، ومكان مرتفع فيتشعب من صفات (الصمد) صفات التعالي كلها من العزة والقهر والعُلو إلى غير ذلك مما يضاهيه .

وإذا قلنا إن (الصمد) مأخوذٌ من قولهم : شيء مصمدٌ إذا لم يكن أجوف ، ففيه نفي التركيب عن الله تعالى ، وأنه لا بعض له كما قلنا في (الأحد) وإلى هذا أشار من قال : (الصمد) لا جوف له ، ومن قال : هو الذي لا يَطْعَم ، ومن قال : هو الذي لم يلد ولم يولد ، ومن قال : هو الباقي الدائم .

فترجع حقيقة الصمدانية في حقه إلى قيامه بذاته واستغنائه عن غيره ، واحتياج كل شيء إليه ، فهي صفةٌ ذاتية له سبحانه وتعالى ، تارة دون إضافة إذا نُظِرَ إلى عين ذاته وصَمَدانيته ، وتارة بإضافة إذا نُظر إلى صمد

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٨٤) .

الخلق إليه وقيامهم به واحتياجهم إليه في جميع أمورهم[1] .

٥- ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معنىٰ هذا الاسم لغةً ، وفي حق الله تعالىٰ ، وما يتضمنه من الصفات الجليلة بحثٌ موسع طيب ننقل منه ما يناسب هذا الموضع ، قال رحمه الله :

وأما اسم (الصمد) فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين ، كما تقدم ، فلم يقل الله صمد ، بل قال ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فبين أنه المستحق، لأن يكون هو الصمد دون ما سواه ، فإنه المستوجب لغايته علىٰ الكمال، والمخلوق وإن كان صمداً من بعض الوجوه ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه ، فإنه يقبل التفرق والتجزئة ، وهو أيضًا محتاج إلىٰ غيره ، فإن كل ما سوىٰ الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد يصمد إليه كل شيء ولا يصمد هو إلىٰ شيء إلا الله تبارك وتعالىٰ ، وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق ويتقسم ، وينفصل بعضه من بعض ، والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه ، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه ، فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه ، كما قال في آخر السورة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ استعملها هنا في النفي أي ليس شيء من الأشياء كفوا له في شيء من الأشياء لأنه أحد .

وقال رجل للنبي ﷺ : أنت سيدنا فقال : «**السيد الله**»[2] ودلَّ قوله :

---

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٩٣ أ) .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٤/ ٢٤ ـ ٢٥) وأبو داود (٤٨٠٦) وغيرهما من طرق عن مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير به ، وسيأتي تخريجه في القسم الآخر من الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

(الأحد ، الصمد) ، على أنه لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فإن الصمد هو الذي لا جوف له ولا أحشاء ، فلا يدخل فيه شيء ، فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾ وفي قراءة الأعمش وغيره : (ولا يَطعم) بالفتح . وقال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ومن مخلوقاته الملائكة ، وهم صمد لا يأكلون ولا يشربون ، فالخالق لهم جلَّ جلاله أحق بكلِّ غنىً وكمال جعله لبعض مخلوقاته ، فلهذا فسر بعض السلف (الصمد) بأنه : الذي لا يأكل ولا يشرب ، والصمد المصمد الذي لا جوف له ، فلا يخرج منه عين من الأعيان ، فلا يلد .

ولذلك قول من قال من السلف : هو الذي لا يخرج منه شيء ، ليس مرادهم أنه لا يتكلم ، وإن كان يقال في الكلام إنه خرج منه ، كما قال في الحديث : «**ما تَقرَّب العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه**» يعني القرآن[1] .

---

(1) حديث ضعيف ، أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨)، والترمذي في فضائل القرآن (٥/ ١٧٦/ ٢٩١١) عن بكر بن خنيس عن ليث بن أبي سليم عن زيد بن أرطاة عن أبي أمامة مرفوعًا به وأوله: «**ما أذن الله لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصليهما ..**» قال الترمذي : حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وبكر بن خنيس قد تكلم فيه ابن المبارك وتركه في آخر عمره ، وقد رُوي هذا الحديث عن زيد بن أرطاة عن جبير بن نفير عن النبي ﷺ مُرسل اهـ .

ثم ساقه كما ذكر مرسلاً بلفظ : «**إنكم لن ترجعوا إلى الله بأفضل مما خرج منه ، يعني القرآن**» . وفي سنده أيضًا : ليث بن أبي سليم كان قد اختلط .

والحديث أخرجه أيضًا عبد الله في «السنة» (١/ ١٤٠) بالطريق الثاني .

وقال أبو بكر الصديق لما سمع قرآن مسيلمة : إنَّ هذا لم يخرج من إله .

فخروج الكلام من المتكلم هو بمعنى أنه يتكلم به فَيُسْمع منه ، ويبلغ إلى غيره ليس بمخلوق في غيره، كما يقول الجهمية ، ليس بمعنى أنَّ شيئًا من الأشياء القائمة به يفارقه، وينتقل عنه إلى غيره ، فإن هذا ممتنع في صفات المخلوقين ، أن تفارق الصفة محلها ، وتنتقل إلى غير محلها ، فكيف بصفات الخالق جل جلاله، وقد قال تعالى : في كلام المخلوقين: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] وتلك الكلمة هي قائمة بالمتكلم، وسمعت منه ليس خروجها من فيه ، أن ما قام بذاته من الكلام فارق ذاته، وانتقل إلى غيره، فخروج كل شيء بحسبه ، ومن شأن العلم والكلام إذا استفيد من العالم والمتكلم أن لا ينقص من محله، ولهذا شبه بالنور الذي يقتبس منه كل أحد الضوء ، وهو باق على حاله لم ينقص ، فقول من قال من السلف : الصمد هو الذي لم يخرج منه شيء ، كلام صحيح ، بمعنى أنه لا يفارقه شيء منه.

ولهذا امتنع عليه أن يلد وأن يولد ، وذلك أن الولادة والتولد وكل ما يكون من هذه الألفاظ لا يكون إلا من أصلين ، وما كان من المتولد عينًا قائمة بنفسها فلا بد لها من مادة تخرج منها ، وما كان عرضًا قائمًا بغيره فلا بدله من محل يقوم به، فالأول نفاه بقوله: (أحد)، فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له ولا نظير، فيمتنع أنْ تكون له صاحبة ، والتولد إنما يكون بين شيئين ، قال تعالى : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه،

= لكن قد صح موقوفًا على خباب رضي الله عنه، انظر «السنة» لعبد الله (١/ ١٤١ -١٤٢).

فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم ، وبأنه خالق كل شيء ، وكل ما سواه مخلوق له ، ليس فيه شيء مولود له.

والثاني : نفاه بكونه سبحانه الصمد ، وهذا المتولد من أصلين يكون بجزئين ينفصلان من الأصلين ، كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمني الذي ينفصل من أبيه وأمه ، فهذا التولد يفتقر إلى أصل آخر ، وإلى أنْ يخرج منهما شيء ، وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى ، فإنه أحَدٌ فليس له كُفُؤٌ يكون صاحبة ونظيراً ، وهو صمد لا يخرج منه شيء ، فكل واحد من كونه أحدًا ، ومن كونه صمدًا يمنع أن يكون والدًا ، ويمنع أنْ يكون مولودًا بطريق الأولى والأحرى ا هـ[1].

٦- وإذا كان ربنا كذلك فينبغي على العباد أن لا يلجأوا إلا إليه ، ولا يطلبوا إلا منه ، فهو سبحانه السيد الصمد الذي لا شيء فوقه بيده الخير، وهو على كل شيء قدير .

قال القرطبي : فيجب على كل مكلف أن يعلم أن لا صمدانية ولا وحدانية إلا لله وحده ، فلا يقصد غيره ولا يلجأ في حوائجه إلا إليه .

ثم عليه أن يَتخلَّق بأخلاق السيادة والسادة حتى يكون مصمودًا ، وبابه مقصودًا ، روى هشام بن عروة عن أبيه قال : أدْركتُ سعد بن عبادة ومناد ينادي على أُطمة : من أحب شحمًا ولحمًا فليأت سعدًا ، ثم أدركت ابنه قيسًا ينادي مثل ذلك[2] .

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٢٣٨ ـ ٢٤١) .

(٢) «الكتاب الاسنى» (ورقة ٢٩٤ آ) .

والأثر عزاه الحافظ في الإصابة (٢/ ٣٠) إلى الدارقطني في كتاب «الأسخياء» وزاد: وكان سعد يقول : اللهم هبْ لي مجدًا ، لا مجدَ إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، اللهم إنه =

٧- جاء في الصحيح أن سورة الإخلاص ـ التي ورد فيها (الصمد) و(الأحد) تعدل ثلث القرآن ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأصحابه : **«أيعجز أحدُكم أن يقرأ ثلثَ القرآن في ليلة؟»** فشقَّ ذلك عليهم وقالوا : أيُّنا يطِيقُ ذلك يا رسول الله؟ فقال : **«الله الواحدُ الصَّمدُ ثلث القرآن»** [1].

وفي رواية : **«إنَّ الله جزَّأ القرآن ثلاثةَ أجزاء ، فجعل ﴿قل هو الله أحد﴾ جُزءًا من أجزاء القرآن»** [2].

قال القرطبي: اشتملت هذه السورة على اسمين من أسماء الله تعالى، يتضمنان جميع أصناف الكمال ، لم يُوجدا في غيرها من السور ، وهما: (الأحد ـ الصَّمد) لأنهما يدلان على أحَدية الذات المقدسة الموصوفة بجميع أوصاف الكمال ، وبيان ذلك :

أن (الأحد) يُشعر بوجوده الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره .

و (الصَّمد) يُشعر بجميع أوصاف الكمال ، لأنه الذي انتهى إليه سؤدده فكان مرجع الطلب منه وإليه .

ولا يتم ذلك على وجه التحقيق إلا لمن حَازَ جميع خصالِ الكمال ،

= لا يصلحني القليل ولا أصلح عليه .

ثم ذكر عن محمد بن سيرين قال : كان سعد بن عبادة يعشي كل ليلة ثمانين من أهل الصُّفَّة .

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٩/ ٥٩) عن أبي سعيد الخدري.

وله لفظ آخر مع قصة أخرجه البخاري (٩/ ٥٨ ـ ٥٩) ، (١١/ ٥٢٥) ، (١٣/ ٣٤٧) عنه أيضًا وأخرجه مسلم (١/ ٥٥٧) عن عائشة . وأخرجه مسلم (١/ ٥٥٧) عن أبي هريرة مرفوعًا به .

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٦) عن أبي الدرداء مرفوعًا به .

وذلك لا يصلح إلا لله تعالى ، فلما اشتملت هذه السورة على معرفة الذات المقدسة ، كانت بالنسبة إلى تمام المعرفة بصفات الذات وصفات الفعل ثلثًا[1] .

وقيل غير ذلك في معناه .

من ذلك ما نقله في «الأسنى» : وقد قيل : إن (قل هو الله أحد) إنما عَدَلَتْ ثلث القرآن ـ على ما جاء في الصحيح ـ لأجل هذا الاسم يعني (الصمد) الذي لا يوجد في غيرها من السور وكذلك أحد ، والله أعلم .

وقيل : إن القرآن أُنزل أثلاثًا : ثلث منه أحكام ، وثلثٌ منه وعدٌ ووعيد ، وثلثٌ منه أسماء وصفات ، وقد جمعت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أحد الأثلاث وهو الأسماء والصفات فقيل إنها ثلث القرآن ، ودلَّ على هذا التأويل ما في «صحيح مسلم» من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ : «**إنَّ الله جزَّأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جُزءاً من أجزاء القرآن**»[2] .

* * *

---

(١) «الفتح» (٩/ ٦١) .

(٢) «الأسنى» (ورقة ٢٩٣ ب) .

القَادر ـ القَدير ـ المُقْتَدر
جَلَّ جَلالُه وتَقدَّست أسماؤُه

(٧٢ ـ ٧٤)

* **المعنىٰ اللغوي :**

القَدْرُ والقُدْرة والمقْدار : القوةُ ، وقَدَرَ عليه يَقدِر ويقدُر ، وقَدِر قُدْرةً واقْتَدر وهو قادر وقدير ، والاسم من كل ذلك المَقْدَرةُ والمقدُرة والمقدِرة[1] .

والاقتدار علىٰ الشيء : القُدرة عليه .

ورجلٌ ذو قُدْرة ، أي ذو يسار .

وقَدَرْتُ الشيء أقْدُرُهُ وأقْدره قَدْرًا ، من التقدير .

وفي الحديث : «**إذا غُمَّ عليكم الهلال فاقْدروا له**» أي : أتموا الثلاثين .

وقَدْرُ الشيء : مَبْلغه .

وقَدَرُ الله وقَدْرُهُ بمعنىً ، وهو في الأصل مصدر ، وقال الله تعالىٰ : ﴿**مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ [الحج: ٧٤] أي : ما عظموا الله حقَّ تعظيمه .

والقَدَرُ والقَدْرُ أيضًا : ما يُقدِّرُه الله عز وجل من القضاء .

وقُدِرَ علىٰ الإنسان رزقه قَدْرًا ، مثل : قُتِرَ[2] .

قال الأزْهَري : والتقدير علىٰ وجوه من المعاني :

---

(١) «اللسان» (٥/ ٣٥٤٦) مادة قدر .

(٢) «الصحاح» (٢/ ٧٨٦ ـ ٧٨٧) .

أحدها : التَّروية والتفكير في تسوية أمرٍ وتهيئته .

والثاني : تقديره بعلامات يُقطِّعُه عليها .

والثالث : أن تنوي أمرًا بِعَقْدِكَ تقول : قدَّرتُ أمر كذا وكذا ، أي: نويته وعقدت عليه[1] .

*** الفرق بين هذه الأسماء :**

قال الزجاجي : (القدير) أبلغ في الوصف بالقدرة من القادر ، لأن القادر اسم الفاعل من : قدر يقدر فهو قادر ، و(قدير) : فعيلٌ وفعيل من أبنية المبالغة ، وأكثر ما يجيء «فعيل» اسم الفاعل مما كان فعله على فعلٍ غير مُتعَدٍّ ، نحو : ظرف فهو ظريف ، وشرف فهو شريف يُراد بذلك المبالغة في الوصف بالظرف والشرف ، وكذلك جميع ما جاء على «فعيل» إنما هو للمبالغة في الوصف[2] .

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى : (القادر ، والمقتدر ، والقدير) فالقادر اسم الفاعل من قدر يقدر ، والقدير فعيلٌ منه وهو للمبالغة والمقتدر : مُفْتَعِل من اقْتَدَر وهو أبلغ[3] .

*** ورود الأسماء في القرآن الكريم :**

* ورد اسمه (القادر) اثنتي عشرة مرة ، خمسٌ منها بصيغة الجمع ، نورد منها : قوله تعالى : **﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾** [الأنعام: ٦٥] .

(١) «اللسان» (٥/٣٥٤٧) ، وانظر «المفردات» للراغب (ص٣٩٤ ـ ٣٩٦) .

(٢) «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص٤٨) .

(٣) «النهاية» (٤/٢٢) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٥] .

وقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١] .

وقوله : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٣] .

* وأما اسمه (القدير) فورد خمسًا وأربعين مرة منها :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٠] .

وقوله : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٤٨] .

وقوله : ﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩] .

وقوله : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ٤٠] .

وقوله : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧] .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٦] .

وقوله : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الحج: ٣٩] .

وقوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

وقوله : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

* وأما (المقتدر) فقد ورد أربع مرات وهي :

قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢].

وقوله : ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢].

وقوله : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

*** معنى الأسماء في حق الله تعالى :**

*** أما (القادر) :**

فقال الزجاج : (القادر) : الله القادر على ما يشاءُ ، لا يُعجزُه شيء ولا يفوتُه مطلوب ، والقادر منّا ـ وإن استحق هذا الوصف ـ فإن قدرتَه مستعارةٌ ، وهي عنده وديعة من الله تعالى ، ويجوز عليه العجزُ في حال والقدرةُ في أخرى .

والله تعالى هو القادر ، فلا يتطرَّقُ عليه العجزُ ، ولا يفوته شيء [١].

---

(١) «تفسير الأسماء» (ص٥٩) .

وقال الخَطَّابي : (القادر) : هو من القدرة على الشيء ، يُقال: قَدَرَ يقدرُ قُدْرةً فهو قادر وقدير ، كقوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧] ووَصَفَ الله نفسه بأنه قادرٌ على كل شيء أراده ، لا يَعترِضهُ عجزٌ ولا فُتُور .

وقد يكون القادر بمعنى المُقدِّر للشيء ، يقال : قَدَّرتُ الشيء وقَدَرْتُه بمعنى واحد كقوله : ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] أي : نعم المُقَدِّرون ، وعلى هذا يُتأول قوله سبحانه : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي : لن نُقَدِّر عليه الخطيئة أو العقوبة إذ لا يجوز على نبي الله أن يظن عدم قدرة الله عز وجل في حال من الأحوال[1] .

وقال الحليمي : (القادر) قال الله عز وجل : ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠] وقال : ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وهذا يدلُّ على معنى أنَّه لا يُعجزه شيء بل تَيَسر له ما يريد على ما يريد ، لأن أفعاله قَد ظهرت ، ولا يظهر الفعل اختياراً إلا من قادر غير عاجز ، كما لا يظهر إلا من حيٍّ عالم[2] .

وقال البيهقي : هو الذي له القدرة الشاملة ، والقدرة له صفة قائمة بذاته[3] .

* وأما (القدير) :

فقال ابن جرير عند قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٨٦) .

(٢) «المنهاج» (١/١٩١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداع والاختراع له ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٢١) .

(٣) «الاعتقاد» (ص٦٣).

وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] : وإنما وَصَفَ الله نفسه ـ جلَّ ذكره ـ بالقَدْرَةِ على كل شيء في هذا الموضع ، لأنه حذَّر المنافقين بأسَه وسَطوته ، وأخبرهم أنه بهم مُحيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير ، ثم قال : فاتَّقوني أيُّها المنافقون ، واحذروا خِداعي وخداع رسولي وأهل الإيمان بي ، لا أُحِل بكم نقمتي ، فإني على ذلك وعلى غيره من الأشياء قدير .

ومعنى (قدير) قادر ، كما معنى (عليم) : عالم ، على ما وصفتُ فيما تقدم من نظائره من زيادة معنى «فعيل» على فاعل في المدح والذَّم [1] .

وقال عند قوله تعالى : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] : ألم تعلم يا محمد أني قادر على تعويضه مما نسختُ من أحكامي وغيَّرتُه ، من فرائضي التي كنت افترضتها عليك ما أشاء ، مما هو خير لك ولعبادي المؤمنين معك وأنفع لك ولهم ، إما عاجلاً وإما آجلاً في الآخرة ، أو بأن أُبدِّل لك ولهم مكانه مثله في النَّفع لهم عاجلاً في الدنيا وآجلاً في الآخرة ، وشبيهه في الخفة عليك وعليهم . فاعلم يا محمد أني على ذلك وعلى كل شيءٍ قدير .

ومعنى قوله (قدير) في هذا الموضع : قويّ ، يقال منه : قد قَدَرْتُ على كذا وكذا ، إذا قويت عليه ، أقْدرُ عليه ، وأقدُر عليه قدرةً وقِدرانًا ومَقْدرةً ، وبنو مُرة من غطفان تقول : قَدِرت عليه بكسر الدال .

فأما «التقدير» من قول القائل : قَدَّرْتُ الشيء ، فإنه يقال منه قَدَرْتُه

(١) «جامع البيان» (١/ ١٢٤) .

أقْدُرُهُ قَدْرًا وقَدَرًا [1].

وقال الحليمي : (القدير) وهو : التامُّ القدرة ، لا يُلابس قدرته عَجْزٌ بوجه[2] .

وقال ابن القيم :

وهو القديرُ وليس يُعْجِزُهُ إذا ما رَامَ شيئًا قطُّ ذو سُلطان[3]

وقال السعدي : (القدير) كامل القدرة ، بقدرته أوجد الموجودات ، وبقدرته دبَّرها ، وبقدرته سوَّاها وأحكمها ، وبقدرته يُحيي ويُميت ، ويبعث العباد للجزاء ، ويجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، الذي إذا أراد شيئًا قال له : كن ، فيكون ، وبقدرته يُقلِّب القلوب ويصرفها على ما يشاء ويريد[4] .

* وأما (المُقْتَدر) :

فقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] يقول عند ذي مِلْكٍ مقتدر على ما يشاء، وهو الله ذو القوة المتين تبارك وتعالى[5] .

وقال الزَّجَّاج : «المقتدرُ» مبالغةٌ في الوصف بالقدرة ، والأصل في العربية أنَّ زيادة اللفظ زيادة المعنى ، فلما قلت : اقتدر ، أفادَت زيادةُ اللفظ زيادةَ المعنى [6].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٨٣) .

(٢) «المنهاج» (١/ ١٩٨) وذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٤١) .

(٣) «النونية» (٢/ ٢١٨) .

(٤) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠١) .

(٥) «جامع البيان» (٢٧/ ٦٧) .

(٦) «تفسير الأسماء» (ص٥٩).

وقال الخطَّابي : (المقتدر) : هو التامُّ القدرة الذي لا يمتنعُ عليه شيء[1] ولا يَحتجزُ عنه بِمَنَعةٍ وقوةٍ .

ووزنه : مُفْتَعِل ، من القدرة إلا أنَّ الاقتدار أبلغ وأعمُّ لأنه يقتضي الإطلاق ، والقدرة قد يدخلُها نوعٌ من التَّضمين بالمقدور عليه ، قال الله سبحانه : ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي : قادرٍ على ما يشاء[2].

وقال الحُليمي : (المقتدر) وهو المُظْهِرُ قدرته بفعلِ ما يقدر عليه ، وقد كان ذلك من الله تعالى فيما أمضاه ، وإنْ كان يَقْدِر على أشياء كثيرة لم يفعلها ، ولو شاء لفعلها ، فاستحقَّ بذلك أن يُسمى : مُقتدراً [3] .

*** ومن آثار الإيمان بهذه الأسماء :**

١- اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير[4].

لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، قال سبحانه : **﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾** [فاطر: ٤٤] .

فلا يمتنع عليه شيء ـ جلَّ وعلا ـ ولا يفوته مطلوب ، بل له القدرة

---

(١) إلى هنا قاله البيهقي في «الاعتقاد» (ص٦٣) .

(٢) «شأن الدعاء» (ص٨٦) .

(٣) «المنهاج» (١/ ١٩٤) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات الابتداع والاختراع ، ونقله البيهقي (ص٢٨) .

(٤) حكى هذا الاتفاق شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٨/ ٧) وسيأتي ذكر اختلافهم في تفسير «الشيء» .

الشاملة الكاملة وهذا من صفات ذاته سبحانه ، ولم يزل سبحانه ذا قوة وقدرة ، ولم تزل قدرته موجودةً قائمة به مُوجبةً له حكم القادرين .

ومعنى قدرة الله تعالى : قدرته على الفعل ، والفعل نوعان : لازمٌ ومُتعدٍّ ، فالأفعال اللازمة هي تقوم بالفاعل ولا تتعدى إلى مفعول ، وقد ذُكِرَ النوعان في قوله تعالى : ﴿**هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش**﴾ كما بينه شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله تعالى فقال : «فالاستواء والإتيان والمجيء والنزول ونحو ذلك أفعالٌ لازمة لا تتعدى إلى مفعول ، بل هي قائمةٌ بالفاعل ، والخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ، والإعطاء والمنع ، والهدى والنصر والتنزيل ونحو ذلك ، تتعدى إلى مفعول» .

ثم بين اختلاف الناس في هذا فقال :

«والناس في هذين النوعين على ثلاثة أقوال :

فمنهم من لا يُثبت فعلاً قائمًا بالفاعل ، لا لازمًا ولا متعديًا ، أما اللازم فهو عنده مُنْتَفٍ ، وأما المتعدي : كالخلق فيقول : الخلق هو المخلوق ! أو معنى غير المخلوق ! وهذا قول الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم كالأشعري ومتبعيه ، وهذا أول قولي القاضي أبي يعلى وقول ابن عقيل .

والقول الثاني : إن الفعل المتعدي قائمٌ بنفسه دون اللازم فيقولون : الخلق قائم بنفسه ليس هو المخلوق، وهم على قولين: منهم من جعل ذلك الفعل حادثًا ، ومنهم من يجعله قديمًا فيقول : التخليق والتكوين أزلي!

والقول الثالث : إثباتُ الفعلين : اللازم والمتعدي كما دلَّ عليه القرآن، فنقول : إنه كما أخبر عن نفسه أنه خلق السموات والأرض في

ستة أيامٍ ثم استوىٰ علىٰ العرش ، وهو قول السلف وأئمة السنة ، وهو قولُ من يقول : إنَّه تقوم به الصفات الاختيارية ـ كأصحاب أبي معاذ وزهير البابي وداود بن علي والكرامية وغيرهم من الطوائف ، وإن كانت الكرامية يقولون بأن النزول والإتيان أفعالٌ تقوم به ـ وهؤلاء يقولون : يقدر علىٰ أن يأتي بنفسه ويجيء وينزل ويستوي ونحو ذلك من الأفعال ، كما أخبر عن نفسه وهذا هو الكمال .

وقد صرَّح أئمة هذا القول بأنه يتحرك ، كما ذكر ذلك حرب الكرماني عن أهل السنة والجماعة ، وسمَّىٰ منهم : أحمد بن حنبل وسعيد بن منصور وإسحاق بن إبراهيم وغيرهم ، وكذلك ذكره عثمان بن سعيد الدارمي عن أهل السنة ، وجعل نفي الحركة عن الله عز وجل من أقوال الجهمية التي أنكرها السلف ، وقال : كل حيٍّ متحرك ، وما لا يتحرك فليس بحي ، وقال بعضهم : إذا قال لك الجهمي : أنا كافرٌ برب يتحرك ، فقل : أنا مؤمن بربٍّ يفعل ما يشاء .

وهؤلاء يقولون : من جعل هذه الأفعال غير ممكنةٍ ولا مَقْدُورةٍ له فقد جعله دون الجماد ـ وإن كان لا يتحرك بنفسه ـ فهو يقبل الحركة في الجملة ، وهؤلاء يقولون : إنه تعالىٰ لا يقبل ذلك بوجه ، ولا تمكنه الحركة ، والحركة والفعل صفةُ كمالٍ ، كالعلم والقدرة والإرادة ، فالذين ينفون تلك الصفات سلبوه صفات الكمال ، فكذلك هؤلاء الكُلاَّبِيَّة» .

ثم بيَّن أن الله تعالىٰ لو لم يكن حيًا عليمًا سميعًا بصيرًا متكلمًا قادرًا للزم أن يكون ميتًا جاهلاً أصمًا أعمىٰ أخرسًا عاجزًا ، وهذه نقائص يجب تنزيهه عنها ، فإنه سبحانه قد خلق من هو حي سميع بصير متكلم عالم قادر متحرك ، فهو أولىٰ بأن يكون كذلك ، فإن كلَّ كمال في المخلوق

هو من كمال الخالق .

وقال: «وأيضًا فيقال لهم : رب العالمين إما أن يقبل الاتصاف بالحياة والعلم ونحو ذلك وإما أنْ لا يقبل ، فإن لم يقبل ذلك ولم يتصف به كان دون الأعمى الأصم الأبكم ، وإن قبلها ولم يتصف بها كان ما يتصف بها أكمل منه ، فجعلوه دون الإنسان والبهائم، وهكذا يقال لهم في أنواع الفعل القائم به : كالإتيان والمجيء والنزول وجنس الحركة ، إما أن يقبل ذلك وإما أن لا يقبله ، فإن لم يقبله ، كانت الأجسام التي تقبل الحركة ولم تتحرك أكمل منه ، وإن قَبِلَ ذلك ولم يفعله كان ما يتحرك أكمل منه، فإن الحركة كمالٌ للمتحرك ، ومعلوم أن من يمكنه أن يتحرك بنفسه أكمل ممن لا يمكنه التحرك ، وما يقبل الحركة أكمل ممن لا يقبلها.

والنفاةُ عمدتهم أنه لو قَبِل الحركة لم يَخْلُ منها ، ويلزم وجود حوادث لا تتناهى ! ثم ادَّعوا نفي ذلك! وفي نفيه نقائص لا تتناهى !

والمثبتون لذلك يقولون : هذا هو الكمال ، كما قال السلف : لم يزل الله متكلمًا إذا شاء ، كما قال ذلك ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما ، وذكر البخاري عن نعيم بن حماد أنه قال : الحيُّ هو الفعَّال ، وما ليس بفعَّال فليس بحي[1] .

وقد عُرِف بطلان قول الجهمية وغيرهم بامتناع دوام الفعل والحوادث كما قد بسطَ في غير هذا الموضع .

والمقصود ههنا : أنَّ هؤلاء لا يجعلونه قادرًا على هذه الأفعال ، وهي أصل الفعل ، فلا يكون على كل شيء قدير ـ على قولهم ـ بل ولا على شيء ، وقد قال : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] : قال ابن

(١) انظره في «خلق أفعال العباد» للبخاري مع اختلاف يسير (ص١١٧) بتحقيق الشيخ بدر البدر.

عباس - في رواية الوالبي عنه : هذه في الكفار ، فأما من آمن أنَّ الله على كل شيء قدير - فقد قدَّر الله حقَّ قدره[1] .

وذكروا في قوله : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ : ما عرفوه حق معرفته وما عظَّموه حق عظمته ، وما وصفوه حق وصفه، وهذه الكلمة ذكرها الله في ثلاثة مواضع : في الردِّ على المعطلة ، وعلى المشركين ، وعلى من أنكر إنزال شيء على البشر ، فقال في الأنعام : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] وقال في الحج : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ - إلى قوله تعالى - مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٧٣، ٧٤] وقال في الزمر : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٦٧] .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود : «أن حَبْرًا من اليهود قال للنبي ﷺ : يا محمدُ ! إنَّ الله يومَ القيامة يجعلُ السموات على إصبع والأرض على إصبع ، والجبالَ والشجرَ على إصبع ، والماءَ والثَّرىٰ على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ثم يَهُزُّهُنَّ ، ويقول : أنا الملكُ ، قال: فضحك رسول الله ﷺ تصديقًا لقول الحبر ، ثم قرأ : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية .

وفي الصحيحين أيضًا عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : **«يَقْبِضُ الله الأرضَ يوم القيامة ، ويَطْوي السَّماء بيمينه ، ثم يقول : أنا**

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧/ ١٧٧) عن معاوية بن صالح بن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس به . ولم يذكر رواية الوالبي ، وهو علي بن ربيعة ثقة ، وعزاه السيوطي في الدُّر (٣/ ٣١٣) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه .

الملكُ ، أين ملوكُ الأرض؟ ثم يقول : أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» .

وكذلك في الصحيحين من حديث ابن عمر : «**يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**».

وفي لفظ لمسلم قال : «**يأخذُ الجبارُ تبارك وتعالى سَمَوَاته وأرضه بيديه جميعًا ، فجعل يقبضهما ويبسطهما ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الجبار وأنا الملكُ أين الجبارون؟! وأين المتكبرون؟!** ويميل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول : أساقطٌ هو برسول الله ﷺ؟» .

وفي السنن عن عوف بن مالك الأشجعي قال : «قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقَفَ وتعوَّذ ، قال : ثم ركعَ بقدر قيامه يقول في ركوعه : «**سُبحانَ ذي الجَبَروت والملكوت والكبرياء والعظمة**» ثم يسجد بقدر قيامه ، ثم قال في سجوده : مثل ذلك ثم قام فقرأ : آل عمران : ثم قرأ سورة» رواه أبو داود والنسائي والترمذي في «الشمائل»[1] .

فقال في هذا الحديث : «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**» وهذه الأربعةُ نُوزِعَ الربُّ فيها ، كما قال : «**أين الملوك؟! أين الجبارون ؟! أين المتكبرون؟!**» وقال عز وجل : «**العظمة إزاري ، والكِبْرياءُ ردائي ، فمن نَازَعَني واحدًا منها عذَّبتُه**» [2].

ونُفَاةُ الصفات ما قدروا الله حقَّ قدره ، فإنه عندهم لا يمسك شيئًا ،

---

(١) وسنده عندهم حسن ، وقد سبق تخريجه في الجزء الأول (ص١٤٩) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٤٩٠) وابن ماجه (٢/ ٤١٧٤) وغيرهما عن أبي هريرة ، وسنده صحيح . وأخرجه مسلم (٤/ ٢٠٢٣) بنحوه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة .

ولا يقبضه ولا يطويه ، بل كل ممتنع عليه ، ولا يقدر علىٰ شيء من ذلك ، وهم أيضًا في الحقيقة يقولون : ما أنزل الله علىٰ بشرٍ من شيء لوجهين :

أحدهما : إن الإنزال إنما يكون من علو ، والله تعالىٰ عندهم ليس في العلو فلم ينزل منه شيء ، وقد قال تعالىٰ :﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤] ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١] إلىٰ غير ذلك ، وقولهم : إنَّه خَلَقه في مخلوق ونَزَل منه باطل ؛ لأنه قال : ﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ ﴾ ولم يجئ هذا في غير القرآن ، والحديد ذكر أنه أنزله مطلقًا ، ولم يقل منه وهو مُنَزَّلٌ من الجبال ، والمطر أُنزل من السماء والمراد أنه أنزله من السحاب ، وهو المزن كما ذكر ذلك في قوله : ﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ [الواقعة: ٦٩] .

والثاني : أنه لو كان من مخلوق لكان صفة له وكلامًا له ، فإن الصفة إذا قامت بمحلٍ عاد حكمها علىٰ ذلك المحل ، ولأن الله لا يتصف بالمخلوقات ، ولو اتصف بذلك لاتصف بأنه مصوت إذا خلق الأصوات ومتحرك إذا خلق الحركات في غيره ، إلىٰ غير ذلك . إلىٰ أن قال : فقد تبين أن الجهمية ما قدروا الله حق قدره ، وأنهم داخلون في هذه الآية ، وأنهم لم يثبتوا قدرته لا علىٰ فعل ولا علىٰ الكلام بمشيئته ، ولا علىٰ نزوله ، وعلىٰ إنزاله منه شيئًا ، فهم من أبعد الناس عن التصديق بقدرة الله ، وأنه علىٰ كل شيء قدير ، وإذا لم يكن قديرًا لم يكن قويًا ، ويلزمهم أنه لم يخلق شيئًا ، فيلزمهم الدخول في قوله : ﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] .

فهم ينفون حقيقة قدرته في الأزل ، وحقيقة قولهم : إنه صار قادرًا

بعد أن لم يكن ، والقدرة التي يثبتونها لا حقيقة لها .

وهذا أصلٌ مهم ، من تصوَّره عرف حقيقة الأقوال الباطلة ، وما يلزمها من اللوازم ، وعرف الحق الذي دل عليه صحيح المنقول ، وصريح المعقول ، لا سيما في هذه الأصول التي هي أصول كل الأصول، والضالون فيها لما ضيعوا الأصول حرموا الوصول ، وقد تبين أنه كلما تحققت الحقائق وأعطي النظر والاستدلال حقه من التمام كان ما دلَّ عليه القرآن هو الحق ، وهو الموافق للمعقول الصريح الذي لم يشتبه بغيره مما يسمى معقولاً ، وهو مشتبه مختلط ، كما قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ [الأنعام: ١٥٩] قال : هم أهل البدع والشبهات ، فهم في أمور مبتدعة في الشرع ، مشتبهة في العقل» .

إلى أن قال : «والمقصود هنا التنبيه على تنازع الناس في مسألة «القُدرة» وفي الحقيقة أنه من لم يقل بقول السلف فإنه لا يثبت لله قدرةً ، ولا يثبته قادرًا ، فالجهميَّة - ومن تبعهم - والمعتزلة والقدرية والمجبرة والنافية حقيقة قولهم : إنه ليس قادراً وليس له المُلك ، فإن الملكَ إما إن يكون هو القدرة أو المقدور أو كلاهما ، وعلى كل تقدير فلا بدَّ من القُدرة ، فمن لم يثبت له القدرة حقيقةً لم يُثبت له مُلْكًا ! كما لا يُثبتون له حمدًا!»[1].

٢- في وجود المخلوقات التي لا تُحصى ، بتعدُّد أشكالها وبتنوُّع أصـنافها ، برهانٌ ساطع وآية ظاهرة على كمال قدرة الله تعالى ، وقد بسط الله سبحانه بيان ذلك في مواضع جمة من كتابه ، قال شيخ الإسلام في تتمة كلامه السابق : والمقصود إنه سبحانه عدلٌ لا يظلم ، وعدله

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/١٨ - ٣٠) مختصراً .

إحسانه إلىٰ خلقه ، فكل ما خلقه فهو إحسانٌ إلىٰ عباده ، ولهذا كان مستحقًا للحمد علىٰ كلِّ حال ، ولهذا لمَّا ذكر في سورة النجم أنواعًا من مقدوراته[1] ثم قال : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ فدلَّ علىٰ أنَّ هذه الأنعم مثل إهلاك الأمم المكذِّبة للرسل ، فإن في ذلك من الدلائل علىٰ قدرته وحكمته ، ونعمته علىٰ المؤمنين ونصره للرسل ، وتحقيق ما جاءوا به وأن السعادة في متابعتهم والشقاوة في مخالفتهم ما هو من أعظم النعم .

وكذلك ما ذكره في سورة الرحمن ، وكل مخلوق هو من آلائه من وجوه :

منها أنه يستدل به عليه وعلىٰ توحيده وقدرته وغير ذلك ، وأنه يحصل به الإيمان والعلم وذكر الرب ، وهذه النعمة أفضل ما أنعم الله به علىٰ عباده في الدنيا ، وكل مخلوقٍ يعين عليها ويدلُّ عليها ، هذا مع ما في المخلوقات من المنافع لعباده غير الاستدلال بها ، فإنه سبحانه يقول : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لمَّا يذكر ما يذكره من الآية ، وقال : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ والآلاء : هي النِّعم ، والنِّعم كلها من آياته الدالة علىٰ نفسه المقدسة ، ووحدانيته ونعوته ومعاني أسمائه ، فهي آلاء آياته ،

---

(١) وذلك في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ۝٤٢ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ۝٤٧ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝٤٨ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ۝٤٩ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم : ٤٢ - ٥٥] ، وفيها من ذكر قدرته وفعله وتصرفه في الخلق والإيجاد ، والبعث والمعاد ، وإهلاك الأمم والإبعاد ، لذكرىٰ لمن كان له قلبٌ أو ألقىٰ السمع وهو شهيد ، بأنه الله الواحد القادر علىٰ كل شيء .

وكل ما كان من آلائـه فهو مـن آياته ، وهذا ظاهر ، وكذلك كل ما كان من آياته فهو من آلائه ، فإنه يتضمَّنُ التعريف والهداية ، والدلالة على الرب تعالىٰ ، وقدرته وحكمته ورحمته ودينه ، والهُدَىٰ أفضل النعم.

وأيضًا : ففيها نِعَمٌ ومنافع لعباده غير الاستدلال ، كما في خَلْقِ الشمس والقمر والسحاب والمطر والحيوان والنبات ، فإنَّ هذه كلها من آياته ، وفيها نعمٌ عظيمةٌ علىٰ عباده غير الاستدلال ، فهي تُوجب الشكر لما فيها من النعم ، وتوجب التذكر لما فيها من الدلائل ، قال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان: ٦٢] وقال : ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨] ، فإن العبد يدعوه إلىٰ عبادة الله داعي الشكر وداعي العلم ، فإنه يشهد نعم الله عليه وذلك داعٍ إلىٰ شكرها ، وقد جبلت النفوس علىٰ حب من أحسن إليها ، والله تعالىٰ هو المنعم المحسن الذي ما بالعباد من نعمة فمنه وحده .

وقد ذمَّ سبحانه من كفر بعد إيمانه كما قال : ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣] الآية ، فهذه في كشف الضر ، وفي النعم قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي : شكركم وشكر ما رزقكم الله ونصيبكم ، تجعلونه تكذيبًا وهو الاستسقاء بالأنواء» [1].

٣- اختلف الناس في تفسير ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] مع تصديقهم بخبره سبحانه ، فقالت طائفة : إن هذا عامٌّ يدخل فيه الممتنع لذاته من الجمع بين الضدين ! قاله طائفة منهم ابن حزم .

وطائفة تقول : هذا عامٌّ مخصوص يخص منه الممتنع لذاته ، فإنه وإن كان شيئًا فإنه لا يدخل في المقدور ، كما ذكر ذلك ابن عطية وغيره!

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٣١ ـ ٣٢) .

وقد حكى القولين ابن تيمية رحمه الله وخَطَّئهما ثم قال : «والصواب وهو القول الثالث الذي عليه عامة النظار ، وهو : أن «الممتنع لذاته» ليس شيئًا ألبتة ، وإن كانوا متنازعين في المعدوم ، فإن الممتنع لذاته لا يمكن تحققه في الخارج ، ولا يتصوره الذهن ثابتًا في الخارج ، ولكن يقدر اجتماعهما في الذهن ، ثم يحكم على ذلك بأنه ممتنعٌ في الخارج ، إذ كان يمتنع تحققه في الأعيان ، وتصوره في الأذهان ، إلا على وجه التمثيل بأن يقال : قد تجتمع الحركة والسكون في الشيء ، فهل يمكن في الخارج أن يجتمع السواد والبياض في محل واحد ، كما تجتمع الحركة والسكون ، فيقال : هذا غير ممكن ، فيقدر اجتماع نظير الممكن ثم يحكم بامتناعه ، وأما نفس اجتماع البياض والسواد في محل واحد فلا يمكن ولا يعقل ، فليس بشيء لا في الأعيان ولا في الأذهان ، فلم يدخل في قوله﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] » .

ثم قال : «المسألة الثانية : إن المعدوم ليس بشيءٍ في الخارج عند الجمهور ، وهو الصواب .

وقد يطلقون إن الشيء هو الموجود ، فيقال على هذا : فيلزم أن لا يكون قادرًا إلا على موجود ، وما لم يخلقه لا يكون قادراً عليه ، وهذا قول بعض أهل البدع ، قالوا : لا يكون قادرًا إلا على ما أراده دون ما لم يرده ويُحكى هذا عن تلميذ النظام» .

إلى أن قال : «والتحقيق أن الشيء اسمٌ لما يوجد في الأعيان ولما يتصور في الأذهان ، فما قدَّره الله وعلم أنه سيكون هو شيء ، في التقدير والعلم والكتاب ، وإن لم يكن شيئًا في الخارج ، ومنه قوله

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ولفظ الشيء في الآية يتناول هذا وهذا ، فهو على كل شيء ـ ما وجد وكل ما تصوره الذهن موجودًا ، إن تصور أن يكون موجودًا ـ قدير ، لا يستثنى من ذلك شيء ، ولا يزاد عليه شيء كما قال تعالى : ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤] . وقال : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] .

وقد ثبت في الصحيحين : أنها لما نزلت قال النبي ﷺ : «**أعوذ بوجهك**» فلما نزلت : ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥] الآية قال : «**هاتان أهون**» .

فهو قادرٌ على الأولتين وإن لم يفعلهما وقال : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] .

قال المفسرون : لقادرون على أن نذهبَ به حتى تموتوا عطشًا ، وتهلك مواشيكم ، وتخرب أراضيكم ، ومعلوم أنه لم يذهب به ، وهذا كقوله : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ إلى قوله : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة : ٦٨ ـ ٨٢] وهذا يدل على أنه قادر على ما لا يفعله ، فإنه أخبر أنه لو شاء جعل الماء أُجاجًا وهو لم يفعله .

ومثل هذا : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣] ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣] فإنه أخبر في غير موضع أنه لو شاء لفعل أشياء وهو لم يفعلها ، فلو لم يكن قادرًا عليها لكان إذا شاءها لم يمكنه فعلها .

(المسألة الثالثة) : إنه على كل شيء قدير ، فيدخل في ذلك أفعال

العباد وغير أفعال العباد ، وأكثر المعتزلة يقولون : إنَّ أفعال العبد غير مقدورة .

(المسألة الرابعة) : إنه يدخل في ذلك أفعال نفسه ، وقد نطقت النصوص بهذا ، وهذا كقوله تعالى: ﴿**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم**﴾ [يس: ٨١] ﴿**أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ**﴾ [القيامة: ٤٠] ﴿**بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ**﴾ [القيامة: ٤] ونظائره كثيرة .

والقُدرة على الأعيان جاءت في مثل قوله : ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ**﴾ [ق: ١٦] ﴿**أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ**﴾ [البلد: ٥] وجاءت منصوصًا عليها في الكتاب والسنة ، أما الكتاب فقوله : ﴿**فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ**﴾ [الزخرف: ٤١] فبين أنه سبحانه يقدر عليهم أنفسهم ، وهذا نص في قدرته على الأعيان المفعولة، وقوله: ﴿**وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ**﴾ [ق: ٤٥] و ﴿**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ**﴾ [الغاشية: ٢٢] ونحو ذلك ، وهو يدل بمفهومه على أنَّ الرب هو الجبار عليهم المسيطر ، وذلك يستلزم قدرته عليهم ، وقوله : ﴿**فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾ [الانبياء: ٨٧] ـ على قول الحسن وغيره من السلف ممن جعله من القدرة ـ دليل على أنَّ الله قادر عليه وعلى أمثاله .

وكذلك قول الموصي لأهله : «لئن قدر الله عليَّ ليُعَذبني عذابًا ما عذَّبه أحدًا من العالمين» . فلما حَرَّقوه أعاده الله تعالى وقال له : «**ما حملك على ما صنعت؟** قال : خشيتك يارب ! فغفر له»[1] وهو كان

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء (٦/ ٤٩٤) وفي الرقاق ، باب الخوف من الله (١١/ ٣١٢ ـ ٣١٣) والنسائي في الجنائز (٤/ ١١٣) عن ربعي بن حراش عن حذيفة به .

ورواه البخاري (٦/ ٥١٤ ـ ٥١٥) وفي التوحيد (١٣/ ٤٦٦) والنسائي (٤/ ١١٣) عن أبي ـ

مُخطئًا في قوله : «لئن قدر الله علي ليعذبني» كما يدلُّ عليه الحديث ، وأنَّ الله قَدرَ عليه لكن لخشيته وإيمانه غفر الله له هذا الجهل والخطأ الذي وقع منه .

وقد يستدل بقوله : ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ إلى قوله : ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠، ٢٣] على قول من جعله من القدرة ، فإنه يتناول القدرة على المخلوقين وإنْ كان سبحانه قادرًا أيضًا على خلقه ، فالقدرة على خلقه قدرة عليه ، والقدرة عليه قدرة على خلقه ، وجاء أيضًا الحديث منصوصًا في مثل قول النبي ﷺ لأبي مسعود لما رآه يَضْرِبُ عبده «لله أقدرُ عليك منك على هذا»[1] . فهذا فيه بيان قدرة الرب على عين العبد ، وأنه أقْدرُ عليه منه على عبده ، وفيه إثبات قدرة العبد» .

ثم ذكر اختلاف الناس في قدرة الرب والعبد فقال :

وقد تَنَازع الناسُ في «قُدرة الربِّ والعبد» فقالت طائفة : كلا النوعين يتناول الفعل القائم بالفاعل ، ويتناول مقدوره وهذا أصحُّ الأقوال ، وبه نَطَقَ الكتاب والسنة ، وهو : أن كلَّ نوعٍ من القدرتين يتناول الفعل القائم ويتناول مقدوره وهذا أصحُّ الأقوال ، وبه نَطَقَ الكتاب والسنة ، وهو : أن كلَّ نوعٍ من القدرتين يتناول الفعل القائم بالقادر ومقدوره المباين له ، وقد تبيَّن بعض ما دل على ذلك في قدرة الرب .

وأما قدرة العبد : فَذِكْرُ قدرته على الأفعال القائمة به كثيرة ، وهذا متفقٌ عليه بين الناس الذين يثبتون للعبد قدرة ، مثل قوله : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا

= هريرة به .

ورواه البخاري (٦/ ٥١٤) ، (١٣/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧) عن أبي سعيد الخدري به .

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (٣/ ١٢٨٠ ـ ١٢٨١) وأحمد (٤/ ١٢٠) .

اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٢] الآية .

وقول النبي ﷺ : «صَلِّ قائمًا ، فإنْ لم تَستَطع فقَاعدًا ، فإن لم تَستطع فعلى جَنْبك»(١) .

وأما المباين لمحلِّ القدرة ، فمثل قوله : ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ إلى قوله : ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ إلى ﴿قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢٠، ٢١] فدلَّ على أنهم قدروا على الأول ، وهذه يمكن أنْ يقدروا عليها وقتًا آخر ، وهذه قدرة على الأعيان وقوله : ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم: ٢٥ - ٣٢].

وأيضًا فالقرآن دلَّ على أنَّ المفعولات الخارجة مصنوعة لهم ، وما كان مصنوعًا لهم فهو مقدور بالضرورة والاتفاق ، والمنازع يقول : ليس شيء خارجًا عن محل قُدرتهم مصنوعًا لهم ، وهذا خلاف القرآن قال تعالى لنُوح : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧] وقال : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ [هود: ٣٨] وقد أخبر أنَّ الفلك مخلوقة مع كونها مصنوعة لبني آدم وجعلها من آياته ، فقال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥](٢) ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢] وقال : ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] .

---

(١) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (٥٨٧/٢) من حديث عمران بن حصين .

(٢) في مطبوعة «الفتاوى» : ﴿وسخر لكم ما في الأرض والفلك ..﴾ وهو خطأ ، فالآية أولها ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ..﴾ .

فجعل الأصنام منحوتةً مَعْمُولة لهم ، وأخبر أنه خالقُهم ، وخالقُ معمولهم فإن «ما» ههنا : بمعنى الذي ، والمراد خلق ما تعملونه من الأصنام ، وإذا كان خالقًا للمعمول وفيه أثر الفعل ، دل على أنه خالقٌ لأفعال العباد . وأما قول من قال : إن «ما» مصدرية فضعيف جدًا .

وقيل بل الرب تعالى لا يقدر إلا على المخلوق المنفصل لا يقوم به فعل يقدر عليه ، والعبد لا يقدر إلا على ما يقوم بذاته ، لا يقدر على شيء منفصل عنه ، وهذا قول الأشعري ومن وافقه من أتباع الأئمة : كالقاضي أبي يعلى وابن عقيل وابن الزاغوني ، وغيرهم .

وقيل : إنَّ العبد يقدر على هذا وهذا ، والرب لا يقدر إلا على المنفصل وهو قول المعتزلة ، وقيل إن كليهما يقدر على ما يقوم به دون المنفصل ، وما علمت أحدًا قال : كلاهما يقدر على المنفصل دون المتصل [1].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٧ ـ ١٨) .

الأول
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٧٥)

* **المعنى اللغوي :**

الأولُ نقيضُ الآخِر ، وأصله : أوْأَلُ على أفعل مهموز الأوسط ، قُلبت الهمزة واواً وأُدْغم ، يدلُّ على ذلك قولهم : هذا أوَّل منك .

والجمع الأوال والأوالي ، أيضًا على القلب .

وقال قوم : ووَّل على فَوْعل ، فقُلبت الواو الأولى همزة[١] وإنما لم يجمع على أواول لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف . وتقول : هذا أوَّلُ بيِّنُ الأوَّلِيَّة .

قال ذو الرُّمَّة :

وما فخرُ من ليست له أوَّلِيَّةٌ ... تُعَدُّ إذا عُدَّ القديمُ ولا ذِكْرُ

يعني : مفاخر آبائه[٢] .

وقال الراغب : الأول هو الذي يترتب عليه غيرُهُ ، ويستعمل على أوجه :

---

(١) ردَّ هذا القول الزجاجي في «اشتقاق الأسماء» (ص٢٠٤) فقال : وزن «أول» : أفعل وفاؤه وعينه واوان ، والدليل على أنه أفعل ـ وليس بفوعل كما ذهب إليه بعض النحويين ـ اتصال «مِنْ» به ، ولا تتصل إلا بأفعل ، فيقال : أنا أول من فلان . اهـ وهناك رأي ثالث فقد قال الخليل : تأسيسه من همزةٍ وواوٍ ولام فيكون فعَّل ، حكاه الراغب «المفردات» (ص٣١) وقال : هو الأفصح .

(٢) «الصحاح» (٥/ ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩) .

أحدها : المُتَقدِّم بالزمان ، كقولك : عبد الملك أولاً ثم منصور .

الثاني : المتقدم بالرِّياسة في الشيء وكونِ غيرِه مُحْتَذِيًا به ، نحو : الأمير أولاً ثم الوزير .

الثالث : المتقدِّم بالوضع والنِّسبة ، كقولك للخارج من العراق : القادسيةُ أولاً ثم فَيْدُ ، وتقول للخارج من مكة : فيدُ أولاً ثم القادسية .

الرابع : المتقدم بالنظام الصِّناعي ، نحو أن يقال : الأساسُ أولاً ثم البناء[1] .

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرةً واحدة في قوله تعالى : ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد: ٣] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال الفرَّاء : قوله عز وجل ﴿**هُوَ الأَوَّلُ**﴾ : يريد قبل كل شيء ، و(الآخر) : بعد كل شيء[2] .

وقال ابن جرير : هو (الأول) قبل كل شيء بغير حدٍّ ، و(الآخر) بعد كل شيء بغير نهاية ، وإنما قيل ذلك كذلك ، لأنه كان ولا شيء موجودًا سواه ، وهو كائنٌ بعد فناء الأشياء كلِّها ، كما قال جلَّ ثناؤه ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾[3] .

وقال الزَّجَّاج : (الأول) هو موضـوع التقدُّم والسَّبْق . ومعـنى

(١) «المفردات» (ص٣١ ـ ٣٢) ، وفَيْدُ : بُليدةٌ في نصف طريق مكة من الكوفة «معجم البلدان» (٤/ ٢٨٢).

(٢) «معاني القرآن» (٣/ ١٣٢) .

(٣) «جامع البيان» (٢٧/ ١٢٤) .

وَصْفَنَا الله تعالى بأنه أوَّلٌ : هو متقدمٌ للحوادث بأوقات لا نهاية لها ، فالأشياءُ كلُّها وُجدت بعده ، وقد سبقها كلَّها ، وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه : **«أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»**[1].

وقال الخطَّابي : (الأول) هو السابق للأشياء كلِّها ، الكائن الذي لم يزل قبل وجود الخلق ، فاستحقَّ الأوليَّة إذْ كان موجودًا ولا شيء قبله ولا معه . ثم ذكر الحديث[2] .

وقال الحُليمي : (الأول) : الذي لا قَبْلَ له ، والآخر هو الذي لا بَعد له ، [وهذا لأن] «قبل وبعد» نهايتان ، فقبل نهاية الموجود من قِبَل ابتدائه ، وبعد غايته من قِبل انتهائه ، فإذا لم يكن له ابتداء ولا انتهاء لم يكن للموجود قبل ولا بعد ، فكان هو الأول والآخر[3] .

وقال البيهقي : (الأول) هو الذي لا ابتداء لوجوده[4] .

وقال ابن القيم :

هو أول هو آخِرٌ هو ظاهرٌ ... هو باطنٌ هي أربعٌ بِوَزَانِ
ما قَبْله شيءٌ كَذَا ما بَعْدَه ... شيءٌ تعالى الله ذو السُّلْطانِ
ما فَوقَه شيءٌ كَذَا ما دُونَه ... شيءٌ وذا تَفْسيرُ ذي البُرهانِ
فانظر إلى تَفْسيره بتدبرٍ ... وتَبَصرٍ وتَعقلٍ لمعان

(١) «تفسير الأسماء» (ص٥٩ ـ ٦٠) .

(٢) «شأن الدعاء» (ص٨٧) .

(٣) «المنهاج» (١/١٨٨) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباري جلَّ ثناؤه والاعتراف بوجوده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص١١).

(٤) «الاعتقاد» (ص٦٣) .

وانظر إلىٰ ما فيه مِن أنواعِ معـ ـرفةٍ لخالقِنا العظيمِ الشَّان[1]

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- باديءُ ذي بدء نقول إنَّ خير ما يُفسر به هذا الاسم والأسماء الثلاثة التي تليه : هو تفسير الرسول ﷺ ـ أعلم الخلق بالله تعالىٰ ـ وذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يأمُرُنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول : «**اللهم ربَّ السَّموات وربَّ الأرض وربَّ العرش العظيم ، ربَّنا وربَّ كلِّ شيء ، فالقَ الحبِّ والنَّوىٰ ومُنزِّلَ التوراة والإنجيلِ والفرقان ، أعوذُ بك من شرِّ كلِّ شيء أنت آخذٌ بناصيته ، اللهمَ أنتَ الأولُ فليس قبلك شيءٌ، وأنتَ الآخرُ فليس بعدَكَ شيء ، وأنتَ الظَّاهرُ فليس فوقك شيء ، وأنت الباطنُ فَليس دونك شيء ، اقْضِ عنا الدَّينَ واغْننا من الفقر**»[2] .

فالله تعالىٰ هو الأول الذي ليس قبله شيء من الموجودات، فهو المتقدِّم علىٰ كل شيء، ولم يكن معه شيء، كما جاء ذلك في حديث عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ: «**كان الله ولم يكن شيءٌ غيرهُ، وكان عرشهُ علىٰ الماء، وكَتَب في الذِّكر كلَّ شيء، وخلق السموات والأرض**»[3] .

قال الطحاوي في عقيدته : «قديمٌ بلا ابتداء، دائمٌ بلا انتهاء» .

---

(١) «النونية» : (٢/ ٢١٣) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر (٤/ ٢٠٨٤) .

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١) والبخاري في بدء الخلق (٦/ ٢٨٦) وفي التوحيد (٣/ ٤٠٣) وانظر «التعليق على كتاب العرش» رقم (١) .

وشرحه ابن أبي العز بقوله : فقول الشيخ : قديم[1] بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء هو معنى اسمه الأول والآخر ، والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقرٌ في الفطر ، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته ، قطعًا للتسلسل ، فإنَّا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن ، وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة فإن الممتنع لا يوجد ، ولا واجبة الوجود بنفسها ، فإن واجبَ الوجود بنفسه لا يقبل العَدَم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ، فعدمها ينفي وجوبها ، ووجودها ينفي امتناعها ، وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه كما قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] يقول سبحانه : أحَدثوا من غير مُحدِث أم هم أحدثوا أنفسهم؟! ومعلوم أن الشيء المحدث لا يُوجِد نفسه ، فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجوداً بنفسه ، بل إنْ حصل ما يوجده وإلا كان معدومًا ، وكل ما أمكن وجوده بدلاً عن عدمه وعدمه بدلاً عن وجوده ، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم له[2] .

٢- جرى على ألسنة كثير من المتكلمين ـ وأهل السنة أحيانًا ـ تسمية الرب تعالى بـ (القديم) وليس من أسماء الله الحسنى والتزام تسميته بـ (الأول) هو الموافق للكتاب والسنة واللغة ، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو : المتقدم على غيره ، فيقال : هذا قديم ، للعتيق وهذا حديث ، للجديد ، ولم يستعملوا هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره ، لا فيما لم يسبقه عدم ، كما قال تعالى : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ

---

(١) سيأتي الكلام عن هذه التسمية .

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١١٣) .

الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] والعُرْجُون القديم : الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني ، فإذا وجد الجديد قيل للأول قديم وقال تعالى : ﴿**وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ**﴾ [الاحقاف: ١١] أي متقدم في الزمان .

ولذا فقد أنكر كثير من السلف والخلف منهم ابن حزم تسمية الرب تعالى بذلك[1] .

والصواب أن يستعاض عن هذا الاسم بالتسمية الواردة وهي (الأول) واتباع ما جاءت به النصوص أولى من اتباع ألفاظ أهل الكلام .

أضف إلى ذلك أن التقدم في اللغة مطلق لا يختصُّ بالتقدم على الحوادث كلها ، فلا يكون من الأسماء الحسنى .

أما من أطلقه من أهل السنة فلعله أطلقه من باب الإخبار عنه تعالى ، وباب الإخبار عنه أوسع مما يدخل في باب الأسماء الحسنى والصفات كالشيء والموجود والقائم بنفسه ونحوها ، كما ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله وغيره[2] .

* * *

---

(١) انظر المصدر السابق (ص ١١٤ ـ ١١٥) .

(٢) انظر «بدائع الفوائد» (١/ ١٦١) و«مختصر العقيدة الطحاوية» (ص١٩) بتعليق الشيخ الألباني حفظه الله تعالى .

الآخِرُ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٧٦)

* المعنىٰ اللغوي :

الآخِرُ خلاف الأول .

تقول : جاء آخرًا : أي أخيرًا ، وتقديره فاعل والأنثىٰ آخِرَة والجمع أواخر .

والآخَر بالفتح : أحد الشيئين ، وهو اسم علىٰ أفعل والأنثىٰ أُخرىٰ[(١)] .

* وروده في القرآن الكريم :

وردة مرةً واحدة في قوله عز وجل : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] .

* معنىٰ الاسم في حق الله تعالىٰ :

تقدم قول الفراء وابن جرير في الكلام علىٰ (الأول) .

وقال الزجاج : (الآخر) هو المتأخر عن الأشياء كلِّها ، ويبقىٰ بعدها[(٢)] .

وقال الخطَّابي : (الآخِرُ) : هو الباقي بعد فَنَاء الخلق وليس معنىٰ

---

(١) «الصحاح» (٢/٥٧٦) و«اللسان» (١/٣٨) مادة (أخر) .

(٢) «تفسير الأسماء» (ص ٦٠) .

الآخر ما له الانتهاء ، كما ليس معنى الأول ما له الابتداء ، فهو الأولُ والآخَر وليس لكونه أول ولا آخر [1].

وقال البيهقي : (الآخر) وهو الذي لا انتهاء لوجوده [2].

* * *

---

(1) «شأن الدعاء» (ص٨٨) .

(2) «الاعتقاد» (ص٦٣) .

الظَّاهر
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٧٧)

*** المعنى اللغوي :**

الظَّهْر خِلاف البطن ، والظاهر خلاف الباطن ، ظَهَرَ يَظهر ظُهُورًا ، فهو ظاهرٌ وظَهيرٌ .

والظَّهير : المعين ومنه قوله تعالى : ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] وبعيرٌ ظَهيرٌ بيِّن الظَّهارة : إذا كان شديدًا قويًا .

وَظَهَرْتُ البيتَ : عَلَوتُهُ ، وظهرتُ على الرجل : غلبته ، وأظهرتُ بفلان : أعليتُ به .

والظَّهر من الأرض : ما غَلُظَ وارتفع ، والبطن ما لانَ منها وسهل ورقَّ واطمأن .

وظَهَر الشيء ظُهورًا : تبين ، وأظهرت الشيء بينتُهُ [(١)].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرةً واحدة في قوله تعالى : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال الفراء : (الظاهر) على كل شيء علمًا ، وكذلك (الباطن) على

---

(١) «الصحاح» (٢/ ٧٣٠ ـ ٧٣٢) و«اللسان» (٤/ ٢٧٦٤ - ٢٧٧٠) مادة (ظهر) .

كل شيء علمًا[1] .

وقال ابن جرير : وقوله ﴿والظاهر﴾ يقول : وهو الظاهر على كل شيء دونه ، وهو العالي فوق كل شيء فلا شيء أعلى منه[2] .

وقال الزجاج : (الظاهر) هو الذي ظَهَر للعقول بحُججه ، وبراهين وجوده ، وأدلة وحدانيته .

هذا إذا أخذتَه من الظهور .

وإن أخذته من قول العرب : ظَهَرَ فلانٌ فوق السطح إذا علا ومنه قول الشاعر :

وتلك شكَاةٌ ظاهرٌ عنك عَارُها .

فهو من العُلُوِّ ، والله تعالى عالٍ على كل شيء ، وليس المراد بالعلو ارتفاع المحلِّ ، لأن الله تعالى يُجل عن المحل والمكان!!

وإنما العُلُوُّ علوُّ الشأن ، وارتفاع السلطان[3] .

وقال الزجاجي : (البَاطن) اسم الفاعل من بطن ، وهو باطن إذا كان غير ظاهر ، و(الظاهر) : خلاف الباطن ، فالله ظاهر باطن ، هو باطنٌ لأنه غير مُشاهد كما تشاهد الأشياء المخلوقة ، عزَّ عن ذلك وعلا ، وهو ظاهر بالدلائل الدالة عليه وأفعاله المؤدية إلى العلم به ومعرفته ، فهو

---

(١) «معاني القرآن» (٣/ ١٣٢) .

(٢) «جامع البيان» (٢٧/ ١٢٤) واختاره النَّحَّاس في كتابه «إعراب القرآن» (٤/ ٣٥٠) .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص٦٠) .

وقوله : «وليس المراد بالعلو ارتفاع المحل .. إلخ» كلامٌ مردودا! فقد تقدم أنَّ الله تعالى له العلو المطلق من جميع الوجوه : علو الذات وعلو القدر والصفات وعلو القهر، انظر تفصيل ذلك في الكلام على أسمائه : (العلي ـ الأعلى ـ المتعال) في الجزء الأول (٣٢٢ وما بعدها) من كتابنا هذا .

ظاهر مدرك بالعقول والدلائل ، وباطن غير مشاهد كسائر الأشياء المشاهدة في الدنيا عز وجل عن ذلك وتعالىٰ علواً كبيراً .

ويجوز في اللغة أن يكون (الباطن) : العالم بما بطن ، أي : خفي ، كقولك : بَطَن بفلانٍ ، أي خُصَّ به فَعَرف باطن أمره ، وهؤلاء بِطانة فلان ، أي خاصته .

ويجوز أيضًا أن يكون (الظاهر) : القوي ، كقولك : ظهر فلان بأمره فهو ظاهر عليه ، أي قويّ عليه ، وجَملٌ ظهير ، أي قوي شديد، قال الأصمعي : يقال : ظاهر فلانٌ فلانًا على فلان ، إذا مَالأهُ عليه ، ويقال: اتخذ معك بعيراً أو بعيرين ظَهِريين ، أي : عدةً ، والجمع ظهاريّ كما ترىٰ[1] .

وقال الخطابي : هو (الظاهر) بحججه الباهرة ، وبراهينه النيِّرة ، وبشواهد أعلامه الدالة على ثبوت ربوبيته ، وصحة وحدانيته .

ويكون الظاهر فوق كل شيءٍ بقدرته .

ويكون الظُّهور بمعنى العلو .

ويكون بمعنى الغَلَبة[2] .

وقال الحليمي : (الظاهر) ومعناه : البَادي بأفعاله ، وهو جلَّ ثناؤه بهذه الصفة ، فلا يمكن معها أن يُجحد وجوده وينكر ثبوته[3] .

---

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص١٣٧) .

(٢) «شأن الدعاء» (ص٨٨)، ونقله البيهقي في «الاعتقاد» (ص٦٣) وقال (ص٦٤) إنه من صفات الذات.

(٣) «المنهاج» (١/ ١٨٥) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباري جلَّ ثناؤه والاعتراف بوجوده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص١٣) .

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١- إن الله تعالى هو الظاهر الذي ليس فوقه شيء ، فهو العلي الأعلى ، وهذا «غاية الكمال في العلو أن لا يكون فوق العالي شيء موجود ، والله موصوف بذلك» [(١)].

وجهة العلو هي أشرف الجهات كما هو مستقر في النفوس وقد قرَّر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله علو الرب سبحانه بالأدلة العقلية وذلك من طرق فقال: «أحدها : أن يُقال : إذا ثبت بالعقل أنه مُبَاين للمخلوقات وثبت أن العالم كُري ، وأن العلو المطلق فوق الكرة ، لزم أن يكون في العلو بالضرورة .

وهذه مقدمات عقلية ليس فيها خطابيّ ، وذلك لأن العالم إذا كان مستديرًا فله جهتان حقيقيتان : العلو والسفل فقط ، وإذا كان مباينًا للعالم امتنع أن يكون في السفل داخلاً فيه . فوجب أن يكون في العلو مباينًا له. وقد تقدم أن النافي قال : «إن العالم كرة» واستدل على ذلك بالكسوف القمري إذا كان يتقدم في الناحية الشرقية على الغربية .

والقول بأن الفلك مستدير هو قول جماهير علماء المسلمين ، والنقل بذلك ثابت عن الصحابة والتابعين ، بل قد ذكر أبو الحسين بن المنادي ، وأبو محمد بن حزم ، وابن الجوزي ، وغيرهم : أنه ليس في ذلك خلاف بين الصحابة والتابعين وغيرهم من علماء المسلمين ، وقد نازع في ذلك طوائف من أهل الكلام والرأي ، من الجهمية والمعتزلة وغيرهم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣] ، وقال: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ

---

(١) قاله شيخ الإسلام في «درء التعارض» (٧/ ١١) .

وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]

وإذا كان الخصم قد استدل بذلك ، كان ذلك حجة عليه ، فإذا كان العالم كُرِّيًا ـ وقد ثبت بالضرورة أنه : إما مداخل له ، وإما مباين له وليس بمداخل له ـ وجب أن يكون مباينًا له ، وإذا كان مباينًا له ، وجب أن يكون فوقه ، إذ لا فوق إلا المحيط وما كان وراءه .

الطريق الثاني : أن يقال: علو الخالق على المخلوق وأنه فوق العالم. أمرٌ مستقر في فطر العباد ، معلومٌ لهم بالضرورة ، كما اتفق عليه جميع الأمم، إقرارًا بذلك وتصديقًا ، من غير أنْ يتواطأوا على ذلك ويتشاعروا ، وهم يُخبرون عن أنفسهم أنهم يجدون التصديق بذلك في فِطَرِهم .

الطريق الثالث : أن يُقال : هم عندما يضطرون إلى قصد الله وإرادته مثل قصده عند الدعاء والمسألة ، يضطرون إلى توجه قلوبهم إلى العلو ، فكما أنهم مضطرون إلى دعائه وسؤاله ، هم مضطرون إلى أن يوجِّهوا قلوبهم إلى العلو إليه، لا يجدون في قلوبهم توجهًا إلى جهة أخرى ، ولا استواء الجهات كلها عندها وخلو القلوبِ عن قصد جهة من الجهات ، بل يجدون قلوبهم مضطرة إلى أن تقصد جهة علوهم دون غيرها من الجهات .

وهذا الوجه يتضمن بيان اضطرارهم إلى قصده في العلو ، وتوجههم عند دعائه إلى العلو ، والأول يتضمن فطرتهم على الإقرار بأنه في العلو والتصديق بذلك ، فهذا فطرةٌ واضطرار إلى العلم والتصديق والإقرار ، وذاك اضطرار إلى القصد والإرادة والعمل المتضمن للعلم والتصديق والإقرار .

الطريق الرابع : أن يقال : قوله : «جهة فوق أشرف الجهات ، خطابي» ليس كذلك ، وذلك لأنه قد ثبت بصريح المعقول أن الأمرين المتقابلين إذا كان أحدهما صفة كمال والآخر صفة نقص ، فإن الله يوصف بالكمال منهما دون النقص ، فلما تقابل الموت والحياة وُصف بالحياة دون الموت ، ولما تقابل العلم والجهل وُصف بالعلم دون الجهل، ولما تقابل القدرة والعجز وصف بالقدرة دون العجز ، ولما تقابل الكلام والبكم وصف بالكلام دون البكم ، ولما تقابل السمع والبَصَر والصمم والعمى وصف بالسمع والبصر دون الصمم والعمى ، ولما تقابل الغنى والفقر وصف بالغنى دون الفقر ، ولما تقابل الوجود والعدم وصف بالوجود دون العدم ، ولما تقابل المباينة للعالم والمداخلة له وصف بالمباينة دون المداخلة ، وإذا كان مع المباينة لا يخلو إما أن يكون عاليًا على العالم أو مسامتًا له ، وجب أن يُوصف بالعلو دون المسامتة ، فضلاً عن السفول .

والمنازع يسلِّم أنه موصوف بعلو المكانة وعلو القهر ، وعلو المكانة معناه أنه أكمل من العالم ، وعلو القهر مضمونه أنه قادر على العالم ، فإذا كان مباينًا للعالم ، كان من تمام علوه أن يكون فوق العالم ، لا محاذيًا له ، ولا سافلاً عنه ، ولما كان العلو صفة كمال ، كان ذلك من لوازم ذاته ، فلا يكون مع وجود غيره إلا عاليًا عليه ، لا يكون قط غير عالٍ عليه .

كما ثبت في الصحيح ، الذي في صحيح مسلم وغيره ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه : «**أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء** ،

وأنت الباطن فليس دونك شيء» .

ثم بين رحمه الله تعالى مع ثبوت نزوله إلى السماء الدنيا كما في الحديث الصحيح فهو (الظاهر) فلا يعلوه شيءٌ من مخلوقاته أبدًا ، فقال: «ولهذا كان مذهب السلف والأئمة أنه مع نزوله إلى سماء الدنيا لا يزال فوق العرش ، لا يكون تحت المخلوقات ، ولا تكون المخلوقات محيطة به قط بل هو العليّ الأعلى : العليُّ في دنوه ، القريب في عُلُوِّه .

ولهذا ذكر غيرُ واحدٍ إجماع السلف على أن الله ليس في جوف السموات. ولكن طائفة من الناس قد يقولون : إنه في جوف السماء ، وإنه قد تحيط به المخلوقات وتكون أكبر منه!

وهؤلاء ضلاَّل جهّال ، مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول ، كما أن النفاة الذين يقولون : ليس داخل العالم ولا خارجه جهّال ضلاّل، مخالفون لصريح المعقول وصحيح المنقول : فالحلولية والمعطِّلة متقابلان[1] .

الطريق الخامس : أن يُقال : إذا كان مباينًا للعالم : فإما أن يُقدَّر محيطًا به ، أو لا يُقدَّر محيطًا به ، سواء قُدِّر أنه محيط به دائمًا ، أو محيط به بعض الأوقات ، كما يقبض يوم القيامة الأرض ويطوي السموات ، فإن قُدِّر محيطًا به كان عاليًا عليه علو المحيط على المحاط به .

وقد تقدم قولهم : «إن الفلك كرى» فيلزم أن تكون الأفلاك محيطة بالأرض ، وهي فوقها باتفاق العلماء ، فما كان محيطًا بالجميع أولى بالعلو والارتفاع ، سبحانه وتعالى ، وإن لم يكن مماثلاً لشيء من

---

(١) وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان .

المخلوقات ، ولا مجانسًا للأفلاك ولا غيرها .

وإن لم يُقدَّر محيطًا به ، فإن كان العالم كريا ، وليس لبعض جهاته اختصاص بالعلو ، فإذا كان مباينًا له لزم أن يكون عاليًا ، كيفما كان الأمر .

وإن قُدِّر أن العالم ليس بكرى أو هو كرى ولكن بعض جهاته لها اختصاص بالعلو ، مثل أن نقول : إن الله وضع الأرض وبسطها للأنام ، فالجهة التي تَلِي رؤوس الناس هي جهة العلو من العالم دون الأخرى . فحينئذ إذا كان مباينًا ، وقُدِّر أنه غير محيط ، فلا بد من اختصاصه بجهة العلو أو غيرها .

ومن المعلوم أن جهة العلو أحق بالاختصاص ، لأن الجهة العالية أشرف بالذات من السافلة ولهذا اتفق العلماء على أن جهة السموات أشرف من جهة الأرض ، وجهة الرأس أشرف من جهة الرِّجل ، فوجب اختصاصه بخير النوعين وأفضلهما ، إذ اختصاصه بالناقص المرجُوح ممتنع»[1] .

٢- وردَّ بعد ذلك على شبهةٍ تُثَار في مثل هذا الموضع من أهل التعطيل فقال :

و«أما قول النافي : « ولأن العالم كرة ، فلا فوق إلا تحت بالنسبة .

فيقال له : هذا خطأ ، لما تقدم من أن المحيط باتفاق العقلاء عالٍ على المركز ، وأن العقلاء متفقون على أن الشمس والقمر والكواكب ،

---

(١) «درء التعارض» (٧/ ٣ ـ ٨) مختصراً .

إذا كانت في السماء ، فلا تكون إلا فوق الأرض ، وكذلك السحاب والطير في الهواء .

وأيضًا فإن هذا التحت أمر خيالي وهمي لا حقيقة له ، وليس فيه نقص ، كالمعلَّق برجليه لا تكون السماء تحته إلا في الوهم الفاسد ، والخيال الباطل ، وكذلك النملة الماشية تحت السقف . فالشمس والقمر والنجوم السابحة في أفلاكها ، لا تكون بالليل تحتنا إلا في الوهم والخيال الفاسد [(١)].

٣- ولزيادة البيان في مسألة نزول الرب تبارك وتعالى وأن ذلك لا ينافي اسمه (الظاهر) لا أجد أحسن مما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك ، إذ يقول : «والأحسن في هذا الباب (أي الأسماء والصفات) مراعاة ألفاظ النصوص فَيُثْبَتُ ما أثبت الله ورسوله باللفظ الذي أثبته ، ويُنفى ما نفاه الله ورسوله كما نفاه ، وهو أنْ يُثبت النُّزول ، والإتيان ، والمجيء ، وينفى المثل ، والسمي والكفؤ ، والند .

وبهذا يحتج البخاري وغيره على نفي المثل ، يقال : ينزل نزولاً ليس كمثله شيء ، نَزَلَ نزولاً لا يُماثل نزول المخلوقين - نزولاً يَختصُّ به ، كما أنه في ذلك وفي سائر ما وَصَفَ به نفسه ليس كمثله شيء في ذلك ، وهو مُنزهٌ أن يكون نزوله كنزول المخلوقين ، وحركتهم وانتقالهم ، وزوالهم مطلقًا - لا نزول الآدميين ولا غيرهم .

فالمخلوق إذا نَزَل من علو إلى سفل زال وصفه بالعُلو ، وتبدل إلى وصفه بالسُّفُول ، وصار غيرُه أعلى منه .

والربُّ تعالى لا يكون شيءٌ أعلى منه قط ، بل هو العَلي الأعلى ولا

---

(١) «درء التعارض» (٧/٣ - ٩) .

يزال هو العلي الأعلىٰ مع أنه يَقرب إلىٰ عباده ويدنو منهم ، وينزل إلىٰ حيث شاء ، ويأتي كما شاء . وهو في ذلك العلي الأعلىٰ ، الكبير المتعالي ، عليٌّ في دُنُوه قريبٌ في عُلوه .

فهذا وإنْ لم يتصف به غيره فلعجز المخلوق أن يجمع بين هذا وهذا، كما يعجز أن يكون هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

ولهذا قيل لأبي سعيد الخراز : بم عرفتَ الله ؟ قال: «بالجمع بين النقيضين» . وأراد أنه يَجتمع له ما يتناقض في حقِّ الخلق .

كما اجتمعَ له أنه خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها من الأعيان والأفعال . مع ما فيها من الخبث ، وأنه عدلٌ حكيمٌ ، رحيمٌ، وأنه يُمكِّن من مكَّنه من عباده من المعاصي مع قدرته علىٰ منعهم ، وهو في ذلك حكيم عادل ، فإنه أعلم الأعلمين ، وأحكم الحاكمين ، وهو خير الفاتحين ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم .

فأن لا يحيطوا علمًا بما هو أعظم في ذلك أولىٰ وأحرىٰ ، وقد سألوا عن الروح فقيل لهم ﴿**الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٨٥] ، وفي الصحيحين أن الخضر قال لموسىٰ لما نقر عصفور في البحر : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

فالذي يُنفىٰ عنه وينزه عنه إما أنْ يكون مناقضًا لما عُلِمَ من صفاته الكاملة فهذا ينفي عنه جنسه ، كما قال :﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ**﴾ [البقرة:٢٥٥] ، وقال: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ**﴾ [الفرقان: ٥٨] . فجنس السِّنَة والنوم ، والموت ، ممتنعٌ عليه ، لا يجوز أن يقال في شيء من هذا «إنه يجوز عليه كما يليق بشأنه» ، لأن

هذا الجنس يوجب نقصًا في كماله .

وكذلك لا يجوز أن يُقال : هو يكون في السُّفْل ، لا في العُلو وهو سفول يليق بجلاله !! فإنه سبحانه العلي الأعلى لا يكون قط إلا عاليًا والسفول نقص هو منزهٌ عنه .

وقوله : «**وأنت الباطن فليس دونك شيء**» لا يقتضي السُّفُول إلا عند جاهلٍ لا يعلم حقيقة العُلو والسُّفُول ، فيظن أن السموات وما فيها قد تكون تحت الأرض إما بالليل وإما بالنهار . وهذا غلطٌ ، كمن يظن أن ما في السماء من المشرق يكون تحت ما فيها مما في المغرب ، فهذا أيضًا غلط . بل السماء لا تكون قط إلا عالية على الأرض وإنْ كان الفلك مستديرًا محيطًا بالأرض فهو العالي على الأرض علوًا حقيقيًا من كل جهة. وهذا مبسوط في مواضع [1].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٢٣ ـ ٤٢٦) .

البَاطن
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٧٨)

* **المعنى اللغوي :**

البَطْن خلاف الظهر ، وهو مذكر وتأنيثه لغة .

وبطانة الثوب خلاف ظهارته .

والبُطَنان : جمع البَطن ، وهو الغامض من الأرض .

وبُطْنان الجنة : وسطها .

وبَطَنْتُ الوادي : دخلتُه ، وبطنت هذا الأمر : عرفت باطنه ، وبطنتُ بفلان : صرت من خواصه ، وبِطَانَة الرجل : وَلِيجَتُه ، وأبطنتُ الرجل : إذا جعلته من خواصك[1] .

* **وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرةً واحدة في قوله تعالى : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] .

* **معنى الاسم في حق الله تعالى :**

تقدم في معنى اسمه (الظاهر) قول الفرَّاء والزَّجَّاجي .

وقال ابن جرير: و(الباطن) يقول: وهو الباطن لجميع الأشياء فلا شيء أقرب إلى شيء منه، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[2] [ق:١٦].

---

(١) «الصحاح» (٥/٢٠٧٩) «اللسان» (١/٣٠٣ ـ ٣٠٥) مادة (بطن) .

(٢) «جامع البيان» (٢٧/ ١٢٤) وبنحوه قال النحاس: «إعراب القرآن» (٤/ ٣٥٠) وزاد: ويدل على هذا =

وقال الزجاج : (الباطن) هو العالمُ ببطانَة الشيء ، يقال : بَطَنْتُ فلانًا وخبرتُهُ : إذا عرفتَ باطنه وظاهره .

والله تعالىٰ عارفٌ ببواطنِ الأمور وظواهرها ، فهو ذو الظَّاهر وذو الباطن[1] .

وقال الخطابي : (الباطن) هو المحتَجِبُ عن أبصار الخلق ، وهو الذي لا يستولي عليه توهُّمُ الكيفية ، وقد يكون معنىٰ الظُّهور والبُطُون احتجابُهُ عن أبصار الناظرين ، وتَجَلِّيه لبصائر المُتَفكِّرين . ويكون معناه : العالم بما ظَهَر من الأمور ، والمُطَّلعُ علىٰ ما بَطَن من الغيوب[2] .

وقال الحُليمي : (الباطن) وهو الذي لا يُحس ، وإنما يُدرك بآثاره وأفعاله[3] .

*** آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله تبارك وتعالىٰ أعظم الغيب ، محتجبٌ عن الخلق ، لايراه أحد في الدنيا ، ولا تدركه الأبصار في الآخرة[4] ولا نحيط بشيءٍ من علمه إلا بما شاء لنا أن نعلمه عنه ، مما وصف به نفسه في كتابه ، أو ما

= أن بعده ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣] أي لا يخفىٰ عليه شيء .

(١) «تفسير الأسماء» (ص٦١) .

(٢) «شأن الدعاء» (ص٨٨) ، ونقله البيهقي في «الاعتقاد» (ص٦٤) مع اختصار وقال إنه من صفات الذات .

(٣) «المنهاج» (١/١٩٦) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالىٰ جده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٣٥) .

(٤) هناك فرق بين قولنا : لا تدركه الأبصار ، وبين قول المعتزلة وأشباههم بعدم رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة ، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء ، فأنت ترىٰ البحر لكن لا تدرك جميعه ببصرك وهو مخلوق ! فالخالق أعظم وأجل وأكبر .

وصفه به رسوله ﷺ .

وهو سبحانه مع ذلك ظاهر لخلقه بأفعاله وآياته المتلوة والعيانية ، فمن تأمل وتفكر في السموات والأرض وما فيها ، عَلِمَ علْم اليقين أنَّ له خالقًا مدبرًا ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] .

ولقد أحسن من قال :

فيا عَجَبًا كيف يُعْصى الإلهُ ... أم كيف يَجحده الجَاحدُ

وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تَـدُلُّ علـى أنَّـه وَاحـدُ

وكذا الآيات المتلوة وهي كتابه عز وجل فإنها بنفسها تدل على الله تعالى ، لأنها ليست من جنس كلام البشر ، لأنـواع الإعجـاز التي فيهـا .

٢- الله تبارك وتعالى هو العليم ببواطن الأمور وظواهرها ، يستوي عنده هذا وهذا ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] فيستوي عند الله تعالى من هو مختفٍ في قعر بيته في ظلام الليل ، ومن هو سائر في سَرْبه (طريقه) في بياض النهار وضيائه .

٣- فسَّر بعض السلف (الباطن) بأنه أقرب إلى كلِّ شيءٍ من كلِّ شيء، كما تقدم في كلام ابن جرير والنَّحَّاس ، وحكى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ كما في فتاويه ـ عن مقاتل بن سليمان أنه فسره كذلك ، فقال ناقلاً عنه : «و(الباطن) أقرب من كلِّ شيء ، وإنما نعني بالقرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه» .

فضعف هذا القول بكونه ليس مشهورًا عن مقاتل ، وأنه فسر الباطن بالقريب ، ثم فسَّر القُرب بالعلم والقدرة ولا حاجة إلى هذا .

ثم بيَّن أنه ليس معنى (الباطن) أنه القُرب ، ولا لفظ (الباطن) يدل عليه ، ولا لفظ القرب في الكتاب والسنة على جهة العموم كلفظ المعية، فإنه إذا قال : هذا مع هذا فإنه يعني به المجامعة والمقارنة والمصاحبة، ولا يدل على قرب إحدى الذاتين من الأخرى ولا اختلاطها بها ، فلهذا كان إذا قيل : هو معهم ، دلَّ على أن علمه وقدرته وسلطانه محيط بهم وهو مع ذلك فوق عرشه كما أخبر القرآن والسنة بهذا ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤] فأخبر سبحانه أنه مع علوه على عرشه يعلم كل شيء ، فلا يمنعه علوه عن العلم بجميع الأشياء .

ولم يأت في لفظ «القرب» مثل ذلك ، أنه قال : هو فوق عرشه وهو قريب من كل شيء ، بل قال ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] وقال ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال النبي ﷺ : «إنكم لا تَدْعَون أصمَّ ولا غائبًا ، إنَّ الذي تدعونه سميعٌ قريب» .

قال : ولا يقال في هذا : قريب بعلمه وقدرته ، فإنه عالم بكل شيء قادر على كل شيء ، وهم لم يشكوا في ذلك ، ولم يسألوا عنه ، وإنما سألوا عن قربه إلى من يدعوه ويناجيه ، ولهذا قال تعالى :﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ فأخبر أنه قريب مجيب.

وطائفة من أهل السنة تفسر «القُرب» في الآية والحديث بالعلم لكونه

هو المقصود ، فإنه إذا كان يعلم ويسمع دُعاءَ الداعي حصل مقصوده ، وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول : إنه قريب من كل شيء بمعنى العلم والقدرة ، فإن هذا قد قاله بعض السلف كما تقدم عن مقاتل بن حيان ، وكثير من الخلف ، لكن لم يقل أحد منهم إن نفس ذاته قريبة من كل شيء. وهذا المعنى يُقِرُّ به جميع المسلمين ، من يقول : إنه فوق العرش ، ومن يقول إنه ليس فوق العرش [(١)].

٤- وللإمام المحقق أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم رحمه الله كلام دقيق نفيس جامع على هذه الأسماء الأربعة (الأول والآخر والظاهر والباطن) ذكر فيه تعلق حياة العباد بها نجاحًا وفلاحًا ، وكيفية تحقيق العبودية لها ، وذلك في كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين».

قال رحمه الله : في «فصل في أن حقيقة الفقر تَوَجُّهُ العبد بجميع أحواله إلى الله» :

ولما كان موجب الدرجة الأولى من الفقر الرجوع إلى الآخرة ، فأوجب الاستغراق في هَمِّ الآخرة نَفْضَ اليدين من الدنيا ضبطًا أو طلبًا ، وإسكات اللسان عنها مدحًا أو ذمًا ، وكذلك كان موجب هذه الدرجة الثانية الرجوع إلى فضل الله سبحانه ، ومطالعة سبقه الأسباب والوسائط فبفضل الله ورحمته وجدت منه الأقوال الشريفة ، والمقامات العلية . وبفضله ورحمته وصلوا إلى رضاه ورحمته ، وقربه وكرامته وموالاته ، وكان سبحانه هو (الأول) في ذلك كله كما أنه الأول في كل شيء ، وكان هو (الآخر) في ذلك كما هو الآخر في كل شيء فمن عَبَدَهُ باسمه (الأول

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤٩٨/٥ - ٥٠٠) باختصار ، وقد أطال في بيان هذه المسألة فانظرها في المصدر السابق (٤٧٨ - ٥٢٧) .

والآخر) حصلت له حقيقة هذا الفقر، فإن انضافَ إلىٰ ذلك عبوديته باسمه (الظاهر والباطن) فهذا هو العارفُ الجامع لمتفرقات التعبد ظاهرًا وباطنًا .

فعبوديته باسمه (الأول) تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب ، والوقوف أو الالتفات إليها ، وتجريد النظر إلىٰ مجرد سبق فضله ورحمته وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده ، وأي وسيلة كانت هناك؟ وإنما هو عدمٌ محض ، وقد أتىٰ عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا ، فمنه سبحانه الإعداد ومنه الإمداد وفضله سابقٌ علىٰ الوسائل ، والوسائل من مجرد فضله وجُوده لم تكن بوسائل أخرىٰ ، فمن نَزَّلَ اسمه (الأول) علىٰ هذا المعنىٰ أوجب له فقرًا خاصًا وعبودية خاصة .

وعبوديته باسمه (الآخر) تقتضي أيضًا عدم رُكونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها ، فإنها تنعدم لا محالة وتنقضي الآخرية ، ويبقىٰ الدائم الباقي بعدها ، فالتعلُّق بها تعلق بما يعدم وينقضي ، والتعلق بالآخر سبحانه تَعلقٌ بالحي الذي لا يموت ولا يزول ، فالمتعلق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع ، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنىٰ به ، كذا نظر العارف إليه بسبق الأولية حيث كان قبل الأسباب كلها ، وكذلك نظره إليه ببقاء الآخرية حيث يبقىٰ بعد الأسباب كلها ، فكان الله ولم يكن شيء غيره . وكل شيء هالك إلا وجهه .

فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يُوجبانه من صحة الاضطرار إلىٰ الله وحده ودوام الفقر إليه دون كل شيءٍ سواه ، وأن الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع ، فهو أول كل شيء وآخره ، وكما أنه ربُّ كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه ، فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا

بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده ، فهو (الأول) الذي ابتدأت منه المخلوقات ، و(الآخر) الذي انتهت إليه عبودياتها وإراداتها ومحبتها ، فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله ، كما أنه ليس قبله شيء يَخلق ويَبرأ ، فكما كان واحدًا في إيجادك فاجعله واحدًا في تألهك إليه لتصح عبوديتك ، وكما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حُبّك وإرادتك وتألهك إليه لتصح لك عبوديته باسمه (الأول والآخر) .

وأكثر الخلق تَعَبَّدوا له باسمه (الأول) وإنما الشأن في التعبد له باسمه (الآخر) فهذه عبودية الرسل وأتباعهم ، فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده .

وأما عبوديته باسمه (الظاهر) فكما فسَّره النبي ﷺ بقوله «**وأنتَ الظاهرُ فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء**» .

فإذا تحقق العبد عُلوه المطلق على كل شيء بذاته ، وأنه ليس فوقه شيء ألبتة ، وأنه قاهر فوق عباده يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ [فاطر: ١٠] صار لقلبه أممًا يقصده ، وربًا يعبده ، وإلهًا يتوجه إليه ، بخلاف من لا يدري أين ربه فإنه ضائعٌ مشتت القلب ، ليس لقلبه قِبْلةٌ يتوجَّه نحوها ولا معبود يتوجه إليه قصده ، وصاحب هذه الحال إذا سلك وتألَّه وتعبد طلب قلبه إلهًا يسكن إليه ويتوجه إليه ، وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش شيء إلا العدم ، وأنه ليس فوق العالم إله يعبد ويصلي له ويسجد ، وأنه ليس على العرش من يصعد إليه الكلم الطيب ولا يرفع إليه العمل الصالح ، جالَ قلبه في الوجود جميعه فوقع في الاتحاد ولا بد! وتعلَّق قلبه بالوجود المطلق الساري في المعينات ، فاتخذ إلهه من دون إله الحق وظن أنه قد

وصل إلى عين الحقيقة ! وإنما تأله وتعبد لمخلوق مثله ، ولخيالٍ نَحتَه بفكره واتخذه إلهًا من دون الله سبحانه ، وإله الرسل وراء ذلك كله ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ③ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٣، ٤] .

وقال : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ④ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ⑤ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑥ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ⑦ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ⑧ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٤ - ٩] .

فقد تعرَّف سبحانه إلى عباده بكلامه معرفةً لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه ، وإن زعم أنه مُقِرٌّ به .

المقصود أن التعبد باسمه (الظاهر) يجمع القلب على المعبود ، ويجعل له ربًا يقصده وصمدًا يصمد إليه في حوائجه ، وملجأ يلجأ إليه ، فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربه باسمه (الظاهر) استقامت له عبوديته وصار له معقل وموئل يلجأ إليه ويهرب إليه ويفرُّ كلَّ وقتٍ إليه .

وأما تعبده باسمه (الباطن) فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته ،

ويكلُّ اللسان عن وصفه ، وتصطلم[1] الإشارة إليه وتجفو العبارة عنه ، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التَّعطيل ، مخلصة من فَرْثِ التشبيه ، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد ، وعبارة مُؤدية للمعنى كاشفة عنه ، وذوقًا صحيحًا سليمًا من أذواق أهل الانحراف ، فمن رزق هذا فهم معنى اسمه (الباطن) ووضح له التعبد به .

وسبحان الله كم زلَّت في هذا المقام أقدام ، وضلَّت فيه أفهام ، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصدِّيق ، واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين ، لنبوّ الأفهام عنه ، وعزة تخلص الحق من الباطل فيه ، والتباس ما في الذهن بما في الخارج إلا على من رزقه الله بصيرة في الحق ، ونورًا يميز به بين الهدى والضلال ، وفرقانًا يفرق بين الحق والباطل ، ورزق مع ذلك اطلاعًا على أسباب الخطأ وتفرق الطرق ومثار الغلط ، وكان له بصيرة في الحق والباطل ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وباب هذه المعرفة والتعبد إحاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته ، وأن العوالم كلها في قبضته ، وأن السموات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد ، قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وقال : ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠] ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين : اسم العلو الدال على أنه (الظاهر) وأنه لا شيء فوقه ، واسم العظمة الدال على الإحاطة ، وأنه لا شيء دونه ، كما قال تعالى :﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥ ، الشورى: ٤] وقال تعالى : ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] وقال : ﴿وَلِلَّهِ

(١) الصَّلْمُ : القطع ، واصْطَلَمه : استأصله «القاموس» .

الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]

وهو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء ، فهو (الباطن) بذاته فليس دونه شيء ، بل ظَهَرَ على كل شيء فكان فوقه ، وبَطَن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه ، فهذا أقرب لإحاطة العامة .

*** [قرب الله تعالى خاص للداعين والسائلين والمؤمنين] :**

وأما «القُرْبُ» المذكور في القرآن والسنة فقربٌ خاص من عابديه وسائليه وداعيه ، وهو من ثمرة التعبد باسمه (الباطن) قال تعالى : **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾** [البقرة: ١٨٦] فهذا قربه من داعيه وقال تعالى : **﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** [الأعراف: ٥٦] فذكر الخبر وهو **(قريب)** عن لفظ «الرحمة» وهي مؤنثة إيذانًا بقربه تعالى من المحسنين ، فكأنه قال : إن الله برحمته قريبٌ من المحسنين .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال : «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجد**» و «**أقرب ما يكون الربُّ من عبده في جوف الليل**» ، فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة وقرب البطون .

وفي الصحيح من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال : «**أيُّها الناس ارْبَعُوا على أنفسكم فإنَّكم لا تدعون أصم ولا غائبًا ، إن الذي تدعونه سميعٌ قريب ، أقربُ إلى أحدكم من عُنق راحلته**» ، فهذا قربه من داعيه وذاكره ، يعني فأي حاجة بكم إلى رفع الأصوات وهو لقربه يسمعها وإن خُفِضت ، كما يسمعها إذا رُفعت ، فإنه سميعٌ قريبٌ .

وهذا القرب هو من لوازم المحبة ، فكلما كان الحبُّ أعظم كان

القُربُ أكثر ، وقد استولت محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها عن غيرها ، ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده ، فإن لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه ، وإلا طَرَقَ باب الحلول إن لم يَلجْه ، وسببه ضعف تمييزه ، وقوة سلطان المحبة ، واستيلاء المحبوب على قلبه بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه. وفي مثل هذه الحال يقول : سبحاني !! أو : ما في الجبة إلا الله !! ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له ويعذر لسكره وعدم تمييزه في تلك الأحوال [1].

فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد ، وأن يكون الإله أقرب إليه من كل شيء وأقرب إليه من نفسه ، مع كونه ظاهراً ليس فوقه شيء ، ومن كثف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا ، فليضرب عنه صَفْحًا إلى ما هو أولى به ، فقد قيل :

إذا لم تَستطِع شيئًا فَدَعْهُ وجَاوِزْهُ إلى ما تَستطيع

فمن لم يكن له ذوق من قُرب المحبة ، ومعرفة بقرب المحبوب من مُحِبِّه غاية القرب وإن كان بينهما غاية المسافة ـ ولا سيما إذا كانت المحبة من الطرفين ،وهي محبة بريئة من العلل والشوائب والأعراض القادحة فيها ـ فإن المحبً كثيرًا ما يستولي محبوبه على قلبه وذكره ، ويفنى عن غيره ويرق قلبه وتتجرد نفسه ، فيشاهد محبوبه كالحاضر معه القريب إليه وبينهما من البعد ما بينهما ، وفي هذه الحال يكون في قلبه وجوده العلمي ، وفي لسانه وجوده اللفظي ، فيستولي هذا الشهود عليه ويغيب

---

(١) قد كان السلف رضي الله عنهم ورحمهم الله تعالى أشد الناس حبًا لله تعالى ، ولم تكن الكلمات الكفرية تجري على لسانهم ! نسأل الله العافية !

به ، فيظن أن في عينه وجوده الخارجي لغلبة حكم القلب والروح ، كما قيل :

خيالك في عيني وذكركَ في فمي ومثواكَ في قلبي فأين تغيب

هذا ويكون ذلك المحبوب بعينه بينه وبين عَدوّه وما بينهما من البُعد وإن قربت الأبدان وتلاصقت الديار . والمقصود أن المثال العلمي غير الحقيقة الخارجية وإن كان مطابقًا لها ، لكن المثال العلمي محله القلب ، والحقيقة الخارجية محلها الخارج ، فمعرفة الأسماء الأربعة وهي : الأول والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهي أركان العلم والمعرفة ، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلىٰ حيث ينتهي به قواه وفهمه .

*** [لكل شيء أولٌ وآخر وظاهر وباطن] :**

واعلم أنَّ لك أنت أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا ، بل كل شيء فله أولٌ وآخر وظاهر وباطن ، حتىٰ الخطرة واللحظة والنفس وأدنىٰ من ذلك وأكثر ، فأولية الله عز وجل سابقة علىٰ أولية كل ما سواه ، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه ، فأوليته سبقه لكل شيء ، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء ، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه علىٰ كل شيء ، ومعنىٰ الظهور يقتضي العلو ، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه ، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه ، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه ، هذا لون وهذا لون .

*** [مَدارُ هذه الأسماء علىٰ الإحاطة ، وهي : زمانية ومكانية] :**

فمدار هذه الأسماء الأربعة علىٰ الإحاطة ، وهي إحاطتان : زمانية ومكانية ، فإحاطة أوليته وآخريته بالقَبْل والبَعد ، فكل سابق انتهىٰ إلىٰ أوليته وكل آخر انتهىٰ إلىٰ آخريته ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل

والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فما من ظاهر إلا والله فوقه ، وما من باطن إلا والله دونه ، وما من أول إلا والله قبله ، وما من آخر إلا والله بعده : فالأول قِدَمه ، والآخر دوامه وبقاؤه ، والظاهر علوه وعظمته ، والباطن قربه ودنوه ، فسبق كل شيء بأوليته ، وبقي بعد كل شيء بآخريته ، وعلا على كل شيء بظهوره ، ودنا من كل شيء ببطونه ، فلا تُوارىٰ منه سَماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضًا ، ولا يَحجبُ عنه ظاهرٌ باطنًا بل الباطن له ظاهر ، والغيب عنده شهادة ، والبعيد منه قريب والسر عنده علانية .

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل علىٰ أركان التوحيد ، فهو الأول في آخريته والآخر في أوليته ، والظاهر في بطونه والباطن في ظهوره ، لم يزل أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا .

** [للتعبد بهذه الأسماء رتبتان] :**

والتعبد بهذه الأسماء رتبتان : الرتبة الأولىٰ أن تشهد الأولية منه تعالىٰ في كل شيء والآخرية بعد كل شيء والعلو والفوقية فوق كل شيء والقرب والدنو دون كل شيء فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب ، والربّ جل جلاله ليس دونه شيء أقرب إلىٰ الخلق منه .

والمرتبة الثانية من التعبد : أن يعامل كل اسم بمقتضاه ، فيعامل سبقه تعالىٰ بأوليته لكل شيء وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها بما يقتضيه ذلك من إفراده وعدم الالتفات إلىٰ غيره والوثوق بسواه والتوكل علىٰ غيره ، فمن ذا الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا حتىٰ سَمَّاك باسم الإسلام ، ووسمك بسِمَة الإيمان ، وجعلك من أهل

قبضة اليمين ، وأقطعك في ذلك الغيب عمالات المؤمنين ، فعصمك عن العبادة للعبيد ، وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد ، ثم وَجَّه وجهة قلبك إليه سبحانه دون ما سواه ؟!

فاضرع إلى الذي عَصَمك من السجود للصنم ، وقضى لك بقَدَم الصدق في القِدمَ ، أنْ يتمَّ عليك نعمة هو ابتدأها وكانت أوليتها منه بلا سبب منك ، واسْمُ بهمتك عن ملاحظة الاختيار ، ولا تركنن إلى الرسوم والآثار ، ولا تقنع بالخسيس الدون ، وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التي لا تنال إلا بطاعة الله ، فإن الله سبحانه قضى أن لا ينال ما عنده إلا بطاعته ، ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقاه من بعيد ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديـــد ، ومـــن ترك لأجله أعطاه فوق المزيـد ، ومـــن أراد مـراده الديني أراد ما يريد .

ثم اسم بسرك إلى المطلب الأعلى ، واقصر حُبَّك وتقربك على من سبق فضله وإحسانه إليك كل سبب منك ، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب ، وهيأ لك وصرف عنك موانعها ، وأوصلك بها إلى غايتك المحمودة فتوكل عليه وحده ، وعامله وحده ، وآثر رضاه وحده ، واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفًا بها ، مستلمًا لأركانها ، واقفًا بملتزمها . فيا فوزك ويا سعادتك إنْ اطلع سبحانه على ذلك من قلبك ، ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخلع أفضاله ، «اللهم لا مانعَ لما أعطيتَ : ولا مُعطي لما منعتَ ، لا يَنفعُ ذا الجدِّ منك الجدُّ ، سبحانك وبحمدك» .

وأصلح له غيبك فإنه عنده شهادة ، وزكِّ له باطنك فإنه عنده ظاهر .

* [احتواء هذه الأسماء الأربعة على جماع المعرفة بالله تعالىٰ والعبودية له] :

فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعة جماع المعرفة بالله ، وجماع العبودية له فهنا وقفت شهادة العبد مع فضل خالقه ومنته فلا يرىٰ لغيره شيئًا إلا به وبحوله وقوته وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو مما كان يستند إليه أو يتحلىٰ به أو يتخذه عقدة أو يراه ليوم فاقته أو يعتمد عليه في مهم من مهماته ، فكل ذلك من قُصور نظره وانعكاسه عن الحقائق والأصول إلىٰ الأسباب والفروع كما هو شأن الطبيعة والهوىٰ وموجب الظلم والجهل ، والإنسان ظلوم جهول .

فمن جلىٰ الله سبحانه صَدَأ بصيرته ، وكمل فطرته وأوقفه علىٰ مبادئ الأمور وغاياتها ومَنَاطها ومصادرها ومواردها ، أصبح كالمفلس حقًا من علومه وأعماله وأحواله وأذواقه يقول : أستغفر الله من علمي ومن عملي، أي من انتسابي إليهما وغيبتي بهما عن فضل من ذكرني بهما وابتدأني بإعطائهما من غير تقدم سبب مني يوجب ذلك ، فهو لا يشهدُ غير فضلِ مولاه وسبق مِنّته ودوامه ، فيثيبه مولاه علىٰ هذه الشهادة العالية بحقيقة الفقر الأوسط بين الفقرين الأدنىٰ والأعلىٰ ثوابين :

أحدهما الخلاص من رؤية الأعمال حيث كان يراها ويتمدح بها ويستكثرها فيستغرق بمطالعة الفضل غائبًا عنها ذاهبًا عنها فانيًا عن رؤيتها .

الثواب الثاني : أن يقطعه عن شهود الأحوال ـ أي عن شهود نفسه فيها متكثرة بها ـ فإن الحال محله الصدر ، والصدر بيت القلب والنفس ، فإذا نزل العطاء في الصدر للقلب ثبتت النفس لتأخذ نصيبها من العطاء فتتمدح به وتدل به وتزهو وتستطيل وتقرر إنيتها لأنها جاهلةٌ ظالمة ، وهذا مقتضىٰ الجهل والظلم .

فإذا وصل إلى القلب نُورُ صفة المنة ، وشَهِدَ معنى اسمه (المنان) وتجلَّى سبحانه على قلب عبده بهذا الاسم مع اسمه (الأول) ذهل القلب والنفس به ، وصار العبد فقيرًا إلى مولاه بمطالعة سبق فضله الأول ، فصار مقطوعًا عن شهود أمر أو حال ينسبه إلى نفسه بحيث يكون بشهادته لحاله مفصومًا مقطوعًا عن رؤية عزَّة مولاه وفاطره وملاحظة صفاته ، فصاحب شهود الأحوال منقطعٌ عن رؤيةِ منة خالقه وفضله ومشاهدة سبق الأولية للأسباب كلها ، وغائب بمشاهدة عزة نفسه عن عزة مولاه ، فينعكس هذا الأمر في حق هذا العبد الفقير وتشغله رؤية عزة مولاه ومنته ومشاهدة سبقه بالأولية عن حال يعتز بها العبد أو يشرف بها .

وكذلك الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل يُمَحِّصُ من أدناس مطالعات المقامات ، فالمقام ما كان راسخًا فيه ، والحال ما كان عارضًا لا يدوم ، فمطالعات المقامة وتشوفه بها وكونه يرى نفسه صاحب مقام قد حققه وكمله فاستحق أن ينسب إليه ويوصف به ، مثل أن يقال : زاهدٌ صابرٌ خائف راجٍ محب راض ، فكونه يرى نفسه مستحقًا بأن تضاف المقامات إليه وبأن يوصف بها - على وجه الاستحقاق لها ـ خروج عن الفقر إلى الغنى ، وتعبد لطور العبودية ، وجهل بحق الربوبية ، فالرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل يستغرق همة العبد ويمحصه ويطهره من مثل هذه الأدناس ، فيصير مصفى بنور الله سبحانه عن رذائل هذه الأرجاس[1].

٥- والعلم بهذه الأسماء الأربعة ومعانيها له أثر عظيم في دفع الوسوسة ، وردِّ كيدها ، أشار إلى ذلك حَبْر الأمة ابن عباس رضي الله

(١) «طريق الهجرتين» (ص١٩ ـ ٢٧) .

عنهما ، فقد أخرج أبو داود عن أبي زُمَيْل قال : سألت ابن عباس فقلت: ما شيءٌ أجده في صدري ؟ قال: ما هو؟ : قلتُ : والله ما أتكلم به ، قال: فقال لي : أشيءٌ من شك ؟ قال: وضحك قال: ما نَجَا من ذلك أحد ، قال: حتى أنزل الله عز وجل : ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] قال : فقال لي : إذا وجدتَ في نفسك شيئًا فقل : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] [١].

* * *

(١) «السنن» (٥/ ٥١١٠) قال : حدثنا عباس بن عبد العظيم حدثنا النضر بن محمد حدثنا عكرمة ـ يعني ابن عمار ـ حدثنا أبو زميل فذكره .

قال المنذري : أبو زميل هو سماك بن الوليد الحنفي وقد احتج به مسلم «مختصر السنن» (٨/ ١١).

قلت: وقد وثقه أحمد وابن معين والعجلي وقال أبو حاتم : صدوق لا بأس به ، وعكرمة ابن عمار صدوق يغلط والنضر بن محمد هو الجرشي ثقة وكذا ابن عباس العنبري .

فالإسناد حسن .

البَرُّ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه

(٧٩)

* المعنى اللغوي :

البِرُّ : الصدق والطاعة ، والبَرُّ : الصادق وفي التنزيل ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

والبِرُّ خلافُ العقوق ، والمَبَرَّةُ مثله .

تقول بَرِرْتُ والدي أَبَرُّهُ بِرًا فأنا بَرٌّ به وبارٌّ .

وجمع البَرِّ أبرارٌ ، وجمع البَارِّ البَرَرَةُ .

وفلانٌ يَبَرُّ خالقَه ويَتبرَّرُهُ ، أي : يُطيعه ، وبَرَّ فلان في يمينه ، أي : صَدَقَ .

والبَرُّ : خلاف البحر ، وأَبَرَّ فلان إذا ركب البر .

وأَبَرَّ فلانٌ على أصحابه : أي علاهم وغلبهم ، والإِبْرار : الغلبة ، والمُبِرُّ : الغَالب .

والبُرُّ : الحنطة [(١)].

وقال القرطبي : البِرُّ هو الاتساع في الإحسان والزيادة . . ومنه يقال: أَبَرَّ على صاحبه في كذا ، أي : زاد عليه : وسُمِّيت البريةُ بريَّةً لاتساعها[(٢)].

---

(١) «الصحاح» (٢/٥٨٨) و«اللسان» (١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٥) مادة (برر) ، «تفسير الأسماء» للزجاج (ص٦١) «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص١٩٩) .

(٢) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٤٥ أ ـ ب) .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد مرة واحدة في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨] .

* معنى الاسم في حق الله تعالىٰ :

قال ابن جرير : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ﴾ يعني : اللطيف بعباده [١].

وقال الزجاج بعد أن ذكر معنىٰ (البر) لغة : والله تعالىٰ بَرٌّ بخلقه في معنىٰ : أنه يُحْسِن إليهم ، ويصلح أحوالهم [٢].

وقال الخطابي : (البَرُّ) هو العَطُوفُ علىٰ عباده ، المحسنُ إليهم ، عَمَّ ببره جميع خلقه ، فلم يَبْخلْ عليهم برزقه .

وهو البَرُّ بالمحْسنِ في مُضاعَفته الثواب له ، والبرُّ بالمسيء في الصَّفْحِ والتجاوُزِ عنه .

وفي صفات المخلوقين : رجلٌ بَرٌّ وبارٌّ إذا كان ذا خيرٍ ونفع ، ورجلٌ بَرٌّ بأبويه وهو ضِدُّ العاق [٣].

وقال الحليمي : (البَرُّ) ومعناه الرفيق بعباده ، يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر ، ويعفو عن كثير من سيئاتهم ، ولا يُؤَاخذهم بجميع جناياتهم ، ويجزيهم بالحسنة عشر أمثالها ، ولا يجزيهم بالسيئة إلا مثلها، ويكتب لهم الهَمَّ بالحسنة ، ولا يكتب عليهم الهمَّ بالسيئة[٤] .

---

(١) «جامع البيان» (١٨/٢٧) ، ثم ساق بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مثله .

(٢) «تفسير الأسماء» (ص٦١) .

(٣) «شأن الدعاء» (ص٩٠) وبنحوه مختصراً قال البيهقي في «الاعتقاد» (ص٦٤) ، وكذا الأصبهاني في «الحجة» (ق٢٣ب) بنحو الفقرة الأولىٰ منه .

(٤) «المنهاج» (٢٠٤/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٧١) .

وقال القرطبي بعد أن حكى معنى الاسم لغة : وهذا الوصف في الله تعالى من أوصاف فعله ، وهو مُضاف إلى عباده كلِّهم في الدنيا ، وإلى الخصوص في الأخرى ، وذلك أنَّه ما من شخصٍ في الدنيا إلا وسعه من الله تعالى وفَاضَ عليه إحسانه ، ولذلك عَمَّ في قوله : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] .

وأما في الأخرى فلا يختصُّ ببر الله تعالى إلا مَنْ أنعم عليه بجواره ، وأسكنه بَحْبُوحَة أنواره ، لا مَن أحلَّه في ناره [1].

وقال ابن القيم :

والبَرُّ في أوْصَافِهِ سُبحانه ... هو كَثْرَةُ الخَيراتِ والإحْسَانِ
صَدَرَتْ عن البرِّ الذي هو وَصْفُه ... فالبر حينئذٍ نوعان
وَصْفٌ وفعلٌ فهو بَرٌّ مُحسنٌ ... مَولى الجَميل ودائم الإحسان [2]

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله تبارك وتعالى بَرٌّ رحيمٌ بعباده ، عطوفٌ عليهم ، محسنٌ إليهم، مُصْلحٌ لأحوالهم في الدنيا والدين .

أما في الدنيا فما أعطاهم وقسم لهم من الصحة والقوة والمال والجاه والأولاد والأنصار ، مما يخرج عن الحصر ، قال سبحانه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] فيدخل في ذلك كلُّ معروف وإحسان ، لأنها ترجع إلى البر .

ويشترك في ذلك المؤمن والكافر .

---

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٤٥ ب) .

(٢) «النونية» : (٢/ ٢٣٤) .

وأما في الدين فما منَّ به علىٰ المؤمنين من التوفيق للإيمان والطاعات، ثم إعطائهم الثواب الجزيل علىٰ ذلك في الدنيا والآخرة ، وهو الذي وفَّق وأعان أولاً ، وأثاب وأعطىٰ آخراً .

فمنه الإيجاد ، ومنه الإعداد ، ومنه الإمداد ، فله الحمد في الأولىٰ والمعاد .

٢- من برِّه سبحانه بعباده إمهاله للمسيء منهم ، وإعطاؤه الفرصة بعد الفرصة للتوبة ، مع قدرته علىٰ المعاجلة بالعقوبة .

قال سبحانه : ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً** ﴾ [الكهف: ٥٨] .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في شرحه لِلَطائف أسرار التوبة :

ومنها : أن يعرف بِرَّه سبحانه في سَتره عليه حال ارتكاب المعصية ، مع كمال رؤيته له ، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه ، وهذا من كمال بره ، ومن أسمائه (البَرُّ) وهذا البر من سيده كان به مع[1] كمال غناه عنه وكمال فقر العبد إليه ، فيشتغل بمطالعة هذه المنة ، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم ، فيذهل عن ذكر الخطيئة ، فيبقىٰ مع الله سبحانه ، وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته ، وشهود ذل معصيته ، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه : هو المطلب الأعلىٰ ، والمقصد الأسنىٰ .

ولا يوجد هذا نسيان الخطيئة مطلقًا بل في هذه الحال ، فإذا فقدها فليرجع إلىٰ مطالعة الخطيئة ، وذكر الجناية ، ولكلٍّ وقتٍ ومقام عبودية تليق به .

ومنها : شُهودُ حلم الله سبحانه وتعالىٰ في إمهالِ راكب الخطيئة ،

(١) في الأصل : كان عن به كمال غناه ! ولعل الصواب ما أثبتناه .

ولو شاء لعاجله بالعقوبة ، ولكنه (الحليم) الذي لا يَعْجَل ، فَيُحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه (الحليم) ومشاهدة صفة «الحِلم» والتعبد بهذا الاسم ، والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب : أحب إلى الله ، وأصلح للعبد ، وأنفع من فَوتها ، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع .

ومنها : معرفة العبد كَرَمَ ربِّه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدم من الاعتذار ، لا بالقدر ! فإنه مخاصمة ومحاجة ، كما تقدم ، فيقبل عذره بكرمه وجوده ، فيوجب له ذلك اشتغالاً بذكره وشكره ، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك ، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به ، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها : أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده ، والواقع شاهدٌ بذلك ، فعبودية التوبة بعد الذنب لون ، وهذا لون آخر .

ومنها : أن يشهد فضله في مغفرته ، فإن المغفرة فضل من الله ، وإلا فلو أخذك بمحض حقه، كان عادلاً محموداً ، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك ، فيوجب لك ذلك أيضًا شكرًا له ومحبة ، وإنابة إليه ، وفرحًا وابتهاجًا به ، ومعرفة له باسمه (الغفار) ومشاهدة لهذه الصفة ، وتعبدًا بمقتضاها ، وذلك أكمل في العبودية ، والمحبة والمعرفة [1].

٣- الله تبارك وتعالى بارٌّ بأوليائه ، صادقٌ[2] فيما وعدهم به من الأجر والثواب﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ** ﴾ [الأعراف: ٤٤] .

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٢٠٦) .

(٢) قد سبق أن من معاني البر في اللغة : الصدق ، فيقال : برَّ في يمينه ، أي: صدق .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤] .

٤- الله جل شأنه بَرٌّ يُحبُّ البِرَّ ويأمر به ، ويحب من يتخلَّقُ به من عباده الأبرار .

ومن أجمع الأيات التي ذكرت أعمال البرِّ قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

وأثنى تعالى على ابني الخالة عيسى ويحيى عليهما الصلاة والسلام ببرهما أبويهما ، فقال في وصف عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٣٢] ، وفي وصف يحيى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ [مريم: ١٤] .

وجعل رسول الله ﷺ كلَّ الأخلاقِ الفاضلة الحسنة من البِرِّ ، فعن النَّواس بن سمعان قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال : **«البرُّ حُسْنُ الخُلُقِ ، والإثمُ ما حَاكَ في صَدْرِكَ وكَرِهْتَ أن يَطَّلع عليه النَّاسُ»** [١].

٥- لن ينال العبدُ برَّ الله تعالى به في الآخرة إلا باتباع ما يُفضي إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٨٢) ، ومسلم في البر والصلة (٤/ ١٩٨٠) ، والترمذي (٤/٢٣٨٩) ، والدارمي (٢/٣٢٢) من ثلاث طرق عن معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن النواس به.
=

برِّه ومرضاته ورحمته ، قال تعالى : ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢] .

وقد فُسِّر (البر) في هذه الآية بالجنة وثواب الله تعالى .

قال قتادة : لن تنالوا بر ربكم حتى تنفقوا مما يُعجبكم ومما تهوون من أموالكم [١].

وقال ابن جرير : لن تُدركوا أيها المؤمنون (البر) وهو البر من الله الذي يطلبونه منه بطاعتهم إياه ، وعبادتهم له ، ويرجونه منه ، وذلك تفضله عليهم بإدخالهم جنته وصَرْف عذابه عنهم ، ولذلك قال كثير من أهل التأويل : البر : الجنة ، لأنَّ برَّ الربِّ بعبده في الآخرة وإكرامه إياه بإدخاله الجنة [٢].

ومما يدخل في هذا المعنى قوله ﷺ : **«إن الصِّدقَ يهدي إلى البرِّ ، وإن البرَّ يَهدي إلى الجنة ، وإن الرجلَ لَيصدُقُ حتى يُكتب صدِّيقًا ، وإنَّ الكَذِبَ يهدي إلى الفُجُور ، وإنَّ الفُجورَ يهدي إلى النار ، وإن الرجل يكذبُ حتى يكتب كذَّابًا»** [٣] .

= وأخرجه الدارمي (٢/ ٣٢٢) قال أخبرنا أبو المغيرة ثنا صفوان هو ابن عمرو حدثني يحيى بن جابر القاضي عن النواس بنحوه . ويحيى بن جابر ثقة ، لكن حديثه عن النواس مرسل «التهذيب» .

(١) «تفسير ابن جرير» (٣/ ٢٤٦) بسند حسن عنه .

(٢) المصدر السابق .

وقيل البر: التقوى ، وقيل : الطاعة ، وقيل : الخير الذي يُستحق به الأجر . وقال القاضي أبو يعلى : لم يُرد نفي الأصل ، وإنما نفي وجود الكمال ، فكأنما قال: لن تنالوا البر الكامل «زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٤٢٠) .

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ٥٠٧) ومسلم في البر والصلة (٤/ ٢٠١٢ ـ ٢٠١٣) عن منصور عن =

قال الحافظ ابن حجر : البر أصله التوسع في فعل الخير ، وهو اسم جامعٌ للخيرات كلِّها ، ويطلق على العمل الخالص الدائم[1].

وقوله : «**وإن البر يهدي إلى الجنة**» : مصداقه في كتاب الله تعالى : ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**﴾ قاله ابن بطال[2] .

٦- «لا تظن أن قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤] مختصٌّ بيوم المعاد ، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة ، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة .

وأي لذة وأي نعيم في الدنيا أطيب من برِّ القلب ، وسلامة الصدر ، ومعرفة الربِّ تبارك وتعالى ومحبته ، والعمل على موافقته ؟

وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال: ﴿**وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤] .

وقال حاكيًا عنه أنه قال : ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] والقلبُ السليم هو الذي سَلِمَ من الشرك والغلِّ والحقد والحسد والشح والكبر ، وحب الدنيا والرياسة ، فسَلِمَ من كلِّ آفةٍ تُبعده من الله ، وسَلِمَ من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل إرادةٍ تُزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله .

= أبي وائل عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا به .

ورواه مسلم (٤/٢٠١٣) عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود مرفوعًا به .

(١) «الفتح» (١٠/ ٥٠٨).

(٢) المصدر السابق .

فهذا القلب السليم في جنةٍ مُعجَّلة في الدنيا ، وفي جنة في البرزخ ، وفي جنة يوم المعاد»[1] .

* * *

(١) «الداء والدواء» (ص١٧٨ ـ ١٧٩) لابن القيم .

التَّـــوَّاب

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٨٠)

* **المعنى اللغوي :**

التَوبة : الرجوع من الذنب ، وكذلك التَوْبُ مثله .

وقال الأخفش : التَوْبُ جمع توبةٍ ، مثل عَزْمَةٍ وعزمٍ[1] وتاب إلى الله توبة ومتابًا ، وقد تاب الله عليه : وفَّقه لها .

واستَتَابه : سأله أن يتوب [2].

ورجلٌ توَّابٌ : تائبٌ إلى الله : والله تَوَّاب : يتوب على عبده ، وقوله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ [غافر: ٢] يجوز أن يكون عَنَى به المصدر كالقَوْل، وأن يكون جَمع تَوْبة كَلوْزَةٍ ولَوْزٍ، وهو مذب المبرِّد [3].

وقال الزجاج : يقال تابَ إلى الشيء يتوب توبًا ، إذا رجع [4].

وقال الزجَّاجي : التواب فعَّال من تاب يتوب .

وقال : وفَعَّال من أبنية المبالغة ، مثل : ضَرَّاب للكثير الضَرْب ، وقتَّال للكثير القتل[5] .

---

(١) في المطبوع من «الصحاح» : عمة وعوم ، وما أثبتناه موافق لـ«اللسان» و«الكتاب الأسنى» (ق٣٧٧أ).

(٢) «الصحاح» (١/ ٩١ ـ ٩٢) .

(٣) «اللسان» مادة (توب) .

(٤) «تفسير أسماء الله» (ص٦١) .

(٥) «اشتقاق أسماء الله» (ص٦٢ ـ ٦٣) .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد الاسم في القرآن إحدىٰ عشرةَ مرةً ، منها :

قوله تعالىٰ : ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] .

وقوله : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠] .

وقوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤] .

وقوله : ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] .

وقوله : ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣] .

* معنى الاسم في حق الله تعالىٰ :

قال قتادة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ : إن الله هو الوهَّاب لعباده الإنابة إلىٰ طاعته ، الموفق من أحب توفيقه منهم لما يرضيه عنه [1] .

وقال أبو عبيدة : ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ : أي يتوب علىٰ العباد ، والتواب من الناس الذي يتوب من الذنب [2] .

وقال ابن جرير : ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ : إن الله جلَّ ثناؤه هو (التواب) علىٰ من تَاب إليه من عباده المذنبين من ذنوبه ، التارك مجازاته بإنابته إلىٰ طاعته بعد معصيته بما سَلَف من ذنبه .

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٤١) بسند حسن عنه .

(٢) «مجاز القرآن» (١/ ٣٩) .

وقد ذكرنا أن معنى (التوبة) من العبد إلى ربه إنابته إلى طاعته ، وأوبته إلى ما يرضيه بتركه ما يُسخطه من الأمور التي كان عليها مقيمًا مما يكرهه ربُّه ، فكذلك توبة الله على عبده هو أن يرزقه ذلك ويؤوب من غضبه عليه إلى الرِّضا عنه ، ومن العقوبة إلى العَفْو والصفح عنه [1].

وقال الزجاج : قال الله تعالى : ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر :٣] أي : يقبلُ رجوعَ عبده إليه ، ومن هذا قيل : التوبة كأنه رجوعٌ إلى الطاعة ، وترك المعصية[2] .

وبنحوه قال الزجاجي ، ثم قال : فجاء توَّاب على أبنية المبالغة لقبوله توبة عباده ، وتكرير الفعل منهم دفعة بعد دفعة ، وواحدًا بعد واحد على طول الزمان ، وقبوله عز وجل ممن يشاء أن يقبل منه ، فلذلك جاء على أبنية المبالغة .

فالعبد يتوب إلى الله عز وجل ويقلع عن ذنوبه ، والله يتوب عليه ، أي : يقبل توبته .

فالعبد تَائِب ، والله تَوَّاب[3] .

وقال الخطَّابي: (التواب) : هو الذي يتوب على عبده ويقبل توبته كلما تكرَّرت التوبة تكرر القَبُول ، وهو حرفٌ يكون لازمًا ويكون مُتعديًا، يقال: تاب الله على العبد : بمعنى وفَّقه للتوبة فتاب العبد ، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] .

---

(١) «جامع البيان» (١/ ١٩٥) .

(٢) «تفسير أسماء الله» (ص٦٢) .

(٣) «اشتقاق الأسماء» (ص٦٣) .

ومعنى التوبة : عَوْدُ العبد إلى الطاعة بعد المعصية[1].

وقال الحُليمي : (التواب) وهو المعيدُ إلى عبده فضل رحمته إذا هو رجع إلى طاعته ، ونَدِمَ على معصيته ، ولا يحبط بما قدم من خير ، ولا يمنعه ما وعد المطيعين من الإحسان [2].

وقال البيهقي : هو الذي يتوب على من يشاء من عبيده[3].

وفي «المقصد الأسنى» : (التواب) هو الذي يرجع إلى تيسير أسباب التوبة لعباده مرة بعد أخرى ، بما يُظهر لهم من آياته ، ويُسوقُ إليهم من تنبيهاته ، ويُطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته ، حتى إذا اطلعوا ـ بتعريفه ـ على غوائل الذنوب ، استشعروا الخوف بتخويفه فرجعوا إلى التوبة ، فرجع إليهم فضل الله تعالى بالقبول [4].

وقال ابن القيم :

وكذلك التَّوَّابُ من أوْصَافِهِ ... والتَّوابُ في أوْصافه نوعانِ

إذْنٌ بتوبةِ عَبْدِهِ وقَبُولها ... بعد المَتَابِ بِمِنَّةِ المنَّانِ[5]

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله تبارك وتعالى هو (التواب) الذي لم يَزَلْ يتوب على التائبين ، ويغفر ذنوب المنيبين ، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحًا تاب الله

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٩٠) .

(٢) «المنهاج» (١/ ٢٠٦) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٧٨) .

(٣) «الاعتقاد» (ص٦٤) .

(٤) (ص٨٨) ونحوه في «روح المعاني» للألوسي (١/ ٢٣٧) .

(٥) «النونية» (٢/ ٢٣١) .

عليه وقَبِلَه .

فهو التـائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة ، والإقبال بقلوبهم إليه .

وهو التائب على التائبين بعد توبتهم قَبُولاً لها وعفواً عن خطاياهم[1] .

فهو سبحانه يوفِّق عباده للتوبة ، ويقبلها منهم ويُثيبهم عليها ، فسبحان التواب الرحيم ، الجواد الكريم .

قال الأقليشي : سمَّى الله سبحانه نفسه توابًا لأنه خالق التوبة في قلوب عباده ، ومُيسِّر أسبابها لهم ، والراجع بهم من الطريق التي يكره إلى الطريق التي يرضى .

وسمَّى نفسه أيضًا (توابًا) لقبوله توبة من يرجع إليه .

ومن القسم الأول قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨].

ومن القسـم الثـاني قـوله تـعالى : ﴿فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٣٩] .

فبهذين[2] القسمين سمَّى نفسه توابًا .

ولقد جهل المعتزلي الحقيقة فأنكر القسم الأول ، وهو خَلْقُ التوبة في قلب العبد ، وهذا مَطْموسُ القلب عن طريق القصد .

ولمَّا كانت المعاصي متكررة من عباده ، جاء بصيغة المبالغة ، ليقابل الخطايا الكبيرة بالتوبة الواسعة[3] .

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/ ٣٠٠) .

(٢) في الأصل : فبهذا ، وهو خطأ .

(٣) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٣٧٧ ب) .

وقال ابن الحصَّار : قال الله العظيم :﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧] فقال في الآية الأولى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ تَصريحٌ بتوبته على الإطلاق على من واقع الذنب ، أو كانت منه مخالفة وعصيان .

فتوبة الله على العبد قد يرادُ بها تجديد التوبة وتواليها عليه ، كما قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] معناه جَدِّدوا الإيمان واستديموه واثْبُتوا عليه ، وعليه يُحمل قوله تعالى :﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] .

ووَصْفُه نفسه بأنه (التواب) مبالغة ؛ لكثرة من يتوب عليه ، ولتكريره ذلك في الشخص الواحد حتى يقضي عمره ، وإذًا تقرَّر أنَّ وصفه سبحانه بـ (التواب) : خَلْقُه التوبة للعبد وقبولها منه ، كما قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥] أي يقبل توبتهم ، كما قيل له عز وجل: تواب [١].

٢- الله تعالى هو المتفرد بقبول توبة التائبين من عباده ، لا يشركه في ذلك أحد من خلقه ، ولا يغفر الذنوب والخطايا إلا هو .

قال القرطبي بعد أن نقل كلام الأقليشي وابن الحصار : وإذا ثبت هذا فاعلم أنه ليس لأحد قُدْرةٌ على خَلْق التوبة في قلب أحد ، لأنه سبحانه هو المنفردُ بخلق الأعمال وحده[٢] خلافًا للمعتزلة ومن قال بقولهم .

(١) المصدر السابق (ورقة ٣٧٧ب ـ ٣٧٨أ) .

(٢) وهذا لا يعني أن الإنسان ليست له مشيئة ، فإن الله تعالى يقول : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فالإنسان فاعلٌ لفعله حقيقة ، وله قدرة =

وكذلك ليس لأحدٍ أن يقبل توبة من أسْرَفَ على نفسه ولا أن يعفو عنه .

قال ابن الحصار : «وقد كَفَرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدين ، اتخذوا أحْبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله عز وجل ، وجعلوا لمن أذنبَ أن يأتي الحَبْر أو الراهب فيعطيه شيئًا ، ويحطُّ عنه الذنب !! ﴿ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٠] [(١)].

وهو ما يسمى بـ «صُكوك الغفران» !! وهي من ضلالاتهم الكثيرة التي أضلوا بها الناس وأكلوا بها أموالهم بالباطل دُهورًا طويلة كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤] .

فليس لأحد من خلق الله تعالى ـ مَلَكًا كان أو رسولاً ـ سلطانٌ في محو الذنب أو ستره ، أو تلقِّي الاعتراف بالذنب ، سوى الرب التواب سبحانه وتعالى ، إلا الشفاعة وهي من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى من عباده .

وفي تقرير هذا يقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] .

= واختيار ، وقدرته مؤثرة في مقدورها كما تؤثر القوى والطبائع والأسباب ، ودلَّ على ذلك الشرع والعقل . انظر «مجموع الفتاوى» (١٣٩/٣٠) .

(١) «الكتاب الأسنى» (٣٧٨ ب ـ ٣٧٩أ) .

ونحو هذا ما قاله ابن القيم في «المدارج» (١٧٩/١) : «ولما كانت «التوبة» هي رجوع العبد إلى الله ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين ، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم ، ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام ..» .

وفي الدعاء الذي عَلَّمه النبي ﷺ لأبي بكر : «**اللهم إني ظلمتُ نفسي ظُلمًا كبيرًا ـ أو كثيرًا ـ ولا يغفر الذنوبَ إلا أنتَ ، فاغْفر لي مغفرةً من عندكِ وارحمني ، إنَّك أنتَ الغفورُ الرحيم**»[1].

وفي الآية الكريمة وهذا الدعاء إقرار الوحدانية له في التوبة ، إذْ معناهما أنه : لا يفعل هذا إلا أنت فافعله لي .

٣- جاء اسمه (التواب) مقترنًا بـ (الرحيم) و(الحكيم) .

قال قتادة : ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [التوبة: ١٠٤] : إنَّ الله هو الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته الموفق من أحبَّ توفيقه منهم لما يُرضيه عنه (الرحيم) بهم أن يُعاقبهم بعد التوبة ، أو يَخذل من أراد منهم التوبة والإنابة ، ولا يتوب عليه[2] .

وقال ابن جرير بعد أن ذكر معنى (التواب) الذي تقدم : وأما قوله (الرحيم) فإنه يعني : أنه المتفضل عليه مع التوبة بالرحمة ورحمته إياه إقالة عثرته ، وصفحه عن عقوبة جرمه[3] .

وقال شهاب الدين الألوسي : وجَمَعَ بين وَصْفي كونه توابًا وكونه

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٢/ ٣١٧) وفي الدعوات (١١/ ١٣١) ومسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٧٨) من طرق عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عبد الله بن عمرو عن أبي بكر أنه قال لرسول الله ﷺ علمني دعاءً أدعو به في صلاتي قال : «**قل اللهم إني ظلمت ..**» .

وأخرجه البخاري في التوحيد (١٣/ ٣٧٢) ومسلم (٤/ ٢٠٧٨) عن ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن يزيد بن أبي حبيب به . وجاءت هذه العبارة أيضًا في دعاء الاستفتاح : «**وجهت وجهي..**» ودعاء سيد الاستغفار .

(٢) «جامع البيان» (١١/ ٤١) .

(٣) المصدر السابق (١/ ١٩٥) .

رحيمًا ، إشارةً إلىٰ مزيد الفضل ، وقدَّم (التواب) لظهور مناسبته لما قبله .

وقيل: في ذكر (الرحيم) بعده إشارةٌ إلىٰ أن قَبُول التوبة ليس علىٰ سبيل الوجوب ـ كما زعمت المعتزلة ـ بل علىٰ سبيل التَّرحم والتَّفضل ، وأنه الذي سبقت رحمته غضبه ، فيرحم عبده في عينِ غَضَبه ، كما جعل هُبُوط آدم سبب ارتفاعه ، وبعده سبب قُربه ، فسبحَانه من توابٍ ما أكرمه ومن رحيمٍ ما أعظمه[1] .

فيتحصَّل من ذلك :

أ ـ أن الله تعالىٰ رحيم بعباده فلا يعاقبهم بعد التوبة .

ب ـ أنه تعالىٰ لا يخذل ولا يردُّ من جاء منهم تائبًا ، ولو بلغت ذنوبه عَنَانَ السماء ومِلءَ الأرض .

ج ـ أنه تعالىٰ يرحم عبده ويقبل توبته في عين غضبه ، لأنَّ رحمته تعالىٰ تسبق غضبه[2] .

د ـ أن قبوله لتوبة عباده تفضلٌ منه عليهم ، وهو مقتضىٰ رحمته تعالىٰ بهم .

*** أما عن اقتران (التواب) بـ (الحكيم) :**

فيقول ابن جرير في قوله تعالىٰ : ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ**﴾ [النور: ١٠]: يقول تعالىٰ ذكره: لولا فضلُ الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم، وأنَّه عوَّادٌ علىٰ خلقه بلطفه وطَوْله، (حكيمٌ) في

---

(١) «روح المعاني» (١/ ٢٣٨) .

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (ص٨٩) في آثار الإيمان بـ (الرحمن الرحيم) .

تدبيره إياهم وسياسته لهم ، لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم ، وفَضَحَ أهل الذنوب منكم بذنوبهم ، ولكنه سَتَرَ عليكم ذنوبكم وتركَ فضيحتكم بها عاجلاً ، رحمةً منه بكم وتفضلاً عليكم .

فاشكروا نِعَمَهُ ، وانتهوا عن التَّقدم عما عنه نهاكم عن مَعَاصيه وتَرَكَ الجواب في ذلك اكتفاء بمعرفة السامع المراد منه[1] .

وقال البغوي في الآية نفسها : جواب لولا محذوف ، يعني : لعاجلكم بالعقوبة ، ولكنه سَتَرَ عليكم ورفعَ عنكم الحدَّ باللِّعان، وأن الله توابٌ يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة ، حكيم فيما فرض من الحدود[2] .

وقال الألوسي : جواب «لولا» محذوف لتهويله ، حتى كأنه لا توجد عبارة تحيط ببيانه ، وهذا الحذف شائع في كلامهم ، فكأنه قيل : لولا تفضله تعالى عليكم ورحمته سبحانه وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة (حكيم) في جميع أفعاله وأحكامه التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان ، لكان مما لا يُحيط به نطاق البيان ، ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك ، لوجب على الزوج حَدُّ القذف ، مع أن الظاهر صِدْقُهُ، لأنه أعرف بحال زوجته ، وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضاحة ، وبعد ما شرع لهم لو جعل شهاداته موجبة لحد الزنا عليها لفات النظر إليها ، ولو جعل شهاداتها موجبة لحدِّ القذف عليه لفات النظر له ، ولا ريب في خروج الكلِّ عن

---

(١) «جامع البيان» (١٨/٦٨) .

(٢) «معالم التنزيل» (٥/٥٦) بهامش تفسير الخازن ، وبنحوه مختصراً قال الخازن في تفسير (الصفحة نفسها) .

سنن الحكمة والفضل والرحمة ، فجعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما حتمًا دارئــة لما توجـه إليه من الغائلة الدنيوية ، وقد ابتلي الكاذب منهما في تَضَاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتم مما دَرَأَتْه عنها وأطم .

وفي ذلك من أحكام الحكم البالغة وآثار التفضل والرحمة ما لا يخفى، أما على الصادق فظاهر ، وأما على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا ، ودرء الحدِّ عنه وتعريضه للتوبة حسبما يُنبئ عنه التعرض لعنوان توابيته تعالى .

فسبحانه ما أعظم شأنه ، وأوسع رحمته ، وأدق حكمته ، قاله شيخ الإسلام[1] .

فيتحصَّل مما سبق :

أ ـ أن الله عز وجل لا يُعَاجل أهل المعاصي بالعقوبة ، بل يُمهلهم الفُرصة للتوبة والرجوع ، وهذا من حكمته .

ب ـ أنه تعالى لا يفضح أهل الذنوب ابتداء ، ليكون ذلك عَوْنًا لهم على توبتهم .

ج ـ أنه شرع من الحدود والكفارات ما يُكفِّر به عن عباده الذنوب والسيئات ، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة .

٤- لا يصح تسمية الله تعالى بـ «التائب» لأنَّه لم يرد في الكتاب والسنة تسمية الله تعالى بذلك ، وإن كان ذلك جائزًا لغة .

قال الزجاجي : فإن قال قائل : أفيجوز أن يقال : الله عز وجل

---

(١) «روح المعاني» (١٨/ ١١١) باختصار يسير .

«تائب» على عباده ، أي يقبل توبتهم ، كما قيل له عز وجل (تواب)؟.

قيل له : ليس لنا أن نُطْلق على الله عز وجل من الصفات إلا ما أطلقه جماعة المسلمين ، وجاء في الكتاب وإن كان في اللغة محتملاً .

وقد قال الله عز وجل : ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧] وقال في موضع آخر ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥] فقد جاء الفعل منه على فعل يفعل .

وما نطق منه بفعل يفعل ، فاسم الفاعل منه قياسًا فاعل ، كقولك : ضرب زيد يضرب فهو ضارب ، وذهب يذهب فهو ذاهب ، فكذلك يقال قياسًا : تاب زيد يتوب فهو تائب .

فإن كانت الأمة تُطلق ذلك على الله عز وجل فقياسه في اللغة مستقيم، وإن لم تُطلق ذلك على الله عز وجل فلا يجوز الإقدام عليه وإن كان في اللغة جائزًا .

على أنه إنما قيل لله عز وجل (تواب) لمبالغة الفعل ، وكثرة قبوله توبة عباده ، ولكثرة من يتوب إليه وتردد هذا الفعل وتكراره وقبوله منهم ليدل على هذا المعنى ، فلا يجاوز هذا .

وقد جاء في صفاته عز وجل ما لا ينطق باسم الفعل ، كقوله : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] وقوله : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ولم يقلْ : متُبارك ! كما قيل : تعالى فهو متعال ، والوزن والتقدير في العربية واحد .

وقد جاء في صفاته عز وجل ما نطق باسم الفاعل، كقولك : الله المؤمن المهيمن، ولا تقول : آمن الله ولا هيمن، وإنما نسعى في صفاته

عز وجل إلىٰ ما أطلقته الأمة وجاء في التنزيل ونُمسك عما سوىٰ ذلك[1].

وهذا كلام سليم ، وقد سبق تقريره في مقدمة هذا الكتاب المبارك بتفصيل .

أما ما جاء في «مفردات» الراغب : فالعبد تائب إلىٰ الله ، والله تائب علىٰ عبده[2] .

فهو من باب الإخبار ، لا من باب التسمية .

٥- التوبة هي تَرْكُ الذنب علىٰ أجملِ الوجوه ، وهو أبلغ وُجُوه الاعتذار ، فإن الاعتذار علىٰ ثلاثة أوجه :

إما أن يقول المُعْتَذر لم أفعل .

أو يقول فعلتُ لأجل كذا .

أو فعلتُ وأسأتُ وقد أقلعت ، ولا رابع لذلك . وهذا الأخير هو «التوبة» .

والتوبة في الشرع : تركُ الذنب لقُبحه ، والنَّدم علىٰ ما فَرَط منه ، والعزيمة علىٰ ترك المعاودةِ ، وتداركُ ما أمكنه أن يُتدارَكَ من الأعمال بالإعادة .

فمتىٰ اجتمعت هذه الأربع فقد كَمُلَ شرائط التوبة[3] .

٦- التوبة واجبة علىٰ كل عبد ، لا يصح أن ينفك منها في حالٍ من الأحوال ، وأفضل الناس هم أحسنهم قيامًا بها وبحقها ، فإذا تخلىٰ عنها العبد صار ظالمًا لنفسه .

---

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص ٦٣ ـ ٦٤) ، وانظر القرطبي (١/ ٣٢٦) .

(٢) (ص٧٦) ، وكذا ما سيأتي من كلام السعدي .

(٣) «مفردات الراغب الأصفهاني» (ص٧٦) .

قال ابن القيم رحمه الله : ومنزل «التوبة» أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات ، وإنْ ارتحل به ، واستصحبه معه ونزل به ، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته ، وحاجته إليها في النهاية ضرورية ، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] وهذه الآية في سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم ، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه ، وأتى بأداة «لعلَّ» المشعرة بالترجي ، إيذانًا بأنكم إذا تُبْتُمْ كنتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون ، جعلنا الله منهم .

قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] قسم العباد إلى تائب وظالم وما ثَمَّ قِسم ثالث ألبتة ، وأوقع اسم «الظالم» على من لم يَتُبْ ، ولا أظلم منه ، لجهله بربه وبحقه ، وبعيب نفسه وآفات أعماله . وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : «**يا أيها الناس ، توبوا إلى الله ، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**» وكان أصحابه يَعُدُّونَ له في المجلس الواحد قبل أن يقوم : «رب اغفر لي وتب عَلَيَّ إنك أنت التواب الغفور ، مائة مرة» وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخرها ، إلا قال فيها : «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي**» وصح عنه ﷺ أنه قال: «**لن يُنجي أحداً منكم عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يَتَغمدَني الله برحمةٍ منه وفَضل**» .

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه ، وعظمته وما

يستحقه جلاله من العبودية ، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها[1].

٧- فالتوبة لا يستغني عنها أحد حتى الأنبياء صلوات الله عليهم ، لأنها ليست نقصًا ، بل هي من الكمال الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر به .

وقد سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن معنى قوله تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ [التوبة: ١١٧] والتوبة إنما تكون عن شيء يصدر من العبد ، والنبي ﷺ معصوم من الكبائر والصغائر ؟

فأجاب شيخ الإسلام ابن تيمية : الحمد لله ، الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الإقرار على الذنوب ، كبارها وصغارها ، وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبة يرفع درجاتهم ، ويعظم حسناتهم ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وليست التوبة نقصًا ، بل هي من أفضل الكمالات ، وهي واجبة على جميع الخلق كما قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [الأحزاب: ٧٢ ، ٧٣] فغاية كل مؤمن هي التوبة ، ثم التوبة تتنوع كما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

والله تعالى قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والاستغفار : عن آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى وغيرهم . فقال آدم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] وقال نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٧٨ ـ ١٧٩) .

الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وقال الخليل : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] وقال هو وإسماعيل :﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال موسى :﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥، ١٥٦] وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] .

وقد ذكر الله سبحانه توبة داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء ، والله تعالى : ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وفي أواخر ما أنزل الله على نبيه : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه كان يقول في افتتاح الصلاة : **«اللهم باعدْ بيني وبين خَطاياي كما بَاعَدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نَقِّني من الخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيضُ من الدنَس ، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد»** .

وفي الصحيح أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح : **«اللهم أنت الملكُ لا إله إلا أنت أنتَ ربي وأنا عبدكَ ظلمتُ نفسي ، واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا إنَّه لا يغفر الذنوب إلا أنت»** .

وفي الصحيح أيضًا عن النبي ﷺ أنه كان يقول: **«اللهم اغفر لي ذنبي كلَّه ، دقَّهُ وجلَّه ، علانيته وسرَّه ، أوله وآخره»** .

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه كان يقول : **«اللهم اغفر لي خَطيئتي**

وجَهلي وإسرافي في أمري ، وما أنتَ أعلم به مني ، اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني أنت المُقَدِّم ، وأنت المؤخِّر ، لا إله إلا أنتَ». ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة .

وقد قال الله تعالى :﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [محمد: ١٩] فتوبة المؤمنين واستغفارهم هو من أعظم حسناتهم ، وأكبر طاعتهم ، وأجل عباداتهم التي ينالون بها أجل الثواب ، ويندفع بها عنهم ما يدفعه من العقاب .

فإذا قال القائل : أي حاجةٍ بالأنبياء إلى العبادات والطاعات ؟ كان جاهلاً ، لأنهم إنما نالوا ما نالوه بعبادتهم وطاعتهم ، فكيف يقال : إنهم لا يحتاجون إليها ؟! فهي أفضل عبادتهم وطاعتهم .

وإذا قال القائل : فالتوبة لا تكون إلا عن ذنب ، والاستغفار كذلك قيل له : الذنب الذي يَضُرُّ صاحبه هو ما لم يحصل منه توبة ، فأما ما حصل منه توبة فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة ، كما قال بعض السلف : كان داود بعد التوبة أحسن منه حالاً قبل الخطيئة ، ولو كانت التوبة من الكفر والكبائر : فإن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم خيار الخليقة بعد الأنبياء ، وإنما صاروا كذلك بتوبتهم مما كانوا عليه من الكفر والذنوب ، ولم يكن ما تقدم قبل التَّوبة نقصًا ولا عيبًا ، بل لما تابوا من ذلك وعملوا الصالحات كانوا أعظم إيمانًا ، وأقوى عبادة وطاعة ممن جاء بعدهم فلم يَعرف الجاهلية كما عرفوها .

ولهذا قال عمر بن الخطاب : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة ،

إذا نشأ في الإسلام من[1] لم يعرف الجاهلية . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠] .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : **«أن الله يُحاسبُ عَبده يوم القيامة ، فيعرض عليه صغَار الذنوب ويخبأ عنه كبارها فيقول : فعلَت يوم كذا كذا وكذا ؟ فيقول : نعم يارب ! وهو مُشْفقٌ من كبارها أنْ تظهر ، فيقول : إني قد غَفَرْتُها لك ، وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة ، فهنالك يقول : ربِّ إنَّ لي سيئات ما أراها بعد»** .

فالعبد المؤمن إذا تاب وبدَّل الله سيئاته حسنات انقلب ما كان يضره من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها، فلم تبق الذنوب بعد التوبة مضرة له ، بل كانت توبته منها من أنفع الأمور له ، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية ، فمن نسي القرآن ثم حفظه خيرًا من حفظه الأول لم يضره النسيان، ومن مرض ثم صح وقوي لم يضره المرض العارض .

والله تعالى يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه ، ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع ، والخشوع لله والإنابة إليه ، وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة ، كم ذاقَ الجوع والعطش ، والمرض والفقر والخوف ، ثم ذاق الشبَع والرِّي والعافية والغنى والأمن ، فإنه يحصل له من المحبة لذلك وحلاوته ولذته ،

---

(١) في الأصل : مع ، وهو خطأ .

والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه ، والحذر أنْ يقع فيما حصل أولاً ما لم يحصل بدون ذلك ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

وينبغي أن يعرف أنَّ التوبة لا بدَّ منها لكل مؤمن ، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القُرب من الله ، ويزول عنه كل ما يكره إلا بها .

*** [كمال توبة النبي ﷺ] :**

ومحمد ﷺ أكملُ الخلق وأكرمهم على الله ، وهو المقدم على جميع الخلق في أنواع الطاعات ، فهو أفضل المحبين لله وأفضل المتوكلين على الله ، وأفضل العابدين له ، وأفضل العارفين به وأفضل التائبين إليه ، وتوبته أكمل من توبة غيره ، ولهذا غَفَرَ الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وبهذه المغفرة نالَ الشَّفاعة يوم القيامة ، كما ثبت في الصحيح : «**إن الناس يوم القيامة يطلبون الشفاعة من آدم ، فيقول : إني نُهيت عن الأكل من الشجرة فأكلتُ منها ، نفسي نفسي نفسي ، ويطلبونها من نوح فيقول: إني دَعَوتُ على أهل الأرض دعوةً لم أُومر بها ، نفسي نفسي نفسي ، ويطلبونها من الخليل ، ثم من موسى ، ثم من المسيح فيقول : اذهبوا إلى محمد عبدٌ غفر الله له ما تقدَّم منْ ذَنْبه وما تأخَّر . قال: فيأتوني فأنطلق ، فإذا رأيت ربي خررت له ساجداً ، فأحمد ربي بمحامدَ يفتحها علي لا أحسنها الآن ، فيقول : أي محمد ! ارفع رأسك ، وقُل تُسمع ، وسَلْ تُعْطَ واشفع تشفع ، فأقول : أي رب أمتي ! فيحد لي حدًا فأدخلهم الجنة**» .

فالمسيح ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ دلَّهم على محمد ﷺ ، وأخبر بكمال عبوديته لله ، وكمال مغفرة الله له ، إذ ليس بين المخلوقين والخالق نسب إلا محض العبودية والافتقار من العبد ، ومحض الجود

والإحسان من الرب عز وجل .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لن يَدْخل أحدٌ منكم الجنةَ بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: «**ولا أنا ، إلا أن يَتَغمَّدني الله برحمة منه وفَضل**» .

وثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول: «**يا أيها الناس توبوا إلىٰ ربكم فو الذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**».

وثبت عنه في الصحيح أنه قال : «**إنَّه ليُغَان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مَرَّة**» فهو ﷺ لكمال عبوديته لله ، وكمال محبته له ، وافتقاره إليه ، وكمال توبته واستغفاره : صار أفضل الخلق عند الله فإنَّ الخير كلَّه من الله ، وليس للمخلوق من نفسه شيء، بل هو فقير من كل وجه ، والله غنيٌ عنه من كل وجه ، محسنٌ إليه من كل وجه ، فكلما ازداد العبد تواضعًا وعبودية ازداد إلىٰ الله قربًا ورفعة ، ومن ذلك توبته واستغفاره.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**كلُّ بني آدم خَطَّاء ، وخيرُ الخطَّائين التَّوابون**» رواه ابن ماجه والترمذي[1] .

٨- للإمام المحقق ابن القيم رحمه الله كلمات رائعات ، في وصف الإنسان وحاله مع ربه جل شأنه ، في احتجاجه عليه بقَدَرِه ، ونسيانه لذكره وشكره ، ثم وَصْف الرب سبحانه وسعة رحمته ، وتواصل بره وإحسانه بعباده ، وقبوله لتوبتهم وفرحه تعالى بها . . كل ذلك في هذه الخطرات إذ يقول عن هذا الإنسان الظلوم الجهول :

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١٥/ ٥١ ـ ٥٧) .

ياويله ظهيرًا للشيطان على ربه ، خصمًا لله مع نفسه ، جبري المعاصي ، قدَرِيّ الطاعات[1] عاجز الرأي مِضْياعٌ لفرصته ، قاعدٌ عن مصالحه ، معاتب لأقدار ربه ، يحتجُّ على ربه بما لا يقبله من عبده وامرأته وأمته ، إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره ، فلو أمرَ أحدهم بأمر ففرَّط فيه ، أو نهاه عن شيء فارتكبه ، وقال: القدر ساقني إلى ذلك . لما قَبِلَ منه هذه الحجة ، ولبادَرَ إلى عقوبته .

فإنْ كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حقٍّ ربك ، فهلا كان حجة لعبدك وأمتك في ترك بعض حقك ؟ بل إذا أساء إليك مسيء ، وجنى عليك جان ، واحتج بالقدر : لاشتدّ غضبك عليه ، وتضاعف جُرمه عندك ، ورأيت حجته داحضةً ، ثم تحتج على ربك به ، وتراه عذرًا لنفسك ؟! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مَدَى الأنفاس : أزاح عِللك ، ومكَّنك من التزود إلى جَنَّته ، وبعث إليك الدليل ، وأعطاك مؤنة السفر، وما تتزود به ، وما تحارب به قُطّاع الطريق عليك : فأعطاك السمع والبصر والفؤاد ، وعَرَّفك الخير والشر ، والنافع والضار ، وأرسل إليك رسوله ، وأنزل إليك كتابه ، ويسَّرَه للذكر والفهم والعمل ، وأعانك بمدد من جنده الكرام ، يثبتونك ويحرسونك ، ويحاربون عدوك ويطردونه عنك ، ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه ، وهم يكفونك مؤنته، وأنتَ تأبى إلا مظاهرته عليهم ، وموالاته دونهم ، بل تُظاهره وتواليه دون وَلِيِّك الحق الذي هو أولى بك ! قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا**

---

(١) أي إذا فعل المعاصي ، احتج بأنه مجبور عليها ! وإن فعل الطاعات ، نسبها لنفسه وقدرته؟!

لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٠] طردَ إبليسَ عن سمائه ، وأخرجه من جنته ، وأبعده من قربه، إذ لم يَسْجد لك ، وأنت في صُلب أبيك آدم ، لكرامتك عليه ، فعاداه وأبعده ، ثم واليت عدوه ، ومِلْت إليه وصالحته ، وتتظلم مع ذلك وتشتكي الطرد والإبعاد ! وتقول :

عودوني الوصال والوَصْلُ عَذْب ورموني بالصَّدِّ والصَّدُّ صعب

نعم ، وكيف لا يَطْردُ من هذه معاملته ؟ وكيف لا يبعد عنه من كان هذا وصفه ؟ وكيف يجعل من خاصته وأهل قُربه مَنْ حاله معه هكذا ؟ قد أفسد ما بينه وبين الله وكدّره !!

أمره الله بشكره ، لا لحاجته إليه ، ولكن لينال به المزيد من فضله ، فجعل كُفْرَ نِعَمِهِ ، والاستعانة بها على مساخطه : من أكبر أسباب صرفها عنه .

وأمره بذكره ليذكره بإحسانه ، فجعل نسيانه سببًا لنسيان الله له ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] أمره بسؤاله ليعطيه ، فلم يسأله ، بل أعطاه أجلّ العطايا بلا سؤال ، فلم يقبل ، يشكو مَنْ يرحمه إلى من لا يرحمه ! ويتظلم ممن لا يظلمه ، ويَدَعُ من يُعاديه ويظلمه ! إن أنعم عليه بالصحة والعافية والمال والجاه استعان بنعمه على معاصيه ! وإن سَلَب ذلك ظَلَّ متسخطًا على ربه وهو شاكيه ! لا يصلح له على عافية ، ولا على ابتلاء ! العافية تُلقيه إلى مساخطه ، والبلاء يدفعه إلى كفرانه وجحود نعمته ، وشكايته إلى خلقه !

دعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طَرَقه ، ثم فتحه له فما عَرَّج عليه

ولا ولَجَه ! أرسل إليه رسوله يدعوه إلىٰ دار كرامته ، فعصى الرسول ، وقال : لا أبيع ناجزًا بغائب ، ونَقْدًا بنَسيئة ، ولا أترك ما أراه لشيء سمعت به! ويقول :

خُذْ ما رأيتَ ودَعْ شيئًا سمعتَ به في طَلْعة الشمس ما يُغْنيك عن زُحَل

فإن وافق حَظُّه طاعة الرسول أطاعه لنيل حظه ، لا لرضى مرسِله ، لم يزل يتمقت إليه بمعاصيه ، حتىٰ أعرضَ عنه ، وأغلق الباب في وجهه.

ومع هذا فلم يُؤيسه من رحمته ، بل قال : متىٰ جئتني قبلتك ، أتيتني ليلاً قبلتك ، وإن أتيتني نهارًا قبلتك ، وإن تقربت مني شبرًا تقربت منك ذراعًا ، وإن تقربت مني ذراعًا تقربت منك باعًا ، وإنْ مشيت إليَّ هرولتُ إليك . ولو لَقِيتني بقُراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا ، أتيتك بقُرابها مغفرة ، ولو بلغتْ ذنوبُك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرتُ لك . ومَنْ أعظم مني جودًا وكرمًا ؟

عبادي يبارزونني بالعظائم ، وأنا أكلؤهم على فُرُشهم ، إني والجن والإنس في نبإٍ عظيم : أخلقُ ويُعبد غيري ، وأرزُق ويُشْكَرُ سواي ، خيري إلىٰ العباد نازل ، وشرهم إليَّ صاعد ، أتحبَّبُ إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إليَّ بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إليَّ !!

من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد ، ومن أعرضَ عني ناديته من قريب ، ومن تركَ لأجلي أعطيته فوق المزيد ، ومن أراد رضاي أردتُ ما يريد ، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنتُ له الحديد .

أهلُ ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيادتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا أُقَنِّطهم من رحمتي ، إن تابوا إليّ فأنا

حبيبهم ، فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا إليَّ فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب ، لأطهرهم من المعايب .

من آثرني على سواي آثرته على سواه . الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة . والسيئة عندي بواحدة . فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له .

أشكر اليسير من العمل ، وأغفر الكثير من الزلل ، رحمتي سبقت غضبي ، وحلمي سبق مؤاخذتي ، وعفوي سبق عقوبتي ، أنا أرحم بعبدي من الوالدة بولدها «**لله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده من رَجلٍ أضلَّ راحلته بأرضٍ مَهْلَكة دَوِّية عليها طعامه وشرابه . طلبها حتى إذا أيس من حُصُولَها، نام في أصل شجرة ينتظر الموت . فاستيقظَ فإذا هي على رأسه، قد تعلَّق خِطامها بالشجرة ، فالله أفرحُ بتوبة عبده من هذا براحلته**» .

وهذه فرحة إحسان وبر ولطف ، لا فرحةَ محتاج إلى توبة عبده ، منتفع بها ، وكذلك موالاته لعبده إحسانًا إليه ، ومحبة له وبرًا به ، لا يتكثَّر به من قلة ، ولا يتعزَّز به من ذِلَّة، ولا ينتصر به من غَلَبة، ولا يعدُّهُ لنائبة ، ولا يستعين به في أمر ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا** ﴾ [الإسراء: ١١١] فنفى أن يكونَ له وليّ من الذل، والله وليّ الذين آمنوا، وهم أولياؤه.

فهذا شأن الرب وشأن العبد . وهم يقيمون أعذار أنفسهم . ويحملون ذنوبهم على أقداره[1] .

* * *

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٩٢ ـ ١٩٥) .

العَفُوُّ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٨١)

* **المعنى اللغوي :**

العفو فعول من قولك : عفا يعفو عفواً فهو عفو .

ويقال : عفوتُ عن الشيء ، أعفو عنه ، إذا تركته ، وعفا عن ذنبه إذا ترك العقوبة عليه .

والعَفُوُّ على فَعُولٍ : الكثير العفو .

وعفا المنزل يعفو : دَرَسَ وانمحى .

وعفا الشَعر والنبت وغيرهما : كثر ومنه قوله تعالى :﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥] أي كثروا .

وعَفْو المال : ما يفضُل عن النفقة .

ويقال : أعْفِني من الخروج معك ، أي : دعني منه .

وعافاه الله وأعفاه بمعنى، والاسم العافية، وهي دفاع الله عن العبد[1].

* **وروده في القرآن الكريم :**

ورد الاسم خمس مرات ، وهي :

قوله تعالى : ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣] .

---

(١) «تفسير الأسماء» للزجاج (ص٦٢) و«اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص١٣٤ ـ ١٣٥) و«المفردات» للراغب (ص٣٣٩ ـ ٣٤٠) و«الصحاح» للجوهري (٦/ ٢٤٣١ ـ ٢٤٣٣) و«اللسان» مادة (عفا).

وقولـه : ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩] .

وقوله : ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩] .

وقولـه : ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠] .

وقوله : ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢] .

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ [النساء: ٤٣] : إن الله لم يزل عفواً عن ذنوب عباده ، وتركه العقوبة على كثير منها ما لم يشركوا به [١].

وقال الزجاج بعد أن ذكر المعنى اللغوي : والله تعالى عفوٌّ عن الذنوب ، تاركٌ العقوبة عليها [٢].

وقال أبو جعفر النحاس : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ أي يقبل العفو ، وهو السهل [٣] .

وقال الخطَّابي : (العفُوُّ) وزنه فَعُولٌ من العفْوِ ، وهو بناءُ المبالغة ، والعَفْوُ : الصَّفْحُ عن الذنوب ، وتركُ مُجازاة المسيء .

وقيل : إنَّ العفوَ مأخوذٌ من عفَتِ الريح الأثر ، إذا درَسَتْه .

---

(١) «جامع البيان» (٥/ ٧٤) وانظر (٥/ ١٤٨) (٦/ ٤) .

(٢) «تفسير الأسماء» (ص٦٢) .

(٣) «إعراب القرآن» (١/ ٤٥٩) .

فكَأنَّ[1] العافي عن الذنب يَمحوه بصَفْحه عنه[2].

وقال الحليمي : (العفو) ومعناه: الواضعُ عن عباده تَبِعَات خطاياهم وآثارهم ، فلا يستوفيها منهم ، وذلك إذا تابوا واستغفروا ، أو تركوا لوجهه أعظم مما فعلوا ، فيكفر[3] عنهم ما فعلوا بما تركوا ، أو بشفاعة من يشفع لهم ، أو يجعل ذلك كرامة لذي حرمة لهم به ، وجزاء له بعمله[4] .

وقال السعدي : (العَفُوُّ الغَفور الغَفَّار) : الذي لم يَزَلْ ولا يزال بالعفو معروفًا ، وبالغُفران والصَّفح عن عباده مَوصوفًا ، كلُّ أحدٍ مضطرٌ إلىٰ عفوه ومغفرته ، كما هو مضطر إلىٰ رحمته وكرمه ، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتىٰ بأسبابها ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ** ﴾ [طه: ٨٢][5] .

وقال ابن القيم في «النونية» :

وهو العَفُوُّ فَعَفْوه وَسِعَ الوَرَىٰ ... لولاه غَارَ الأرض بالسُّكان[6]

❊ من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١- أنَّ الله سبحانه هو (العَفو) الذي له العفو الشامل ، الذي وسع ما

---

(٤) في المطبوعة من «شأن الدعاء» : فكان ، وهو خطأ .

(٢) «شأن الدعاء» (ص٩٠ ـ ٩١) .

(٣) في «الأسماء» للبيهقي : ليكفر .

(٤) «المنهاج» (١/٢٠١) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٥٥) وسقط من آخره : له بعمله .

(٥) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/٣٠٠) .

(٦) «النونية» (٢/٢٢٧) أي : ولولا كمال عفوه وسعة حلمه ، لغارَتْ الأرض بأهلها ، لكثرة ما يُرتكب من المعاصي علىٰ ظهرها ـ انظر «شرح النونية» لمحمد خليل هراس (٢/٨١) .

يصدر عن عباده من الذنوب ، ولاسيما إذا أتوا بما يوجب العفو عنهم من الاستغفار والتوبة والإيمان والأعمال الصالحة ، فهو سبحانه يَقْبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

وهو عَفُوٌّ يحب العفو ويحب من عباده أن يسعوا في تحصيل الأسباب التي ينالون بها عفوه من السعي في مرضاته ، والإحسان إلى خلقه .

ومن كمال عفوه : أنَّه مهما أسْرف العبد على نفسه ، ثم تاب إليه ورجع غفَر له جميع جُرمه ، كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر: ٥٣] .

ولولا كمال عفوه ، وسعة حلمه سبحانه ما ترك على ظهر الأرض من دابة تدبُّ ، ولا نفس تَطْرُف ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [النحل: ٦١] (١) .

٢- أنَّه تعالى : (عَفُوٌّ غفور) مع قدرته على خلقه ، وقهره لهم ، وقد نبَّه خَلْقه إلى ذلك بقوله : ﴿ **إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** ﴾ [النساء: ١٤٩] .

أي إن تقولوا للناس حُسنًا أو تُخفوا ذلك ، أو تصفحوا لمن أساء

---

(١) وليس أدلُّ على كمال عفوه سبحانه من قول الرسول ﷺ : «ليس أحَدٌ - أو ليس شيء - أصبرَ على أذىً سَمِعَهُ من الله ، إنهم لَيَدْعُون له ولدًا ، وإنه ليعافيهم ويرزقهم» .
أخرجه البخاري في الأدب (١٠/٥١١) وفي التوحيد (١٣/ ٣٦٠) ومسلم في المنافقين (٤/ ٢١٦٠) من طرق عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن أبي عبد الرحمن السُّلمي عن أبي موسى رضي الله عنه .

إليكم وتعفوا عنه ، فإن الله تعالى لم يزل يعفو عنكم ويصفح ، مع قدرته على عقابكم والانتقام منكم .

أي فاعفوا أنتم أيضًا عن الناس كما أن الله يعفو عنكم ويغفر لكم .

وقد حثَّ الله تعالى عباده على العفو والصفح وقبول الأعذار من رعاياهم وأصدقائهم وأرحامهم مرة بعد مرة .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النور: ٢٢] .

وقد نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف ألا يُنفق على مِسْطَح وهو من ذوي رحمه ، بعد أن خاض مع الخائضين في حديث الإفك ، ونزل القرآن ببراءة الصِّدِّيقة رضي الله عنها .

وقال تعالى : ﴿ **وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [البقرة: ٢٣٧] .

وقال : ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [الشورى: ٤٠] .

وقال سبحانه مخاطبًا نبيه ﷺ : ﴿ **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

وحثَّه على قبول العفو فقال : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [الاعراف: ١٩٩] .

ومدح بذلك عباده المؤمنين فقال : ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

وقال ﷺ : «**ما نَقَصتْ صدقةٌ من مالٍ ، وما زادَ الله عبدًا بِعَفْوٍ إلا عزًا ، وما تواضع أحدٌ لله إلا رَفَعه الله**»[1].

قال النووي : «**وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا**» : فيه وجهان : أحدهما: أنه على ظاهره ، وأن من عُرِفَ بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب، وزادَ عِزُّه وإكرامه .

والثاني : إن المراد أجره في الآخرة وعزُّه هناك[2] .

٣- تكرر سؤال النبي ﷺ ربه تعالى العفو والعافية في أحاديث كثيرة فمن ذلك :

إن عبد الله بن عمر أمر رجلاً إذا أَخَذَ مضجعه قال : «**اللهم خَلَقْتَ نفسي وأنتَ توفَّاها ، لك مَمَاتها ومحياها ، إنْ أحييتها فاحفظها ، وإنْ أمتَّها فاغفر لها ، اللهم إني أسألُك العافية**» فقال له رجل : أسمعت هذا من عمر ؟ فقال : من خيرٍ من عمر ، من رسول الله ﷺ[3] .

وعنه أيضًا : لم يكن رسول الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الدعوات حين يُصبح وحين يمسي : «**اللهم اسْتُر عَوْراتي وآمن رَوْعَاتي ، اللهم احْفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذُ بعَظَمَتكَ أن أُغْتالَ من تحتي**» قال وكيع يعني : الخسف[4] .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٥ ، ٣٨٦) ومسلم في البر والصلة (٤/ ٢٠٠١) من طرق عن العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه به .

وله شاهد من حديث أبي كبشة الأنماري ، أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١) .

(٢) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٤١) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر (٤/ ٢٠٨٣) .

(٤) إسناده صحيح ، أخرجه أحمد (٢/ ٢٥) وأبو داود (٥/ ٥٠٧٤) والنسائي (٨/ ٢٨٢) مختصرًا وفي «عمل اليوم والليلة» (٥٦٦) تامًا وابن ماجه (٣٨٧١) من طرق عن عبادة بن=

وكان يستعيذ بعفو الله تعالى من عقوبته وعذابه ، كما جاء ذلك في دعائه في صلاة الليل : «**اللهم أعوذُ برضاكَ من سَخَطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذُ بك منك لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك**»[(١)] .

وسأله رجل فقال : يا رسول الله ، كيف أقولُ حين أسألُ ربي؟ قال: «**قل : اللهــم اغْفر لي وارْحَمني وعَافني وارزقني ـ ويجمع أصابعه إلا الإبهام ـ فإنَّ هؤلاء تجمعُ لك دنياكَ وآخرَتك**»[(٢)] .

٤- الفرق بين العفو والمغفرة :

قال في المقصد : (العَفُوُّ) هو الذي يَمحو السيئات ، ويتجاوز عن المعاصي ، وهو قريبٌ من (الغفور) ولكنه أبلغ منه ، فإن الغُفران يُنْبئُ عن السِّتر ، والعَفْو يُنبئ عن المَحْو ، والمحو أبلغ من الستر[(٣)] .

= مسلم الفزاري حدثني جبير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم قال سمعت ابن عمر فذكره. وهذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

تنبيه : وقع في المسند عمارة بدل عبادة وهو خطأ مخالف لجميع الأصول .

(١) أخرجه أحمد (٦/٥٨ ، ٢٠١) ومسلم في الصلاة (١/٣٥٢) عن محمد بن يحيى بن حبان عن الأعرج عن أبي هريرة عن عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدمه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : «**اللهم..**» .

وقد سقط اسم أبي هريرة في الموضع الأول عند أحمد. والحديث أخرجه أصحاب السنن.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر (٤/٢٠٧٣) من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبيه .

وفي رواية : كان الرجل إذا أسلم علَّمه النبيّ ﷺ الصلاة ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «**اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني**» .

(٣) «المقصد الأسنى» (ص٨٩) .

وقال القرطبي : وقال بعض العلماء : والفرق بين العَفْو والغفران ، أن الغفران : سِتْرٌ لا يقع معه عقابٌ ، والعَفْو إنما يكون بعد وجود عذاب وعتاب[1] .

وفيه نظر ! فإن العفو فيه معنى ترك العقوبة والصفح كما مرَّ آنفًا ، فالفارق الأول أقرب .

وفي «المفردات» للراغب : وقولهم في الدعاء : «أسألك العفو والعافية» أي تركَ العقوبة والسلامة [2].

وقال الخليل بن أحمد : كل من استحق عقوبةً فتركته ولم تعاقبه عليها فقد عَفَوْتَ عنه عفواً .

حكاه الزجاجي ثم قال : والعفو متعلق بالمفعول ، لا يكون إلا عن مذنبٍ موجودٍ مستحق للعقوبة ، ويجوز أن يكون على مذهب أهل اللغة العفو عن الذنب : إذْهَابُهُ وإبطاله ، كما يقال : عَفَت الريح المنزل ، أي : مَحَتْ معالمه ودرست آثاره .

فالعافي عن الذنب كأنه مُبْطل له مذهب ، فإذا عفا عن الذنب فقد أبطله وذهب به فيكون اشتقاقه من هذا [3].

* * *

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٨٦ ب) .

(٢) «المفردات» (ص ٣٤٠) .

(٣) «اشتقاق أسماء الله» (ص١٣٤) .

الرَّؤُوف
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٨٢)

* **المعنى اللغوي :**

الرأْفَةُ : أشدُّ الرحمة ، قال أبو زيد رَؤُفْتُ بالرجل أرْؤُفُ به رأْفَةً ورآفةً ، ورأفْت به أرأف ، ورئِفتُ به رأفًا ، قال : كل من كلام العرب ، فهو رؤوفٌ على فَعُولٍ[١] .

وقال ابن الأعرابي : الرأفة الرحمة[٢] .

وقال الزَّجَّاج : يقال إنَّ الرأفةَ والرحمة واحدٌ ، وقد فرَّقوا بينهما أيضًا ، وذلك أن الرأفةَ هي المنزلةُ الثانية ، يقال : فلانٌ رحيم ، فإذا اشتدَّت رحمته ، فهو رَؤُوفٌ[٣] .

وقال أبو عبيدة : (رؤوف) : فعول من الرحمة ، وهي أشد الرحمة.

قال الكميت :

وهم الأرأفون بالنَّاسِ في الرأ فةِ والأحْلَمــون في الأحلامِ[٤]

---

(١) «الصحاح» (٤/١٣٦٢) .

(٢) «اللسان» مادة (رأف) .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص٦٢) انظر «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص٨٦) .

(٤) «مجاز القرآن» (١/٥٩) وقال ابن جرير عن (الرأفة) : إنها رقة الرحمة ، «جامع البيان» (٢/١٨٧) .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد الاسم في عشر آيات من كتاب الله تعالىٰ ، منها :

قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله تعالىٰ : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقوله : ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧] .

وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥] .

وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩] .

* معنى الاسم في حق الله تعالىٰ :

قال أبو عبيدة : (رؤوف) فعول من الرأفة وهي أرقُّ الرحمة ، قال كعب بن مالك الأنصاري :

نُطيع نَبينا ونُطيع ربًا ... هو الرحمنُ كان بنا رؤُوفًا[1]

قال ابن جرير : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ : إنَّ الله بجميع عباده ذو رأفةٍ ، والرأفة أعلىٰ معاني الرحمة ، وهي عامة لجميع الخلق في الدنيا ولبعضهم في الآخرة[2] .

وقال الخطابي : (الرَّؤوف) هو الرحيم العَاطِف برأفته علىٰ عباده .

وقال بعضهم : الرأفةُ أبلغُ الرحمة وأرَقُّها .

---

(١) «مجاز القرآن» (١/ ٢٧٠) .

(٢) «جامع البيان» (٢/ ١٢) .

ويقال: إن الرَّأفة أخصُّ ، والرحمة أعمُّ ، وقد تكون الرحمة في الكراهة للمصلحة ، ولا تكادُ الرأفة تكون في الكراهة ، فهذا موضعُ الفرق بينهما [(١)].

وقال الحليمي : (الرؤوف) ومعناه المتساهل على عباده[(٢)] لأنَّه لم يُحملْهم ما لا يُطيقون ، بل حَمَّلَهم أقل مما يُطيقون[(٣)] بدرجات كثيرة .

ومع ذلك غلَّظَ فرائضه في حال شدَّة القوة ، وخَفَّفها في حال الضعف ونقصان القوة ، وأخَذَ المُقِيم بما لم يأخذ به المسافر ، والصحيح بما لم يأخذ به المريض .

وهذا كله رأفة ورحمة[(٤)] .

وقال في «المقصد» : (الرؤوف) ذو الرأفة ، والرأفة شدَّة الرحمة ، فهو بمعنى الرحيم مع المبالغة[(٥)] .

*** الفرق بين الرأفة والرحمة :**

تقدم في هذا كلام أبي عبيدة وابن جرير والزجاج والخطابي أنهم ذكروا فروقًا بينهما .

وجاء في «الأسنى» للقرطبي : إنَّ الرأفة[(٦)] نعمة مُلِذَّةٌ من جميع

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٩١) ، ومن قوله : «**الرأفة أبلغ** .. إلى قوله : **والرحمة أعم**» نقله الأصبهاني في «الحجة» (ق٢٦ ب) .

(٢) في «الأسماء» للبيهقي : المساهل عباده .

(٣) قوله «بل حملهم أقل مما يطيقون» ساقطة من مطبوعة «المنهاج» واستدركناها من «الأسماء» .

(٤) «المنهاج» (١/٢٠١) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٥٧) .

(٥) «المقصد» (ص٨٩) ، وبمثله قال القرطبي في «الأسنى» (ورقة ٢٨٩أ) .

(٦) في الأصل : الرحمة ، ولا يتناسب مع السياق .

الوجوه والرحمة قد تكون مُؤلمةً في الحال ، ويكون في عقباها لذَّة .

ولذلك قال : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢] ولم يقل : رحمة ، فإنَّ ضَرْبَ العُصاة على عصيانهم رحمةٌ لهم لا رأفة ، فإنَّ صفةَ الرأفة إذا انْسَدَلَت على مخلوق لم يلحقه مكروه .

فلذلك تقول لمن أصابه بلاءٌ في الدنيا ، وفي ضمنه خير في الأخرى: إن الله قد رَحِمه بهذا البلاء .

وتقول لمن أصابه عافية في الدنيا ، في ضمنها خير في الأخرى واتصلت له العافية أولاً وآخرًا ، وظاهرًا وباطنًا : إنَّ الله قد رأف به .

قال الأُقْليشي : فتأمل هذه التفرقة بين الرأفة والرحمة ، ولذلك جاءا معًا ، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وعلى هذا الرأفة أعمُّ من الرحمة ، فمتى أراد الله بعبدٍ رحمةً أنعم عليه بها ، إلا أنها قد تكون عقيب بلاءٍ ، وقد لا تكون ، والرأفة بخلاف ذلك[1] .

فيتحصل في التفريق بين الرأفة والرحمة :

أ ـ إن الرأفة أشدُّ الرحمة وأبلغها .

ب ـ إن الرأفة أعم من الرحمة ، إذ الرحمة قد تكون بشيء مكروه ، أو عقيب بلاء ، والرأفة خير من كلِّ وجه .

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- وَصْفُ الله تعالى بالرأفة وهي أشدُّ الرحمة ، ومن مظاهر تلك الرأفة :

أ ـ أنه لا يضيع لعباده طاعة أطاعوه بها فلا يثيبهم عليها : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] وقد نزلت

(١) «الكتاب الاسنى» (ورقة ٢٨٩ أ) .

لبيان أنَّ من صلّى إلى «بيت المقدس» قبل تحويل القبلة صلاته تلك لم يضع أجرها وثوابها ، وكذا صلاة من مات قبل تحويل القبلة .

ب ـ أنه حذَّرنا نفسه سبحانه وتعالى ، وخوفنا من عقوبته وعذابه ، ونهانا عن معصيته ، قبل أن يلقاه العبد يوم القيامة ، ليستعد للقائه ، ويتجنب سخطه وغضبه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] .

ومن أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه التي تبين شرعه ، لينقذ الناس من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والهداية ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩] .

فمن رحمته ورأفته فَعَلَ ذلك .

جـ ـ أنه يقبل توبات التائبين ، ولا يردُّ عن بابه العاصين المنيبين ، مهما كَثُرت سيئاتهم ، وتعاظمت خَطِيئاتهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] .

د ـ تسخيره لما في السموات وما في الأرض لمصلحة الإنسان ومنفعته ، وخلقه الأنعام ليركب على ظهرها فتحمله المسافات الشاسعة ، هو ومتاعه وزاده ، ولولا ذلك لأصابه الجهد العظيم والمشقة البالغة ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧] .

وتأمَّل هذه الآيات التي تلتها وما فيها من مظاهر رأفة (الرؤوف الرحيم) .

قال جل شأنه ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٨ - ١٨].

٢- سمَّى الله تعالى رسوله ﷺ بهذا الاسم في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومعنى ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فيحبُّ لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله إليكم ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشَّرَّ ويسعى جهده في تنفيركم عنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم، ولهذا كان حقه مقدمًا على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيره.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٥٠).

وكان من رأفته بأمته أنه : ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا ، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه ، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل[1] .

وكان يدخل في الصلاة وهو يريد أن يُطوِّل فيها فيسمع بكاء الصبي فيتجوَّز في صلاته كراهية أن يشقَّ على أمه[2] .

* * *

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٦/٥٦٦) وفي الأدب (١٠/٥٢٤) وفي الحدود (١٢/٨٦) وفي المحاربين (١٢/١٧٦) ومسلم في الفضائل (٤/١٨١٣ ـ ١٨١٤) عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) البخاري كتاب الأذان (٢/٢٠١ ـ ٢٠٢ ـ ٣٤٩) ومسلم في الصلاة (١/٣٤٢ ـ ٣٤٣) .

ذو الجَلال والإكرَام
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه

(٨٣ ـ ٨٤)

*** المعنىٰ اللغوي :**

جلَّ الشيء يَجِلُّ جَلالاً وجلالةً ، وهو جَلٌّ وجليلٌ وجلالٌ : عَظُمَ ، وأجلَّه : عَظَّمه ، يقال : جلَّ فلانٌ في عيني ، أي : عَظُمَ وأجْلَلْتُهُ : رأيتُه جليلاً نبيلاً ، وأجْللتُه في المرتبة ، وأجللتُه أي : عظَّمته .

وجلَّ فلانٌ يَجِلُّ جلالة ، أي : عَظُم قَدْرُهُ فهو جليل .

وقول لبيد :

غيرَ أنْ لا تكْذِبَنْها في التُّقىٰ واجْزِها بالبرِّ لله الأجَلْ

يعني الأعظم .

والجَلَلُ : الأمر العظيم ، والأمر الهيِّن أيضًا ، وهو من الأضداد[1].

وأما (ذو الإكرام) فقد شرحنا معنىٰ (الكريم والإكرام) فيما مضىٰ[2].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد الاسم مرتين : في قوله تبارك تعالىٰ :﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ** ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وفي قوله تعالىٰ في السورة نفسها : ﴿ **تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ**

---

(١) «الصحاح» (٤/١٦٥٨ ـ ١٦٥٩) و«اللسان» (١/ ٦٦٢ ـ ٦٦٣) مادة (جلل) و«اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص٢٠١ ـ ٢٠٣) .

(٢) انظر : (ص٣٧٥ ـ ٣٧٧) من الجزء الأول.

﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال الفرَّاء ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ هذه والتي في آخرها[١] ذي ـ كلتاها في قراءة عبد الله : ذي ـ تحفظان في الإعراب لأنهما من صفة ربك تبارك وتعالى .

وهي في قراءتنا ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ «ذو» تكون من صفة وجه ربنا تبارك وتعالى[٢] .

وقال ابن جرير : ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ يقول تعالى ذكره : تبارك ذكر ربِّك يا محمد ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ يعني : ذي العظمة ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ يعني ومن له الإكرام من جميع خلقه[٣] .

وقال الزجاج : ذو الجلال : أنه المستحقُّ لأن يُجَلَّ ويُكرمَ[٤] .

وقال الزجاجي : الجلال العظمة ، فالله عز وجل ذو الجلال والعظمة والكبرياء[٥] .

وقال الخطَّابي : «ذو الجلال والإكرام» : الجلال مصدر الجليل ، يقال: جليل بيِّنُ الجلالة والجلال ، والإكرام : مصدر أكرمَ يُكرم إكرامًا والمعنى : أنَّ الله جلَ وعزَّ مستحقٌ أنْ يُجلَّ ويُكرم فلا يجحد ، ولا يُكفر

---

(١) يعني آخر سورة الرحمن .

(٢) «معاني القرآن» (٣/١١٦) وبنحوه قال ابن جرير في تفسيره (٢٧/٧٨) .

(٣) «جامع البيان» (٢٧/٩٥) ثم نقل بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : قوله ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ يقول : ذو العَظَمَة والكبرياء .

(٤) «تفسير الأسماء» (ص٦٢) .

(٥) «اشتقاق الأسماء» (ص٢٠١) .

به ، وقد يحتمل أن يكون المعنى أنه يكرمُ أهل ولايته ، ويرفع درجاتهم بالتوفيق لطاعته في الدنيا ، ويُجلُّهم بأن يتقبَّل أعمالهم ويرفعَ في الجنان درجاتهم .

وقد يحتمل أنْ يكون أحدُ الأمرين ـ وهو الجلال ـ مضافًا إلى الله سبحانه بمعنى الصِّفة له، والآخر مُضافًا إلى العبد بمعنى الفعل منه، كقوله سبحانه ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦] فانصرفَ أحدُ الأمرين وهو المغفرة إلى الله سبحانه ، والآخرُ إلى العباد وهو التقوى ، والله أعلـم [١].

وقال الحُلَيمي : (ذو الجلال والإكرام) : ومعناه المستحق لأن يُهاب لسلطانه ، ويُثْنى عليه بما يليق بعلو شأنه .

وهذا قد يدخل في باب الإثبات على معنى : إن للخلق ربًا يستحق عليهم الإجلال والإكرام .

ويدخل في باب التوحيد على معنى أن هذا الحق ليس إلا لمستحق واحد[٢] .

وقال في «المقصد» : (ذو الجلال والإكرام) : هو الذي لا جلال ولا

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٩١ ـ ٩٢) ، ونحوه في «الاعتقاد» للبيهقي (ص٦٥) وقال : على المعنى الأول يكون من صفات الذات ، وعلى المعنى الثاني يكون من صفات الفعل ، وأما الآية ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ فقال ابن جرير في تفسيره (١٠٨/٢٩) : أهل أنْ يتقي عباده عقابه على معصيتهم إياه ، فيجتنبوا معاصيه ويسارعوا إلى طاعته ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ يقول : هو أهل أن يغفر ذنوبهم إذا هم فعلوا ذلك ، ولا يعاقبهم عليها مع توبتهم منها .

ثم نقل بسند صحيح عن قتادة أنه قال : أهل أن تتقى محارمه ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أهل أن يغفر الذنوب.

(٢) «المنهاج» (١/ ٢١٠) وذكره بعد الأسماء التي وردت في السنة، فقال: فصل: ولله جلَّ ثناؤه أسماء سوى ما ذكرنا تدخل في أبواب مختلفة ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٩٢) .

كمال إلا وهو له، ولا كرامة ولا مكرمة إلا وهي صادرة منه.

فالجلال له في ذاته، والكرامة فائضةٌ منه على خَلْقه، وفنون إكرامه خلقه لا تكاد تنحصر وتتناهى، وعليه دلَّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] اهـ[1].

وقال القرطبي: فمعنى جلاله استحقاقه لوصف العظمة ونعت الرفعة، والمتعالي عزًّا وتكبرًا وتنزهًا عن نعوت الموجودات. فجلاله إذًا صفةٌ استَحقها لذاته[2].

وقال السعدي: (ذو الجلال والإكرام): أي ذو العظمةِ والكبرياء، وذو الرحمة والجود والإحسان العام والخاص، المكرمة لأوليائه وأصفيائه الذين يُجلُّونه ويُعظمونه ويحبونه[3].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم:**

١- أن الله تعالى هو المستحق وحده لأنْ يُجل ويُنزه ويعظم لذاته، لكمال ذاته وصفاته وأسمائه، وليس في الوجود من هو بمثل هذه الصفة غيره جلَّ جلاله وتقدست أسماؤه.

فجلاله صفة استحقها لذاته.

قال الأصمعي: ولا يقال (الجلال) إلا لله عز وجل.

وقال أبو حاتم السِّجِستاني: قد يقال (جَلالٌ) في غير الله، أنشد لهدبة بن خشرم:

فلا ذا جَلالٍ هِبْنَه لجلالِه ... ولا ذا ضياعٍ هنَّ يتركن للفقرِ[4]

(١) (ص٩٠).

(٢) «الكتاب الأسنى» (ورقة ٢٧٥ أ ـ ٢٧٥ ب).

(٣) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠٢).

(٤) «اشتقاق الأسماء» للزجاجي (ص١٠٢).

٢- أن الله تعالىٰ يكرم أولياءه ، والإكرامُ قريب من الإنعام ولكنه أخصُّ ، فكل إكرام إنعام ، وليس كل إنعام إكرامًا .

قال القرطبي : وأما (الإكرام) - وهو مصدر أكرم فهو مكرمٌ - ففيه معنىٰ الإنعام ، إلا أنه أخصُّ من لفظةِ الإنعام ، لأنَّ الإنعام قد ينعم تفضلاً علىٰ من ليس بكريمٍ ولا مُكرمٍ عنده ، كإنعامه علىٰ العاصي والمخالف ، فهذا الإنعام لا يُسمىٰ إكرامًا ، فإذا أسدىٰ المُنْعم نعمته إلىٰ من يعزُّ عنده وله حُبٌّ لديه ومودة ، قيل : أكْرمه ، ومنه ما سُمي به [ما] علىٰ الأولياء من النعم: كرامات الأولياء ، لقدرهم عنده ومنزلتهم لديه ، فهو سبحانه يُنعم علىٰ من يُكرم ومن لا يكرم ولا يُكرم إلا من عليه في الآخرة يُنْعم ، قال الله تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] يعني أنه إذا مَنَحه نعيمًا في الدنيا يقول ذلك دليل علىٰ كرامتي ، وإذا قَدَر عليه رزقه يقول ذلك دليل علىٰ إهانتي ! وليس الأمر كذلك ! فليس نعيم الدنيا دليلاً [1] علىٰ نعيم الآخرة ، ولا هوان الدنيا دليلاً علىٰ هوان الآخرة ، وإكرامه للعبد يكون مُعجلاً في الدنيا ومُؤجلاً في الآخرة ، ويكون عمومًا في الخليقة ، وخصوصًا لأهل الحقيقة[2] قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] أ هـ[3] .

= وسئل الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله عن لفظ «جلالة الملك . .» قال : لا يظهر لي أن فيها بأسًا ، لأن له جلالة تناسبه» فتاوىٰ الشيخ (١/٢٠٦) وانظر: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ الفاضل بكر أبو زيد (ص١٣٣ ، ٣٠٨) .

(١) في الأصل : دليلٌ ، وهو خطأ ، فإنها خبر ليس .

(٢) قوله : أهل الحقيقة ، من اصطلاحات المتصوفة ؟!

(٣) «الكتاب الأسنىٰ» (ورقة ٢٧٥ ب) .

٣- حَثَّ النبي ﷺ أمته على الدعاء بهذين الاسمين فقال : **«أَلظُّوا بِيَاذا الجَلال والإِكرام»**(١) .

ومعنى أَلظُّوا : أي الزَمُوا هذه الدعوة وأكثروا منها ، ودُوموا على قولكم ذلك في دُعَائكم وسؤالكم لربكم جلَّ شأنه .

ولما سمع رجلاً يدعو في المسجد يقول : اللَّهم إني أسألُكَ بأنَّ لك الحمد لا إله إلا أنتَ الحنَّانُ المنَّانُ ، بديعُ السموات والأرض ، يا ذا الجلالِ والإكرام ، يا حيُّ يا قيُّوم ، قال ﷺ : **«دعَا الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجَاب ، وإذا سُئل به أعطى»**(٢) .

٤- وكان ﷺ إذا انصرَف من صلاته استغفر ثلاثًا وقال: **«اللهم أنتَ السَّلامُ ومنك السَّلامُ ، تباركت يا ذا الجلالِ والإكرام»**(٣) .

* * *

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٤/١٧٧) والبخاري في «التاريخ» (٣/ ٢٨٠) والحاكم (١/٤٩٨ ـ ٤٩٩) عن ابن المبارك أخبرني يحيى بن حسان عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكره .

قال الحاكم : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا .

يحيى بن حسان هو البكري الفلسطيني ، قال ابن المبارك : كان شيخًا كبيرًا حسن الفهم من أهل بيت المقدس ، وقال أبو حاتم: لا بأس به ، وقال النسائي : ثقة . وله شاهد من حديث أنس؛ أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك مرفوعًا به.

وقال : حديث غريب .

قلت : وفيه الرقاشي ، ضعيف .

وشاهد آخر من حديث أبي هريرة : أخرجه الحاكم (١/٤٩٩) ، وفيه رشدين بن سعد ، ضعيف مع صلاحه .

(٢) سبق تخريجه في الجزء الأول (ص٦٤) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (١/٤١٤) عن ثوبان رضي الله عنه .

وأخرجه أيضًا عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ إذا سَلَّم لم يقعد إلا مقدارَ ما يقول : **«اللهم أنت السَّلام ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»**.

الغَنيُّ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٨٥)

*** المعنى اللغوي :**

الغَنِيُّ في كلام العرب الذي ليس بمحتاج إلى غيره .

وغَنِيَ به عنه غُنْيَةً: أي استغنى .

وغَنِيَ بالمكان أي : أقام .

وغني : أي عاش .

ويقال : ما يُغني عنك هذا ، أي ما يُجزئ عنك وما ينفعك ، والغَنَاء: النفع .

والغِنَى (مقصور) : اليسار ، وتقول منه :غَنِيَ فهو غَنِيٌّ ، وتَغَنَّى الرجل أي استغنى وأغناه الله .

وتَغَانَوا : أي استغنى بعضهم عن بعض[1] .

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد الاسم في ثمان عشرة آية من كتاب الله تعالى ، منها : قول الله تعالى : ﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ** ﴾ [الأنعام: ١٣٣] .

وقوله : ﴿ **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي**

---

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص١١٧) «الصحاح» (٦/ ٢٤٤٩) و«اللسان» مادة (غنا) .

﴿الأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

وقوله : ﴿إن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] .

وقوله : ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] .

وقوله : ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] .

وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] .

وقوله : ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ والله غني عما يتصدقون به، حليم حين لا يَعجل بالعقوبة على من يَمنُّ بصدقته منكم ويؤذي فيها من يتصدَّق بها عليه[١] .

وقال في قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]: واعلموا أيها الناس أن الله عز وجل غني عن صدقاتكم وعن غيرها، وإنما أمركم بها وفرضها في أموالكم رحمة منه لكم ليُغْني بها عائلكم، ويُقوي بها ضعيفكم، ويجزل لكم عليها في الآخرة مثوبتكم ، لا من حاجة به فيها إليكم[٢] .

---

(١) «جامع البيان» (٣/٤٣) وساق بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله : الغني الذي كمل في غناه ، والحليم الذي كمل في حلمه . وفي سنده عبد الله بن صالح كاتب الليث وفيه ضعف .

(٢) «جامع البيان» (٣/٥٨) .

وقال الزجاج : وهو (الغني) والمستغني عن الخلق بقدرته وعزّ سلطانه والخلق فقراء إلى تطوُّلِه وإحسانه ، كما قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨][1] .

وقال الزَّجَّاجي : الغَني في كلام العرب : الذي ليس بمحتاج إلى غيره ، وكذلك الله ليس بمحتاج إلى أحد جلَّ وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا كما قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] .

وكل الخلق إليه ـ جلَّ اسمه ـ مُحتاج ، كما قال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] .

فالله عز وجل ليس بمحتاج إلى أحدٍ فيما خَلَق ويخلق ، ودبَّر ويدبر ويعطي ويرزق ويقضي ويمضي ، لا رادَّ لأمره وهو على ما يشاء قدير[2] .

وقال الخطَّابي : (الغني) هو الذي استغنى عن الخلق وعن نُصْرتهم وتأييدهم لمُلْكه ، فليست به حاجةٌ إليهم ، وهم إليه فقراء محتاجون كما وصف نفسه تعالى فقال عزَّ من قائل : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨][3] .

وقال الحُليمي : (الغَنيُّ) ومعناه الكامل بما له وعنده، فلا يحتاج معه إلى غيره ، وربنا جلَّ ثناؤه بهذه الصِّفة ، لأنَّ الحاجة نقصٌ ، والمحتاج عاجز عما يحتاج إليه إلى أن يبلغه ويدركه، وللمحتاج إليه فضل بوجود[4] ما ليس عند المحتاج .

---

(١) «تفسير الأسماء» (ص٦٣) .

(٢) «اشتقاق الأسماء» (ص١١٧) .

(٣) «شأن الدعاء» (ص٩٢ ـ ٩٣) .

(٤) في «المنهاج» : فوجد ، وما أثبتناه من «الأسماء» للبيهقي هو أصوب .

فالنَّقصُ مَنفيٌّ عن القديم بكلِّ حال ، والعجز غير جائز عليه ، ولا يمكن أن يكون لأحدٍ عليه فَضلٌ [1] إذ كلُّ شيءٍ سواه خَلْقٌ له وبدع أبدعه، ولا يملك من أمره شيئًا ، وإنما يكون كما يريده الله عز وجل ويدبره ، فلا يتوهم أن يكون له مع هذا اتساع لفضله عليه[2] .

وقال البيهقي : هو الذي استغنى عن الخلق ، وقيل : المتمكن من تنفيذ إرادته في مراداته ، وهذه صفةٌ يستحقها بذاته[3] .

وقال في «المقصد» : (الغني) هو الذي لا تعلُّقَ له بغيره لا في ذاته ولا في صفات ذاته ، بل يكون مُنزهًا عن العلاقة مع الأغْيار .

فمن تتعلق ذاتُه أو صفاتُ ذاتِه بأمرٍ خارجٍ من ذاته يتوقف عليه وجودُه أو كماله فهو فقير محتاج إلى الكسب .

ولا يتصور ذلك إلا لله تعالى :

قال : والغَنيُّ الحقيقي هو الذي لا حَاجة له إلى أحدٍ أصلاً ، والذي يحتاج ومعه ما يحتاج إليه فهو غَنيٌّ بالمجاز ، وهو غايةُ ما يدخل في الإمكان في حق غير الله تعالى ، فأما فَقْدُ الحاجة فلا ، ولكن إذا لم يبق له حاجةٌ إلا إلى الله تعالى سُمِّي غنيًا ، ولو لم يبق له أصل الحاجة لما صح قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ ولولا أنه لا يتصور أنْ يستغني عن كلِّ شيءٍ سوى الله لما صح لله تعالى وَصْفُ المُغني[4] .

(١) في «المنهاج» : ولا يمكن لأحد أن يكون عليه فضل ، وما أثبتناه من الأسماء ، وسيأتي بعض الاختلافات اليسيرة التي أعرضت عنها .

(٢) «المنهاج» (١/ ١٩٦) وذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٣٦ ـ ٣٧) .

(٣) «الاعتقاد» (ص ٦٥).

(٤) «المقصد» (ص٩١ ـ ٩٢) .

وقال ابن القيم :

وهو الغَنيُّ بذاتِه فَغِنَاهُ ذَا تيٌّ له كالجُودِ والإِحْسَانِ[1]

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- إن الله تعالى شأنه هو الغني بذاته ، الذي له الغِنَى التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات ، لكماله وكمال صفاته ، فلا يتطرَّق إليها نقصٌ بوجه من الوجوه .

ولا يمكن أنْ يكون إلا غنيًا ، لأنَّ غناه من لوازمِ ذاته ، كما لا يكون إلا خالقًا قادرًا رازقًا مُحسنًا ، فلا يحتاج إلى أحدٍ بوجه من الوجوه ، فهو الغني بيده خزائن السموات والأرض ، وخزائن الدنيا والآخرة ، المُغني جميع خلقه غِنًى عامًا ، والمغني لخواصٍّ خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية ، والحقائق الإيمانية [2].

فالرب سبحانه غني لذاته ، والعبد فقير لذاته محتاج إلى ربه ، لا غنىً له عنه ولو طرفة عين .

وقد ابتدأ الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين» بالكلام على هذا الأمر وتقريره وبيانه بأحسن عبارة ، إذْ يقول : «فصل : في أنَّ الله هو الغني المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه» ثم قال : قال الله سبحانه : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [فاطر: ١٥] بيَّن سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم ، كما أن كونه غنيًا حميدًا ذاتي له ، فغناه وحمده ثابتٌ له لذاته لا لأمرٍ أوجبه ، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر

---

(١) «النونية» (٢/٢١٨) .

(٢) انظر «تيسير الكريم الرحمن» (٥/٣٠٤) .

أوجبه ، فلا يُعلّل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان ، بل هو ذاتي للفقير ، فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلةٍ أوجبت تلك الحاجة ، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

والفَقْرُ وَصْفُ ذاتٍ لازمٍ أبدًا كما الغِنى أبدًا وَصْفٌ له ذاتي

فالخلق فقيرٌ محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة ، وكل ما يُذكر ويُقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا عِلَلٌ لذلك ، إذ ما بالذاتَ لا يُعلل ، فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته ، فما يُذكر من إمكان وحُدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له .

ولهذا كان الصواب في مسألة «علة احتياج العالم إلى الرب سبحانه» غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون ، فإنَّ الفلاسفة قالوا : علة الحاجة الإمكان ، والمتكلمون قالوا : علة الحاجة الحدوث ، والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان ، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار ، وفقر العالم إلى الله سبحانه أمر ذاتي لا يعلل ، فهو فقير بذاته إلى ربه الغني بذاته ، ثم يُستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر .

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه ، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه (غني حميد) فالفقر المطلق من كلِّ وجهٍ ثابتٌ لذواتهم وحقائقهم من حيث هي ، والغنى المطلق من كل وجه ثابتٌ لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي ، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرًا ، ويستحيل أن يكون الربُّ سبحانه إلا غنيًا ، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدًا والرب إلا ربًا .

[فقر العباد إلىٰ ربهم فقران] :

إذا عُرف هذا فالفقر فقران : فقر اضطراري ، وهو فقر عام لا خروجَ لبر ولا فاجر عنه ، وهذا الفقر لا يَقتضي مدحًا ولا ذمًا ولا ثوابًا ولا عقابًا ، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا .

والفقر الثاني : فقر اختياري هو نتيجة علمين شريفين : أحدهما : معرفة العبد بربه ، والثاني : معرفته بنفسه ، فمتىٰ حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرًا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته ، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين ، فمن عَرَفَ ربه بالغنىٰ المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق ، ومن عرف ربه بالقُدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام ، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة ، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل .

فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئًا ولا يقدر علىٰ شيء ، ولا يملك شيئًا ولا يقدر علىٰ عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء ألبتة ، فكان فقره في تلك الحال إلىٰ ما به كماله أمرًا مشهودًا محسوسًا لكل أحد ، ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته ، وما بالذات دائم بدوامها ، وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلىٰ رتبة الربوبية والغنىٰ ، بل لم يزل عبدًا فقيرًا بذاته إلىٰ بارئه وفاطره .

فلما أسبغ عليه نعمته ، وأفاض عليه رحمته ، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهرًا وباطنًا ، وخلع عليه ملابس إنعامه ، وجعل له السمع والبصر والفؤاد ، وعَلَّمه وأقدره وصرَّفه وحركه ومكَّنه من استخدام بني جنسه ، وسخَّر له الخيل والإبل ، وسلطه علىٰ دواب الماء ، واستنزال الطير من الهواء ، وقهر الوحش العادية ، وحفر الأنهار ، وغرس

الأشجار ، وشق الأرض ، وتعلية البناء والتَّحَيُّلِ على مصالحه ، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه ، ظنَّ المسكين أن له نصيبًا من الملك ! وادعىٰ لنفسه مُلْكًا مع الله سبحانه ! ورأىٰ نفسه بغير تلك العين الأولىٰ ، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة ! حتىٰ كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج ، بل كأن ذلك شخصًا آخر غيره .

كما روىٰ الإمام أحمد في مسنده من حديث بسر[1] بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: **«قال الله تعالىٰ : يا ابن آدمَ أنَّىٰ تُعجزني وقد خلقتكُ من مِثْلِ هذه حتىٰ إذا سَوَّيْتُكَ وعدلْتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتىٰ إذا بلغت التَّراقي قُلت : أتصدَّق ، وأنَّىٰ أوَانُ الصدقة»** [2].

ومن ها هنا خَذَلَ من خذل ووفَّق من وفق ، فحجب المخذول عن حقيقته ونسي نفسه ، فنسي فقره وحاجته وضرورته إلىٰ ربه ، فطغىٰ وعَتَا فحقَّت عليه الشقوة ، قال تعالىٰ : **﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾** [العلق: ٦، ٧] **﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝**

---

(١) في المطبوعة : بشر ، وهو خطأ .

(٢) حسن ، «المسند» (٤/ ٢١٠) وأخرجه من أربعة طرق عن حريز عن عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بسر بن جحاش القرشي به .

عبد الرحمن بن ميسرة هو الحضرمي أبو سلمة الحمصي قال ابن المديني : مجهول لم يرو عنه غير حريز ، وقال أبو داود : شيوخ حريز كلهم ثقات ، ،قال العجلي شامي تابعي ثقة وذكره ابن حبان في ثقاته .

وأخرجه ابن ماجه (٢/ ٢٧٠٧) وقال البوصيري في «الزوائد» : إسناده صحيح .

والوئيد : صوت شدة الوطء على الأرض ، والتراقي عظام بين ثغرة النحر والعاتق .

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠] فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهودًا لفقره وضرورته وحاجته إلىٰ ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، ولهذا كان من دعائه ﷺ : «**أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين ، ولا إلىٰ أحد من خلقك**»[1] .

وكان يدعو «**يا مقلِّبَ القُلُوب ثبِّت قلبي علىٰ دينك**»[2] ، يَعلَم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن عزَّ وجل لا يملك منه شيئًا ، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء ، كيف وهو يتلو قوله تعالىٰ : ﴿**وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٤] فضرورته ﷺ إلىٰ ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به ، وحسب قربه منه ومنزلته عنده .

وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاء ، ولهذا كان أقربَ الخلق إلىٰ الله وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهًا وأرفعهم عنده منزلة ، لتكميله مقام العبودية والفقر إلىٰ ربه ، وكان يقول لهم : «**أيُّها**

---

(١) حسن ، أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١) وأبو داود (٥٠٩٠) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٥١) وابن حبان (٢٣٧٠) «موارد» وابن السني (٣٤٤) عن أبي بكرة مرفوعًا : «**دعوات المكروب اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلىٰ نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت**» . وأخرجه أحمد (٥/ ٤٢) مطولاً .

وفيه جعفر بن ميمون ، ضعفه ابن معين في رواية وقال في أخرىٰ : صالح الحديث ، وقال أبو حاتم : صالح ، وقال الحافظ : صدوق يخطئ .

(٢) حديث صحيح، أخرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (٥٥)، وفي «المصنف» (١٠/ ٢٠٩) وابن أبي عاصم في السنة (٢٢٥)، وأحمد (٣/ ١١٢ ، ٢٥٧)، والترمذي (٤/ ٢١٤٠)، والآجري في «الشريعة» (ص٣١٧)، والحاكم (١/ ٥٢٦) عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس مرفوعًا به .

وإسناده حسن ، وله شواهد من حديث عائشة وأم سلمة والنواس بن سمعان خرجتها مع الكلام عليها في كتابنا «إبطال التأويلات» في الجزء الثاني منه .

الناس، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي إنَّما أنا عبد»[1] .

وكان يقول : «**لا تُطْرُوني كما أَطْرَت النصارىٰ المسيحَ بنَ مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**»[2] ، وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته، مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً** ﴾ [الإسراء: ١]﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** ﴾ [الجن: ١٩] ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا** ﴾ [البقرة: ٢٣] ، وفي حديث الشفاعة : «**إنَّ المسيح يقول لهم اذهبوا إلىٰ محمد عبد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر**» ، فنال ذلك المقام بكمال عبوديته وبكمال مغفرة الله له .

فتأمل قوله تعالىٰ في الآية: ﴿ **أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ** ﴾ [فاطر: ١٥] باسم الله دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر ، فإنه كما تقدم نوعان : فقر إلىٰ ربوبيته وهو فقر المخلوقات بأسرها ، وفقر إلىٰ ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين ، وهذا هو الفقر النافع، والذي يشير إليه القوم ويتكلمون عليه ويشيرون إليه هو الفقر الخاص لا العام ، وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له كلٌّ أخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته علىٰ التعبير[3].

---

(١) أخرجه الطبراني (٣/ ١٢٨/ ح٢٨٨٩)، والحاكم (٣/ ١٧٩) عن علي بن الحسين عن أبيه قال: أحبونا بحب الإسلام فإن رسول الله ﷺ قال: «**لا ترفعوني فوق حقي فإن الله تعالىٰ اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً**» قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢١) وإسناده حسن .

(٢) أخرجه الحميدي (٢٧) وعنه البخاري (٦/ ٤٧٨) عن سفيان سمعت الزهري يقول أخبرني عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس سمع عمر يقول علىٰ المنبر فذكره .
وأخرجه البخاري (١٢/ ١٤٤) عن عبد العزيز بن عبد الله حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن الزهري به مطولا .

(٣) «طريق الهجرتين» (ص ٨-١١) وقد أطنب بعد ذلك في بيان الفقر وحقيقته ودرجاته =

٢- الله تبارك وتعالىٰ غني عن عباده ، ومع ذلك فهو محسنٌ إليهم ، رحيم بهم ، وهذا من كمال غناه وكرمه ورحمته .

أما العباد فإنهم يحسنون إلىٰ بعضهم البعض لتعلق مصالحهم بذلك إما عاجلاً وإما آجلاً .

يقول ابن القيم رحمه الله في هذا ، مبينًا الفرق بين إحسان الخالق وإحسان المخلوق: إن الله سبحانه غنيٌّ كريم ، عزيز رحيم ، فهو محسن إلىٰ عبده مع غناه عنه، يُريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد ، ولا لدفع مضرة ، بل رحمة منه وإحسانًا ، فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثَّر بهم من قِلَّة ، ولا ليعتزَّ بهم من ذِلَّة ، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه ، ولا ليدفعوا عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] وقال تعالىٰ: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾ [الإسراء: ١١١] فهو سبحانه لا يُوالي من يواليه من الذل كما يوالي المخلوق المخلوق، وإنما يُوالي أولياءه إحسانًا ورحمة ومحبة لهم.

وأما العباد فإنهم كما قال تعالىٰ : ﴿**وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ**﴾ [محمد: ٣٨] فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يُحسن بعضهم إلىٰ بعض لحاجته إلىٰ ذلك وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً ، ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه ، فهو في الحقيقة إنما أرادَ الإحسان إلىٰ نفسه ، وجعل إحسانه إلىٰ غيره وسيلةً وطريقًا إلىٰ وصول نفع ذلك الإحسان إليه ، فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل ، فهو محتاج إلىٰ ذلك الجزاء ، أو معاوضة بإحسانه ،

= والغنىٰ بالله تعالىٰ ودرجاته ، فراجعه إن شئت .

أو لتوقع حمده وشكره ، وهو أيضًا إنما يحسن إليه ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح ، فهو محسن إلى نفسه بإحسانه إلى الغير .

وإما أن يريد الجزاء من الله تعالى في الآخرة ، فهو أيضًا محسن إلى نفسه بذلك ، وإنما أخَّر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته ، فهو غير ملوم في هذا القصد ، فإنه فقير محتاج ، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أنْ يحرص على ما ينفعه ولا يعجز عنه ، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧] . وقال : ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢] .

وقال تعالى ، فيما رواه عنه رسوله ﷺ : **«يا عبَادي إنَّكم لنْ تَبلُغُوا نَفعي فتنفعوني ، ولنْ تَبْلُغوا ضَرِّي فتَضروني ، يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ، ثم أوفِّيكم إيّاها ، فَمنْ وَجَدَ خيرًا فليحمد الله ، ومَنْ وَجَدَ غيرَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسه»** [1].

فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول ، بل إنما يقصد انتفاعه بك ، والرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه بك[2] وذلك منفعة محضة لك خالصة من المضرة ، بخلاف إرادة المخلوق نفعك ، فإنه قد يكون فيه مضرة عليك ، ولو بتحمل مِنَّته .

فتدبر هذا فإن مُلاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله عز وجل ، أو تطلب منه نفعًا ، أو دفعًا أو تعلق قلبك به ، فإنما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك ، وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض ، وهو حال الولد مع والده ، والزوج مع زوجه ، والمملوك مع سيده ،

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٤/ ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه وقد ساقه ابن القيم هنا مختصراً .

(٢) في الأصل : به ، وهو خطأ.

والشريك مع شريكه ، فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم ، وأحسن إليهم لله تعالى ، وخاف الله تعالى فيهم ، ولم يخفهم مع الله تعالى ، ورجا الله تعالى بالإحسان إليهم ولم يرجهم مع الله ، وأحبهم لحب الله، ولم يحبهم مع الله تعالى ، كما قال أولياء الله عز وجل : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ [الإنسان: ٩] .

الوجه التاسع : أن العبد المخلوق لا يعلم مصلحتك حتى يُعرِّفه الله تعالى إياها، ولا يقدر على تحصيلها لك، حتى يقدره الله تعالى عليها، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه إرادة ومشيئة، فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه، وهو الذي بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فتعلُّق القلب بغيره رجاء وخوفًا وتوكلاً وعبودية : ضررٌ محض ، لا منفعة فيه ، وما يحصل بذلك من المنفعة فهو سبحانه وحده الذي قَدَّرها ويسَّرها وأوصلها إليك .

الوجه العاشر : أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم منك ، وإنْ أضرَّ ذلك بدينك ودنياك ، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك، والرب تبارك وتعالى إنما يريدك لك، ويريد الإحسان إليك لك لا لمنفعته، ويريد دفع الضرر عنك ، فكيف تعلُّق أملك ورجاءك وخوفك بغيره ؟ وجماع هذا أن تعلم «**أن الخلق كلَّهم لو اجْتَمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يَنْفَعُوكَ إلا بشيء قد كَتَبه الله لك ، ولو اجتمعوا كلهم على أن يضـــرُّوك بشيء لم يضرُّوكَ إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك**»[1] .

(١) حديث صحيح : اخرجه احمد (١/٢٩٣) والترمذي (٢٥١٦) وأبو يعلى في مسنده (٢٥٥٦) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٢٥) .

عن حنش الصنعاني عن ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال : «**يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك ..**» قال الترمذي : حسن صحيح .

قلت : وإسناده حسن ، وله طرق أخرى يكون بها صحيحًا لغيره .

قال الله تعالى : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١] [١].

* * *

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ٤١ ـ ٤٢) وهو خاتمة الباب السادس : في أنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح ، إلا بأن يكون الله هو إلهه وفاطره وحده ، وهو معبوده وغاية مطلوبه ، وأحب إليه من كل ما سواه .

النُّــــورُ
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه

(٨٦)

*** المعنى اللغوي :**

النُور : الضِيَاءُ ، والجمع أنوارٌ .

وأنارَ الشيء واستَنَار بمعنًى ، أي : أضاءَ .

والتَّنْوير : الإنارة ، والتنوير : الإسْفَار .

والنَّوْرُ: نور النبات وزهره .

والنُّور أيضًا : النُفَّرُ من الظباء ، ونسوةٌ نُورٌ ، أي: نُفَّرٌ من الرِّيبة [1].

*** وروده في القرآن الكريم:**

ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥] : هادي من في السموات والأرض ، فهم بنوره إلى الحق يهتدون ، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون» .

ثم نقل أقوال المفسرين في الآية ، فمنهم من قال إن معناها : الله

---

(١) «الصحاح» (٢/٨٣٨ ـ ٨٣٩) و«اللسان» (٦/٤٥٧١ ـ ٤٥٧٥) مادة (نور) و«اشتقاق الأسماء» (ص١٨٤ ـ ١٨٥) .

مدبر السموات والأرض ، ومنهم من قال : ضياء السموات والأرض[1].

ثم قال بعد ذلك : وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في ذلك ، لأنه عقيب قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [النور: ٣٤] فكان ذلك بأن يكون خبرًا عن موقع يقع تنزيله من خلقه ، ومِنْ مَدْحِ ما ابتدأ بذكر مَدْحِهِ أولى وأشبه ، ما لم يأتِ ما يدل على انقضاء الخبر عنه من غيره .

فإذا كان ذلك كذلك فتأويل الكلام : ولقد أنزلنا إليكم أيها الناس آياتٍ مُبيناتِ الحقَّ من الباطل ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظةً للمتقين ، فهديناكم بها وبيَّنا لكم معالم دينكم بها ، لأني هادي أهلَ السموات وأهل الأرض .

وتَرَكَ وصل الكلام باللام وابتدأ الخبر عن هداية خلقه ابتداءً ، وفيه المعنى الذي ذكرتُ استغناءً بدلالة الكلام عليه من ذكره ، ثم ابتدأ في الخبر عن مَثَلِ هدايته خلقه بالآيات المبينات التي أنزلها إليهم فقال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ .. ﴾ [النور: ٣٥][2].

وقال الزجاج : اختلفوا في قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فقال بعضهم : الله ذو نور السموات والأرض ، يريد : أنه خالق هذا النور الذي في الكواكب كلِّها ، لا أنه ضياءٌ لها وأنوار لأجسامها ! بل أنوارٌ تنفصل من أنوار الله تعالى .

ويقال : إن حول العرش أنوارٌ لو انفصلت منها شرارة على الأرض

---

(١) الأول رواه عن ابن عباس ، وفي سنده الحسين بن داود (سنيد) عن حجاج ، وقد ضعف الحسين لكونه كان يلقن شيخه حجاج بن محمد ، والثاني رواه عن أبي بن كعب وفي سنده: أبو جعفر الرازي وهو سيء الحفظ .

(٢) «جامع البيان» (١٨/ ١٠٥) .

لاحترقت الأرض ومن عليها!

وقال بعضهم : بل معنى قوله : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : أنه بما بيَّن وأوضح بحججه وبراهينِ وحدانيته نَوَّر السموات والأرض .

فتقدير الكلام على هذا : معرفة الله : ﴿نُورُ السَّمَوَاتِ﴾ أو أدلته : نورُها ، أو براهينه ، لا يجوز غيرُ هذا !! [1].

وقال تلميذه الزَّجَّاجي : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : يهتدي بنوره من في السموات ومن في الأرض ، أي : بآياته وأعلامه الدالَّة عليه، والبراهين الواضحة النيرة ، يهتدي أهل السموات والأرض إلى توحيده ، والإقرار بربوبيته ، وتنزيهه من الأنداد والأمثال عز وجل [2].

وقال الخطَّابي : (النور) هو الذي بنوره يُبْصِرُ ذو العَمَاية ، وبهدايته يَرْشُدُ ذو الغَوَاية ، وعلى مثل هذا يتأوَّل قوله جل وعز : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي : منه نور السموات والأرض .

ولا يجوز أن يُتَوهَّم أن الله تعالى نورٌ من الأنوار ، وأن يعتقد ذلك فيه سبحانه !! فإن النور تُضَادُّه الظُّلْمة ، وتُعاقبه فتزيلُه ، وتعالى الله أن يكون له ضدٌّ أو ندٌّ![3] .

وقد يحتملُ أن يكون معناه: ذو النور، إلا أنَّه لا يصحُّ أن يكون النور صفة ذاتٍ له ! كما يصح ذلك من اسم السلام إذا قلنا إنه : ذو السلام .

وإنما يكون ذلك صفة فعلٍ على معنى إضافة الفعل إليه ، إذْ هو خالقُ النور ومُوجده[4] .

---

(1) «تفسير الأسماء» (ص٦٤) .

(2) «اشتقاق الأسماء» (ص١٨٢) .

(3) سيأتي الرد على هذا الكلام .

(4) «شأن الدعاء» (ص٩٥) .

وقال الحليمي : وهو الهادي لا يَعلم العباد إلا ما عَلَّمهم ، ولا يُدْركون إلا ما سَهَّل[1] لهم إدراكه ، فالحواس والعقل فطرته وخلقه وعطيته[2].

وقال البيهقي : (النور) هو الهادي ، وقيل المنوِّر ، وهو من صفات فعله ، وقيل : هو الحق ، وقيل : هو الذي لا يخفى على أوليائه بالدليل وتصح رؤيته بالأبصار .

وهذه صفة يستحقها الباري تعالى بذاته[3] .

وقال في «المقصد» : (النور) هو الظاهر الذي به كل ظهور ، فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نوراً [4] .

وقال ابن العربي مُلخصًا الأقوال في بيان معنى الاسم : وقد اختلف الناس بعد معرفتهم بالنور في وصف الخالق سبحانه بأنه (نور) على ستة أقوال :

الأول : معناه : هادي ، قاله ابن عباس .

الثاني : معناه : مُنَوِّر ، قاله ابن مسعود ، وروي أن في مُصحفه «منور السموات والأرض» .

الثالث : أنه مُزَيِّن ، وهو يرجع إلى معنى منور ، قاله أبي بن كعب .

الرابع : أنه ظاهر .

الخامس : أنه ذو النور .

---

(١) في «الأسماء» للبيهقي : «ما يسَّر».

(٢) «المنهاج» (١/٢٠٧) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٨١) .

(٣) «الاعتقاد» (ص٦٦) .

(٤) (ص٩٣) .

السادس : أنه نُورٌ لا كالأنوار، قاله الشيخ أبو الحسن الأشعري .

قال : وقالت المعتزلة : لا يقال : إنه نور إلا بالإضافة . قال: والصحيح عندنا أنه نورٌ لا كالأنوار لأنَّه الحقيقة والعدول عن الحقيقة إلى نور هادي ، أو مُنور ، أو ما أشبه ذلك ، مَجازٌ من غير دليل لا يَصحُّ ! ولأنَّ الأثر يعضده ، ويصح أن يكون على هذه صفة ذاتٍ ، ويصح أن يكون صفة فعلٍ على معنى أنه ظاهر ، إذ روح النور : البيان والظهور[1].

وقال السعدي : (النور): نور السموات والأرض ، الذي نوَّر قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به ، ونَوَّر أفئدتهم بهدايته ، وهو الذي أنارَ السموات والأرْض بالأنوار التي وضعها ، وحجابه النُّور لوكشفه لأحرقت سُبُحَات وجهه ما انتهى إليه بصرهُ من خلقه[2].

وقال ابن القيم :

والنُّور من أسمائه أيضًا ومن ... أوصَافه سبحانَ ذي البرهانِ

قال ابنُ مسعود كلامًا قد حكَا ... ه الدَّارمي عنه بلا نُكْرانِ[3]

ما عِندَه ليلٌ يكونُ ولا نَها ... رٌ قلتُ تحتَ الفلكِ يُوجَدُ ذَان

نُورُ السَّموات العُلى من نُورِهِ ... والأرض كيف النَّجْمُ والقَمَران

مِن نُورِ وَجْه الرَّبِّ جلَّ جلاله ... وكذا حكَاه الحافظُ الطَّبراني

فبه استَنَار العَرْشُ والكُرسي مع ... سَبْعِ الطِّباقِ وسائر الأكْوانِ

وكتابه نورٌ كـذلك شَـرْعُهُ ... نُورٌ كذا المبعُوثُ بالفُرْقَان

---

(١) «الكتاب الأسنى» (ورقة٣٩٦أ) وكلامه الأخير نفيس ، وسيأتي تقريره .

(٢) «تيسير الكريم» (٥/٣٠٣) .

(٣) يأتي تخريجه والكلام عليه .

وكذلك الإيمانُ في قلب الفتى نُورٌ على نورٍ مع القُرآن

وحجابه نُورٌ فلو كَشَفَ الحجَا بَ لأحْرَقَ السُّبُحَاتُ للأكْوان

وإذا أتى للفَصْل يُشْرِقُ نُورُه في الأرض يومَ قيامةِ الأبدان

وكذاك دار الربِّ جنات العُلى نُورٌ تَلألأ ليس ذا بُطلان

والنور ذو نوعين مخلوقٌ وَوَصْـ ـفٌ ما هما والله مُتَّحِدان

وكذلك المخلوق ذو نوعين محـ ـسوس ومعقول هما شيئان

احْذَر تَزِل فتحتَ رجلك هُوَّة كم قد هَوَىٰ فيها على الأزمان

من عَابدٍ بالجَهل زَلَّتْ رِجْلُه فهي إلى قَعر الحَضِيض الدَّاني

لاحتْ له أنوارُ آثارِ العبا دة ظنها الأنوار للرَّحْمن

فأتى بكلِّ مُصيبةٍ وَبلية ما شئتَ مِنْ شَطَحٍ ومن هَذَيان[1]

وكـــذا الحُلُــوليُّ هــو خَدْنه من ها هنا حقًّا هما أخَوَان

ويُقابل الرجلين ذو التعطيل والحُجُب الكثيفة ما هما سيان

ذا في كَثَافة طَبْعه وظلامه وبظلمة التَّعطيل هذا الثاني

والنُّور مَحجوبٌ فلا هذا ولا هذا له من ظلمة يريان[2]

---

(١) قال في «مدارج السالكين» ـ كما في «شرح النونية» ـ : ولا سبيل لأحدٍ قط في الدنيا إلى مشاهدة (الحق) وإنما وصوله إلى شواهد الحق ، ومن زعم غير هذا فلغلبة الوهم عليه ، وحسن ظنه بترهات القوم وخيالاتهم . قال: ولا ريب أن القلوب تشاهد أنواراً بحسب استعدادها ، تقوى تارة وتضعف تارة ، ولكن تلك أنوار الأعمال والإيمان والمعارف ، وصفاء البواطن والأسرار ، لا أنها نور الذات المقدسة! فإن الجبل لم يثبت لليسير من ذلك النور حتى تدكدك ، وخرَّ الكليم صعقًا مع عدم تجليه له ، فما الظن بغيره؟!.

(٢) «النونية» (٢/٢٣٧ ـ ٢٣٩) .

❋ من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١- أن (النُّور) صفةٌ من صفات ربنا سبحانه وتعالىٰ ، ومنه اشتق اسم (النُّور) الذي هو أحد الأسماء الحسنىٰ [١].

وقد أضاف الله تعالىٰ النور إلىٰ نفسه إضافة الصفة إلىٰ موصوفها في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] .

وكذا في قوله : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ..﴾ [النور: ٣٥].

فإن الضمير عائد إلىٰ الله علىٰ الصحيح من أقوال المفسرين[٢] .

وقد قرَّر شيخ الإسلام ابن تيمية وصف الله تعالىٰ بالنور ، ثم شرع يُبينٌ أن ما ذكره المفسرون من أنَّ معنىٰ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] : هادي أهلَ السموات والأرض ، لايمنع من كونه في نفسه نُورًا ، يقول رحمه الله :

ثم نقول : هذا القول الذي قاله بعض المفسرين في قوله : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي : هادي أهلَ السموات والأرض ، لا يضرنا ، ولا يخالف ما قلناه ، فإنهم قالوه في تفسير الآية التي ذُكر النور فيها مضافًا ، لم يذكروه في تفسير نور مطلق ، كما ادعيتَ أنتَ من ورود الحديث به ، فأين هذا من هذا ؟!! .

ثم قول من قال من السلف : هادي أهل السموات والأرض لا يمنع أنْ يكون في نفسه نورًا : فإن من عادة السلف في تفسيرهم أنْ يذكروا بعض «صفات المفَسَّر» من الأسماء ، أو بعض أنواعه ، ولا ينافي ذلك

(١) انظر: «اجتماع الجيوش الإسلامية» لابن القيم (ص٧) ط دار المعرفة ، و(ص٤٥) تحقيق عواد المعتق .

(٢) وسيأتي كلام ابن القيم عليها .

ثبوت بقية الصفات للمسمى ، بل قد يكونان متلازمين ، ولا دخول لبقية الأنواع فيه .

وهذا قد قررناه غير مرة في القواعد المتقدمة ، ومن تدبره علم أنَّ أكثر أقوال السلف في التفسير مُتفقةٌ غير مختلفة ، مثال ذلك قول بعضهم في ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] : إنه الإسلام ، وقول آخر : إنه القرآن، وقول آخر: إنه السُّنة والجماعة، وقول آخر : إنه طريقُ العبودية، فهذه كلها صفات له مُتلازمة ، لا متباينة ، وتسميته بهذه الأسماء بمنزلة تسمية القرآن والرسول بأسمائه : بل بمنزلة أسماء الله الحسنى .

فقول من قال : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هادي أهل السموات والأرض كلام صحيح ، فإنَّ من معاني كونه نور السموات والأرض أنْ يكون هاديًا لهم ، أما إنهم نفوا ما سوى ذلك فهذا غير معلوم ، وأما إنهم أرادوا ذلك فقد ثبت عن ابن مسعود أنه قال: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور السموات من نور وجهه»[1] .

---

(١) أخرجه الدارمي في «النقض على بشر المريسي» (ص١٦٧) عن حماد بن سلمة عن الزبير أبي عبد السلام عن أيوب بن عبد الله الفهري عن ابن مسعود وفيه : «وإنه ليس من نور مخلوق إلا وله منزل ومنظر ! فكيف النور الأعظم خالق الأنوار».

وفيه أبو عبد السلام الزبير ، ذكره ابن أبي حاتم (٣/ ٥٨٤) ولم يحك فيه شيئًا ، وكذا ابن معين وذكره ابن حبان في «الثقات». «تعجيل المنفعة» (ص١٣٥) .

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ١٧٩/ ح٨٨٨٦) مطولاً عن أبي عبد السلام عن عبد الله أو عبيد الله بن مكرز عن ابن مسعود .

قال الهيثمي (١/ ٨٥) : وفيه أبو عبد السلام قال أبو حاتم: مجهول ، وقد ذكره ابن حبان في «الثقات» ، وعبد الله بن مكرز أو عبيد الله على الشك لم أر من ذكره .

كذا وقع عندهما : عبد الله بن مكرز! وصوابه : أيوب بن عبد الله بن مكرز ، فإنه الذي يروي عنه أبو عبد السلام ، كما في «التعجيل» .

وقد تقدم عن النبي ﷺ من ذكر نور وجهه ، وفي رواية (النور) ما فيه كفاية[1] فهذا بيان معنى غير الهداية .

وقد أخبر الله في كتابه أنَّ الأرض تُشرق بنور ربها ، فإذا كانت تشرق من نوره كيف لا يكون هو نُورًا ؟ ولا يجوز أنْ يكون هذا النور المضاف إليه إضافة خلق وملك واصطفاء ـ كقوله: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ ونحو ذلك ـ لوجوه :

أحدها : أنَّ النور لم يُضَفْ قطُّ إلى الله إذا كان صفةً لأعيان قائمة ، فلا يقال في المصابيح التي في الدنيا : إنها نُور الله ، ولا في الشمس والقمر ، وإنما يقال كما قال عبدالله بن مسعود: «إنَّ ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه» وفي الدعاء المأثور عن النبي ﷺ: **«أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصَلُح عليه أمر الدنيا والآخرة»** [2].

الثاني : أن الأنوار المخلوقة كالشمس والقمر تشرق لها الأرض في

---

(١) سيأتي ذكر الحديث .

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» ـ كما في «المجمع» (٦/ ٣٥) ـ وفي الدعاء (١٠٣٦) وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢١٢٤) عن وهب بن جرير بن حازم ثنا أبي عن محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن جعفر قال : لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ إلى الطائف ماشيًا على قدميه فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه ، فانصرف فأتى ظِلَّ شجرة فصلى ركعتين ثم قال : **«اللهم إليك أشكو ضَعفَ قوتي وقلةَ حيلتي وهَوَاني على الناس ، أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين ، إلى من تكلني إلى عدوٍ يتجهمني ، أو إلى قريب ملكته أمري ، إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك ، أو تحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»** لفظ الطبراني .

قال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات .

الدنيا ، وليس من نور إلا وهو خلق من خلق الله ، وكذلك من قال : مُنوِّر السموات والأرض لا ينافي أنه نور، وكل مُنور نور، فهما متلازمان.

ثم إن الله تعالىٰ ضرب مثل نوره الذي في قلوب المؤمنين بالنُّور الذي في المصباح ، وهو في نفسه نور ، وهو مُنَوِّرٌ لغيره ، فإذا كان نوره في القلوب هو نور ، وهو منور ، فهو في نفسه أحقُّ بذلك ، وقد علم أن كل ما هو نور فهو منور .

وأما قولُ من قال : معناهُ منور السموات بالكواكب : فهذا إنْ أراد به قائله أنَّ ذلك من معنىٰ كونه نور السموات [فهو مُحق] ، وإنْ أراد به ليس لكونه نور السموات والأرض معنىٰ إلا هذا فهو مبطل ، لأن الله أخبر أنه نور السموات والأرض ، والكواكب لا يحصل نورها في جميع السموات والأرض .

وأيضًا فإنه قال : ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] : فضرب المثل لنوره الموجود في قلوب المؤمنين ، فعلم أنَّ النور الموجود في قلوب المؤمنين ـ نور الإيمان والعلم ـ مراد من الآية ، لم يضربها علىٰ النور الحسي الذي يكون للكواكب ، وهذا هو الجواب عما رواه عن ابن عباس في رواية أخرىٰ ، وأبي العالية والحسن ، بعد المطالبة بصحة النقل، والظن ضعفه عن ابن عباس لأنهم جعلوا ذلك من معاني النور ، أما أنهم يقولون قوله : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] ليس معناه إلا التنوير بالشمس ، والقمر والنجوم ! فهذا باطلٌ قطعًا .

وقد قال ﷺ : «**أنتَ نُورُ السَّموات والأرض ومن فيهن**» ومعلوم أنَّ العميان لا حظ لهم في ذلك ، ومن يكون بينه وبين ذلك حجابٌ لا حظ له في ذلك ، والموتىٰ لا نصيب لهم من ذلك ، وأهل الجنة لا نصيب

لهم من ذلك ، فإن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر ، كيف وقد روىٰ أنَّ أهل الجنة يعلمون الليل والنهار بأنوار تظهر من العرش ، مثل ظهور الشمس لأهل الدنيا فتلك الأنوار خارجة عن الشمس والقمر[1] .

٢- تقدم قول الخطابي : «ولا يجوز أن يُتوهم أن الله تعالىٰ نورٌ من الأنوار ، وأن يعتقد ذلك فيه سبحانه ، فإن النور تُضاده الظُّلمة ، وتعاقبه فتزيله ، وتعالىٰ الله أن يكون له ضدٌّ أو نِدٌّ!» .

وقد ردَّ علىٰ هذه الشبهة ، وبيَّن أنها ناتجة من سوء الفهم : شيخ الإِسلام رحمه الله بقوله :

وأما قول المعترض: النور ضد الظلمة وجلَّ الحق أن يكون له ضد! .

فيقال له: لم تفهم معنىٰ الضد المنفي عن الله، فإن «الضِّدَّ» يُراد به ما يمنع ثبوت الآخر، كما يقال في الأعراض المتضادة مثل السواد والبياض.

ويقول الناس : الضدان لا يجتمعان ، ويمتنع اجتماع الضدين ، وهذا التضاد عند كثير من الناس لا يكون إلا في «الأعراض» وأما «الأعيان» فلا تضاد فيها ، فيمتنع عند هذا أن يقال : لله ضد ، أو ليس له ضد ، ومنهم من يقول يتصور التضاد فيها ، والله تعالىٰ ليس له ضد يمنع ثبوته ووجوده بلا ريب ، بل هو القاهر الغالب الذي لا يغلب .

وقد يراد «بالضد» المعارض لأمره وحكمه ، وإن لم يكن مانعًا من وجود ذاته ، كما قال النبي ﷺ: **«مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُون حَدٍّ مِنْ حُدودِ الله فقد ضَادَّ الله في أمره»** رواه أبو داود[2] وتسمية المخالف لأمره

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٣٩٠ ـ ٣٩٣) باختصار .

(٢) إسناده صحيح : «السنن» (٤/ ٣٥٩٧) وأخرجه أحمد (٢/ ٧٠) والحاكم (٢/ ٢٧) والبيهقي (٦/ ٨٢)، (٨/ ٣٣٢) من طرق عن زهير حدثنا عمارة بن غزية عن يحيىٰ بن راشد قال: =

وحكمه ضدًا كتسميته عدوًا .

وبهذا الاعتبار فالمعادون المضادون لله كثيرون ، فأما على التفسير الأول فلا ريب أنه ليس في نفس الأمر مُضادّ لله ، لكن التضاد يقع في نفس الكفار فإن الباطل ضد الحق ، والكذب ضد الصدق ، فمن اعتقد في الله ما هو منزه عنه كان هذا ضدًا للإيمان الصحيح به .

وأما قوله : النور ضد الظلمة ـ وجلَّ الحق أن يكون له ضد ـ فيقال له: والحي ضد الميت ، والعليم ضد الجاهل ، والسميع والبصير والذي يتكلم ، ضد الأصم الأعمى الأبكم ، وهكذا سائر ما سمى الله به من الأسماء لها أضداد ، وهو منزهٌ عن أن يُسمى بأضدادها ، فجلَّ الله أنْ

= جلسنا لعبد الله بن عمر فخرج إلينا فجلس فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**من حالَتْ شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضادَّ الله ، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه لم يَزلْ في سخط الله حتى يَنْزِع عنه ، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله رَدْغَة الخبال حتى يخرج مما قال**».

ورجاله ثقات ، وأخرجه أبو داود (٤/٣٥٩٨) وعنه البيهقي (٦/ ٨٢) وفيه : مطر الورَّاق: ضعيف ، والمثنى بن يزيد: مجهول ، وأخرجه البيهقي (٨/ ٣٣٢) من وجه آخر عن مطر وفيه : سعيد بن بشير. وأخرجه أحمد (٢/ ٨٢) عن أيوب بن سليمان عن ابن عمر بنحوه وفيه اختلاف ، وأيوب فيه جهالة. «التعجيل» (ص٤٧) .

وهو حسن لغيره ، وقد أطال الكلام عليه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله (٥٥٤٤) وفيه فوائد.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢١٠/ح١٣٠٨٤) والحاكم (٤/٣٨٣) عن عبد الله بن جعفر عن مسلم بن أبي مريم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن ابن عمر مرفوعًا الجملة الأولى منه فقط .

قال الهيثمي (٦/ ٢٥٩) : رواه الطبراني وفيه عبد الله بن جعفر المديني وهو متروك وللحديث شاهد من حديث أبي هريرة وآخر من حديث أبي الدرداء ، انظر: «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٥٩) .

يكون ميتًا ، أو عاجزًا أو فقيرًا ونحو ذلك .

وأما وجود مخلوق له موصوف بضد صفته : مثل وجود الميت والجاهل ، والفقير والظالم ، فهذا كثير ، بل غالب أسمائه لها أضداد موجودة في الموجودين .

ولا يقال لأولئك إنهم أضداد الله ، ولكن يقال إنهم موصوفون بضد صفات الله ، فإن التضاد بين الصفات إنما يكون في المحل الواحد لا في محلين ، فمن كان موصوفًا بالموت ضادته الحياة ، ومن كان موصوفًا بالحياة ضاده الموت ، والله سبحانه يمتنع أن يكون ظُلْمةً أو موصوفًا بالظُّلمة، كما يمتنع أنْ يكون ميتًا أو موصوفًا بالموت .

فهذا المعترض أخَذَ لفظ «الضد بالاشتراك» ولم يميز بين الضد الذي يضاد ثبوته ثبوت الحق وصفاته وأفعاله ، وبين أنْ يكون في مخلوقاته ما هو موصوف بضد صفاته ، وبين ما يضاده في أمره ونهيه ، فالضد الأول هو الممتنع ، وأما الآخران فوجودهما كثير ، لكن لا يقال إنه ضد لله ، فإن المتصف بضد صفاته لم يضاده .

والذين قالوا : «النور ضد الظلمة» قالوا يمتنع اجتماعهما في عين واحدة ، لم يقولوا : إنه يمتنع أنْ يكون شيءٌ موصوفًا بأنه نور وشيء آخر موصوفًا بأنه ظلمة ، فليتدبر العاقل هذا التعطيل والتخليط .

[اعتراض المعترض أن يكون الرب تعالى نورًا]:

وأما قوله : لو كان نورًا لم يجز إضافته إلى نفسه في قوله ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ فالكلام عليه من طريقين :

أحدهما: أن نقول : النص في كتاب الله وسنة رسوله قد سمى الله نور السموات والأرض ، وقد أخبر النص أنَّ الله نورٌ ، وأخبر أيضًا أنه يحتجب بالنور ، فهذه ثلاثة أنوار في النص وقد تقدم ذكر الأول .

وأما الثاني: فهو في قوله : ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] وفي قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ وفيما رواه مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَه في ظُلْمة ، وألقى عليهم مِنْ نُوره ، فَمَنْ أصَابَه مِنْ ذلك النُّورِ اهْتَدَىٰ ومَنْ أَخْطَأه ضَـلّ»[1].

---

(١) حديث صحيح ، وقوله : (رواه مسلم) وهم منه رحمه الله ! إنما الحديث رواه أحمد (٢/ ١٧٦) والحاكم (١/ ٣٠) عن معاوية بن عمرو ثنا أبو إسحاق الفزاري ثنا الأوزاعي حدثني ربيعة ابن يزيد عن عبد الله بن الديلمي قال : دخلت على عبد الله بن عمرو وهو في حائط له بالطائف يقال له الوهط وهو محاضر فتى من قريش يزن بشرب الخمر ، فقلت : بلغني عنك حديث إن من شرب شربة خمر لم يقبل الله له توبة أربعين صباحًا ، وإن الشقي من شقي في بطن أمه . . الحديث وفيه قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله خلق خلقه في ظلمة..**» وعند الحاكم : ربيعة بن يزيد مقرونًا بيحيى بن أبي عمرو .

ورجاله ثقات ، عبد الله بن الديلمي هو ابن فيروز تابعي ثقة .

وأخرجه ابن حبان (١٨١٢ ـ زوائد) والآجري في «الشريعة» (ص١٧٥) من طريقين عن الأوزاعي به .

وأخرجه ابن حبان (١٨١٣) عن ابن وهب حدثني معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد . . فذكر بإسناده نحوه.

وأخرجه أحمد (٢/ ١٩٧) عن محمد بن مهاجر أخبرني عروة بن رُويم عن ابن الديلمي به، ومحمد بن مهاجر: هو الشامي ثقة ، وعروة: تابعي ثقة .

وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٦٤٢) والآجري في «الشريعة» (ص١٧٥) عن إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبي عمرو السيباني عن عبد الله الديلمي قال : سمعت ابن عمرو يقول فذكره وزاد : فلذلك أقول : «جَفَّ القلم على علم الله عز وجل» .

قال الترمذي : حديث حسن .

وهو كما قال ، إسماعيل بن عياش صدوق في روايته عن أهل بلده ، وهذه منها ، فإن يحيى بن أبي عمرو السيباني – وهو بالسين المهملة قال في الخلاصة : سيبان بطن من حمير، ووقع في الترمذي والآجري الشيباني وهو خطأ – حمصي ثقة .

ولم يتفرد به إسماعيل، بل تابعه عليه أيوب بن سويد ، وهو صدوق يخطئ: أخرجه البزار (٢١٤٥ ـ زوائد). وقال الهيثمي (٧/ ١٨٥): رواه أحمد والبزار والطبراني ورجاله رجال الصحيح .

ومنه قوله ﷺ في دعاء الطائف : «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك ، أو يحلَّ عليّ غضبك**» رواه الطبراني وغيره . ومنه قول ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور السموات من نور وجهه .

ومنه قوله : ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : «**إنَّ الله لا ينام ولا ينبغي له أنْ يَنَام ، يخفضُ القسْطَ يُرفع إليه عملُ الليل قبلَ عملِ النهار ، وعملُ النَّهارِ قبل عملِ الليـلِ ، حجَابُه النور ـ أو النار ـ لو كشفه لأحْرقَتْ سبُحَاتُ وجْهه ما أدْرَكه بَصَرُه مِنْ خَلْقه**»[1] فهذا الحديث فيه ذِكْر حجابه .

فإنَّ تردد الراوي في لفظ «النار والنور» لا يمنع ذلك ، فإن مثل هذه النار الصافية التي كلم بها موسى يقال لها نار و نور ، كما سمى الله نار المصباح نورًا ، بخلاف النار المظلمة كنار جهنم فتلك لا تسمى نورًا .

فالأقسام ثلاثة : «إشراق بلا إحراق» وهو النور المحض كالقمر . و«إحراق بلا إشراق» وهي النار المظلمة ، و«ما هو نار و نور» كالشمس، ونار المصابيح التي في الدنيا توصف بالأمرين ، وإذا كان كذلك صح أنْ يكون نور السموات والأرض ، وأنْ يضاف إليه النور ، وليس المضاف هو عين المضاف إليه.

الطريق الثاني : أن يُقال : هذا يرد عليكم ، لا يختص بمن يسميه

---

(١) «صحيح مسلم» (١/ ١٦١ ـ ١٦٢) وأخرجه أحمد (٤/ ٤٠٥) وابن ماجه (١/ ٧٠) وابن خزيمة في «التوحيد» (١٩، ٧٥) والآجري في «الشريعة» (ص٣٠٤) كلهم عن الأعمش عن عمرو ابن مرة عن أبي عبيدة عن أبي موسى رضي الله عنه .

وعند مسلم الروايتان معًا : «حجابه النور» و «حجابه النار» .

بما سمى به نفسه وبينه ، فأنت إذا قلت : «هاد» أو «منور» أو غير ذلك، فالمسمى «نورًا» هو الرب نفسه ، ليس هو النور المضاف إليه ، فإذا قلت: «هو الهادي فنوره الهدى» جعلت أحد النورين عينًا قائمةً ، والآخر صفة ، فهكذا يقول من يُسميه نورًا ، وإذا كان السؤال يرد على القولين والقائلين، كان تخصيص أحدهما بأنه مخالف لقوله ظلمًا ولددًا في المحاجَّة ، أو جهلاً وضلالاً عن الحق[1] .

وقال : وأما قوله : «لو كان نورًا حقيقة ـ كما تقوله المشبهة ـ لوجب أنْ يكون الضياء ليلاً ونهارًا على الدوام» : فنحن نقول بموجب ما ذكره من هذا القول . فإن المشبهة يقولون : إنه نور كالشمس ، والله تعالى : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: ١١] فإنه ليس كشيء من الأنوار ، كما أنَّ ذاته ليست كشيء من الذوات ، لكن ما ذكره حجة عليه ، فإنه يمكن أن يكون نورًا يحجبه عن خلقه ، كما قال في الحديث : «**حجابه النور ـ أو النار ـ لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بَصَرُهُ من خلقه**» .

لكن هنا غلط في النقل ، وهو إضافة هذا القول إلى المشبهة ، فإن هذا من أقوال الجهمية المعطلة أيضًا كالمريسي ، فإنه كان يقول : إنه نور، وهو كبير الجهمية ، وإن كان قصده بالمشبهة من أثبت أن الله نورٌ حقيقة ، فالمثبتة للصفات كلهم عنده مشبهة ، وهذه «لغة الجهمية المحضة» يسمون كل من أثبتَ الصفات مشبهًا .

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٨٤ ـ ٣٨٨) .

فالنص قد ورد بتسميته : نورًا ، وبأن له نورًا مُضافًا إليه ، وبأنه نور السموات والأرض ، وبأن حجابه النور ، فهذه أربعة أنواع :

فالأول : يقال عليه سبحانه بالإطلاق ، والثاني : يضاف إليه ، كما يضاف إليه حياته =

فقد قدمنا أن ابن كُلاَّب والأشعري وغيرهما ذكرا أنَّ نفي كونه نوراً في نفسه هو قول الجهمية والمعتزلة ، وأنهما أثبتا أنه نور ، وقررا ذلك هما وأكابر أصحابهما ، فكيف بأهل الحديث وأئمة السنة ! وأولُ هؤلاء المؤمنين بالله وبأسمائه ، وصفاته : رسولُ الله ﷺ ، وقد أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال الذي عارض به المعترض ، فقال ﷺ : «**حجابُه النُّور لو كَشَفَه لأحرقت سُبُحَات وجهه ما أدركه بصره من خلقه**».

فأخبر أنه حَجَبَ عن المخلوقات بحجابه النور أنْ تدركها سُبُحات وجهه ، وإن لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سُبُحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه ، فهذا الحجاب عن إحراق السبحات يُبين ما يرد في هذا المقام .

وأما ما ذكره عن ابن عباس في روايته الأخرىٰ[1] فمعناه بعض الأنوار الحسية ، وما ذكره من كلام العارفين[2] فهو بعض معاني هدايته لعباده ، وإنما ذلك تنويع بعض الأنواع بحسب حاجة المخاطبين ، كما ذكرناه من عادة السلف أنْ يفسروها بذكر بعض الأنواع ، يقع علىٰ سبيل التمثيل لحاجة المخاطبين ، لا علىٰ سبيل الحصر والتحديد .

فقد تبيَّن أنَّ جميع ما ذكر من الأقوال يرجع إلىٰ معنيين من معاني

= وسمعه وبصره وعزته وقدرته وعلمه كقوله تعالىٰ : ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر : ٦٩] وقوله ﷺ : «**إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقىٰ عليهم من نوره...**» والثالث : إضافة نوره إلىٰ السموات والأرض كقوله : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور : ٣٥] ، والرابع : كقوله : «**حجابه النور**» . انظر كلام ابن القيم في «الصواعق المرسلة» كما في «شرح النونية» (٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

(١) وهو ما ذكره في (٦/ ٣٧٥) من الفتاوىٰ عنه قال : منور السموات والأرض : شمسها وقمرها ونجومها .

(٢) وهو أن معنىٰ النور : هو الذي نور قلوب الصادقين بتوحيده . انظر المصدر السابق .

كونه نور السموات والأرض ، وليس في ذلك دلالة على أنه في نفسه ليس بنور[1] .

٣- القول في تفسير قول الله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ...﴾ الآية :

لعل من أحسن من تعرض لتفسيرها هو الإمام ابن القيم رحمه الله ، وقبل أن نذكر كلامه نسوق الآية بتمامها يقول الله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور : ٣٥] .

قال بعد أن ذكر الخلاف في تفسير : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بنحو ما سبق ذكره عن شيخ الإسلام، قال: وقد اختُلف في تفسير الضمير في (نوره) فقيل : هو النبي ﷺ أي : مثل نور محمد ﷺ ، وقيل تفسيره: المؤمن أي : مثل نور المؤمن ، والصحيح أنه يعود على الله عز وجل ، والمعنى : مثل نور الله سبحانه وتعالى في قلب عبده ، وأعظم عباده نصيبًا من هذا النور رسوله ﷺ ، فهذا مع تضمنه عود الضمير إلى المذكور وهو وجه الكلام يتضمن التقادير الثلاثة ، وهو أتم معنى ولفظًا.

وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو مُعطيه لعبده وواهبه إياه ، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله ، فيضاف إلى الفاعل والقابل ، ولهذا النور فاعل وقابل ومحل وحامل ومادة وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل .

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦) .

فالفاعل : هو الله تعالىٰ مُفيض الأنوار الهادي لنوره من يشاء ، والقابل : العبد المؤمن ، والمحل قلبه ، والحامل : همته وعزيمته وإرادته، والمادة: قوله وعمله ، وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته علىٰ عبده المؤمن بما أناله من نوره ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم .

وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان : أحدهما : طريقة التشبيه المركب وهي أقرب مأخذًا وأسلم من التكلف ، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ومقابلته بجزء من المشبه به وعلىٰ هذا عامة أمثال القرآن الكريم .

فتأمل صفة المشكاة ، وهو كوة لا تنفذ لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها مصباح وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها ، ومادته من أصفىٰ الأدهان وأتمها وقودًا مِنْ زيت شجرة في وسط القراح[1] ، لا شرقية ولا غربية[2] بحيث تصيبها الشمس في أحد طرفي النهار بل هي في وسط القراح محمية بأطرافه تصيبها الشمس أعدل إصابة والآفات إلىٰ الأطراف دونها فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضيء من غير أن تمسه نار ، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالىٰ الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به .

والطريقة الثانية : طريقة التشبيه المفصل فقيل : المشكاة صدر المؤمن والزجاجة قلبه ، وشبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها ،

---

(١) «القراح من الأرض» : البارز الظاهر الذي لا شجر فيه .

(٢) أي: تقع في مكان لا يسترها من الشمس شيء ، بل تصيبها الشمس طوال النهار ، وهذا أجود لزيتها .

وكذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته .

وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء ، وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى ، ويتصلب في ذات الله تعالى ويغلظ على أعداء الله تعالى ويقوم بالحق لله تعالى ، وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية ، كما قال بعض السلف : القلوب آنية الله في أرضه وأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها[1].

والمصباح هو نور الإيمان في قلبه والشجرة المباركة هي شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق ، وهي مادة المصباح التي يتقد منها، والنور على النور : نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح ، ونور

---

(١) ورد هذا الأثر موقوفًا ومرفوعًا ، أما الموقوف فقد أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٨٤) عن خالد بن معدان قال: «إن لله تبارك وتعالى في الأرض آنيةٌ، وأحبُّ آنية الله إليه ما رقَّ منها وصفا ، وآنية الله في الأرض : قلوب عباده الصالحين» . ورجاله ثقات .

وأما المرفوع : فقد أخرجه عبد الله في زوائده على الزهد (ص١٥٣) عن القاسم بن محمد حدثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أبي أمامة مرفوعًا : الحديث السابق بلفظه .

وفيه محمد بن القاسم: وهو الأسدي ، وثقه ابن معين وقال أبو حاتم : ليس بالقوي لا يعجبني حديثه ، وقال الذهبي في «الكاشف» : ضعفوه .

فالصحيح إذًا الطريق الموقوفة السابقة .

لكن للحديث شاهد أخرجه الطبراني ـ كما في «الصحيحة» (١٦٩١) ـ عن بقية بن الوليد حدثني محمد بن زياد عن أبي عنبة الخولاني مرفوعًا : **«إنَّ لله آنية من أهل الأرض ، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين ، وأحبها إليه ألينها وأرقها»** .

قال العراقي في «تخريج الإحياء» : رواه الطبراني وإسناده جيد . وقوى سنده الألباني حفظه الله .

الوحي والكتاب ، فينضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نورًا على نور ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه من الأثر ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي فيريه عقله وفطرته وذوقه أن الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل ألبتة بل يتصادقان ويتوافقان فهذا علامة النور على النور عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشُّبه الباطلة والخيالات الفاسدة من الظنون الجهليات التي يسميها أهلها القواطع العقليات فهي في صدره كما قال الله تعالى : **﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾** [النور : ٤٠].

فانظر كيف تضمنت هذه الآيات طوائف بني آدم كلهم أتم انتظام ، واشتملت عليهم أكمل اشتمال .

[أقسام الناس بالنسبة للوحي : أولاً : أهل الهدى والبصائر] :

فإن الناس قسمان : أهل الهدى والبصائر ، الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول ﷺ عن الله وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه على من قَلَّ نصيبه من العقل والسمع أمرها فيظنها شيئًا له حاصل يُنتفع به وهي : **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾** [النور : ٣٩ - ٤٠] .

وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق أصحاب العلم النافع والعمل

الصالح ، الذين صدّقوا الرسول ﷺ في أخباره ولم يعارضوها بالشبهات، وأطاعوه في أوامره ولم يضيعوها بالشهوات ، فلا هم في عملهم من أهل الخوض الخراصين ، الذين هم في غَمْرةٍ ساهون ، ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون .

أضاء لهم نورُ الوحي المبين فرأوا في نوره أهل الظلمات في ظلمات آرائهم يعمهون ، وفي ضلالتهم يتهوكون ، وفي ريبهم يترددون ، مغترين بظاهر السراب ، مُمْحلين مُجدبين مما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ من الحكمة وفصل الخِطاب ، إن عندهم إلا نُخالة الأفكار وزبالة الأذهان التي قد رضوا بها واطمأنوا إليها ، وقدّموها على السنة والقرآن ، إن في صدورهم إلا كِبْرٌ ما هم ببالغيه أوجبه لهم اتباع الهوى ونخوة الشيطان وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان .

فصل : القسم الثاني : أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم باتباع أهوائهم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ**﴾ [النجم: ٢٣].

وهؤلاء قسمان : أحدهما الذين يحسبون أنهم على علم وهدى وهم أهل الجهل والضلال ، فهؤلاء أهل الجهل المركب الذين يجهلون الحق ويعادونه ، ويعادون أهله ، وينصرون الباطل ويوالون أهله ، وهم يحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون .

فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يَخون صاحبه أحوج ما هو إليه

ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان ، كما هو حال من أمَّ السراب ، فلم يجده ماءً بل انضاف إلى ذلك أنه وَجَدَ عنده أحكم الحاكمين وأعدل العادلين سبحانه و تعالى ، فَحَسَبَ له ما عنده من العلم والعمل فوفَّاه إياه بمثاقيل الذر ، وقَدِمَ إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه فجعله هباءً منثورًا إذ لم يكن خالصًا لوجهه ، ولا على سنة رسوله ﷺ ، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علومًا نافعة كذلك هباء منثورًا ، فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه .

والسراب ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري، والقِيعة والقاع هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا فيه واد ، فشبَّه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله بسراب يراه المسافر في شدة الحر فيؤُمه فيخيب ظنه ويجده نارًا تلظى ، فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش بدت لهم كالسَّراب فيحسبونه ماء فإذا أتوه وجدوا الله عنده فأخذتهم زبانية العذاب فعتلوهم إلى نار الجحيم فسقوا ماء حميمًا فقطع أمعاءهم ، وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع والأعمال التي كانت لغير الله صيَّرها الله تعالى حميمًا سقاهم إياه ، كما أن طعامهم من ضريع لا يُسمن ولا يغني من جوع وهو تلك العلوم والأعمالُ الباطلة التي كانت في الدنيا كذلك لا تُسمن ولا تُغني من جوع وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٤] .

وهم الذين عنى بقوله : ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً**

مَّنثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣] وهم الذين عنى بقوله تعالىٰ ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

والقسم الثاني من هذا الصنف : أصحاب الظلمات وهم المنغمسون في الجهل ، بحيث قد أحاط بهم من كل وجه ، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً ، فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالىٰ ، كظلمات جمع ظُلمة ، وهي ظُلْمةُ الجهل ، وظُلمة الكفر ، وظلمة الظلم واتباع الهوىٰ ، وظلمة الشَّك والريب ، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالىٰ به رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلىٰ النور .

فإن المعرض عن ما بعث الله تعالىٰ به محمداً ﷺ من الهدىٰ ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات : قوله ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلىٰ الظلمة ، وقلبه مظلم ، ووجهه مظلم ، وكلامه مظلم ، وحاله مظلم ، وإذا قابلت بصيرته الخفاشية[1] ما بعث الله به محمداً ﷺ من النور جَدَّ في الهرب منه وكاد نوره يخطف بصره ، فهرب إلىٰ ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولىٰ كما قيل :

خَفَافِيشُ أعشَاها النَّهارُ بضَوئه ... ووَافَقَها قِطَعٌ مِنَ الليلِ مُظْلم

فإذا جاء إلىٰ زبالة الأفكار ونُخالة الأذهان جال ومال ، وأبدىٰ وأعاد وقعقع وفرقع ، فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحجر في جحرة الحشرات ، وقوله في ﴿بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ اللجي العميق منسوب إلىٰ لجة البحر وهو معظمه .

---

(١) نسبة إلىٰ الخَفَش وهو: صِغَر العين وضعف البصر خِلقة، أو فساد في الجفون.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ تصوير لحال هذا المُعْرِض عن وَحيه ، فشبَّه تلاطم أمواج الشُّبَه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها أمواج بعضها فوق بعض، والضمير الأول في قوله ﴿يَغْشَاهُ﴾ راجع إلىٰ البحر، والضمير الثاني في قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِ﴾ عائد إلىٰ الموج، ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب فههنا ظلمات ظلمة البحر اللجي، وظلمة الموج الذي فوقه، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله، إذا أخرج من في هذا البحر يده لم يكد يراها.

والمقصود أن قوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ إما أن يدل علىٰ أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة، وهو الأظهر فإذا كان لا يقارب رؤيتها فكيف يراها، قال ذو الرمة:

إذا غير النائي المحبين لم يكَدْ رسيس الهوىٰ من حُبِّ مَيَّة يبرح

أي: لم يقارب البراح وهو الزوال فكيف يزول.

فشبه سبحانه أعمالهم أولاً في فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد فإذا جاءه وجد عنده عكس ما أمله ورجاه، وشبهها ثانيًا في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان بظلمات متراكمة في لجج البحر المتلاطم الأمواج الذي قد غشيه السحاب من فوقه.

فياله تشبيهًا ما أبدعه وأشد مطابقته بحال أهل البدع والضلال وحال من عَبَدَ الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ خلاف ما بعث به رسوله ﷺ وأنزل به كتابه، وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح، ولعلومهم وعقائدهم الفاسدة باللزوم، وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم ، فهي سراب لا حاصل لها وظلمات لا

نور فيها ، وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه التي تلقاها من مشكاة النبوة فإنها مثل الغَيث الذي به حياة البلاد والعباد ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة[1].

٤- سمَّى الله تعالى رسوله ﷺ نورًا في قوله تعالى : ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وسمَّى كتابه نورًا في قوله تعالى : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء : ١٧٤] وغيرها.

وسمى شرائعه وأحكامه كذلك، كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وقوله : ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦] وقوله : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى﴾ [الأنعام: ٩١].

وسمى الهداية والإيمان نورًا، كما في قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

٥- كان من دعاء النبيﷺ في صلاته وسجوده: «**اللهم اجعل في قلبي نُورًا ، وفي سمعي نورًا ، وفي بصري نُورًا، وعن يميني نُورًا ، وعن**

(١) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٧ ـ ١٢) ، ط دار المعرفة، وقد سقناه على طوله مع اختصار يسير لما فيه من الفوائد الجمة كما لا يخفى على من قرأه.

شمالي نُورًا ، وأمامي نُورًا ، وخَلفي نُورًا ، وفوقي نُورًا ، وتحتي نُورًا ، واجعل لي نورًا - أو قال: واجعلني نورًا -» وفي رواية : «واجعل لي في نفسي نورًا ، وأعْظِم لي نُورًا»[1].

* * *

(١) أخرجه البخاري في (الدعوات) (١١/١١٦) ومسلم في (صلاة المسافرين) (١/٥٢٦، ٥٢٩ ـ ٥٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الكرماني: التنوين فيها للتعظيم، أي: نورًا عظيمًا .

الهادي
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه

(٨٧)

* **المعنى اللغوي :**

الهُدَى : الرَّشَاد والدلالةُ ، يؤنَّث ويذكر .

يقال : هَدَاه الله للدين هُدَى ، وقوله تعالى : ﴿**أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ**﴾ [السجدة: ٢٦] قال أبو عمرو بن العلاء : أو لم يُبيِّن لهم .

وهديته الطريق والبيت هِدَايةً أي: عَرَّفته .

وهَدَى واهْتَدَى بمعنى ، وقوله تعالى : ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ**﴾ [النحل: ٣٧] قال الفراء : يريد لا يهتدي [١].

والهُدَى : إخراج شيءٍ إلى شيء .

والهُدَى : الطاعة والورع .

والهدى أيضًا : النهار[٢] .

قال الزجاجي : والهادي : الدليل ، ويقال هديت الطريق ، وهديته للطريق ، وهديته إلى الطريق بثلاث لغات [٣].

---

(١) «الصحاح» (٦/٢٥٣٣) .

(٢) «اللسان» (٦/٤٦٣٩ ـ ٤٦٤٠) مادة (هدى) .

(٣) «اشتقاق الأسماء» (ص١٨٧) .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد الاسم في آيتين من الكتاب وهما :

قـول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج : ٥٤] .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيراً﴾ [الفرقان : ٣١] .

* معنىٰ الاسم في حق الله تعالىٰ :

قال ابن جرير : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وإن الله لمُرشد الذين آمنوا بالله ورسوله إلىٰ الحقّ القاصد ، والحق الواضح[١] .

وقال في قوله تعالىٰ : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ يقول تعالىٰ ذكره لنبيه : وكفاك يا محمد بربك هاديًا يهديك إلىٰ الحق ، ويُبَصِّرُكَ الرشد[٢] .

وقال الزجاج : (الهَادي) هو الذي هَدَىٰ خلقه إلىٰ معرفته وربُوبيته ، وهو الذي هدىٰ عباده إلىٰ صراطه المستقيم ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس : ٢٥] [٣].

وقال الزجاجي تلميذه : الله عز وجل «الهادي» يهدي عباده إليه ، ويَدُلُّهم عليه ، وعلىٰ سبيل الخير والأعمال المقربة منه عز وجل[٤].

وقال الخطابي : (الهادي) هو الذي مَنَّ بُهَدَاهُ علىٰ من أراد من عباده فخصَّهُ بهدايته ، وأكرمه بنورِ توحيده كقوله تعالىٰ : ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس : ٢٥] .

وهو الذي هَدَىٰ سائر الخلق من الحيوان إلىٰ مصالحها ، وألْهمها

---

(١) «جامع البيان» (١٣٤/١٧) .

(٢) المصدر السابق (٨/١٩) .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص٦٤) .

(٤) «اشتقاق الأسماء» (ص١٨٧) .

كيف تطلب الرزق ، وكيف تتقي المضارَّ والمهالكَ كقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠] [١].

وقال الحُليمي : (الهادي) وهو الدَّالُ علىٰ سبيلِ النجاة والمُبَيِّن لها لئلا يزيغ العبد ويضل فيقع فيما يُرديه ويُهلكه[٢] .

وقال البيهقي : هو الذي بهدايته اهتدىٰ أهل ولايته ، وبهدايته اهتدىٰ الحيوان لما يُصلحه ، واتقىٰ ما يضره[٣] .

وقال السَّعدي : (الهادي) : أي : الذي يَهدي ويُرشد عباده إلىٰ جميع المنافعِ وإلىٰ دفع المضار ، ويُعلمهم ما لا يعلمون ، ويهديهم لهدايةِ التوفيق والتَّسديد ، ويُلهمهم التقوىٰ ، ويجعل قلوبهم مُنيبةً ، إليه مُنقادة لأمره[٤] .

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- أن الله تعالىٰ هو الهادي لعباده ، المبيِّن لهم طريق الحق والإيمان، بما أرسل من الرسل ، وما أنزل من الكتب التي فيها كلامه ، وما نَصَبَ من الدلائل في السموات والأرض .

أما الرسل صلوات الله عليهم ، فإنهم حُجَجُ الله تعالىٰ علىٰ خلقه ، اجتهدوا في العمل علىٰ هداية الناس ليلاً ونهارًا ، سرًا وجهارًا ، بألطف العبارات ، وأفصح الكلمات ، وأبلغ العظات ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٩٥ ـ ٩٦) .

(٢) «المنهاج» (٢٠٧/١) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٨٢) ، ووقع عنده : (سبيل النجاة) ، أما «المنهاج» : (سبل)، والأول أصوب لإفراده طريق النجاة فإنها واحدة وسبل الضلالة متعددة .

(٣) «الاعتقاد» (ص٦٦) .

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٣٠٥/٥) .

مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم : ٤] .

وكان ذلك في كل أمة كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴾ [الرعد : ٧] .

وقال سبحانه عن خاتم المرسلين ﷺ : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [الصف: ٩] .

وقال : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الشورى : ٥٢] .

ولا يمكن أن يكون المسلم مُهتديًا إلا باتباع هذا الرسول الكريم ، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ [النور : ٥٤] واتباع هديه أحد شرطي قبول العمل الصالح ، وهما : المتابعة والإخلاص .

وأما الكتب المنزلة فقد جعلها الله تعالى هدايةً للناس ونورًا ، وفرقانًا تُفرِّق بين الحق والباطل والخير والشر ، قال سبحانه : ﴿ **إنا أنزلنا التورة فيها هدى ونور** ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وقال عن عيسى عليه السلام : ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ** ﴾ [المائدة: ٤٦] .

وقال مخاطبًا رسول الله ﷺ : ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ** ﴾ [آل عمران : ٣ ـ ٤] .

وقال : ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾ [الإسراء : ٩] .

فهذه الكتب هي الدلائل السمعية الهادية التي أنزلها الله سبحانه لهداية خلقه إلى الصراط المستقيم ، الموصل إلى جنة النعيم .

وأما الدلائل الكونية ، فهي ما خلقه الله تعالى في السموات والأرض من آيات بينات شاهدات على وحدانية خالقها وربوبيته ، تقود المتفكر فيها للإيمان ، وتهديه للإسلام لرب العالمين : ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية : ٣ ـ ٦] .

٢- الله جل شأنه يهدي من يشاء ويُضلُّ من يشاء ، ذكر ذلك عن نفسه في مواضع كثيرة من كتابه منها قوله : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الاعراف : ١٧٨] .

وقوله : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف : ١٧] .

وقوله : ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

قال الطحاوي رحمه الله تعالى : «يَهدي من يشاءُ ويَعْصِم ويُعافي فضلاً ، ويُضلُّ من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً ، وكلهم يتقلَّبون في مشيئته بين فضله وعدله» .

وفيه ردٌّ على المعتزلة القائلين بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله تعالى ، وقالوا معنى الهدى من الله : بيان طريق الصواب ! والإضلال : تسمية العبد ضالاً ، وحُكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد

الضلالَ في نفسه !

وهذا مبنيٌّ على أصلهم الفاسد وهو : أنَّ أفعال العباد مخلوقة لهم ! لا أن الله تعالى خالق العباد وأفعالهم ، كما هو قول أهل السنة .

ولو كان معنى الهدى من الله : بيان طريق الصواب ، لما نفاه تعالى عن رسوله ﷺ في قوله : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص : ٥٦] لأنه ﷺ قد بين دعوته لمن أحب وأبغض .

ومما يَنقض قولهم : قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة : ١٣] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] وقوله : ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام :٣٩] ، وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] . فهذه الآيات جاءت مُقَيَّدَةً بمشيئة الله تعالى فلا يصح تفسيرها بالبيان ، إذ هو لكلِّ الخلق[1].

فمن هداه الله تعالى للإيمان فبفضله وله الحمد ، كما في قوله سبحانه عن أهل الجنة : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾] [الأعراف : ٤٣] ، وقوله : ﴿وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات : ٥٧] .

ومن أضلَّه فبعدله، قال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

---

(١) وانظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص١٥٥ ـ ١٥٦) ط المكتب الإسلامي .

فالهـداية إذن هدايتان : هداية إرشاد وبيان : وهي التي يملكها الرسل وأتباعهم والتي ذكرها الله تعالى بقوله : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]. وهداية توفيق: وهي التي بيد الله تعالى شانه .

وقال : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزخرف : ٧٦] .

وقال : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ [التوبة : ١٢٧] .

وقال : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[الصف : ٥] .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣] .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر : ٢٨] .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ في آيات كثيرة .

٣- والهداية أكبر نعمــة يُنْعِم به (الهادي) سبحانه على عبده ، إذْ كل نعمةٍ دونها زائلة ومضمحِلَّة ، وبقدر هدايته تكون سعادته في الدنيا ، وطيب عيشه وراحة باله ، وكذا فوزه ودرجته في الآخرة .

والأنبياء صلوات الله عليهم ـ وهم أكمل الناس إيمانًا وهداية ـ كانوا يسألون الله تعالى أن يهديهم ، فهذا موسى عليه السلام يقول : ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [القصص : ٢٢].

وكذا يوسف عليه السلام قال : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

وسليمان عليه السلام قال: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩] .

وكان خاتم النبيين ﷺ يسأل ربه تعالى الهداية في دعواته وصلاته ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهمَّ ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ، فاطِرَ السموات

والأرض ، عالمَ الغيب والشهادة ، أنتَ تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهْدني لما اخْتُلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك أنتَ تهدي من تشاءُ إلى صراطٍ مستقيم»[١].

وكان يقول : «اللهم إني أسألك الهُدىٰ والتُّقىٰ والعَفَافَ والغنىٰ»[٢].

وقال لعلي رضي الله عنه : «قُل : اللهم اهْدِني وسَدِّدْني ، واذْكُر بالهُدىٰ هدايَتَكَ الطريق ، والسَّداد سدادَ السهم»[٣].

وأمرت هذه الأمة بأن تسأل الله تعالىٰ الهداية في كلِّ ركعة من صلاتها في قوله سبحانه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة : ٦ ـ ٧][٤].

---

(١) أخرجه مسلم في (صلاة المسافرين) (١/ ٥٣٤) .

(٢) أخرجه مسلم في (الذكر) (٤/ ٢٠٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في (الذكر) (٤/ ٢٠٩٠) .

ومعنىٰ «اذْكر بالهدىٰ ..» أي: تذكر ذلك في حال دعائك بهذين اللفظين ، لأن هادي الطريق لا يزيغ عنه ، ومُسدد السهم يحرص علىٰ تقويمه ، ولا يستقيم رميه حتىٰ يُقومه ، وكذا الداعي ينبغي أن يحرص علىٰ تسديد عمله وتقويمه ولزومه السنة ، وقيل : ليتذكر بهذا لفظ السداد والهدىٰ ، لئلا ينساه (نووي) .

(٤) قال العلامة المحقق ابن القيم رحمه الله : «ولما كان سؤال الله الهداية إلىٰ الصراط المستقيم أجلَّ المطالب ، ونيله أشرفَ المواهب : علَّم الله عباده كيفية سؤاله ، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمدَه والثناء عليه وتمجيده ، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم ، فهاتان وسيلتان إلىٰ مطلوبهم : توسلٌ إليه بأسمائه وصفاته ، وتوسلٌ إليه بعبوديته ، وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُرَدُّ معهما الدعاء ، ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد والترمذي :

أحدهما : حديث عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال : سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو ويقول : اللهم إني أسالك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كُفُوًا أحد، فقال: «والذي نفسي بيده ، لقد سأل الله باسمه =

وعلَّم الحسن بن علي رضي الله عنهما أن يقول في قُنوت الوتر «اللهم اهدني فيمن هَدَيت وعَافِني فيمنْ عافيت ..» (٢).

اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نَسألك فلا تحرمنا الجنة ونحن

= الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى» فهذا توسل إلى الله بتوحيده ، وشهادة الداعي له بالوحدانية ، وثبوت صفاته المدلول عليها باسم (الصمد) وبنفي التمثيل والتشبيه عنه بقوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة، والتوسل بالإيمان بذلك والشهادة به هو الاسم الأعظم .

والثاني : حديث أنس «إن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو : اللهم إني أسالك بأنَّ لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ، فقال : «لقد سأل الله باسمه الأعظم» فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين ، وهما التوسل بالحمد والثناء عليه وتمجيده ، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده ، ثم جاء سؤال أهم المطالب ، وأنجح الرغائب وهو «الهداية» بعد الوسيلتين ، فالداعي به حقيقٌ بالإجابة» ا هـ مختصراً من «مدارج السالكين» (١/ ٢٣ ـ ٢٤).

(٢) حديث صحيح : أخرجه أحمد (١/ ١٩٩ ، ٢٠٠) وأبو داود (١٤٢٥) والترمذي(٤٦٤) والنسائي (٣/ ٢٤٨) وابن ماجة (١١٧٨) والدارمي (١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤) وابن الجارود (ص١٤٢) والحاكم (٣/ ١٧٢) والبيهقي(٢/ ٢٠٩) من طرق عن بريد بن أبي مريم عن أبي الحوراء السَّعدي عن الحسن بن علي قال علمَّني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر - وفي رواية : في قنوت الوتر ـ فذكره.

قال الترمذي : هذا حديث حسن، لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي الحوراء السعدي، واسمه : ربيعة بن شيبان .

قلت : وهو تابعي ثقة ، ووقع اسمه في بعض المصادر : أبو الجوزاء ، وهو تصحيف . وبريد بن أبي مريم ثقة أيضًا .

وقول الترمذي : «لا نعرفه إلا من هذا الوجه» هو بحسب ما وقف عليه ، وإلا فقد جاء من وجه آخر ، فقد أخرجه النسائي (٣/ ٢٤٨) عن عبدالله بن علي عن الحسن مرفوعًا به.

وعبد الله بن علي: هو ابن الحسين بن علي بن أبي طالب لم يدرك الحسن . انظر: «التهذيب» (٥/ ٣٢٥).

نسألك يا هادي يا كريم يا أرحم الراحمين .

٤- الله سبحانه وتعالى هاد أيضًا من حيث إنه هدى جميعَ الأحياء إلى جلب مصالحها ودفع مضارها ، كما قال سبحانه : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٥٠] ، وقال : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٣].

فقد هدى كلَّ مخلوق إلى ما لا بدَّ منه في قضاء حاجاته ، فهدى الطفلَ إلى الْتقام الثدي عند انفصاله ، والفرخَ إلى التقاط الحبِّ وقت خروجه، والنَّحلَ إلى بناء بيته على شكل التَّسديس ، لكونه أوفق الأشكال لبدنه ، وأحواها وأبعدها عن أن يتخللها فُرَج ضائعة وشرح ذلك مما يطول» [1].

* * *

(١) «المقصد الأسنى» (ص٩٣) .

البَديع
جَلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤُه
(٨٨)

*** المعنى اللغوي :**

البَدِيع : المبتدِع ، والبَديع : المبتَدع أيضًا .

أبْدَعتُ الشيءَ : اخترعته لا على مثالٍ .

وبَدَعَ الشيءَ يَبْدَعُه بَدْعًا وابتدعه : أنشأه وبَدأه ، وبَدَعَ الرَّكِيَّةَ : استنبطها وأحْدثها .

وأبْدعَ الشاعرُ : جاء بالبدِيع .

وشيءٌ بدْعٌ بالكسر ، أي: مُبتَدعٌ ، وفلان بِدْعٌ في هذا الأمر ، أي : بَدِيعٌ ، وقوم أبداع عن الأخفش ، ومنه قوله تعالى : ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف : ٩] ، أي : ما كنت أولَ من أُرسل .

والبِدْعة : الحَدَثُ في الدين بعد الإكمال .

وأبْدَعَتِ الراحلة، أي: كَلَّت، وقد أُبدِعَ بالرجل، أي: كَلَّت راحلته.

والبديع أيضًا : الزِّقُّ الجديد والسقاء الجديد [(١)].

وقال الزجاج : يقال : أبدعتُ الشيء إبداعًا ، إذا جئت به فردًا لم يشاركك فيه غيرك ، وهذا بَديعٌ من فعل فُلان ، أي : مما يتفردُ به [(٢)].

---

(١) «الصحاح» (٣/١١٨٣ ـ ١١٨٤) ، «اللسان» (١/٢٢٩ ـ ٢٣٠) مادة (بدع) .

(٢) «تفسير الأسماء» (ص٦٤) .

وقال الزجاجي : (البديع) : المبتدعُ الأشياء ابتداءً من غير أصلٍ ولا أوَّل والبَديء في المعنى مثل البديع ، ثم قد يستعمل البديع والبديء في معنى العجيب ، كما قال عبيد :

إن يكُ حُوِّلَ منها أهلُها فلا بديءٌ ولا عجيب [1].

*** وروده في القرآن الكريم :**

جاء في آيتين من الكتاب :

قول الله تعالى : ﴿**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [البقرة : ١١٧] .

وقوله : ﴿**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الانعام : ١٠١] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال أبو عبيدة : (بديعُ) : مبتدع ، وهو البادئ الذي بدأها[2] .

وقال ابن جرير : يعني جلَّ ثناؤه بقوله : ﴿**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾: مبدعها ، وإنما هو «مُفْعِل» صرِّف إلى «فَعيلة» ، كما صرف المُؤْلم إلى أليم ، والمُسْمع إلى سميع [3].

ومعنى المُبدع المُنْشئ والمُحْدث ما لم يَسبقه إلى إنشاء مثله وإحْداثه أحَد ، ولذلك سُمِّي المبتدع في الدين مُبتدعًا لإحداثه فيه ما لم يسبقه إليه غيره ، وكذلك كل مُحْدِثٍ فعلاً أو قولاً لم يتقدمه فيه مُتقدم فإنَّ العرب

---

(١) «اشتقاق الأسماء» (ص٧٣) .

(٢) «مجاز القرآن» (١/ ٥٢) .

(٣) كان الأصمعي ينكر فعيلاً بمعنى مفعل ، وقال ابن بري : قد جاء كثيرًا نحو مسخن وسخين ومقعد وقعيد وموصى ووصي. . ، وهو الصواب . انظر «روح المعاني» (١/ ٣٦٧) .

تسميه مبتدعًا ، ومن ذلك قول الأعشى بن ثعلبة في مدح هوذة بن علي الحنفي :

يرعى إلى قَوْلِ سَادَاتِ الرجال إذا أبدَوا له الحَزْمَ أو ما شاءَه ابتدعا

أي يحدث ما شاء ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

فأيها الغاشي القذاف الأتْيَعا[1] إنْ كُنت لله التَّقِيَّ الأطْوعا

فليس وجه الحق أنْ تبدَّعا

يعني أن تُحدث في الدين ما لم يكن فيه .

فمعنى الكلام : سبحان الله أنَّى يكون له ولد وهو مالك ما في السموات والأرض ، تشهد له جميعًا بدلالتها عليه بالوحدانية ، وتُقرُّ له بالطاعة ، وهو بارئها وخالقها ومُوجدها من غير أصلٍ ولا مثال احتذاها عليه .

وهذا إعلامٌ من الله جلَّ ثناؤه عبادَه أن مما يشهد له بذلك «المسيح» الذي أضافوا إلى الله جلَّ ثناؤه بُنوَّته ، وإخبار منه لهم أنَّ الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذي ابتدع المسيح من غير والد بقدرته» ا هـ [2].

وقال الزجاج : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أراد به : أنه المُنْفردُ بخلق السموات والأرض ، وهو «فعيل» بمعنى «مَفعل»[3] .

وقال الخطابي : (البَديع) هو الذي خَلَقَ الخَلْقَ ، وفَطَره مُبْدِعًا له

---

(١) «الأتيع» : المتتابع في الحُمْق «القاموس» .

(٢) «جامع البيان» (١/ ٤٠٤) ، ونقله ابن كثير (١/ ١٦١) وعقبه بقوله : «وهذا من ابن جرير رحمه الله كلامٌ جيد وعبارة صحيحة» .

(٣) «تفسير الأسماء» (ص٦٤) .

مخترعًا ، لا على مثالٍ سَبَقَ [1].

وقال الحليمي : (البدَيع) : ومعناه المبتدع ، وهو يحدث ما لم يكن مثله قط ، قال الله عز وجل : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: مُبْدعهما، والمبدع من له إبداع ، فلما ثبت وجود الإبداع من الله تعالى لعامة الجواهر والأعراض ، استحق أن يسمى بَديعًا ومبدعًا [2].

وقال ابن منظور : (البديع) من أسماء الله تعالى ، لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها ، وهو «البديع الأول» قبل كلِّ شيء ، ويجوز أن يكون بمعنى : مُبْدِع ، أو يكونَ من بَدَعَ الخلقَ أي بَدَأه ، والله تعالى كما قال سبحانه : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي : خالقها ومبدعها ، فهو سبحانه الخالق المخترع لا عن مثال سابق [3].

قال السعدي : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما في غاية ما يكون من الحُسْنِ ، والخَلْق البديع ، والنظام العجيب المحكم [4].

فيتحصل من هذه الأقوال أن معناه:

١- أنه الذي لا مِثْلَ له ولا شبيه ، يقال هذا شيء بديع ، إذا كان عديم المثل ، فيكون على هذا من صفات الذات .

٢- أنه بمعنى المبدع الذي فطر الخلق ابتداء لا على مثال سبق ،

---

(١) «شأن الدعاء» (ص٩٦) وذكر ورنه نحو قول ابن جرير والزجاج .

(٢) «المنهاج» (١/ ١٩٢) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداع والاختراع له ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص٢٣ ـ ٢٤) .

(٣) «اللسان» (١/ ٢٣٠) .

(٤) «تيسير الكريم» (٥/ ٣٠٣) .

فيكون من صفات الفعل.

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- أنَّ الله عز وجل هو : (البديع) الذي لا عَهْدَ بمثله ، فإن لم يكن بمثله عَهدٌ لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ولا في كلِّ أمرٍ راجع إليه فهو البديع المُطْلق ، أزلاً وأبدًا [1].

٢- أنه سبحانه الذي أوجد الأشياء بصورة مخترعة على غير مثال سبق ، فهو سبحانه المُبْدِع للسموات والأرض والمخترع لهما ، والمُوجد لجميع ما فيهما .

وإذا كان كذلك ، فكيف يصح أن يُنسب إليه شيء منهما على أنه ولد له !! تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ، بل كلٌّ من فيهما فمن إيجاده وإبداعه وهو خاضع له وعابد ، قال سبحانه ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [البقرة : ١١٦ ـ ١١٧] .

وقال سبحانه : ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا** ﴾ [مريم : ٩٣ ـ ٩٥].

وإذا ثبت أن كل ما في السموات والأرض من إيجاده وإبداعه ، ثبت أنه داخل في عباده وملكه ، فيستحيل أن يكون ولدًا له .

وأمر آخر : «أن هذا الذي أُضيف إليه بأنَّه ولده إما أن يكون قديمًا أزليًا أو مُحْدَثًا ، فإن كان أزليًا لم يكن حكمنا بجعل أحدهما ولدًا والآخر

---

(١) انظر «المقصد الأسنى» (ص ٩٣ ـ ٩٤) .

والدًا أولى من العكس ، فيكون ذلك الحكم حكمًا مجردًا من غير دليل ، وإنْ كان الولد حادثًا كان مخلوقًا لذلك القديم وعبدًا له فلا يكون ولدًا .

الثالث : أن الولد لابد وأن يكون من جنس الوالد ، فلو فرضنا له ولدًا ، لكان مشاركًا له من بعض الوجوه ، وممتازًا عنه من وجه آخر .

الرابع : أن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه ، فعلى هذا فإن اتخاذه إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة .

فإن كان كل ذلك محالاً ، كان اتخاذ الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً »[1] .

وقوله : ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ فمعناه أنه إذا أراد إيجاد أمرٍ وإحداثه فإنما يأمره أن يكون موجودًا فيكون موجودًا .

٣- الفرق بين الإبداع والخلق :

قالوا : إن الإبداع هو إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سبق .

وأما الخلق فمعناه التقدير ، وهو يقتضي شيئًا موجودًا يقع فيه التقدير[2].

٤- عن أنس رضي الله عنه أنه قال: كنت جالسًا مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يُصلي فقال : اللهم إني أسالك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنَّان المنَّان بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا

---

(١) «التفسير الكبير» (٤/ ٢٣ ـ ٢٤) باختصار .

(٢) انظر : «تفسير المنار» (١/ ٤٣٨) .

حي يا قيوم ، فقال النبي ﷺ : **«دَعَا الله باسمِهِ الأعْظَم الذي إذا دُعي به أجابَ ، وإذا سُئِلَ به أعطى»** [1].

* * *

(١) حديث صحيح: انظر تخريجه في الجزء الأول (ص٦٤).

الوارث

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٨٩)

*** المعنى اللغوي :**

وَرِثْتُ الشيءَ أرِثُهُ وِرْثًا ووِراثةً وإرْثًا (الألف منقلبة من الواو) ، وَرِثَةً (الهاء عوض من الواو) .

وتقول أوْرَثَه الشيءَ أبوه ، وهم وَرَثَة فلان .

وَوَرَّثَهُ توريثًا ، أي : أدخله في ماله على ورثته .

وتوارثوه كابرًا عن كابر .

والميراث أصله : مِوْرَاثٌ ، انقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها ، والتُّراث أصل التاء فيه واو [١].

وقال الزَّجاج : (الوارث) كل باقٍ بعدَ ذاهبٍ فهو وارث [٢].

وقال الزجاجي : (الوارث) اسم الفاعل من ورث يرث فهو وارث[٣].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد ثلاث مرات كلها بصيغة الجمع وهي :

---

(١) « الصحاح » (١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦) « اللسان » (٦/ ٤٨٠٨ ـ ٤٨٠٩) مادة (ورث)

(٢) « تفسير الأسماء » (ص ٦٥).

(٣) اشتقاق الأسماء (ص١٧٣).

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ [الحجر: ٢٣]

وقوله : ﴿ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩]

وقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨].

وورد مرةً واحدة بصيغة الفعل :

وقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم: ٤٠]

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير : ﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ يقول : ونحن نرث الأرض ومن عليها ، بأن نميت جميعهم فلا يبقى حيٌّ سوانا إذا جاء ذلك الأجل [١].

وقال في آية القصص : ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ يقول : ولم يكن لما خَرَّبنا من مساكنهم منهم وارث ، وعادت كما كانت قبل سكناهم فيها لا مالك لها إلا الله الذي له ميراث السموات والأرض [٢].

وقال الزجاجي : الله عز وجل وارث الخلق أجمعين ، لأنه الباقي بعدهم وهم الفانون ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [مريم: ٤٠] [٣].

وقال الخَطَّابي : (الوارث) هو الباقي بعد فناء الخلق ، والمُستَردُّ أملاكَهم وموارثَهم بعد موتهم ، ولم يزلِ الله باقيًا مالكًا لأصول الأشياء كلها ، يُورِّثُها من يشاء ويستخلف فيها من أحب . قال : وأخبرني أبو عمر عن أبي العباس قال : قال أبو عمرو بن العلاء : أولُ شعرٍ قيل في

(١) « جامع البيان » (١٤/١٦).

(٢) المصدر السابق (٢٠/٦١).

(٣) « اشتقاق الأسماء » (ص١٧٣).

الجاهلية في الزُّهد قول يزيد بن خَذَّاق :

هَوِّنْ عليك ولا تُولَعْ بإشفاقِ   فإنما مَالُنا للوارثِ الباقي

في أبيات أنشدناها [(١)].

وقال الحُليمي : (الوارث) ومعناه الباقي بعد ذهاب غيره .

وربُّنا جلَّ ثناؤه بهذه الصفة ، لأنَّه يبقى بعد ذهاب المُلاَّك الذين أمْتَعَهم في هذه الدنيا بما آتاهم ، لأنَّ وجودهم ووجود الأملاَك كان به ، ووجوده ليس بغيره [(٢)].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ الله جلَّ شأنه هو الباقي بعد فناء خلقه ، الحي الذي لا يموت ، الدائم الذي لا ينقطع ، وإليه مرجع كل شيء ومصيره .

فإذا مات جميع الخلائق ، وزال عنهم ملكهم ، كان الله تعالى هو الباقي الحق المالك لكل المملوكات وحده ، وهو القائل إذ ذاك ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ وهو المجيب لنفسه ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦].

فكثير من الناس يظنون أن لهم ملكًا حقيقيًا ، فينكشف لهم ذلك اليوم حقيقة الحال « وهذا النداء عبارة عن حقيقة ما ينكشف لهم في ذلك الوقت .

فأما أرباب البصائر فإنهم أبدًا مشاهدون لمعنى هذا النداء ، سامعون له من غير صوتٍ ولا حرف ، يوقنون بأنَّ المُلك لله الواحدِ القهار ، في

(١) «شأن الدعاء» (ص٩٦ ـ٩٧).

(٢) «المنهاج» (١/ ١٨٩) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الباريء جلَّ ثناؤه والاعتراف بوجوده ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ١٣).

كلَّ يومٍ وفي كل ساعةٍ وفي كل لحظة ، وكذلك كان أزلاً وأبدًا » (١).

٢ ـ بيَّن الله تعالى لعباده أنه هو الوارث لما أهلك من القرى الظالمة التي كانت تعيش في أمن ودعة وخفض العيش ، حتى أصابهم الأشَرُ والبطر ، فلم يقوموا بحقِّ النعمة ، ولم يشكروا ربهم الذي وهبهم ، قال سبحانه : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥٨]

وقوله : ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي إلا زمانًا قليلاً ، إذ لا يسكنها إلا المارة يومًا أو بعض يومٍ ، وبقيت شاهدة على مَصرع أهلها وفنائهم ، وعبرة لمن كان له قلب .

﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: منهم؛ إذ لم يخلفهم أحد يتصرَّف تصرفهم في ديارهم وسائر ذات أيديهم، بل كان الله وحده الوارث لديارهم وأموالهم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

٣ ـ حَثَّ الله تعالى عباده المؤمنين على النفقة في سبيله ، وذكَّرهم أنهم مُسْتَخلفون فيما عندهم من الأموال ، مخولون التصرف فيها بما شرع سبحانه ، لا يملكون حقيقة ، فقال سبحانه : ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ٧] ثم بيَّن لهم أنهم إنْ لم ينفقوا في حياتهم في سبيل الله فإنها صائرة إلى الله تعالى إذا ماتوا ، لأن له ميراث السموات والأرض فقال عزَّ من قائل : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **يقولُ العبدُ:**

(١) المقصد الأسنى (ص٩٥).

مَالي مَالي ، إنما له منْ ماله ثلاثٌ : ما أكلَ فأفْنَى ، أو لَبسَ فأبْلَى ، أو أعْطَى فاقْتَنَى ، وما سِوى ذلكَ فهو ذَاهبٌ وتاركُهُ للناس » [1].

٤ ـ دعا زكريا عليه الصلاة والسلام ربه أن يهبه ولدًا يكون من بعده نبيًّا ، وكان قد بلغ من الكبر عتيًا وكانت امرأته عاقرًا ، وقد حكى الله ذلك في كتابه بقوله : ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

أي : ارزقني وارثًا من آل يعقوب يرثني.

وقوله :﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دعاءٌ وثناء مناسب للمسألة [2].

* * *

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٧٣) .

واخرجه من حديث قتادة بن مُطَرِّف عن أبيه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] قال : « يقول ابن آدم : مالي مالي . . » بنحوه.

(٢) وقيل : أراد بذلك ردَّ الأمر إليه سبحانه كأنه قال : إن لم ترزقني ولدًا يرثني فأنت خير وارث فحسبي أنت .

واعترض بأنه لا يناسب مقام الدعاء ، إذ من آداب الدعاء أن يدعو بجدٍّ واجتهاد وتصميم منه ، ففي الصحيحين عن رسول الله ﷺ : « إذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر إن شئت ، ارحمني إن شئت ، ارزقني إن شئت ، ليعزم في مسألته فإن الله تعالى يفعل ما يشاء لا مكره له » اهـ من « روح المعاني » (١٧/ ٨٧).

المُحيطُ
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٩٠)

*** المعنى اللغوي :**

حَاطَهُ يَحُوطه حَوْطًا وحِيطةً وحِياطةً : حَفِظه وتعهده ، واحتاط الرجل : أخذ في أموره بالأجْزَم .

ومع فلان حِيطةٌ لك ـ ولا تقل عليك ـ أي : تحنُّنٌ وتعطف .

والحائِط : الجدار لأنه يَحُوطُ ما فيه ، والحُوَاطة : خطيرة تتُخذ للطعام .

وكلُّ من أحرز شيئًا كلَّه وبلغ علمه أقصاه ، فقد أحاط به ، يقال : هذا الأمر ما أحطتُ به علمًا .

وقوله تعالى : ﴿ **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** ﴾ أي : عَلِمتُه من جميع جهاته . وأُحيط بفلان : إذا دنا هلاكه فهو مُحاطٌ به ، قال عز وجل : ﴿**وأحيط بثمره**﴾ أي أصابه ما أهلكه وأفسده [١].

وقال الزجاجي : المحيط في اللغة اسم الفاعل ، من قولهم : أحاط فلان بالشيء فهو محيط به إذا استولى عليه ، وضم جميع أقطاره ونواحيه، حتى لا يمكن التخلص منه ولا فوته [٢].

---

(١) « الصحاح » (١١٢١/٣) و « اللسان » (١٠٥٢/٢) مادة (حوط).

(٢) « اشتقاق أسماء الله » (ص٤٦).

* وروده في القرآن الكريم :

ورد الاسم ثمانية مرات ، منها :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٩].

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ [النساء: ١٢٦].

وقوله : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ [فصلت: ٥٤].

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ [البروج: ٢٠].

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير : ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ : بمعنى جامعهم فَمُحِلٌّ بهم عقوبته [1].

وقـال في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ : يقول جلَّ ثناؤه : إن الله بما يعمل هؤلاء الكفار في عباده وبلاده من الفساد والصدِّ عن سبيله ، والعداوة لأهل دينه وغير ذلك من معاصي الله محيطٌ بجميعه حافظٌ له ، لا يَعزبُ عنه شيءٌ حتى يوفيهم جزاءهم على ذلك كله ، ويذيقهم عقوبته عليه [2].

وقال في قوله : ﴿ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ : يـقول تعالى ذكره: ألا إن الله بكلِّ شيءٍ مما خلق محيطٌ علمًا بجميعه وقدرته عليه ، لا يَعزب عنه علم شيء منه أراده فيفوته ، ولكنه المُقتدر عليه العالم بمكانه [1].

(١) « جامع البيان » (١/١٢٢).

(٢) المصدر السابق (٤/٤٥).

(٣) المصدر السابق (٢٥ /٥).

وقال الزجاجي : . . . فالله عز وجل محيطٌ بالأشياء كلِّها لأنها تحت قدرته ، لا يمكن شيئًا منها الخروج عن إرادته فيه ، ولا يمتنع عليه منها شيء . وقد قال الله تعالى عز وجل: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] أي : علم كل شيءٍ على حقيقته ، بجميع صفاته فلم يخرج شيء منها عن علمه .

وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ قال المفسرون: تأويله: مُهلك الكافرين ، حقيقته أنهم لا يُعْجزونه ولا يفوتونه فهو مُحيطٌ بهم.

ثم قال : وحقيقة الإحاطة بالشيء : ضَمُّ أقطاره ونواحيه وتصييره وسطًا ، كإحاطة البيت بمن فيه ، والأوعية بما يدور عليه ، ثم اتسع فيه . . (١).

وقال الخطابي : (المحيطُ) هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه،وهو الذي أحاطَ بكل شيءٍ علمًا ، وأحصى كلَّ شيءٍ عددًا (٢).

وقال الحليمي : ومنها (المحيط) ومعناه : الذي لا يُقْدَر على الفرار منه ، وهذه الصفة ليست حقًا إلا لله جل ثناؤه ، وهي راجعةٌ إلى كمالِ العلم والقُدرة ، وانتفاء الغفلة والعجز عنه (٣).

وقال السعدي: (المحيط) بكلِّ شيءٍ علمًا وقُدرةً ورحمة وقهرًا (٤).

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إنَّ الله تعالى محيط بعباده ، لا يقدرون على فوته أو الفرار منه،

---

(١) « اشتقاق أسماء الله » (ص ٤٦ ـ ٤٧)

(٢) « شأن الدعاء » (ص١٠٢)

(٣) « المنهاج » (١/١٩٧ ـ ١٩٨) وذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٤٠).

(٤) « تيسير الكريم » (٥/٣٠٢).

بل « لا مَلْجأ منه إلا إليه » كما قال ﷺ في دعاء الوتر وغيره . وكل شيء تخاف منه تَفرُّ منه إلا الله تعالى ، فإنك تفرُّ إليه ، قال سبحانه : ﴿ ففرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠] .

وذلك لتمام وكمال قدرته سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وقال سبحانه : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣].

« أي لا تستطيعون هربًا من أمر الله وقدره بل هو (مُحيطٌ) بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه ولا النفوذ عن حكمه فيكم أينما ذهبتم أُحيط بكم ، وهذا في مقام الحشر ، الملائكة مُحْدِقةٌ بالخلائق سبع صفوف من كل جانب فلا يقدر أحدٌ على الذهاب (إلا بسلطانٍ) أي إلا بأمر الله ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝ كَلاَّ لا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢].

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٧] [1].

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقال ﷺ : « يَقبضُ الله الأرض ويَطوي السَّماوات بيمينه ، ثم يقول :

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٤/ ٢٧٤) وانظر اسمه (القدير).

أنا الملكُ ، أين مُلوكُ الأرضِ ؟ » [1].

٢ ـ إنه سبحانه لا يغيب عنه علم شيء صغيرًا كان أو كبيرًا ، ظاهرًا كان أو باطنًا ، فإنه كما وصف نفسه **﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾** [فصلت : ٥٤] [2].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٨/٥٥١) وفي التوحيد (١٣/٣٦٧ ، ٣٩٣) ومسلم في صفات المنافقين (٢١٤٨/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) انظر اسمه (العليم).

القَريب
جلَّ جلاله وتقَدَّست أسماؤه
(٩١)

*** المعنى اللغوي :**

القُرْبُ نَقيضُ البُعد .

قَرُبَ الشيء بالضم ، يَقْرُبُ قُرْبًا وقُربانًا وقِربانًا أي : دنا ، فهو قريب ، الواحد والاثنان والجميع في ذلك سواء.

والقُربان : ما قُرِّبَ إلى الله عز وجل وتَقَرَّبتَ به [١].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد الاسم ثلاث مرات في الكتاب وهي :

قوله جلَّ ثناؤه : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله : ﴿ **فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ** ﴾ [هود: ٦١].

وقوله : ﴿ **قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ** ﴾ [سبأ: ٥٠].

---

(١) « الصحاح » (١/١٩٨ ـ ١٩٩) و « اللسان » (٥/٣٥٦٦) مادة (قرب) . وانظر: «اشتقاق الأسماء » للزجاجي (ص١٤٦ ـ ١٤٨).

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير في قوله : ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي**﴾ [البقرة : ١٨٦] : يعني تعالى ذكره بذلك : وإذا سألك يا محمد عبادي عني أين أنا ؟ فإني قريبٌ منهم أسمع دعاءهم وأُجيب دعوة الداعي منهم [(١)].

وقال في قوله : ﴿ **إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ** ﴾ [هود : ٦١] : يقول : إن ربي قريبٌ ممن أخلص له العبادة ، ورَغِبَ إليه في التوبة مجيبٌ له إذا دعاه [(٢)].

وفي قوله :﴿**إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ** ﴾ [سبأ : ٥٠] : قال : إن ربي سميعٌ لما أقول لكم حافظ له وهو المجازي لي علي صدقي في ذلك ، وذلك مني غير بعيد فيتعذر عليه سماع ما أقول لكم وما تقولون وما يقوله غيرنا، ولكنه قريب من كل متكلم ،يسمع كلَّ ما ينطق به ، أقربُ إليه من حبل الوريد[(٣)].

وقال الزجاجي :(القريب) في اللغة على أوجه : القريب الذي ليس ببعيد ، فالله عز وجل قريبٌ ليس ببعيد كما قال عز وجل : ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة: ١٨٦] أي : أنا قريبُ الإجابة ، وهو مثل قوله عز وجل : ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد: ٤] ، وكما قال عز وجل :﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا**﴾ [المجادلة: ٧].

---

(١) « جامع البيان » (٢/ ٩٢).

(٢) المصدر السابق (١٢/ ٣٨).

(٣) المصدر السابق (٢٢/ ٧٢).

وكما قال عز وجل : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] .

وكما قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] .

والله عز وجل محيطٌ بالأشياء كلِّها عِلمًا لا يعزُبُ عنه منها شيء ، وكل هذا يراد به ـ والله أعلم ـ إحاطة علمه بِكل شيء ، وكون كل شيء تحت قدرته وسلطانه وحكمه وتصرفه ، ولا يراد بذلك قرب المكان والحلول في بعضه دون بعض جلَّ الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً [١].

وقال الخطابي : (القريب) معناه : أنه قريبٌ بعلمه من خلقه ، قريب ممن يدعُوه بالإجابة كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة : ١٨٦] [٢] .

وقال ابن القيم :

وهو القَريبُ وقُربُهُ المختصُّ بالـ ... دَّاعي وعَابِدِه على الإِيمان [٣]

وقال السعدي : (القَريبُ المجيب) أي : هو تعالى القريب من كلِّ أحد ، وقربه تعالى نوعان :

قُربٌ عامٌّ من كلِّ أحد بعلمه وخبرته ومراقبته ومشاهدته وإحاطته .

وقربٌ خاص من عابديه وسائليه ومحبيه ، وهو قرب لا تُدرك له حقيقة ، وإنما تعلم آثاره من لطفه بعبده وعنايته به وتوفيقه وتسديده ، ومن آثاره الإِجابة للداعين ، والإِنابة للعابدين.

(١) « اشتقاق أسماء الله » (ص١٤٦ ـ ١٤٧) وانظر تفصيل القول فيما ذكره في آخر كلامه في آثار الإِيمان بهذا الاسم.

(٢) « شأن الدعاء » (ص ١٠٢ ـ ١٠٣)

(٣) « النونية » (٢/٢٢٩).

فهو (المجيبُ) إجابةً عامة للداعين مهما كانوا وأينما كانوا وعلى أي حال كانوا ، كما وعدهم بهذا الوعد المطلق ، وهو (المجيب) إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشرعه ، وهو (المجيب) أيضًا للمضطرين ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين ، وقَوِيَ تعلّقهم به طمعًا ورجاءً وخوفًا [1].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ وَصَفَ الله تعالى نفسه في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ أنه (قَرِيبٌ) من الداعي والمُتقرِّبُ إليه بأنواع الطاعة والإحسان ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾[البقرة: ١٨٦].

وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فكانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير فقال : « **أيها الناس ! ارْبَعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تَدْعون أصَمَّ ولا غائبًا ، إنما تَدعون سَميعًا قريبًا ، إن الذي تَدْعونه أقربُ إلى أحدِكم مِنْ عُنُقِ راحلته** » [2].

وفي الصحيحين أيضًا عن النبي ﷺ قال : « **يقول الله تعالى : مَنْ تقرَّب إلي شبرًا تقرَّبْتُ إليه ذراعًا ، ومن تقرب إليَّ ذراعًا تقربتُ إليه بَاعًا ، ومن أتاني يمشي أتيته هَرولة** » .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقُربه من العباد بتقربهم إليه مما يُقرُّ به جميع من يقول : إنه فوق العرش ، سواء قالوا مع ذلك : إنه تقوم به الأفعال الاختيارية أو لم يقولوا.

---

(١) « تيسير الكريم » (٥/ ٤ ، ٣).

(٢) سبق تخريجه في الجزء الأول .

وأما من يُنكر ذلك :

فمنهم من يفسر قُرب العباد بكونهم يُقاربونه ويشابهونه من بعض الوجوه فيكونون قريبين منه ! وهذا تفسير أبي حامد والمتفلسفة ، فإنهم يقولون : الفلسفة هي التشبه بالإله على قدر الطاقة !

ومنهم من يفسر قربهم بطاعتهم ، ويفسر قربه بإثابته ! وهذا تفسير جمهور الجهمية ، فإنهم ليس عندهم قرب ولا تقريب أصلاً .

ومما يدخل في معاني القرب ـ وليس في الطوائف من ينكره ـ قرب المعروف والمعبود إلى قلوب العارفين العابدين ، فإن كل من أحبَّ شيئًا فإنه لا بد أنْ يعرفه ويقرب من قلبه ، والذي يبغضه يبعد من قلبه ، لكن هذا ليس المراد به أنَّ ذاته نفسها تحلُّ في قلوب العارفين العابدين ! وإنما في القلوب معرفته وعبادته ومحبته ، والإيمان به ، ولكن العلم يطابق المعلوم.

وهذا الإيمان الذي في القلوب هو « المثل الأعلى » الذي له في السموات والأرض ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ** ﴾ [الزخرف: ٨٤] وقوله : ﴿ **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ** ﴾ [الأنعام: ٣].

وقد غلط في هذه الآية طائفة من الصوفية والفلاسفة وغيرهم : فجعلوه حلول الذات واتحادها بالعابد والعارف ! ! من جنس قول النصارى في المسيح وهو قول باطل كما قد بسط في موضعه .

والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته هو القول المعروف للسلف والأئمة،وهو قول الأشعري وغيره من الكلابية ، فإنهم يثبتون قُرب العباد إلى ذاته وكذلك يثبتون استواءه على العرش بذاته، ونحو ذلك، ويقولون:

الاستواء فِعْلٌ فَعَلَه في العرش فصار مستويًا على العرش ، وهذا أيضًا قول ابن عقيل ، وابن الزاغوني ، وطوائف من أصحاب أحمد وغيرهم .

وأما دُنُوه نفسه وتقربه من بعض عباده ، فهذا يثبته مَنْ يُثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ، ومجيئه يوم القيامة ، ونزوله ، واستواءه على العرش ، وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإِسلام المشهورين وأهل الحديث ، والنقل عنهم بذلك متواتر.

وأول من أنكر هذا في الإِسلام « الجهمية » ومن وافقهم من المعتزلة، وكانوا ينكرون الصفات والعلو على العرش ، ثم جاء ابن كُلاَّب فخالفهم في ذلك وأثبت الصفات والعلو على العرش ، لكن وافقهم على أنه لا تقوم به الأمور الاختيارية ، ولهذا أحْدَثَ قوله في القرآن : إنه قديم لم يتكلم به بقدرته ، ولا يُعرف هذا القول عن أحد من السلف ، بل المتواتر عنهم أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، كما ذكرتُ ألفاظهم في كتب كثيرة في مواضع غير هذا .

فالذين يُثبتون أنَّه كلَّم موسى بمشيئته وقدرته كلامًا قائمًا به ، هم الذين يقولون إنه يدنو ويقرب من عباده بنفسه ، وأما من قال : القرآن مخلوق أو قديم فأصل هؤلاء أنه لا يمكن أن يَقْرُبَ من شيء ولا يدنو إليه ، فمن قال منهم : بهذا مع هذا ، كان من تناقضه ، فإنه لم يفهم أصل القائلين بأنه قديم.

وأهل الكلام قد يعرفون من حقائق أصولهم ولوازمها ما لا يعرفه من وافقهم على أصل المقالة ، ولم يعرف حقيقتها ولوازمها ، فلذا يوجد كثير من الناس يتناقض كلامه في هذا الباب ، فإن نصوص الكتاب والسنة وآثار السلف متظاهرة بالإِثبات ، وليس على النفي دليل واحد : لا من

كتاب ولا من سنة ولا من أثر ، وإنما أصله قول الجهمية ، فلما جاء ابن كُلاب فرق ، ووافقه كثير من الناس على ذلك ، فصار كثير من الناس يقرُّ بما جاء عن السلف وما دل عليه الكتاب والسنة ، وبما يقوله النفاة مما يناقض ذلك ! ولا يهتدي للتناقض﴿ **وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [البقرة: ٢١٣] (١).

٢ ـ وَصْفُ الله تبارك وتعالى نفسه بالقرب من داعيه وعابده والساجد له وقربه منهم في جوف الليل وفي عشية عرفة ونحو ذلك مما جاءت به النصوص الصحيحة الصريحة ، لا يتنافى مع علوه على عرشه وفوقيته على عباده ـ وهو أيضًا مما ثبت بالأدلة المستفيضة ـ وذلك أن الله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، ولا يجوز أن تُقاس ذاته على ذوات خلقه ، أو فعله على أفعالهم .

وفي توضيح هذه المسألة يقول شيخ الإسلام : « وأما القُرب فهو كقوله : ﴿ **فَإِنِّي قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقوله : ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ [ق : ١٦] و ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الواقعة: ٨٥] .

وقد افترق الناس في هذا المقام « أربع فرق » :

« فالجهمية النفاة » الذين يقولون : ليس داخل العالم ، ولا خارج العالم ، ولا فوق ، ولا تحت ، لا يقولون بعلوه ولا بفوقيته . بل الجميع عندهم مُتأول أو مفوض .

وجميع أهل البدع قد يتمسكون بنصوص : كالخوارج ، والشيعة ،

(١) « مجموع الفتاوى » (٥/ ٤٦٥ ـ ٤٦٧).

والقدرية ، والرافضة ، والمرجئة ، وغيرهم ، إلا الجهمية فإنهم ليس معهم عن الأنبياء كلمة واحدة توافق ما يقولونه من النفي ، ولهذا قال ابن المبارك ويوسف بن أسباط : إنَّ الجهمية خارجون عن الثلاث والسبعين فرقة ، وهذا أحد الوجهين لأصحاب أحمد ذكرهما أبو عبد الله بن حامد وغيره.

« وقسم ثان » يقولون : إنه بذاته في كلٍّ مكان ، كما يقوله النَّجَّارية، وكثير من الجهمية ـ عبادهم ، وصوفيتهم ، وعوامهم ـ يقولون: إنَّه عينُ وجود المخلوقات ، كما يقوله « أهلُ الوحدة » القائلون بأن الوجود واحد ومن يكون قوله مركبًا من الحلول والاتحاد ، وهم يحتجون بنصوص « المعية والقرب » ، ويتأولون نصوص « العلو ، والاستواء » وكل نصٍّ يحتجون به حجة عليهم ، فإن المعية أكثرها خاصة بأنبيائه وأوليائه ، وعندهم أنه في كل مكان !

وفي النصوص ما يُبيِّنُ نقيض قولهم ، فإنه قال : ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الحشر: ١] فكل من في السموات والأرض يسبح والمسبِّح غير المسبَّح ، ثم قال : ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ**﴾ [الحديد: ٢] فبين أنَّ الملك له ، ثم قال : ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الحديد: ٣] .

وفي الصحيح : « **أنتَ الأولُ فليس قَبلك شيء وأنتَ الآخر فليس بعدك شيء ، وأنتَ الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء** » فإذا كان هو الأول كان هناك ما يكون بعده ، وإذا كان آخرًا كان هناك ما الرب بعده ، وإذا كان ظاهرًا ليس فوقه شيء كان هناك ما الرب ظاهر عليه ، وإذا كان باطنًا ليس دونه شيء كان هناك أشياء نفي عنها أنْ

تكون دونه .

ولهذا قال « ابن عربي » : من أسمائه الحسنى (العلي) على من يكونُ عليًا ؟! وما ثم إلا هو ! وعلى ماذا يكون عليًا !! وما يكون إلا هو، فعلوُّه لنفسه ، وهو من حيث الوجود ، عين الموجودات ، فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها ، وليست إلا هو . ثم قال : قال الخراز : « وهو وجه من وجوه الحق ولسان من ألسنته ينطق عن نفسه بأن الله يعرف بجمعه بين الأضداد : فهو عين ما ظهر ، وهو عين ما بطن في حال ظهوره وما ثم من تراه غيره ، وما ثم من بطن عنه سواه ، فهو ظاهر لنفسه ، وهو باطن عن نفسه » وهو المسمى « أبو سعيد الخراز».

و « المعية » لا تدل على المُمازجة والمخالطة ، وكذلك لفظ القرب، فإن عند الحلولية أنه في حبل الوريد ! كما هو عندهم في سائر الأعيان ! وكل هذا كُفْرٌ وجهل بالقرآن .

« والقسم الثالث » من يقول : هو فوق العرش ، وهو في كل مكان ويقول : أنا أقر بهذه النصوص ، وهذه لا أصرف واحدًا منها عن ظاهره. وهذا قول طوائف ذكرهم الأشعري في « المقالات الإسلامية » وهو موجود في كلام طائفة من السالمية والصُّوفية .

وهذا الصنف الثالث وإن كان أقربَ إلى التمسك بالنصوص وأبعد عن مخالفتها من الصنفين الأولين .

فإن الأول لم يتبع شيئًا من النصوص ، بل خالفها كلها .

والثاني ترك النصوص الكثيرة المحكمة المبينة وتعلق بنصوص قليلة اشتبهت عليه معانيها .

وأما هذا الصنف فيقول : أنا اتبعت النصوص كلها ، لكنه غالط أيضًا .

فكل من قال : إن الله بذاته في كل مكان فهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها ، مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده ، ولصريح المعقول وللأدلة الكثيرة ، وهؤلاء يقولون أقوالاً متناقضة ، يقولون : إنه فوق العرش . ويقولون : نصيب العرش منه كنصيب قلب العارف ، كما يذكر مثل ذلك أبو طالب وغيره ، ومعلوم أن قلب العارف نصيبه منه المعرفة والإيمان وما يتبع ذلك ، فإن قالوا : إن العرش كذلك نقضوا قولهم : إنَّه نفسه فوق العرش . وإن قالوا بحلوله بذاته في قلوب العارفين كان هذا قولاً بالحلول الخالص !

وقد وقع في ذلك طائفة من « الصوفية » حتى صاحب « منازل السائرين » في توحيده المذكور في آخر المنازل في مثل هذا الحلول ، ولهذا كان أئمة القوم يحذرون من مثل هذا . سُئِل « الجنيد » عن التوحيد فقال : هو إفراد الحدوث عن القدم . فبيَّن أنه لا بد للموحد من التمييز بين القديم الخالق والمحدث المخلوق فلا يختلط أحدهما بالآخر ، وهؤلاء يقولون في أهل المعرفة ما قالته النصارى في المسيح والشيعة في أئمتها ، وكثير من الحلولية والإباحية يُنكر على الجنيد وأمثاله من شيوخ أهل المعرفة المتبعين للكتاب والسنة ما قالوه من نفي الحلول ! وما قالوه في إثبات الأمر والنهي ، ويرى أنهم لم يكملوا معرفة الحقيقة كما كملها هو وأمثاله من الحلولية والإباحية !

وأما « القسم الرابع » فهم سلف الأمة وأئمتها : أئمة العلم والدين من شيوخ العلم والعبادة ، فإنهم أثبتوا وآمنوا بجميع ما جاء به الكتاب

والسنة كله من غير تحريف للكلم ، أثْبتوا أنَّ الله تعالى فوق سمواته ، وأنه على عرشه بائنٌ من خلقه وهم منه بائنون ، وهو أيضًا مع العباد عمومًا بعلمه ، ومع أنبيائه وأوليائه بالنصر والتأييد والكفاية ، وهو أيضًا قريبٌ مجيب ، ففي آية النجوى دلالة على أنه عالم بهم.

وكان النبي ﷺ يقول : « **اللهم أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ والخَليفةُ في الأهل** » ، فهو سبحانه مع المسافر في سفره ومع أهله في وطنه ، ولا يلزم من هذا أن تكون ذاته مختلطة بذواتهم ! كما قال: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾ [الفتح: ٢٩] : أي : (معه) على الإيمان ، لا أنَّ ذاتهم في ذاته بل هم مُصاحبون له . وقوله : ﴿ **فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [النساء: ١٤٦] يدل على موافقتهم في الإيمان وموالاتهم ، فالله تعالى عالمٌ بعباده وهو معهم أينما كانوا ، وعلمه بهم من لوازم المعية ، كما قالت المرأة : زوجي طويلُ النَّجاد ، عظيم الرماد ، قريبُ البيت من النَّاد : فهذا كله حقيقة ، ومقصودها : أن تُعرف لوازم ذلك وهو : طول القامة والكرم بكثرة الطعام وقرب البيت من موضع الأضياف .

ثم قال : « وأما لفظُ (القرب) فقد ذكره تارة بصيغة المفرد ، وتارة بصيغة الجمع ،فالأول إنما جاء في إجابة الداعي : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة: ١٨٦] وكذلك في الحديث : « **ارْبَعوا على أنفسكم ، فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا ، إنما تدعون سميعًا قريبًا ، إنَّ الذي تدعون أقربُ إلى أحدكم من عنق راحلته**» ، وجاء بصيغة الجمع في قوله ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ [ق : ١٦] وهذا مثل قوله : ﴿ **نَتْلُوا عَلَيْكَ** ﴾ [القصص: ٣]، ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ** ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ** ﴾ [القيامة: ١٨] و ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴾ [القيامة: ١٧] و ﴿ **عَلَيْنَا**

﴿بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩] . فالقرآن هنا حين يسمعه من جبريل ، والبيان هنا بيانه لمن يبلغه القرآن .

ومذهب سلف الأمة وأئمتها وخلفها : أنَّ النبي ﷺ سمع القرآن من جبريل ، وجبريل سمعه من الله عز وجل.

وأما قوله :﴿نَتْلُوا﴾ و ﴿ نَقُصُّ ﴾ و ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ فهذه الصيغة في كلام العرب للواحد العظيم الذي له أعْوانٌ يُطيعونه ، فإذا فعل أعوانه فعلاً بأمره قال : نحن فعلنا . كما يقول الملك : نحن فتحنا هذا البلد وهزمنا هذا الجيش ، ونحو ذلك ؛ لأنه إنما يفعل بأعوانه ، والله تعالى رب الملائكة ، وهم لا يسبقـونه بالقول وهم بأمره يعملون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهو مع هذا خالقهم وخالق أفعالهم وقدرتهم وهو غنيٌّ عنهم ، وليس هو كالملك الذي يفعل أعوانه بقدرة وحركة يستغنون بها عنه ، فكان قوله لما فعله بملائكته : نحن فعلنا ، أحق وأولى من قول بعض الملوك ».

ثم ذكر أنَّ هذا من المتشابه الذي يعلم الراسخون في العلم تفسيره فقال : « فالراسخون في العلم يعلمون أن قوله :

(نحن) أنَّ الله فعل ذلك بملائكته ، وإنْ كانوا لا يعرفون عدد الملائكة ولا أسماءهم ولا صفاتهم وحقائق ذواتهم ، ليس الراسخون كالجهال الذين لا يعرفون (إنَّا) و (نحن) ، بل يقولون : ألفاظًا لا يعرفون معانيها ، أو يجوزون أنْ تكون الآلهة ثلاثة متعددة ! أو واحدًا لا أعوان له !

ومن هذا قول الله تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢] فإنه سبحانه يتوفاها برسله كما قال :﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] ، ﴿يَتَوَفَّاكُم

﴿مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] فإنه يتوفاها برسله الذين مُقدمهم ملك الموت.

وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨] هو قراءة جبريل له عليه والله قرأه بواسطة جبريل كما قال: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١] فهو مكلِّمٌ لمحمدٍ بلسان جبريل وإرساله إليه، وهذا ثابتٌ للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤] وإنباء الله لهم إنما كان بواسطة محمد إليهم.

وكذلك قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١] فهو أنزل على المؤمنين بواسطة محمد.

وكذلك ذوات الملائكة تقرب من ذات المحتضر، وقوله﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق ١٦] فإنه سبحانه هو وملائكته يعلمون ما توسوس به نفس العبد كما ثبت في الصحيحين: «**إذا هَمَّ العَبدُ بحَسنة فلم يعملها قالَ اللهُ لملائكته: اكتبوها له حَسنة، فإنْ عَملَها قال: اكْتُبُوها له عشر حسناتٍ، وإذا هم بسيئة ...**» إلى آخر الحديث، فالملائكة يعلمون ما يهم بهِ من حسنة وسيئة، و«الهمُّ» إنما يكون في النفس قبل العمل، وأبلغ من ذلك أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهو يوسوس له بما يهواه فيعلم ما تهواه نفسه.

فقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] هو قربُ ذَوَات الملائكة وقرب علم الله منه، وهو رَبُّ الملائكة والروح، وهم لا يعلمون شيئًا إلا بأمره، فذاتهم أقربُ إلى قلب العبد من حبل الوريد،

فيجوز أنْ يكون بعضهم أقرب إليه من بعض ، ولهذا قال في تمام الآية : ﴿ **إذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وهذا كقوله : ﴿ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴾ [الزخرف: ٨٠] ، فقوله (إذ) ظرف ، فأخبر أنهم ﴿ **أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾ [ق: ١٦] حين يتلقى المُتلقيان ، ما يقول :﴿ **إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ** ﴾ قعيد ﴿ **وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ** ﴾ [ق: ١٧] ثم قال ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق : ١٨] : أي شاهد لا يغيب.

فهذا كلُّه خبرٌ عن الملائكة ، فقوله : ﴿ **فَإِنِّي قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة: ١٨٦] ، و « **هو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته** » ، فهذا إنما جاء في الدُّعاء لم يذكر أنه (قريبٌ) من العباد في كل حال ! وإنما ذكر ذلك في بعض الأحوال ، وقد قال في الحديث : « **أقْرَبُ ما يكون العبدُ من رَبّه وهو ساجد** ».

وقال تعالى : ﴿ **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾ [العلق: ١٩] ، والمراد القربُ من الدَّاعي في سجوده، كما قال : « **وأما السُّجود فأكثِروا من الدُّعاء فقَمِنٌ أنْ يُستجاب لكم** » ، فأمر بالاجتهاد في الدعاء في السجود مع قُرب العبد من ربِّه وهو ساجد . وقد أَمَرَ المصلي أنْ يقول في سجوده : « **سبحان ربي الأعلى** » رواه أهل السنن.

وعلَّل ذلك بقوله : « وذلك أنَّ السجود غاية الخضوع والذل من العبد، وغاية تَسْفيله ، وتواضعه : بأشرف شيءٍ فيه لله ـ وهو وجهه ـ بأنْ يضعه على التراب ، فناسب في غاية سُفُوله أنْ يصفَ ربَّه بأنه (الأعلى)

والأعلى أبلغ من (العلي) فإن العبد ليس له من نفسه شيء ، هو باعتبار نفسه عدم محض ، وليس له من الكبرياء والعظمة نصيب .

وكذلك في « العلو في الأرض » ليس للعبد فيه حق ، فإنه سبحانه ذَمَّ من يريد العلو في الأرض : كفرعون ، وإبليس ، وأما المؤمن فيحصل له العلو بالإيمان ، لا بإرادته له ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] » .

[كلما كمَّل العبد مراتب العبودية كان أقرب إلى الله تعالى] :

فلما كان السجود غايةَ سُفُول العبد وخضوعه، سبَّحَ اسم ربه الأعلى فهو سبحانه الأعلى ، والعبد الأسفل ، كما أنه الربُّ ، والعبدَ العبدُ ، وهو الغني ، والعبد الفقير ، وليس بين الربِّ والعبد إلا محض العبودية، فكلما كَمَّلَها قَرُبَ العبد إليه ، لأنه سبحانه بَرٌّ ، جوادٌ محسن ، يُعطي العبد ما يناسبه ، فكلما عَظُمَ فقره إليه كان أغنى ، وكلما عَظُم ذلُّه له كان أعز، فإنَّ النفس ـ لما فيها من أهوائها المتنوعة وتسويل الشيطان لها ـ تبعد عن الله حتى تصير ملعونة بعيدة من الرحمة . « واللعنة » هي : البُعد ، ومن أعظم ذنوبها إرادة العلو في الأرض ، والسجود فيه غاية سفولها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] .

وفي الصحيح : « **لا يَدْخُل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقالُ ذَرة من كبر** » وقال لإبليس : ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف: ١٣] ، وقال : ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ [التوبة: ٤٠] ، فهذا وصف لها ثابت . لكن من أراد أنْ يعلي غيرها جوهد ، وقال : « **منْ قاتل لتكونَ كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله** » .

« وكلمة الله » : هي خبره وأمره ، فيكون أمره مطاعًا مقدمًا على أمر غيره ، وخبره مُصدَّقٌ على خبر غيره ، وقال : ﴿ **وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه** ﴾ [الأنفال: ٣٩] « والدين » : هو العبادة والطاعة والذل ، ونحو ذلك ، يقال: دنته فدان : أي : ذَلَّلته فذل ».

[شرح حديث « من تقرب إلي شبرًا ... »] :

ثم قال : وقوله « **ومن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، ومن تقرب إلي ذراعًا تقرَّبت إليه باعًا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة** » ، فقربُ الشيء من الشيء مستلزم لقرب الآخر منه ، لكن قد يكون قربُ الثاني هو اللازم من قرب الأول ، ويكون منه أيضًا قُرْبٌ بنفسه ، فالأول : كمن تقرَّب إلى مكة أو حائط الكعبة، فكلما قَرُبَ منه قَرُبَ الآخر منه من غير أن يكون منه فعل ، والثاني : كقرب الإنسان إلى من يتقرب هو إليه كما تقدم في هذا الأثر الإلهي ، فتقرب العبد إلى الله وتقريبه له نَطَقَت به نصوص متعددة، مثل قوله : ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** ﴾ [الإسراء: ٥٧] ﴿ **فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ﴾ [الواقعة: ٨٨] ، ﴿ **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [المطففين: ٢٨] ، ﴿ **وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [النساء: ١٧٢] ، ﴿ **وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ﴾ [آل عمران: ٤٥] ، « **وما تقرَّبَ إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه** » الحديث . وفي الحديث : « **أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه في جَوفِ الليل الآخر** ».

وقد بسطنا الكلام على هذه الأحاديث ومقالات الناس في هذا المعنى في « جواب الأسئلة المصرية على الفتيا الحموية » فهذا قُرب الربِّ نفسه إلى عبده ، وهو مثل نزوله إلى السماء الدنيا . وفي الحديث الصحيح : « **إن الله يَدْنُو عَشية عرفة** » الحديث ، فهذا القرب كلُّه خاص ، وليس في

الكتاب والسنة قط قربُ ذاته من جميع المخلوقات في كل حال ، فعلم بذلك بُطلان قول الحلولية ، فإنهم عَمَدوا إلى الخاص المقيد فجعلوه عامًا مطلقًا ، كما جعل إخوانهم « الإتحاديَّة » ذلك في مثل قوله : «**كنتُ سمعه**» ، وفي قوله : « **فيأتيهم في صورة غير صورته** » ، وأنَّ الله قال على لسان نبيه : « **سَمِع الله لمن حمده** ».

وكل هذه النصوص حجة عليهم ، فإذا فُصِّلَ تبين ذلك ، فالداعي والساجد يوجه روحه إلى الله، والروح لها عروج يناسبها ، فتقرب من الله تعالى بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب ، فيكون الله عز وجل منها قريبًا قربًا يلزم من قربها ، ويكون منه قرب آخر كقربه عشية عرفة ، وفي جوف الليل ، وإلى من تقرب منه شبرًا تقرب منه ذراعًا.

وظاهر قوله : ﴿**فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾ [البقرة: ١٨٦] يدل على أنَّ القربَ نَعته ، ليس هو مجرد ما يلزم من قرب الداعي والساجد . ودنوه عشية عرفه هو لما يفعله الحاج ليلتئذ من الدعاء ، والذكر ، والتوبة ، وإلا فلو قُدِّرَ أنَّ أحدًا لم يقف بعرفة لم يحصل منه سبحانه ذلك الدنو إليهم ، فإنه يباهي الملائكة بأهل عرفة ، فإذا قُدِّر أنه ليس هناك أحد لم يحصل ، فدلَّ ذلك على تقربهم إليه بسبب قربه منهم كما دل عليه الحديث الآخر.

والناسُ في آخر الليل يكون في قلوبهم من التوجُّه والتقرب والرِّقة ما لا يوجد في غير ذلك الوقت ، وهذا مناسب لنزوله إلى السماء الدنيا ، وقوله : « **هل من داع ؟ هل من سائل ؟ هل من تائب ؟** ».

ثم إنَّ هذا النزول هل هو كدنوه عشية عرفة مُعلَّق بأفعال ؟ فإن في بلاد الكفر ليس فيهم من يقوم الليل فلا يحصل لهم هذا النزول ، كما أنَّ دُنوه عشية عرفة لا يحصل لغير الحجاج في سائر البلاد ، إذ ليس لها

وقوف مشروع ، ولا مباهاة الملائكة ، وكما أن تَفْتيح أبواب الجنة ، وتغليق أبواب النار ، و تصفيد الشياطين إذا دخل شهر رمضان - إنما هو للمسلمين الذين يصومونه لا الكفار الذين لا يرون له حرمة .

وكذلك اطلاعه على يوم بدر وقوله لهم : « **اعملوا ما شئتم** » كان مختصًا بأولئك أم هو عام ؟ فيه كلام ليس هذا موضعه .

والكلام في هذا « القُرب » من جنس الكلام في نزوله كل ليلة ودُنوه عشية عرفة ، وتكليمه لموسى من الشجرة ، وقوله ﴿ **أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ [النمل: ٨] وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع. . . »[1].

* * *

(١) « مجموع الفتاوي » (٥/٢٢٧ - ٢٤٢) باختصار.

الفاطر

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٢)

*** المعنى اللغوي :**

فَطَرَ الشيءَ يَفْطُرُه فَطْرًا فانفطر ، وفَطَّره : شقَّه ، وتفطَّر الشيء تشقَّقَ، والفَطْر : الشّقُّ ، وجمعه فُطُور ، وفي التنزيل : ﴿ **هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ** ﴾ [الملك: ٣] ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ** ﴾ [الانفطار: ١] .

وتفطَّرت الأرضُ بالنبات : إذا تصدَّعت ، والفُطْرُ : ما تفطَّر من النبات ، وفَطَرَ نابُ الجمل : أي : انشق فخرج.

وفَطَرَ الله الخلق يفطُرهم : خلقهم وبدأهم ، والفَطْر والفطْرة : الابتداء والاختراع ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [فاطر: ١] [(١)].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد الاسم في القرآن ست مرات ، وهي :

قول الله تعالى ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ** ﴾ [الانعام: ١٤]

وقوله : ﴿ **فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا**

(١) « الصحاح » (٢/ ٧٨١ ـ ٧٨٢) و« اللسان » (٥/ ٣٤٣٢ ـ ٣٤٣٥) مادة (فطر) ، و «تفسير ابن جرير » (٧/ ١٠٢).

وَالآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠١] .

وقوله : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١] .

وقوله : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الزمر: ٤٦] .

وقوله : ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١].

* **معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال قتادة : ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ :خالق السموات والأرض(١). وكذا قال أبو عبيدة (٢).

وقال ابن جرير : ويعني بقوله : ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ : مُبْتدعها ومُبتدئها وخالقها (٣).

وقال الخطابي : « الفاطر » : هو فَطَرَ الخلق ، أي : ابتدأ خَلْقهم كقوله تعالى : ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] .

ومن هذا قولهم : فَطَرَ نابُ البعير ، وهو أولُ ما يَطْلُعُ .

---

(١) أخرجه عنه ابن جرير (١٠٢/٧) بسند صحيح.

(٢) « مجاز القرآن » (١٨٧/١) .

(٣) « جامع البيان » (١٠١/٧) وانظر : (٤٧/١٣) ، (٧٦/٢٢) ،(٨/٢٤) ، (٨/٢٥) فقد ذكر نحوه.

وأخبرني الحسن بن عبد الرحيم قال : حدثنا عبد الله بن زيدان قال: قال أبو رَوْقٍ عن ابن عباس : « لم أكن أعلم معنى ﴿ **فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ حتى اختصم أعرابيان في بئرٍ فقال أحدُهما : أنا فَطَرتُها ، يريد: أنا الذي استَحدثتُ حَفْرها »[1].

وقال الحليمي: (الفاطر) ومعناه: فَاتِقُ المرتتق من السماء والأرض، قال الله عز وجل : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا** ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فقد يكون المعنى : كانت السماء دخانًا فَسوَّاها وأغْطَشَ ليلها وأخرجَ ضُحاها ، وكانت الأرض غير مَدْحُوَّة فَدَحَاها ، وأخرج منها ماءها ومرعاها ، ومن قال هذا قال :﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ ومعناه : ألم يعلموا .

وقد يكون المعنى ما روي في بعض الآثار : فَتَقْنَا السماء بالمطر ، والأرض بالنبات .

ثم ذكر أثر ابن عباس السابق ، ثم قال : والاعتراف بالإبداع يقتضي هذا المعنى ويأتي عليه[2].

---

(١) « شأن الدعاء » (ص ١٠٣) ، والأثر الذي ذكره فيه عبد الله بن زيدان لم أعرفه ، إذ لم أجد من يسمى عبد الله بن زيدان إلا ابن بُريد البجلي الكوفي المترجم في « سير أعلام النبلاء » (١٤/ ٤٣٦) وهو متأخر توفي سنة (٣١٣ هـ).

والأثر أخرجه أيضًا ابن جرير (٧/ ١٠١) والبيهقي في « الشعب » (١٦٨٢) وفي سنده إبراهيم بن مهاجر البجلي وابن وكيع وهو سفيان وفيهما ضعف . وعزاه السيوطي في «الدر المنثور » (٣/ ٢٥٥) إلى أبي عبيد في فضائله وابن الأنباري في الوقف والابتداء

(٢) « المنهاج » (١/ ١٩٤) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداع والاختراع له ، ونقله البيهقي في الأسماء (ص ٢٧) ، ونقل الأصبهاني في « الحجة » (ق ٢٦ ب) قول الحليمي مختصراً ثم قول الخطابي .

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ أن المبتدئ لخلق السموات والأرض هو الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، ولا خالق سواه ، وأنه تعالى الذي فَتَقَ السماء بالمطر والأرض بالنبات .

وأنه تعالى هو المبتدئ أيضًا لخلق جميع المخلوقات وقد كانت عَدَمًا قال سبحانه : ﴿ **أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا** ﴾[مريم: ٦٧].

وإذا كان هو المبتدئ للخلق فكيف يُعبد غيره ويُعظَّم سواه ؟! وقد نبَّه الله تعالى عباده إلى ذلك في مواضع من كتابه منها : قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ** ﴾ ثم قال بعد هذا ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٤ـ ٥٥].

٢ ـ وقد كان النبي ﷺ يُعَظِّمُ ربَّه بهذا الاسم ويدعوه ، كما قال أبو سلمة بن عبد الرحمن : سألت عائشة أم المؤمنين: بأي شيءٍ كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: « **اللهم ربَّ جِبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيل ، فاطرَ السمواتِ والأرضِ ، عالمَ الغيبِ والشَّهَادَةِ أنتَ تحكمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهْدِني لِما اخْتُلِف فيه من الحقِّ بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى طراطٍ مستقيم** »[١].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة (١/ ٥٣٤).

وكذا في دعاء التَّوجُّه الطويل : فعن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ إنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « **وجَّهتُ وجْهِيَ للذي فَطَرَ السموات والأرضَ حَنيفًا وما أنا من المشركين ، إنَّ صلاتي ونُسكي ومَحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنَا من المسلمين اللهم أنتَ الملك** ... »[1].

فقوله : « **وجهت وجهي** » أي : قصدت بعبادتي الذي فطر السموات والأرض.

* * *

---

(١) « المصدر السابق ».

النَّاصرُ ـ النَّصير
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٩٣)

* **المعنى اللغوي :**

نَصَرَهُ يَنْصُرُه نَصرًا إذا أعَانه على عَدُوِّه ، والاسم النُّصْرة.

والنَّصيرُ : النَّاصر ، والجمع : الأنصار ، مثل شريف وأشراف .

واستَنْصَرَهُ على عدوه ، أي : سأله أن يَنْصُرَه عليه.

وتَنَاصروا : نَصَرَ بعضُهم بعضًا ، والتَّنَاصر : التعاون على النَّصر.

وانْتَصَرَ منه : انتقم (١).

وقال الراغب : النَّصْرُ والنُّصْرةُ : العَوْن (٢).

* **وروده في القرآن الكريم :**

ورد اسمه (النَّاصر) مرة واحدة بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿ **بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٠].

أما اسمه (النَّصير) فقد ورد أربع مرات ، هي :

قوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾ [الأنفال: ٤٠]

---

(١) « الصحاح » (٢/٨٢٩) و « اللسان » (٦/٤٤٣٩ ـ ٤٤٤١) مادة (نصر).

(٢) « المفردات » (ص ٤٩٥).

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

وقوله تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله تعالى : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير : ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ وليكم وناصركم على أعدائه الذين كفروا ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ لا مَنْ فررتم إليه من اليهود وأهل الكفر بالله !! فبالله الذي هو ناصركُم ومولاكُم فاعْتصموا ، وإياه فاستنصروا دون غيره ممن يبغيكم الغوائل ويرصدكم بالمكاره [١].

وقال في قوله :﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ : وحَسبكم بالله ناصرًا لكم على أعدائكم وأعداء دينكم ، وعلى من بَغَاكم الغَوائل ، وبَغَى دينكم العِوج [٢].

وقال :﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ : وهو النَّاصر [٣].

وقال :﴿وَنَصِيرًا﴾ يقول : ناصرًا لك على أعدائك ، يقول : فلا يَهولَنَّك أعداؤك من المشركين ، فإني ناصِرُك عليهم فاصْبر لأمري ، وامضِ لتبليغ رسالتي إليهم [٤].

---

(١) «جامع البيان» (٣/ ٨٠ ـ ٨١)

(٢) المصدر السابق (٥/٧٥).

(٣) المصدر السابق (٩/١٦٣).

(٤) المصدر السابق (١٩/٨).

وقال الحليمي : (الناصر) هو الميَسِّرُ للغلبة .

و (النصير) : وهو الموثوقُ منه بأنْ لا يُسْلِم وليَّه ولا يخذله [1].

وقال القرطبي : وله معان منها : العَوْن ، يقال : نصره الله على عدوه ينصره نصراً فهو ناصر ونصير للمبالغة ، والاسم النُّصرة ، والنصير الناصر [2].

وقال الأصبهاني : « النصير والناصر » بمعنى ، ومعناه : يَنصرُ المؤمنين على أعدائهم ، ويُثبِّتُ أقدامهم عند لقاء عدوهم ، ويُلقي الرُّعب في قلوب عدوهم [3].

وقال ابن كثير : ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ : يعني نِعم الوَلي ونِعم النَّاصر من الأعداء [4].

❋ من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ ـ إن الله تعالى هو (النَّصير) الذي ينصر رسله وأنبياءه وأتباعهم من المؤمنين ، وأنه تعالى مصدر النصر الحقيقي ، فالمنصور : مَنْ نَصَره، والمخذول المهزوم : مَنْ خَذَله.

قال القرطبي : فيجب على كلِّ مكلف أنْ يعتقد أن النصر على الإطلاق إنما هو لله تعالى ، كما قال :﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] وأن الخذلان منه [1].

---

(١) « المنهاج » (١/ ٢٠٥) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٧٠).

(٢) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٣٨ ب).

(٣) « الحجة » (ورقة ٢٤ ب).

(٤) « تفسير القرآن » (٣/ ٢٣٧).

(١) فهل يعي هذا المسلمون!!فيتركون الالتجاء إلى الشرق والغرب ـ طلبًا للنصر والقوة =

ولا يجوز أن يقال منها : خاذل ، لأنه لم يرد به إذن .

والنصر يستدعي ناصرًا ومَنْصُورًا ومنصورًا عليه ، فتأييد الله أولياءه المؤمنين بالملائكة نصرٌ لهم على أعدائهم ، كما نَصَرَ نبيه عليه السلام وصحبه يوم بدر بالملائكة، فيكون المَلَكُ على هذا منصورًا على أعداء المؤمنين ، وأعداءُ المؤمنين أعداءٌ لله ولملائكته ، وقد يكون نصر الله للمَلَكِ عونه على عبادته وطاعته ، إذ ليس له عدو في مقابلته لأنه نورٌ كله فلا ظُلْمة تجاذبُه !

فهذه النصرة لا تستدعي منصورًا عليه ، والإنسان يُجَاذبه عدوه إبليس والهوى ، فإذا نَصَره الله نصرًا باطنًا فعلى هؤلاء ينصره ، وإذا نصره نصرًا ظاهرًا فينصره على أعدائه الكافرين ، وجميع الظالمين ، فإن أصاب الظَّفَر بالعدو الظاهر فهو المنصور ، وإنْ ثبت على دين الله وصبر فكان للكافر الظفر ؛ فالمؤمن أيضًا منصور ، لأن صبره على قتال عدوه وثبات نفسه في دفع الهوى ـ الذي من طبعه الخذلان ـ هو النصر ، إلا أنَّ هذا نصرٌ باطن ، وثواب عليه قائم ، وقد حصل له النصر من الله على عدوه إبليس الذي يَرومُ خِذلان الإنسان [1].

٢ ـ فهذه نصرة الله لعباده ، أما نصرة العبد لربه فهي عبادته والقيام بحقوقه ورعاية عهوده واجتناب نهيه ، قال تعالى : ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [محمد: ٧].

قال القرطبي : فإن قيل كيف قال تعالى : ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ**

= والعزة ـ ويلجأون إلى المولى النصير سبحانه وتعالى ، ويصطلحون معه بدلاً من الاصطلاح مع أعدائه ؟ !!

(١) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٤٠ أ ، ب)

يَنصُرْكُمْ﴾ والنصر هو العون ، والله سبحانه لا يجوز عونه قولاً ولا يتصور فعلاً ؟

فالجواب : من أوجه :

أحدها : إن تنصروا دين الله بالجهاد عنه ينصركم .

الثاني : إن تنصروا أولياء الله بالدعاء .

الثالث : إن تنصروا نبي الله وأضافَ النصر إلى الله تشريفًا للنبي ﷺ وأوليائه وللدين ، كما قال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] فأضاف القرض إليه تسليةً للفقير .

وجاء فعل « النصر » في مواضع كثيرة ـ صفات الأفعال ـ مضافًا [١] إلى من خصَّهُ الله بالنُّصرةِ وهم : الملائكة والمؤمنون لا غير ، فإنَّ حقيقة النَّصر المعونة بطريق التَّولي والمحبة، والمعونة على الشر لا تُسمى نصرًا ، ولذلك لا يقال في الكافر إذا ظَفَر بالمؤمن أنه منصورٌ عليه ، بل يقال هو مُسَلَّطٌ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٠].

وقوله عليه السلام إذْ ذكر أئمةَ الجور في آخر الزمان « **وينصرون على ذلك** » ، أراد أنهم ينصرون على الكافرين ، ويكون نصر الله تعالى لدينه راجعًا له ، وإبقاء لكلمته ، كما قال عليه السلام : « **إن الله يؤيدُ هذا الدِّين بالرَّجُلِ الفَاجر** » [٢].

---

(١) في الأصل : «مضافٌ» وهو خطأ.

(٢) أخرجه البخاري (٦/١٧٩) ، (٧/٤٧١) ، (١١/٤٩٨ ـ ٤٩٩) ومسلم في الإيمان (١/١٠٥ ـ ١٠٦) عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ حنينًا فقال لرجلٍ ممن يُدْعى بالإسلام : « **هذا من أهل النار** ...» الحديث .

ولو وردت لفظة « النَّصر » للكافر ، لكان معناه التسليط والعون البشري ، وإنما حقيقة النصر ما ذكرناه أولاً ،وقد يحمل قوله عليه السلام في أئمة الجور أنهم ينصرون، أي: يعطون الدنيا ويملأ لهم فيها، يقال : نَصره ينصره إذا أعطاه، ومن كلام بعضِ العرب : انصروني نصركم الله ، أي : أعطوني أعطاكم الله [1].

وقال الأصبهاني : فينبغي لكلِّ أحد إذا رأى معروفًا أن يأمرَ به ، وإذا رأى منكرًا أن ينهى عنه ، ويعتقد أنَّ الله ينصره ، قال تعالى :﴿ **إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ** ﴾ [محمد : ٧] وكلُّ من يريد بقوله وعمله رضى الله ينصره الله ويُعينه ، فينبغي إذا رأى منكرًا أن يُغيره بيده إن قَوِيَ ، وإلا بلسانه إن ضَعُفَ ، فإن عجز عن الأمرين أنكر بقلبه وذلك أضعفُ الإيمان [2].

والله تعالى قادرٌ على نصرة دينه فإنه نصر عبده وأعزَّ جنده وهَزَم الأحزابَ وحده ،فإنه القوي القادر على كل شيء،ولكنه ابتلى عباده بذلك ليَظهر من ينصر دينه وشرعه ممن يتولى عن نصرته،قال سبحانه:﴿ **ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ**﴾ [محمد: ٤].

وقال : ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ** ﴾ [التوبة: ٤٠].

٣ ـ أوضح الله تعالى لعباده أنه لا ناصرَ لهم دونه ، ولا معين لهم سواه وذلك في آيات كثيرة ، لتتوجه قلوبُهم له ، وأكفُّهم بالضَّراعةِ إليه.

قال سبحانه:﴿ **وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** ﴾ [البقرة: ١٠٧]، وقد تكررت في القرآن تأكيدًا لهذا المعنى.

---

(١) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٣٣٩ ب ـ ٣٤٠ أ)

(٢) « الحجة » (ورقة ٢٤ ب).

وقال سبحانه : ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك: ٢٠].

وقال : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وأيقن بذلك عباده المؤمنون ، فقال نوح عليه السلام لقومه حين عابوا عليه اتباع الفقراء والضعفاء لدعوته ، وأمروه بطردهم: ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٣٠] .

وقال صالح عليه السلام: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود: ٦٣].

وقال الرجل المؤمن من قوم فرعون مُذكرًا قومه بعاقبة كفرهم وإعراضهم عن الإيمان بالله ورسوله ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ﴾ [غافر: ٢٩] .

وقال تعالى عن قوم نوح عليه السلام : ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾ [نوح: ٢٥] .

ولما خسف الله تعالى بقارون المختال الكفور قال : ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١] .

وكذا لما أحاط الله عز وجل بمال الرجل الذي كفر بربه وبالبعث وأهلك بستانه ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾[الكهف : ٤٢] ثم قال تعالى : ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف: ٤٣] .

٤ ـ كان ﷺ إذا غزَا قال : « **اللهم أنتَ عَضُدِي ونَصيري ، بكَ أحُولُ ، وبك أصُولُ ، وبك أُقَاتل** »[1].

---

(١) حديث صحيح:أخرجه أحمد (٣/ ١٨٤) وأبو داود (٣/ ٢٦٢٣) والترمذي (٥/ ٣٥٨٤) =

قال الترمذي : قوله « عضدي » : يعني عوني .

وقال الخطابي : قوله « أحُول » معناه أحتال ، قال ابن الأنباري : «الحَوْل» معناه في كلام العرب : الحيلة ، يقال : ما للرجل حول وما له محالة ، قال : ومنه قولك : لا حول ولا قوة إلا بالله ، أي: لا حيلة في دفع سوء ، ولا قوة في دَرْكِ خيرٍ إلا بالله .

وفيه وجه آخر : وهو أن يكون معناه المنع والدفع ، من قولك : حَالَ بين الشيئين ، إذا منع أحدهما عن الآخر ، يقول : لا أمنع ، ولا أدفع إلا بك [1].

٥ ـ وكان يقول في دعائه: « **لا إله إلا الله وحده ، أعزَّ جُنْدَه ، ونَصَرَ عَبده ، وغَلَبَ الأحزابَ وحدهُ ، فلا شيء بعده** » [2].

ولما ثَقُلَتْ على أصحاب رسول الله ﷺ شروط « الحُديبية » قال عمر بن الخطاب : فأتيت نبي الله ﷺ فقلت : ألستَ نبي الله ﷺ ؟ قال: بلى ، قلت : ألسنا على الحقِّ وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلم نُعْطي الدَّنِيَّة في ديننا إذًا ؟! قال: « **إني رسول الله ولست أعْصيه ، وهو نَاصِري ...** » [3].

= والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٦٠٤) وابن حبان (١٦٦١ ـ موارد).

عن المثنى بن سعيد عن قتادة عن أنس قال :« **كان ...**» الحديث

قال الترمذي : حسن غريب .

قلت : ورجاله ثقات ، المثنى بن سعيد هو الضبعي أبو سعيد البصري ، قال أحمد وابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم وأبو داود والعجلي : ثقة.

(١) « معالم السنن » (٢/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٠) والبخاري في الشروط (٥/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣).

المستعان

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٤)

* المعنى اللغوي :

العَوْنُ : الظهيرُ على الأمر ، الواحد والاثنان والجمع والمؤنث فيه سواء ، وقد حكى في تكسيره : أعوان .

وتقول : أعنْتُه إعانةً ، واستَعَنْتُهُ واستعنتُ به فأعانني [١].

والتعاون : التظاهر قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢] .

والاستعانة : طَلَبُ العَوْنِ قال تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[٢] [البقرة: ٤٥] .

* وروده في القرآن الكريم :

ورد الاسم مرتان: في قوله عز وجل : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨] .

وقوله : ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢] .

---

(١) « الصحاح » (٦/٢١٦٨ ـ ٢١٦٩) ، « اللسان » (٤/٣١٧٩ ـ ٣١٨٠) مادة (عون) .

(٢) « المفردات » للراغب (ص ٣٥٤).

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير: وقوله: ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨] : يقول والله أستعين على كفايتي شرَّ ما تصفون من الكذب [١].

وقال في قوله: ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:١١٢] : يقول جلَّ ثناؤه : وقل يا محمد وربُّنا الذي يرحم عباده ويعمهم بنعمته الذي أستعينه عليكم فيما تقولون وتصفون ، من قولكم لي فيما أتيتكم به من عنـد الله: ﴿ هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣] وقولكم : ﴿ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الأنبياء: ٥] وفـي كذبكم على الله جلَّ ثناؤه وقيلكم :﴿ اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ [الأنبياء: ٢٦] فإنه هيـنٌ عليه تغيير ذلك ، وفَصْلُ ما بيني وبينكم بتعجيل العقوبة لكم على ما تصفون من ذلك [٢].

وفي « الأسنى » : قال ابن العربي : وهذا الاسم لم يرد في حديث أبي هريرة ولا ذكره علماؤنا ، وهو من أشرف الأسماء لشرف مُتعلقه ، وقد تَضَمَّنت الفاتحةُ معناه فقال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

قلت ـ أي القرطبي: قوله : ولا ذكره علماؤنا ، قد ذكره غيرُ واحد منهم الأُقْليشي .

فالمستعان معناه : الذي لا يَطْلُبُ العون ، بل يُطْلَبُ منه ، والعون الظهير على الأمر ، والجمع الأعْوان والمعونة والإعانة ، يقال : ما عندك معونة ولا مَعَانة ولا عَوْنَ ، وتقول : ما أخْلاني فلانٌ من معاونة ، وهو جمع معونة ، ورجل مِعْوَان كثيرُ العونِ للناس ، واستعنت بفُلان فأعانَني

---

(١) « جامع البيان » (١٢/٩٨).

(٢) المصدر السابق (١٧/ ٨٤ ـ ٨٥).

وعاونَني .

والله سبحانه بخلاف ذلك ، غَنيٌّ عن الظهير والمُعين والشريك والوزير ، بل كل إعانةٍ وعَوْنٍ فمنه وبه سبحانه لا إله إلا هو .

وهو مُسْتفعَل من العون ، وهو صفٌ ذاتي لله تعالى راجعٌ إلى صفةِ القوة .

وفيه معنى الإِضافة الخاصة لمن استعانه من عباده على طاعته [1].

❁ من آثار الإِيمان بهذا الاسم :

١ ـ الله تبارك وتعالى هو (المُسْتعانُ) الذي يُطلب منه العون والقوة على فعلِ الطاعات وترك المحرمات ، وجلب المنافع ودفع المضرات .

فهو سبحانه يُعين عباده ولا يستعين بأحد منهم لا في الأرض ولا في السموات قال تعالى : **﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾** [سبأ : ٢٢] .

قال ابن كثير : أي : وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور ، بل الخلق كلهم فقراءُ إليه ، عبيدٌ لديه [2].

وقال سبحانه : **﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾** [الإسراء : ١١١] .

فقد حَمدَ الله تبارك وتعالى نَفسَه المقدسة ، بأنه الأحدُ الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد ، وأنه ليس له من يشاركه في

---

(١) الكتاب الأسنى (٢/ورقة ٤٢٥ ب ـ ٤٢٦ أ).

(٢) « تفسير القرآن العظيم » (٣/٥٣٦) .

الملك ولا في الخلق ولا في الأمر ، وأنه ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له وليٌّ أو وزير أو مشير ، بل هو الله الواحدُ القهَّار ، الحي القيوم بنفسه فلا يحتاج في حياته وقيامه إلى أحد من خلقه ، وكلٌّ خلقه بحاجة إلى الاستعانة به ، بل لا قيام ولا حياة ولا وجود لهم إلا به وبقدرته وقوته لا شريك له .

٢ ـ وللإمام المحقق المدقق ابن القيم رحمه الله تعالى كلام جامع نفيس في « الاستعانة » وتعلقها بالعبادة وأنواع الناس في هذين الأصلين العظيمين ، إذ يقول :

و (الاستعانة) تجمع أصلين : الثقة بالله ، والاعتماد عليه ، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره ـ مع ثقته به ـ لاستغنائه عنه . وقد يعتمد عليه ـ مع عدم ثقته به ـ لحاجته إليه ، ولعدم من يقوم مقامه ، فيحتاج إلى اعتماده عليه ، مع أنه غير واثق به .

و (التوكل) معنى يلتئم من أصلين : من الثقة ، والاعتماد ، وهو حقيقة ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة: ٥] وهذان الأصلان ـ وهما التوكل ، والعبادة ـ قد ذُكرا في القرآن في عدة مواضع ، قرن بينهما فيها، هذا أحدها .

الثاني : قول شعيب ﴿ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [هود : ٨٨] .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود: ١٢٣] .

الرابع : قوله تعالى حكاية عن المؤمنين : ﴿ **رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ [الممتحنة: ٤] .

الخامس : قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل: ٨ـ ٩] .

السادس : قوله تعالى : ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٠] .

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين ، وهما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

وتقديم (العبادة) على (الاستعانة) في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل ، إذ « العبادة » غاية العباد التي خلقوا لها ، و«الاستعانة» وسيلة إليها . ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه (الله) و ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ متعلق بربوبيته واسمه (الرب) فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ كما قدم اسم (الله) على (الرب) في أول السورة، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم الرب ، فكان من الشطر الأول ، الذي هو ثناءٌ على الله تعالى ، لكونه أولى به ، و ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قسم العبد . فكان الشطر الذي له ، وهو ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] إلى آخر السورة.

ولأنَّ « العبادة » المطلقة : تتضمن « الاستعانة » من غير عكس ، فكل عابد لله عبودية تامة : مُستعين به ولا ينعكس ، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته ، فكانت العبادة أكمل وأتم ، ولهذا كانت قسمَ الرب .

ولأن (الاستعانة) جزءٌ من (العبادة) من غير عكس ، ولأن (الاستعانة) طلب منه ، و (العبادة) طلب له .

ولأن (العبادة) لا تكون إلا من مخلص ، و (الاستعانة) تكون من مخلص ومن غير مخلص .

ولأن (العبادة) حَقُّه الذي أوجبه عليك ، و « الاستعانة » طلب العون على العبادة . وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك . وأداء حقه: أهم من التعرض لصدقته.

ولأن « العبادة » شكر نعمته عليك ، والله يحب أن يشكر ، و«الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك . فإذا التزمت عبوديته ، ودخلت تحت رقِّهَا أعانك عليها . فكان التزامها والدخول تحت رقها سببًا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبوديته كانت الإعانة من الله له أعظم .

و « العبودية » محفوفةٌ بإعانتين : إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى . وهكذا أبدًا ، حتى يقضي العبد نَحْبه .

ولأن ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ له ، و ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ به ، وما له مقدم على ما به ، لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه ، وما به متعلق بمشيئته ، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته ، فإن الكون كله متعلق بمشيئته ، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار ، والطاعات والمعاصي ، والمتعلق بمحبته : طاعتهم وإيمانهم . فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته ، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدًا . وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ، ففيه : أدبهم مع الله

بتقديم اسمه على فعلهم ، وفيه الاهتمام وشدة العناية به ،وفيه الإيذان بالاختصاص ، المسمى بالحصر ، فهو في قوة : لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك ، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها ، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدمًا ،وسيبويه نص على الاهتمام ،ولم ينف غيره.

[أقسام الناس في العبادة والاستعانة] :

إذا عرفت هذا،فالناس في هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام :

أجلُّها وأفضلها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها ، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ، ويوفقهم للقيام بها ، ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى : الإعانةَ على مرضاته ، وهو الذي علَّمه النبي ﷺ لحبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه ، فقال : « **يا معاذ ، والله إني لأحبك ، فلا تنس أن تقول دُبُر كل صلاة : اللهمَّ أعنِّي على ذِكرك وشُكرك وحسن عبادتك** ».

فأنفع الدعاء : طلبُ العون على مرضاته ، وأفضل المواهب : إسعافه بهذا المطلوب ، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع ما يضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه ، فتأملها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قَدَّس الله روحه ـ : فتأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته ، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة : ٥] .

ومقابل هؤلاء: القسم الثاني : وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به ، فلا عبادة ولا استعانة ، بل إنْ سأله أحدهم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته ، لا على مرضاة ربه وحقوقه . فإنه سبحانه يسأله من

في السموات والأرض : يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمُدُّ هؤلاء وهؤلاء ، وأبغض خلقه : عدوه إبليس ، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتعه بها ، ولكن لما لم تكن عونًا له على مرضاته ، كانت زيادةً له في شقْوته ، وبُعده عن الله وطرده عنه ، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ، ولم يكن عونًا على طاعته : كان مبعدًا له عن مرضاته ، قاطعًا له عنه ولا بد .

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره . وليعلم أنَّ إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه ، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له ، وفيها هلاكه وشقوته ، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه ، وسقوطه من عينه ، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له ، فيمنعه حمايةً وصيانة وحفظًا لا بخلاً ، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ، ويعامله بلطفه. فيظن ـ بجهله ـ أن الله لا يحبه ولا يكرمه ، ويراه يقضي حوائج غيره ، فيسيء ظنه بربه ! وهذا حشو قلبه ولا يشعر به ، والمعصوم من عصمه الله ، والإنسان على نفسه بصيرة ، وعلامة هذا : حمله على الأقدار . وعتابه الباطن لها ، كما قيل :

وعَاجزُ الرأى مِضياعٌ لفُرصته حتى إذا فاتَ أمرٌ عَاتَبَ القَدَرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه ، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، ولكن ما حيلتي ، والأمر ليس إليّ ؟ والعاقل خصم نفسه ، والجاهل خصم أقدار ربه .

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا معينًا خِيرته وعاقبته مغيبة عنك ،إذا لم تجد من سؤاله بُدًا ، فعلِّقه على شرطِ علمه تعالى فيه الخيرة ، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة ، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة ، بل

استخارة من لاعلم له بمصالحه ، ولا قدرة له عليها ، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها ، ولا يملك لنفسه ضرًا و لا نفعًا ، بل إن وُكِل إلى نفسه هَلَكَ كل الهلاك ، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته ، ولا يجعله قاطعًا لك عنه ، ولا مبعدًا عن مرضاته.

القسم الثالث : من له نوع عبادة بلا استعانة ، وهؤلاء نوعان :

أحدهما : القدرية ، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف ، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل ، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها ، وتعريف الطريق ، وإرسال الرسل ، وتمكينه من الفعل ، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها ، بل قد سَاوَى بين أوليائه وأعدائه في الإِعانة ! فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإِيمان ، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر ، من غير أنْ يكون الله سبحانه وفَّقَ هؤلاء بتوفيق زائد ، أوجب لهم الإِيمان ، وخذل هؤلاء بأمر آخر ، أوجب لهم الكفر !

فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة ، لا استعانة معه ، فهم موكولون إلى أنفسهم ، مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد . قال ابن عباس رضي الله عنهما : الإِيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

النوع الثاني : مَنْ لهم عباداتٌ وأوراد ، ولكن حظهم ناقصٌ من التوكل والاستعانة ، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر ، وتلاشيها في ضمنه ، وقيامها به ، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له ، بل كالعدم الذي لا وجود له ، وأن القدر كالروح المحرك لها ، والمعول

على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرِّك ، ومن السبب إلى المسبب ، ومن الآلة إلى الفاعل ، فضعفُت عزائمهم وقصرت هممهم ، فقل نصيبهم من ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة ، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

فهؤلاء لهم نصيبٌ من التوفيق والنفوذ والتأثير ، بحسب استعانتهم وتوكلهم ، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم ، ولو توكل العبدُ على الله حقَّ توكله في إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته ، لأزاله.

[معنى التوكل والاستعانة] :

فإن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة ؟

قلت : هو حَالٌ ينشأ عن معرفته بالله ، والإيمان بتفرده بالخلق ، والتدبير والضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان ، وإن لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن ، وإن شاءه الناس ، فيوجبُ له هذا اعتماداً عليه ، وتفويضًا إليه ، وطمأنينة به ، وثقةً به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه ، وأنه مَلِيٌّ به ، ولا يكون إلا بمشيئته ، شاءه الناس أَمْ أَبَوْهُ.

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما ، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه ، وحبس هَمِّه على إنزال ما ينويه بهما . فهذه حال المتوكل ، ومن كان هكذا مع الله ، فالله كافيه ولا بد ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه . و« الحسب » الكافي ، فإن كان ـ مع هذا ـ من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة ، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو:

القسم الرابع : وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولم يَدُرْ مع ما يحبه ويرضاه . فتوكل عليه ، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه ، وطلبها منه ، وأنزلها به . فقضيت له ، وأُسْعِفَ بها ، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهًا عند الخلق ، أو أحوالاً من كشف وتأثير وقوة وتمكين ، ولكن لا عاقبة له ، فإنها من جنس المُلْك الظاهر والأموال ، لا تستلزم الإسلام ، فضلاً عن الولاية والقرب من الله ، فإن الملك والجاه والمال والحال مُعطاةٌ للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، فمن استدلَّ بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه ، وأنه من أوليائه المقربين ، فهو من أجهل الجاهلين ، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه ، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ، ويكرهه ويسخطه ، فالحال من الدنيا ، فهو كالملك والمال ، إنْ أعانَ صاحبه على طاعة الله ومرضاته ، وتنفيذ أوامره : ألحقه بالملوك العادلين البررة ، وإلا فهو وبالٌ على صاحبه ، ومبعد له عن الله ، ومُلْحِقٌ له بالملوك الظلمة ، والأغنياء الفجرة » اهـ [1].

* * *

(١) «مدارج السالكين بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ » (١/ ٧٥ ـ ٨٢) . باختصار .

ذو المعارج

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٥)

*** المعنى اللغوي :**

عَرَجَ في الدَّرَجَة والسُّلَّم يَعْرُجُ عُرُوجًا ، أي : ارتقى ، وعرج في الشيء وعليه يَعْرِج ويَعْرُج عروجًا أيضًا : رَقِيَ ، وعَرَجَ الشيء فهو عَرِيج : ارتفع وعلا .

وفي التنزيل : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلائكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤] أي : تصعد .

والمَعْرج : المصْعَدُ والطريق الذي تصعد فيه الملائكة .

وعُرِجَ بالروح والعمل : صُعِد بهما [١] .

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرة واحدة في قوله عز وجل ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج: ١ - ٣] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال قتادة : ﴿ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾[المعارج :٣] ذي الفواضل والنعم[٢] .

---

(١) « الصحاح » (٣٢٨/١ ـ ٣٢٩) ، « اللسان » (٢٨٦٩/٤ ـ ٢٨٧١) مادة (عرج) ، و « شان الدعاء » (ص ١٠٤) .

(٢) أخرجه ابن جرير (٤٤/٢٩) عنه بسند حسن. =

وقال الفراء : وقوله : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ : من صفة الله عز وجل ، لأن الملائكة تعرجُ إلى الله عز وجل فوصف نفسه بذلك [1].

وقال ابن جرير : وقوله : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ يعني ذا العُلُوِّ والدرجاتِ والفواضل والنعم [2].

وقال الخطَّابي : (ذو المعارج) : وهو الذي يُصْعَدُ إليه بأعمالِ العباد ، وإليه يُصعد بأرواحِ المؤمنين [3].

وقال الحُلَيمي : (ذو المعارج) : وهو الذي إليه يُعْرجُ بالأرواح والأعمال . وهذا أيضًا يدخل في باب الإِثبات والتوحيد والإِبداع والتدبير، وبالله التوفيق [4].

*** من آثار الإِيمان بهذا الاسم :**

١ ـ الله تبارك وتعالى هو الربُّ الملك الخالق المدبر (ذو المعارج) الذي تعرج إليه الملائكة والأرواح ، وتصعد إليه الأعمال والأقوال الصالحة الطيبة .

قال أبو القاسم الأصبهاني : ومن أسمائه (ذو المعارج) ومعناه : تعرج أعمال الخلق إليه كما قال عز وجل : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠] فملائكة النهار تعرجُ بأعمالكم بالنهار ،

= وأخرجه عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ يقول : العلو والفواضل.

(١) « معاني القرآن » (٣/ ١٨٤).

(٢) « جامع البيان » (٢٩/ ٤٤) .

(٣) « شأن الدعاء » (ص١٠٤).

(٤) « المنهاج » (١/ ٢١٠) وذكره ضمن فصل : ولله جل ثناؤه أسماء سوى ما ذكرنا تدخل في أبواب مختلفة ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص٩٣).

وملائكة الليل تعرج بأعمالكم [بالليل] فَزيِّنُوا صَحَائفكم بالأعمال الصالحة ، والمواظبة على الصلوات الخمس ، فإن الصلوات يُذْهِبْنَ السيئات ، قيل في التفسير : الحسنات : الصلوات الخمس [1].

قلت : وقد جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ : « **يَتَعاقَبونَ فيكم مَلائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يَعْرُجُ الذين بَاتُوا فيكم ، فيسألُهم ـ وهو أعلمُ بهم ـ : كيف تركتم عبادي؟ فيقولون : تركناهم وهم يُصلُّونَ ، وأتيناهم وهم يُصلُّون** »[2].

٢ ـ وهذا الاسم يدل على علو الرب تعالى على عباده ، وأنه فوقهم فإن العروج هو الصعود كما تقدم [3].

* * *

---

(١) « الحجة » (ق ١٢٤ ـ ب) .

(٢) رواه البخاري في المواقيت (٢/٣٣) وفي بدء الخلق (٦/٣٠٦) وفي التوحيد (١٣/٤١٥) ومسلم في المساجد (١/٤٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومعنى « يتعاقبون » : أي: تأتي طائفة عقب طائفة ، ثم تعود الأولى عقب الثانية .

(٣) وقد سبق تقرير هذه المسألة في آثار الإيمان بـ (العلي ـ الأعلى ـ المتعال) .

ذو الطَّوْل

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٦)

*** المعنى اللغوي :**

الطَّوْلُ بالفتح : المَنُّ ، يقال منه : طَالَ عليه وتَطوَّل عليه ، إذا امتنَّ عليه .

وطَالَ عليه واستْطالَ وتَطَال : إذا علاه وترفَّعَ عليه .

والطَّوْلُ والطائِلُ والطائلةُ : الفضلُ والقدرةُ و الغنى والسَّعةُ والعُلُوُّ[1] .

وقال الزجاجي : الطَّوْلُ : الفضل ، يقال : طال فلانٌ علينا طولاً : إذا أفضَل عليهم ، والطُّوْلُ خِلاف العَرض .

ويقال : لا أُكلمك طَوالَ الدهر : أي أبدًا .

والطِّوَلُ : الحبل[2] .

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرة واحدة في مطلع سورة « غافر » في قوله سبحانه : **﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾** [غافر:٣] .

---

(١) « الصحاح » (٥/١٧٥٣ ـ ١٧٥٤) و « اللسان » (٤/٢٧٢٥ ـ ٢٧٢٨) مادة (طول) .

(٢) « اشتقاق أسماء الله » (ص ١٩٣ ـ ١٩٤) باختصار .

* **معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال قتادة : (ذي الطول) أي : ذي النعم [١].

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : (ذي الطولِ) : ذي التَّفَضُّلِ ، تقول العرب للرجل : إنه لذو طَوْل على قومه، أي: ذو فضل عليهم [٢].

وقال ابن جرير : (ذي الطول) : يقول : ذي الفضل والنِعَم المبسوطة على من شاء من خلقه ، يقال منه : إن فلانًا لذو طولٍ على أصحابه إذا كان ذا فضل عليهم .

ثم ذكر قول قتادة المتقدم ، ثم قال : وقال بعضهم « الطول » : القدرة ، ونقله عن ابن زيد [٣].

وقال الخطَّابي : و (ذو الطَّول) و (ذو الفَضل) معناه : أهلُ الطَّوْل والفضل ، و (ذو) : حرف النِّسْبَةِ ، كقوله تعالى : ﴿ **ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ** ﴾ [الرحمن: ٢٧] [٤].

وقال الحُلَيمي : ومنها (ذو الطول) ومعناه : الكثير الخير ، لا يعوزه من أصناف الخَيرات شيء إنْ أرادَ أنْ يُكْرِم به عبده .

وليس كذي طولٍ من عباده ، قد يُحب أن يجود بالشيء ولا يجده[٥].

---

(١) اخرجه ابن جرير عنه (٢٤ / ٢٨) بسند حسن .

(٢) « مجاز القرآن » (٢/ ١٩٤) .

(٣) « جامع البيان » (٢٤/ ٢٧ ـ ٢٨) وإسناده إلى ابن زيد صحيح .

(٤) « شأن الدعاء » (ص ١٠٥).

(٥) « المنهاج » (١/ ١٩٩) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٤٣) ووقع عنده العبارة : « وليس كذا طولُ ذي الطول من عباده » .

وقال ابن كثير بعد أن ذكر أقوال المفسرين : والمعنى أنه المتفضل على عباده ،المُتَطَوِّلُ عليهم بما هم فيه من المنَن والأنعام التي لا يُطيقون القيام بشكرِ واحدة منها﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم: ٣٤] الآية ، وقوله جلَّت عظمته ﴿ **لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ [البقرة: ١٦٣] أي : لا نظير له في جميع صفاته ، فلا إله غيره ولا ربَّ سواه [(١)].

* * *

(١) « تفسر القرآن العظيم » (٤/ ٧٠) . وانظر من آثار الإيمان بهذا الاسم في الاسم التالي.

ذُو الفَضْل
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٩٧)

* **المعنى اللغوي :**

الفَضْلُ والفَضِيلَةُ : خلاف النَّقص والنقيصة .

والإِفْضَال : الإِحسان .

ورجلٌ مِفْضَالٌ وامرأةٌ مِفضالةٌ على قومها ، إذا كانت ذات فضلٍ سمحةً .

وأفْضَلَ عليه وتفضَّل ، بمعنى.

والمُتَفَضِّلُ أيضًا : الذي يدَّعي الفضل على أقرانه ، ومنه قوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ** ﴾ [**المؤمنون** : ٢٤]

والفَوَاضِلُ : الأيادي الجميلة (١).

وقال الراغب الأصبهاني : الفضل : الزيادةُ عن الاقتصار ، وذلك ضَرْبان : محمودٌ ، كفضلِ العلم والحلم ، ومذموم كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه ، والفضل في المحمود أكثر استعمالاً ، والفُضُول في المذموم (٢).

* **وروده في القرآن الكريم :**

ورد اثنتي عشرة مرة في الكتاب منها :

---

(١) « الصحاح » (٥/١٧٩١) و « اللسان » (٥/٣٤٢٨ ـ ٣٤٢٩) مادة (فضل) وانظر: «الكتاب الأسنى» (ورقة ٤١٣ أ ـ ب) .

(٢) « المفردات » (ص ٣٨١).

قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩] .

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير : وأما قوله ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]: فإنه خبرٌ من الله جلَّ ثناؤه عن أنَّ كلَّ خيرٍ ناله عباده في دينهم ودنياهم ، فإنه من عنده ابتداءً وتفضُلاً منه عليهم ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، وفي قوله : ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [البقرة : ١٠٥] تعريضٌ من الله تعالى ذكره بأهل الكتاب أن الذي آتى نبيه محمدًا ﷺ والمؤمنين به من الهداية : تفضلاً منه ، وأنَّ نِعَمه لا تُدرك بالأماني ، ولكنها مواهب منه يختصُّ بها من يشاء من خلقه [1].

وقال الحليمي : ومنها (ذو الفضل) : وهو المُنعم عما لا يلزمه[2].

وقال القرطبي بعد ذكره لمعنى الاسم لغة : فالله سبحانه ذو الفضل العظيم ، والإِحسان العميم ، أعطى خلقه ما لا يلزمه ، وتفضَّل عليهم بما لا يَجبُ عليه ، فسبحانه من كريم رؤوف رحيم ، تفضَّل على جميع خلقه بنعمته ، وعلى المؤمنين بدار كرامته ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] [3].

---

(١) « جامع البيان » (١/٣٧٨).

(٢) « المنهاج » (١/٢٠٨) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ونقله البيهقي « الأسماء » (ص٨٨).

(٣) الكتاب الأسنى (ورقة ٤١٣ب).

* من آثار الإيمان بهذين الاسمين (ذو الطَّول) و (ذو الفضل) :

١ ـ إن الله تعالى موصوفٌ بالطَّوْل والفضل والإحسان إلى عباده ، والقدرة على ذلك ، لا يمنعه مانع من إيصال فضله ونعمته إلى من يشاء ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧] وقال : ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢] بل الفضل كلُّه بيده يعطي من يشاء فضلاً ، ويمنع من يشاء عدلاً : ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤] .

﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢٩] [(١)] .

٢ ـ والله تبارك وتعالى مُتفضلٌ على عباده بأنواع النعم ، من غير سؤال منهم ، ولا استحقاق لها ، بل كل ما عندهم من نعم الدين والدنيا فهو من الله تعالى فضلٌ وكرمٌ وإحسانٌ، وحتى الكافر يتقلَّب في فضل الله ورحمته في الدنيا ، قال تعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

فمن فضله على عباده المؤمنين أنه يُنْجِّيهم من أعدائهم وكيدهم

---

(١) قوله تعالى : ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ﴾ [الحديد: ٢٩] « لا » زائدة ، قال الفراء : والعرب تجعل «لا» صلة في كل كلام دخل في آخره أو أوله جحد ، فهذا مما جُعل في آخره جحد . والمعنى: ليعلم﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الذين لم يؤمنوا بمحمد ﴿أَلاَّ يَقْدِرُونَ ﴾ أي أنهم لا يقدرون ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ والمعنى:أنه جعل الأجرين لمن آمن بمحمد ﷺ ليعلم من لم يؤمن به أنه لا أجر لهم ولا نصيب في فضل الله . انظر: « زاد المسير » (١٧٩/٨).

ومكرهم إذا توكلوا عليه ووثقوا بقوته وقدرته ونصره ، كما حصل للنبي ﷺ وأصحابه لما خوَّفهم الناس بالمشركين وعددهم فقالوا : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] قال تعالى بعد ذلك : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٤] .

ومن فضله على عباده : تثبيته لهم على هذا الدين وعصمته لهم من الزَّيغ والخذلان واتباع الشيطان ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ٨٣] .

وقال لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ [النساء: ١١٣] .

وامتن بما أنزل عليه فقال : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣] .

ومن فضله على عباده : تركه مُعاجلة العصاة والكفار والمنافقين بالعقوبة في الدنيا ، وإمهالهم إلى يوم القيامة ، وبهذا فسَّر ابن جرير هذه الآية : ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٠] (١).

وقال سبحانه عن الذين خاضوا في حديث الإفك : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٤] .

ومن فضله : تنوير بصائر من اتقاه ، وتكفيره لسيئاته ومغفرته لذنوبه

---

(١) « جامع البيان » (١١/ ٨٩).

وتزكية نفسه ، قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١] .

وإعطاؤهم فوق ما يستحقون من ثواب زيادةً وفضلاً ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [النساء: ١٧٣] .

وقال : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [النور: ٣٨].

* * *

الغالب
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٩٨)

* المعنى اللغوي :

غَلَبَهُ يغْلِبُهُ غلْبًا وغَلَبًا ـ وهي أفصح ـ وغَلَبَةً ومغْلَبا ومغْلَبة .

ورجال غالِبٌ من قوم غَلَبَةٍ ، وغلاَّب من قومٍ غلاَّبين (١).

* وروده في القرآن الكريم :

ورد مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١] .

وورد بصيغة الفعل في قوله تعالى : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١] .

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن جرير : ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ [يوسف : ٢١] يقول تعالى ذكره : والله مُسْتولٍ على أمر يوسف ، يسوسه ويدبره ويحوطه ، والهاء في قوله ﴿عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ عائدة على يوسف (٢).

وقال الحليمي : (الغالب) : وهو البالغ مُراده من خلقه أحبوا أم كرهوا، وهذه إشارةٌ إلى كمال القدرة والحكمة ، وأنه لا يقهر ولا

(١) « الصحاح » (١/ ١٩٥) ، « اللسان » (/ ٣٢٧٨ ـ ٣٢٨٠) مادة (غلب).

(٢) « جامع البيان » (١٣/ ١٠٤) ، ونقل عن سعيد بن جبير أنه قال في تفسيره : فعَّال .

يخدع[1].

وقال البغوي : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ [يوسف : ٢١] قيل الهاء في ﴿ أَمْرِهِ ﴾ كناية عن الله تعالى ، يقول : إن الله غالبٌ على أمره يفعل ما يشاء ، لا يغلبه شيء ، ولا يردُّ حكمه رادٌّ .

وقيل : هي راجعةٌ إلى يوسف عليه السلام ، معناه : أنَّ الله مُستولٍ على أمر يوسف بالتدبير والحياطة ، لا يكله إلى أحد حتى يبلغه مُنتهى علمه فيه [2].

وقال ابن كثير ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ [يوسف:٢١] أي : فعَّالٌ لما يشاء [3] .

وقال السعدي : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ [يوسف : ٢١] أي : أمره تعالى نافذ لا يبطله مُبطل ، ولا يغلبه مغالب [4].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ أن الله تبارك وتعالى هو الغالب القاهر أبدًا ، لا يملك أحد أن يردَّ ما قضى ، أو يمنع ما أمضى ، فلا راد لقضائه ولا مُعقِّب لحكمه ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال القرطبي : فيجب على كلِّ مكلف أن يعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الغالب على الإطلاق ، فمن تمسَّك به فهو الغالبُ ولو أنَّ جميع من

---

(١) « المنهاج » (١/١٩٨) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص٤١).

(٢) « معالم التنزيل » (٣/ ٢٧٣).

(٣) « تفسير القرآن العظيم » (٢/ ٤٧٣).

(٤) « تيسير الكريم الرحمن » (٤/ ٨).

في الأرض طالب ، قال تعالى : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة : ٢١] .

ومن أعرض عن الله تعالى وتمسَّك بغيره كان مغلوبًا ، وفي حبائل الشيطان مقلـوبـًا ﴿فَقَاتِلُوا أُوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٧٦] [1] .

* * *

(١) « الكتاب الأسنى » (ق ٣٠٤ ب) .

الكافي

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩٩)

*** المعنى اللغوي :**

كَفَى يكفي كفايةً : إذا قام بالأمر .

ويقال استكفيته أمرًا فكفانيه .

ويقال : كفاكَ هذا الأمر أي : حَسْبك ، وهذا رجل كافيك من رجل: أي : حسبك .

والكُفاة : الخدم الذين يقومون بالخدمة ، جمعُ كافٍ .

والكُفْيَةُ بالضم: القوت ، والجمع الكُفَى .

وكافيته من المكَافَاة ، ورجوت مكَافَاتَك أي : كفايتك [١].

وقال الزجاجي : (الكافي) اسم الفاعل من كَفَى يكفي فهو كاف [٢].

*** وروده في القرآن الكريم :**

ورد مرة واحدة في قوله عز وجل : ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ [الزمر: ٣٦] .

---

(١) « الصحاح » (٦/ ٢٤٧٥) ، « اللسان » (٥/ ٣٩٠٧ ـ ٣٩٠٨) مادة (كفى).

(٢) « اشتقاق أسماء الله » (ص٨٢).

وورد بصيغة الفعل : في قوله تعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥] .

وفي قوله : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وفي قوله : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦]: اختلفت القراء في قراءة أليس الله بكاف عبده ، فقرأ ذلك بعض قرّاء المدينة وعامة قراء الكوفة ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عِبَادَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] على الجمع ، بمعنى : أليس الله بكاف محمدًا وأنبياءه من قبله ما خوفتهم أممهم من أن تنالهم آلهتهم بسوء.

وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والبصرة وبعض قراء الكوفة ﴿ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ على التوحيد ، بمعنى : أليس الله بكاف عبده محمدًا .

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان في قراءة الأمصار فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب لصحة معنييهما واستفاضة القراءة بهما في قراءة الأمصار [1].

وقال الزجاجي : ... فالله عز وجل كافي عباده لأنه رازقهم وحافظهم ومُصْلح شئونهم فقد كفاهم كما قال الله عز وجل : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] .

وكفاية الإنسان من المعاش قدْر بُلغته وقوام أمره ، وتقول : كفيت

(١) « جامع البيان » (٢٤/٥).

الرجل الأمر أكفيه كفيًا وكفاية إذا قمت به دونه ، وأزلت عنه الاهتمام به[1] .

وقال الخطابي : وأما (الكافي) : فهو الذي يكفي عبادَه المُهِمَّ ، ويدفع عنهم المُلِمَّ [2]وهو الذي يُكتفى بِمعُونته عن غيره ، ويُستغنى به عمن سواه [3] .

وقال الحليمي : ومنها (الكافي) لأنه إذا لم يكن له في الألوهية شريك ، صحَّ أنَّ الكفايات كلَّها واقعةٌ به وحده ، فلا ينبغي أن تكون العبادة إلا له ، ولا الرغبة إلا إليه ، ولا الرجاء إلا منه .

وقد ورد الكتاب بهذا أيضًا ، قال الله عز وجل : ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ [الزمر : ٣٦] وجاء ذلك أيضًا عن رسول الله ﷺ [4].

وقال السعدي : (الكافي) عباده جميع ما يحتاجون ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به وتوكل عليه واستمد منه حوائج دينه ودنياه[5] .

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إن (الكافي) عباده رزقًا ومعاشًا وقوتًا ، وحفظًا وكلاءةً ، ونصرًا وعزًا هو الله تبارك شأنه ، فهو الذي يُكتفى بمعونته عمن سواه .

---

(١) «اشتقاق أسماء الله » (ص٨٢).

(٢) إلى هنا قاله الاصبهاني في « الحجة في بيان المحجة » (ق٢٧ أ).

(٣) « شأن الدعاء (ص١٠١).

(٤) « المنهاج » (١/ ١٩٠) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات وحدانيته عزَّ اسمه ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص١٥).

(٥) « تيسير الكريم » (٥ / ٣٠٤ ـ ٣٠٥).

وإذا كـــان ذلك كذلك وجـــب ألايكـــون الرجاء إلا منـــه والرغبـة إلا إليه [٤].

ونحن إذْ نقف عند هذا الاسم لا نعني الإحاطة بكل الأسماء الحسنى الواردة في القرآن الكريم وإنما نرجو بذلك الدخول في موعود الرسول ﷺ إذْ يقول : « **لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا ، من أحصاها دخل الجنة** ».

ولمن وقف على كتابنا

آمين . . . آمين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

(٤) وانظر مزيد بيان في آثار الإيمان باسمه (الحسيب).

الفهـــــــــــــــــارس

* فهـرس الأحاديث .

* فهرس الموضوعات .

فهرس أطراف الحديث

طرف الحديث	الصفحة
أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها	١/ ٨٣
إنَّ أشد الناس عذابًا عند الله	١/ ١٧٢
إنَّ الذين يصنعون هذه الصور	١/ ١٧٢
إنَّ الصدق يهدي إلى البر	٢/ ١٧٧
إن الله جزَّأ القرآن ثلاثة أجزاء	٢/ ١٠٧، ١٠٨
إن الله خلق خلقه في ظلمة	٢/ ٢٥٤
إن الله كتب الحسنات والسيئات	١/ ٣٨٨
إن الله كتب مقادير الخلائق	١/ ٣٧٢
إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل	٢/ ٦١
إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر	٢/ ٣٢٧
إن الله هو الحكم وإليه الحكم	١/ ٢٥٧
إن الله هو السلام ولكن قولوا	١/ ١٢٠
إن الله لا ينام ولا ينبغي	١/ ٣٣٠، ٢/ ٧١، ٢٥٥
إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم	١/ ٢٠٠
إن الله يحاسب عبده يوم القيامة فيعرض	٢/ ١٩٨
إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا	١/ ٤٣٧
إن الله يصنع كل صانع وصنعته	١/ ١٧٠
إن الناس يوم القيامة يطلبون الشفاعة من آدم	٢/ ١٩٩

طرف الحديث	الصفحة
إن النبي ﷺ اتخذ خاتمًا من فضة	١/ ٣٠
إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم	١/ ٣٨٥
إن فيك لخصلتين يحبهما الله	١/ ٢٧٥
إن لله آنية من أهل الأرض	٢/ ٢٦٠
إن لله مائة رحمة أنزل رحمة	١/ ٨٩
إن لله ملائكة يطوفون في الطرق	١/ ٤٣٥
إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين	١/ ٤٠٧
إنه ليغان على قلبي وإني	٢/ ٢٠٠
إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب	٢/ ٩١
إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا	٢/ ١٥٦
إنما يرحم الله من عباده الرحماء	١/ ٩١
إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري	٢/ ٣٣٠
إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً	١/ ٣٨٧
إني لست كهيئتكم	١/ ٣٦١
ألا أخبركم بالمؤمن من أمنه	١/ ١٢٧
ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء	١/ ٣٣١
ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعًا	١/ ٢٨٧
أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن	٢/ ١٠٧
أين الله	١/ ٣٢٩

* * *

فهرس المواضيع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

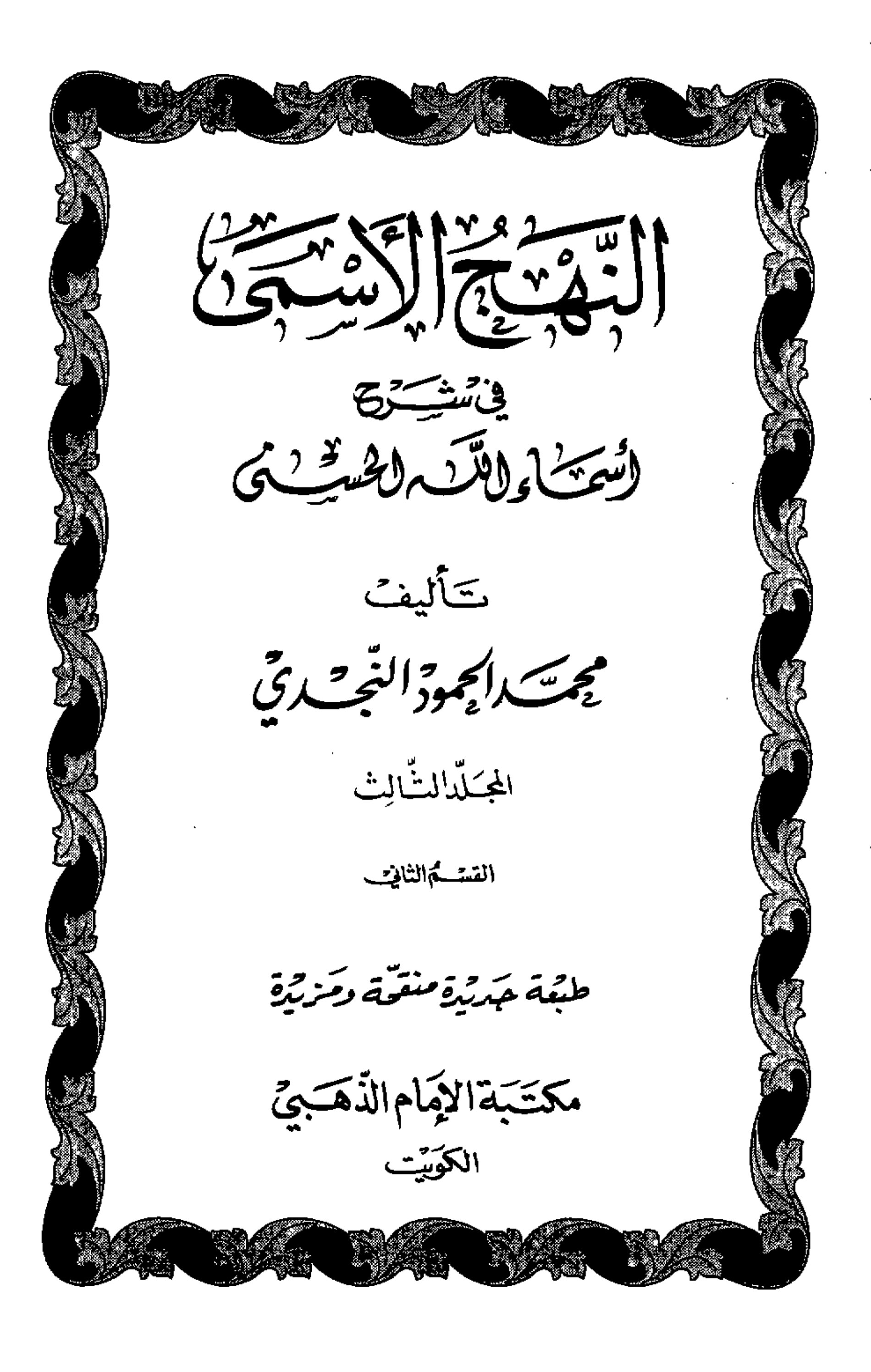
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *



النهج الأسمى

في شرح أسماء الله الحسنى

تأليف

محمد الحمود النجدي

المجلد الثالث

القسم الثاني

طبعة جديدة منقحة ومزيدة

مكتبة الإمام الذهبي

الكويت


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد :

فهذا القسم الثاني من كتابنا « النهج الأسْمى في شرح أسماء الله الحسنى» وهو الأسماء الحسنى الثابتة لله جل شأنه في حديث رسوله الأمين ﷺ ، شاء الله تعالى أن يتأخر عن القسم الأول هذه المدة ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فنحمده عز وجل حمداً كثيراً طيبًا كما يحب ويرضى على ما وفّق ويَسَّر لكتابة هذا الجزء ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

والسنة هي المصدر الثاني الـذي يجب الرجوع إليه ، والتعويل عليه بعد كتاب الله عز وجل في هذا الباب وغيره من أبواب العقيدة والشـريعة ، قـال تعـالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

والحكمة : السُّنَّة.

وقال ﷺ : « **ألا إني أوتيتُ الكتاب ومثله معه...** »[1].

قال الإمام أحمد رحمه الله: « لا يُوصف الله إلا بما وَصَفَ به نفسه، أو وَصَفَه به رسول ﷺ ، لا يُتَجاوز القرآنُ والحديث» [2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « ومن الإيمان بالله: الإيمانُ بما وَصَفَ به نفسَه في كتابه العزيز، وبما وَصَفَه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل» [3].

ثم قال بعد أن ذكر جملة طيبة من آيات الأسماء والصفات:

« ثم في سُنَّة رسول الله ﷺ ، فالسُّنَّةُ تُفسِّر القرآن وتُبيِّنه، وتدلُّ عليه، وتُعبِّر عنه، وما وَصفَ الرسول ﷺ به ربَّه عز وجل من الأحاديث الصِّحاح، التي تلقَّاها أهلُ المعرفة بالقبول، وجَبَ الإيمان بها كذلك»[4].

فمن تمام بحثنا ذكر ما ورد في السُّنة من الأسماء الحسنى.

ومن نهجنا فيه أننا لا نُثبت فيه اسمًا من الأسماء الحسنى إلا بحديث صحيح أو حسن ، لأن أسماءَه تعالى توقيفيةٌ كما قررنا قواعد السلف في الأسماء في أول الكتاب ، والأحاديث الضعيفة لا تصلح لذلك الإثبات وقد وردت بعض الأسماء في أحاديث صحيحة ، لكني ترددت في إدخالها في أسماء الله تعالى ، خشية أن تكون قد أُريد بها الإخبار لا

---

(١) حديث صحيح ، رواه أحمد (١٣١/٤) ، وأبو داود في «السنة» (٤٦٠٤) عن حريز بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبي عوف عن المقدام بن معد يكرب مرفوعًا به .

وإسناده صحيح

وله طرق أخرى عند الترمذي (٢٦٦٤ـ شاكر) ، وابن ماجة في المقدمة (١٢).

وشاهد عند الترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٣) من حديث ابي رافع.

(٢) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٦/٥) .

(٣) « الواسطية» (ص ٦٥) ط دار الهجرة .

(٤) المصدر السابق (ص١٦١) .

التسمية ، وباب الأخبار أوسع من باب الأسماء ، كما مرَّ معنا في أول الكتاب في كلام ابن القيم رحمه الله تعالى وغيره .

مثل : « الطَّبيب » و « المسَعِّر » وغيرهما .

وقد رجعت إلى مصادر جديدة في شرح الأسماء ، وهي مصادر حديثية كـ « غريب الحديث » لأبي عبيد القاسم بن سلاَّم الهروي ، و«غريب الحديث » لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة خطيب السُّنَّة ، و « غريب الحديث » لأبي إسحاق الحربي ، و « النهاية في غريب الحديث والأثر » لأبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير وغيرها ، بالإضافة إلى المصادر التي اعتمدناها سابقًا في القسم الأول .

ونسأل الله تعالى أن ينفع به وأن يجعل له القبول وأن يكون خالصا لوجهه سبحان وتعالى .

ولا يفوتني أن أشكر صاحب مكتبة الذهبي الأخ الفاضل / بدر الفيلكاوي على حرصه على هذا الكتاب وخروجه بهذه الحلة البهية بقسميه الأول والثاني فجزاه الله خيراً .

اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، وتب علينا إنك أنت التَّواب الرحيم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتبه

محمد الحمود النَّجدي

في الكويت صبيحة الجمعة لسبع عشرة

خلت من ربيع الأول سنة ١٤١٧هـ .

الرَّفِيقُ
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١)

*** المعنى اللغوي :**

الرِّفقُ ضد العنف .

رفق بالأمر وله وعليه ، يَرفُق رِفْقا : لَطَفَ ، وكذلك : تَرفَّق به .

قال الليث : الرِّفق لين الجانب ولطافةُ الفعل .

والرفيق : المُرافِق ، والجمع : الرُّفقاء .

وقال ابن الأعرابي : رَفَقَ : انتظر .

والرفيق ضد الأخرق .

والرِّفق والمِرفَق والمَرفِقُ والمَرفَقُ : ما استُعين به ، وقد ترفَّق به وارتَفَق ، وفي التنزيل ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: ١٦][(١)].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « **يا عائشة ! إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ ، ويُعطي على الرِّفقِ مالا يُعْطي على العُنْف ، ومالا يُعطي على مَا سِواه** »[(٢)].

---

(١) « اللسان » (٣/ ١٦٩٤ ـ ١٦٩٦) ، « الصحاح » (٤/ ١٤٨٢) .

(٢) رواه مسلم في « البر » (٤/ ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤) من طريق عمرة بنت عبد الرحمن عنها .

وله طرق أخرى من حديث علي بن أبي طالب وأنس وأبي هريرة وعبد الله بن مغفل رضي الله عنهم ، انظرها في «إبطال التأويلات» (٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨) للقاضي أبي يعلى بتحقيقنا.

وعنها رضي الله عنها قالت : لما مرضَ النبي ﷺ المرضَ الذي مات فيه جعل يقول : « **في الرفيق الأعلى** » وفي رواية : أنه رفع يده أو إصبعه ثم قال : « **في الرفيق الأعلى** » ثلاثًا ثم قَضَى ...[1].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال القرطبي بعد أن بيَّن المعنى اللغوي للاسم : ولله تعالى من ذلك ما يليق بجلاله سبحانه .

فهو الرفيق : أي الكثير الرفق ، وهوِ اللِّين والتسهيل ، وضده العنف و التَّشديد و التَّصعيب .

وقد يجيء الرفق بمعنى : الإرفاق ، وهو إعطاء ما يرتفق به ، وهو قول أبي زيد .

---

(١) رواه البخاري في « المغازي » (٨/١٣٦ ، ١٣٨) ، ومسلم (٤/١٧٢٢) بلفظ : « مع الرفيق الأعلى » .

قال الحافظ ابن حجر : وزعم بعض المغاربة أنه يحتمل أن يراد بالرفيق الأعلى الله عز وجل لأنه من أسمائه ... ثم ذكر حديث مسلم السابق ... قال : والرفيق يحتمل أن يكون صفة ذات كالحكيم ، أو صفة فعل ، قال : ويحتمل أن يراد به حضرة القدس ، ويحتمل أن يراد به الجماعة المذكورن في آية النساء ، ومعنى كونهم رفيقًا : تعاونهم على طاعة الله ، وارتفاق بعضهم ببعض ، وهذا الثالث هو المعتمد ، وعليه اقتصر أكثر الشراح ، وقد غلَّط الأزهرى القول الأول ، ولا وجه لتغليطه من الجهة التي غلطه بها وهو قوله : «مع الرفيق » أو « في الرفيق » ، لأن تأويله على ما يليق بالله سائغ اهـ .

وفي « اللسان » (٣/١٦٩٦) : وقال شَمِرٌ في حديث عائشة : فوجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجرى ... قال أبو عدنان : قوله في الدعاء : « اللهم ألحقني بالرفيق الأعلى » سمعت أبا الفهد الباهلي يقول : إنه تبارك وتعالى رَفيقٌ وَفيق ، فكان معناه : ألحقني بالرفيق أي بالله ، يقال : الله رفيق بعباده من الرفق والرَّأفة ، فهو فعيل بمعنى فاعل .

ثم ذكر قول أبي منصور الأزهري الذي أشار إليه الحافظ آنفًا .

وكلاهما صحيحٌ في حقِّ الله تعالى .

إذْ هو الميسر والمُسهِّل لأسباب الخير كلها ، والمعطي لها وأعظمها : تيسير القرآن للحفظ ، ولولا ما قال ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر : ١٧] ما قَدِرَ على حفظه أحد ، فلا تيسير إلا بتيسيره ، ولا منفعةَ إلا بإعطائه وتقديره .

وقد يجئ الرفق أيضًا بمعنى : التَّمهل في الأمور والتأني فيها ، يقال منه : وقفتُ الدابة ارفقها رفقًا ، إذا شَدَدت عَضُدها بحبلٍ لتبطئ في مشيها .

وعلى هذا يكون « الرفيق » في حق الله تعالى بمعنى « الحليم » فإنه لا يعجل بعقوبة العُصاة ليتوب مَن سَبَقَتْ له العناية ، ويَزداد إثمًا من سبقتْ له الشقاوة .

وقال الخطابي : قوله : « إن الله رفيق » معناه : ليس بعجول ، وإنما يعجل من يخاف الفوت ، فأما من كانت الأشياء في قبضته وملكه فليس يعجل فيها [(١)].

وقال النووي : وأما قوله ﷺ : « إن الله رفيقٌ » ففيه تصريح بتسميته سبحانه وتعالى ووصفه برفيق . قال المازري : لا يُوصف الله سبحانه وتعالى إلا بما سمى به نفسه أو سمّاه به رسول الله ﷺ أو أجمعت الأمة عليه ، وأما ما لم يرد إذن في إطلاقه ، ولا ورد منعٌ في وصف الله تعالى به ففيه خلاف : منهم من قال يبقى على ما كان قبل ورود الشرع ، فلا يوصف بحل ولا حرمة ، ومنهم من منعه .

قال : وللأصوليين المتأخرين خلافٌ في تسمية الله تعالى بما ثبت

(١) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٤٢٩ ، أ ـ ب)

عن النبي ﷺ بخبر الآحاد ، فقال بعض حذاق الأشعرية : يجوز ، لأن خبر الواحد عنده يقتضي العمل ، وهذا عنده من باب العمليات لكنه يمنع إثبات أسمائه تعالى بالأقيسة الشرعية ، وإنْ كانت يعمل بها في المسائل الفقهية ، وقال بعض متأخريهم : يمنع ذلك ! فمن أجاز ذلك فَهِمَ مِن مسالك الصحابة قبولهم ذلك في مثل هذا ، ومَن منع لم يُسلم ذلك ، ولم يثبت عنده إجماعٌ فيه فبقي على المنع .

قال المازري : فإطلاق رفيق إن لم يثبت بغير هذا الحديث الآحاد ، جرى في جواز استعماله الخلاف الذي ذكرنا ، قال : ويحتمل أن يكون صفة فعل ، وهي : ما يخلقه الله تعالى من الرفق لعباده . هذا آخر كلام المازري .

قال النووي : والصحيح جواز تسمية الله تعالى رفيقًا وغيره مما ثبت بخبر الواحد ، وقد قدَّمنا هذا واضحًا في كتاب الإيمان في حديث « **إن الله جميل يحب الجمال** » في « باب تحريم الكبر » وذكرنا أنه اختيار إمام الحرمين [1].

وقال ابن القيم في « النونية » [2]:

وهو الرفيقُ يُحبُّ أهل الرفقِ ... يُعطيهم بالرِّفقِ فوقَ أَمَانِ

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- أن الله تعالى موصوف بالرفق ، وهو من صفاته ، إما صفةُ ذاتٍ

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/١٤٥ ـ ١٤٦) . وما قاله النووي هو الحق الذي لا مرية في ، فإن التفريق في الاحتجاج بالمتواتر دون الآحاد في العقيدة ، بدعة اعتزالية لم يعرفها سلف الأمة رضوان الله عليهم .

(٢) « النونية » بشرح أحمد بن عيسى (٢/٢٢٩) .

أو صفة فعل ، وقد نقل إجماع الأمة على ذلك الإمام أبو يعلى الفراء ، وقال : لأنهم يقولون : يا رفيق ارفُقْ بنا في أحكامك [1].

٢- ورفقه سبحانه وتعالى بعباده يظهر في رأفته ورحمته بهم شرعًا وقدرًا ، وهو مالا يحصى ولا يعد [2].

٣- ومن رفقه سبحانه بعباده إمهاله للعصاه منهم ليتوبوا إليه ، ولو شاء لعاجلهم بالعقوبة ، لكنه رفق بهم وتأنى ، ليحصل لهم ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، فله الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا كما يحب ويرضى [3].

٤- وهو سبحانه وتعالى رفيق يحب الرفق وأهله ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف ، قيل : من الثواب ، وقيل : يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده [4].

وقد حث الرسول ﷺ على استعماله حتى مع الأعداء أحيانا ، وقد بوب الإمام البخاري في « صحيحه » : « باب الرفق في الأمر كلِّه » ، وأورد فيه حديث عائشة رضي الله عنها قالت : دخل رهطٌ من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السَّامُ عليكم ، قالت عائشة : ففهمتُها فقلت : وعليكم السَّامُ واللعنة ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : « **مهلاً يا عائشة ، إنَّ الله يحبُّ الرفقَ في الأمرِ كله** » ، فقلت : يا رسول الله ، أولم تسمعْ ماقالوا؟ قال رسول الله ﷺ : « **قد قلت وعليكم** » [5].

---

(١) « إبطال التأويلات لأخبار الصفات » (٢/٤٦٧) .

(٢) انظر مظاهر رحمته تعالى في « الرحمن ـ الرحيم » .

(٣) انظر الكلام على اسمه « الحليم » .

(٤) انظر « الفتح » (١٠/٤٤٩) .

(٥) المصدر السابق ، وانظر ما فيه من الفوائد الأخرى في « الاستئذان » (١١/٤٣).

وعنها أيضًا رضي الله عنها : عن النبي ﷺ قال : « **إنَّ الرفقَ لا يكون في شيء إلا زَانَه ، ولا يُنْزَعُ من شيءٍ إلا شَانَه** »[1].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**مَنْ يُحْرَمِ الرفقَ يُحْرَمِ الخير** »[2].

قال القرطبي : فينبغي لكل مسلم أن يكون رفيقًا في أموره ، وجميع أحواله ، غير عَجِلٍ فيها ، فإن العَجَلة من الشيطان ، ولا تُفارِقُهُ الخيبةُ والخُسْران ، وقال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس : « **إنَّ فيك لخَصْلَتين يُحبُّهما الله : الحِلْم والأناة** »[3].

* * *

(١) رواه مسلم في « البر » (٤/٢٠٠٤) .

(٢) المصدر السابق (٤/٢٠٠٣) .

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١/٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

السبُّوح
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٢)

* المعنى اللغوي :

التسبيح : التنزيه .

قال الأزهري : وسبحان الله : معناه تنزيهًا لله من الصاحبة والولد .

وقيل : تنزيه الله تعالى عن كلِّ مالا ينبغي أن يُوصف به .

ونَصْبُهُ أنه في موضعِ فعلٍ على معنى تسبيحًا له ، تقول : سبَّحت الله تسبيحًا له ، أي : نَزَّهته تنزيها [١].

قال ثعلب : كلُّ اسم على « فعُّول » فهو مفتوح الأول ، إلا السُّبُّوح والقدوس فإن الضَّم فيهما أكثر .

وقال سيبويه : ليس في الكلام فُعُّول بواحدة [٢].

وقال الأزهري : وسائر الأسماء تجيء على فَعُّول ، مثل : سَفُّود وقَفُّور وقبور وما أشبهها .

قال : والفتح فيهما « أى السبوح والقدوس » أقيس ، والضم أكثر استعمالاً وهما من أبنية المبالغة والمراد بهما التنزيه [٣].

---

(١) « لسان العرب » (٣/ ١٩١٤) ، و« الصحاح » (١/ ٣٧٢) .

(٢) « الصحاح » (١/ ٣٧٢) .

(٣) « اللسان » (٣/ ١٩١٥) ، وانظر « النهاية » لابن الأثير (٢/ ٣٣٢) .

* وروده في الحديث الشريف :

ورد في حديث عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده : « **سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائكةِ والروح** »[1].

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال أبو إسحاق الزجاج : السُّبوح : الذي ينزه عن كل سوء[2].

وقال ابن سيده : سبوحٌ قدوس من صفة الله عز وجل ، لأنه يُسَبَّح ويُقدَّس[3].

وقال الحليمي : السُّبوح : ومعناه المنزه عن المعائب ، والصفات التي تعتور المحدثين من ناحية الحدث ، والتسبيح : التنزيه[4].

وقال النووي : وقال ابن فارس والزَّبيدي وغيرهما : سبُّوحٌ هو الله عز وجل ، فالمراد بالسبُّوح القدُّوس : المُسَبّح المُقدس ، فكأنه قال : مسبحٌ مقدس ربُّ الملائكة والروح ، ومعنى سبوح : المبرأ من النقائص والشريك ، وكل ما لا يليق بالإلهية ، وقدوس : المطهر من كل ما لا يليق بالخالق[5].

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١- الله تبارك وتعالى منزه عن كلِّ عيب ونقص وسوء ، فله الكمال

(١) رواه مسلم في « الصلاة » (١/٣٥٣) ، وأبو داود (٨٧٢) ، والنسائي (٢/٢٢٤) .

(٢) « اللسان » (٣/١٩١٥) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) « المنهاج في شعب الإيمان » (١/١٩٧) وذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى ، ونقله البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٣٧) .

(٥) مسلم بشرح النووي (٤/٢٠٤ ـ ٢٠٥) .

المطلق سبحانه وتعالى [1].

٢- الله جل شأنه يسبحه من في السموات ومن في الأرض ، بمختلف اللغات ، وأنواع الأصوات ، قال سبحانه ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

قال أبو إسحاق الزجاج : قيل إن كلاً ما خلق الله يُسبِّح بحمده ، وإن صَرير السقف وصرير الباب من التسبيح ، فيكون على هذا الخطاب للمشركين وحدهم ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ وجائز أن يكون تسبيح هذه الأشياء بما الله به أعلمُ لا نفقهُ منه إلا ما عُلِّمناه .

قال : وقال قوم : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ أي ما من دابة إلا وفيه دليل أن الله عز وجل خالقه ، وأن خالقه حكيم مبرأٌ من الأسْواء، ولكنكم أيها الكفار لا تفقهون أثر الصنعة في هذه المخلوقات !

قال أبو إسحاق : وليس هذا بشيء لأن الذين خُوطبوا بهذا كانوا مُقرِّين أن الله خالقهم وخالق السماء والأرض ومن فيهن ، فكيف يجهلون الخِلْقة وهم عارفون بها ؟ [2].

قال الأزهري : ومما يدلك على أن تسبيح هذه المخلوقات تسبيح تَعبَّدتْ به قولُ الله عز وجل للجبال ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ: ١٠] ومعنى ﴿ أَوِّبِي ﴾ : سبحي مع داود النهار كلَّه إلى الليل ، ولا يجوز أن يكون معنى أمر الله عز وجل للجبال بالتأويب إلا تعبدًا لها .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي

---

(١) انظر مبحث التنزيه عند أهل السنة في الكلام على القدوس .

(٢) « اللسان » (٣/ ١٩١٥) .

﴿الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] فسجود هذه المخلوقات عبادة منها لخالقها لا نفقهها عنها كما لا نفقه تسبيحها .

وكذلك قوله : ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] ، وقد علم الله هبوطها من خشيته ولم يُعرِّفنا ذلك فنحن نؤمن بما أُعْلِمنا ، ولا ندعي بما لا نُكلَّف بأفهامنا من علم فعلها كيفيةً نحدُّها [١].

وهو كلام نفيس جار على مذهب السلف من إجراء النصوص على ظاهرها والبعد عن التأويل والتكلف المذمومين .

وقد ذهب إلى هذا ابن جرير الطبري رحمه الله ، فقال في تفسير ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ : وما من شيء من خلقه إلا يسبح بحمده .

واستدل لصحة ذلك بما رواه جابر عن النبي ﷺ قال : « **ألا أخبركم بشيء أمر به نوحٌ ابنه ، إن نوحًا قال لابنه : يابني آمرك أن تقول : سبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة الخلق وتسبيح الحق ، وبها ترزق الخلق ، قال الله : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾** » [٢].

---

(١) المصدر السابق .

(٢) « تفسير ابن جرير » (١٥/٦٥) ، وفيه موسى بن عبيدة وهو الربذي وفيه ضعف .

وهو حديث صحيح ، فقد رواه أحمد (٢/١٦٩ ـ ١٧٠ ، ٢٢٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، والحاكم (١/٤٨ ـ ٤٩) وصححه ووافقه الذهبي ، والبيهقي في «الأسماء» (ص ١٠٣) من حديث ابن عمرو ، وإسناده صحيح .

ورواه البزار (٣٠٦٩) من حديث ابن عمر ، وفيه عنعنة ابن إسحاق .

٣- كان الرسول ﷺ يذكر هذا الاسم في ركوعه وسجوده ، داعيًا ربه عز وجل به ، كما مر معنا في الحديث السابق .

❋ ❋ ❋

الشّافي
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٣)

*** المعنى اللغوي :**

الشِّفاء : البُرْءُ من المرض .

يقال : شفاهُ الله يَشفيه شفاءً .

والشِّفاء أيضا : ما يُبْرِئُ من المرض.

يقال : أَشْفاهُ الله عَسَلاً ، إذا جعله له شفاءً ، حكاه أبو عبيدة.

واسْتَشْفى : طلب الشِّفاء ، ونال الشفاء أيضا [١].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث عائشة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ كان إذا أتى مريضًا أو أُتيَ به إليه قال عليه الصلاة والسلام : « **أذْهب الباس ، ربَّ الناس ، اشْفِ وأنتَ الشافي، لاشفاءَ إلا شِفاؤُك ، شفاءً لايُغادِرُ سَقَمًا** » [٢].

---

(١) « اللسان » (٤/ ٢٢٩٤ ـ ٢٢٩٥) .

(٢) رواه البخاري في « المرضى » (١٠/ ١٣١ ، ٢٠٦ ، ٢١٠) ، ومسلم في « السلام » (٤/ ١٧٢٢).

قوله : « لا يغادر سقما » : أي لا يترك ، وفائدة التقييد بذلك أنه قد يحصل الشفاء من ذلك المرض فيخلفه مرضٌ آخر يتولد منه ، فكان يدعو له بالشفاء المطلق ، لا بمطلق الشفاء . « الفتح » (١٠/ ١٣١) .

وقد ورد في القرآن فعلاً ، في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] .

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال الحليمي : قد يجوز أن يقال في الدعاء : يا شافي يا كافي ، لأن الله عز وجل يشفي الصدور عن الشُّبه والشكوك ، ومن الحسد والغلول ، والأبدان من الأمراض والآفات ، لا يقدر على ذلك غيره ، ولا يُدْعى بهذا الاسم سواه .

ومعنى الشفاء : رفع ما يُؤذي أو يؤلم من البدن [1].

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١- الله تبارك اسمه هو الشافي الحقيقي لكل آفةوعاهة ومرض بدني أو نفسي ، فقوله ﷺ في الحديث « اشف أنت الشافي » دليل على أن الشافي على الإطلاق هو الله وحده جل شأنه .

قال القرطبي : فيجب على كل مكلف أن يعتقد ألا شافي على الإطلاق إلا الله وحده ، وقد بيَّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله « لا شافي إلا أنت » فيعتقد الشفاء له وبه ومنه ، وأن الأدويةَ المستعملة لا تُوجب شفاءً، وإنما هي أسباب وأوساط يَخلق الله عندها فعله[2] وهي الصحة

---

(١) « الأسماء » للبيهقي (ص ٩٠) .

(٢) هذا بناء على مذهب الأشاعرة ، فانهم أنكروا أن يكون شيء يؤثر في شيء ، وأنكروا « باء السببية » ! وقالوا : إن الأسباب علاقات لا موجبات ، فيقولون : إذا كسر الإنسان زجاجة فإنها ما انكسرت بكسره وإنما انكسرت عند كسره !

قالالشيخ محمد العثيمين حفظه الله تعالى: انقسم الناس في الأسباب إلى طرفين ووسط، =

التي لا يخلقها أحدٌ سواه فكيف ينسبها [1] إلى جمادٍ من الأدوية أو سواها ، ولو شاء ربُّك لخلق الشفاء دون سبب ، ولكن لما كانت الدنيا دار أسباب جرت السنة فيها بمقتضى الحكمة ، على تعليق الأحكام بالأسباب ، وإلى هذا أشار جبريل ﷺ وإياه أوضح بقوله لرسوله ﷺ : « بسم الله أرقيك ، اللهُ يشفيك » فبيّن أن الرقية منه ، وهي سببٌ لخلق الله وهو الشفاء [2].

٢ ـ فمنه تعالى شفاء النفوس من أسقامها ، والأبدان من أمراضها ، فأنزل القرآن العظيم شفاء لعباده ورحمة ، كما قال سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ

= فطرف من الناس غلا في إثبات الأسباب حتى جعلها مؤثرة بنفسها وأنكر ما يخرج عن سنة الأسباب ، ومن الناس مَنْ فَرَّط فيها ولم يجعل لها أثرًا في مسبباتها ، وقال: إن المُسَبَّب يحدث عند السبب لا بالسبب ، وكلا القولين خطأ ، فإنَّ من المعلوم ـ بالحس والعقل ـ أن الحجر إذا رُميَ على زجاجة انكسرت به ، وان الورق إذا أُلقى في النار احترق بها ، ولا أحدُ ينكر ذلك ، ومن قال : إنه احترق عند إلقائه في النار لا بالنار، أو أن الزجاجة انكسرت عند ملامسة الحجر لا بالحجر ! فقد أبعد النُّجعة ، ولكن نقول : إن الزجاجة انكسرت بالحجر ؛ لأن الله تعالى جعل هذه الصدمة سببًا للكسر ، والورقة احترقت بالنار، لأن الله جعل النار محرقة . ولهذا إذا أراد اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يتخلَّف المُسَبَّبُ عن السبب تخلَّف ، فها هو إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أُلقِيَ في النار العظيمة التي اضرمها قومه المكذبون له ليحرقوه فقال الله تعالى للنار : ﴿كوني بردا وسلاما على إبراهيم﴾ فكانت بردًا وسلامًا عليه ولم يحترق بها ، وهذا دليلٌ على أن الله تعالى هو الذي يودع في الأسباب ما يجعلها مؤثرة . وأما من قال : إن الأسباب مؤثرة بذاتها ، وإنه لا يمكن أن يتخلَّف المسَبَّب عن السبب فقوله ـ أيضًا ـ خطأ ، فإن هذا يستلزم إنكار خوارق العادات التي يجريها الله تعالى على غير الأسباب العادية ، ولا احد عنده علم بالسمع أو عقل راجح إلا أنكر هذا القول . انتهى من « احكام من القرآن الكريم » (ص ١٧٥ ـ ١٧٦) .

(١) كلمة لم أستطع قراءتها لسواد في المصورة .

(٢) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٤٢٢ ب) .

الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

قال الإمام الطبري : يقول تعالى ذكره : وننزل عليك يا محمد من القرآن ما هو شفاءٌ يُستشفى به من الجهل من الضلالة ، ويُبصَّرُ به من العمى ، للمؤمنين ، ورحمة لهم دون الكافرين به ، لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله ، ويحلُّون حلاله ويحرِّمون حرامه فيدخلهم بذلك الجنة ، ويُنجيِّهم من عذابه ، فهو لهم رحمةٌ ونعمة من الله ، أنعم بها عليهم .

﴿وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ يقول : ولا يزيد هذا الذي نُنزل عليك من القرآن الكافرين به إلا خسارًا ، يقول : إهلاكًا ، لأنهم كلما نَزَل فيه أمرٌ من الله بشيء أو نهي عن شيء كفروا به ، فلم يأتمروا لأمره، ولم ينتهوا عما نهاهم عنه ، فزادهم ذلك خسارًا إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسار ، ورجْسًا إلى رجسهم قبل [(١)].

وأما الأبدان فإنه تعالى أنزل الداء وأنزل الدواء ، عَلمه مَن علمه وجهله من جهله ، كما قال ﷺ : « ما أَنزلَ اللهُ داءً إلا أنزلَ له شفاء » [(٢)].

وقال أيضًا : « لكلِّ داءٍ دواءٌ ، فإذا أُصيبَ دواءُ الدَّاء برأ بإذن الله عز وجل » [(٣)].

وقال : « إن الله عز وجل لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً ، عَلِمه من عَلمه، وجهله مَن جهله » [(٤)].

---

(١) « تفسير الطبري » (٥/ ٦٢) تهذيب بشار عواد وعصام فارس .

(٢) رواه البخاري في « الطب » (١٠/ ١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه مسلم في « السلام » (٤/ ١٧٢٩) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٤) رواه أحمد (١/ ٣٧٧ ، ٤١٣ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٥٣) ، والحميدي (٩٠) ، وابن ماجه =

قال الحافظ ابن حجر بعد سياقه لطائفة من الأحاديث في الباب : وفي مجموع هذه الألفاظ ما يُعرف منه المراد بالإنزال في حديث الباب ، وهو : إنزال علم ذلك على لسان المَلَك للنبي ﷺ مثلاً ، أو عبَّر بالإنزال عن التقدير ، وفيها التقييد بالحلال فلا يجوز التداوي بالحرام .

وفي حديث جابر منها الإشارة إلى أن الشفاء متوقف على الإصابة بإذن ، وذلك أن الدواء قد يحصل معه مجاوزة الحد في الكيفية أو الكمية فلا ينجع ، بل ربما أحدث داءً آخر ، وفي حديث ابن مسعود الإشارة إلى أن بعض الأدوية لا يعلمها كل أحد ، وفيها كلها إثبات الأسباب ، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله وتقديره ، وأنها لا تنجع بذواتها بل بما قدَّره الله تعالى فيها ، وأن الدواء قد ينقلب داءً إذا قدَّر الله ذلك ، وإليه الإشارة بقوله في حديث جابر « بإذن الله » فمدار ذلك كله على تقدير الله وإرادته .

والتداوي لا يُنافي التوكل كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب ، وكذلك تجنب المهلكات والدعاء بطلب العافية ودفع المضار وغير ذلك [1].

* * *

= (٣٤٣٨) ، وابن حبان (٦٠٦٢) ، والحاكم (٤/١٩٦ـ ١٩٧) من طرق عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن مسعود به . وهو حديث صحيح .

(١) « الفتح » (١٠/١٣٥) .

الطَّيِّبُ

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٤)

*** المعنى اللغوي :**

الطَّيب خلاف الخبيث .

وتتسع معانيه فيقال : أرضٌ طيبة : للتي تصلح للنبات ، وريح طيبة : إذا كانت لينةً ليست بشديدةٍ ، وطُعْمةٌ طيبة : إذا كانت حلالاً ، وامرأةٌ طيبة : إذا كانت حَصَانًا عفيفة ، وكلمة طيبة : إذا لم يكن فيها مكروه ، وبلدة طيبة : أي آمنة كثيرة الخير ، ونكهة طيبة : إذا لم يكن فيها نتن ، ونفس طيبة : إذا كانت بما قُدِّر لها راضية .

وقد يرد الطَّيب بمعنى : الطَّاهر ، ومنه حديث علي رضي الله عنه قال : لما غسّل النبي ﷺ ذهب يَلْتمس منه ما يَلتمس من الميت فلم يجده ، فقال : بأبي الطَّيِّبُ ، طِبتَ حيًّا وطبت ميِّتا » [1].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« أيها الناسُ ، إنَّ الله طيِّبٌ ولا يَقْبلُ إلا طيبًا ، وإن الله أَمَرَ المؤمنين بما أمر به**

---

(١) حديث صحيح ، رواه ابن ماجه (١٤٦٧) .

وانظر : « الصحاح » (١/ ١٧٣) ، و« لسان العرب » (٤/ ٢٧٣١) ، و « النهاية في غريب الحديث » (٣/ ١٤٨) .

المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١] **وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾** [البقرة: ١٧٢] **ثم ذكر الرجل يُطيلُ السفر أشعثَ أغبر ، يمدُّ يديه إلى السماء ، يا ربِّ يارب ، ومطعمُهُ حرام ، ومَشربه حرام ، ومَلبسه حرام وغُذِّي بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك »** [1].

*** المعنى في حق الله تعالى :**

قال القاضي عياض : الطيِّب في صفة الله تعالى بمعنى : المُنَزَّه عن النقائص ، وهو بمعنى القدوس ، وأصل الطيب : الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث [2].

وفي تحفة الأحوذي : ومعنى الحديث أنه تعالى منزهٌ عن العيوب ، فلا يَقبل ولا ينبغي أن يُتقرَّب إليه إلا بما يناسبه في هذا المعنى ، وهو خيار أموالكم الحلال [3].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ـ إن الله تعالى يوصف بالطِّيبِ ، والتَّنزه عن الخُبث والنقائص والعيوب .

كما قدمنا في الكلام على القدوس .

٢ـ وأنه سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ولا يصعد إليه من الأقوال والأعمال ، ولا ينبغي أن يتقرب إليه العباد إلا بالطيب من ذلك .

---

(١) رواه مسلم في « الزكاة » (٢/ ٧٠٣) .

(٢) « شرح مسلم » (٧/ ١٠٠) للنووي، وبنحوه في « إكمال إكمال المعلّم » للأبيّ (٣/ ٤٧٧).

(٣) (٨/ ٣٣٤) .

قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧] .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ تصدَّق بعَدْل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل اللهُ إلا الطيب ـ فإن الله يتقبَّلها بيمينه ثم يُربيها لصاحبها كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّه ، حتى تكون مثل الجبل »[1].

فلا يقبل الله تعالى الصَّدقة بالحرام، لأنه تصرفٌ فيما لا يملك، فمن تصدَّق من ربا أو سرقة أو غلولٌ فإن الله تعالى لا يقبله ، كما قال ﷺ : « لا تُقبلُ صلاةٌ بغير طُهور ، ولا صدقةٌ من غُلُول »[2].

وكذلك كل الأقوال والأعمال لا يقبل الله عز وجل منها إلا الطيب الصالح ، قال عز وجل : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر: ١٠] .

والكلم الطيب قيل هو : لا إله إلا الله ، وقيل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقيل هو : القرآن .

والمختار أنه كل كلام هو ذكر الله تعالى ، أو هو لله سبحانه كالنصيحة والعلم[3].

وفي حديث التشهد : « التحيَّاتُ لله والصَّلَواتُ والطَّيِّباتُ ... »[4].

(١) رواه البخاري في « الزكاة » (٣/٢٧٨) ، وفي « التوحيد » (١٣/٤١٥) ، ومسلم في «الزكاة» (٢/٧٠٢) .

(٢) رواه مسلم في « الطهارة » (١/٢٠٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . والغلول : الخيانة ، وأصله السرقة من مال الغنيمة قبل القسمة .

(٣) انظر : « روح المعاني » للألوسي (٢٢/١٧٤) .

(٤) رواه مسلم في « الصلاة » (١/٣٠١ ـ ٣٠٣) من حديث عبد الله رضي الله عنه .

أي : أن التحيات والصلوات والكلمات الطيبات مستحقةٌ لله تعالى ، ولا تصلح غيرها له سبحان وتعالى .

٣ـ وكذا الطَّيبون أهل الإيمان به عز وجل ومن اتبع رضوانه وعَمَر قلبه بمحبته ، فإنهم لا يُحبون إلا الطَّيب من القول ، ولا يتكلمون إلا بالحَسَن من الكلام ، كما قال الله تعالى في وصفهم : ﴿ **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ [النور: ٢٦] .

قال مجاهد وابن جبير وأكثر المفسرين : المعنى : الكلماتُ الخبيثاتُ ـ من القول ـ للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، وكذا الكلمات الطَّيبات من القول للطَّيبين من الناس، والطَّيبون من الناس للطيبات من القول [1].

وقيل المعنى : الخَبيثاتُ من النساء للخبيثين من الرجال ، وكذا الطَّيبات للطيبين [2].

٤ ـ وأخبر عز وجل أنه يهدي أهل الجنة للكلمات الطيبة ، ويحفظ لسانهم عن الخبيث من القول ، فقال سبحانه : ﴿ **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ** ﴾ [الحج: ٢٤] .

فإنهم كما جاء في الحديث الصحيح : « **يُلْهمون التَّسبيحَ والتَّحميد**

---

(١) « تفسير القرطبي » (١٢/ ٢١١) ، وقال : قال النحاس في كتاب « معاني القرآن » : وهذا من أحسن ما قيل في هذه الآية .

ودلَّ على صحة هذا القول ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ أي عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات .

(٢) المصدر السابق .

كما يُلهمون النَّفَس » .

وقد قال بعض المفسرين في قوله : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي : القرآن ، وقيل : لا إله إلا الله ، وقيل : الأذكار المشروعة [1].

وهو لا ينافي الأول فإن الهداية لهذا : سَبَبٌ لدخول الجنة ، فإن الجنة لا يدخلها إلا من هداه الله تعالى للطيب من القول ، ولا إله إلا الله : مفتاح الجنة .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : ولما كان الشركُ أعظمَ الدواوين الثلاثة عند الله عز وجل[2] حرّم الجنة على أهله ، فلا تدخل الجنة نفسٌ مشركةٌ ، وإنما يدخلها أهلُ التوحيد ، فإن التوحيد هو مفتاح بابها ، فمن لم يكن معه مفتاح لم يُفتح له بابها ، وكذلك إنْ أتى بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به ، وأسنان هذا المفتاح هي : الصلاة، والصيام ، والزكاة ، والحج ، والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، فأي عبدٍ اتخذ في هذه الدار مفتاحًا صالحًا من التوحيد ، وركَّب فيه أسنانًا من الأوامر ، جاء يوم القيامة إلى باب الجنة ومعه مفتاحها الذي لا يفتح إلا به ، فلم يَعُقْه عن الفتح عائق ، اللهم إلا أن تكون له ذنوبٌ وخطايا وأوزار لم يذهب عنه أثرُها في هذه الدار بالتوبة والاستغفار ، فإنه

(١) انظر « تفسير ابن كثير » (٣/٢١٣) ، و « تفسير الطبري » (٥/٣٠٧) ط الرسالة .

(٢) ذكر أن الظلم ثلاثة دواوين :

أ ـ ديوانٌ لا يغفر الله منه شيئًا وهو الشرك .

ب ـ وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئًا وهو ظلم العباد بعضهم بعضا، فإن الله يستوفيه كله.

جـ ـ وديوان لا يعبأ الله به شيئًا ، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل .

يحبس عن الجنة حتى يتطهر منها ، وإن لم يطهره الموقف وأهواله وشدائده ، فلابدَّ من دخول النار ليخرج خبثه فيها ، ويتطهَّر من درنه ووسخه ثم يخرج منها ، فيدخل الجنة ، فإنها دار الطيبين لا يدخلها إلا طيب ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢] وقال تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

فعقَّبَ دخلوها على الطيب بحرف « الفاء » الذي يُؤْذن بأنه سبب ، أي : بسبب طيبكم قيل لكم : ادخولها .

وأما النار ، فإنها دار الخُبث في الأقوال والأعمال ، والمآكل والمشارب ، ودار الخبيثين ، فالله تعالى يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيَركمه كما يركم الشيء لتراكب بعضه على بعض ، ثم يجعله في جهنم مع أهله ، فليس فيها إلا خبيث .

ولما كان الناس ثلاث طبقات : طيِّب لا يشينه خبث ، وخبيث لا طِيب فيه ، وآخرون فيهم خُبثٌ وطِيبٌ ، كانت دورهم ثلاثة : دار الطِيب المحض ، ودار الخبيث المحض ، وهاتان الداران لا تفنيان ، ودارٌ لمن معه خُبثٌ وطيب ، وهي الدار التي تفنى وهي دار العصاة ، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحدٌ ، فإنهم إذا عُذِّبوا بقدر جزائهم أُخرجوا من النار فأُدخلوا الجنة ، ولا يبقى إلا دار الطيب المحض ، ودار الخُبث المحض [1].

---

(١) « الوابل الصيِّب من الكلم الطيب » (ص ٢٣ ـ ٢٤) ط دار البيان ١٣٩٩ هـ .

٥ ـ وقد وصف الله عز وجل منقلب المؤمنين في الآخرة بالطيب ، فحياتهم طيبة ، ومساكنهم طيبة ومطاعمهم ومشاربهم طيبة ، وذلك في غير ما آية من كتابه فقال سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢] .

وقال سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] .

وقال سبحانه : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١] .

* * *

الجَميل
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٥)

*** المعنى اللغوي :**

الجمال : الحُسْنُ .

والجَمال : مصدر الجميل ، والفعل : جَمُلَ .

وقوله عز وجل : ﴿ **وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ** ﴾ [النحل : ٦] أي : بهاءٌ وحسن .

قال ابن سيده : الجمال : الحُسن ، يكون في الفعل والخَلْق وقد جَمُل الرجل بالضم جمالاً فهو جميل وجُمَالٌ وجُمَّال [١] .

*** وروده في الحديث الشريف :**

روى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : « **لا يَدْخلُ الجنَّة مَنْ كان في قلبه مثقالُ ذرَّة من كِبْرٍ** » قال رجل : إنَّ الرجل يُحب أن يكون ثوبهُ حَسَنًا ونَعْلُه حسنًا ، قال : « **إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال ، الكبر بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس** » [٢] .

*** المعنى في حق الله تعالى :**

قال النووي : وقوله ﷺ : « **إن الله جميل يحب الجمال** » اختلفوا في

---

(١) « الصحاح » (/ ١٦٦١) ، و « اللسان » (١/ ٦٨٥) .

(٢) أخرجه مسلم في « الإيمان » (١/ ٩٣) .

معناه ، فقيل إن معناه : أن كلَّ أمره سبحانه وتعالى حسن جميل ، وله الأسماء الحسنى وصفات الجمال والكمال .

وقيل : جميل بمعنى : مُجْمِل ، ككريم وسميع بمعنى : مُكْرِم ومُسْمِع .

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله : معناه : جليل وحكى الإمام أبو سليمان الخطابي أنه بمعنى : ذي النور والبهجة أي مالكهما .

وقيل معناه : جميلُ الأفعال بكم باللُّطفِ والنَّظر إليكم ، يكلّفكم اليسير من العمل ويُعين عليه ، ويُثيب عليه الجزيل ويشكر عليه [1].

وأول كلام الخطابي : الجميل : هو المُجْمِل المُحْسِن ، فعيل بمعنى مُفْعِل [2].

وقال الحليمي : ومنها : الجميل : وهذا الاسم في بعض الأخبار عن النبي ﷺ ومعناه : ذو الأسماء الحسنى ، لأن القبائح إذا لم تَلِقْ به ، لم يَجز أنْ يشتقَ اسمه من أسمائها ، وإنما تشتق أسماؤه من صفاته التي كلها مدائح ، والأفعال التي أجمعها حكمه [3].

---

(١) « شرح مسلم » (٢/ ٩٠) ، وقال : « واعلم أن هذا الاسم ورد في هذا الحديث الصحيح ، ولكنه من أخبار الآحاد ، وورد أيضًا في حديث الأسماء الحسنى وفي إسناده مقال . والمختار جواز إطلاقه على الله تعالى ، ومن العلماء من منعه » اهـ .

وقد سبق أن ذكرنا قوله في جواز إثبات الاسم لله تعالى مما ثبت بخبر الواحد ، انظر اسمه « الرفيق » .

(٢) « شأن الدعاء » (ص ١٠٢) ، وقد حكاه النووي بقوله : وقيل : جميل بمعنى مجمل ... ، واختاره البيهقي في « الاعتقاد » (ص ٦٨) .

(٣) « المنهاج » (١/ ١٩٨) . وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٤١ ـ ٤٢) .

وقال ابن الأثير : « إن الله تعالى جميل » أي حَسَنُ الأفعال ، كامل الأوصاف »[1].

وقال ابن القيم[2]:

وهو الجميلُ على الحقيقةِ كيفَ لا ... وجمــالُ سَائــرِ هذه الأكْـوان

مِــن بعــضِ آثارِ الجميــلِ فربُّهـا ... أولى وأجْـدرُ عند ذي العِرْفانِ

فجمالُه بالذَّاتِ والأوْصاف والـ ... أفعــالِ والأسمــاءِ بالبُرهــان

لا شيءَ يُشبـه ذاتَــــه وصفاتــه ... سبحانه عــن إفْكِ ذي الْبُهتَان

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ أن الله تعالى هو الجميل على الحقيقة بلا كيفٍ نعلمه ، وجماله بالذات والأوصاف والأسماء والأفعال ، لاشيء يماثله في ذلك كما قال سبحانه عن نفسه : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١].

وقال سبحانه : ﴿ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾ [مريم: ٦٥] .

قال القاضي أبو يعلى الفرَّاء رحمه الله تعالى بعد أن ذكر حديث ابن مسعود السابق « **إن الله جميل** » : اعلم أنه غير ممتنع وصْفهُ تعالى بالجَمَال وأنَّ ـ ذلك صفةٌ راجعةٌ إلى الذات ، لأنَّ الجمال في معنى الحُسْن ، وقد تقدم في أول الكتاب قوله: « **رأيتُ ربيٍّ في أحسن صُورة** » وبيَّنَّا أنَّ ذلك صفةٌ راجعة إلى الذات كذلك هاهنا ، ولأنه ليس في حمله على ظاهره ما يُحيل صفاته ولا يُخرجها عما تستحقه ، لأنَّ طَريقَه الكمال والمدح ، ولأنه لو لم يُوصف بالجمال جاز أنْ يُوصَفَ بضدِّه وهو القُبْح ، ولَمَّا لم

(١) « النهاية » (١/ ٢٩٩) .

(٢) « النونية » (٢/ ٢١٤) .

يَجزْ أن يُوصف بضده ؛ جاز أنْ يُوصف به ، ألا تَرَى أنَّا وصفناه بالعلم والقدرة والكلام لأن في نفيها إثباتُ أضدادها وذلك مستحيلٌ عليه ، كذلك ها هنا .

فإن قيل : قوله : « **جميل** » بمعنى : مُجْمِل مَنْ شاء مِنْ خَلْقه ، لأنَّ فعيل قد يجيء على معنى : مُفعل ، ومنه قولنا : حكيمٌ والمراد محكم لما فعله .

قيل : هذا غلطٌ ، لأن الخبر وَرَد على سبب ، وهوالحثُّ لهم على التَّجمُّل في صفاتهم لا على معنى التجميل في غيرهم فكان مقتضى الخبر : إنَّ الله جميلٌ في ذاته يجب أنْ تتجملوا في صفاتكم ، فإذا حُمِل الخبر على فعل التجميل في الغير ، عدل بالخبر عمَّا قُصِدَ به .

فإن قيل : معنى الجمال ها هنا الإحسان والإفضال ، فيكون معناه : هو المظهر النعمة والفضل على مَنْ شاء من خَلْقه برحمته .

قيل : هذا غلطٌ لأنَّه قد ذَكَر الجمال والإحسان والإفضال فقال : «**جميل يُحبُّ الجمالَ ، وجوادٌ يحبُّ الجود ، وكريمٌ يحبُّ الكرماء** » فإذا حَملنا الجمال على ذلك حُمِلَ اللفظُ على التكرار وعلى ما لا يُفيد .

وجواب آخر : وهو أن نِعَم الله ظاهرةٌ ، فَحَمْلُ الخبر على هذا يُسقط فائدة التخصيص بالجمال [1].

فهو سبحانه الأجمل والأحسن في سائر صفات الكمال ، وصفاته كلها كمال جلَّ وعلا .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ** ﴾ [النحل: ٦٠] : وهو الأفضلُ والأطيب والأحسن والأجمل ، وذلك التوحيد والإذعان له

---

(١) « إبطال التأويلات لأخبار الصفات » (٢/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦) .

بأنه لا إله غيره [1].

٢ ـ الله تبارك وتعالى هو مُجْمِلُ من شاء مِن خَلْقه ، واهبُ الجمال والحُسْن لمن شاء ، كما مرَّ معنا قول ابن القيم رحمه الله إذْ يقول :

وهو الجميلُ على الحقيقةِ كيفَ لا ... وجمـالُ سَائـرِ هذه الأكْـوان
مِـن بعـضِ آثارِ الجميـلِ فربُّهـا ... أولى وأَجْـدرُ عند ذي العِرْفانِ

وقد نبّه الله تعـالى النـاس إلى ذلك في آيات كثيـرة ، فقـال سبحانه : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] ، وقال سبحانه : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧] .

فالله سبحانه هو الذي زيَّن الأرضَ وجمَّلهـا بأنـواع الحدائق والبساتين والأشجار والأزهار والخضرة ، ذات البَهجة والحُسـن والجمال ، بحيث أن الناظر إليها يَبْتهج وتفرح نفسُه بها ، وينشرح صدره بسببها .

ومثله قوله سبحانه عن الأنعام : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦] .

أي في الأنعام جمالٌ وزينة في أعين الناس ، لحسن صورتها وتركيبها، وتناسق أعضائها وتناسبها [2].

---

(١) « التفسير » (١٤/ ٨٤ ـ ٨٥) .

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مختصر الفتاوى المصرية (ص ٢١) : ... بل النظر إلى الأشجار والخيل والبهائم إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرياسة والمال =

وهو أيضًا جلّ وعلا يَمتنُّ على بنى آدم بذلك إذ يقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ** ﴾ [الانفطار : ٦ - ٨] .

وقال سبحانه : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [التين : ٤] .

فقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن صورة وأجمل تقويم ، وهم أيضًا متفاوتون في هذا الحُسن والجمال ، فقد أُعطي يوسف عليه الصلاة والسلام شطر الحُسن كما قال ﷺ[1] ولما رأته النسوة ﴿ **أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٣١] .

٣ - وقد أُعطي نبينا ﷺ من ذلك حظًّا وافرًا ، تناسبُ الأعضاء ، وتناسقها ، وجمال الوجه واستدارته واستنارته ، وحُسْنُ القوام وربْعته ، ولين الكف وطيب رائحته ، وغير ذلك مما جاء في وصفه .

فعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال سمعت أنس بن مالك يَصف

= فهو مذموم ، لقول الله تعالى : ﴿ **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** ﴾ [طه : ١٣١].

وأما إذا كان على وجه لا ينقص الدين ، وإنما فيه راحة النفس فقط ، كالنظر إلى الأزهار ، فهذا من الباطل الذي يستعان به على الحق .

وقد ينظر إلى الإنسان لما فيه من الإيمان والتقوى ، وهنا الاعتبار بقلبه وعمله لا بصورته .

وقد ينظر إليه لما فيه من الصورة الدالة على المصور ، فهذا حسن .

وقد ينظر من جهة استحسان خَلْقه .

فكل قسم من هذه الأقسام متى كان معه شهوة كان حرامًا بلا ريب ، سواء كانت شهوة يمتع نظره بها ، أو كانت نظرة لشهوة الوطء .

وفرق بين ما يجده الإنسان عند نظره إلى الأزهار وبين ما يجده عند نظره إلى النسوان والمردان ، فلهذا الفرقان فرِّق في الحكم الشرعي ... إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى .

(١) رواه مسلم في « الإيمان » (١/ ١٤٦) من حديث ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه

النبي ﷺ قال : « كان رَبْعةً من القَوم ، ليس بالطَّويلِ ولا بالقصير ، أزهر اللون، ليس بأبيض أمْهق ولا آدَمَ ، ليــس بَجْعد قَطِط ولا سَبطٍ رَجِل ... » [1].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قــال : « كــان رسـول الله ﷺ أحسنَ النــاسِ وجهًا ، وأحسنَه خَلْقًا ، ليس بالطـويل البائــن ولا بالقصير » [2].

وعنه : « كان النبي ﷺ مَربُوعًا بعيدَ ما بين المنكبين ، له شَعَرٌ يبلُغُ شحمةَ أُذنيه ، رأيتُه في حُلَّةٍ حمراء لم أرَ شيئًا قطُّ أحسَنَ منه » [3].

وسئل رضي الله عنهما : « أكان وجهُ النبي ﷺ مثلَ السيف ؟ قال : «لا ، بل مثلَ القمر » [4].

٤ ـ وكان مع ذلك من أحسن الناس أخلاقًا : سَماحة وشجاعة ، وحلمًا وكرما ، ورحمة وشفقة ، وصلة وبرًا ، كما وصفته خديجة رضي الله عنها بقولها : « إنك لَتَصلُ الرحم ، وتَحملُ الكَلَّ ، وتَكْسِبُ المعدوم ، وتَقْرِي الضَّيفَ ، وتُعينُ على نوائبِ الحق » [5].

وعن أنس رضي الله عنه قال : « خَدَمتُ رسول الله ﷺ عشرَ سنين والله ما قال لي : أُفًّا قط ، ولا قال لي لشيءٍ : لم فعلتَ كذا ؟ وهلاَّ فعلتَ كذا » [6].

(١) رواه البخاري في « المناقب » (٦/ ٥٦٤) .

(٢) المصدر السابق ومسلم في « الفضائل » (٤/ ١٨١٩) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق في « بدء الوحي » (١/ ٢٢) وغيره .

(٦) رواه البخاري في « الأدب » (١٠/ ٤٥٦)، ومسلم في « الفضائل» (٤/ ١٨٠٤) واللفظ له .

وقال : « كان رسول الله ﷺ أَحَسَنَ الناسِ خُلُقًا » [1].

وقال : « كان رسول الله ﷺ أَحَسَنَ الناس ، وكان أَجْودَ الناس ، وكان أَشجع الناس ... » [2].

وعن ابن عمرو قال : لم يكن رسول الله ﷺ فاحِشًا ولا مُتفشحًا ، وأنه كان يقول : إن خياركم أحسنُكم أخلاقًا » [3].

قال الراغب : الجمالُ : الحُسْنُ الكثير ، وذلك ضَرْبان : أحدهما : جمالٌ يختصُّ به الإنسان في نفسه أو بدنه أو فِعلِه ، والثاني : ما يُوصل منه إلى غيره .

وعلى هذا الوجه ما روي عنه ﷺ أنه قال : « **إن الله جميلٌ يحب الجمال**» تنبيهًا أنه منه تفيضُ الخيرات الكثيرة فيُحب من يختصُّ بذلك [4].

فسبحان من جمع لرسوله ﷺ بين كمال الخَلْق والخُلُق .

٥ ـ وقد أمر الله تعالى بملازمة كل خُلُقٍ جميل ، وأوصى نبيه ﷺ وأمته بذلك في آيات عديدة .

فقال سبحانه : ﴿**فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا**﴾ [المعارج: ٥] أي صبرًا لا شكوى فيه لأحدٍ غير الله تعالى[5] وذلك في مقابل استهزاء الكفار ، وعدم إيمانهم

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم في « الفضائل » (٤/ ١٨٠٥) .

(٢) رواه البخاري في « الجهاد » (٦/ ٣٥ ، ٩٥ ، ١٦٣)، ومسلم في «الفضائل» (٤/ ١٨٠٢).

(٣) رواه البخاري في « الأدب » (١٠/ ٤٥٦) ، ومسلم في « الفضائل » (٤/ ١٨١٠) .

والفاحش ذو الفحش ، والمتفحش : الذي يتكلف الفحش ويتعمده لفساد حاله .

(٤) « المفردات » (ص ٩٧) .

(٥) قال ابن القيم رحمه الله : ولا تضاده « أي الصبر الجميل » الشكوى لله ، فقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾ [يوسف: ٨٦] مع قوله : ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف: ١٨] . وأما إخبار المخلوق بالحال ، =

بما يدعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر .

وقال سبحانه : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزمل: ١٠] أي اصبر على ما يقول المشركون وعلى أذاهم واهجرهم في الله هجرًا جميلاً ، أي : لا عتاب معه ، وقيل : لا جزَع فيه ، وقيل : الهجر في ذات الله كما قال عز وجل : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨] [1].

ومثلها قوله تعالى : ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] [2].

وقال عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٨].
وقال في السورة نفسها : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٩] .

أي طلقوهن طلاقًا خاليًا من الأذى ، وعاريًا عن منع الحقوق الواجبة، وهذا هو السَّراحُ الجميل الذي يحبه الله عز وجل ورسوله ﷺ

= فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته أو التوصل إلى زوال ضَرره ، لم يقدح ذلك في الصبر، كإخبار المريض للطبيب بشكايته ، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله ، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه ، وقد كان النبي ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول : « كيف تجدك » [رواه الترمذي بسند حسن] وهذا استخبار منه واستعلام. « عدة الصابرين » (ص٣٢٣) وانظر : « بشرى المخبتين بفضل الصبر والصابرين » لمقيده (ص ٣٠) .

(١) انظر « تفسير الطبري » من كتابه (٧/ ٣٩٥) ، و « تفسير ابن كثير » (٤/ ٤٣٧) .

(٢) انظر : « تفسير ابن كثير » (٢/ ٥٥٨) .

ويأمر به الله ورسوله ﷺ[1].

٦ ـ الله سبحانه يحبُ التَّجمل في غير إسرافٍ ولا مخيلة ، ولا بَطَر ولا كِبْر ، كما جاء في الحديث السابــق « **إنَّ الله جميلٌ يحب الجمال** » وقد قاله ﷺ جوابًا لمن قال له : « إن الرجل يحب أن يكون ثوبُه حَسَنًا ونَعْله حسنًا » وبين أن مجرد فعل ذلك ومحبته لا يُدخل في الكبر المذموم .

و « ... الجنة دار المتواضعين الخاشعين لا دار المتكبرين الجبَّارين ، سواء كانوا أغنياءَ أو فقراء ، فإنه قد ثبتَ في الصحيح أنه « **لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان** » فقيل : يا رسول الله ! الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونَعله حسنًا أفمن الكبر ذاك ؟ فقال : « **لا ، إنَّ الله جميلٌ يحبُ الجمال ، ولكنَّ الكبر بَطَر الحقِّ وغَمْط الناس** » .

فأخبر ﷺ أن الله يُحب التَّجملَ في اللباس الذي لا يحصل إلا بالغنى ، وأن ذلك ليس من الكبر .

وفي الحديث الصحيح : « **ثلاثةٌ لا يكلِّمهم اللهُ ولا يَنْظُر إليهم يومَ القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم : فقيرٌ مختال ، وشيخٌ زانٍ ، ومَلِكٌ كذَّابٌ** ».

وكذلك الحديث المروي : « **لا يزال الرجلَ يذهبُ بنفسه ، ثم يذهب بنفسه ، ثم يذهب بنفسه ، حتى يكتب عند الله جباراً ، وما يملك إلا أهله** »[2].

---

(١) انظر : في هذا ابن كثير (٣/ ٤٨١) وغيره .

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٦٢٥٤) ، والبغوي في « شرح السنة » (٣٥٨٩) من طريق عمر بن راشد عن إياس بن سلمة بن الأكــوع عن أبيه مرفوعًا به ، =

فعلم بهذين الحديثين : أن من الفقراء مَن يكون مختالاً ، لا يدخل الجنة ، وأن من الأغنياء مَن يكون مُتجملاً غير متكبر ، يحبُ الله جماله، مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح : « **إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُورِكم ولا إلى أموالِكم ، وإنما يَنْظر إلى قلوبكم وأعْمالكم** »[1].

ومن هذا الباب قول هِرقل لأبي سفيان : أَفَضُعفاء الناسِ اتَّبعه أم أشرافهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، قال : وهم أتباع الأنبياء ، وقد قالوا لنوح : ﴿**أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ**﴾ [الشعراء: ١١١] فهذا فيه أنَّ أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الانقياد إلى عبادة الله وطاعته ، لأن حبهم للرئاسة يمنعهم ذلك بخلاف المستضعفين ، وفي هذا المعنى الحديث المأثور ـ إن كان محفوظًا ـ « **اللهم أحيني مِسكينًا وأَمتني مسكينًا ، واحْشرني في زمرة المساكين** »[2].

فالمساكين ضد المتكبرين ، وهم الخاشعون لله ، المتواضعون لعظمته ، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض ، سواء كانوا أغنياء أو فقراء»[3].

❋ ❋ ❋

= لكن دون تكرير لجملة : « لا يزال الرجل يذهب... » قال الترمذي : حسن غريب . وفيه عمر بن راشد وهو ضعيف .

(١) رواه مسلم في « البر والصلة » (١٩٨٧/٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الراجح فيه أنه حديث صحيح لطرقه ، ولبسط الكلام عليه موضع آخر .

(٣) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، « مجموع الفتاوى » (١٢٩/١١ ـ ١٣٠).

الوِتْر

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٦)

*** المعنى اللغوي :**

الوِتْرُ والوَتْر : الفَرْد أو مالم يَتشفَّع من العدد .

وأَوْتَرَه : أَفَذَّه .

قال اللحياني : أهلُ الحجاز يُسمُّونَ الفَرْد الوَتْر ، وأهل نجدٍ يكسِرون الواو .

وفي قوله عز وجل : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر : ٣] قراءتان بالفتح والكسر [١].

وأوتر الرجل : صلَّى الوتر ، وهى ركعة تكون بعد صلاته مثنى مثنى من الليل [٢].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **لله تسعةٌ وتُسعون اسمًا، مَن حَفِظها دخل الجنة، وإنَّ الله وِتْرٌ يُحبُّ الوتر** » [٣] .

---

(١) قرأ عاصم ونافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بفتح الواو ، وقرأ حمزة والكسائي بالكسر .

(٢) « اللسان » (٦/٤٧٥٧ ـ ٤٧٥٨)، و« الصحاح » (٢/٨٤٢)، و «المفرادات» (ص ٥١١) .

(٣) متفق عليه ، انظر تخريجه في الجزء الأول .

* المعنى في حق الله تعالى :

قال ابن قتيبة : اللهُ جل وعزَّ وِتْرٌ ، وهو واحد [١].

وقـال الخطـابي : « الوتـر » هو الفَرْد الـذي لا شريك له ولا نظير [٢].

وقال الحليمي : ومنها الوتر : لأنه إذا لم يكن قديمٌ سواه ، لا إله ولا غيرَ إله ، لم ينبغي لشيءٍ من الموجودات أن يُضم إليه فيُعدَّ معه ، فيكون والمعدود معه شفعًا ، لكنه واحدٌ فردٌ وِتر [٣].

وقال البيهقي : « الوتر » هو الفرد الذي لا شريك له ولا نظير (وهو قول الخطابي) وهذه أيضًا صفةٌ يستحقها بذاته [٤].

وقال الحافظ ابن حجر : « الوتر » الفرد ، ومعناه في حق الله أنه الواحد الذي لا نظير له في ذاته ولا انقسام ! [٥].

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ ـ أن الله تعالى واحد لا شريك له ولا نظير ، بل هو الإله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد .

وهو سبحانه واحـد في ذاته وفي صفاتـه وفي أفعالـه، قال عـز

---

(١) « غريب الحديث » (١/ ١٧٢) .

(٢) « شأن الدعاء » (ص ١٠٤) .

(٣) « المنهاج » (١/ ١٩٠) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات وحدانيته ، ونقله البيهقي في «الأسماء » (ص ١٥) لكن عبارته : « ... أن يضم إليه فيعبد معه ، فيكون المعبود معه شفعًا ... » .

(٤) « الاعتقاد » (ص ٦٨) .

(٥) « الفتح » (١١/ ٢٢٧) .

وجل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] .

وقال : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥][١].

٢ ـ وهو جل وعلا يحب الوتر ويأمر به في كثير من الأعمال والطاعات ، كما في الصلوات الخمس ووتر الليل وأعداد الطهارة وتكفين الميت وفي كثير من المخلوقات كالسماوات والأرض [٢].

فقد روى علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يا أهل القرآن أوْتروا ، فإن اللهَ وترٌ يحبُ الوتر** »[٣].

قال القرطبي في معنى قوله ﷺ : « **وهو وتر يحب الوتر** » : الظاهر أن الوتر هنا للجنس ، إذْ لا معهود جرى ذكره حتى يحمل عليه ، فيكون معناه أنه : يُحبُ كلَّ وترٍ شرعه .

ومعنى محبته له : أنه أَمَر به وأثاب عليه ، ويصلح ذلك لعموم ما خَلَقه الله وترًا من مخلوقاته .

أو معنى محبته له : أنه خصصه بذلك لحكمة يعلمها . ويحتمل أن يريد بذلك وترًا بعينه ، وإنْ لم يجرِ له ذكر ثم اختلف هؤلاء ، فقيل : المراد صلاة الوتر .

وقيل : يوم الجمعة .

وقيل : يوم عرفة .

وقيل : آدم .

---

(١) وانظر : آثار الإيمان بـ : « الواحد ـ الأحد » في المجلد الثاني من هذا الكتاب .

(٢) « الفتح » (١١/ ٢٢٧) نقلا عن القاضي عياض .

(٣) يأتي تخريجه.

وقيل غير ذلك .

قال : والأشبه ما تقدَّم من حمله على العموم [1].

قال : ويظهر لي وجهٌ آخر وهو : أن الوتر يُراد به التوحيد ، فيكون المعنى : أن الله في ذاته وكماله وأفعاله واحدٌ يحبُ التوحيد .

أي : أن يُوحَّد ويعتقد انفراده بالألوهية دون خلقه ، فيلتئم أول الحديث وآخره ، والله أعلم [2].

قال الحافظ معقبًا : قلت : لعل من حَمَله على صلاة الوتر ، استند إلى حديث علي : « إنَّ الوترَ ليس بِحَتمٍ ، ولا كصلاتكم المكتوبة ، ولكن رسول الله ﷺ أوتر ثم قال : « **أَوْتروا يا أهلَ القرآن ، فإن الله وترٌ يحب الوتر** » .

أخرجوه في السنن الأربعة وصححه ابن خزيمة واللفظ له [3].

فعلى هذا التأويل تكون اللام في هذا الخبر للعهد ، لتقدم ذكر الوتر المأمور به .

لكن لا يلزم أن يحمل الحديث الآخر على هذا ، بل العموم فيه أظهر ، كما أن العموم في حديث علي محتمل أيضًا [4].

٣ ـ وقد وردت عن السلف آثار في ذلك :

---

(١) انظر ما ورد عن السلف في تفسير « الشفع والوتر » : « تفسير ابن جرير » (٣٠/١٠٨ ـ ١١٠) ، و« الدر المنثور » للسيوطي (٨/٥٠٢ ـ ٥٠٤) .

(٢) « الفتح » (١١/٢٢٧) .

(٣) حديث صحيح ، رواه أبو داود (١٤١٦) ، والترمذي (٤٥٣) ، والنسائي (٣/٢٢٨ ـ ٢٢٩)، وابن ماجه (١١٦٩) ، وابن خزيمة (١٠٦٧)وغيرهم من حديث أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن علي به .

(٤) « الفتح » (١١/٢٢٧) .

فقال مجاهد في قوله تعالى ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣] : كل خلق الله شفع : السماء والأرض ، والبر والبحر ، والجن والإنس ، والشمس والقمر .

والله الوتر وحده .

وفي رواية عنه قال : الخلق كله شفع ووتر ، أقسم بالخلق (١).

وعن الحسن قال : الخلق كله شفع ، ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال : كان أبي يقول : كل شيء خلق الله شفع ووتر ، فأقسم بما خلق ، وأقسم بما تبصرون وبما لا تبصرون (٢).

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل ذلك الصلاة المكتوبة ، منها الشفع كصلاة الفجر والظهر ، ومنها الوتر : كصلاة المغرب .

ذِكْر من قال ذلك .

وذكر آثارًا منها :

عن قتادة قوله : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ : إن من الصلاة شفعًا ، وإن منها وترًا (٣).

---

(١) « تفسير ابن جرير » (٣٠/١٠٩) ، وعبد الرزاق (٢/٣٦٩) عن ابن أبي نجيح عنه .

ويشهد له : ما أخرجه ابن جرير من وجه آخر عن ابن جريج عنه قال : في قوله : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ قال : الكفر والإيمان ، والسعادة والشقاوة ، والهدى والضلالة ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والجن والإنس ، والوتر الله ، قال : وقال في الشفع والوتر مثل ذلك .

(٢) ابن جرير (٣٠/١٠٩) عن ابن ثور عن معمر عنه . ورواية معمر عن الحسن منقطعة ، قال أحمد : لم يسمع من الحسن ولم يره بينهما رجل . « جامع التحصيل » (ص ٣٥٠) .

وأخرجه عبد الرزاق (٢/ ٣٧٠) دون قوله : كان أبي يقول ...

(٣) المصدر السابق ، وسنده حسن .

ثم قال ابن جرير مرجحًا :

والصواب من القول في ذلك أن يُقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفع والوتر ، ولم يُخصص نوعًا من الشفع ، ولا من الوتر دون نوع، بخبر ولا عقل ، وكل شفع ووتر فهو مما أقسم به مما قال أهل التأويل أنه داخل في قَسَمِه هذا ، لعموم قسمه بذلك [1].

❋ ❋ ❋

(١) المصدر السابق (٣٠/ ١١٠) .

المُقَدِّم ـ المُؤَخِّر
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٧ـ٨)

لارتباط الاسمين ببعضهما ، جعلنا الكلام عليهما في مكان واحد .

*** المعنى اللغوي :**

قَدَمَ بالفتح يَقْدُم قَدْمًا ، أي تَقدَّم ، قال الله تعالى : ﴿**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ**﴾ [هود: ٩٨] .

وقَدُم الشيء بالضم قِدَمًا فهو قديمٌ ، وتقادم مثله ، والقِدَم خلاف الحدوث .

وأَقْدَمَ على الأمر إقدامًا ، والإقدام : الشجاعة .

وأَقْدَمَه وقدَّمه بمعنى .

وقدَّم بين يديه أي تقدَّم ، قال تعالى : ﴿**لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ [الحجرات: ١].

والقَدَمُ : قدَمُ الرَّجُل وجمعه أقدام ، وبه اعْتُبِر التَّقدُّم والتأخر .

والقَدَمُ أيضًا : السابقة في الأمر كما في قوله عز وجل : ﴿**قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ [يونس: ٢] [(١)].

*** أما المؤخِّر :**

أَخَّرتُهُ فتأخَّر واستَأخَرَ مثل تأخَّر .

---

(١) « الصحاح » (٥/٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٧) ، و « اللسان » (٥/٣٥٥٢) ، و « المفردات » (ص ٣٩٧).

والآخِرُ : بعد الأول ، تقول : جاء آخرًا أي أخيرًا .

والتأخُّرُ ضد التَّقدم ، والتأخير ضد التَّقديم ، كما في قوله : ﴿ **مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ [الفتح : ٢].

وقد تأخّر عنه تأخُّرًا وتَأَخُّرَةً .

وأخَّرْتُهُ فتأخَّر واستَأْخَرَ .

وفي التنزيل : ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ** ﴾ [الحجر : ٢٤].

وآخِرةُ العين ومُؤْخِرُها ومُؤْخِرَتُها : ما وَلِيَ اللِّحاظ (أي الذي يلي الصُّدْغ) ، ومُقْدِمها : الذي يلي الأنف .

ومُؤْخِرَةُ الرَّحل ومُؤَخَّرَتُه وآخِرتُه وآخِره ، كلُّه خلاف قادِمَتِه وهي التي يستند إليها الراكب [1].

وقال الراغب : وقولهم أبْعدَ اللهُ الآخِرَ ، أي المتأخّرَ عن الفضيلة ، وعن تَحدِّي الحق [2].

*** ورودهما في الحديث الشريف :**

١ ـ وردا في حديث أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدُّعاء : « **اللهم اغْفِر لي خَطِيئتي وجَهْلي ، وإسْرَافي في أمري ، وما أنت أعلمُ به منِّي ، اللهم اغْفِر لي جِدِّي وهَزْلي ، وخطئي وعَمْدي ، وكلُّ ذلك عندي ، اللهم اغفِر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسْررتُ وما أعلنتُ ، وما أنتَ أعلمُ به مني ، أنتَ المُقَدِّمُ وأنت المؤَخِّرُ ،**

---

(١) « الصحاح » (٢/٥٧٦ ـ ٥٧٧) ، و« اللسان » (١/٣٨ ـ ٣٩) .

(٢) « المفردات » (ص ١٤) .

وأنتَ على كل شيءٍ قديرٌ » [1].

٢ ـ ووردا في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصفه لصلاة النبي ﷺ إذ يقول : « ... ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتَّسليم : اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّـرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أسْرفتُ ، وما أنتَ أعلمُ به منـي ، أنتَ المقدِّم وأنـت المؤخّـر لا إله إلا أنتَ » [2].

٣ ـ ووردا في حديث ابن عباس رضيَ اللهُ عنهما قال : « كان النبيُّ ﷺ إذا قام منَ الليلِ يتهجَّدُ قال : اللَّهمَّ لكَ الحمدُ أنتَ قيِّمُ السماوات والأرضِ ومن فيهنَّ ، ولكَ الحمدُ لكَ مُلكُ السماوات والأرضِ ومن فيهنَّ ، ولكَ الحمدُ أنَت نورُ السماوات والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ مَلكُ السماوات والأرضِ ، ولك الحمد أنتَ الحقُّ ، ووَعدُكَ الحقُّ ، ولقاؤكَ حقٌّ ، وقولُكَ حقٌّ، والجَنَّةُ حق ، والنَّارُ حق ، والنبيُّونَ حقٌّ ، ومُحمدٌ ﷺ حقٌّ ، والساعةُ حقٌّ، اللَّهمَّ لكَ أسلمتُ ، وبكَ آمنتُ ، وعليكَ توكلتُ ، وإليكَ أنبتُ ، وبكَ خاصمتُ ، وإليكَ حاكمتُ ، فاغفرْ لي ما قَدَّمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسرَرتُ وما أعلنتُ ، أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ لا إلهَ إلاَّ أنت أو لا إلهَ غيرُكَ » [3].

* معنى الاسمين في حق الله تعالى :

قال الخطابي : « المقدم » هو المنزّل للأشياء منازلها ، يقدّم ما شاء منها ، ويؤخِّر ما شاء ، قدَّم المقادير قبل أن يَخلق الخَلْقَ .

وقدَّم مَن أحبَّ من أوليائه على غيرهم من عَبيده .

---

(١) أخرجه البخاري في « الدعوات » (١١/ ١٩٦)، ومسلم في «الذكر والدعاء» (٤/ ٢٠٨٧) .

(٢) أخرجه مسلم في « صلاة المسافرين » (١/ ٥٣٦) .

(٣) أخرجه البخاري في مواضع أولها : في « التهجد » (٣/ ٣) .

ورفعَ الخَلْق بعضهم فوق بعض درجات ، وقدّم مَن شاء بالتوفيق إلى مَقَامات السابقين .

وأَخَّر مَن شاء عن مراتبهم وثبَّطهم عنها .

وأخَّر الشيء عن حين تَوقعه ، لعلمه بما في عواقبه من الحكمة .

لا مقدِّم لما أخَّر ، ولا مؤخر لما قدم .

قال : والجمع بين هذين الاسمين أحسن من التفرقة [١].

وقال الحليمي : « المقدِّم » : وهو المُعْطِي لَعَوالي الرُّتب .

ومنها « المؤخّر » : وهو الدافع عن عوالي الرُّتب [٢].

وقال البيهقي : « المقدم والمؤخر » : هو المنزّلُ للأشياء مَنازلها ، يُقدّم ما شاء ومَنْ شاء ، ويُؤخِّر ما شاء ومَن شاء [٣].

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « المقدِّم » : هو الذي يُقدم الأشياء ويضعها في مواضِعها ، فمن استحق التقديم قدَّمه[٤].

وقال في « المؤخر » : هو الذي يُؤخر الأشياء فيضَعُها في مواضعها، وهو ضد المقدم[٥].

وقال النووي : يُقدّم مَن يشاء من خَلْقه إلى رحمته بتوفيقه ويُؤخِّر مَن يشاء عن ذلك لخِذلانه [٦].

---

(١) انظر : « الأسماء والصفات » للبيهقي (ص ٨٦) .

(٢) « المنهاج » (ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨)، وذكرهما ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٨٦) ، والقرطبي في «الأسنى» (ورقة ٣٦٢ أ).

(٣) « الاعتقاد » (ص ٦٣) .

(٤) « النهاية » (٤/ ٢٥) ، ونقله ابن منظور في « اللسان » (٥/ ٣٥٥٢) ولم يعزه .

(٥) المصدر السابق (١/ ٢٩) ، و« اللسان » (١/ ٣٨) .

(٦) « شرح مسلم » (١٧/ ٤٠) .

وقال ابن القيم :

وهو المقدِّمُ والمؤخِّـــرذَانك الـ ـصِّفتانِ للأَفْعالِ تابعتانِ

وهما صفاتُ الذَّات أيضًا إذْ هما بالذَّاتِ لا بالغيرِ قائمتانِ

إلى آخر كلامه رحمه الله [1].

*** من آثار الإيمان بهذين الاسمين :**

١ ـ « من أسمائه سبحانه « المقدّم » و « المؤخر » ، وهما من الأسماء المتقابلة التي لا يجوز إفراد أحدها عن مُقابلِه ، كما قدمنا ذلك في المعزّ والمذل ، والخافض والرافع ، والقابض والباسط ، والمانع والمعطي ، ونحوها .

فهو سبحانه المقدم لبعض الأشياء على بعض ، إما تقديمًا كونيًّا ، كتقديم بعض المخلوقات في الوجود على بعض ، وكتقديم الأسباب على مُسبباتها ، والشروط على مشروطاتها .

وإما تقديمًا شرعيا معنويا ، كتفضيل الأنبياء عليهم السلام على سائر البشر ، وتفضيل بعض النَّبيين على بعض ، وتفضيل العباد كذلك بعضهم على بعض .

وهو سبحانه المؤخر لبعضِ الأشياء عن بعض ، إما بالزمان أو بالشرع كذلك .

والتقديم والتأخير صفتان من صفات الأفعال التابعة لمشيئته تعالى

---

(١) « النونية » (٢/ ٢٤١) بشرح أحمد بن عيسى .

وقد وقع في البيت الأول « الصفان » ، « تابعان » ، وكلاهما خطأ .

وقد وقعا على الصواب في مطبوعة الهراس رحمه الله (٢/ ١٠٩) .

وحكمته وهما أيضًا صفتان للذات ، إذْ قيامها بالذات لا بغيرها .

وهكذا كل صفات الأفعال هي من هذا الوجه صفات ذات حيث أنَّ الذات مُتصفةٌ بها ، ومن حيث تعلقها بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال تُسمى صفات أفعال .

ولهذا غلط علماء الكلام من الأشاعرة حين ظنوا أن هناك نوعين مختلفين من الصفات : أحدهما : قائم بالذات لازمٌ لها . كصفات المعاني السبعة التي هي : ١ ـ العلم ، ٢ ـ والقدرة ، ٣ـ والإرادة ، ٤ ـ والحياة ، ٥ ـ والسمع ، ٦ ـ والبصر ، ٧ ـ والكلام .

والثاني : صفات أفعال لا تقوم عندهم بالذات ، بل هي نِسَبٌ إضافية عدمية ، تنشأ من إضافة المفعول لفاعله ، ولا يعقل لها وجود إلا بتلك الإضافة ، فوجودها أمرٌ سلبي ، وليس لها وجودٌ في نفسها ، فليس ثمت عندهم موجود إلا المفعولات ، وأما الأفعال فنسبٌ وإضافات!!

وهذا قولٌ باطل ! مخالف كما قدمنا لما دلَّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف ، بل والعقل أيضًا ، الذي يَقضي بأن تكون صفات الأفعال قائمة بمن فعلها ، ويكن متَّصفًا بها من قالها أو عملها ، إذْ لا يُتَصورَّ في العقل مفعولٌ من غير فعل ، ولا مخلوقٌ من غير خالق ، كما لا يَتصور أحدٌ اسمًا مشتقا ولا يكون دالاً على صفةٍ في المحل المسمى به .

والذي أوقعهم في هذا الغلط الشنيع : أن صفات الأفعال عندهم لا تكون إلا حادثة ! لتعلُّقها بالمفعولات الحادثة .

فيستحيل عندهم قيامها بذاته تعالى ، لأن قيامَ الحوادث به مستلزمٌ

لحدوثه ، فارتكبوا بهذه الأُكذوبة أعظم جناية على الدين ، حيث نَفَوا كلَّ الصفاتِ الفعلية التي جاء بها الكتاب والسنة ، من الاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا وتكليمه لبعض عباده في بعض الأزمنة ، وحبه ورضاه وغضبه ومقته ...إلخ .

كما نَفَوا أفعاله التي يوجدها شيئًا بعد شيء تبعًا لحكمته ، وأقواله التي يتكلم بها شيئًا بعد شيءٍ كذلك!

ولا شك أن هذا التعطيل لأفعاله لهو كتعطيل الجهمية والمعتزلة لصفات ذاته بلا فرق أصلاً ، فإذا كان هذا التعطيل لصفاته الذاتية باطلاً بإقرار هؤلاء أنفسهم ، فيجب أن يكون التعطيل لصفاته الفعلية باطلاً كذلك » [1].

٢ ـ وقال القرطبي بعد أن ذكر حديث ابن عباس السابق : « خرجه الأئمة ، وأجمعتْ عليهما الأمة ، ولا يجوز الدعاء بأحدهما دون الآخر ، قاله الحليمي .

وكلاهما ظاهرُ المعنى ، وهما من صفات الأفعالِ ، يَرفع من يشاء ، ويَخفض من يشاء ، ويُعز من يشاء ، ويُذلُّ من يشاء ، ويُقرِّب من يشاء ، ويُبعد من يشاء ، فمن قُدِّم فقد نال المراتبَ العُلى ، ومَن أُخِّر فقد رُدَّ إلى السُّفلى .

قال الحليمي : « المقدم » : هو المُعطي لعوالي الرتب ، و« المؤخر » هو الدافع عن عوالي الرتب .

فقرَّب أنبياءَه وأولياءه بتقريبه وهدايته ، وأَخْزى أعداءَه بإبعاده ،

---

(١) من كلام الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله على « النونية » (٢/ ١١٠ ـ ١١١) .
وانظر شرح الشيخ أحمد بن عيسى إن شئت (٢/ ٢٤٢) وما بعدها .

وضَرب الحجاب بينه وبينهم .

قدَّر المقادير قبل أن يخلقَ الخَلْق ، وقَدَّم مَن أحب من أوليائه على عبيده ، ورفع الخَلْق بعضَهم فوق [بعضٍ] درجات ، ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وكلٌّ ممكن إنما تخصَّص في زمانه وصفاته وسائر أحواله ، بإرادة الخالق سبحانه .

وقد يُراد بالتقديم والتأخير : بعض الموجوداتِ على بعض في الإبداع ، وتأخير بعضها على بعض .

وقد يُراد بهما : تقديم بعض الموجوداتِ على بعض في الرُّتبه والشَّرف ، وتأخير بعضها على بعض ، كما ذكرنا .

فعلى هذا ، قد يكون الشيء مُقدَّمًا في الإبداع والشَّرف معًا ، وقد يكون مقدَّما في الإبداع مُؤخَّرًا في الشَّرف .

وقد يكون مُؤَخَّرًا في الإبداع مُقدَّمًا في الشرف ، كمحمدٍ ﷺ الذي هو آخر الأنبياء وهو أشرفهم .

وكنوع الإنسانِ الذي أبْدعه اللهُ بعد موجوداتٍ كثيرة ، وفَضَّله على كثيرٍ منها ، وقدَّم إبليس قبل موجوداتٍ كثيرة ، وهو شرٌّ منها كلها .

وقد يجتمع لبعض الموجوداتِ تقديم الإبداع والشرف ، كالعرش والكرسي والقلم والعقل ، الذي هو من أول المبتدعات ، وهي عند الله مُشَرَّفات »[1].

---

(١) « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٣٦٢ أ ـ ب) ، وهو بنحو ما قال الغزالي في « المقصد » (ص ٨٥) .

٣ ـ فيجب على كل ملكف أن يعتقد أن الله تعالى هو المقدم المؤخر بكل اعتبار ، قدَّم من شاء وأخَّر من شاء ، في الخَلْق والرُّتبة ، أو الرتبة دون الخَلْق ، وهو سبحانه على كلِّ شيء قدير .

وإذا كان هذا فحقٌّ على الإنسان أن يقدّم ما قدَّمه الله ، ويؤخر ما أخَّره الله ، فإنه تعالى الخافض الرافع ، فيعزُّ من أعزَّه الله بطاعته من إخوانه المؤمنين ، ويهجر من أذَلَّه الله بمعصيته ، ثم إذا تابَ عَطَفَ عليه وقدَّمه بحسب درجته [١].

فمن أراد أن يرفعه الله تعالى ، ويُقدمه على غيره ، فليسابق إلى طاعته والعمل بمرضاته ، والتقرب إليه بما استطاع من محبوباته فإنه سبيل التقديم إلى مراتب الشرف والكرامة والخير والرحمة في الدنيا والآخرة .

وأما من تراخى عن الأخذ بمعاقد العزِّ والشرف ، وتكاسل عن القيام بما أوجب الله عز وجل عليه من الواجبات وتخلَّف ، وتعدَّى حدود الله ، وللتوبة سَوَّف ، فإنه المتأخر عن درجات الخير والثواب ، المؤخر في الآلام والعذاب .

فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ رأى في أصحابه تأخُّرًا فقال لهم : « **تَقدَّموا فأتموا بي ، وليأتمَّ بكم مَن بعدَكم ، لا يزال قومٌ يتأخرونَ حتى يؤخرهم** » [٢].

وفي رواية : رأى رســـول الله ﷺ قومًا في مَؤخَّرِ المسجد فذكر مثله [٣].

---

(١) المصدر السابق باختصار وتصرف .

(٢) أخرجه مسلم في « الصلاة » (١/ ٣٢٥) ، وأبو داود (٦٨٠) ، والنسائي (٢/ ٨٣) ، وابن ماجة (٩٧٨) .

(٣) أخرجها مسلم في الموضع السابق .

وقد قيل : إن معنى « يؤخرهم الله » : أي عن رحمته .

وقد ورد ما يشبه هذا .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **لا يزالُ قومٌ يتأخَّرون عن الصَّفِ الأول ، حتى يؤخرهم الله في النار** »[1].

ولهذا حثَّ ﷺ أصحابه إلى التقدم إلى الصفوف الأولى والتسابق عليها ، والتبكير إلى المساجد ، فقال عليه الصلاة والسلام :« **لو يعلم الناسُ ما في النِّداء والصفِّ الأول ثم لم يجدوا إلا أن يَسْتهموا عليه لاستَهموا، ولو يعلمون ما في التَّهجير ، لاستَبَقوا إليه ، ولو يَعلمون ما في العَتَمةِ والصُّبحِ لأتَوْهُما ولو حَبْواً** »[2].

وقد قال عز وجل : ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال سبحانه : ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الحديد: ٢١].

فمن كان سبَّاقًا إلى الخيرات وعمل الصالحات في الدنيا ، كان من السابقين لدخول الجنات في الأُخرى ، والناس في هذا درجات .

ففي الحديث في صفات المارِّين على الصراط يقول ﷺ : « ... **فَيَمرُّ أَوَّلُكم كالبرقِ ، قال : قلتُ : بأبي أنت وأمي ، أي شيء كمرِّ البرق ؟ قال: ألم تروا إلى البَرق كيف يمرُّ ويرجعُ في طرفةِ عين ؟ ثم كمرِّ الريح ، ثم**

---

(١) صحيح ، أخرجه أبو داود (٦٧٩) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٤٥٣) ، وابن خزيمة (١٥٥٩) ، وابن حبان (٥/ ٢١٥٦) وفي سنده لين لكنه يتقوى بما قبله .

(٢) رواه مسلم في « الصلاة » (١/ ٣٢٥) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه .

كمر الطَّير وشَدِّ الرجال ، تجري بهم أعمالُهم ، ونبيكم قائمٌ على الصراط يقول: ربِّ سلِّم سلِّم ، حتى تعجز أعمالُ العباد ، حتى يجيءَ الرَّجُلُ فلا يستطيعُ السيرَ إلا زَحْفًا ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب مُعلَّقةٌ مأمورةٌ بأخذ من أُمِرت به ، فمخدوش ناجٍ ومكدوس في النارِ » [1].

ويذكر ﷺ من أُخِّر عن دخول الجنة حتى دخل أهل الجنة كلهم إلى منازلهم وبقي هو ، فيقول ﷺ عنه : « ... ثم يَفرُغ اللهُ تعالى من القضاء بين العباد ، ويَبقى رجلٌ مقبلٌ بوجهه على النار ، وهو آخرُ أهل الجنة دخولاً الجنة، فيقول : أي ربِّ ! اصْرف وجهي عن النار ، فإنه قد قشبني ريحُها وأحرقني ذكاؤُها فَيَدعو الله مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدْعُوا ، ثُمَّ يقولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : هَلْ عَسَيْتَ إنْ فَعَلْتُ ذَلكَ بكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ ! فَيَقُولُ : لاَ أَسْأَلُك غَيْرَهُ ، وَيُعْطِي رَبَّهُ من عُهُود وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ اللهُ ، فَيصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّار ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّة وَرَآهَا سَكَتَ مَاشَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ . ثُمَّ يَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! قَدِّمْنِي إِلَى بَاب الجَنَّة، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ : أَلَيْس قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ لاَ تَسْأَلُني غَيْر الَّذي أَعْطَيْتُكَ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ ! فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! وَيَدْعُو اللهَ حَتَّى يَقُولَ لَهُ : فَهَلْ عَسَيْتَ إنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ ! فَيَقُولُ : لاَ وَعِزَّتِكَ ! فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ اللهُ منْ عُهُود وَمَوَاثِيقَ ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَاب الْجَنَّة ، فَإِذَا قَامَ عَلَى بَاب الْجَنَّة انفهقت [2] لَهُ الْجَنَّةُ ، فَرَأَى مَا فِيهَا منَ الْخَيْر وَالسُّرُور ، فَيَسْكُتُ مَاشَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: أَلَيْس قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثقَكَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطيتَ ، وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ ! فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! لاَ أَكُونُ أَشْقَى خَلْقكَ ، فلاَ يَزَالُ يَدْعُو

---

(١) رواه مسلم في « الإيمان » (١/ ١٨٧) من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما .

(٢) أي انفتحت واتسعت .

اللهَ حتَّى يَضْحَكَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى منْهُ ، فَإذَا ضَحكَ اللهُ منْهُ ، قَالَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإذا دَخَلَهَا قَالَ اللهُ لَهُ : تَمَنَّهْ ، فَيَسْأَلُ رَبَّهُ ويَتَمَنَّى ، حَتَّى إنَّ اللهَ لَيُذَكِّرُهُ منْ كَذَا وَكَذَا[1] ، حتَّى إذَا انْقَطَعَتْ به الأَمَانِيُّ . قَالَ اللهُ تَعالَى : ذَلكَ لَكَ وَمثْلُهُ معَهُ » .

قَالَ عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ : وأَبُو سَعيد الْخُدْرِيُّ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ لاَ يَرُدُّ عَلَيْه منْ حَدِيثه شَيْئًا . حَتَّى إذَا حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ : إنَّ اللهَ قَالَ لذَلكَ الرَّجُلِ : «وَمثْلُهُ مَعَهُ » . قَالَ أَبُو سَعيد : وَعَشَرَةُ أَمْثَاله مَعَهُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ! قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : مَا حَفظْتُ إلاَّ قَوْلَهُ : « ذَلكَ لَكَ وَمثْلُهُ معَهُ » . قَالَ أَبُو سَعيد : أَشْهَدُ أَنِّي حفظتُ من رسول الله ﷺ قوله « ذَلكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَاله » قال أبو هريرة: وذلك الرجلُ آخر أهل الجنة دخولاً الجنة [2].

* * *

(١) أي يقول له ربه : تمنّ من الشيء الفلاني والشيء الفلاني ، يسمي له أجناس ما يتمنى ، فسبحان الملك الرؤوف الرحيم .

(٢) رواه البخاري في « الرقاق » (١١/ ٤٤٥) ، وفي « التوحيد » (١٣/ ٤٢٠) ، ومسلم في «الإيمان» (١/ ١٦٥ ـ ١٦٧) . من حديث عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة رضي الله عنه به

الدَّيَّانُ
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٩)

* **المعنى اللغوي :**

الدِّينُ : الجزاء والمكافأة .

يقال : دانَه دَينا أي : جازاه ، يقال : كما تَدين تُدَانُ .

أي: كما تُجَازِي تُجَازَى ، أي : تجازَى بفعلك وبحسب ما عملت .

وقوله تعالى : ﴿أئنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣] أي : مجزيون محاسبون[1] .

ومنه : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] أي يوم الحساب .

قال الجوهري : ومنه الدَّيان في صفة الله تعالى [2].

والدِّين : الذُّل ، والمَدِين : العبد ، والمَدِينة : الأَمَةُ ، كأنهما أذلَّهما العمل .

والدِّين : الطاعة ، ودَانَ له أي : أطَاعه .

ومنه : الدِّين والجمع أديان .

يقال : دَانَ بكذا ديانةً وتَديَّنَ به ، فهو دِيِّنٌ ومُتَدَيِّنٌ .

---

(١) وقال الفراء : في قوله تعالى ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها﴾ : غير مدينين أي : غير مملوكين ، قال : وسمعت : غير مَجْزِيين « اللسان » (٢/١٤٦٩) .

(٢) « الصحاح » (٥/٢١١٨) .

والدَّيان : القَهَّار ، وهو فعَّال ، من : دانَ الناس ، أي : قهرهم على الطاعة . ودِنْتُ الرجل : حَملْتُه على ما يكره .

والدِّين : العادة والشأن والحال .

تقول العرب : ما زال ذلك ديني ودَيْدني ، أي عادتي .

والدَّين : واحد الدُّيون ، تقول : دِنْتُ الرجل أقرضته ، فهو مَدِينٌ ومَدْيون [1].

وأَدَنْتُه جَعَلْتُه دائنًا وذلك بأن تعطيه دَيْنًا .

والدِّين : يقال للطاعة والجزاء واستعير للشريعة .

والدِّين كالملة ، لكنه يقال اعتبارًا بالطاعة والانقياد للشريعة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩] .

وقال : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] أي طاعةً [2].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد فيه حديث جابر بن عبد الله يقول : بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بعيرًا ثم شددت عليه رحلي فسرت إليه شهرًا حتى قدمت عليه الشام فإذا عبد الله بن أنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب فقال : ابن عبد الله ؟ قلت : نعم ، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته ، فقلت : حديثا بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القِصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ،

(١) انظر : « الصحاح » (٥/٢١١٧ ـ ٢١١٩) ، و « اللسان » (٢/١٤٦٧ ـ ١٤٧٠) ، و «غريب الحديث » لأبي عبيد (٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦) .

(٢) « المفردات » للراغب (ص ١٧٥) .

قال : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « **يُحشرُ الناسُ يومَ القيامة ـ أو قال العباد ـ عُراة غُرلاً بُهْمًا** » ، قال : قلنا : وما بُهْما ؟ قال : « **ليس معهم شيءٌ، ثم يُناديهم بصَوت يَسمعه من بَعُد كما يَسمعه مَنْ قَرُب : أنا الملكُ ، أنا الديّان ، ولا ينبغي لأحدٍ من أهلِ النار أنْ يدخلَ النار ، وله عند أحدٍ من أهلِ الجنة حقٌّ ، حتى أقُصَّه منه ، ولا ينبغي لأحدٍ من أهلِ الجنة أن يدخلَ الجنة ولأحد من أهلِ النار عنده حقٌّ ، حتى أقصه منهُ حتى اللَّطمة** » ، قلنا : كيف! وإنا إنّما نأتي الله عز وجل عُراةً غرلاً بُهْمًا؟ قال: « **بالحَسَنات والسَّيئات** ».

زاد في رواية الحاكم والبيهقي : وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ **الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ** ﴾ [غافر: ١٧][(١)].

---

(١) صحيح، أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (١/ ٢٢٥) ، وأحمد (٣/ ٤٩٥) ، والبخاري تعليقًا (١٣/ ٤٥٣) مختصرًا ، وفي « الادب المفرد » (٩٧٠) ، وفي « خلق أفعال العباد » (ص ١٤٩ ـ ١٥٠) ، والحارث بن أبي أسامة (٤٤ـ زوائد) ، والطبراني في « الكبير » ـ كما في المجمع (١/ ١٣٣) ـ ، والحاكم (٢/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨) (٤/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥) ، وعنه البيهقي في « الأسماء » (ص٧٨ ـ ٧٩) ، والخطيب في « الرحلة في طلب الحديث » (٣١، ٣٢) كلهم عن همام بن يحيى عن القاسم بن عبد الواحد المكي عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابرًا...

قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

وقال الهيثمي : رواه أحمد ، والطبراني في « الكبير » ، وعبد الله بن محمد ضعيف !

قلت : حديثه لا ينزل عن رتبة الحسن .

قال الترمذي : صدوق ، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه ، وسمعت محمد ابن إسماعيل « يعني البخاري » يقول : كان أحمد وإسحاق والحميدي يحتجون بحديث ابن عقيل ، قال محمد بن إسماعيل : وهو مقارب الحديث .

والحديث فيه : القاسم بن عبد الواحد المكي ، قال ابن أبي حاتم عن أبيه : يكتب حديثه ، قلت : يحتج به ؟ قال : يحتج بحديث سفيان وشعبة .

أي: هو ليس بالمرتبة العليا . وذكره ابن حبان في « الثقات » .

وورد في حديث أبي قِلابة عن أبي الدرداء : البِرُّ لا يَبْلَى ، والإثمُ لا يُنسى ، والدَّيان لا يَنَام ، فَكُنْ كما شئتَ ، كما تَدِينُ تُدان [1].

= وله طريق آخر يتقوى بها :

قال الحافظ في « الفتح » : وله طريق أخرى أخرجها الطبراني في « مسند الشاميين » ، وتمام في « فوائده » من طريق الحجاج بن دينار عن محمد بن المنكدر عن جابر ... فذكر نحوه.

قال الحافظ : وإسناده صالح « الفتح » (١/ ١٧٤) .

وله طريق أخرى : عند الخطيب ، وهي ضعيفة ، أنظر تعليقنا على « مناظرة في خلق القرآن» لابن قدامة (ص ٧٠ ـ ٧٢) .

* والحديث فيه : إثبات صفة الكلام لربنا سبحانه ، وأنه يتكلم بصوت يُسمع ، وحرف يُفهم ، وهو معتقد السلف رحمهم الله .

(١) موقوف رجاله ثقات ، أخرجه أحمد في « الزهد » (ص ١٤٢) عن عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب عن أبي قلابة به .

ورجاله ثقات ، لكن في سماع أبي قلابة من أبي الدرداء نظر ، قال الحافظ في « الفتح » (٨/ ١٥٦) : أبو قلابة لم يدرك أبا الدرداء .

قلت : أبو قلابة واسمه عبد الله بن زيد الجرمي من فقهاء التابعين ، وروايته عن مالك بن الحويرث ، وأنس بن مالك ، وثابت بن الضحاك متصلة وهي في الكتب الستة .

وكذا روايته عن عائشة في « صحيح مسلم » [كما في « جامع التحصيل » (ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨)] .

فالجزم بعدم إدراكه لأبي الدرداء فيه ما فيه ، والله أعلم .

وله شاهد : يرويه المروزي في « زوائد الزهد » لابن المبارك (١١٥٥) ، وابو نعيم (١/ ٢١١ ـ ٢١٢) عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن أبي الدرداء : اعبدوا الله كأنكم ترونه ، وعدُّوا أنفسكم في الموتى ، واعلموا أن قليلا يكفيكم خير من كثير يلهيكم ، واعلموا أن البر لا يبلى ، وأن الإثم لا ينسى .

وعبد الله بن مرة ثقة روى عن ابن عمر وغيره .

وقد جاء الأثر مرفوعًا : عند البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٧٩) من طريق عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال : قال رسول الله ﷺ : ... فذكره . =

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال الخطابي : الدَّيان : وهو المُجَاري .

يقال : دِنْت الرجل إذا جزيته ، أَدينُه .

والدِّين : الجزاءُ ، ومنه المَثَل : « كما تَدينُ تُدان » .

والدَّيان أيضًا : الحاكم ، ويقال : مَنْ دَيَّانُ أرضكم ؟ أي : مَنْ الحاكمُ بها ؟ [1].

وقال الحليمي : ومنها « الدَّيان » ، أخذ من ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهو: الحاسِبُ والمُجاري ، ولا يُضيع عملاً ، ولكنه يَجزي بالخير خيرًا، وبالشَّر شرًّا [2].

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « الدَّيَّان » قيل : هو القَهَّار .

وقيل : هو الحاكمُ القاضي .

وهو فعَّالٌ ، من : دَانَ الناس أي : قهرهم على الطاعة .

يقال : دِنْتُهم فدانوا ، أي : قهرتُهم فأطاعوا [3].

= قال البيهقي : هذا مرسل .

وقال الحافظ : وله شاهد موصول من حديث ابن عمر أخرجه ابن عدي وضعفه .

قلت : هو في ترجمة محمد بن عبد الملك الأنصارى (٦/٢١٦٨) ، ورواه أيضًا أبو نعيم، والديلمي كما في « الضعيفة » (١٥٧٦) .

ومحمد بن عبد الملك قال النسائي : متروك.

وقال مرة : منكر الحديث . وكذا قال الشافعي ومسلم .

(١) « شأن الدعاء » (ص ١٠٦) مختصرًا ، ونقله الأصبهاني في « الحجة » (١/ ١٦٤) .

(٢) « المنهاج » (١/٢٠٦) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٧٨) ، والحافظ في « الفتح » (١٣/٤٥٨) وعنده : لا يضيع عمل عامل .

(٣) « النهاية » (٢/١٤٨) ، ونقله ابن منظور في « اللسان » ، ولم يعزه له .

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ ـ أن الله تعالى هو الدَّيان المحاسب والمجازي للعباد ، وهو الحاكم بينهم يوم المعاد ، كما قال سبحانه : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] وقال : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧] .

فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يَلومنَّ إلا نفسه : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] .

وقال سبحانه : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

قال القرطبي : فيجب على كل مكلَّفٍ أن يعلم أن الله سبحانه هو «الديَّان» يوم القيامة ، الذي يُجازي كُلاًّ بعمله ، فيقتصُّ للمظلوم من الظالم ، ومن السيد لعبده ، كما في حديث عائشة أن رجلاً قَعَد بين يدي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنَّ لي مملوكين ... الحديث خرَّجه الترمذي[1] وقد تقدم في اسمه الحاسب .

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٦/ ٢٨٠) ، والترمذي (٣١٦٥) عن عبد الرحمن بن غزوان أبي نوح حدثنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة : أن رجلاً قَعَد بين يدي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم ؟ قال : « يُحْسَبُ ما خانوكَ =

وروى مسلم[1] عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أَتَدرونَ مَا المُفْلس ؟» قالوا : المفلسُ فينا مَن لا دِرهمَ له ولا مَتَاع ، قال : « إن المُفْلس من أُمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شَتَم هذا ، وقَذَفَ هذا ، وأَكَل مالَ هذا ، وسفكَ دَمَ هذا ، وضربَ هذا ، فَيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فَنيتْ حسناته قبل أن يُقْضى ما عليه أُخذَ من خَطَايَاهم فَطُرِحتْ عليه ثم طُرِحَ في النار » .

ثم عليه أن يَدين بطاعته .

وكما يَدين يُدان .

وهل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسان .

فإذا دَانَ نفسه بالطاعة ، وَحكَم قَلبه الذي هو الأميرُ على رعاياه التي هي جوارحه ، واشْتدَّ في الحكم لدين الله الذي به نبيه ﷺ ، وأشَاع هذا في الخَلق ، وأَظهر دين الله بالحق ، فهو دَيَّانٌ من دَيَّاني هذه الأُمة ، وقد استوجب يومَ الدين : عظيمَ الحُرْمة[2].

= وعَصَوكِ وكذبوك وعقابُك إياهم ، فإنْ كان عِقابُك إيَّاهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا ، لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابُك إياهم فوق ذنوبهم اقتصَّ لهم منك الفَضْل » قال فتنحَّى الرجل فجعل يبكي ويهتف ، فقال رسول الله ﷺ : « أما تقرأ كتابَ الله ﴿ ونضعُ الموازين القِسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ فقال الرجل : والله ما أجد لي ولهؤلاء شيئًا خيرًا من مفارقتهم ، أشهدكم أنهم أحرارٌ كلهم .

وإسناده صحيح ، رجاله ثقات رجال الشيخين سوى عبد الرحمن بن غزوان المعروف بقُراد فثقة من رجال البخاري وحده . وقال الحافظ : ثقة له أفراد .

(١) مسلم في « البر » (٤/١٩٩٧) .

(٢) « الكنى والأسامي » (٢/ ورقة ٣٨١ ب ٣٨٢ أ) .

٢ ـ ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه قبل أن يُحاسب ويستعد للقاء ديان السموات والأرضين قبل مجيء يوم الدين .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزِنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا ، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتَزَيَّنوا للعَرض الأكبر ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية [١].

وقد ورد في حديث جابر السابق أن الناس يحشرون يوم القيامة عُراة غرلاً بُهْما ـ أي : ليس معهم شيءٌ ـ ثم يناديهم بصوت يسمعه البعيد كما يسمعه القريب قائلا لهم : أنا الملِكُ أنا الديان ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحدٍ من أهل الجنة حقٌّ ، حتى أَقُصَّهُ منه .

ولا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يَدخل الجنة ولأحدٍ من أهل النار عنده حقٌّ حتى أقصَّه منه حتى اللَّطمة .

فسأل أصحاب النبي ﷺ عن كيفية القصاص وقد حشروا حفاةً عراة بُهْمًا ليس معهم درهم ولا دينار ؟!

فأجابهم ﷺ : أن القصاص يكون بالحسنات والسيئات ، أي : يأخذ المظلوم من حسنات الظالم ، فإنْ لم يكن عنده حسنات أُخذ من سيئات المظلوم فوضعت على الظالم ، ثم تلا رسول الله ﷺ الآية : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر : ١٧].

قال القرطبي[٢]: ولقد أحسن أبو العتاهية في قوله حين حبسه الرشيد:

---

(١) أثر موقوف حسن ، رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس والإزراء عليها » برقم (٢) .
وذكره الترمذي تعليقًا في « صفة القيامة » (٤/٦٣٨).

(٢) «الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٣٨١ أ) .

أَمَــا واللهِ إنَّ الظُّلْــمَ لُؤْمٌ   ومازال المُسِيءُ هو الظَّلومُ
إلى ديَّانِ يومِ الدِّين نَمْضي   وعند اللهِ تجتمعُ الخُصُومُ

* * *

الحَنَّانُ

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١٠)

*** المعنى اللغوي :**

الحَنَان : الرحمة .

يقال منه : حَنَّ عليه يَحِنُّ حنانًا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا** ﴾ [مريم: ١٣].

والحَنَّان بالتشديد : ذو الرحمة ، والذي يحنُّ إلى الشيء .

وتحنَّنَ عليه : تَرحَّم .

والعرب تقول : حَنَانَك يا رب ، وَحَنَانَيْكَ يا رب ، بمعنى واحد ، أي : رحمتك ، وحنانًا بعد حنان .

وقال ابن سيده في معناه : كلما كنتُ في رحمةٍ منك وخيرٍ فلا ينقطعنَّ ، وليكن موصولا بآخر من رحمتك [(١)].

وقال طَرَفة :

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيتَ فاستَبْقِ بعضَنَا حَنَانَيكَ بعضُ الشرِّ أَهْونُ من بعضِ

والحَنين : الشوقُ وتَوَقَانُ النفس .

---

(١) وقال ابن قتيبة في « غريب الحديث » (١/ ٢٢٠) : حَنانيك ربنا ، أي : هبْ لنا رحمةً بعد رحمة ، أو رحمة مع رحمة ، وكما قالوا : سعديك ، أي سعدًا مقرونًا بسعد .

تقول منه : حَنَّ إليه يحِنُّ حنينًا فهو حَانٌّ .

وحنينُ النَّاقة : صوتُها في نزاعها إلى ولدها .

والحَنُون : ريحٌ لها حَنِينٌ كحنين الإبل .

وما له حانَّةٌ ولا آنَّةٌ : أي ناقة ولاشاة .

وحَنَّةُ الرجل : امرأتُه ، لتحننه عليها .

وطريق حنَّان : بيِّنٌ واضح منبسط [1].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أنس رضي الله عنه قال : كنتُ جالسًا مع النبي ﷺ في المسجد ورجلٌ يُصلِّي فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنتَ الحنَّان المنَّان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلالِ والإكرام، يا حيُّ يا قيوم ، فقال النبي ﷺ : « **دَعَا اللهَ باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعِي به أجاب ، وإذا سُئِل به أعْطى** » [2].

---

(1) « الصحاح » (٥/ ٢١٠٤ ـ ٢١٠٥) ، و« اللسان » (٢/ ١٠٢٩ ـ ١٠٣١) ، و« المفردات » (ص ١٣٣) ، و« غريب الحديث » للهروي (٤/ ٤٠١) ، وابن جرير (١٦/ ٤٤) .

(٢) حديث صحيح ، سبق تخريجه في الجزء الأول من الكتاب .

فقول ابن العربي ـ كما في « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٣٢١ أ) ـ : « وهذا الاسم لم يرد به قرآن ولا حديث صحيح وإنما جاء من طريق لا يعوّل عليه ، غير أن جماعة من الناس قبلوه وتأوّلوه وكَثُر إيراده في كتب التأويل والوعظ » .

مما لا يعول عليه ، لأن الحديث صحيح .

وقد قال القرطبي معقبًا عليه : قد اجتلبنا فيه من الأخبار ما صحَّ به مورده وثبت معناه وذكره جماعةٌ من العلماء ...

* ملاحظة : أما حديث أنس مرفوعا : « إن عبدًا في جهنم لينادي ألف سنة : يا حنان يا منان ، قال : فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فائتني بعبدي هذا فينطلق جبريل فيجد =

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

جاء عن ابن عباس أنه قال : لا والله ما أدري ما حَنَانا [1].

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣].

وروى عنه أنه قال : ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقول : ورحمةً من عندنا [2].

ونحوه عن قتادة [3].

قال الأزهري : هو بتشديد النون صحيح . قال : وكان بعض مشايخنا أنكر التَّشديد فيه ، لأنه ذهب به إلى الحنين ، فاستوحش أن يكون الحنين من صفات الله تعالى ، وإنما معنى « الحنَّان » : الرحيم ، من الحنان وهو الرحمة [4].

= أهل النار مكبين يبكون ، فيرجع إلى ربه فيخبره فيقول : ائتني به فإنه في مكان كذا وكذا ، فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل فيقول له : ياعبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : أي ربِّ شر مكان وشر مقيل ، فيقول : ردُّوا عبدي ، فيقول : يارب ما كنت أرجو إذْ اخرجتني منها أن تردَّني فيها ، فيقول : دعوا عبدي » .

فهو حديث ضعيف ، رواه أحمد (٣/ ٢٣٠)، والبيهقي في «الأسماء» (ص ٨٤) وغيرهما.

وفيه : أبو ظِلال واسمه : هلال بن ميمون ، قال ابن معين : ضعيف ليس بشيء ، وقال النسائي والأزدي : ضعيف ، وقال ابن عدي : عامة ما يرويه لا يتابعه الثقات عليه ، وقال البخاري : عنده مناكير . « الميزان » (٤/ ٣١٦) .

(١) إسناده صحيح ، أخرجه ابن جرير (١٦/ ٤٣) ، وأبو عبيد في « غريب الحديث » (٤/ ٤٠٢) عن حجاج ـ وهو ابن محمد المصيصي ـ عن ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار عن عكرمة به ورجاله ثقات ، وابن جريج قد صرح بالتحديث عند ابن جرير .

(٢) رواه ابن جرير (١٦/ ٤٣) وهو من رواية علي بن أبي طلحة عنه ، وروى البيهقي في «الأسماء» (ص٨٤) عنه قال : التعطف بالرحمة وسنده صحيح .

(٣) المصدر السابق ، بسندين عنه ، وهو صحيح .

(٤) « اللسان » (٢/ ١٠٢٩) .

وقال الخطابي : « الحنَّان » معناه : ذو الرحمةِ والعَطْف .

والحَنَان مخفّف : الرحمة [1].

وقال الحليمي : ومنها « الحنان » : وهو الواسعُ الرحمة ، وقد يكون المُبالغُ في إكرامِ أهلِ طاعته ، إذا وافوا دار القرار ، لأن من حنَّ إلى غيره من الناس ، أكرمه عند لقائه ، وكَلِفَ به عند قدومه [2].

وقال ابن الأعرابي : « الحنَّان » من صفات الله الرحيم [3].

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « الحنَّان » وهو بتشديد النون : الرحيم بعباده ، فعَّال ، من الرحمة للمبالغة[4].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ أن الله تعالى هو الرحيم بعباده ، ذو العطف والحنان ، يكرم المحسنين ، ويغفر ويصفح للمسيئين ، إن تابوا إليه فهو حبيبهم ، وإن أعرضوا عنه فهو طبيبهم، يتحبب إليهم بالنِّعم، ويتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم نازل ، وشرهم إليه صاعد ! وهذا والله هو الحال العجيب .

٢ ـ وإذا كان هذا حال الرب مع العبد ، فالأولى أن يكون العباد كذلك مع بعضهم البعض ، يرحم بعضهم بعضا ، فيتحنن الأخ على أخيه ويعطف عليه ، ويصفح عن زلته ، ويقيل عثرته ، ويكون كما

---

(١) « شأن الدعاء » (ص ١٠٥) ، وبنحوه قال البيهقي في « الاعتقاد » (ص ٦٧) ، والأصبهاني في « الحجة » (١/ ١٦٤) .

(٢) « المنهاج » (١/ ٢٠٧) ، وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٨٤) .

(٣) «الأسماء والصفات» للبيهقي (ص ٨٥) ، و «الكتاب الأسنى» للقرطبي (٢/ ورقة ٣٢٢ ب).

(٤) « النهاية » (١/ ٤٥٣) .

وصف نبي الرحمة ﷺ المؤمنين بقوله : «مثل المؤمنين في توادِّهم وتَراحُمهم وتعاطُفهم ، مثل الجَسَدِ ، إذا اشتكي منه عُضْوٌ ، تَدَاعى له سائرُ الجَسَدِ بالسَّهر والحُمَّى »[1].

قال القرطبي : فيجب على كل مسلم أن يتخلَّقَ بهذين الاسمين : (يعني : الحنان والمنان) وسائر الأسماء ... رقيق القلب ، لأن الحنان حقيقته في المخلوق رقةٌ في النفس ، وميلٌ مُفْرطٌ في الجِبلَّة والطبع ، لشوقٍ مزعج وتوق مُفْرط .

فَرِقَّة القلب تَحْملُ على التَّعطف والرحمة والرأفة والشفقة ، وعنها تكون الأُلْفة والفُرقة .

وقد ذَمَّ اللهُ غِلَظ القلب فقال : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال عليه السلام : « أتاكم أهلُ اليَمنِ ، هم أَضْعفُ قلوبًا ، وأرقُّ أفئدةً» وفي رواية : « ألين قلوبًا » بدل « أضعف »[2].

مَدَحهم بذلك .

كما ذَمَّ الفدَّادين فقال : « القَسْوة وغِلظ القلوب في الفدادين »[3].

---

(١) رواه مسلم في « البر والصلة والآداب » (٤/١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠) من حديث الشعبي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في « المغازي » (٨/ ٩٨ ، ٩٩) ، ومسلم في « الإيمان » (١/ ٧١ ، ٧٢، ٧٣) من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري في « بدء الخلق » (٦/ ٣٥٠)، وفي «المناقب » (٦/ ٥٢٦)، وفي « المغازي» (٨/ ٩٨)، وفي « الطلاق » (٩/ ٤٣٩) ، ومسلم في « الإيمان » (١/ ٧١) من حديث قيس ابن أبي حازم عن أبي مسعود قال: أشار النبي ﷺ بيده نحو اليمن فقال : « ألا إنَّ الإيمان ههنا ، وإنَّ القَسْوة وغِلَظ القلوبِ في الفدَّادين عند أصول أذناب الإبل ، حيث يطلعُ =

وجعل ﷺ رِقَّةَ القلب علامةَ الجنة ، فقال : « أهل الجنة ثلاثةٌ : ذو سلطانٍ مُقْسط متصدِّق موفَّق ، ورجلٌ رحيمٌ رقيقُ القلب لكلِّ ذي قُرْبى ومسلمٍ ، وعفيفٌ متعفِّفٌ ذو عيال »[1].

ويجب عليه الشكر لنعم الله وآلائه في المزيد من فضله ، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧][2].

* * *

= قرنا الشيطان في رَبيعة ومُضر » واللفظ لمسلم .

والفدادين : جمع فدَّاد وهو من الفديد وهو : الصوت الشديد ، فهم الذين تعلو أصواتهم في إبلهم وخيلهم وحروثهم ونحو ذلك (نووي) .

وللحديث ألفاظ أخرى من رواية أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما .

(١) رواه مسلم في « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » (٤/ ٢١٩٧ ـ ٢١٩٨) من حديث مطرف ابن عبد الله عن عياض بن حمار المجاشعي وأوله : أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : « ألا إنَّ ربي أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتم مما علَّمني يومي هذا ، كلُّ مالٍ نحلته عبدًا حلالٌ ، وإني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمتْ عليهم ما أحللت لهم ...» الحديث .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٣٢٣أ ـ ب) .

المَنَّان
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١١)

*** المعنى اللغوي :**

مَنَّ عليه يَمُنُّ مَنًّا : أحسنَ وأنعم .

والاسم : المِنَّةُ ، وهي العطية ، والمنُّ : العطاء .

ومَنَّ عليه وامْتَنَّ وتمنَّنَ : قَرَّعه بمنَّةٍ .

يقال : المِنَّةُ تهدم الصَّنيعة .

والمَنُّ : القَطْعُ ، ويقال : النقص ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨].

والمَنُّ : شيء حلو كالطَّرَنْجبين ، في قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧].

وفي الحديث : « الكمأة من المن » [١].

المُنَّةُ بالضم : القُوة [٢].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أنس السابق .

---

(١) رواه مسلم في « الأشربة » (٣/١٦١٩ ـ ١٦٢١) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه

(٢) « الصحاح » (٦/٢٢٠٧) ، و« اللسان » (٦/٤٢٧٧ ـ ٤٢٧٩) .

وورد في التنزيل فعلاً ، قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال : ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال الزجاجي : « المنَّان » فعالٌ من قولك : مننتُ على فلان ، إذا اصطنعت عنده صنيعة وأحسنت إليه .

فالله عز وجل منَّانٌ على عباده بإحسانه وإنعامه ورزقه إياهم .

وفلان يمنُّ على فلان : إذا كان يعطيه ويحسن إليه [١].

وقال الخطابي : وأما « المنَّان » فهو كثير العطاء [٢].

وقال الجوهري : و « المنَّان » من أسماء الله تعالى [٣].

وقال الحليمي : ومنها : « المنان » وهو عظيمُ المواهب ، فإنه أعطى الحياة والعقل والنطق ، وصوَّر فأحسن الصور ، وأنْعم فأجزل ، وأسْنَى النِّعم ، وأكثر العطايا والمِنَح ، قال ـ وقوله الحق ـ : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤][٤].

وقال أبو بكر ـ هو الأنباري ـ : وفي أسماء الله تعالى الحنَّان المنَّان، أي الذي يُنْعِم غيرَ فاخرٍ بالإنعام .

وقال في موضع آخر في شرح المنان :

---

(١) « اشتقاق أسماء الله » (ص ١٦٤) .

(٢) « شأن الدعاء » (ص ١٠٠) ، وبنحوه قال البيهقي في « الاعتقاد » (ص ٦٧) .

(٣) « الصحاح » (٦/٢٢٠٧) .

(٤) « المنهاج » (١/٢٠٣) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٦٥) .

معناه : المُعْطي ابتداءً ، ولله المِنَّةُ على عباده ، ولا مِنَّة لأحدٍ منهم عليه ، تعالى الله علوًا كبيرًا (1).

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « المنَّان » : هو المُنْعم المعطي ، من المنّ : العَطاء ، لا من المنة .

وكثيرًا ما يَرِدُ المنُّ في كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يَسْتَثِيبُه ولا يطلب الجزاء عليه .

فالمنّان من أبنية المبالغة ، كالسَّفاك والوهاب (2).

وقال القرطبي : ومنها المنان جل جلاله وتقدست أسماؤه .

قال : يقال منه : مَنَّ يمنُّ منًّا فهو المنَّـــان ، والاسم : المِنَّة واشتقاقــه في موضـــوع اللســـان من المَـــنّ وهو العطـــاء دون طلب عوض .

ومنه قوله تعالى : ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ [ص: ٣٩] في أحد وجوهه .

ويكون أيضًا مشتقًا من : المِنَّة ، التي هي التَّفاخر بالعطية على المُعْطى ، وتعديد ما عليه .

والمعنيان في حقِّ الله تعالى صحيحان .

ويتَّصف أيضًا بهما الإنسان ، لكن يتصف بالمعنى الواحد على طريق المدح ، وبالمعنى الثاني على طريق الذَّم .

فالأول : الذي هو ممدوح ، نحو أن يكون عطاؤه أو منُّه لوجه الله تعالى ، لا لنيل عوضٍ من الدنيا .

---

(1) « اللسان » (٤٢٧٩/٦) .

(2) « النهاية » (٣٦٥/٤) .

ومن هذا القسم قوله عليه السلام : « **وإنَّ من أمَنِّ الناسِ عليَّ في ماله أبو بكر** » .

وقوله : « **ما أحَدٌ أمنَّ عليَّ من ابن أبي قُحافة** » [1].

والقسم الثاني : وهو أن يَمنَّ الإنسان بالعطية ، أي : يَذكرها ويُكررها، فهو المذموم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ** ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال رسول الله ﷺ : « **ثلاثة لا يُكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم : المُسْبِل ، والمنَّان ، والمُنَفِّقُ سِلْعَتَه بالحلف الكاذب** » .

والمنَّان : الذي لا يُعطي شيئًا إلا مَنَّة ، كذا جاء مفسَّرًا في كتاب مسلم [2].

والمنان أيضًا : الذي يَمنُّ على الله بعمله .

وهذا كله في حقِّ المخلوق حرامٌ مذمومٌ .

---

(١) رواهما البخاري في « الصلاة » (١/٥٥٨) ، وغيره ، وأحمد (١/ ٢٧٠) (٣/٤٧٨) (٣/ ٢١١ ـ ٢١٢) من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس وأبي المعلى رضي الله عنهم بألفاظ متقاربة .

ولفظ حديث ابن عباس : خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عَاصبًا رأسَه بخرقة فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إنه ليس من الناس أحدٌ أمنَّ علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة ، ولو كنت متخذًا من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن خلة الإسلام أفضل ، سدوا عني كل خوخةٍ في هذا المسجد غيرَ خوخة أبي بكر » .

(٢) رواه في « الإيمان » (١/١٠٢) من حديث أبي ذر .

والتفسير المذكور جاء مرفوعا فيه من قوله ﷺ .

وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ : « لا يَدْخل الجنَّةَ منَّان »[1].

ولما كان البارئ سبحانه يُدر العطاء على عباده منًّا عليهم بذلك وتفضُّلاً ، كانت له المنة في ذلك .

فيرجع المنان إذا كان مأخوذًا من المنِّ الذي هو العطاء إلى أوصاف فعله .

ويرجع المنان إذا أخذتَه من المنَّة التي هي تِعداد النعمة وذكرها والافتخار بفعلها في معرض الامتنان ، إلى صفة كلامه تعالى[2].

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ ـ إن الله تعالى هو المنَّان الذي مَنَّ على عباده بأنواع الإحسان والإنعام والأرزاق والعطايا .

وهو سبحانه كثير العطاء ، فلا نهاية لتوسعته : ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقال : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد ذكَّر الله تعالى عباده ببعض منته عليهم فمن ذلك قوله : ﴿لَقَدْ

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد (٢/ ٢٠١، ٢٠٢)، والدارمي (٢/ ١١٢)، والنسائي (٨/ ٣١٨)، وابن خزيمة في « التوحيد» (ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦)، وابن حبان (١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ـ زوائد)، والطحاوي في « المشكل » (١/ ٣٩٥) عن سالم بن أبي الجعد عن جابان عن عبد الله بن عمرو مرفوعا به ، وتمامه : « ... ولا عاق والديه ، ولا مدمن خمر ، ولا ولد زنية » .
وقد أعلّه ابن خزيمة بجهالة جابان وبإسقاطه نبيط من هذا الإسناد ، لكن هو مذكور في الإسناد عند النسائي .
وللحديث شواهد يتقوى بها ، انظر تعليقنا على « إبطال التأويلات » (٢/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧) .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٣١٨ ب ـ ٣١٩ ب) .

مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

فذكَّرهم سبحانه وتعالى بنعمة هدايته لهم وقد كانوا في ظلمات الكفر يترددون، وعلى شفير جهنم هم قائمون.

ونحوها قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص: ٥، ٦].

فيها امتنان على بني إسرائيل وما حصل لهم من العزة والقوة والتمكين في الأرض بعد أن كانوا في ذلة واستضعاف وتبعية لفرعون وملائه.

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝١١٥ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ۝١١٦ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٤ - ١١٨].

ويوسف نبي الله عليه الصلاة والسلام يذكر نعمة ربه عليه وعلى

أخيه، وأنه سبحانه لم يضع صبره وتقواه بل أورثه ذلك حسن العاقبة ، فيقول لإخوته : ﴿ **أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف: ٩٠].

وكذا أهل الجنة يذكرون حالهم في الدنيا وخوفهم من ربهم ثم يذكرون نعمة الله عليهم في الجنان ، ونجاتهم من سموم النيران ، فيقولون : ﴿ **قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** ﴾ [الطور: ٢٦ - ٢٨].

قال القرطبي : فيجب على كلِّ مسلمٍ أن يعلم أن لا منَّان على الإطلاق إلا الله وحده ، الذي يبدأ بالنَّوَال قبل السؤال .

ثم يعترف بالمنَّة لله وحده .

كما روي أن النبي ﷺ لما جَمَعَ الأنصار فذكَّرهم ، وقال : « **أَلَم يكن أمركم شيئًا فَجمَعه اللهُ بي ، أَلم تكونوا عَالةً فَأَغْناكم اللهُ بي ، أَلم تكونوا خائفين فأَمَّنكم اللهُ بي** » وهم في ذلك يقولون : **اللهُ** ورسوله أَمَنُّ ... الحديث إلى آخره [١].

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري في «المغازي» (٨/٤٧)، وفي « التوحيد » (١٣/٣٢٥)، ومسلم في «الزكاة» (٢/٧٣٨ ـ ٧٣٩) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : « لما أفاءَ اللهُ على رسولِه ﷺ يومَ حُنَينٍ قسمَ في الناس في المؤلفةِ قلوبهم ولم يُعطِ الأنصارَ شيئًا ، فكأنهم وَجَدوا إذ لم يُصِبهم ما أصابَ الناسَ ، فخطَبهم فقال : يا مَعشَرَ الأنصار ، ألم أجدْكم ضُلالا فهَداكم اللهُ بي ، وكنتم متفرِّقين فألَّفكم اللهُ بي ، وعالةً فأغناكم اللهُ بي ؟ كلَّما قال شيئًا قالوا : اللهُ ورسولُه أمنُّ . قال : ما يَمنعُكم أن تجيبوا رسولَ الله ﷺ ؟ قال : كلَّما قال شيئًا قالوا : اللهُ ورسولُه أمنُّ . قال : لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا . ألا ترضَونَ أن يذهبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ ، وتذهبونَ بالنبيِّ ﷺ إلى رِحالِكم ؟ لولا الهجرةُ ، لكنتُ امرءًا من الأنصار . ولو سلكَ الناسُ واديًا وشِعبًا لَسلَكتُ واديَ الأنصارِ وشِعبَها ، الأنصارُ شِعار ، والناسُ دِثار ، إنكم ستَلقَونَ بعدي أثرة ، فاصبروا حتى تَلقَوني على الحوْض». =

(فأقرُّوا) لله ثم لرسوله بالنعمة ، وولَّوا النعمة لربِّ النعمة ، والله أعلم. ثم إذا أَعْطى أحدًا من خلقه مما أَنْعم الله تعالى به عليه فلا يَمنّ به، بل يَستصغره ، ويَتَناساه ، ويَرى الفضل لغيره في قَبوله منه ، لا له.

وقال بعضهم : المنُّ التَّحدُّثُ بما أعطى حتى يبلغ ذلك المُعْطَى فيؤذيه .

قال العلماء : وإنما على المرء أن يُريد وجه الله تعالى وثوابه بانفاقه على المُنْفَق عليه ، ولا يرجو منه شيئًا ، ولا ينظر من أحواله في حالٍ سوى أن يُراعي استحقاقه .

قال الله تعالى : ﴿ **لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً** ﴾ [الإنسان: ٩].

ومتى أنفقَ ليريد من المنفق عليه جزاء بوجهٍ من الوجوه ، فهذا لم يُرِدْ به وجه الله ، فهذا إذا أَخْلَف ظَنَّه فيه ، مَنَّ بإنفاقه وآذاه .

وكذلك من أنفقَ مضطرًا دافعَ غُرمٍ ، إما لأنه المُنْفِقُ عليه ، أو لعلة أخرى ، من اعتناء مُعْتنٍ ، فهذا لم يُرد به وجه الله ، وإنما يقبل ما كان عطاؤه لله ، وأكبر قصده ابتغاء ما عند الله [1].

= قال الحافظ في « الفتح » (٨/ ٥٠) : وقد رتَّب ﷺ ما منَّ الله عليهم على يده من النعم ترتيبًا بالغًا ، فبدأ بنعمة الإيمان التي لا يُوازيها شيءٌ من أمر الدنيا ، وثنَّى بنعمة الألفة وهي أعظم من نعمة المال ، لأن الأموال تبذل في تحصيلها وقد لا تحصل ، وقد كانت الأنصار قبل الهجرة في غاية التنافر والتقاطع لما وقع بينهم من حرب بُعاث وغيرها كما تقدم في أول الهجرة ، فزال ذلك كله بالإسلام كما قال الله تعالى : ﴿ لو انفقتَ ما في الأرض جميعًا ما أَلَّفت بين قلوبهم ولكن الله أَلَّف بينهم ﴾ .

وقال (ص ٥٢) : وفيه : أن المنَّة لله ورسوله على الإطلاق .

(١) « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٣١٩ ب ـ ٣٢٠ ب) باختصار .

وهناك بعض الكلمات وجدت صعوبة في قراءتها بسبب انطماسها ، فكتبتها كما ظهرت لي ومن سياق الجملة .

٢ ـ قد ذكرنا حديث الرسول ﷺ في حرمة المنِّ ، وأن المنان من الثلاثة الذين لا يُكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم ، وهو أنه لا يعطي شيئًا إلا منَّه .

وقد قسم الإمام ابن القيم رحمه الله المنَّ في الناس إلى قسمين في كلامه عن المنفقين وأنواعهم فقال :

فالمن نوعان : أحدهما منٌّ بقلبه مِن غير أنْ يُصَرِّحَ به بلسانه ، وهذا إنْ لم يبطلْ الصدقة ، فهو من نقصان شهودِ منَّة الله عليه في إعطائه المال وحِرمان غيره ، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه ، فللَّه المنة عليه من كل وجه ، فكيف يشهد قلبه منة لغيره ؟

والنوع الثاني : أنْ يمنَّ عليه بلسانه ، فيعتدى على من أَحسنَ إليه بإحسانه ، ويُريه أنه اصطنعه وأنه أوجب عليه حقا وطوَّقه مِنةً في عنقه فيقول : أما أعطيتك كذا وكذا ؟ ويعدد أياديه عنده .

قال سفيان : يقول أعطيتك فما شكرت .

وقال عبد الرحمن بن زياد كان أبي يقول : إذا أعطيت رجلا شيئًا ورأيت أن سلامك يثقل عليه فكف سلامك عنه ، وكانوا يقولون : إذا اصطنعتم صنيعةً فانسوها ، وإذا أُسْدِيتْ إليكم صنيعة فلا تنسوها .

وفي ذلك قيل :

وإنْ امرءًا أَهْدى إليَّ صَنِيعةً ... وذَكَّرنيها مرةً لَبَخيلُ

وقيل : صِنْوانٌ مَنْ مَنَحَ سائله ومنَّ ، ومَن مَنعَ نائله وضَنَّ .

*** ثم ذكر اختصاص الله تعالى بالمنِّ وأسباب ذلك فقال :**

وحظر الله على عباده المنَّ بالصنيعة واختص به صفة لنفسه لأنَّ منَّ

العباد تكديرٌ وتَعيير ، ومَنُّ الله سبحانه وتعالى إفضال وتذكير .

وأيضًا : فإنه هو المنعم في نفس الأمر والعباد وسائط ؛ فهو المنعم على عبده في الحقيقة .

وأيضًا فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يمن عليه ولا تصلح العبودية والذل إلا لله .

وأيضًا فالمنة أن يشهد المعطي أنه هو ربُّ الفضل والإنعام وأنه ولى النعمة ومُسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا الله .

وأيضًا فالمانُّ بعطائه يشهد نفسه مترفعًا على الآخذِ مُستعليًا عليه غنيا عنه عزيزًا ، ويشهد ذلَّ الآخذ وحاجته إليه وفاقته ، ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضًا فإنَّ المُعْطي قد تولى الله ثوابه وردَّ عليه أضعاف ما أعطى ، فبقي عِوضَ ما أعطى عند الله ، فأيُّ حق بقى له قبل الآخذ ؟ فإذا امتن عليه فقد ظَلَمه ظُلمًا بيِّنًا ، وادَّعى أنَّ حقه في قلبه ، ومن هنا ـ والله أعلم ـ بَطَلَت صدقته بالمن ، فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله ، وعِوض تلك الصدقة عنده ، فلم يرضَ به ولاَحَظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمنَّ عليه بما أعطاه ، أبطَلُ معاوضته مع الله ومعاملته له.

*** ثم بيَّن رحمه الله تعالى أن المنَّ ولو كان بعد الإنفاق بمدة ضرَّ بصاحِبِه ، فقال :**

فتأمل هذه النصائح من الله لعباده ، ودلالته على ربوبيته وإلهيته وحده، وأنه يُبْطلُ عملَ مَنْ نازعه في شيءٍ من ربوبيته وإلهيته ، لا إله غيره ولا رب سواه . ونبَّه بقوله : ﴿**ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى**﴾ على أن المنَّ والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطالَ زمنه ضرَّ بصاحِبِه ،

ولم يَحصل له مقصود الإنفاق ، ولو أتى بالواو وقال : ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، لأوهمْت تقييد ذلك بالحال ، وإذا كان المنّ والأذى المتراخي مُبْطلاً لأثر الإنفاق مانعًا مِنَ الثواب فالمقارن أولى وأحرى .

وتأمّل كيف جَرّد الخبر هنا عن الفاء فقال : ﴿ **لهم أجرهم عند ربهم** ﴾ وقرنه بالفاء في قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ [البقرة: ٢٧٤] فإنَّ الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشّرط والجزاء وأنه مستحقٌ بما تضمنه المبتدأ من الصّلة أو الصفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره ، جَرّد الخبر عن الفاء ، فإنّ المعنى : إن الذي ينفق ماله لله ، ولا يمنّ ولا يؤذي ، هو الذي يستحق الأجر المذكور ، لا الذي ينفق لغير الله ، ويَمنُّ ويُؤذي بنفقته ، فليس المقام مقام شرطٍ وجزاء ، بل مقام بيان للمستحق دون غيره .

وفي الآية الأخرى : ذَكَرَ الإنفاق بالليل والنهار سرا وعلانية ، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال ، فأتى بالفاء في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقتٍ وُجِدَ من ليلٍ أو نهار ، وعلى أي حالة وُجد من سر وعلانية فإنه سبب للجزاء على كل حال ، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله . ولا يُؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار ، ولا نفقة النهار إلى الليل ، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر ولا بنفقة السر وقت العلانية ، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه ، فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك لا تظفر بها [فيما] يمر بك في التفاسير ، والمنة والفضل لله وحده لا شريك له .

* [ردُّ السائل بالقول المعروف والعفو عنه خيرٌ من التصدق عليه ثم إيذائه بالمنِّ والقول] :ـ

ثم قال تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣] فأخبر أن القولَ المعروف: وهو الذى تَعرفه القلوب ولا تُنكره ، والمغفرة وهي: العفو عمن أساءَ إليك ، خيرٌ من الصَّدقة بالأذى ، فالقول المعروف إحسانٌ وصدقة بالقول ، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة ، فهما نوعان من أنواع الإحسان ، والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها ، ولا ريب أنَّ حسنتين خير من حسنة باطلة .

ويدخل في المغفرة : مغفرته للسائل إذا وَجَدَ منه بعضَ الجفوة والأذى له بسبب رده ، فيكون عفوه عنه خيرًا منْ أن يتصدَّق عليه ويؤذيه. هذا على المشهور من القولين في الآية .

والقول الثاني : أن المغفرة من الله ، أي : مغفرة لكم من الله بسبب القول المعروف والرد الجميل خير من صدقة يتبعها أذى .

وفيها قول ثالث : أي مغفرة وعفو من السائل إذا رُدَّ وتعذر المسئول، خيرٌ من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى .

وأوضح الأقوال هوالأول ، ويليه الثاني ، والثالث ضعيف جدًا لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسئول لا للسائل الآخذ .

والمعنى أن قول المعروف له والتجاوز والعفو خير لك من أنْ تتصدَّق عليه وتؤذيه .

ثم خَتَم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال :﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ

حَلِيمٌ ﴾ ، وفيه معنيان : أحدهما أنَّ الله غنيٌّ عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم ، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة ، فنفعها عائدٌ عليكم لا إليه سبحانه وتعالى ، فكيف يَمنُّ بنفقته ويُؤذي مع غنى اللهالتام عنها ، وعن كلِّ ما سواه ، ومع هذا فهو حليمٌ إذْ لم يُعاجل المانَّ بالعقوبة ، وضمن هذا الوعيد والتحذير .

والمعنى الثاني : أنه سبحانه وتعالى مع غناه التام من كل وجهٍ فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح ، مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة ، فكيف يُؤذي أحدُكم بمنِّه وأذاه ، مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره !

*** [المنُّ والأذى مما يُحبط الصدقات] :-**

ثم قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] تضمنت هذه الآية الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة ، وهذا دليل على أنَّ الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢] وقد تقدم الكلام على هذه المسألة في أول هذه الرسالة فلا حاجة إلى إعادته .

وقد يقال : إنَّ المنَّ والأذى المقارن للصَّدقة هو الذي يُبطلها دون ما يلحقها بعدها ، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا التقييد ، والسياق

يدل على إبطالها به مطلقًا ، وقد يقال : تمثيله بالمُرَائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر يدل على أن المنّ والأذى المُبْطل هو المقارن كالرياء وعدم الإيمان ، فإنّ الرياء لو تأخر عن العمل لم يبطله .

ويجاب عن هذا بجوابين : أحدهما : أن التشبيه وقع في الحال التي يَحْبط بها العمل ، وهي حال المرائي والمانّ المؤذي في أن كل واحد منهما يحبط العمل .

الثاني : أنَّ الرياء لا يكون إلا مقارنًا للعمل، لأنه « فِعال » من الرؤية التي صاحبها يَعمل لِيَرَى الناسُ عمله فلا يكون متراخيًا ، وهذا خلاف المن والأذى فإنه يكون مُقارنا ومُتراخيا ، وتراخيه أكثر من مُقارنته.

وقوله : ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ﴾ إما أن يكون المعنى كإبطال الذي يُنفق فيكون قد شبَّه الإبطالَ بالإبطال ، أو المعنى : لا تكونوا كالذي يُنفق ماله رئاء الناس ، فيكون تشبيهًا للمنفق بالمنفق .

وقوله : ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي مثل هذا المنفق الذي قد بَطَلَ ثواب نفقته ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ : وهو الحَجَر الأملس ، وفيه قولان : أحدهما : أنه واحد، والثاني : جَمْع صفوة ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ :وهو الأملس الذي لا شيءَ عليه من نباتٍ ولا غيره ، وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها ، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المُنفق المُرائي ـ الذي لم يَصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر ـ بالحجر لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به .

وتضمن تشبيه ما عَلق به من أثر الصدقة بالغبار الذي عَلِقَ بذلك الحجر ، والوابلُ الذي أزال ذلك التراب عن الحجر فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها ، كما يُذْهب الوابلُ الترابَ الذي على الحجر فيتركه

صَلْدًا فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله .

وفيه معنى آخر وهو أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملاً يرتب عليه الأجر ، ويزكو له كما تزكو الحبة التي إذا بُذِرتْ في التراب الطَّيب أنبتت سبعَ سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، ولكن وراء هذا الإنفاق مانعٌ يَمنع من نموه ، وزكائه ، كما أن تحت التراب حجرا يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه فلا ينبت ولا يخرج شيئًا .

*** [مثل الذي يُنفق في سبيل الله تعالى لا يريد من الناس جزاء ولا شكوراً ولا يمنُّ ولا يؤذي] :ـ**

ثم قال : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٥] هذا مَثَلُ الذي مَصْدر نفقته على الإخلاص والصدق ، فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص ، والتَّثبت مِنَ النفس هو : الصِّدقُ في البَذْل ، فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان ، إنْ نجا منهما كان مثله ما ذكره في هذه الآية : إحداهما طلبه بنفقته محمدة أو ثناء أو غرضًا من أغراضه الدنيوية ، وهذا حال أكثر المنفقين .

والآفة الثانية : ضعفُ نفسه وتقاعسها وترددها : هل يفعل ، أم لا ؟ فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله ، والآفة الثانية تزول بالتثبيت ، فإنَّ تثبيت النفس : تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل ، وهذا هو صدقها . وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها .

فإذا كانَ مصدرُ الإنفاق عن ذلك ، كان مثله كجنة ـ وهي البستانُ الكثير الأشجار ـ فهو مجتنٌّ بها ، أي : مستتر ليس قاعًا فارغًا . والجنة بربوة ـ وهو المكان المرتفع ـ فإنها أكمل من الجنة التي بالوهاد

والحضيض ، لأنها إذا ارتفعتْ كانت بمدرجة الأهوية والرياح ، وكانت ضاحيةً للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها ، فكانت أنضجَ ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره ، فإن الثمار تزداد طيبا وزكاء بالرياح والشمس ، بخلاف الثمار التي تَنشأ في الظلال .

وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع لم يُخش عليها إلا من قلة الماء والشراب فقال تعالى : ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وهو المطرُ الشَّديد العظيم القدر فأدتْ ثمرتها ، وأعطت بركتها فأخرجت ثمرتَها ضعفي ما يُثمر غيرها أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل ، فهذا حالُ السابقين المقربين .

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فهو دون الوابل ، فهو يكفيها لكَرم منبتها، وطيبِ مغرسها فتكتفي في إخراج بركتها بالطَّل ، وهذا حال الأبرار المقتصدين في النفقة ، وهم درجات عند الله ، فأصحاب الوابل أعلاهم درجة ، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ، ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة .

وأصحاب الطَّل مقتصدوهم .

فمثَّل حال القِسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطَّل . وكما أن كل واحد من المطرين يوجب زكاء أو ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف فكذلك نفقتهم ـ كثيرة كانت أو قليلة ـ بعد أنْ صَدَرتْ عن ابتغاءِ مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم ، فهي زاكيةٌ عند الله نامية مضاعفة .

واختلف في الضِّعفين ، والصواب أن الضعفين هما المثلان فقط : الأصل ومثلـه ، وعليه يدل قـوله تعـالى : ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. أي : مِثْلين ، وقوله تعالى : ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾

[الاحزاب: ٣٠] أي مثلين ، ولهذا قال في الحسنات: ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الاحزاب: ٣١] وأما ماتوهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية فوهم منشأه ظن أن الضعف هو المثل مع الأصل ، وليس كذلك ، بل المثل له اعتباران : إن اعتبر وحده فهو ضعف ، وإن اعتبر مع نظيره فهما ضعفان والله أعلم .

واختلف في رافع قوله : ﴿فَطَلٌّ﴾ فقيل : هو مبتدأ خبره محذوف أي : وطلُّه يكفيها ، وقيل : خبر مبتدأه محذوف ، فالذي يُرويها ويصيبها طَلٌّ ، والضمير في ﴿أَصَابَهَا﴾ إما أن يرجع إلى الجنة أو إلى الربوة وهما متلازمان [١].

٣ ـ روى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « **الكَمأةُ من المنِّ ، وماؤُها شفاءٌ للعين** » [٢].

قال أبو عبيد : « الكمأة من المن » يقال ـ والله أعلم ـ إنه إنما شبهها بالمن الذي كان يَسقط على بني إسرائيل ، لأن ذلك كان يَنْزل عليهم عفواً بلا علاجٍ منهم ، إنما كانوا يصبحون وهو بأفنيتهم فيتناولونه [٣].

وكذلك « الكمأة » ليس على أحدٍ منها مؤنة في بَذْرٍ ولا سقي ولا غيره ، وإنما هو شيء يُنبته الله في الأرض حتى يصير إلى مَنْ يَجتنيه [٤].

* * *

---

(١) « طريق الهجرتين وباب السعادتين » (ص٣٦٥ ـ ٣٧٠) باختصار يسير .

(٢) سبق تخريجه قريبا .

(٣) كما قال عز وجل ممتنًّا عليهم : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

(٤) « غريب الحديث » (٢/١٧٣) .

الحَيِيُّ
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٢)

* المعنى اللغوي :

استَحْياه واستَحْيا منه ، بمعنى ، من الحَيَاء .

ويقال استَحَيتُ بياء واحدة ، وأصله استَحييتُ مثل : استَعْيَيت ، فأعلُّوا الياء الأولى وألقَوا حركتها على الحاء ،

وقال أبو الحسن الأخفش : استَحَى بياءٍ واحدة : لغة تميم ، وبياءين لغة أهل الحجاز ، وهو الأصل .

قال الأزهري : والقرآن نزل بهذه اللغة الثانية ، في قوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ [البقرة: ٢٦].

والحيا مقصورٌ : المطرُ والخصب .

والحياءُ ممدود : الاستِحْياء .

ورَجَلٌ حَيِيٌّ ذو حياء ، بوزن فَعيل .

وامرأة حَيِيَّةٌ [١].

وعرف الراغب الحياء عند المخلوق بقوله : انْقباضُ النفس عن القبائح وتركه لذلك [٢].

---

(١) « الصحاح » (٦/ ٢٣٢٤) ، و« اللسان » (٢/ ١٠٧٩ ـ ١٠٨٠) مادة (حيا) .

(٢) « المفردات » (ص ١٤٠) .

* وروده في الحديث الشريف :

١ - ورد في حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ رأى رَجلاً يغتسلُ بالبَرَازَ بلا إزار ، فصعد المنبر ، فحمدَ الله وأثنى عليه، ثم قال ﷺ : « **إنَّ الله عز وجل حَيِيٌّ ستِّيرٌ يُحبُ الحياءَ والسَّتْرَ ، فإذا اغْتَسَلَ أحدُكم فَلْيَسْتَتِرْ** »[1].

٢ - وفي حديث سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنَّ ربَّكم تبارك وتعالي حَيِيٌّ كريم ، يَستحي من عَبْدِهِ إذا رفع يَدَيه إليه أنْ يَردَّهما صِفْراً** »[2].

* وقد ورد بصيغة الفعل في الكتاب العزيز في قوله عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٦].

١ - وفي حديث أبي واقد اللَّيثي أن رسول الله ﷺ بينما هو جالسٌ في المسجد والناسُ معه إذْ أقبل ثلاثةُ نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله

(١) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود (٤/ ٤٠١٢) ، والنسائي (١/ ٢٠٠) ، والبيهقي من طريق أبي داود (١/ ١٩٨) عن النُّفيلي حدثنا زهير عن عبد الملك بن أبي سليمان العَرزمي عن عطاء عن يعلى به .

ورجاله ثقات ، عطاء هو ابن أبي رباح ، وزهير هو ابن معاوية .

وانظر بقية تخريجه في كتابنا « إبطال التأويلات » (٢/ ٤١١) .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود (٢/ ١٤٨٨) ، ومن طريقه البيهقي في « الأسماء والصفات» (ص ٩٠) ، والترمذي (٥/ ٣٥٥٦) ، وابن ماجه (٣٨٦٥) ، وصححه ابن حبان (٢٤٠٠) ، والحاكم (١/ ٤٩٧) ، والخطيب في تاريخه (٣/ ٢٣٥ - ٢٣٦) من طرقٍ عن جعفر بن ميمون عن أبي عثمان النهدي عن سلمان مرفوعًا به .

قال الذهبي في « العلو » (ص ٥٢) : هذا حديث مشهور .

وحسنه الحافظ في « الفتح » (١١/ ١٤٣) وهو كما قال .

وله طرق أخرى وشواهد يتقوى بها ، انظر : « إبطال التأويلات » الموضع السابق .

ﷺ وذهبَ واحدٌ ، قال : فوقَفَا على رسول الله ﷺ فأما أحدُهما فرأى فُرْجةً في الحَلْقَة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خَلْفهم ، وأما الثالثُ فأدْبرَ ذاهبًا ، فلما فَرغَ رسول الله ﷺ قال : « **ألا أُخبركم عن النَّفَر الثلاثة؟ أما أحدُهم فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستَحيا فاستَحيا اللهُ منه ، وأما الآخر فأعْرضَ فأعْرضَ الله عنه** »[1].

٢ ـ وفي حديث أم سلمة رضى الله عنها قالت : جاءت أم سُليم إلى النبي ﷺ فقالت : يا رســول الله ! إنَّ الله لا يَستَحيي من الحقِّ ، فهل على المرأة من غُسلٍ إذا احتلمت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **نعم إذا رأت الماء ...** »[2].

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال ابن الجوزي : الحياء بالمد : الانقباض والاحتشام ، غير أن صفات الحق عز وجل لا يُطَّلع لها على ماهية ، وإنما تُمَرُّ كما جاءت ، وقد قال النبي ﷺ : « **إن ربكم حيي كريم** »[3].

وقال ابن القيم[4]:

وهو الحَيِيُّ فليسَ يَفْضَحُ عَبْده ... عند التَّجاهــرِ منـه بالعِصْيان

لكنــه يُلْقِــي عليــه سِتْـــرهُ ... فهو السِّتِّيرُ وصاحبُ الغُفْران

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩٦٠ ـ ٩٦١) ، ومن طريقه البخاري في « العلم » (١/ ١٥٦) ، وفي «الصلاة» (١/ ٥٦٢) ، ومسلم في « السلام » (٤/ ١٧١٣) عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أن أبا مُرة مولى عقيل بن أبي طالب أخبره عن أبي واقد الليثي به .

(٢) رواه مسلم في « الحيض » (١/ ٢٥١) .

(٣) « زاد المسير » (١/ ٥٤) .

(٤) « النونية » (٢/ ٢٢٧) بشرح أحمد بن عيسى .

وقال المباركفوري : قوله : « إن الله حيي » فَعيلٌ من الحياء ، أي كثير الحياء .

ووصفه تعالى بالحياء يُحمل على ما يَليق له ، كسائرِ صفاته ، نُؤمنُ بها ولا نكيفها [1].

وذكر « الاستحياء » في صفات الله تعالى شيخ الحرمين : أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرجي في كتابه الذي سمّاه « الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزامًا لذوي البدع والفضول » وكان من أئمة الشافعية، ونقله إقرارًا له شيخ الإسلام ابن تيمية [2].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إثبات صفة الحياء لربنا تبارك وتعالى على ما يليق بجلاله وكماله، إثباتًا من غير تمثيل لها بخلقه .

قال الإمام أبو يعلى الفراء بعد أنْ ساق الأحاديث الواردة في صفة الحياء : اعلم أنه غير ممتنعٍ وَصْفُ الله تعالى بالحياء ، لا على معنى ما يُوصف به المخلوقين من الحياء الذي هو انقباضٌ وتغيُّرٌ وخَجَل ، لاستحاله كونه جسمًا متغيرًا تحلُّه الحوادث [3].

لكن نُطلق هذه الصفة كما أطْلقنا وَصفه سبحانه بالإرادة وإنْ خالفت

---

(١) « تحفة الأحوذي » (٩/٥٤٤) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (٤/١٨١) .إذْ قال في أول كلامه : وقد ذكرنا في غير هذا الجواب ، مذهب سلف الأمة وأئمتها بألفاظها وألفاظ من نقل ذلك من جميع الطوائف ، بحيث لا يبقى لاحدٍ من الطوائف اختصاص بالإثبات . ومن ذلك : ما ذكر شيخ الحرمين أبو الحسن محمد بن عبد الملك ... إلخ

(٣) الصواب الإعراض عن ذكر هذا النفي ، لعدم وروده في الكتاب أو السنة .

إرادة المخلوقين ، لأن إرادته تقتضي وجوب المراد ، وإرادتنا لا تقتضي وجوبه .

وكذلك علمه يقتضي العلم بالمعدوم والموجود خلاف علمنا[1] .

وقال الهراس : ورد في السنة وَصْفه تعالى بالحياء ، كقوله ﷺ : «**إن الله حيي يستحي من عبده إذا مدَّ يديه إليه أن يردهما صِفْرا** » . وكقوله عليه السلام في شأن النفر الثلاثة الذين وقفوا على مجلسه : « **أما أحدُهم فأقبل فأقبل الله عليه ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله عز وجل منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عز وجل عنه** » .

وحياؤُه تعالى وصفٌ يليق به ، ليس كحياء المخلوقين الذي هوَ تغير وانكسار يَعْتري الشخص عند خوفِ ما يُعاب أو يُذم ، بل هو تركُ ما ليس يتناسب مع سعةِ رحمته ، وكمالِ جوده وكرمه ، وعظيم عفوه وحلمه .

فالعبد يجاهره بالمعصية مع أنه أفقرُ شيءٍ إليه ، وأضعفه لديه ، ويستعين بنعمه على معصيته ، ولكن الربَّ سبحانه مع كمال غناه وتمام قدرته عليه ، يَستحي من هَتْكِ ستره وفضيحته ، فيستره بما يُهيؤه له من أسباب السَّتر ، ثم بعد ذلك يعفو عنه ويغفر ، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما : « **إنَّ الله عز وجل يُدْني المؤمنَ فيضع عليه كَنَفه ثم يسأله فيما بينه وبينه : ألم تفعل كذا يوم كذا ؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه ، وأيقن أنه قد هلك ، قال له : سترتُها عليك في الدنيا وأنا أغْفرها لك اليوم** » [2].

وكذلك يستحي سبحانه من ذي الشَّيبة في الإسلام أنْ يُعذبه [3].

---

(١) « إبطال التأويلات » (٢/ ٤١٢) .

(٢) الحديث في الصحيحين .

(٣) ضعيف جدا ، أخرجه ابن حبان في « المجروحين» (١/ ١٦٨)، ومن طريقه ابن الجوزي =

ويستحي ممن يدعوه ويمدُّ إليه يديه أن يردهما خاليتين .

وهو من أجل أنه حَيِيٌّ ستير : يحب أهل الحياء والسَّتر من عباده ، فمن سَتَر مسلمًا ستر اللهُ عليه في الدنيا والآخرة ، ويكره المجاهرة بالفسوق والإعلان بالفاحشة ، وإنَّ من أَمْقت الناس عنده من بات على معصيةٍ والله يَسْتره ، ثم يُصبح فيكشف ستر الله عليه .

وقد توعَّد الذين يُحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بأن لهم عذابًا أليمًا في الدنيا والآخرة [(١)].

وفي الحديث : « **كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين** » [(٢)] [(٣)].

٢ ـ أوَّلَ كثير من العلماء صفة الحياء الثابتة له سبحانه في الأحاديث الصحيحة المتقدمة : بالترك تارة وبالكراهية تارة ، وبالرحمة تارة ، وعدم

= في «الموضوعات» (١/ ١٧٧) عن سويد بن عبد العزيز عن نوح بن ذكوان عن أخيه أيوب ابن ذكوان عن الحسن عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ عن الله عز وجل : « إني لأستحي من عبدي وأَمتي يشيب رأس أمتي وعبدي في الإسلام ثم أعذبهما في النار ... » قال ابن حبان عن أيوب بن ذكوان : منكر الحديث .

وفيه أيضًا سويد بن عبد العزيز وهو ضعيف .

وله طرق أخرى ، انظر : « إبطال التأويلات » (٢/ ٤١٠ ـ ٤١١) .

(١) في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النور: ١٩] .

(٢) وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كلُّ أُمتي معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجلُ بالليل عملاً ثم يصبح وقد سَتَره الله ، فيقول : يا فلان عملتُ البارحةَ كذا وكذا ، وقد بات يستره ربُّه ويُصبح يكشف سترَ الله عنه » .

رواه البخاري في « الأدب » (١٠/ ٤٨٦) ، ومسلم في « الزهد » (٤/ ٢٢٩١) .

(٣) « شرح النونية » (٢/ ٨٠ ـ ٨١) للشيخ محمد خليل هراس رحمه الله تعالى .

العقاب والعذاب أخرى ، وكلها من لوازم الحياء .

أ ـ منهم الحليمي في قوله ﷺ : « **إنَّ الله حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً** » .

قال : ومعناه أنه يكره ! أن يردَّ العبد إذا دعاه فسأله ما لا يمتنع في الحكمة إعطاؤه إياه ، وإجابته إليه ، فهو لا يفعل ذلك ، إلا أنه لا يخاف من فعله ذمًّا ، كما يخافه الناس فيكرهون لذلك فعلَ أمورٍ وتركَ أمور ، فإنَّ الخوف غير جائز عليه [1].

ب ـ والبيهقي في قوله : « **فاستحيا فاستيحا الله منه** » قال : أي جازاه على استحيائه بأن ترك عقوبته على ذنوبه [2].

جـ ـ والنووي في قوله ﷺ : « **وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه** ... » الحديث .

قال : أي رَحِمه ولم يُعذِّبه ، بل غَفر ذنوبه .

وقيل : جازاه بالثواب [3].

د ـ والحافظ ابن حجر في الحديث نفسه قال : أي رَحِمه ولم يُعاقبه[4].

هـ ـ والأُقليشي إذْ يقول : وأما وصف الله تعالى بأنه « حيي » فوزنه فعيل من الحياء ، وهذا الوصف في حق الله تعالى مُتأوَّل !!

---

(١) نقله البيهقي عنه في « الأسماء » (ص٩١) ، والقرطبي في « الأسنى » (٢/ورقة ٤٢٢ ب) مع اختلاف في أوله .

(٢) الكتاب « الأسنى » (٢/ورقة ٤٢٣ أ) .

(٣) شرحه على مسلم (١٤/١٥٩) .

(٤) « الفتح » (١/١٥٧) ، وبنحوهما قال الراغب كما في « الذريعة » (ص ١٨٨) .

إذْ العبد هو الموصوف بالحياء ، لأنها حالة يجدها العبد في نفسه ، تَحمله على إجلال المُسْتَحْيا منه .

ولما كان الله تعالى مُتكرِّمًا على سائله ، وقاضيًا حوائج داعيه ، لا يردهم بكرمه ، وَصَفَ نفسه بالحياء الذي يُوصف به مَن كَرُمت نفسه ، وكانت له سَجِيةٌ حيِّيه ، فإنه من أوصاف المدح في الخَلْق ، وكل وصف كان للمخلوق حسنًا ، فللَّهِ منه الحظُّ الأكمل ، وإنْ كان فيه إيهامٌ فإنه في حقه متأوَّل .

وقد وَصفَ نفسه بأنه يستحي من العبد ، ووصف نفسه بأنه لا يستحيي من الحقِّ ، فحياؤه من عبده يرجع إلى قضاء حاجته ، بصفة كرمه ، وكونه لا يَستحيي من الحق يرجع إلى صفة عَدْله ، القاضية بجريان الحق على أهله ، ولكلٍّ صفةٍ مقام ، وكيف ، فكان هذا الوصف من أوصاف الأفعال ، لأنه عبارةٌ عن إظهار كرمه ، وإدْرار نِعَمه [1].

و ـ والسندي قال : « حيي » بكسر أولى الياءين مخففة ، ورفع الثانية مشددة ، أي : الله تعالى تاركٌ للقبائح ، ساتر للعيوب والفضائح ، يحب السَّتر من العبد ، ليكون مُتخلِّقًا بأخلاقه تعالى !! فهو تعريضٌ للعباد ، وحث لهم على تحري الحياء [2].

---

(١) « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٤٢٢ ب) .

وقد أوَّلَ الحياء بلوازمه : من إجابة داعيه بكرمه وإحسانه ، وحبه لجريان الحق لعدله والأصل أن تثبت الصفة لله تعالى ثم تثبت لوازمها .

(٢) حاشيته على النسائي (١/ ٢٠٠) .

وقوله : « ليكون متخلقًا بأخلاقه تعالى » . من عبارات الفلاسفة وأهل الكلام ، ولم يأت في الكتاب ولا السنة ولا في أقوال سلف الأمة القول بأن لله اخلاقًا !! وإنما له نعوت كمال ، وصفات جلال ، فتنبه ! =

وغيرهم ممن أخطأ في هذا الباب ، عفا الله عنا وعنهم بمنّه وكرمه .

٣ ـ ولما كان الله تعالى موصوفًا بالحياء ، فإنه يحبُّ أهلَه والمتَّصفين به من عباده ، كما ذكرنا سابقًا أنه تعالى عليمٌ يحبُّ العلماء ، كريمٌ يحب الكرماء ، حليم يحب الحلماء ، جميل يحب الجمال .

وقال أبو موسى رضي الله عنه : اللهم إنك مؤمنٌ تحب المؤمن، ومهيمن تحب المهيمن ، سَلامٌ تحب السَّلام ، صادقٌ تحبُّ الصادق [1].

بل قد جعله رسول الهُدى ﷺ شُعبةً من شُعب الإيمان ، وخصلةً من خصال عباد الرحمن .

فقال ﷺ : « **الإيمـانُ بِضْعٌ وستـون شُعْبةً ، والحيـاءُ شُعبةٌ من الإيمان** » [2].

ومرَّ ﷺ على رجلٍ من الأنصار وهو يَعظُ أخاه في الحياء ـ وفي رواية : يقول : إنك لتستحي حتى كأنه يقول : قد أضَرَّ بك ـ فقال

= قال ابن القيم بعد أن ذكر أن أدعية الرسل مشتملة على دعاء الله تعالى بأسمائه والثناء عليه بها : وهذه العبارة أولى من عبارة من قال : يتخلّق بأسماء الله ، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة .

وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان وهي : التَّعبد ، وأحسن منها : العبارة المطابقة للقرآن وهي : الدعاء ، المتضمن للتعبد والسؤال .

فمراتبها أربعة : أشدها إنكارًا عبارة الفلاسفة وهي التَّشبه ، وأحسن منها عبارة من قال : التخلق ، وأحسن منها عبارة من قال : التعبد ، وأحسن من الجميع : الدعاء ، وهي لفظ القرآن اهـ . « بدائع الفوائد » (١/ ١٦٤) .

(١) أثر صحيح ، رواه ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٥٩) .

(٢) رواه البخاري في « الإيمان » (١/ ٥١) ، ومسلم في « الإيمان » (١/ ٦٣) من حديث أبي هريرة وزاد فيه : « فأفضلُها : قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء ... » .

رسول الله ﷺ : « دَعْهُ ، فإن الحياء من الإيمان »[1].

وكان هو ﷺ من أشدِّ الناس حياءً ، كما وصفه أصحابه ، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : كان النبي ﷺ أشدَّ حياءً من العَذْراءِ في خِدْرِها »[2].

أي أشد حياء من البكر إذا دُخل عليها في خلوتها[3].

فإنْ قيل : الحياء من الغرائز ، فكيف جُعل شعبةً من الإيمان ؟

أجيب بأنه : قد يكون غريزةً وقد يكون تخلُّقا ، ولكن استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلمٍ ونية ، فهو من الإيمان لهذا .

ولكونه باعثًا على فعل الطاعة وحاجزًا عن فعل المعصيةِ[4].

ولا يقال : رب حياء يمنع عن قول الحق أو فعل الخير ، لأنَّ ذاك ليس شرعيا .

فإن قيل : لِمَ أفرده بالذكر هنا ؟

أجيب بأنه : كالداعي إلى باقي الشعب ، إذْ الحيي يخاف فضيحة

---

(١) رواه البخاري في « الإيمان » (١/ ٧٤) ، وفي « الأدب » (١٠/ ٥٢١) ، ومسلم في «الإيمان » (١/ ٦٣) من حديث سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في « المناقب » (٦/ ٥٦٦) ، وفي « الأدب » (١٠/ ٥١٣ ، ٥٢١) ، ومسلم في « الفضائل » (٤/ ١٨٠٩ ـ ١٨١٠) وزاد : وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه .

(٣) معنى كلام الحافظ في « الفتح » (٦/ ٥٧٧) وقال : ومحل وجود الحياء منه ﷺ في غير حدود الله ، ولهذا قال للذي اعترف بالزنا : أنكتها ، لا يكني ، كما سيأتي بيانه في الحدود انتهى . وانظر « الحدود » (١٢/ ١٣٥) .

(٤) كما ورد في تعريف الحياء أنه : خُلُقٌ يَبعث على اجتناب القبيح ، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ، « الفتح » (١/ ٥٢) .

ولهذا جاء في الحديث الآخر : « الحياء خيرٌ كله » .

الدنيا والآخرة ، فيَأْتَمر وينزجر [1].

٤ ـ اعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أن أعظمَ الحياءِ ينبغي أن يكون من الله تعالى ، الذي نتقلب في نعمه وإحسانه الليل والنهار ، ولا نستغني عنه طرفة عين ، ونحن تحت سمعه وبصره ، لا يغيب عنه من حالنا وقولنا وفعلنا شيء ، كما قال عز وجل : ﴿ **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [يونس: ٦١].

وقال بعض السلف : عَلِمتُ أن الله تعالى مطلعٌ علي فاستَحييتُ أن يراني على معصية .

وقد أحسن من قال :

وإذا خَلَوتَ بريبـةٍ في ظُلمـةٍ والنَّفسُ داعيةٌ إلى العصيان

فاستْحي من نَظَرِ الإلهِ وقُلْ لهـا إنَّ الذي خَلَقَ الظَّلام يَراني

وحكي عن بعض السلف : خفِ الله على قَدْر قدرته عليك ، واستحي منه على قَدر قربه منك [2].

قال الراغب : والذي يستحي منهم الإنسان ثلاثة :

البشر : وهو أكثر ما يستحي منه .

ثم نفسه .

ثم الله عز وجل .

---

(١) « الفتح » (١/ ٥٢) .

(٢) المصدر السابق (١/ ٧٥) .

ومن استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه ، فنفسه أخسُّ عنده من غيره .

ومن استحيا منهما ولم يستحي من الله عز وجل ، فلعدم معرفته به .

فإن الإنسان يستحي ممن يُعظمه ويَعلم أنه يراه ، ويَسمع نجواه ، ومَنْ لا يعرف الله فكيف يَسْتعظمه ؟ وكيف يعلم أنه مطلع عليه ؟

وقوله ﷺ : « **استحيوا من الله حق الحياء** »[1] في ضمنه حثٌّ على معرفته .

وقال الله عز وجل : ﴿ **أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ** ﴾ [العلق: ١٤] تنبيهًا على أن العبدَ إذا علم أن ربه يراه استحيا من ارتكاب الذنب .

وسُئل الجُنيد عما يُولِّد الحياء من الله تعالى ، فقال : رؤية العبد آلاءَ الله عليه ، ورؤية تقصيره عن شكره[2].

قال القرطبي : فيجب على كلِّ مكلف أن يستحي من خَالقه ، وذلك بأن لا يراه حيث نهاه ، وذلك أن المؤمن يقتضي تعظيم من آمن به ، فينزجر عن القبائح حياءً من نَظَره إليه ، حتى كان بعضهم لا يغتسل إلا وعليه مِئْزرٌ يستره ، ولا يقوم قائمًا منتصبًا بل يتضامُّ ما استطاع في غُسْله[3] .

---

(١) يأتي تخريجه .

(٢) « الذريعة إلى مكارم الشريعة » (ص ١٨٨ ـ ١٨٩) ط دار الكتب العلمية سنة ١٤٠٠ هـ .

(٣) كما جاء في حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : قلت : يانبي الله ! عوراتُنا ما نأتي منها وما نَذَر ؟ قال : « احفظْ عورتَك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » قلتُ : يا رسول الله ! إذا كان القوم بعضهم في بعض ؟ قال : « إنْ استطعت أن لا يَراها أحدٌ فلا يراها » قال قلت : يانبي الله ! إذا كان أحدُنا خاليا ؟ قال : « فالله أحقُّ أن يُستحيا منه » وفي رواية : « فالله أحق أن يَستحي منه الناس » . =

وكان موسى عليه السلام حَيِّيًّا ستيرا يغتسل بناحيةٍ من قومه [1].

وروى الترمذي : عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **استَحيوا من الله حقَّ الحياء** » قال فقلنا : إنا نَستحي والحمد لله ، قال : «**ليس ذاك ! ولكن الاستحياء من الله حقَّ الحياء ، أنْ تحفظَ الرأسَ وما وَعَى ، والبطنَ وما حوَى ، وتَذكرَ الموتَ والبِلَى ، ومَنْ أرادَ الآخرة تركَ زينةَ الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء** » .

قال : حديث غريب [2].

فمن كَثُر من الله حياؤه انقبضتْ نفسُه عن مجاهرتِه بالعصيان ، إذْ علمه معه في كل مكانٍ فمن عصاه فقد جاهره ، ثم مهما أفشى معصيته في الخَلْق فِعلا وقولا فقد أعظم المجاهرة ، إذْ من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله ، ولذلك كان الحياء الغريزي محموداً في العبد لكونه منقبضًا به عن مجاهرة الخَلْق فيما يُنكرونه من الفعل .

= وإسناده حسن ، رواه أحمد (٥/ ٣ ـ ٤) ، والترمذي (٢٧٦٩ ـ ٢٧٩٤) وغيرهما .

(١) أخرجه البخاري في « الأنبياء » (٦/ ٤٣٦)، وفي « التفسير » مختصراً (٨/ ٥٣٤) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلا حَيِّيا ستيرًا لا يُرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه مَن آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده : إما برص وإما أُدْرَة وإما آفة ... » الحديث .

(٢) حديث حسن ، رواه الترمذي في « صفة القيامة » (٢٤٥٨) ، وأحمد (١/ ٣٨٧) ، وأبو يعلى (٨/ ٤٦١) ، والحاكم (٤/ ٣٢٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦/ ٧٧٣٠) (٨/ ١٠٥٦١) ، والبغوي في « شرح السنة » (١٤/ ٢٣٤) وفي سنده : الصباح بن محمد الأحمسي الكوفي ، ضعيف .

لكن له طريق آخر ، رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٨٨) ، وفي « الصغير » (١/ ١٧٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٠٩) يتقوى به .

وله شاهد مرسل ، انظر تعليقنا على كتاب « الورع » لابن أبي الدنيا رقم (٥٩) .

وفي البخاري عن أبي مسعود قال : قال النبي ﷺ : « إنَّ مما أدركَ الناسُ من كلام النبوة الأُولى : إذا لم تَسْتحي فاصْنَعْ ما شئت »[1].

وعن ابن عمر مَرَّ النبي ﷺ على رَجلٍ وهو يعاتبُ في الحياء، يقول: إنَّك تستحي حتى كأنه يقول : قد أضرَّ بك ، قال رسول الله ﷺ : «دَعْه! فإن الحياءَ من الإيمان »[2][3].

٥ ـ والوقاحة مذمومةٌ بكل إنسان ، إذْ هي انْسلاخٌ من الإنسانية .

وحقيقتها : لجاج النَّفس في تعاطي القبيح .

واشتقاقه : من حافرٍ وَقَاحٌ ، أي : صُلْب .

وبهذه المناسبة قال الشاعر :

يا ليتَ لي من جِلْد وجْهك رِقْعةً فأَقُـدُّ منها حَافـرًا للأَشْهَـبِ

(١) رواه البخاري في « الأنبياء » (٦/ ٥١٥) ، وفي « الأدب » (١٠/ ٥٢٣) .

وقوله : « من كلام النبوة الأولى » أي مما اتفق عليه الأنبياء .

وقوله : « فاصنع ما شئت » هو أمر بمعنى الخبر ، أو هو للتهديد أي : اصنع ما شئت فإنَّ الله يجزيك ، أو معناه : انظر إلى ما تريد أن تفعله فإن كان مما لا يُستحى منه فافعله ، وإن كان مما يستحي منه فدعه . « الفتح » (٦/ ٥٢٣) .

وقد قال أبو عبيد في « غريب الحديث » (٣/ ٣١ ـ ٣٢) : إنما وجهه عندي أنه أراد بقوله: « إذا لم تستحي فاصنع ما شئت » إنما هو مَن لم يستحي صَنَع ما شاء ، على جهة الذَّم لترك الحياء ، ولم يُرِد بقوله: « فاصنع ما شئت » أن يأمر بذلك أمرًا ، وهذا جائز في كلام العرب أن يقول : افعل كذا وكذا ، وليس يأمره ، ولكنه أمر بمعنى الخبر ، ألم تسمع حديث النبي عليه السلام : « من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » أي : كان له مقعد من النار ، إنما هي لفظة أمرٍ على معنى الخبر وتأويل الجزاء ، وإنما يراد من الحديث أنه يحث على الحياء ويأمر به ويعيب تركه اهـ .

(٢) تقدم تخريجه قريبًا .

(٣) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٤٢٣ أ ـ ب) .

وما أصدق قول الشاعر :

صَلاَبَةُ الوجهِ لم تَغْلبْ على أحدٍ إلا تكَاملَ فيه الشَّرُّ واجْتَمَعا [1].

* * *

(١) « الذريعة » (ص ١٨٨) للراغب .

السَّتِّير

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١٣)

*** المعنى اللغوي :**

سَتَرَ الشيء يَسْتُرُه ويَسْتِرُه سَتْرًا وسَتَرًا : أخفاه .

والسَّتْرُ بالفتح : مصدر سَتَرْتُ الشيءَ أَسْتُرُه إذا غطيتُه ، فاستَتَر هو .

وتَسَتَّر أي : تغطَّى .

ورجلٌ مَسْتُورٌ وسَتِيرٌ : أي عَفِيف ، والجارية سَتِيرة .

والسِّتْر معروف : ما سُتِرَ به ، والجمع أَسْتَار وسُتُور وسُتُر . والسُّتْرُ : التُّرس .

والسُّتْرَةُ ما استَتَرتَ به من شيء كائنًا ما كان [١].

*** وروده في الحديث الشريف :**

١ ـ ورد في حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالبَراز بلا إزار ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال ﷺ : « **إنَّ الله عز وجل حَيِيٌ سِتيرٌ ، يحبُّ الحياءَ والسَّتر ، فإذا اغتسل أحدكم فَلْيَسْتَتر** » [٢].

وللستير روايتان : إحداهما : كسر السين وتشديد التاء مكسورة .

---

(١) « الصحاح » (٢/٦٧٦)، و « اللسان » (٣/١٩٣٥) ، و « المفردات » (ص ٢٢٣) ، مادة « ستر ».

(٢) سبق تخريجه .

والثانية : فتح السين وكسر التاء مخفَّفة [1].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال البيهقي : وقوله « ستير » يعني أنه سَاتِرٌ يَسْتر على عباده كثيرًا ، ولا يَفضحهم في المَشاهد .

كذلك يحبُّ من عباده السَّتْر على أنفسهم ، واجتناب ما يَشينهم ، والله أعلم [2].

وقال ابن الأثير : « إن الله حيي ستيرٌ يحب الحياء والستر » : ستير : فعيل بمعنى فاعل ، أي : من شأنه وإرادته حبُّ السَّتر والصون [3].

وقال ابن القيم [4]:

وهو الحَيِيُّ فليس يَفضحُ عَبْدَه ... عنـد التَّجاهـرِ منه بالعصْيان

لكنــه يُلْقــي عليــه سِتْــره ... فهو السِّتِّيرُ وصَاحبُ الغُفْران

وقال المُنَاوي : « ستير » بالكسر والتشديد ، أي : تاركٌ لحب القبائح ، ساتر للعيوب والفضائح ، فعيل بمعنى فاعل .

وجَعْلُه بمعنى مفعول ، أي : مستورٌ عن العيون في الدنيا ، بعيدٌ من السَّوق ، كما لا يَخفى على أهل الذَّوق [5].

---

(١) انظر حاشية سنن أبي داود (٤/ ٣٠٢) ، و« مختصر السنن » (٦/ ١٥) للحافظ المنذري بتحقيق أحمد شاكر ومحمد الفقي رحمهما الله تعالى .

(٢) « الأسماء والصفات » (ص ٩١) .

(٣) « النهاية » (٢/ ٣٤١) .

(٤) « النونية » (٢/ ٢٢٧) بشرح أحمد بن عيسى .

(٥) « فيض القدير » (٢/ ٢٢٨) .

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إن الله تعالى ستِّير يحبُّ السَّتر والصَّون ، فيستر على عباده الكثير من الذنوب والعيوب ، ويكره القبائح والفضائح والمجاهرة بها .

٢ ـ وقد أمر تبارك وتعالى بالسَّتر ، وكره المفاخرة بالمعصية ، أو مجرد محبة ذكرها وشياعها بين المؤمنين .

قال سبحانه : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [النور: ١٩].

أي : الذين يريدون ويقصدون أن تَنْتشرَ الفاحشة في أهل الإيمان وتفشو فيهم ، والفاحشة : هي الفعلة القبيحة ، قيل هي : الزنا ، وقيل: الرمي بالزنا ، ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا**﴾ مما يصيبهم من البلاء كالشلل والعمى ﴿**وَالآخِرَةِ**﴾ من عذاب النار ونحوه .

وفي الآية دليل : على أن أعمال القلب السيئة ، كالحقد والحسد ومحبة شيوع الفاحشة ، يُؤاخذ بها العبد إذا وطَّن نفسه عليها [١].

وأخبر الرسول ﷺ أن المجاهر بالمعاصي لا يُعافى منها فقال : «**كلُّ أمتي مُعافى إلا المجاهرين ، وإنَّ من المُجاهَرَة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يُصبح وقد سَتَرهُ الله فيقول : يا فلان عملتُ البارحةَ كذا وكذا ، وقد باتَ يَسْتُره ربُّه ، ويُصبح يكشفُ سترَ الله عنه**» [٢].

قال الكرماني : ومحصل الكلام : كلُّ واحدٍ من الأمة يُعفى عن ذنبه، ولا يؤاخذ به إلا الفاسق المُعْلن[٣] .

---

(١) انظر : «روح المعاني» (١٨/ ١٢٢) وغيره .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) «الفتح» (١٠/ ٤٨٦) .

وقال ابن بطَّال : في الجهر بالمعصية استخفاف بحق الله ورسوله وبصالحي المؤمنين ، وفيه ضربٌ من العناد لهم ، وفي الستر بها : السلامة من الاستخفاف ، لأن المعاصي تذل أهلها ، من إقامة الحدِّ عليه إنْ كان فيه حدٌّ ، ومن التعزير إنْ لم يوجب حداً ، وإذا تمحَّضَ حقُّ الله فهو أكرمُ الأكرمين ، ورحمته سبقت غضبه ، فلذلك إذا ستره في الدنيا، لم يفضحه في الآخرة .

والذي يُجاهر يفوته جميع ذلك [1].

٣ ـ وأما المؤمن فإنه لو وقع في معصية أو تقصير في واجب بالغ في السَّتْر على نفسه ، كما ورد عن بعض السلف : أنه خرج إلى الصلاة فاستقبله الناس خارجين من المسجد ، فغطَّى وجهه ورجع .

وجاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلا سأله : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النَّجوى ؟ قال : « **يَدْنوا أحدُكم من ربه حتى يضع كنَفَه عليه ، فيقول : عملتَ كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، ويقول : عملتَ كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، فَيُقرِّره ثم يقول : إني سَتَرتُ عليك في الدنيا ، فأنا أغفرها لك اليوم** » [2].

وفي رواية : « **فإني قد سَتَرتُها عليك في الدنيا وإني أغفِرها لك اليوم ، فيُعطى صحيفةَ حَسَناته ، وأما الكفارُ والمنافقون فَيُنَادى بهم على رُؤُوس الخلائق : هؤلاء الذين كَذَبوا على الله** » [3].

---

(١) المصدر السابق » (١٠/٤٨٧) .

(٢) رواه البخاري في « الأدب » (١٠/٤٨٦) ، وفي « التوحيد » (١٠/٤٧٥) .

(٣) رواها البخاري في « المظالم » (٥/٩٦) ، وفي « التفسير » (٨/٣٥٣) ، ومسلم في «التوبة» (٤/٢١٢٠) .

وقد جاءت البشارة بذلك للمؤمنين : أن مَنْ سَتَرَ الله عيبه في الدنيا، فإنه سيستره في الآخرة .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يَسْتُرُ اللهُ على عَبدٍ في الدنيا ، إلا ستَرَه الله يوم القيامة »[1].

٤ ـ كما حثَّ ﷺ على الستر على عباد الله ، ورغَّب في ذلك لموافقته رضى مولاه ، وصفةَ خالقه ، فقال : « ... ومَن سَتَرَ مُسْلمًا ستَرهُ اللهُ يومَ القيامة »[2].

ولما جاء رجل اليه ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني عَالجتُ امرأةً في أقصى المدينة ، وإني أصبتُ منها مادون أن أمسَّها ، فأنا هذا فاقض فيَّ ماشئت ، فقال له عمر : لقد سَتَرَكَ اللهُ ، لو سترتَ على نَفسك قال : فلم يَرُدَّ النبي ﷺ شيئًا ، فقام الرجل فانطلق ، فأَتْبعه النبي ﷺ رُجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية : ﴿وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] فقال رجلٌ من القوم : يانبي الله ، هذا له خاصة ؟ قال : « بل للناس كافة »[3].

وسكوته ﷺ على مقولة عمر دليل رضاه ومحبته لها ، إذ هو لا يُقر أحدًا على باطل كما هو معلوم .

ونهى عليه الصلاة والسلام عن تتبع عورات المسلمين والبحث عنها

---

(١) رواه مسلم في « البر والصلة والآداب » (٤/٢٠٠٢) .

(٢) رواه البخاري في «المظالم » (٥/٩٧) ، ومسلم في « البر والصلة » (٤/١٩٩٦) من حديث سالم بن عبد الله عن أبيه مرفوعًا وأوله : « المُسْلم أخو المسلم ، لا يظلمه ... » .

(٣) رواه مسلم في « التوبة » (٤/٢١١٦) من حديث عبد الله رضي الله عنه .

وكشفها ، فقال : « يا معشرَ من آمن بلسانه ولم يَدْخلِ الإيمانُ قلْبَه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تَتَّبعوا عَوراتهم ، فإنه مَن يَتَّبعْ عوراتهم ، يَتَّبع اللهُ عورته، ومَنْ يتَّبعْ عورتَه يَفْضَحْه في بيته »[1].

٥ ـ وكان من دعائه ﷺ في هذا الباب : ما حفظه ابن عمر رضي الله عنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ يَدَع هؤلاء الدعوات حين يُمسي وحين يُصبح : « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي ، اللهم استُر عوراتي وآمنْ روعاتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خَلفي ، وعن يميني وشمالي ، ومن فوقي ، وأعوذُ بعظمتك أن أُغتال من تحتي »[2].

تنبيه : جرى على ألسنة كثير من الناس اسم « ساتر » فيقولون : يا ساتر، ولم يرد هذا الاسم في سنَّة صحيحة ـ فيما أعلم ـ فينبغي أن يقال: يا ستِّير ، فتنبه!

* * *

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠ ـ ٤٢١) ، وأبو داود (٥/ ٤٨٨٠) عن الأسود بن عامر حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن سعيد بن عبد الله بن جريج عن أبي برزة الأسلمي مرفوعًا به .

وسنده حسن ، سعيد بن عبد الله صدوق ربما وهم ، قاله الحافظ .

وللحديث طرق أخرى يتقوى بها ، لبسطها موضع آخر .

(٢) حديث صحيح .

انظر تخريجه في الجزء الأول من الكتاب .

القَابِض ـ البَاسِط
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٤ ـ ١٥)

* المعنى اللغوي :

قَبَضْتُ الشيءَ قَبْضًا : أخذته .

والقَبْضُ : خلاف البسطِ .

ويقال : صار الشيءُ في قبضتك ، أي في مِلْكك .

والانْقباض : خلاف الانبساط .

والقَبْضُ أيضًا : الأخذُ بجميعِ الكفِّ ، والقَبْص : بأطراف الأصابع .

والقَبَضُ بالتحريك : ما قُبِضَ من الأموال والغنائم وغيرها .

وقُبِضَ الرجل : مات ، فهو مَقبوض [١].

وقال الراغب : فقَبْضُ اليد على الشيء جمعُها بعد تناوله .

وقَبْضها عن الشيء جمعُها قبل تناوله ، وذلك إمساكٌ عنه .

ومنه قيل لإمساك اليد عن البذل : قبضٌ .

قال تعالى : ﴿يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي : يمتنعون من الإنفاق[٢].

---

(١) « الصحاح » (٣/ ١١٠٠) ، و« اللسان » (٥/ ٣٥١٢) ، و « غريب الحديث » لأبي عبيد (٤/ ٤٦٨) ، و« اشتقاق الأسماء » للزجاجي (ص٩٧) .

(٢) « المفردات » (ص ٣٩١) .

وأما الباسط :

فالبَسْط نقيضُ القَبْضِ

وبَسَط الشيء : نَشَرَه ، وبالصاد أيضًا .

والبَسْطَةُ : السَّعةُ .

وانْبَسطَ الشيء على الأرض .

وتَبَسَّطَ في البلاد : أي سار فيها طُولاً وعرضًا .

والبِسَاط : ما يُبْسط .

والبَسَاط : الأرض الواسعة .

ورجل بَسِيط اليدين : مُنْبسِطٌ بالمعروف .

وبَسَط يده : مدَّها .

ويَدٌ بِسْطٌ أي مُطْلقةٌ .

وفي قراءة عبد الله « بل يَدَاه بِسْطانِ » أي : مبسوطتان .

وفلانٌ بَسيطُ الجسم : فيه سعة وامتداد وزيادة وطول كما في قوله تعالى عن طالوت : ﴿ **إنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ** ﴾ [البقرة: ٢٤٧][1].

وقال الراغب : وبَسْط الكفِّ يُستعمل تارةً للطلب نحو : ﴿ **كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ** ﴾ [الرعد: ١٤].

وتارةً للأخذ نحو : ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ** ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وتارةً للصَّوْلة والضرب ، قال تعالى : ﴿ **وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ** ﴾ [الممتحنة: ٢].

---

(١) « الصحاح » (١١١٦/٣) ، و« اللسان » (٢٨٢/١ ـ ٢٨٤) ، و« اشتقاق الأسماء » للزجاجي (ص٩٩) .

وتارة للبَذْل والإعطاء نحو : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] [١].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أنس رضي الله عنه قال : غَلاَ السِّعْـر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، لو سَعَّرتَ ، فقال : « **إنَّ الله هو الخَالقُ القَابِضُ الباسِط الرازِق المُسَعِّر ، وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يَطْلبني أَحَدٌ بمظْلَمةٍ ظلمتها إياه في دمٍ ولا مالٍ** » [٢].

وقد وردت فِعلاً في القرآن في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وفي أحاديث كثيرة ، كقوله ﷺ : « **إنَّ اللهَ يَبْسطُ يدَه بالليل ، ليتوبَ مُسيء النهار ، ويَبْسط يده بالنهار ليتوب ...** » [٣].

وقوله ﷺ : « **يَقْبضُ اللهُ الأرضَ يوم القيامة ويَطوي السماء بيمينه ...** » الحديث [٤].

*** معنى الاسمين في حق الله تعالى :**

قال الزجَّاجي « القابض » اسم الفاعل من قَبَضَ فهو قابض ،

---

(١) « المفردات » (ص ٤٦) .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (١٥٦/٣ ، ٢٨٦) ، وأبو داود في « البيوع » (٣٤٥١) ، والترمذي في « البيوع » أيضًا (١٣١٤) ، وابن ماجه (٢٢٠٠)، والدارمي (٢٤٩/٢) ، وابن حبان (٤٩٣٥/١١) ، وابن جرير (٣٧٢/٢) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص٨٥) ، وفي السنن (٢٩/٦) من طرقٍ عن حماد بن سلمة عن ثابت وقتادة وحميد عن أنس مرفوعًا به .

ورجاله ثقات رجال الشيخين ، سوى حماد فمن رجال مسلم .

(٣) رواه مسلم في « التوبة » (٢١١٣/٤) ، واحمد (٣٩٥/٤ ، ٤٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٤) سبق تخريجه في الكتاب .

والمفعول مقبوض ، وذلك على ضروب .

فأما في هذه الآية التي ذُكر فيها هذا الحَرْف في سورة البقرة في قوله عزّ وجل : ﴿ **وَاللَّهُ يَقْبِضُ ويَبْصُطُ** ﴾ [البقرة: ٢٤٥] فقالوا : تأويله : يُقتِّر على مَن يشاء ، ويتوسع على مَن يشاء على حسب ما يرى من المصلحة لعباده.

فالقَبضُ هاهنا : التَّقتير والتَّضييق .

والبسط : التَّوْسعة في الرزق والإكثار منه .

فالله عزَّ وجل القابضُ الباسط ، يُقتِّر على من يشاء ، ويُوسِّع على من يشاء .

ومخرجُ ذلك من اللغة ، أن أصلَ القبض : ضَمُّ الشيء المنبسط من أطرافه ، فيَقْبضه القابضُ إليه أولاً أولاً حتى يَحوزه ويجمعه والبَسط : نَشرُ الشيء المجتمع أو المنضم أو المطْوي .

فمن قُبضَ رزقُه فقد ضُيِّقَ عليه ، ومَن بُسط رزقه فقد فُسح له فيه ، ووُسِّعَ عليه .

ومن ذلك قيل : فلانٌ قَبيض ، أي : بخيل شديد كأنه لا يبسط كفَّه بخير إلى أحد ، ولا يَسمح بذلك ، وفلان باسط الكف ، وباسط الجاه، وإنما يُراد به السخاء وبذله ماله وجاهه [١].

وقال في الباسط : الباسط الفاعل من بسط يَبسط فهو باسط ، فالله عز وجل كما ذكرنا باسط رزق مَن أراد من عباده أن يوسع عليه ، ومقتر على من أراد ، كما يَرى في ذلك من المصلحة لهم ، وهو كما قال عز

---

(١) « اشتقاق الأسماء » (ص ٩٧) .

وجل : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧].

فهذه الآية قد بيَّنتْ لك معنى الباسط ، وبيَّنت أيضًا أنه عز وجل إنما يَقبض ويَبسط على حسب ما يراه عز وجل من المصلحة لعباده .

والباسط أيضًا : باسطُ الشيء الذي ليس بمفروش يَبسطه ويفرشه ، كما بَسَطَ الأرضَ للأنَام ، وبثَّ فيها أقواتهم [١].

وقال الحليمي : ومنها « الباسط » : ومعناه النَّاشر فضله على عباده، يرزق ويوسّع ويَجود ويُفضِّل ويُمكِّن ويُخوِّل ، ويُعطي أكثر مما يحتاج إليه.

قال : ومنها « القابض » : يَطوي بره ومعروفه عمن يريد ، ويُضيِّق ويُقتِّر أو يَحْرِم فيُفْقِر .

ولا ينبغي أن يُدْعى ربَّنا جل جلاله باسم : القابض ، حتى يقال معه: الباسط [٢].

وقال البيهقي : « القابض الباسط » هو الذي يوسِّع الرزق ويقتره ، يبسطه بجوده ورحمته ، ويقبضه بحكمته .

وقيل : القابض : الذي يَقبض الأرواح بالموت الذي كَتَبه على العباد.

والباسط : الذي بَسَطَ الأرواحَ في الأجساد [٣].

---

(١) « اشتقاق الأسماء » (ص ٩٩) .

(٢) « المنهاج » (١/ ٢٠٣) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٤ ـ ٦٥) ، والقرطبي في «الأسنى» (٢/ورقة ٣٥٧ أ ـ ب).

(٣) « الاعتقاد » (ص ٥٧) .

وقال الغزالي : « القابض الباسط » هو الذي يَقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات ، ويَبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة .

ويَقبض الصَّدقات من الأغنياء ، ويبسط الأرزاق للضعفاء ، ويَبْسطُ الرِّزقَ على الأغنياء حتى لا يَبقى فاقَةٌ ، ويَقبضه عن الفقراء حتى لا يَبقى طَاقة .

ويقبض القلوب فيضيقها بما يكشف لها من قلةِ مبالاته وتعاليه وجلاله ، ويبسطها بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله [1].

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « القابض » : هو الذي يمسك الرزق وغيرَه من الأشياء عن العباد بلطفه وحكِمته ، ويقبض الأرواح عند الممات [2].

وقال : في أسماء الله تعالى « الباسط » : هو الذي يَبسط الرزق لعباده ، ويُوسِّعه عليهم بجوده ورحمته ، ويَبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة [3].

وقال قوَّام السنة الأصبهاني : ومن أسماء الله تعالى « القابض الباسط » : قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] .

ومعناه : يُوسِّع الرزقَ ويُقتِّره ، يَبسطه بجُوده ، ويقبضه بعدْله ، على النَّظَر لعبده ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧][4].

---

(١) « المقصد الأسنى » (ص ٥٢) .

(٢) «النهاية » (٤/ ٦) .

(٣) المصدر السابق (١/ ١٢٧) ، ونقلهما عنه ابن منظور في « اللسان » ولم يشر إليه .

(٤) « الحجة في بيان المحجة » (١/ ١٤٠) .

وقال السعدي : « القابض الباسط » : يقبض الأرزاق والأرواح ، ويَبْسط الأرزاق والقلوب ، وذلك تَبَعٌ لحكمته ورحمته [1].

*** اقتران الاسمين :**

الأدب في هذين الاسمين ، أن يُذْكرا معًا ، لأن تمام القُدرة بذكرهما معًا .

ألا ترى أنك إذا قلت : إلى فلانٍ قبضُ أمري وبَسْطُه ، دَلاَّ بمجموعهما أنك تريد أن جميع أمرك إليه ؟

وتقول : ليس إليك من أمري بَسْطٌ ولا قبض ، ولا حَلٌّ ولا عقدٌ ، أراد ليس إليك منه شيء .

قاله الزجاج [2].

وقال الخطَّابي : قد يَحْسُنُ في مِثل هذين الاسمين أن يُقْرَن أحدُهما في الذِّكر بالآخر ، وأن يوصلَ به ليكون ذلك أنْبأ عن القُدْرة ، وأدلَّ على الحكمة ، كقوله تعالى : ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [البقرة: ٢٤٥] .

وإذا ذكرتَ القابضَ مُفردًا عن الباسط ، كنتَ كأنك قد قَصَرْتَ بالصفةِ على المنع والحرمان .

وإذا أَوْصلتَ أَحدَهما بالآخر فقد جمعت بين الصفتين ، مُنْبِئًا عن وجه الحكمة فيهما .

ثم قال :

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٥/٣٠٣) .

(٢) « تفسير أسماء الله الحسنى » (ص ٤٠) .

فالقابض الباسط : هو الذي يُوسع الرزق ويُقتِّره ، ويَبسطه بجوده ورحمته ، ويَقبضه بحكمته ، على النظر لعبده ، كقوله : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ [الشورى: ٢٧].

فإذا زاده لم يَزِدْه سَرَفًا وخَرَقًا ، وإذا نَقَصه لم ينقُصه عَدَمًا ولا بُخلا .

وقيل : القابض : هو الذي يَقبض الأرواح بالموت الذي كتبه على العباد [١].

وقال ابن القيم[٢] :

هو قابضٌ هو باسِطٌ هو خَافضٌ   هو رَافــعٌ بالعَــدْل والميـزانِ

قال الهراس في شرحه : هذه الأسماء الكريمة من الأسماء المتقابلات التي لا يجوز أن يُفردَ أحدهما عن قرينه ، ولا أنْ يُثنى على الله عز وجل بواحدٍ منها إلا مقرونًا بمقابلة ، فلا يجوز أن يُفرد القابض عن الباسط ، ولا الخافض عن الرافع ... إلخ .

قال : لأنَّ الكمال المطلق إنما يَحصل بمجموع الوصفين .

فهو سبحانه القابض الباسط ، يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات ، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة ، ويقبض الصدقات من الأغنياء ، ويَبسط الأرزاق للضعفاء ، ويبسط الرزق لمن يشاء حتى لا تبقى فَاقة ، ويَقبضه عمن يشاء حتى لا تبقى طاقة .

ويقبض القلوب فَيُضيِّقها حتى تصير حَرَجًا كأنما تصَّعَّدَ في السماء ، ويبسطها بما يُفيض عليها من معاني بِره ولُطفه وجماله ، قال تعالى :

---

(١) « شأن الدعاء » (ص ٥٨) .

(٢) «النونية » (٢/ ٢٣٦) بشرح أحمد بن عيسى .

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الانعام: ١٢٥][1].

* من آثار الإيمان بهذين الاسمين :

١ ـ إن الله تعالى هو القابض الباسط ، وهما من الطَّي والنَّشر ، والتوسعة والتضييق ، والأخذ والعطاء ، وهو يتناول أموراً كثيرة ، كما مرَّ معنا في أقوال العلماء .

قال ابن الحصار : وهذان الاسمان يختصان بمصالح الدنيا والآخرة، قال الله العظيم : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧] .

وذلك يتضمَّن قوام الخَلْق باللُّطف والخِبْرة، وحُسن التَّدبير والتقدير، والعلم بمصالح العباد في الجملة والتفاصيل ، وبحسب ذلك يُرسل الرياح ، ويُسخِّر السحاب ، فيُمطر بلداً ، ويمنع غيره ، ويُقل ويُكثر [2].

وكذلك يُصرِّف جُملة العوالم لجملة العالمين .

وقال بعض العلماء : إنَّ أعظمَ البسطِ : بَسْطُ الرحمة على القلوب حتى تَستضيءَ ، وتخرجَ من وَضَرِ الذنوب ، وهذا هو الشرح المذكور في قوله عز وجل : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الانعام: ١٢٥].

وضده المذكور في قوله : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا

(١) « النونية » بشرح الهراس رحمه الله (٢/ ١٠٤) .

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨].

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] .

فأما قوله عز وجل : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقوله : ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣].

إلى آخر المعنى ، فليس بفتحٍ عليهم ولا بسط لهم ، وإنما حقيقته : مَكْرٌ بهم ، واستدراجٌ لهم ، لحرمانٍ شاءه بهم .

كذلك ليس المذكور في قوله عز وجل : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة: ١٦].

وقوله : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣].

وما ذُكِرَ من خطيئة آدم عليه السلام ، وداود ، وبلاء أيوب عليهما السلام ، وشبه ذلك ليس بقبضٍ في الحقيقة ، لكن ذلك محنة عاجلة موصلة إلى جُوده[1] المتصل لهم في الآجل .

قال القرطبي معقبًا : قلت : وهذا من هذا العالِم إشارة إلى أنَّ ما أصابَ المؤمنَ من مِحن الدنيا نعمةٌ ، وما أصابَ الكافر من نِعَم الدنيا فتنةٌ[2].

٢ ـ وقال ابن جرير في تفسير قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. يعني تعالى ذكره بذلك : أنه الذي بيده

---

(١) في الأصل : وجوده ! ولا معنى لها .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٣٥٧ ب ـ ٣٥٨ أ) .

قَبْضُ أرزاق العباد وبسطها دون غيره ممن ادَّعى أهل الشرك به أنهم آلهة، واتخذوه ربًّا دونه يعبدونه ، وذلك نظير الخبر الذي روى عن رسول الله ﷺ ... عن أنس قال : غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ قال : فقالوا: يا رسول الله ، غَلاَ السعر فأَسْعِر لنا ، فقال رسول الله ﷺ : «إنَّ **الله الباسط القَابضُ الرازق ، وإني لأرجو أن ألقى الله ليس أحدٌ يَطْلُبني بمظلمة في نفسٍ ومال** »[1].

قال أبو جعفر : يعني بذلك ﷺ أن الغَلاءَ والرُّخصَ والسَّعةَ والضيق بيد الله دون غيره ، فكذلك قوله تعالى ذكره : ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ**﴾ يعني بقوله : ﴿ **يَقْبِضُ**﴾ يُقتِّر بقبضه الرزق عمن يشاء من خلقه ، ويعني بقوله: ﴿ **وَيَبْصُطُ**﴾ يوسع ببسطه الرزق على مَن يشاء منهم ، وإنما أراد تعالى ذكره بقيله ذلك : حثَّ عباده المؤمنين الذين قد بَسَط عليهم من فضله فوسَّع عليهم من رزقه ، على تَقْوية ذوي الإقتار منهم بماله ، ومعونته بالإنفاق عليه ، وحَمُولته على النهوض لقتال عدوه من المشركين ـ في سبيله ـ فقال تعالى ذكره : من يُقَدِّم لنفسه ذُخرًا عندي بإعطائه ضعفاء المؤمنين ، وأهل الحاجة منهم ما يستعين به على القتال في سبيلي فأضاعف له من ثوابي أضعافًا كثيرة مما أعطاه وقَوَّاه به ، فإني أنا المُوسِّع الذي قبضتُ الرزقَ عمن نَدَبْتُك إلى معونته وإعطائه ، لأبتليه بالصَّبر على ما ابْتَليته به ، والذي بَسَطتُ عليك لأمتحنك بعملك فيما بَسطتُ عليك فأنظر كيف طاعتك إياي فيه ؟ فأُجازي كلَّ واحدٍ منكما على قَدْر طاعتكما لي فيما ابْتَليتكما فيه وامتحنتكما فيه ، من غِنَى وفاقةٍ ، وسَعَةٍ وضيق ، عند رجوعكما إليَّ في آخرتكما

(١) تقدم تخريجه قريبا .

ومَصيركما إليَّ في مَعَادكما [1].

٣ ـ ثم حذَّر الله تعالى من استعمال ما بَسَطَ من الرزق في معاصيه فقال : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني تعالى ذكره بذلك : وإلى الله معادكم أيها الناس ، فاتقوا الله في أنفسكم أن تُضيِّعوا فرائضه ، وتتعدوا حدوده ، وأن يَعمل مَن بسط عليه منكم في رزقه بغير ما أَذِن له بالعمل فيه ربُّه ، وأن يحمل بالمقتر منكم فيقبض عنه رزقه اقتاره على معصيته ، والتقدم على ما نَهَاه ، فيستوجب بذلك منه ـ بمصيره إلى خالقه ـ ما لا قِبَل له به من أليم عقابه .

وكان قتادة يتأول قوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإلى التراب ترجعون [2].

٤ ـ فينبغي لمن امتن الله عليه ببسطةٍ في المال أو العلم أو الجسم أو الجاه ، أن يتفضَّلَ على عباد الله تعالى كما تفضَّل الله عليه وأحسن ، فإن هذا من شكر هذه النعم .

ويجب على من ضيق عليه في شيء من ذلك أن لا يلجأ إلا إلى القابض الباسط الذي يملك ما يتمنى ويريد ، وأن يعلم أن ذلك بعدله سبحانه وهو لا يظلم أحدًا .

قال القرطبي : فيجب على كل مكلَّفٍ أن يعتقد أن لا قابضَ ولا باسطَ إلا الله سبحانه ، هو الذي يَقبض الجميع ويبسطه ، وهو الذي يَبسطُ القلوبَ والألسنةَ والأيدي وسائر الأسباب .

فإنْ كنتَ مبسوطَ القلب بالمعارف، والحقيقة والعلوم الدينية، فابْسطْ

(١) « جامع البيان » (٢/ ٣٧٢) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٧٣) . وما ذكره عن قتادة رواه عنه بعد ذلك بسند حسن .

بساطَك، وابسطْ وجْهك، واجلسْ للناس حتى يَقتبسوا من ذلك النِّبْراس.

وإنْ كنت ذا بسطة في الجسم ، فابْسطه في العبادة التي تُفْضي بك إلى السعادة ، وفي الصَّولة على الأعداء ، بما خُوِّلتَ من المنَّة والشِّدة .

وإنْ كنت ذا بَسط في المال ، فابسطْ يدكَ بالعَطَاء ، وأزِلْ ما على مالك من الغِطَاء ، ولاَ تُوكي[1] فيوكي الله عليك ، ولا تُحْصي فيحصي اللهُ عليك.

وإنْ كنت لم تَنَلْ حظًا من هذه البَسَطات فابسط قلبكَ لأحكام ربِّك ، ولسانَك لذكره وشكره ، ويدك لبذل الواجبات عليك ، ووجهك للَخْلق، كما قال ﷺ في بَذل المعروف : « **فإن لم تَجِدْ فالْقَ أخاكَ بوجه طَلْقٍ** » ويروى « **طليق** » .

ولقد أحسنَ القائل :

بُنَيَّ إنَّ البِـرَّ شـيءٌ هَيِّـن ... وَجـهٌ طليـقٌ ولسـانٌ لَيِّـنٌ[2] .

٥ ـ ما ورد في النصوص السابقة من إثبات القبض والبسط لله تعالى، هو من الأدلة الكثيرة التي تؤيد ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من إثبات صفة « اليد » لله جل شأنه على ما يليق بذاته سبحانه من غير تمثيل، إذْ هو ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١].

وذلك أن القَبضَ والبسط قد ورد إضافتهما إلى أشياء محسوسة تُقبض باليد الحقيقية ، ولا يَصح حملها على القبض والبسط المعنوي ، كقوله جلَّ ذكره : ﴿ **وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [الزمر: ٦٧].

---

(١) من الوكاء وهو رباط القربة ، أي : لا تمنع العطاء فيمنع الله عنك عطاءه .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٣٥٨ ب) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «**يَطوي اللهُ عز وجل السماوات يوم القيامة ثم يَأخذُهنَّ بيده اليمنى ثم يقول: أنا المَلكُ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضينَ بشماله ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟** »[1].

وعن عبد الله بن مسعود قال : جاء حَبرٌ إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد ! أو يا أبا القاسم ! إن الله تعالى يُمْسِكُ السماواتِ يومَ القيامة على إصْبَع ، والأرضين على إصْبع ، والجبال والشجر على إصْبع ، والماءَ والثَّرى على إصبع ، وسائر الخَلْق على إصْبع ، ثم يهزُّهن فيقول : أنا الملك أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال الحَبر ، تَصديقًا له ، ثم قرأ : ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الزمر: ٦٧][2].

وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنَّ الله خَلَق آدمَ من قَبْضة قَبَضها من جميعِ الأرض ، فجاء بنو آدم منهم الأحمر والأسود والأبيض وبينَ ذلك ، والسَّهل والحَزْن ، والخَبيث والطَّيب** »[3].

---

(١) سبق تخريجه في الجزء الأول من الكتاب .

(٢) سبق تخريجه في الموضع السابق .

(٣) حديث صحيح ، أخرجه ابن سعد (١/ ٢٦) ، وأحمد (٤/ ٤٠٠ ، ٤٠٦) ، وأبو داود (٤٦٩٣) ، والترمذي (٥/ ٢٠٤) ، وابن جرير في تفسيره (١/ ١٧٠) ، وابن خزيمة في «التوحيد » (ص ٦٤) ، وابن حبان (٨/ ١١) وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٠٤) (٨/ ١٣٥)، والحاكم (٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢) ، والبيهقي في « الأسماء » (ص ٣٢٧ ، ٣٨٥) وفي « السنن » (٩/ ٣) من طرق عن عوف الأعرابي عن قسامة بن زهير المازني البصري عن أبي موسى الأشعري مرفوعًا به.

قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وقال الحاكم : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي . وهو كما قالوا .

وعن أبي نضرة قال : إن رجلا من أصحـــاب النبي ﷺ يقال له : أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي ، فقالوا له : ما يبكيك ؟ ألم يقل لك رسول ﷺ : « **خُذْ من شاربك ، ثم أَقِرّه حتى تلقاني**» قال : بلى ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله قَبَضَ قبضةً بيمينه وقال : هذه لهذه ولا أُبالي ، وقَبَضَ قَبْضةً أخرى بيده الأخرى جلَّ وعلا فقال: هذه لهذه ولا أُبالي ، فلا أدري في أيِّ القبضتين أنا ؟** » [1].

وغيرها من الأحاديث .

وقد بَيَّن الأمام أبو بكر بن خزيمة في كتاب « التوحيد » أن ذِكْر القبضة في الأحاديث دليل على إثبات صفة اليد لربنا سبحانه .

فقال : باب ذكر صفة آدم عليه السلام .

والبيان الشافي أنه خلقه بيده لا بنعمته ، على ما زعمت الجهمية المعطِّلة ، إذْ قالت : إن الله يقبض بنعمته ! من جميع الأرض قبضةً فيخلق منها بشراً .

وهذه السُّنَّة السادسة في إثبات اليد للخالق الباري جل وعلا .

ثم ذكر حديث أبي موسى الأشعري المتقدم [2].

وقال الشيخ الهراس معلقًا على تأويل الجهمية القبض بالنِّعمة : وهذا تأويل باطل ! فإن القبض إنما يكون باليد الحقيقية لا بالنعمة ! فإن قالوا:

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٤/١٧٦ ، ١٧٦ ـ ١٧٧) (٥/٦٨) عن حماد بن سلمة حدثنا الجريري عن أبي نضرة به .

قال الهيثمي في « المجمع » (٧/١٨٦) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

وهو كما قال .

وله طرق انظرها في « إبطال التأويلات » (١/١٧٥) .

(٢) « التوحيد » (ص ٦٣ ـ ٦٤) .

إن الباء هنا للسببية ، أي بسبب إرادته الإنعام .

قلنا لهم : وبماذا قَبَضَ ؟ فإنَّ القبض محتاجٌ إلى آلة فلا مناص لهم لو أنصفوا من أنفسهم ، إلا أنْ يعترفوا بثبوت ما صَرَّح به الكتابِ والسنة[1].

وقال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه « الرد على بشر المريسي العنيد » : وأما دعواك أيها المريسي في قول الله : ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ [المائدة: ٦٤] فزعمتَ أن تفسيرها عندك : رزقاه رزقٌ موسع ورزق مقتور ، ورزقٌ حلال ورزق حرام .

فقوله يداه عندك رزقاه ! فقد خرجت بهذا التأويل من حدِّ العربية كلها ، ومن حدِّ ما يفقهه الفقهاء ، ومن جميع لغات العرب والعجم ، فممن تلقيته ؟ وعمن رَوَيته من أهل العلم بالعربية والفارسية ؟

وإنك جئت بمحال لا يَعْقله أعجميٌ ولا عربي ، ولا نعلم أحدًا من أهلِ العلم والمعرفة سبقك إلى هذا التفسير ، فإنْ كنت صادقًا في تفسيرك هذا فأثره عن صاحب علمٍ أوصاحب عربية ، وإلا فانك مع كفرك بها من المدلسين .

وإن كان تفسيرهما عندك ما ذهبت إليه فإنه كذب محالٌ ، فضلاً عن أن يكون كفرًا ، لأنك ادعيت أن لله رزقًا موسعًا ، ورزقًا مُقتَّرا ، ثم قلت: إنَّ رزقيه جميعًا مبسوطان ، فكيف يكونا مبسوطين ، والمقتور أبدًا في كلام العرب غير مبسوط ؟ وكيف قال الله : إن كلتيهما مبسوطتان ، وأنت تزعم أن إحداهما مقتورة ؟

---

(١) المصدر السابق .

فهذا أولُ كذبك وجهالتك بالتفسير ، وقد كفانا الله ورسوله مؤُنة تفسيرك هذا بالناطق من كتابه ، وبما أخبر الله على لسان رسوله .

أما الناطق من كتابه فقوله : ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ [ص: ٧٥] . وقوله : ﴿ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله : ﴿ **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ [الفتح: ١٠].

وقوله : ﴿ **بِيَدِكَ الْخَيْرُ** ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقوله : ﴿ **وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ** ﴾ [الحديد: ٢٩].

وقوله : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ [الملك: ١].

وقوله : ﴿ **لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ [الحجرات: ١].

فهل يجوز لك أنْ تتأوَّل في جميع ما ذكرنا من كتابه أنه رزقاه ، فتقول : برزقه الخير ! وبرزقه الفضل ! وبرزقه المُلك ! ولا تقدموا بين رزق الله ورسوله !!

وأما المأثور من قول رسول الله ﷺ فقوله : « **إنَّ المُقْسطينَ على منابرَ من نورٍ عن يمين الرحمن ، وكِلتا يديه يمين** »[1].

فتفسير قول النبي ﷺ في تأويلك أيها المريسى : أنهم على منابر من نور عن رزقي الرحمن ، وكلتا رزقيه يمين !!

وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يأخُذُ الجبار سمواته وأرضه بيديه ـ وقبض كفيه أو قال يديه ـ فجعل يَقبضها ويَبْسطها ، ثم يقول : أنَا الملك ، أنَا الجبار ، أين المتكبرون** » ويميل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن شماله حتى نظرتُ إلى المنبر أسفل شيءٍ منه حتى إني لأقول:

---

(١) رواه مسلم (٣/١٤٥٨) ، وأحمد (٢/ ١٦٠) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما .

أَسَاقطٌ هو برسول الله ﷺ ؟ »[1].

فيجوز أيها المريسي أن تتأول هذا الحديث أنه يأخذ السموات والأرض برزقيه ! مَوْسُوعه ومقتوره ، وحلاله وحرامه ! وما أراك إلا وستعلم أنك تتكلم بالمُحال ، لتُغَالط بها الجهال ، وتروج عليهم الضلال. وقول النبي ﷺ : « **والذي نفسي بيده** » و « **نفس محمد بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا** ... » الحديث[2].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمنه ، ثم قال : أنا الملك أين الملوك ؟** »[3].

أفيجوز أن يطوي الله السموات بأحد رزقيه ؟ فأيهما الموسع عندك من المقتور ؟ وأيهما الحلال من الحرام ؟ لأن النبي ﷺ قال : « **كلتا يديه يمين** » .

وادعيت أنت أن أحدهما موسع والآخر مقتور .

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « **إنَّ اللهَ يَبْسطُ يده بالليل ليتوب مُسِيءُ النَّهار ، يَبسطُ يَدَه بالنهار ليتوب مُسيءُ الليل ، حتى تطلعَ الشمس من مغربها** »[4].

أَفَيجوز أن يقال: يبسط حلاله بالليل وحرامه بالنهار ليتوب المسيئان؟

فلو أنك إذْ أردت معاندة الله ورسوله ومخالفة أهل الإسلام احتججت بكلامٍ أستر عورة ، وأقل استحالة من هذا ، لكان أنجع لك في قلوب

---

(١) سبق تخريجه في الجزء الأول .

(٢) سبق تخريجه في الجزء الأول .

(٣) سبق تخريجه في الجزء الأول .

(٤) سبق تخريجه قريبًا .

الجهال ، من أنْ تأتي بشيء لايشك عاقلٌ ولا جاهل في بُطُوله واستحالته [1].

٦ ـ قد ثبت عن النبي ﷺ أنه دعا ربَّه وأثنى عليه ، بذكر قبضه وبسطه وتفرده في ذلك سبحانه .

فعن عبيد بن رفاعة الزرقي عن أبيه قال لما كان يوم أحد وانْكَفأ المشركون قال رسول الله ﷺ : « **استَوُوا حتى أُثني على ربي** » فصاروا خلفه صفوفًا فقال : « **اللهم لكَ الحمدُ كلُّه ، اللهم لا قابضَ لما بَسَطتَ ، ولا باسطَ لما قبضتَ ، ولا هاديَ لما أَضْلَلتَ ، ولا مضلَّ لمن هَدَيت ، ولا مُعطي لما منعتَ ، ولا مانعَ لما أَعطيتَ ، ولا مُقرِّبَ لما باعدت ولا مُباعدَ لما قرَّبت ، اللهم ابْسطْ علينا من بركاتك ورحمتك وفضْلك ورزقك ، اللهم إني أَسألكَ النَّعيمَ المُقيم الذي لا يَحول ولا يزول ، اللهم إني أسألك النَّعيم يوم القيامة[2] والأمنَ يومَ الخوف ، اللهم إني عائذٌ بك من شرِّ ما أَعطيتنا ، وشَرِّ ما مَنعتَ ، اللهم حبِّبْ إلينا الإيمانَ وزيِّنه في قلوبنا ، وكرِّه إلينا الكفرَ والفُسوق والعصيان ، واجْعلنا من الراشدين ، اللهم تَوفَّنا مسلمين ، وأَحْينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خَزَايا ولا مَفْتُونين ، اللهم قَاتل الكفرةَ الذين يُكَذِّبون رسلك ، ويَصدون عن سبيلك ، واجعلْ عليهم رِجْزَكَ وعَذَابك ، اللهم قاتلْ الكفرةَ الذين أُوتوا الكتاب ، إله الحقِّ** » [3].

---

(١) رد الدارمي على المريسي (ص ٣٠ ـ ٣٣) باختصار .

(٢) كذا عند البزار ، وعند أحمد : العلية ! وفي المجمع : الغلبة !

(٣) إسناده حسن ، رواه أحمد (٣/ ٤٢٤) ، والبزار (١٨٠٠ ـ زوائد) عن مروان بن معاوية حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكي عن عبيد بن رفاعة الزرقي عن أبيه مرفوعًا به .
قال البزار : لا نعلمه مرفوعًا إلا من حديث رفاعة ولا رواه عن عبيد إلا عبد الواحد (وقع في المطبوعة عبد الرحمن وهو خطـأ وهو مشهور لا بأس به روى عنه أهل العلم . =

= قلت : وهو عبد الواحد بن أيمن أبو القاسم المكي وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم : صالح الحديث ، وقال النسائي : ليس به بأس ، وهو من رجال الصحيحين .

وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والبزار واقتصر على عبيد بن رفاعة عن أبيه وهو الصحيح ، وقال اللهم قاتل كفرة أهل الكتاب ، ورجال أحمد رجال الصحيح .اهـ .

وعبيد بن رفاعة تابعي ثقة وهو من رجال الأربعة ، ومروان قال مرة : عبيد الله بن عبد الله الزرقي ، عند أحمد ، والصواب الأول والله أعلم .

السَّـيِّد
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٦)

*** المعنى اللغوي :**

سَادَ قومه يَسودُهم سيادةً وسُودَدًا وسَيْدودةً فهو سيِّدُهم ، وهم سادةٌ، تقديره : فَعَلَةٌ بالتحريك .

لأن تقدير سيد : فَعِيلٌ .

وقال أهل البصرة : تقدير سيِّد فَيْعِلٌ ، وجُمع على فَعَلَة .

والسُّؤْدُد : الشَّرَف .

قال ابن شُمَيل : السيد الذى فاق غيرَه بالعقل والمال والدَّفع والنَّفع، والمُعْطي ماله في حقوقه ، المُعين بنفسه ، فذلك السيد .

وقال عكرمة : السيِّد الذي لا يَغلبه غَضبُه .

وقال أبو خَيْرَة : سُمِّي سيدًا لأنه يَسـود سوادَ الناس ، أي : عُظْمِهم.

وقال الأصمعي : العرب تقول : السيد كلُّ مقهورٍ مغمورٍ بحلمه .

وقيل : السيد الكريم .

وقال الفراء : السَّيد المَلك ، والسَّيد الرئيس ، والسيد السَّخي ، وسيِّد العبد مولاه والأنثى من كل ذلك بالهاء ، وسيد المرأة زوجها ،

وفي التنزيل ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ [يوسف: ٢٥].

وسيدُ كل شيء أَشْرَفُه وأرفعه [١].

وقال الراغب : السَّيد : المتولِّي للسَّواد ، أي : الجماعةِ الكثيرة ، ويُنْسب إلى ذلك فيقال : سيِّد القوم ، ولا يقال : سيد الثوب وسيد الفرَس ، ويقال : ساد القومَ يَسودُهم .

ولما كان من شَرطِ المتولِّي للجماعةِ أن يكون مهذَّبَ النَّفس ، قيل لكلٍّ من كان فاضلاً في نفسه : سَيِّدٌ ، وعلى ذلك قوله : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ [آل عمران: ٣٩] وقوله : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ [يوسف: ٢٥] فسمَّى الزوج سيّدًا لسياسة زوجته ، وقوله : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا ﴾ [الأحزاب: ٦٧] أي : وُلاتَنا وسَائسِينا [٢].

*** وروده في الحديث الشريف :**

جاء في حديث مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير قال : قال أبي : انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا : أنتَ سيِّدنا ، فقال : « **السَّيدُ اللهُ تباركَ وتعالى** » قلنا : وأَفْضَلنا فضلاً وأَعْظمنا طَوْلاً ، فقال : « **قُولُوا بقولكم ، أو بعضِ قولكم ، ولا يَسْتَجرِيَنَّكم الشَّيطان** » [٣].

---

(١) « الصحاح » (٢/ ٤٩٠ ـ ٤٩١) ، و« اللسان » (٣/ ٢١٤٤ ـ ٢١٤٥) .

(٢) « الراغب » (ص ٢٤٧) .

(٣) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٤/ ٢٤ ـ ٢٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٢١١) ، وأبو داود (٥/ ٤٨٠٦) واللفظ له ، ومن طريقه البيهقي في « الأسماء » (ص ٢٢) والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧) من طرق عن مطرف به . قال الحافظ في « الفتح » (٥/ ١٧٩) : ورجاله ثقات وقد صححه غير واحد .

* **المعنى في حق الله تعالى :**

قال الخطابي : قوله « السَّيدُ الله » ويريد : أن السُّؤْدُد حقيقةً لله عز وجل ، وأن الخلقَ كلَّهم عبيدٌ له [1].

وقال الحليمي : ومنها « السيد » وهو اسمٌ لم يأت به الكتاب ، ولكنه مأثورٌ عن النبي ﷺ ، فإنه روي عنه أنه قال لوفد بني عامر : « **لا تقولوا السيد فإن السيد الله** » .

ومعناه : المحتاج إليه بالإطلاق .

فإن سيد الناس إنما هو رأسهم الذي إليه يرجعون ، وبأمره يعملون، وعن رأيه يَصْدرون ، ومن قوله يَستَهدون .

فإذا كانت الملائكةُ والإنس والجن خَلْقًا للباري جل ثناؤه ، ولم يكن بهم غُنْية عنه في بدءِ أمرهم وهو الوجود ، إذْ لو لم يوجدهم لم يوجدوا، ولا في الإبقاءِ بعد الإيجاد ، ولا في العَوَارض العارضة أثناء البقاء ، كان حقًّا له جل ثناؤه أن يكون سَيدًا ، وكان حقًّا عليهم أن يَدْعوه بهذا الاسم [2].

وقال الأزهري : وأما صفةُ الله جل ذكره بالسَّيد فمعناه : أنه مالك الخَلْق ، والخَلْق كلُّهم عبيده [3].

وقال ابن الأثير في قوله «السيد الله»: أي هو الذي تَحِقُّ له السيادةُ[4].

---

(١) « معالم السنن » بهامش مختصر السنن للمنذري (٧/ ١٧٦) .

(٢) « المنهاج » (١/ ١٩٢) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداع والاختراع له ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٢٣) .

(٣) « اللسان » (٣/ ٢١٤٤) .

(٤) « النهاية » (٢/ ٤١٧) .

وقال الأصبهاني : ومن أسمائه تعالى : « السيد » وهذا اسم لم يأتِ به الكتاب ، وإنما ورد في الخبر عن النبي ﷺ . ثم ذكر الخبر ، وذكر نحوًا من كلام الغزالي المتقدم [١].

وقال ابن القيم [٢]:

وهو الإلهُ السَّيِّـدُ الصَّمـدُ الذي صَمَدتْ إليه الخلـق بالإذْعَانِ

الكَامِلُ الأوصـاف مِن كلِّ الوُجُو هِ كمَالَهُ مـا فيه مِـن نُقْصَانِ

وقال : السيد إذا أُطلق عليه تعالى فهو بمعنى : المَالِك والمولى والربّ ، لا بالمعنى الذي يُطلق على المخلوق ، والله سبحانه وتعالى أعلم [٣].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ الله تبارك وتعالى هو السَّيد الذي قد كَمُل في سُؤْدُدِه ، والشَّريف الذي قد كمُل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عَظَمته ، والحليم الذي قد كمل في حِلْمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والجبَّار الذي قد كمل في جَبروته ، والعَالم الذي قد كمل في عِلمه ، والحكيم الذي قد كمل في حِكْمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشَّرف والسُّؤْدُد ، وهذه صفاتٌ لا تنبغي إلا له وحده لا شريك له [٤].

٢ ـ يجوز إطلاق هذا الاسم على المخلـوق ، فقد قال تعالى عن نبيه يحيى بن زكريا عليهمـا السـلام : ﴿**وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ**

(١) « الحجة في بيان المحجة » (١/ ١٥٥ ـ ١٥٦) .

(٢) « النونية » (٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) .

(٣) « الفوائد » (٣/ ٢١٣) .

(٤) روي عن ابن عباس نحوه ، انظر : آثار الإيمان بالصمد في الجزء الثاني من الكتاب .

الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] .

قال ابن الأنباري : إن قال قائل : كيف سمَّى الله عز وجل يحيى سيدًا وحصورًا ، والسَّيد هو الله ، إذْ كان مالك الخلق أجمعين ، ولا مالك لهم سواه ؟

قيل له : لم يُرِدْ بالسَّيد ههنا المالك ، وإنما أراد الرئيسَ والإمامَ في الخير ، كما تقول العرب : فلانٌ سيدنا ، أي : رئيسنا والذي نُعظِّمه[1] .

ونحوه ما جاء في حديث مطرف السابق إذْ قالوا للنبي ﷺ : أنتَ سيدنا ، فقال : « **السيد الله تبارك وتعالى** » قلنا : وأَفْضلنا فضلاً ، وأعظمنا طولا ، فقال : « **قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان** » .

قال أبو منصور الأزهري : كره النبي ﷺ أن يُمدح في وجهه ، وأحبَّ التواضع لله تعالى ، وجَعلَ السيادة للذي ساد الخلق أجمعين وليس هذا بمخالف لقوله لسعد بن معاذ حين قال لقومه الأنصار: « **قوموا إلى سيدكم** » أراد أنه أفضلكم رجلاً وأكرمكم .

وأما صفة الله جلَّ ذكره بالسيد فمعناه أنه مالكُ الخلقِ ، والخَلقُ كلُّهم عبيده .

وكذلك قوله : « **أنا سيِّدُ وَلَدِ آدم ولا فخرَ** » أراد أنه أولُ شفيعٍ وأولُ من يُفتح له بابُ الجنة ، قال ذلك إخبارًا عما أكرمه اللهُ به من الفَضل والسُّؤْدَدِ ، وتحدُّثًا بنعمة الله عنده ، وإعلامًا منه ليكونَ إيمانُهم به على حَسَبه وموجبه .

---

(١) « اللسان » (٣/ ٢١٤٥) .

ولهذا اتْبَعَه بقوله : « **ولا فخر** » أي : إنَّ هذه الفضيلة التي نلتُها كرامةٌ من الله ، لم أَنَلها من قِبَل نفسي ، ولا بَلغْتُها بقوتي فليس لي أن أَفْتَخَر بها .

وقيل في معنى قوله لهم لما قالوا له : أنت سيدنا : « **قولوا بقولكم** » أي: ادعوني نبيًّا ورسولاً كما سمَّاني الله ، ولا تُسموني سيِّدًا كما تُسمون رُؤساءَكم، فإني لست كأحدِهم ممن يَسودُكم في أسباب الدنيا [1].

وقال الخطابي : وإنما منعهم ـ فيما نرى ـ أن يَدْعوه سيدًا ، مع قوله: « **أنا سيد ولد آدم** » وقوله لبني قريظة[2] : « **قوموا إلى سيدكم** » يريد سعد بن معاذ ، من أجل أنهم قومٌ حديثٌ عهدهم بالإسلام ، وكانوا يحسبون أن السِّيادة بالنبوة كهي بأسباب الدنيا ، وكان لهم رؤساء يعظمونهم ، وينقادون لأمرهم ، ويسمونهم السادات ، فعلمهم الثناء عليه وأرشدهم إلى الأدب في ذلك فقال : « **قولوا بقولكم** » يريد : قولوا بقول أهل دينكم وملتكم ، وادعوني نبيا ورسولاً ، كما سماني الله عز وجل في كتابه فقال: ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ ﴿ **يا أيها الرسول** ﴾ ولا تُسموني سيداً كما تُسمون رؤساءَكم وعظماءكم ، ولا تجعلوني مثلهم فإني لست كأحدهم ، إذْ كانوا يَسُودنكم بأسباب الدنيا ، وأنا أَسُودكم بالنبوة والرسالة فسموني نبيا ورسولاً .

وقوله : « **بعض قولكم** » فيه حذفٌ واختصار ومعناه : دعوا بعض قولكم واتركوه ، يديد بذلك الاقتصار في المقال ، قال الشاعر :

---

(١) « المصدر السابق » (٣/ ٢١٤٤).

(٢) كذا جاء في المطبوعة وأشار المحققان إلى أنه هكذا وجد في نسختين خطيتين وصوابه : لبني الخزرج قبيلة سعد .

فبعـضَ القـول عاذِلتي فإني   سَيَكْفينـي التَّجـاربُ وانْتِسـابي

وقوله : « لا يستجرينكم الشيطان » معناه : لا يتخذنَّكم جَرِيًّا والجَرِيُّ: الوكيل ، ويقال : الأجير أيضًا [(١)].

وقال الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله تعالى :

اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر ، فمنعه قومٌ ونُقل عن مالك ، واحتجوا بأنه ﷺ لما قيل له: يا سيدنا قال: «**إنما السيد الله**».

وجوزه قومٌ واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار : « **قوموا إلى سيدكم** » وهذا أصح من الحديث الأول .

قال هؤلاء : السيد أحدُ ما يُضاف إليه ، فلا يقال لتميمي : إنه سيدُ كندة ولا يقال لمالك أنه سيد البشر ، قال : وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم !

وفي هذا نظر ، فإنَّ السيد إذا أُطلق عليه تعالى فهو بمعنى: المالك والمولى والرب لا بالمعنى الذي يطلق على المخلوق ، والله سبحانه وتعالى أعلم [(٢)].

ومما يؤيد جواز إطلاقه على المخلوق ، قوله ﷺ : « **إذا نَصَحَ العبدُ سيِّده وأحسن عبادة ربِّه ، كان له أجره مرتين** » [(٣)].

---

(١) « معالم السنن » بهامش مختصر السنن (٧/١٧٦ ـ ١٧٧) .

تنبيه : لم يثبت لفظ السيادة للنبي ﷺ في التشهد ولا في الشهادة له بالرسالة في شيء من الأحاديث ، كما استقرأ ذلك جماعة من المحققين ومنهم الحافظ ابن حجر والقاسمي . انظر : « معجم المناهي » للشيخ بكر أبو زيد (ص ١٨٩) .

(٢) « الفوائد » (٣/٢١٣) .

(٣) رواه البخاري في « العتق » (٥/١٧٧) ، ومسلم في « الإيمان » (٣/١٢٨٤) من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما .

وقوله : « **لا يَقلْ أحدُكم : أطعم ربَّك ، وَضَّئ ربك ، وليَقُل : سيدي مولاي ، ولا يَقُل أحدُكم : عبدي ، أمتي ، وليَقُل : فَتَاي وفتاتي وغُلامي** »[1].

وقول عمر رضي الله عنه : « أبو بكر سيِّدُنا ، وأعتقَ سيِّدَنا ، يعني بلالاً »[2].

وقال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر حديث « **السيد الله** » : ويمكن الجمع بأن يُحمل النهي عن ذلك على إطلاقه على غير المالك ، والإذن بإطلاقه على المالك .

وقد كان بعض أكابر العلماء يأخذ بهذا ويكره أن يخاطب أحدًا بلفظه أو كتابته بالسيد ، ويتأكَّد هذا إذا كان المخاطب غير تقي ، فعند أبي داود والمصنف في « الأدب » من حديث بريدة مرفوعًا : « **لا تقُولوا للمنافقِ سيِّدًا** » الحديث ونحوه عند الحاكم [3].

* * *

---

(١) رواه البخاري (٥/ ١٧٧) ، ومسلم في « الألفاظ من الأدب » (٤/ ١٧٦٥) من حديث همام ابن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في « فضائل الصحابة » (٧/ ٩٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٣) « الفتح » (٥/ ١٧٩) .

وحديث « لا تقولوا للمنافق ...» في سنن أبي داود (٤٩٧٧) ، والبخاري في « الأدب » (٧٦٠) وهو صحيح .

المُحْسن
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٧)

* **المعنى اللغوي :**

الحُسْنُ : نقيض القُبح ، والجمع مَحَاسِن على غير قياس ، كأنه جمع مَحْسَن .

ويقال : رجل حَسَنٌ ، وامرأة حَسَنَةٌ وحَسْناء وجمع الحَسَنَ : حِسَان .

وحسَّنتُ الشيء تَحْسينًا : زيَّنْتُه وأَحْسنتُ إليه وبه .

وروى الأزهري عن أبي الهيثم أنه قال في قوله تعالى في قصة يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي : قد أحسنَ إليَّ .

وقوله تعالى : ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٦] قيل : أراد الجنة .

وكذلك قوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

فالحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله تعالى [١].

والمحاسن في الأعمال ضد المساوئ.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] الذين يحسنون التأويل .

---

(١) وهو تفسير الرسول ﷺ للآية كما في حديث صهيب رضي الله عنه عند مسلم .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال ثعلب : هو الذي يتبع الرسول ﷺ .

والمَحاسِن : المواضعُ الحسنة من البدن ، يقال : فلانة كثيرةُ المحاسن .

ووجهه مُحَسَّنٌ : حَسَنٌ ، حَسَّنَه الله تعالى [1].

وقال الراغب : والإحسان يقال على وجهين :

أحدهما : الإنعام على الغير ، يُقال أحسَنَ إلى فلان .

والثاني : إحْسَانٌ في فعله ، وذلك إذا عَلِمَ عِلْمًا حَسَنًا ، أو عَمِل عملاً حسنا .

وعلى هذا قول أمير المؤمنين رضي الله عنه : الناسُ أبناء ما يحسنون، أي : مَنْسوبون إلى ما يَعْلمون ، وما يعملونه من الأفعال الحسنة .

قال : وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠] .

فالإحسان فوق العَدْل ، وذاك أن العَدْل هو أنْ يُعطيَ ما عليه ويأخذَ ما له ، والإحسانُ أن يُعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقلَّ مما له .

فالإحسان زائدٌ على العدْل ، فتحري العدل واجبٌ ، وتحري الإحسان نَدْبٌ وتطوُّعٌ ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقوله : ﴿ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ولذلك عظَّم الله تعالى ثوابَ المحسنين فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ

---

(١) « الصحاح » (٥/٢٠٩٩) ، و« اللسان » (٢/٨٧٧ ـ ٨٧٩) .

الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩][1].

وقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾ [التوبة: ٩١].

﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ**﴾ [الزمر: ١٠][2].

*** وروده في الحديث الشريف:**

١ـ ورد في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **إذا حكَمتُم فاعْدلوا، وإذا قُلتم فأَحْسِنوا، فإن الله محسنٌ يحبُ الإحْسان** »[3].

٢ـ وورد في حديث شدَّاد بن أوس قال: حفظت من رسول الله ﷺ اثنتين أنه قال: « **إن الله عز وجل مُحْسنٌ يُحبُّ الإحسان، فإذا قتلتم فأحْسنُوا القتْلةَ، وإذا ذَبَحتُم فأحسنوا الذَّبْحِ، وليُحِدَّ أحدُكم شَفْرتَه ثم لِيُرِحْ ذَبيحتَه** »[4].

---

(١) في المطبوعة: « إن الله مع المحسنين » وهو خطأ!.

(٢) « المفردات » (ص ١١٩).

(٣) سنده حسن، رواه ابن أبي عاصم في « الديات » (ص ٥٦)، وابن عدي في « الكامل » (٦/٢١٤٥)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان » (٢/٢١٣) من طرق عن محمد بن بلال التمار ثنا عمران القطان عن قتادة عن أنس به.

عمران القطان هو ابن داور قال أحمد: أرجوه أن يكون صالح الحديث، وقال أبو داود: هو من أصحاب الحسن وما سمعت إلا خيرًا، وقال النسائي: ضعيف، وقال الحافظ: صدوق يهم.

ومحمد بن بلال ذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به. وقال الحافظ: صدوق يغرب.

والحديث ذكره الألباني في « الصحيحة » (٤٧٠).

(٤) صحيح، رواه عبد الرزاق في مصنفه (٨٦٠٣)، ومن طريقه الطبراني في « الكبير » =

* المعنى في حق الله تعالى :

قال القرطبي : المحسن جل جلاله وتقدست أسماؤه ، لم يرد في القرآن اسمًا ، وإنما ورد فعلاً ، فقال : ﴿ وَقَدْ أَحْسَن بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِن السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ومعناه راجع إلى معنى المُفضلِ وذي الفَضل والمنَّان والوهَّاب[١] .

وقال : المُحْسن اسم فاعل من أحسن ، ولا خفاءَ بإحسان الله تعالى إلى خَلْقه ، ومَنِّه عليهم بما غَمَرهم من الإحْسان والفَضل والجود والإنعام [٢].

وقال ابن العربي : وأما مُحسن ومُجْمل ومفضل ، فلم يرد بها توقيف[٣] ولكنها ألفاظ كريمة المعاني ولا يسمَّى إلا بما سمَّى به نفسه ، أكثر من أن الفعل منها قد جاء ، والتصريف لها قد ورَدَ ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وجاء في الحديث « جميل » وقيل أنه بمعنى : مُجمل .

وجاء : ذو الفضل العظيم [٤].

= (٧/ ٧١٢١) عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن شداد به .

ورجاله ثقات رجال الشيخين ، سوى أبي الأشعث الصنعاني واسمه شراحيل بن آدة فمن رجال مسلم .

وأصله في صحيح مسلم ، فقد رواه (٣/ ١٥٤٨) عن إسماعيل بن علية عن خالد الحذَّاء عن أبي قلابة به ، بلفظ : « إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة ... » الحديث .

(١) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٤١٤ أ) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ورقة ٤١٤ب) .

(٣) كذا قال ! وقد مرَّ معك ثبوت الحديث في « المحسن » .

(٤) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٤١٤ أ) .

وقال المُناوي في قوله ﷺ : « **إن الله تعالى محسن** » أي : الإحسان له وصفٌ لازمٌ لا يخلو موجودٌ عن إحسانه طَرْفَةَ عين ، فلابدَّ لكل مُكوَّن من إحسانه إليه بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد [1].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ ربنا تبارك وتعالى هو المُحسنٌ الذي غَمرَ الخلق جميعًا بإحسانه وفضله ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ، لاغنىً لهم عنه طرفة عين، ولا قيام لهم ولا بقاء إلا به سبحانه وبجوده وإنعامه ، ولو غفل عن ذلك الغافلون، وجَحَد به الجاحدون، وأعْرض عن شكره العاصون .

وللأُقليشي توسع جميل في بيان الجود والفضل والإحسان وأنواعه على الخلق ، إذْ يقول : وذلك ينحصر في ثلاثة أقسام : قاعدة وواسطة ومُتممة.

● أما القاعدة : فتشتمل من الإحسان والمن على ثلاث شعب :

الأولى : إخراجه من عدمٍ إلى وجود ، بمقتضى صفة الكرم والجود، وقد ذكَّره بهذا في مَعرض الامتنان ،فقال جل وعز : ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾ [الإنسان: ١].

الشُعبة الثانية : بعد خلقه تصويره في صورة آدم ، وهي أحسنُ صورِ العالَم ، وقد امتنَّ عليه بذلك في قوله : ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٤] إلى غير ذلك من الآي المتكرره في هذا النوع .

الشعبة الثالثة : جَعْلُه إياه عاقلاً لا معتُوها ولا سفيها حتى يمتاز من البهائم ، وقد ذكَّره بهذا الثَّناء فقال : ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ**﴾ [الإنسان: ٣].

وقال : ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ [البلد: ١٠].

---

(١) « فيض القدير » (٢/ ٢٦٤) .

وقال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

إلى غير ذلك من هذه الأمثلة .

● وأما الواسطة فهي للقسمين رابطة ، ويشتمل من الإحسان والإنعام والمنِّ على ستِ شُعَب :

الأولى : هدايته إياه للإسلام .

وهذا أعظمُ الإحسان والإنعام ، وهو المراد بما ذكر في القرآن من الهدي والنور ، والشَّرح للصدور ، وغير ذلك من هذا النوع[1] .

الثانية : إحسانه إليه أن جَعَله من أُمةِ محمد عليه السلام : خير الأنبياء وخير الأمم ، وعلى هذا نبّه بقوله : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي : كنتم في الغيب حتى خرجتم إلى الوجود علي وفاق العلم .

الثالثة : إحْسانه إليه بأن حفِظ كتابه العظيم حتى يكون مُعبِّرًا عن كلام ربه بلسانه ، وراغبًا إليه بجنابه ، وهذا من أعظم إحسانه ، وقد قال ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] أنه القرآن .

الرابعة : عَلَّمه بعد حفظه من معانيه ، ومن شريعة نبيه ، ومن حقائق علمه أثرًا ونظرًا ، وقد قال تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

---

(١) قال القرطبي هنا : قلت : ومن هذا المعنى ما روي عن وهب بن منبه قال : رؤس النعم ثلاثة : فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمةٌ إلا بها . والثانية : نعمة العافية التي لا تطيبُ الحياةُ إلا بها . والثالثة : نعمة الغِني التي لا يتم العيشُ إلا بها .

الخامسة : ما أحسنَ به إليه ، وأنعم عليه من : العمل بما عَلم ، وهذا هو ثمرةُ العلم ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

السادسة : إحسانه إليه وتوفيقه حتى يَنْشرَ ما علم في عباده ، ويكون نور بلاده ، يُستَضاءُ بسِراجه ، ويُقْتَفَى واضحَ منهاجه ، وبهذا يَستحقُّ أن يُدْعى عظيمًا في مَلكوت السماء ، ويكونَ من أشرافِ العلماء الوارثين للأنبياء .

● وأما المتمِّمة : فهو ما أنعمَ به عليه ، وأحسنَ إليه ، من إظهارِ عَوارف ، وإدْرار لطائف ، شرفَ بها نوعَه ، وأكمل بها وَصْفه ، ويشتمل على أربع شُعبٍ :

الأول : ما أنعمَ به عليه : من كمال الصُّورة ، واعتدال الخِلْقة ، وفصاحة اللسان ، وسلامة الهيئة من تشوهٍ ، ونقصِ عضوٍ ، ولحوقِ خَلَلٍ ، حتى يبقى صحيحًا سليما ، ويسلك من طاعة الله طريقًا قويمًا ، وتستحْسنُ الأبصار والبصائر صورتَه ، ولا تمج الطباع خلقته ، وهذه نعمة من الله عليه ، وهي مَوهبةٌ وخصوصية .

الثانية : ما أنعم به عليه : من انْتظامِ الحال ، واتِّساعِ المال ، حتى لا يحتاج إلى أحدٍ من الخلق في اكتساب الرزق ، ويحتاج إليه غيره فيعُمهم خيره ، وهذه نعمةٌ يجب شكرها ، إذْ ليس كل أحدٍ يُعطاها .

الثالثة : ما أنعمَ به عليه : من عصبَةٍ وعَشيرة وأصحابٍ وأتباع ، تألَّفت قلوبهم على محبته واصطفائه ، وقاموا جُنَّةً بينه وبين أعداءه ، فلم يطرقه من الأعداء طارق ، بل عاش في أمنٍ من جميع الخلائق ، يُنْظر إليه بعَين الإجْلال والوقار ، وتقضى حوائجه في قطره وفي جميع

الأقطار، ويثني عليه الحاضر ، ويفخر بذكره الأعاصر .

الرابعة : ما يُنعمُ به عليه : من المرأة الصالحة الموافقة ، فتسكن إليها نفسه ، ويتم له بها أُنْسه ، ويكْثر منها نَسْله حتى يكونَ من ذُريَّته في أمة محمد ﷺ عَدَدٌ وَافر ، وكلُّهم لله موحدٌ ، ولآلائه ذاكرٌ شاكر ، فَيَشْتَدُّ بهم في الدنيا أَزْره ، ويحبط بهم في الآخر وِزْره .

قلت (أي القرطبي) : وشعبة خامسة : وهي ما أنعمَ عليه من صحة الجسم ، وفَراغ البال ، قال ﷺ : « **نعْمتان مَغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ** » خرجه البخاري [(١)(٢)].

٢ ـ ذكرنا مراراً أن الله تعالى يحب من خلقه التعبد بمعاني أسمائه وصفاته ، فهو عليم يحب العلماء ، جميل يحب الجمال ، محسنٌ يحب الإحسان ، ولذا كتب الإحسان على كل شيء حتى في القتل والذبح [(٣)].

قال سبحانه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [المائدة: ١٣].

والإحْسان نوعان : إحسانٌ في عبادة الله تعالى وهو « أن تعبد الله تعالى كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » كما جاء في حديث جبريل عليه السلام المشهور .

وإحسان إلى عباد الله تعالى، وذلك بإيصال جميع أنواع الخير لهم، وكليهما قد وعده الله تعالى بالثواب فقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [التوبة: ١٢٠].

قال ابن القيم رحمه الله في بيان أسباب شرح الصدر : ومنها :

---

(١) البخاري في أول « الرقاق » (١١/ ٢٢٩) .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٤١٤ ب ـ ٤١٦أ) .

(٣) فأمر الرسول ﷺ بأن تحدَّ الشفرة وتُشحذ لئلا تؤذي الذبيحة ، وأن لا يكون ذلك أمامها ، وأن يريح ذبيحته فلا يربط قوائمها .. يسوقها سوقًا جميلا .

الإحسان إلى الخَلق ونفعُهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن ، وأنواع الإحسان ، فإن الكريم المحسنَ أشرحُ الناس صدرًا ، وأطيبهم نفسًا ، وأنعمهم قلبًا ، والبخيلُ الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عَيشًا ، وأعظمُهم همّا وغما .

وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلاً للبخيل والمتصدِّق ، كمثل رجلين عليهما جُنَّتان من حديد ، كلَّما همَّ المتصدِّق بصدقة اتَّسعت عليه وانبسطت حتى يَجُرَّ ثيابه ويُعْفي أثَره ، وكلما همَّ البخيل بالصدقة ، لَزِمَتْ كلُّ حَلَقةٍ مكانها ، ولم تتَّسع عليه [1].

فهذا مَثَلُ انشراح صدر المؤمن المتصدِّق ، وانفساح قلبه ، ومثلُ ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه [2].

٣ـ ومن أعظم الإحسان إلى الخلق : تعليمهم ما ينفعهم في دينهم ، ويكون سببًا في نجاتهم في الدنيا والآخرة ، من علوم الكتاب والسنة وفقه السلف، وإرشادهم إلى طرق الخيرات والقربات، وتحذيرهم مسالك الشرِّ والهلكات، وهي وظيفة الرسل وأتباع الرسل، وبهذا كانوا أعظمَ الناس إحسانًا إلى الخلق ، ولهم عليهم من المنة والفضل مالا يُؤدى شكره .

قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

❋ ❋ ❋

---

(١) هو معنى حديث أخرجه البخاري في مواضع أولها في « الزكاة » (٣/٣٠٥) ، ومسلم في «الزكاة» (٢/٧٠٨ ـ ٧٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) « زاد المعاد » (٢/٢٥ ـ ٢٦) .

الفهـــــــــــــارس

* فهـرس أطراف الحديث .

* فهرس المواضيع .

فهرس أطراف الحديث

حرف الباء

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
حرف الياء		
يا أهل القرآن أوتروا	علي	٤٩ ، ٥٠
يا أيها الناس إن الله طيب	أبو هريرة	٢٧
يا عائشة إن الله رفيق	عائشة	٨
يا محمد أو يا أبا القاسم إن الله يمسك	ابن مسعود	١٣٤
يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا	عبد الله بن زيد	٨٧
يا معشر من آمن بلسانه	أبوبرزة الأسلمي	١٢٠
يحسب ما خانوك وعصوك	عائشة	٧٠ ـ ٧١
يحشر الناس يوم القيامة عراة	عبدالله بن أنيس	٦٧
يطوي الله عز وجل السماوات	ابن عمر	١٣٤، ١٣٧
يقبض الله الأرض يوم القيامة	أبو هريرة	١٤٣ ، ١٣٨

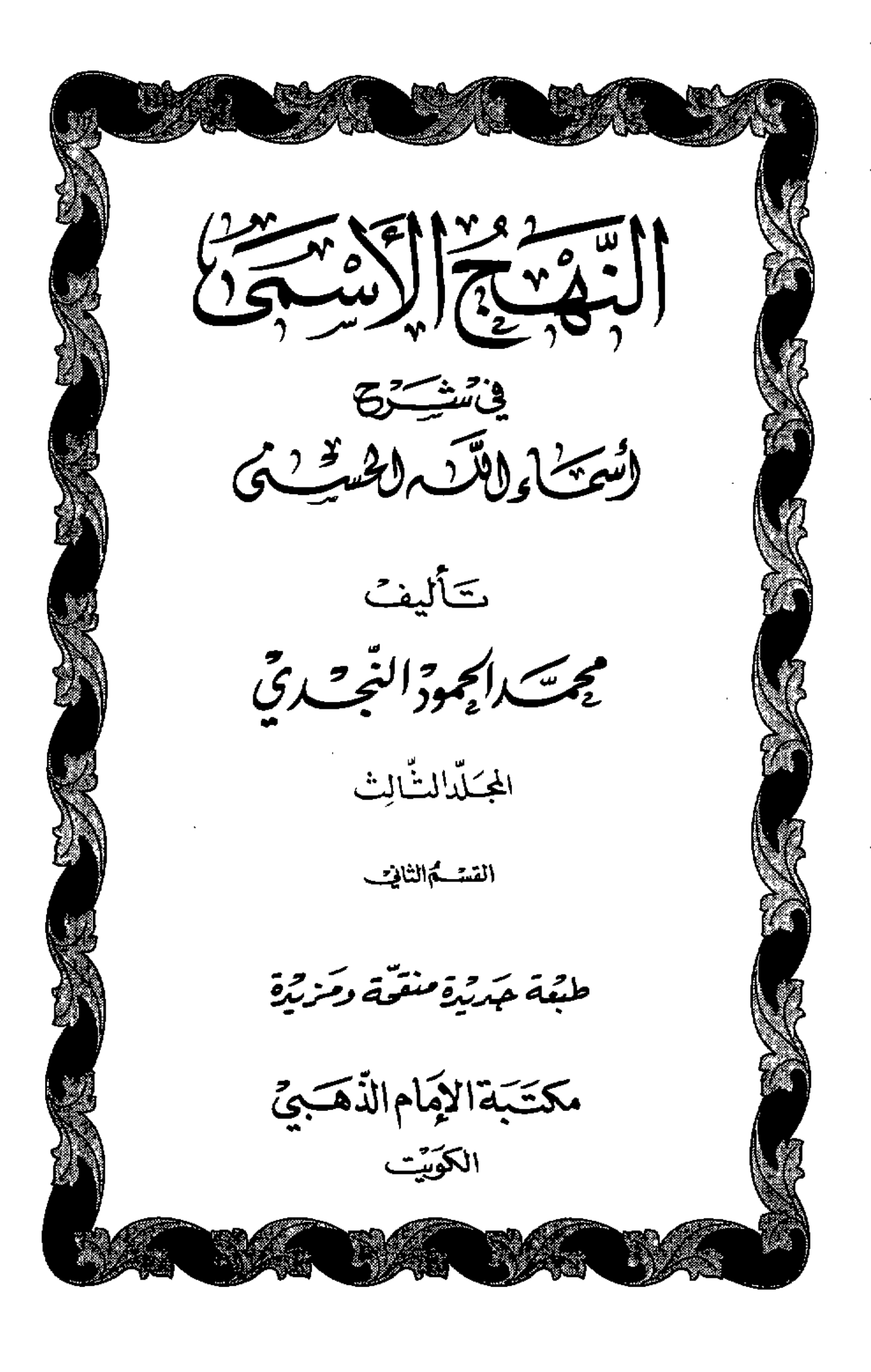
فهرس المواضيع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



النهج الأسمى

في شرح أسماء الله الحسنى

تأليف

محمد الحمود النجدي

المجلد الثالث

القسم الثاني

طبعة جديدة منقحة ومزيدة

مكتبة الإمام الذهبي

الكويت


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

أما بعد :

فهذا القسم الثاني من كتابنا « النهج الأسْمى في شرح أسماء الله الحسنى» وهو الأسماء الحسنى الثابتة لله جل شأنه في حديث رسوله الأمين ﷺ ، شاء الله تعالى أن يتأخر عن القسم الأول هذه المدة ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فنحمده عز وجل حمدًا كثيرًا طيبًا كما يحب ويرضى على ما وفّق ويَسَّر لكتابة هذا الجزء ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

والسنة هي المصدر الثاني الـذي يجب الرجوع إليه ، والتعويل عليه بعد كتاب الله عز وجل في هذا الباب وغيره من أبواب العقيدة والشريعة ، قـال تعـالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

والحكمة : السُّنَّة.

وقال ﷺ : « **ألا إني أُوتيتُ الكتاب ومثله معه ...** »[1].

قال الإمام أحمد رحمه الله : « لا يُوصف الله إلا بما وَصَفَ به نفسه، أو وَصَفه به رسول ﷺ ، لا يُتَجاوز القرآنُ والحديث» [2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « ومن الإيمان بالله : الإيمانُ بما وَصَفَ به نفسَه في كتابه العزيز، وبما وَصَفَه به رسوله محمد ﷺ من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل» [3].

ثم قال بعد أن ذكر جملة طيبة من آيات الأسماء والصفات :

« ثم في سُنَّة رسول الله ﷺ ، فالسُّنَّةُ تُفسِّر القرآن وتُبيِّنه، وتدلُّ عليه، وتُعبِّر عنه، وما وَصفَ الرسول ﷺ به ربَّه عز وجل من الأحاديث الصِّحاح، التي تلقَّاها أهلُ المعرفة بالقبول، وجَبَ الإيمان بها كذلك»[4].

فمن تمام بحثنا ذكر ما ورد في السُّنة من الأسماء الحسنى.

ومن نهجنا فيه أننا لا نُثبت فيه اسمًا من الأسماء الحسنى إلا بحديث صحيح أو حسن ، لأن أسماءَه تعالى توقيفيةٌ كما قررنا قواعد السلف في الأسماء في أول الكتاب ، والأحاديث الضعيفة لا تصلح لذلك الإثبات وقد وردت بعض الأسماء في أحاديث صحيحة ، لكني ترددت في إدخالها في أسماء الله تعالى ، خشية أن تكون قد أُريد بها الإخبار لا

---

(١) حديث صحيح ، رواه أحمد (٤/ ١٣١) ، وأبو داود في «السنة» (٤٦٠٤) عن حريز بن عثمان عن عبد الرحمن بن أبي عوف عن المقدام بن معد يكرب مرفوعًا به .

وإسناده صحيح

وله طرق أخرى عند الترمذي (٢٦٦٤ـ شاكر) ، وابن ماجة في المقدمة (١٢).

وشاهد عند الترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٣) من حديث ابي رافع.

(٢) «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٢٦) .

(٣) « الواسطية» (ص ٦٥) ط دار الهجرة .

(٤) المصدر السابق (ص١٦١) .

التسمية ، وباب الأخبار أوسع من باب الأسماء ، كما مرَّ معنا في أول الكتاب في كلام ابن القيم رحمه الله تعالى وغيره .

مثل : « الطَّبيب » و « المسَعِّر » وغيرهما .

وقد رجعت إلى مصادر جديدة في شرح الأسماء ، وهي مصادر حديثية كـ « غريب الحديث » لأبي عبيد القاسم بن سلاَّم الهروي ، و«غريب الحديث » لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة خطيب السُّنَّة، و « غريب الحديث » لأبي إسحاق الحربي ، و « النهاية في غريب الحديث والأثر » لأبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير وغيرها ، بالإضافة إلى المصادر التي اعتمدناها سابقًا في القسم الأول .

ونسأل الله تعالى أن ينفع به وأن يجعل له القبول وأن يكون خالصا لوجهه سبحان وتعالى .

ولا يفوتني أن أشكر صاحب مكتبة الذهبي الأخ الفاضل / بدر الفيلكاوي على حرصه على هذا الكتاب وخروجه بهذه الحلة البهية بقسميه الأول والثاني فجزاه الله خيراً .

اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، وتب علينا إنك أنت التَّواب الرحيم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتبه

محمد الحمود النَّجدي

في الكويت صبيحة الجمعة لسبع عشرة

خلت من ربيع الأول سنة ١٤١٧هـ .

الرَّفِيقُ
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١)

* **المعنى اللغوي :**

الرِّفقُ ضد العنف .

رفق بالأمر وله وعليه ، يَرفُق رِفْقا : لَطَفَ ، وكذلك : تَرفَّق به .

قال الليث : الرِّفق لين الجانب ولطافةُ الفعل .

والرفيق : المُرافِق ، والجمع : الرُّفقاء .

وقال ابن الأعرابي : رَفَقَ : انتظر .

والرفيق ضد الأخرق .

والرِّفق والمِرفَق والمَرفِقُ والمَرفَقُ : ما استُعين به ، وقد ترفَّق به وارتَفَق ، وفي التنزيل ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: ١٦][١].

* **وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « **يا عائشة ! إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ ، ويُعطي على الرِّفقِ مالايُعْطي على العُنْف ، ومالا يُعطي على مَا سِواه** »[٢].

---

(١) « اللسان » (٣/ ١٦٩٤ ـ ١٦٩٦) ، « الصحاح » (٤/ ١٤٨٢) .

(٢) رواه مسلم في « البر » (٤/ ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤) من طريق عمرة بنت عبد الرحمن عنها .

وله طرق أخرى من حديث علي بن أبي طالب وأنس وأبي هريرة وعبد الله بن مغفل رضي الله عنهم ، انظرها في «إبطال التأويلات» (٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨) للقاضي أبي يعلى بتحقيقنا.

وعنها رضي الله عنها قالت : لما مرضَ النبي ﷺ المرضَ الذي مات فيه جعل يقول : « **في الرفيق الأعلى** » وفي رواية : أنه رفع يده أو إصبعه ثم قال : « **في الرفيق الأعلى** » ثلاثًا ثم قَضَى ...[1].

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال القرطبي بعد أن بيَّن المعنى اللغوي للاسم : ولله تعالى من ذلك ما يليق بجلاله سبحانه .

فهو الرفيق : أي الكثير الرفق ، وهوِ اللِّين والتسهيل ، وضده العنف و التَّشديد و التَّصعيب .

وقد يجيء الرفق بمعنى : الإرفاق ، وهو إعطاء ما يرتفق به ، وهو قول أبي زيد .

---

(١) رواه البخاري في « المغازي » (٨/١٣٦ ، ١٣٨) ، ومسلم (٤/١٧٢٢) بلفظ : « مع الرفيق الأعلى » .

قال الحافظ ابن حجر : وزعم بعض المغاربة أنه يحتمل أن يراد بالرفيق الأعلى الله عز وجل لأنه من أسمائه ... ثم ذكر حديث مسلم السابق ... قال : والرفيق يحتمل أن يكون صفة ذات كالحكيم ، أو صفة فعل ، قال : ويحتمل أن يراد به حضرة القدس ، ويحتمل أن يراد به الجماعة المذكورن في آية النساء ، ومعنى كونهم رفيقًا : تعاونهم على طاعة الله، وارتفاق بعضهم ببعض ، وهذا الثالث هو المعتمد ، وعليه اقتصر أكثر الشراح ، وقد غلَّط الأزهرى القول الأول ، ولا وجه لتغليطه من الجهة التي غلطه بها وهو قوله : «مع الرفيق » أو « في الرفيق » ، لأن تأويله على ما يليق بالله سائغ اهـ .

وفي « اللسان » (٣/١٦٩٦) : وقال شَمِرٌ في حديث عائشة : فوجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجرى ... قال أبو عدنان : قوله في الدعاء : « اللهم ألحقني بالرفيق الأعلى » سمعت أبا الفهد الباهلي يقول : إنه تبارك وتعالى رَفيقٌ وَفيق ، فكأن معناه : ألحقني بالرفيق أي بالله ، يقال : الله رفيق بعباده من الرفق والرَّأفة ، فهو فعيل بمعنى فاعل . ثم ذكر قول أبي منصور الأزهري الذي أشار إليه الحافظ آنفًا .

وكلاهما صحيحٌ في حقِّ الله تعالى .

إذْ هو الميسر والمُسهِّل لأسباب الخير كلها ، والمعطي لها وأعظمها: تيسير القرآن للحفظ ، ولولا ما قال ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر: ١٧] ما قَدِرَ على حفظه أحد ، فلا تيسير إلا بتيسيره ، ولا منفعةَ إلا بإعطائه وتقديره .

وقد يجئ الرفق أيضًا بمعنى : التَّمهل في الأمور والتأني فيها ، يقال منه : وقفتُ الدابة ارفقها رفقًا ، إذا شَدَدت عَضُدها بحبلٍ لتبطئ في مشيها .

وعلى هذا يكون « الرفيق » في حق الله تعالى بمعنى « الحليم » فإنه لا يعجل بعقوبة العُصاة ليتوب مَن سَبَقَتْ له العناية ، ويَزداد إثمًا من سبقتْ له الشقاوة .

وقال الخطابي : قوله : « إن الله رفيق » معناه : ليس بعجول ، وإنما يعجل من يخاف الفوت ، فأما من كانت الأشياء في قبضته وملكه فليس يعجل فيها [1].

وقال النووي : وأما قوله ﷺ : « إن الله رفيقٌ » ففيه تصريح بتسميته سبحانه وتعالى ووصفه برفيق . قال المازري : لا يُوصف الله سبحانه وتعالى إلا بما سمى به نفسه أو سمّاه به رسول الله ﷺ أو أجمعت الأمة عليه ، وأما ما لم يرد إذن في إطلاقه ، ولا ورد منعٌ في وصف الله تعالى به ففيه خلاف : منهم من قال يبقى على ما كان قبل ورود الشرع ، فلا يوصف بحل ولا حرمة ، ومنهم من منعه .

قال : وللأصوليين المتأخرين خلافٌ في تسمية الله تعالى بما ثبت

(١) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٤٢٩ ، أ ـ ب)

عن النبي ﷺ بخبر الآحاد ، فقال بعض حذاق الأشعرية : يجوز ، لأن خبر الواحد عنده يقتضي العمل ، وهذا عنده من باب العمليات لكنه يمنع إثبات أسمائه تعالى بالأقيسة الشرعية ، وإنْ كانت يعمل بها في المسائل الفقهية ، وقال بعض متأخريهم : يمنع ذلك ! فمن أجاز ذلك فَهِمَ مِن مسالك الصحابة قبولهم ذلك في مثل هذا ، ومَن منع لم يُسلم ذلك ، ولم يثبت عنده إجماعٌ فيه فبقي على المنع .

قال المازري : فإطلاق رفيق إن لم يثبت بغير هذا الحديث الآحاد ، جرى في جواز استعماله الخلاف الذي ذكرنا ، قال : ويحتمل أن يكون صفة فعل ، وهي : ما يخلقه الله تعالى من الرفق لعباده . هذا آخر كلام المازري .

قال النووي : والصحيح جواز تسمية الله تعالى رفيقًا وغيره مما ثبت بخبر الواحد ، وقد قدَّمنا هذا واضحًا في كتاب الإيمان في حديث « **إن الله جميل يحب الجمال** » في « باب تحريم الكبر » وذكرنا أنه اختيار إمام الحرمين [1].

وقال ابن القيم في « النونية » [2]:

وهو الرفيقُ يُحبُّ أهل الرفقِ	يُعطيهم بالرِّفقِ فوقَ أمَانِ

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- أن الله تعالى موصوف بالرفق ، وهو من صفاته ، إما صفةُ ذاتٍ

---

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/١٤٥ ـ ١٤٦) . وما قاله النووي هو الحق الذي لا مرية في ، فإن التفريق في الاحتجاج بالمتواتر دون الآحاد في العقيدة ، بدعة اعتزالية لم يعرفها سلف الأمة رضوان الله عليهم .

(٢) « النونية » بشرح أحمد بن عيسى (٢/٢٢٩) .

أو صفة فعل ، وقد نقل إجماع الأمة على ذلك الإمام أبو يعلى الفراء ، وقال : لأنهم يقولون : يا رفيق ارفُقْ بنا في أحكامك [1].

٢- ورفقه سبحانه وتعالى بعباده يظهر في رأفته ورحمته بهم شرعًا وقدرًا ، وهو مالا يحصى ولا يعد [2].

٣- ومن رفقه سبحانه بعباده إمهاله للعصاه منهم ليتوبوا إليه ، ولو شاء لعاجلهم بالعقوبة ، لكنه رفق بهم وتأنى ، ليحصل لهم ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، فله الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا كما يحب ويرضى [3].

٤- وهو سبحانه وتعالى رفيق يحب الرفق وأهله ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف ، قيل : من الثواب ، وقيل : يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده [4].

وقد حث الرسول ﷺ على استعماله حتى مع الأعداء أحيانا ، وقد بوب الإمام البخاري في « صحيحه » : « باب الرفق في الأمر كلِّه » ، وأورد فيه حديث عائشة رضي الله عنها قالت : دخل رهطٌ من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السَّامُ عليكم ، قالت عائشة : ففهمتُها فقلت : وعليكم السَّامُ واللعنة ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : « **مهلاً يا عائشة ، إنَّ الله يحبُّ الرفقَ في الأمرِ كله** » ، فقلت : يا رسول الله ، أولم تسمعْ ماقالوا؟ قال رسول الله ﷺ : « **قد قلت وعليكم** » [5].

---

(١) « إبطال التأويلات لأخبار الصفات » (٢/٤٦٧) .

(٢) انظر مظاهر رحمته تعالى في « الرحمن ـ الرحيم » .

(٣) انظر الكلام على اسمه « الحليم » .

(٤) انظر « الفتح » (١٠/٤٤٩) .

(٥) المصدر السابق ، وانظر ما فيه من الفوائد الأخرى في « الاستئذان » (١١/٤٣).

وعنها أيضًا رضي الله عنها : عن النبي ﷺ قال : « **إنَّ الرفقَ لا يكون في شيء إلا زَانَه ، ولا يُنْزَعُ من شيءٍ إلا شَانَه** »[1].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**مَنْ يُحْرَمِ الرفقَ يُحْرَمِ الخير** »[2].

قال القرطبي : فينبغي لكل مسلم أن يكون رفيقًا في أموره ، وجميع أحواله ، غير عَجِلٍ فيها ، فإن العَجَلَة من الشيطان ، ولا تُفارقُهُ الخيبةُ والخُسْران ، وقال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس : « **إنَّ فيك لخَصْلَتين يُحبُّهما الله : الحِلْم والأناة** »[3].

* * *

---

(١) رواه مسلم في « البر » (٤/٢٠٠٤) .

(٢) المصدر السابق (٤/٢٠٠٣) .

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١/٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

السبُّوح
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٢)

* **المعنى اللغوي :**

التسبيح : التنزيه .

قال الأزهري : وسبحان الله : معناه تنزيهًا لله من الصاحبة والولد .

وقيل : تنزيه الله تعالى عن كلِّ مالا ينبغي أن يُوصف به .

ونَصْبُهُ أنه في موضع فعلٍ على معنى تسبيحًا له ، تقول : سبَّحت الله تسبيحًا له ، أي : نَزَّهته تنزيها [١].

قال ثعلب : كلُّ اسم على « فعُّول » فهو مفتوح الأول ، إلا السُّبُّوح والقدوس فإن الضَّم فيهما أكثر .

وقال سيبويه : ليس في الكلام فُعُّول بواحدة [٢].

وقال الأزهري : وسائر الأسماء تجيء على فَعُّول ، مثل : سَفُّود وقَفُّور وقبور وما أشبهها .

قال : والفتح فيهما « أى السبوح والقدوس » أقيس ، والضم أكثر استعمالاً وهما من أبنية المبالغة والمراد بهما التنزيه [٣].

---

(١) « لسان العرب » (٣/ ١٩١٤) ، و« الصحاح » (١/ ٣٧٢) .

(٢) « الصحاح » (١/ ٣٧٢) .

(٣) « اللسان » (٣/ ١٩١٥) ، وانظر « النهاية » لابن الأثير (٢/ ٣٣٢) .

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده : « **سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، ربُّ الملائكةِ والروح** »[١].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال أبو إسحاق الزجاج : السُّبوح : الذي ينزه عن كل سوء[٢].

وقال ابن سيده : سبوحٌ قدوس من صفة الله عز وجل ، لأنه يُسَبَّح ويُقدَّس[٣].

وقال الحليمي : السُّبوح : ومعناه المنزه عن المعائب ، والصفات التي تعتور المحدثين من ناحية الحدث ، والتسبيح : التنزيه[٤].

وقال النووي : وقال ابن فارس والزَّبيدي وغيرهما : سبُّوحٌ هو الله عز وجل ، فالمراد بالسُّبوح القدُّوس : المُسَبَّح المُقدس ، فكأنه قال : مسبحٌ مقدس ربُّ الملائكة والروح ، ومعنى سبوح : المبرأ من النقائص والشريك ، وكل ما لا يليق بالإلهية ، وقدوس : المطهر من كل ما لا يليق بالخالق[٥].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله تبارك وتعالى منزه عن كلِّ عيب ونقص وسوء ، فله الكمال

---

(١) رواه مسلم في « الصلاة » (١/ ٣٥٣) ، وأبو داود (٨٧٢) ، والنسائي (٢/ ٢٢٤) .

(٢) « اللسان » (٣/ ١٩١٥) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) « المنهاج في شعب الإيمان » (١/ ١٩٧) وذكره في الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى ، ونقله البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٣٧) .

(٥) مسلم بشرح النووي (٤/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥) .

المطلق سبحانه وتعالى [1].

٢- الله جل شأنه يسبحه من في السموات ومن في الأرض ، بمختلف اللغات ، وأنواع الأصوات ، قال سبحانه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

قال أبو إسحاق الزجاج : قيل إن كلاً ما خلق الله يُسبِّح بحمده ، وإن صَرير السقف وصرير الباب من التسبيح ، فيكون على هذا الخطاب للمشركين وحدهم ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وجائز أن يكون تسبيح هذه الأشياء بما الله به أعلمُ لا نفقهُ منه إلا ما عُلِّمناه .

قال : وقال قوم : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي ما من دابة إلا وفيه دليل أن الله عز وجل خالقه ، وأن خالقه حكيم مبرأٌ من الأسْواء، ولكنكم أيها الكفار لا تفقهون أثر الصنعة في هذه المخلوقات !

قال أبو إسحاق : وليس هذا بشيء لأن الذين خُوطبوا بهذا كانوا مُقرِّين أن الله خالقهم وخالق السماء والأرض ومن فيهن ، فكيف يجهلون الخِلْقة وهم عارفون بها ؟[2].

قال الأزهري : ومما يدلك على أن تسبيح هذه المخلوقات تسبيح تَعبَّدتْ به قولُ الله عز وجل للجبال ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبا: ١٠] ومعنى ﴿أَوِّبِي﴾ : سبحي مع داود النهار كلَّه إلى الليل ، ولا يجوز أن يكون معنى أمر الله عز وجل للجبال بالتأويب إلا تعبداً لها .

وكذلك قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي

---

(١) انظر مبحث التنزيه عند أهل السنة في الكلام على القدوس .

(٢) « اللسان » (٣/ ١٩١٥) .

﴿الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] فسجود هذه المخلوقات عبادة منها لخالقها لا نفقهها عنها كما لا نفقه تسبيحها .

وكذلك قوله : ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] ، وقد علم الله هبوطها من خشيته ولم يُعرِّفنا ذلك فنحن نؤمن بما أُعْلِمنا ، ولا ندعي بما لا نُكلَّف بأفهامنا من علم فعلها كيفيةً نحدُّها [١].

وهو كلام نفيس جار على مذهب السلف من إجراء النصوص على ظاهرها والبعد عن التأويل والتكلف المذمومين .

وقد ذهب إلى هذا ابن جرير الطبري رحمه الله ، فقال في تفسير ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ : وما من شيء من خلقه إلا يسبح بحمده .

واستدل لصحة ذلك بما رواه جابر عن النبي ﷺ قال : « **ألا أخبركم بشيء أمر به نوحٌ ابنه ، إن نوحًا قال لابنه : يابني آمرك أن تقول : سبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة الخلق وتسبيح الحق ، وبها ترزق الخلق ، قال الله : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾** » [٢].

---

(١) المصدر السابق .

(٢) « تفسير ابن جرير » (١٥/٦٥) ، وفيه موسى بن عبيدة وهو الربذي وفيه ضعف .

وهو حديث صحيح ، فقد رواه أحمد (٢/١٦٩ ـ ١٧٠ ، ٢٢٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٥٤٨) ، والحاكم (١/٤٨ ـ ٤٩) وصححه وافقه الذهبي ، والبيهقي في «الأسماء» (ص ١٠٣) من حديث ابن عمرو ، وإسناده صحيح .

ورواه البزار (٣٠٦٩) من حديث ابن عمر ، وفيه عنعنة ابن إسحاق .

٣- كان الرسول ﷺ يذكر هذا الاسم في ركوعه وسجوده ، داعيًا ربه عز وجل به ، كما مر معنا في الحديث السابق .

❋ ❋ ❋

الشَّافي
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٣)

*** المعنى اللغوي :**

الشِّفاء : البُرْءُ من المرض .

يقال : شفاهُ الله يَشفيه شفاءً .

والشِّفاء أيضا : ما يُبْرئُ من المرض.

يقال : أَشْفاهُ الله عَسَلاً ، إذا جعله له شفاءً ، حكاه أبو عبيدة.

واستَشْفى : طلب الشِّفاء ، ونال الشفاء أيضا [١].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث عائشة رضي الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ كان إذا أتى مريضًا أو أُتيَ به إليه قال عليه الصلاة والسلام : « **أذْهب الباس ، ربَّ الناس ، اشْفِ وأنتَ الشافي، لاشفاءَ إلا شِفاؤُك ، شفاءً لايُغَادِرُ سَقَمًا** » [٢].

---

(١) « اللسان » (٤/ ٢٢٩٤ ـ ٢٢٩٥) .

(٢) رواه البخاري في « المرضى » (١٠/ ١٣١ ، ٢٠٦ ، ٢١٠) ، ومسلم في « السلام » (٤/ ١٧٢٢).

قوله : « لا يغادر سقما » : أي لا يترك ، وفائدة التقييد بذلك أنه قد يحصل الشفاء من ذلك المرض فيخلفه مرضٌ آخر يتولد منه ، فكان يدعو له بالشفاء المطلق ، لا بمطلق الشفاء . « الفتح » (١٠/ ١٣١) .

وقد ورد في القرآن فعلاً ، في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] .

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال الحليمي : قد يجوز أن يقال في الدعاء : يا شافي يا كافي ، لأن الله عز وجل يشفي الصدور عن الشُّبه والشكوك ، ومن الحسد والغلول ، والأبدان من الأمراض والآفات ، لا يقدر على ذلك غيره ، ولا يُدْعى بهذا الاسم سواه .

ومعنى الشفاء : رفع ما يُؤذي أو يؤلم من البدن [1].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١- الله تبارك اسمه هو الشافي الحقيقي لكل آفةوعاهة ومرض بدني أو نفسي ، فقوله ﷺ في الحديث « اشف أنت الشافي » دليل على أن الشافي على الإطلاق هو الله وحده جل شأنه .

قال القرطبي : فيجب على كل مكلف أن يعتقد ألا شافي على الإطلاق إلا الله وحده ، وقد بيَّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله « لا شافي إلا أنت » فيعتقد الشفاء له وبه ومنه ، وأن الأدويةَ المستعملة لا تُوجب شفاءً، وإنما هي أسباب وأوساط يَخلق الله عندها فعله[2] وهي الصحة

---

(١) « الأسماء » للبيهقي (ص ٩٠) .

(٢) هذا بناء على مذهب الأشاعرة ، فانهم أنكروا أن يكون شيء يؤثر في شيء ، وأنكروا « باء السببية » ! وقالوا : إن الأسباب علاقات لا موجبات ، فيقولون : إذا كسر الإنسان زجاجة فإنها ما انكسرت بكسره وإنما انكسرت عند كسره !

قالالشيخ محمد العثيمين حفظه الله تعالى: انقسم الناس في الأسباب إلى طرفين ووسط، =

التي لا يخلقها أحدٌ سواه فكيف ينسبها [1] إلى جمادٍ من الأدوية أو سواها ، ولو شاء ربُّك لخلق الشفاء دون سبب ، ولكن لما كانت الدنيا دار أسباب جرت السنة فيها بمقتضى الحكمة ، على تعليق الأحكام بالأسباب ، وإلى هذا أشار جبريل ﷺ وإياه أوضح بقوله لرسوله ﷺ : « بسم الله أرقيك ، اللهُ يشفيك » فبيّن أن الرقية منه ، وهي سببٌ لخلق الله وهو الشفاء [2].

٢ ـ فمنه تعالى شفاء النفوس من أسقامها ، والأبدان من أمراضها ، فأنزل القرآن العظيم شفاء لعباده ورحمة ، كما قال سبحانه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ

= فطرف من الناس غلا في إثبات الأسباب حتى جعلها مؤثرة بنفسها وأنكر ما يخرج عن سنة الأسباب ، ومن الناس مَنْ فَرَّط فيها ولم يجعل لها أثرًا في مسبباتها ، وقال: إن المُسَبَّب يحدث عند السبب لا بالسبب ، وكلا القولين خطأ ، فإنَّ من المعلوم ـ بالحس والعقل ـ أن الحجر إذا رُميَ على زجاجة انكسرت به ، وان الورق إذا أُلقى في النار احترق بها ، ولا أحدُ ينكر ذلك ، ومن قال : إنه احترق عند إلقائه في النار لا بالنار، أو أن الزجاجة انكسرت عند ملامسة الحجر لا بالحجر ! فقد أبعد النُّجعة ، ولكن نقول : إن الزجاجة انكسرت بالحجر ؛ لأن الله تعالى جعل هذه الصدمة سببًا للكسر ، والورقة احترقت بالنار، لأن الله جعل النار محرقة . ولهذا إذا أراد اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يتخلَّف المُسَبَّبُ عن السبب تخلَّف ، فها هو إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أُلقِيَ في النار العظيمة التي اضرمها قومه المكذبون له ليحرقوه فقال الله تعالى للنار : ﴿كوني بردا وسلاما على إبراهيم﴾ فكانت بردًا وسلامًا عليه ولم يحترق بها ، وهذا دليلٌ على أن الله تعالى هو الذي يودع في الأسباب ما يجعلها مؤثرة . وأما من قال : إن الأسباب مؤثرة بذاتها ، وإنه لا يمكن أن يتخلَّف المسَبَّب عن السبب فقوله ـ أيضًا ـ خطأ ، فإن هذا يستلزم إنكار خوارق العادات التي يجريها الله تعالى على غير الأسباب العادية ، ولا احد عنده علم بالسمع أو عقل راجح إلا أنكر هذا القول . انتهى من « احكام من القرآن الكريم » (ص ١٧٥ ـ ١٧٦) .

(١) كلمة لم أستطع قراءتها لسواد في المصورة .

(٢) « الكتاب الأسنى » (ورقة ٤٢٢ ب) .

الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

قال الإمام الطبري : يقول تعالى ذكره : وننزل عليك يا محمد من القرآن ما هو شفاءٌ يُستشفى به من الجهل من الضلالة ، ويُبصَّرُ به من العمى ، للمؤمنين ، ورحمة لهم دون الكافرين به ، لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله ، ويحلُّون حلاله ويحرِّمون حرامه فيدخلهم بذلك الجنة ، ويُنجيِّهم من عذابه ، فهو لهم رحمةٌ ونعمة من الله ، أنعم بها عليهم .

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ يقول : ولا يزيد هذا الذي نُنزل عليك من القرآن الكافرين به إلا خسارًا ، يقول : إهلاكًا ، لأنهم كلما نَزَل فيه أمرٌ من الله بشيء أو نهي عن شيء كفروا به ، فلم يأتمروا لأمره، ولم ينتهوا عما نهاهم عنه ، فزادهم ذلك خسارًا إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسار ، ورجْسًا إلى رجسهم قبل [١].

وأما الأبدان فإنه تعالى أنزل الداء وأنزل الدواء ، علَمه مَن علمه وجهله من جهله ، كما قال ﷺ : **« ما أَنزلَ اللهُ داءً إلا أنزلَ له شفاء »** [٢].

وقال أيضًا : **« لكلِّ داءٍ دواءٌ ، فإذا أُصيبَ دواءُ الدَّاء برأ بإذن الله عز وجل »** [٣].

وقال : **« إن الله عز وجل لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً ، عَلِمه من عَلِمه، وجهله مَن جهله »** [٤].

---

(١) « تفسير الطبري » (٥/ ٦٢) تهذيب بشار عواد وعصام فارس .

(٢) رواه البخاري في « الطب » (١٠/ ١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه مسلم في « السلام » (٤/ ١٧٢٩) من حديث جابر رضي الله عنه .

(٤) رواه أحمد (١/ ٣٧٧ ، ٤١٣ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٥٣) ، والحميدي (٩٠) ، وابن ماجه =

قال الحافظ ابن حجر بعد سياقه لطائفة من الأحاديث في الباب : وفي مجموع هذه الألفاظ ما يُعرف منه المراد بالإنزال في حديث الباب ، وهو : إنزال علم ذلك على لسان المَلَك للنبي ﷺ مثلاً ، أو عبَّر بالإنزال عن التقدير ، وفيها التقييد بالحلال فلا يجوز التداوي بالحرام .

وفي حديث جابر منها الإشارة إلى أن الشفاء متوقف على الإصابة بإذن ، وذلك أن الدواء قد يحصل معه مجاوزة الحد في الكيفية أو الكمية فلا ينجع ، بل ربما أحدث داءً آخر ، وفي حديث ابن مسعود الإشارة إلى أن بعض الأدوية لا يعلمها كل أحد ، وفيها كلها إثبات الأسباب ، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله وتقديره ، وأنها لا تنجع بذواتها بل بما قدَّره الله تعالى فيها ، وأن الدواء قد ينقلب داءً إذا قدَّر الله ذلك ، وإليه الإشارة بقوله في حديث جابر « بإذن الله » فمدار ذلك كله على تقدير الله وإرادته .

والتداوي لا يُنافي التوكل كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب ، وكذلك تجنب المهلكات والدعاء بطلب العافية ودفع المضار وغير ذلك [1].

* * *

= (٣٤٣٨) ، وابن حبان (٦٠٦٢) ، والحاكم (٤/١٩٦ـ ١٩٧) من طرق عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن مسعود به . وهو حديث صحيح .

(١) « الفتح » (١٠/١٣٥) .

الطَّيِّبُ

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٤)

*** المعنى اللغوي :**

الطَّيب خلاف الخبيث .

وتتسع معانيه فيقال : أرضٌ طيبة : للتي تصلح للنبات ، وريح طيبة : إذا كانت لينةً ليست بشديدةٍ ، وطُعْمةٌ طيبة : إذا كانت حلالاً ، وامرأةٌ طيبة : إذا كانت حَصَانًا عفيفة ، وكلمة طيبة : إذا لم يكن فيها مكروه ، وبلدة طيبة : أي آمنة كثيرة الخير ، ونكهة طيبة : إذا لم يكن فيها نتن ، ونفس طيبة : إذا كانت بما قُدِّر لها راضية .

وقد يرد الطَّيب بمعنى : الطَّاهر ، ومنه حديث علي رضي الله عنه قال : لما غسّل النبي ﷺ ذهب يَلْتمس منه ما يَلتمس من الميت فلم يجده ، فقال : بأبي الطَّيِّبُ ، طِبتَ حيًّا وطبت ميِّتا »[1].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« أيها الناسُ ، إنَّ الله طيِّبٌ ولا يَقْبلُ إلا طيبًا ، وإن الله أَمَرَ المؤمنين بما أمر به**

---

(١) حديث صحيح ، رواه ابن ماجه (١٤٦٧) .

وانظر : « الصحاح » (١/١٧٣) ، و« لسان العرب » (٤/٢٧٣١) ، و « النهاية في غريب الحديث » (٣/١٤٨) .

المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١] **وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾** [البقرة: ١٧٢] **ثم ذكر الرجل يُطيلُ السفر أشعثَ أغبر ، يمدُّ يديه إلى السماء ، يا ربِّ يارب ، ومطعمُهُ حرام ، ومَشربه حرام ، ومَلبسه حرام وغُذِّي بالحرام ، فأنَّى يُستجاب لذلك »** [1].

*** المعنى في حق الله تعالى :**

قال القاضي عياض : الطيِّب في صفة الله تعالى بمعنى : المُنزَّه عن النقائص ، وهو بمعنى القدوس ، وأصل الطيب : الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث [2].

وفي تحفة الأحوذي : ومعنى الحديث أنه تعالى منزهٌ عن العيوب ، فلا يَقبل ولا ينبغي أن يُتقرَّب إليه إلا بما يناسبه في هذا المعنى ، وهو خيار أموالكم الحلال [3].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ـ إن الله تعالى يوصف بالطِّيبِ ، والتَّنزه عن الخُبث والنقائص والعيوب .

كما قدمنا في الكلام على القدوس .

٢ـ وأنه سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ولا يصعد إليه من الأقوال والأعمال ، ولا ينبغي أن يتقرب إليه العباد إلا بالطيب من ذلك .

---

(١) رواه مسلم في « الزكاة » (٢/ ٧٠٣) .

(٢) « شرح مسلم » (٧/ ١٠٠) للنووي، وبنحوه في « إكمال إكمال المعلّم » للأبيّ (٣/ ٤٧٧).

(٣) (٨/ ٣٣٤) .

قال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧] .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ تصدَّق بعَدْل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل اللهُ إلا الطيب ـ فإن الله يتقبَّلها بيمينه ثم يُربيها لصاحبها كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّه ، حتى تكون مثل الجبل » (١).

فلا يقبل الله تعالى الصَّدقة بالحرام، لأنه تصرفٌ فيما لا يملك ، فمن تصدَّق من ربا أو سرقة أو غلولٌ فإن الله تعالى لا يقبله ، كما قال ﷺ : « لا تُقبلُ صلاةٌ بغير طُهور ، ولا صدقةٌ من غُلُول » (٢).

وكذلك كل الأقوال والأعمال لا يقبل الله عز وجل منها إلا الطيب الصالح ، قال عز وجل : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] .

والكلم الطيب قيل هو : لا إله إلا الله ، وقيل : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وقيل هو : القرآن .

والمختار أنه كل كلام هو ذكر الله تعالى ، أو هو لله سبحانه كالنصيحة والعلم (٣).

وفي حديث التشهد : « التحيَّاتُ لله والصَّلَواتُ والطَّيِّباتُ ... » (٤).

(١) رواه البخاري في « الزكاة » (٣/٢٧٨) ، وفي « التوحيد » (١٣/٤١٥) ، ومسلم في «الزكاة» (٢/٧٠٢) .

(٢) رواه مسلم في « الطهارة » (١/٢٠٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . والغلول : الخيانة ، وأصله السرقة من مال الغنيمة قبل القسمة .

(٣) انظر : « روح المعاني » للألوسي (٢٢/١٧٤) .

(٤) رواه مسلم في « الصلاة » (١/٣٠١ ـ ٣٠٣) من حديث عبد الله رضي الله عنه .

أي : أن التحيات والصلوات والكلمات الطيبات مستحقةٌ لله تعالى ، ولا تصلح غيرها له سبحان وتعالى .

٣ـ وكذا الطَّيبون أهل الإيمان به عز وجل ومن اتبع رضوانه وعَمَر قلبه بمحبته ، فإنهم لا يُحبون إلا الطَّيب من القول ، ولا يتكلمون إلا بالحَسَن من الكلام ، كما قال الله تعالى في وصفهم : ﴿ **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ [النور: ٢٦] .

قال مجاهد وابن جبير وأكثر المفسرين : المعنى : الكلماتُ الخبيثاتُ ـ من القول ـ للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، وكذا الكلمات الطَّيبات من القول للطَّيبين من الناس، والطَّيبون من الناس للطيبات من القول [١].

وقيل المعنى : الخَبيثاتُ من النساء للخبيثين من الرجال ، وكذا الطَّيبات للطيبين [٢].

٤ ـ وأخبر عز وجل أنه يهدي أهل الجنة للكلمات الطيبة ، ويحفظ لسانهم عن الخبيث من القول ، فقال سبحانه : ﴿ **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ** ﴾ [الحج: ٢٤] .

فإنهم كما جاء في الحديث الصحيح : « **يُلْهمون التَّسبيحَ والتَّحميد**

(١) « تفسير القرطبي » (١٢/٢١١) ، وقال : قال النحاس في كتاب « معاني القرآن » : وهذا من أحسن ما قيل في هذه الآية .
ودلَّ على صحة هذا القول ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ أي عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات .

(٢) المصدر السابق .

كما يُلهمون النَّفَس » .

وقد قال بعض المفسرين في قوله : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي : القرآن ، وقيل : لا إله إلا الله ، وقيل : الأذكار المشروعة [1].

وهو لا ينافي الأول فإن الهداية لهذا : سَبَبٌ لدخول الجنة ، فإن الجنة لا يدخلها إلا من هداه الله تعالى للطيب من القول ، ولا إله إلا الله : مفتاح الجنة .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : ولما كان الشركُ أعظمَ الدواوين الثلاثة عند الله عز وجل[2] حرّم الجنة على أهله ، فلا تدخل الجنة نفسٌ مشركةٌ ، وإنما يدخلها أهلُ التوحيد ، فإن التوحيد هو مفتاح بابها ، فمن لم يكن معه مفتاح لم يُفتح له بابها ، وكذلك إنْ أتى بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به ، وأسنان هذا المفتاح هي : الصلاة، والصيام ، والزكاة ، والحج ، والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، فأي عبدٍ اتخذ في هذه الدار مفتاحًا صالحًا من التوحيد ، وركَّب فيه أسنانًا من الأوامر ، جاء يوم القيامة إلى باب الجنة ومعه مفتاحها الذي لا يفتح إلا به ، فلم يَعُقْه عن الفتح عائق ، اللهم إلا أن تكون له ذنوبٌ وخطايا وأوزار لم يذهب عنه أثرُها في هذه الدار بالتوبة والاستغفار ، فإنه

---

(١) انظر « تفسير ابن كثير » (٣/٢١٣) ، و « تفسير الطبري » (٥/٣٠٧) ط الرسالة .

(٢) ذكر أن الظلم ثلاثة دواوين :

أ ـ ديوانٌ لا يغفر الله منه شيئًا وهو الشرك .

ب ـ وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئًا وهو ظلم العباد بعضهم بعضا، فإن الله يستوفيه كله .

جـ ـ وديوان لا يعبأ الله به شيئًا ، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل .

يحبس عن الجنة حتى يتطهر منها ، وإن لم يطهره الموقف وأهواله وشدائده ، فلابدَّ من دخول النار ليخرج خبثه فيها ، ويتطهَّر من درنه ووسخه ثم يخرج منها ، فيدخل الجنة ، فإنها دار الطيبين لا يدخلها إلا طيب ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢] وقال تعالى : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

فعقَّبَ دخلوها على الطيب بحرف « الفاء » الذي يُؤْذن بأنه سبب ، أي : بسبب طيبكم قيل لكم : ادخلوها .

وأما النار ، فإنها دار الخُبث في الأقوال والأعمال ، والمآكل والمشارب ، ودار الخبيثين ، فالله تعالى يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فَيَركمه كما يركم الشيء لتراكب بعضه على بعض ، ثم يجعله في جهنم مع أهله ، فليس فيها إلا خبيث .

ولما كان الناس ثلاث طبقات : طيِّب لا يشينه خبث ، وخبيث لا طِيب فيه ، وآخرون فيهم خُبثٌ وطِيبٌ ، كانت دورهم ثلاثة : دار الطِيب المحض ، ودار الخبيث المحض ، وهاتان الداران لا تفنيان ، ودارٌ لمن معه خُبثٌ وطيب ، وهي الدار التي تفنى وهي دار العصاة ، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحدٌ ، فإنهم إذا عُذّبوا بقدر جزائهم أُخرجوا من النار فأُدخلوا الجنة ، ولا يبقى إلا دار الطيب المحض ، ودار الخُبث المحض [١].

---

(١) « الوابل الصيِّب من الكلم الطيب » (ص ٢٣ ـ ٢٤) ط دار البيان ١٣٩٩ هـ .

٥ ـ وقد وصف الله عز وجل منقلب المؤمنين في الآخرة بالطيب ، فحياتهم طيبة ، ومساكنهم طيبة ومطاعمهم ومشاربهم طيبة ، وذلك في غير ما آية من كتابه فقال سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢] .

وقال سبحانه : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] .

وقال سبحانه : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١] .

* * *

الجَميل
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٥)

*** المعنى اللغوي :**

الجمال : الحُسْنُ .

والجَمال : مصدر الجميل ، والفعل : جَمُلَ .

وقوله عز وجل : **﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾** [النحل : ٦] أي : بهاءٌ وحسن .

قال ابن سيده : الجمال : الحُسن ، يكون في الفعل والخَلْق وقد جَمُل الرجل بالضم جمالاً فهو جميل وجُمَالٌ وجُمَّال [١] .

*** وروده في الحديث الشريف :**

روى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : « **لا يَدْخلُ الجنَّة مَنْ كان في قلبه مثقالُ ذرَّة من كِبْرٍ** » قال رجل : إنَّ الرجل يُحب أن يكون ثوبهُ حَسَنًا ونَعْلَه حسنًا ، قال : « **إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال ، الكبر بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس** » [٢] .

*** المعنى في حق الله تعالى :**

قال النووي : وقوله ﷺ : « **إن الله جميل يحب الجمال** » اختلفوا في

---

(١) « الصحاح » (/١٦٦١) ، و « اللسان » (١/ ٦٨٥) .

(٢) أخرجه مسلم في « الإيمان » (١/ ٩٣) .

معناه ، فقيل إن معناه : أن كلَّ أمره سبحانه وتعالى حسن جميل ، وله الأسماء الحسنى وصفات الجمال والكمال .

وقيل : جميل بمعنى : مُجْمِل ، ككريم وسميع بمعنى : مُكْرِم ومُسْمِع .

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله : معناه : جليل وحكى الإمام أبو سليمان الخطابي أنه بمعنى : ذي النور والبهجة أي مالكهما .

وقيل معناه : جميلُ الأفعال بكم باللُّطفِ والنَّظر إليكم ، يكلّفكم اليسير من العمل ويُعين عليه ، ويُثيب عليه الجزيل ويشكر عليه [1].

وأول كلام الخطابي : الجميل : هو المُجْمِل المُحْسِن ، فعيل بمعنى مُفْعِل [2].

وقال الحليمي : ومنها : الجميل : وهذا الاسم في بعض الأخبار عن النبي ﷺ ومعناه : ذو الأسماء الحسنى ، لأن القبائح إذا لم تَلِقْ به، لم يَجز أنْ يشتقَ اسمه من أسمائها ، وإنما تشتق أسماؤه من صفاته التي كلها مدائح ، والأفعال التي أجمعها حكمه [3].

---

(١) « شرح مسلم » (٢/ ٩٠) ، وقال : « واعلم أن هذا الاسم ورد في هذا الحديث الصحيح ، ولكنه من أخبار الآحاد ، وورد أيضًا في حديث الأسماء الحسنى وفي إسناده مقال . والمختار جواز إطلاقه على الله تعالى ، ومن العلماء من منعه » اهـ .

وقد سبق أن ذكرنا قوله في جواز إثبات الاسم لله تعالى مما ثبت بخبر الواحد ، انظر اسمه « الرفيق » .

(٢) « شأن الدعاء » (ص ١٠٢) ، وقد حكاه النووي بقوله : وقيل : جميل بمعنى مجمل ... ، واختاره البيهقي في « الاعتقاد » (ص ٦٨) .

(٣) « المنهاج » (١/ ١٩٨) . وذكره ضمن الأسماء التي تتبع نفي التشبيه عن الله تعالى جده ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٤١ ـ ٤٢) .

وقال ابن الأثير : « إن الله تعالى جميل » أي حَسَنُ الأفعال ، كامل الأوصاف »[1].

وقال ابن القيم[2]:

وهو الجميلُ على الحقيقةِ كيفَ لا وجمالُ سَائرِ هذه الأكْوان

مِن بعضِ آثارِ الجميلِ فربُّها أولى وأجْدرُ عند ذي العِرْفانِ

فجمالُه بالذَّاتِ والأوْصاف والـ أفعالِ والأسماءِ بالبُرهان

لا شيءَ يُشبِه ذاتَه وصفاته سبحانه عن إفْكِ ذي الْبُهتَان

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ أن الله تعالى هو الجميل على الحقيقة بلا كيفٍ نعلمه ، وجماله بالذات والأوصاف والأسماء والأفعال ، لاشيء يماثله في ذلك كما قال سبحانه عن نفسه : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى: ١١].

وقال سبحانه : ﴿ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾ [مريم: ٦٥] .

قال القاضي أبو يعلى الفرَّاء رحمه الله تعالى بعد أن ذكر حديث ابن مسعود السابق « **إن الله جميل** » : اعلم أنه غير ممتنع وصْفُه تعالى بالجَمَال وأنَّ ـ ذلك صفةٌ راجعةٌ إلى الذات ، لأنَّ الجمال في معنى الحُسْن ، وقد تقدم في أول الكتاب قوله: « **رأيتُ ربيِّ في أحسن صُورة** » وبيَّنَّا أنَّ ذلك صفةٌ راجعة إلى الذات كذلك هاهنا ، ولأنه ليس في حمله على ظاهره ما يُحيل صفاته ولا يُخرجها عما تستحقه ، لأنَّ طَريقَه الكمال والمدح ، ولأنه لو لم يُوصف بالجمال جاز أنْ يُوصَفَ بضدِّه وهو القُبْح ، ولَمَّا لم

(١) « النهاية » (١/ ٢٩٩) .

(٢) « النونية » (٢/ ٢١٤) .

يَجزْ أن يُوصف بضده ؛ جاز أنْ يُوصف به ، ألا تَرَى أنَّا وصفناه بالعلم والقدرة والكلام لأن في نفيها إثباتُ أضدادها وذلك مستحيلٌ عليه ، كذلك ها هنا .

فإن قيل : قوله : « **جميل** » بمعنى : مُجْمِل مَنْ شاء مِنْ خَلْقه ، لأنَّ فعيل قد يجيء على معنى : مُفعل ، ومنه قولنا : حكيمٌ والمراد محكم لما فعله .

قيل : هذا غلطٌ ، لأن الخبر وَرَد على سبب ، وهوالحثُّ لهم على التَّجمُّل في صفاتهم لا على معنى التجميل في غيرهم فكان مقتضى الخبر : إنَّ الله جميلٌ في ذاته يجب أنْ تتجملوا في صفاتكم ، فإذا حُمِل الخبر على فعل التجميل في الغير ، عدل بالخبر عمَّا قُصِدَ به .

فإن قيل : معنى الجمال ها هنا الإحسان والإفضال ، فيكون معناه : هو المظهر النعمة والفضل على مَنْ شاء من خَلْقه برحمته .

قيل : هذا غلطٌ لأنَّه قد ذَكَر الجمال والإحسان والإفضال فقال : « **جميل يُحبُّ الجمالَ ، وجوادٌ يحبُّ الجود ، وكريمٌ يحبُّ الكرماء** » فإذا حَملنا الجمال على ذلك حُمِلَ اللفظُ على التكرار وعلى ما لا يُفيد .

وجواب آخر : وهو أن نِعَم الله ظاهرةٌ ، فَحَمْلُ الخبر على هذا يُسقط فائدة التخصيص بالجمال [1].

فهو سبحانه الأجمل والأحسن في سائر صفات الكمال ، وصفاته كلها كمال جلَّ وعلا .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ** ﴾ [النحل: ٦٠] : وهو الأفضلُ والأطيب والأحسن والأجمل ، وذلك التوحيد والإذعان له

---

(١) « إبطال التأويلات لأخبار الصفات » (٢/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦) .

بأنه لا إله غيره [(١)].

٢ ـ الله تبارك وتعالى هو مُجْمِلُ من شاء مِن خَلْقه ، واهبُ الجمال والحُسْن لمن شاء ، كما مرَّ معنا قول ابن القيم رحمه الله إذْ يقول :

وهو الجميلُ على الحقيقةِ كيفَ لا   وجمـالُ سَائـرِ هذه الأكْـوان

مِـن بعـضِ آثارِ الجميـلِ فربُّهـا   أولى وأَجْـدرُ عند ذي العِرْفانِ

وقد نبّه الله تعـالى النـاس إلى ذلك في آيات كثيـرة ، فقـال سبحانه : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] ، وقال سبحانه : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧] .

فالله سبحانه هو الذي زيَّن الأرضَ وجمَّلهـا بأنـواع الحدائق والبساتين والأشجار والأزهار والخضرة ، ذات البَهجة والحُسـن والجمال ، بحيث أن الناظر إليها يَبْتهج وتفرح نفسُه بها ، وينشرح صدره بسببها .

ومثله قوله سبحانه عن الأنعام : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦] .

أي في الأنعام جمالٌ وزينة في أعين الناس ، لحسن صورتها وتركيبها، وتناسق أعضائها وتناسبها [(٢)].

---

(١) « التفسير » (١٤/ ٨٤ ـ ٨٥) .

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مختصر الفتاوى المصرية (ص ٢١) : ... بل النظر إلى الأشجار والخيل والبهائم إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرياسة والمال =

وهو أيضًا جلّ وعلا يَمتنُّ على بنى آدم بذلك إذ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ - ٨] .

وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : ٤] .

فقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن صورة وأجمل تقويم ، وهم أيضًا متفاوتون في هذا الحُسن والجمال ، فقد أُعطي يوسف عليه الصلاة والسلام شطر الحُسن كما قال ﷺ(١) ولما رأته النسوة ﴿ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

٣ ـ وقد أُعطي نبينا ﷺ من ذلك حظًّا وافرًا ، تناسبُ الأعضاء ، وتناسقها ، وجمال الوجه واستدارته واستنارته ، وحُسْنُ القوام وربْعته ، ولين الكف وطيب رائحته ، وغير ذلك مما جاء في وصفه .

فعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال سمعت أنس بن مالك يَصف

= فهو مذموم ، لقول الله تعالى : ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١].

وأما إذا كان على وجه لا ينقص الدين ، وإنما فيه راحة النفس فقط ، كالنظر إلى الأزهار ، فهذا من الباطل الذي يستعان به على الحق .

وقد ينظر إلى الإنسان لما فيه من الإيمان والتقوى ، وهنا الاعتبار بقلبه وعمله لا بصورته .

وقد ينظر إليه لما فيه من الصورة الدالة على المصور ، فهذا حسن .

وقد ينظر من جهة استحسان خَلْقه .

فكل قسم من هذه الأقسام متى كان معه شهوة كان حرامًا بلا ريب ، سواء كانت شهوة يمتع نظره بها ، أو كانت نظرة لشهوة الوطء .

وفرق بين ما يجده الإنسان عند نظره إلى الأزهار وبين ما يجده عند نظره إلى النسوان والمردان ، فلهذا الفرقان فرِّق في الحكم الشرعي ... إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى .

(١) رواه مسلم في « الإيمان » (١/ ١٤٦) من حديث ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه

النبي ﷺ قال : « كان رَبْعةً من القَوم ، ليس بالطَّويلِ ولا بالقصير ، أزهر اللون، ليس بأبيض أمْهق ولا آدَمَ ، ليــس بَجْعد قَطِط ولا سَبطٍ رَجِل ... » [1].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قــال : « كــان رسـول الله ﷺ أحسنَ النــاسِ وجهًا ، وأحسنَه خَلْقًا ، ليس بالطـويل البائــن ولا بالقصير » [2].

وعنه : « كان النبي ﷺ مَربُوعًا بعيدَ ما بين المنكبين ، له شَعَرٌ يبلُغُ شحمةَ أُذنيه ، رأيتُه في حُلَّةٍ حمراء لم أرَ شيئًا قطُّ أحسَنَ منه » [3].

وسئل رضي الله عنهما : « أكان وجهُ النبي ﷺ مثلَ السيف ؟ قال : «لا ، بل مثلَ القمر » [4].

٤ ـ وكان مع ذلك من أحسن الناس أخلاقًا : سَماحة وشجاعة ، وحلمًا وكرما ، ورحمة وشفقة ، وصلة وبرًا ، كما وصفته خديجة رضي الله عنها بقولها : « إنك لَتَصِلُ الرحم ، وتَحملُ الكَلَّ ، وتَكْسِبُ المعدوم ، وتَقْرِي الضَّيفَ ، وتُعينُ على نوائبِ الحق » [5].

وعن أنس رضي الله عنه قال : « خَدَمتُ رسول الله ﷺ عشرَ سنين والله ما قال لي : أُفًّا قط ، ولا قال لي لشيءٍ : لم فعلتَ كذا ؟ وهلاً فعلتَ كذا » [6].

---

(١) رواه البخاري في « المناقب » (٦/ ٥٦٤) .

(٢) المصدر السابق ومسلم في « الفضائل » (٤/ ١٨١٩) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق في « بدء الوحي » (١/ ٢٢) وغيره .

(٦) رواه البخاري في « الأدب » (١٠/ ٤٥٦)، ومسلم في « الفضائل» (٤/ ١٨٠٤) واللفظ له .

وقال : « كان رسول الله ﷺ أَحَسَنَ الناسِ خُلُقًا » [1].

وقال : « كان رسول الله ﷺ أَحَسَنَ الناس ، وكان أَجْودَ الناس ، وكان أَشجع الناس ... » [2].

وعن ابن عمرو قال : لم يكن رسول الله ﷺ فاحِشًا ولا مُتفشحًا ، وأنه كان يقول : إن خياركم أحسنُكم أخلاقًا » [3].

قال الراغب : الجمالُ : الحُسْنُ الكثير ، وذلك ضَرْبان : أحدهما : جمالٌ يختصُّ به الإنسان في نفسه أو بدنه أو فِعلِه ، والثاني : ما يُوصل منه إلى غيره .

وعلى هذا الوجه ما روي عنه ﷺ أنه قال : « **إن الله جميلٌ يحب الجمال**» تنبيهًا أنه منه تفيضُ الخيرات الكثيرة فيُحب من يختصُّ بذلك [4].

فسبحان من جمع لرسوله ﷺ بين كمال الخَلْق والخُلُق .

٥ ـ وقد أمر الله تعالى بملازمة كل خُلُقٍ جميل ، وأوصى نبيه ﷺ وأمته بذلك في آيات عديدة .

فقال سبحانه : ﴿**فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً**﴾ [المعارج: ٥] أي صبراً لا شكوى فيه لأحدٍ غير الله تعالى[5] وذلك في مقابل استهزاء الكفار ، وعدم إيمانهم

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم في « الفضائل » (٤/ ١٨٠٥) .

(٢) رواه البخاري في « الجهاد » (٦/ ٣٥ ، ٩٥ ، ١٦٣)، ومسلم في «الفضائل» (٤/ ١٨٠٢).

(٣) رواه البخاري في « الأدب » (١٠/ ٤٥٦) ، ومسلم في « الفضائل » (٤/ ١٨١٠) .

والفاحش ذو الفحش ، والمتفحش : الذي يتكلف الفحش ويتعمده لفساد حاله .

(٤) « المفردات » (ص ٩٧) .

(٥) قال ابن القيم رحمه الله : ولا تضاده « أي الصبر الجميل » الشكوى لله ، فقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿ **إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾ [يوسف: ٨٦] مع قوله : ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾[يوسف: ١٨] . وأما إخبار المخلوق بالحال ، =

بما يدعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر .

وقال سبحانه : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] أي اصبر على ما يقول المشركون وعلى أذاهم واهجرهم في الله هجرًا جميلاً ، أي : لا عتاب معه ، وقيل : لا جَزَع فيه ، وقيل : الهجر في ذات الله كما قال عز وجل : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨] [١].

ومثلها قوله تعالى : ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] [٢].

وقال عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وقال في السورة نفسها : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩] .

أي طلقوهن طلاقًا خاليًا من الأذى ، وعاريًا عن منع الحقوق الواجبة، وهذا هو السَّراحُ الجميل الذي يحبه الله عز وجل ورسوله ﷺ

= فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته أو التوصل إلى زوال ضَرره ، لم يقدح ذلك في الصبر، كإخبار المريض للطبيب بشكايته ، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله ، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه ، وقد كان النبي ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله ويقول : « كيف تجدك » [رواه الترمذي بسند حسن] وهذا استخبار منه واستعلام. « عدة الصابرين » (ص٣٢٣) وانظر : « بشرى المخبتين بفضل الصبر والصابرين » لمقيده (ص ٣٠) .

(١) انظر « تفسير الطبري » من كتابه (٧/٣٩٥) ، و « تفسير ابن كثير » (٤/٤٣٧) .

(٢) انظر : « تفسير ابن كثير » (٢/٥٥٨) .

ويأمر به الله ورسوله ﷺ [1].

٦ ـ الله سبحانه يحبُ التَّجمل في غير إسرافٍ ولا مخيلة ، ولا بَطَر ولا كِبْر ، كما جاء في الحديث السابــق « **إنَّ الله جميلٌ يحب الجمال** » وقد قاله ﷺ جوابًا لمن قال له : « إن الرجل يحب أن يكون ثوبُه حَسَنًا ونَعْله حسنًا » وبين أن مجرد فعل ذلك ومحبته لا يُدخل في الكبر المذموم .

و « ... الجنة دار المتواضعين الخاشعين لا دار المتكبرين الجبَّارين ، سواء كانوا أغنياءَ أو فقراء ، فإنه قد ثبتَ في الصحيح أنه « **لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان**» فقيل : يا رسول الله ! الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونَعله حسنًا أفمن الكبر ذاك ؟ فقال : « **لا ، إنَّ الله جميلٌ يحبُ الجمال ، ولكنَّ الكبر بَطَر الحقّ وغَمْط الناس** » .

فأخبر ﷺ أن الله يُحب التَّجملَ في اللباس الذي لا يحصل إلا بالغنى ، وأن ذلك ليس من الكبر .

وفي الحديث الصحيح : « **ثلاثةٌ لا يكلِّمهم اللهُ ولا يَنْظُر إليهم يومَ القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم : فقيرٌ مختال ، وشيخٌ زانٍ ، ومَلِكٌ كذَّابٌ**».

وكذلك الحديث المروي : « **لا يزال الرجلَ يذهبُ بنفسه ، ثم يذهب بنفسه ، ثم يذهب بنفسه ، حتى يكتب عند الله جباراً ، وما يملك إلا أهله** » [2].

---

(١) انظر : في هذا ابن كثير (٣/ ٤٨١) وغيره .

(٢) رواه الترمذي (٢٠٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٦٢٥٤) ، والبغوي في « شرح السنة » (٣٥٨٩) من طريق عمر بن راشد عن إياس بن سلمة بن الأكــوع عن أبيه مرفوعًا به ، =

فعلم بهذين الحديثين : أن من الفقراء مَن يكون مختالاً ، لا يدخل الجنة ، وأن من الأغنياء مَن يكون مُتجملاً غير متكبر ، يحبُ الله جماله، مع قوله ﷺ في الحديث الصحيح : « **إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُورِكم ولا إلى أموالِكم ، وإنما يَنْظر إلى قلوبكم وأعْمالكم** »[1].

ومن هذا الباب قول هِرقل لأبي سفيان : أَفَضُعفاء الناسِ اتَّبعه أم أشرافهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، قال : وهم أتباع الأنبياء ، وقد قالوا لنوح : ﴿**أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ**﴾ [الشعراء: ١١١] فهذا فيه أنَّ أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الانقياد إلى عبادة الله وطاعته ، لأن حبهم للرئاسة يمنعهم ذلك بخلاف المستضعفين ، وفي هذا المعنى الحديث المأثور ـ إن كان محفوظًا ـ « **اللهم أحيني مِسكينًا وأمتني مسكينًا ، واحْشرني في زمرة المساكين** »[2].

فالمساكين ضد المتكبرين ، وهم الخاشعون لله ، المتواضعون لعظمته ، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض ، سواء كانوا أغنياء أو فقراء»[3].

* * *

= لكن دون تكرير لجملة : « لا يزال الرجل يذهب... » قال الترمذي : حسن غريب . وفيه عمر بن راشد وهو ضعيف .

(١) رواه مسلم في « البر والصلة » (٤/١٩٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) الراجح فيه أنه حديث صحيح لطرقه ، ولبسط الكلام عليه موضع آخر .

(٣) من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ، « مجموع الفتاوى » (١١/١٢٩ - ١٣٠).

الوِتْر
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(٦)

*** المعنى اللغوي :**

الوِتْرُ والوَتْر : الفَرْد أو مالم يَتشفَّع من العدد .

وأَوْتَرَه : أَفَذَّه .

قال اللحياني : أهلُ الحجاز يُسمُّونَ الفَرْد الوَتْر ، وأهل نجدٍ يكسِرون الواو .

وفي قوله عز وجل : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣] قراءتان بالفتح والكسر [١].

وأوتر الرجل : صلَّى الوتر ، وهي ركعة تكون بعد صلاته مثنى مثنى من الليل [٢].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « **لله تسعةٌ وتُسعون اسمًا، مَن حَفِظها دخل الجنة، وإنَّ الله وِتْرٌ يُحبُّ الوتر** » [٣] .

---

(١) قرأ عاصم ونافع وابن كثير وأبو عمـرو وابن عامر بفتح الواو ، وقرأ حمزة والكسـائي بالكسر .

(٢) « اللسان » (٦/٤٧٥٧ _ ٤٧٥٨)، و« الصحاح » (٢/٨٤٢)، و «المفرادات» (ص ٥١١) .

(٣) متفق عليه ، انظر تخريجه في الجزء الأول .

* المعنى في حق الله تعالى :

قال ابن قتيبة : اللهُ جل وعزَّ وِتْرٌ ، وهو واحد [1].

وقال الخطابي : « الوتر » هو الفَرْد الذي لا شريك له ولا نظير [2].

وقال الحليمي : ومنها الوتر : لأنه إذا لم يكن قديمٌ سواه ، لا إله ولا غيرَ إله ، لم ينبغي لشيءٍ من الموجودات أن يُضم إليه فيُعدَّ معه ، فيكون والمعدود معه شفعًا ، لكنه واحدٌ فردٌ وِتر [3].

وقال البيهقي : « الوتر » هو الفرد الذي لا شريك له ولا نظير (وهو قول الخطابي) وهذه أيضًا صفةٌ يستحقها بذاته [4].

وقال الحافظ ابن حجر : « الوتر » الفرد ، ومعناه في حق الله أنه الواحد الذي لا نظير له في ذاته ولا انقسام ! [5].

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ ـ أن الله تعالى واحد لا شريك له ولا نظير ، بل هو الإله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد .

وهو سبحانه واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، قال عز

---

(١) « غريب الحديث » (١/ ١٧٢) .

(٢) « شأن الدعاء » (ص ١٠٤) .

(٣) « المنهاج » (١/ ١٩٠) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات وحدانيته ، ونقله البيهقي في «الأسماء » (ص ١٥) لكن عبارته : « ... أن يضم إليه فيعبد معه ، فيكون المعبود معه شفعًا ... » .

(٤) « الاعتقاد » (ص ٦٨) .

(٥) « الفتح » (١١/ ٢٢٧) .

وجل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] .

وقال : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥][(١)].

٢ ـ وهو جل وعلا يحب الوتر ويأمر به في كثير من الأعمال والطاعات ، كما في الصلوات الخمس ووتر الليل وأعداد الطهارة وتكفين الميت وفي كثير من المخلوقات كالسماوات والأرض [(٢)].

فقد روى علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يا أهل القرآن أَوْتروا ، فإن اللهَ وترٌ يحبُ الوتر** »[(٣)].

قال القرطبي في معنى قوله ﷺ : « **وهو وتر يحب الوتر** » : الظاهر أن الوتر هنا للجنس ، إذْ لا معهود جرى ذكره حتى يحمل عليه ، فيكون معناه أنه : يُحبُ كلَّ وترٍ شرعه .

ومعنى محبته له : أنه أَمَر به وأثاب عليه ، ويصلح ذلك لعموم ما خَلَقه الله وترًا من مخلوقاته .

أو معنى محبته له : أنه خصصه بذلك لحكمة يعلمها . ويحتمل أن يريد بذلك وترًا بعينه ، وإنْ لم يجرِ له ذكر ثم اختلف هؤلاء ، فقيل : المراد صلاة الوتر .

وقيل : يوم الجمعة .

وقيل : يوم عرفة .

وقيل : آدم .

---

(١) وانظر : آثار الإيمان بـ : « الواحد ـ الأحد » في المجلد الثاني من هذا الكتاب .

(٢) « الفتح » (١١/ ٢٢٧) نقلا عن القاضي عياض .

(٣) يأتي تخريجه.

وقيل غير ذلك .

قال : والأشبه ما تقدَّم من حمله على العموم [١].

قال : ويظهر لي وجهٌ آخر وهو : أن الوتر يُراد به التوحيد ، فيكون المعنى : أن الله في ذاته وكماله وأفعاله واحدٌ يحبُ التوحيد .

أي : أن يُوحَّد ويعتقد انفراده بالألوهية دون خلقه ، فيلتئم أول الحديث وآخره ، والله أعلم [٢].

قال الحافظ معقبًا : قلت : لعل من حَمَله على صلاة الوتر ، استند إلى حديث علي : « إنَّ الوترَ ليس بِحَتم ، ولا كصلاتكم المكتوبة ، ولكن رسول الله ﷺ أوتر ثم قال : « **أَوْتِروا يا أهلَ القرآن ، فإن الله وترٌ يحب الوتر** » .

أخرجوه في السنن الأربعة وصححه ابن خزيمة واللفظ له [٣].

فعلى هذا التأويل تكون اللام في هذا الخبر للعهد ، لتقدم ذكر الوتر المأمور به .

لكن لا يلزم أن يحمل الحديث الآخر على هذا ، بل العموم فيه أظهر ، كما أن العموم في حديث علي محتمل أيضًا [٤].

٣ ـ وقد وردت عن السلف آثار في ذلك :

---

(١) انظر ما ورد عن السلف في تفسير « الشفع والوتر » : « تفسير ابن جرير » (٣٠/١٠٨ ـ ١١٠) ، و« الدر المنثور » للسيوطي (٨/٥٠٢ ـ ٥٠٤) .

(٢) « الفتح » (١١/٢٢٧) .

(٣) حديث صحيح ، رواه أبو داود (١٤١٦) ، والترمذي (٤٥٣) ، والنسائي (٣/٢٢٨ ـ ٢٢٩)، وابن ماجه (١١٦٩) ، وابن خزيمة (١٠٦٧)وغيرهم من حديث أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن علي به .

(٤) « الفتح » (١١/٢٢٧) .

فقال مجاهد في قوله تعالى ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣] : كل خلق الله شفع : السماء والأرض ، والبر والبحر ، والجن والإنس ، والشمس والقمر .

والله الوتر وحده .

وفي رواية عنه قال : الخلق كله شفع ووتر ، أقسم بالخلق (١).

وعن الحسن قال : الخلق كله شفع ، ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ قال : كان أبي يقول : كل شيء خلق الله شفع ووتر ، فأقسم بما خلق ، وأقسم بما تبصرون وبما لا تبصرون (٢).

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل ذلك الصلاة المكتوبة ، منها الشفع كصلاة الفجر والظهر ، ومنها الوتر : كصلاة المغرب .

ذِكْر من قال ذلك .

وذكر آثارًا منها :

عن قتادة قوله : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ : إن من الصلاة شفعًا ، وإن منها وترًا (٣).

---

(١) « تفسير ابن جرير » (١٠٩/٣٠) ، وعبد الرزاق (٣٦٩/٢) عن ابن أبي نجيح عنه .
ويشهد له : ما أخرجه ابن جرير من وجه آخر عن ابن جريج عنه قال : في قوله : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ قال : الكفر والإيمان ، والسعادة والشقاوة ، والهدى والضلالة ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والجن والإنس ، والوتر الله ، قال : وقال في الشفع والوتر مثل ذلك .

(٢) ابن جرير (١٠٩/٣٠) عن ابن ثور عن معمر عنه . ورواية معمر عن الحسن منقطعة ، قال أحمد : لم يسمع من الحسن ولم يره بينهما رجل . « جامع التحصيل » (ص ٣٥٠) .
وأخرجه عبد الرزاق (٢/ ٣٧٠) دون قوله : كان أبي يقول ...

(٣) المصدر السابق ، وسنده حسن .

ثم قال ابن جرير مرجحًا :

والصواب من القول في ذلك أن يُقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفع والوتر ، ولم يُخصص نوعًا من الشفع ، ولا من الوتر دون نوع، بخبر ولا عقل ، وكل شفع ووتر فهو مما أقسم به مما قال أهل التأويل أنه داخل في قَسَمِه هذا ، لعموم قسمه بذلك [١].

❊ ❊ ❊

(١) المصدر السابق (٣٠/ ١١٠) .

المُقَدِّم ـ المُؤَخِّر
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٧ـ٨)

لارتباط الاسمين ببعضهما ، جعلنا الكلام عليهما في مكان واحد .

*** المعنى اللغوي :**

قَدَمَ بالفتح يَقْدُم قَدْمًا ، أي تَقدَّم ، قال الله تعالى : ﴿**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ**﴾ [هود: ٩٨] .

وقَدُم الشيء بالضم قِدَمًا فهو قديمٌ ، وتقادم مثله ، والقِدَم خلاف الحدوث .

وأَقْدَمَ على الأمر إقدامًا ، والإقدام : الشجاعة .

وأَقْدَمه وقدَّمه بمعنى .

وقدَّم بين يديه أي تقدَّم ، قال تعالى : ﴿**لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ [الحجرات: ١].

والقَدَمُ : قدَمُ الرَّجُل وجمعه أقدام ، وبه اعتُبر التَّقدُّم والتأخر .

والقَدَمُ أيضًا : السابقة في الأمر كما في قوله عز وجل : ﴿**قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ [يونس: ٢] [١].

*** أما المؤخِّر :**

أخَّرتُهُ فتأخَّر واستأخَرَ مثل تأخَّر .

---

(١) « الصحاح » (٥/٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٧) ، و « اللسان » (٥/٣٥٥٢) ، و « المفردات » (ص ٣٩٧).

والآخِرُ : بعد الأول ، تقول : جاء آخرًا أي أخيرًا .

والتأخُّرُ ضد التَّقدم ، والتأخير ضد التَّقديم ، كما في قوله : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢].

وقد تأخّر عنه تأخُّرًا وتَأَخُّرَةً .

وأخَّرْتُهُ فتأخَّر واستَأْخَر .

وفي التنزيل : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ [الحجر : ٢٤].

وآخِرةُ العين ومُؤْخِرُها ومُؤْخِرَتُها : ما وَلِيَ اللِّحاظ (أي الذي يلي الصُّدْغ) ، ومُقْدِمها : الذي يلي الأنف .

ومُؤْخِرَةُ الرَّحل ومُؤَخَّرَتُه وآخِرتُه وآخِره ، كلُّه خلاف قادِمَتِه وهي التي يستند إليها الراكب [١].

وقال الراغب : وقولهم أَبْعدَ اللهُ الآخِرَ ، أي المتأخّرَ عن الفضيلة ، وعن تَحدِّي الحق [٢].

*** ورودهما في الحديث الشريف :**

١ ـ وردا في حديث أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري عن أبيه عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدُّعاء : « **اللهم اغْفِر لي خَطِيئتي وجَهْلي ، وإسْرَافي في أمري ، وما أنت أعلمُ به منِّي ، اللهم اغْفِر لي جِدِّي وهَزْلي ، وخطئي وعَمْدي ، وكلُّ ذلك عندي ، اللهم اغفِر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسْررتُ وما أَعلنتُ ، وما أنتَ أعلمُ به مني ، أنتَ المُقَدِّمُ وأنت المُؤَخِّرُ ،**

---

(١) « الصحاح » (٢/٥٧٦ ـ ٥٧٧) ، و« اللسان » (١/٣٨ ـ ٣٩) .

(٢) « المفردات » (ص ١٤) .

وأنتَ على كل شيءٍ قديرٌ » [1].

٢ ـ ووردا في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصفه لصلاة النبي ﷺ إذ يقول : « ... ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتَّسليم : اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أسْرفتُ ، وما أنتَ أعلمُ به منـي ، أنتَ المقدِّم وأنـت المؤخّـر لا إله إلا أنتَ » [2].

٣ ـ ووردا في حديث ابن عباس رضيَ اللهُ عنهما قال : « كان النبيُّ ﷺ إذا قام منَ الليلِ يتهجَّدُ قال : اللَّهمَّ لكَ الحمدُ أنتَ قيِّمُ السماوات والأرضِ ومن فيهنَّ ، ولكَ الحمدُ لكَ مُلكُ السماوات والأرضِ ومن فيهنَّ ، ولكَ الحمدُ أنَت نورُ السماوات والأرضِ ، ولكَ الحمدُ أنتَ مَلكُ السماوات والأرضِ ، ولك الحمد أنتَ الحقُّ ، ووَعدُكَ الحقُّ ، ولقاؤكَ حقٌّ ، وقولُكَ حقٌّ، والجَنَّةُ حق ، والنَّارُ حق ، والنبيُّونَ حقٌّ ، ومُحمدٌ ﷺ حقٌّ ، والساعةُ حقٌّ، اللَّهمَّ لكَ أسلمتُ ، وبكَ آمنتُ ، وعليكَ تَوكلتُ ، وإليكَ أنبتُ ، وبكَ خاصمتُ ، وإليكَ حاكمتُ ، فاغفرْ لي ما قَدَّمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسرَرتُ وما أعلنتُ ، أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ لا إلهَ إلاَّ أنت أو لا إلهَ غيرُك » [3].

* معنى الاسمين في حق الله تعالى :

قال الخطابي : « المقدم » هو المنزّل للأشياء منازلها ، يقدّم ما شاء منها ، ويؤخّر ما شاء ، قدَّم المقادير قبل أن يَخلق الخَلْقَ .

وقدَّم مَن أحبَّ من أوليائه على غيرهم من عَبيده .

---

(١) أخرجه البخاري في « الدعوات » (١١/١٩٦)، ومسلم في «الذكر والدعاء» (٤/٢٠٨٧) .

(٢) أخرجه مسلم في « صلاة المسافرين » (١/٥٣٦) .

(٣) أخرجه البخاري في مواضع أولها : في « التهجد » (٣/٣) .

ورفعَ الخَلْق بعضهم فوق بعض درجات ، وقدّم مَن شاء بالتوفيق إلى مَقَامات السابقين .

وأخَّر مَن شاء عن مراتبهم وثبَّطهم عنها .

وأخَّر الشيء عن حين تَوقعه ، لعلمه بما في عواقبه من الحكمة .

لا مقدِّم لما أخَّر ، ولا مؤخر لما قدم .

قال : والجمع بين هذين الاسمين أحسن من التفرقة [١].

وقال الحليمي : « المقدِّم » : وهو المُعْطِي لَعَوالي الرُّتب .

ومنها « المؤخّر » : وهو الدافع عن عوالي الرُّتب [٢].

وقال البيهقي : « المقدم والمؤخر » : هو المنزّلُ للأشياء مَنازلها ، يُقدّم ما شاء ومَنْ شاء ، ويُؤخِّر ما شاء ومَن شاء [٣].

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « المقدِّم » : هو الذي يُقدم الأشياء ويضعها في مواضِعها ، فمن استحق التقديم قدَّمه[٤].

وقال في « المؤخر » : هو الذي يُؤخر الأشياء فيضَعُها في مواضعها، وهو ضد المقدم[٥].

وقال النووي : يُقدّم مَن يشاء من خَلْقه إلى رحمته بتوفيقه ويُؤخِّر مَن يشاء عن ذلك لخِذلانه [٦].

---

(١) انظر : « الأسماء والصفات » للبيهقي (ص ٨٦) .

(٢) « المنهاج » (ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨)، وذكرهما ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٨٦) ، والقرطبي في «الأسنى» (ورقة ٣٦٢ أ).

(٣) « الاعتقاد » (ص ٦٣) .

(٤) « النهاية » (٤/ ٢٥) ، ونقله ابن منظور في « اللسان » (٥/ ٣٥٥٢) ولم يعزه .

(٥) المصدر السابق (١/ ٢٩) ، و« اللسان » (١/ ٣٨) .

(٦) « شرح مسلم » (١٧/ ٤٠) .

وقال ابن القيم :

وهو المقدِّمُ والمؤخِّـــرذَانك الـ ـصِّفتانِ للأَفْعالِ تابعتانِ

وهما صفاتُ الذَّات أيضًا إذْ هما بالذَّاتِ لا بالغيرِ قائمتانِ

إلى آخر كلامه رحمه الله [(١)].

*** من آثار الإيمان بهذين الاسمين :**

١ ـ « من أسمائه سبحانه « المقدّم » و « المؤخر » ، وهما من الأسماء المتقابلة التي لا يجوز إفراد أحدها عن مُقابلِهِ ، كما قدمنا ذلك في المعزّ والمذل ، والخافض والرافع ، والقابض والباسط ، والمانع والمعطي ، ونحوها .

فهو سبحانه المقدم لبعض الأشياء على بعض ، إما تقديمًا كونيًّا ، كتقديم بعض المخلوقات في الوجود على بعض ، وكتقديم الأسباب على مُسبباتها ، والشروط على مشروطاتها .

وإما تقديمًا شرعيا معنويا ، كتفضيل الأنبياء عليهم السلام على سائر البشر ، وتفضيل بعض النَّبيين على بعض ، وتفضيل العباد كذلك بعضهم على بعض .

وهو سبحانه المؤخر لبعضِ الأشياء عن بعض ، إما بالزمان أو بالشرع كذلك .

والتقديم والتأخير صفتان من صفات الأفعال التابعة لمشيئته تعالى

---

(١) « النونية » (٢/٢٤١) بشرح أحمد بن عيسى .

وقد وقع في البيت الأول « الصفان » ، « تابعان » ، وكلاهما خطأ .

وقد وقعا على الصواب في مطبوعة الهراس رحمه الله (٢/١٠٩) .

وحكمته وهما أيضًا صفتان للذات ، إذْ قيامها بالذات لا بغيرها .

وهكذا كل صفات الأفعال هي من هذا الوجه صفات ذات حيث أنَّ الذات مُتصفةٌ بها ، ومن حيث تعلقها بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال تُسمى صفات أفعال .

ولهذا غلط علماء الكلام من الأشاعرة حين ظنوا أن هناك نوعين مختلفين من الصفات : أحدهما : قائم بالذات لازمٌ لها . كصفات المعاني السبعة التي هي : ١ ـ العلم ، ٢ ـ والقدرة ، ٣ـ والإرادة ، ٤ ـ والحياة ، ٥ ـ والسمع ، ٦ ـ والبصر ، ٧ ـ والكلام .

والثاني : صفات أفعال لا تقوم عندهم بالذات ، بل هي نِسَبٌ إضافية عدمية ، تنشأ من إضافة المفعول لفاعله ، ولا يعقل لها وجود إلا بتلك الإضافة ، فوجودها أمرٌ سلبي ، وليس لها وجودٌ في نفسها ، فليس ثمت عندهم موجود إلا المفعولات ، وأما الأفعال فنسبٌ وإضافات!!

وهذا قولٌ باطل ! مخالف كما قدمنا لما دلَّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف ، بل والعقل أيضًا ، الذي يَقضي بأن تكون صفات الأفعال قائمة بمن فعلها ، ويكن متَّصفًا بها من قالها أو عملها ، إذْ لا يُتَصورَّ في العقل مفعولٌ من غير فعل ، ولا مخلوقٌ من غير خالق ، كما لا يَتصور أحدٌ اسمًا مشتقا ولا يكون دالاً على صفةٍ في المحل المسمى به .

والذي أوقعهم في هذا الغلط الشنيع : أن صفات الأفعال عندهم لا تكون إلا حادثة ! لتعلُّقها بالمفعولات الحادثة .

فيستحيل عندهم قيامها بذاته تعالى ، لأن قيامَ الحوادث به مستلزمٌ

لحدوثه ، فارتكبوا بهذه الأُكذوبة أعظم جناية على الدين ، حيث نَفَوا كلَّ الصفاتِ الفعلية التي جاء بها الكتاب والسنة ، من الاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا وتكليمه لبعض عباده في بعض الأزمنة ، وحبه ورضاه وغضبه ومقته ...إلخ .

كما نَفَوا أفعاله التي يوجدها شيئًا بعد شيء تبعًا لحكمته ، وأقواله التي يتكلم بها شيئًا بعد شيءٍ كذلك!

ولا شك أن هذا التعطيل لأفعاله لهو كتعطيل الجهمية والمعتزلة لصفات ذاته بلا فرق أصلاً ، فإذا كان هذا التعطيل لصفاته الذاتية باطلاً بإقرار هؤلاء أنفسهم ، فيجب أن يكون التعطيل لصفاته الفعلية باطلاً كذلك » [1].

٢ ـ وقال القرطبي بعد أن ذكر حديث ابن عباس السابق : « خرجه الأئمة ، وأجمعتْ عليهما الأمة ، ولا يجوز الدعاء بأحدهما دون الآخر ، قاله الحليمي .

وكلاهما ظاهرُ المعنى ، وهما من صفات الأفعالِ ، يَرفع من يشاء ، ويَخفض من يشاء ، ويُعز من يشاء ، ويُذلُّ من يشاء ، ويُقرّب من يشاء ، ويُبعد من يشاء ، فمن قُدِّم فقد نال المراتبَ العُلى ، ومَن أُخِّر فقد رُدَّ إلى السُّفلى .

قال الحليمي : « المقدم » : هو المُعطي لعوالي الرتب ، و« المؤخر » هو الدافع عن عوالي الرتب .

فقرَّب أنبياءَه وأولياءه بتقريبه وهدايته ، وأَخْزى أعداءَه بإبعاده ،

---

(١) من كلام الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله على « النونية » (٢/ ١١٠ ـ ١١١) .
وانظر شرح الشيخ أحمد بن عيسى إن شئت (٢/ ٢٤٢) وما بعدها .

وضَرب الحجاب بينه وبينهم .

قدَّر المقادير قبل أن يخلقَ الخَلْق ، وقَدَّم مَن أحب من أوليائه على عبيده ، ورفع الخَلْق بعضَهم فوق [بعضٍ] درجات ، ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وكلٌّ ممكن إنما تخصَّص في زمانه وصفاته وسائر أحواله ، بإرادة الخالق سبحانه .

وقد يُراد بالتقديم والتأخير : بعض الموجوداتِ على بعض في الإبداع ، وتأخير بعضها على بعض .

وقد يُراد بهما : تقديم بعض الموجوداتِ على بعض في الرُّتبه والشَّرف ، وتأخير بعضها على بعض ، كما ذكرنا .

فعلى هذا ، قد يكون الشيء مُقدَّمًا في الإبداع والشَّرف معًا ، وقد يكون مقدَّما في الإبداع مُؤخَّرًا في الشَّرف .

وقد يكون مُؤَخَّرًا في الإبداع مُقدَّمًا في الشرف ، كمحمدٍ ﷺ الذي هو آخر الأنبياء وهو أشرفهم .

وكنوع الإنسانِ الذي أبْدعه اللهُ بعد موجوداتٍ كثيرة ، وفَضَّله على كثيرٍ منها ، وقدَّم إبليس قبل موجوداتٍ كثيرة ، وهو شرٌّ منها كلها .

وقد يجتمع لبعض الموجوداتِ تقديم الإبداع والشرف ، كالعرش والكرسي والقلم والعقل ، الذي هو من أول المبتدعات ، وهي عند الله مُشَرَّفات » (١).

---

(١) « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٣٦٢ أ ـ ب) ، وهو بنحو ما قال الغزالي في « المقصد » (ص ٨٥) .

٣ ـ فيجب على كل ملكف أن يعتقد أن الله تعالى هو المقدم المؤخر بكل اعتبار ، قدَّم من شاء وأخَّر من شاء ، في الخَلْق والرُّتبة ، أو الرتبة دون الخَلْق ، وهو سبحانه على كلِّ شيء قدير .

وإذا كان هذا فحقٌّ على الإنسان أن يقدّم ما قدَّمه الله ، ويؤخر ما أخَّره الله ، فإنه تعالى الخافض الرافع ، فيعزُّ من أعزَّه الله بطاعته من إخوانه المؤمنين ، ويهجر من أذَلَّه الله بمعصيته ، ثم إذا تابَ عَطَفَ عليه وقدَّمه بحسب درجته [(١)].

فمن أراد أن يرفعه الله تعالى ، ويُقدمه على غيره ، فليسابق إلى طاعته والعمل بمرضاته ، والتقرب إليه بما استطاع من محبوباته فإنه سبيل التقديم إلى مراتب الشرف والكرامة والخير والرحمة في الدنيا والآخرة .

وأما من تراخى عن الأخذ بمعاقد العزِّ والشرف ، وتكاسل عن القيام بما أوجب الله عز وجل عليه من الواجبات وتخلَّف ، وتعدَّى حدود الله ، وللتوبة سَوَّف ، فإنه المتأخر عن درجات الخير والثواب ، المؤخر في الآلام والعذاب .

فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ رأى في أصحابه تأخُّرًا فقال لهم : « **تَقدَّموا فأتموا بي ، وليأتمَّ بكم مَن بعدَكم ، لا يزال قومٌ يتأخرونَ حتى يؤخرهم** » [(٢)].

وفي رواية : رأى رســـول الله ﷺ قومًا في مَؤخَّرِ المسجد فذكر مثله [(٣)].

---

(١) المصدر السابق باختصار وتصرف .

(٢) أخرجه مسلم في « الصلاة » (١/ ٣٢٥) ، وأبو داود (٦٨٠) ، والنسائي (٢/ ٨٣) ، وابن ماجة (٩٧٨) .

(٣) أخرجها مسلم في الموضع السابق .

وقد قيل : إن معنى « يؤخرهم الله » : أي عن رحمته .

وقد ورد ما يشبه هذا .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **لا يزالُ قومٌ يتأخَّرون عن الصَّفِ الأول ، حتى يؤخرهم الله في النار** »[1].

ولهذا حثَّ ﷺ أصحابه إلى التقدم إلى الصفوف الأولى والتسابق عليها ، والتبكير إلى المساجد ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **لو يعلم الناسُ ما في النِّداء والصفِّ الأول ثم لم يجدوا إلا أن يَسْتهموا عليه لاسْتَهموا، ولو يعلمون ما في التَّهجير ، لاستَبَقوا إليه ، ولو يَعلمون ما في العَتَمةِ والصُّبحِ لأتَوْهُما ولو حَبْوًا** »[2].

وقد قال عز وجل : ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال سبحانه : ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الحديد: ٢١].

فمن كان سبَّاقًا إلى الخيرات وعمل الصالحات في الدنيا ، كان من السابقين لدخول الجنات في الأُخرى ، والناس في هذا درجات .

ففي الحديث في صفات المارِّين على الصراط يقول ﷺ : « ... **فَيَمرُّ أَوَّلُكم كالبرقِ ، قال : قلتُ : بأبي أنت وأمي ، أي شيء كمرِّ البرق ؟ قال: ألم تروا إلى البَرق كيف يمرُّ ويرجعُ في طرفةِ عين ؟ ثم كمرِّ الريح ، ثم**

---

(١) صحيح ، أخرجه أبو داود (٦٧٩) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٤٥٣) ، وابن خزيمة (١٥٥٩) ، وابن حبان (٥/٢١٥٦) وفي سنده لين لكنه يتقوى بما قبله .

(٢) رواه مسلم في « الصلاة » (١/٣٢٥) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه .

كمر الطَّير وشَدِّ الرجال ، تجري بهم أعمالُهم ، ونبيكم قائمٌ على الصراط يقول: ربِّ سلِّم سلِّم ، حتى تعجز أعمالُ العباد ، حتى يجيءَ الرَّجُلُ فلا يستطيعُ السيرَ إلا زَحفًا ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب مُعلَّقةٌ مأمورةٌ بأخذ من أُمرت به ، فمخدوش ناجٍ ومكدوس في النارِ » [1].

ويذكر ﷺ من أُخِّر عن دخول الجنة حتى دخل أهل الجنة كلهم إلى منازلهم وبقي هو ، فيقول ﷺ عنه : « ... ثم يَفرُغ اللهُ تعالى من القضاء بين العباد ، ويَبقى رجلٌ مقبلٌ بوجهه على النار ، وهو آخرُ أهل الجنة دخولاً الجنة، فيقول : أي ربِّ ! اصْرف وجهي عن النار ، فإنه قد قشبني ريحُها وأحرقني ذكاؤُها فَيدعو الله مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدْعُوا ، ثُمَّ يقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : هَلْ عَسَيْتَ إنْ فَعَلْتُ ذَلكَ بكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ ! فَيَقُولُ : لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ ، وَيُعْطِي رَبَّهُ من عُهُود وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ اللهُ ، فَيصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّار ، فَإذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّة وَرَآهَا سَكَتَ مَاشَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ . ثُمَّ يَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! قَدِّمْني إلَى بَاب الجَنَّة، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ : أَلَيْس قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثيقَكَ لاَ تَسْأَلُني غَيْرَ الَّذي أَعْطَيْتُكَ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ ! فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! وَيَدْعُو اللهَ حَتَّى يَقُولَ لَهُ : فَهَلْ عَسَيْتَ إنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ ! فَيَقُولُ : لاَ وَعزَّتكَ ! فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ اللهُ منْ عُهُود وَمَوَاثيقَ ، فَيُقَدِّمُهُ إلَى بَاب الجَنَّة ، فَإذَا قَامَ عَلَى بَاب الجَنَّة انفهقَتْ [2] لَهُ الجَنَّةُ ، فَرَأَى مَا فيهَا منَ الخَيْر وَالسُّرُور ، فَيَسْكُتُ مَاشَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! أَدْخلْني الجَنَّةَ ، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: أَلَيْس قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَواثقَكَ أَنْ لاَ تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطيتَ ، وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ ! فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! لاَ أَكُونُ أَشْقَى خَلْقكَ ، فلاَ يَزَالُ يَدْعُو

---

(١) رواه مسلم في « الإيمان » (١/ ١٨٧) من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما .

(٢) أي انفتحت واتسعت .

اللهَ حتَّى يَضْحَكَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى مِنْهُ ، فَإِذَا ضَحِكَ اللهُ مِنْهُ ، قَالَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإذا دَخَلَهَا قَالَ اللهُ لَهُ : تَمَنَّهْ ، فَيَسْأَلُ رَبَّهُ وَيَتَمَنَّى ، حَتَّى إنَّ اللهَ لَيُذَكِّرُهُ مِنْ كَذَا وَكَذَا[1] ، حَتَّى إذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ . قَالَ اللهُ تَعَالَى : ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ » .

قَالَ عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ : وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ لاَ يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِهِ شَيْئًا . حَتَّى إِذَا حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ : إِنَّ اللهَ قَالَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ : «وَمِثْلُهُ مَعَهُ » . قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ! قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : مَا حَفِظْتُ إِلاَّ قَوْلَهُ : « ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ » . قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : أَشْهَدُ أَنِّي حفظتُ من رسول الله ﷺ قوله « ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ » قال أبو هريرة: وذلك الرجلُ آخر أهل الجنة دخولاً الجنة [2].

* * *

(١) أي يقول له ربه : تمنَّ من الشيء الفلاني والشيء الفلاني ، يسمي له أجناس ما يتمنى ، فسبحان الملك الرؤوف الرحيم .

(٢) رواه البخاري في « الرقاق » (١١/ ٤٤٥) ، وفي « التوحيد » (١٣/ ٤٢٠) ، ومسلم في «الإيمان» (١/ ١٦٥ ـ ١٦٧) . من حديث عطاء بن يزيد الليثي عن أبي هريرة رضي الله عنه به

الدَّيَّانُ

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(٩)

* **المعنى اللغوي :**

الدِّينُ : الجزاء والمكافأة .

يقال : دانَه دَينا أي : جازاه ، يقال : كما تَدين تُدَانُ .

أي : كما تُجَازِي تُجَازَى ، أي : تجازَى بفعلك وبحسب ما عملت .

وقوله تعالى : ﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣] أي : مجزيون محاسبون[١] .

ومنه : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] أي يوم الحساب .

قال الجوهري : ومنه الدَّيان في صفة الله تعالى[٢].

والدِّين : الذُّل ، والمَدِين : العبد ، والمَدِينة : الأَمَةُ ، كأنهما أذلَّهما العمل .

والدِّين : الطاعة ، ودَانَ له أي : أطَاعه .

ومنه : الدِّين والجمع أديان .

يقال : دَانَ بكذا ديانةً وتَديَّنَ به ، فهو دِيِّنٌ ومُتَدَيِّنٌ .

---

(١) وقال الفراء : في قوله تعالى ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها﴾ : غير مدينين أي : غير مملوكين ، قال : وسمعت : غير مَجْزِيين « اللسان » (١٤٦٩/٢) .

(٢) « الصحاح » (٢١١٨/٥) .

والدَّيان : القَهَّار ، وهو فعَّال ، من : دانَ الناس ، أي : قهرهم على الطاعة . ودِنْتُ الرجل : حَمَلْتُه على ما يكره .

والدِّين : العادة والشأن والحال .

تقول العرب : ما زال ذلك ديني ودَيْدني ، أي عادتي .

والدَّين : واحد الدُّيون ، تقول : دِنْتُ الرجل أقرضته ، فهو مَدِينٌ ومَدْيون [1].

وأَدَنْتُه جَعَلْتُه دائنًا وذلك بأن تعطيه دَيْنًا .

والدِّين : يقال للطاعة والجزاء واستعير للشريعة .

والدِّين كالملة ، لكنه يقال اعتبارًا بالطاعة والانقياد للشريعة ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩] .

وقال : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] أي طاعةً [2].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد فيه حديث جابر بن عبد الله يقول : بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بعيرًا ثم شددت عليه رحلي فسرت إليه شهرًا حتى قدمت عليه الشام فإذا عبد الله بن أنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب فقال : ابن عبد الله ؟ قلت : نعم ، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته ، فقلت : حديثا بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القِصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ،

---

(١) انظر : « الصحاح » (٥/٢١١٧ ـ ٢١١٩) ، و « اللسان » (٢/١٤٦٧ ـ ١٤٧٠) ، و «غريب الحديث » لأبي عبيد (٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦) .

(٢) « المفردات » للراغب (ص ١٧٥) .

قال : سمعت رسولَ الله ﷺ يقول : « **يُحشرُ الناسُ يومَ القيامة ـ أو قال العباد ـ عُراة غُرلاً بُهْمًا** » ، قال : قلنا : وما بُهْما ؟ قال : « **ليس معهم شيءٌ، ثم يُناديهم بصَوت يَسمعه من بَعُد كما يَسمعه مَنْ قَرُب : أنا الملكُ ، أنا الديّان ، ولا ينبغي لأحدٍ من أهلِ النار أنْ يدخلَ النارَ ، وله عند أحدٍ من أهلِ الجنة حقٌّ ، حتى أقُصَّه منه ، ولا ينبغي لأحدٍ من أهلِ الجنة أن يدخلَ الجنة ولأحد من أهلِ النار عنده حقٌّ ، حتى أقصه منه حتى اللَّطمة** » ، قلنا : كيف! وإنا إنّما نأتي الله عز وجل عُراةً غرلاً بُهْمًا؟ قال: « **بالحَسَنات والسيِّئات** ».

زاد في رواية الحاكم والبيهقي : وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ **الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ** ﴾ [غافر: ١٧][(١)].

---

(١) صحيح، أخرجه ابن أبي عاصم في « السنة » (١/ ٢٢٥) ، وأحمد (٣/ ٤٩٥) ، والبخاري تعليقًا (١٣/ ٤٥٣) مختصرًا ، وفي « الأدب المفرد » (٩٧٠) ، وفي « خلق أفعال العباد » (ص ١٤٩ ـ ١٥٠) ، والحارث بن أبي أسامة (٤٤ـ زوائد) ، والطبراني في « الكبير » ـ كما في المجمع (١/ ١٣٣) ـ ، والحاكم (٢/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨) (٤/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥) ، وعنه البيهقي في « الأسماء » (ص٧٨ ـ ٧٩) ، والخطيب في « الرحلة في طلب الحديث » (٣١، ٣٢) كلهم عن همام بن يحيى عن القاسم بن عبد الواحد المكي عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابرًا...

قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

وقال الهيثمي : رواه أحمد ، والطبراني في « الكبير » ، وعبد الله بن محمد ضعيف !

قلت : حديثه لا ينزل عن رتبة الحسن .

قال الترمذي : صدوق ، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه ، وسمعت محمد ابن إسماعيل « يعني البخاري » يقول : كان أحمد وإسحاق والحميدي يحتجون بحديث ابن عقيل ، قال محمد بن إسماعيل : وهو مقارب الحديث .

والحديث فيه : القاسم بن عبد الواحد المكي ، قال ابن أبي حاتم عن أبيه : يكتب حديثه ، قلت : يحتج به ؟ قال : يحتج بحديث سفيان وشعبة .

أي: هو ليس بالمرتبة العليا . وذكره ابن حبان في « الثقات » .

وورد في حديث أبي قِلابة عن أبي الدرداء : البِرُّ لا يَبْلَى ، والإثمُ لا يُنسى ، والدَّيان لا يَنَام ، فَكُنْ كما شئتَ ، كما تَدِينُ تُدان [1].

= وله طريق آخر يتقوى بها :

قال الحافظ في « الفتح » : وله طريق أخرى أخرجها الطبراني في « مسند الشاميين » ، وتمام في « فوائده » من طريق الحجاج بن دينار عن محمد بن المنكدر عن جابر ... فذكر نحوه.

قال الحافظ : وإسناده صالح « الفتح » (١/ ١٧٤) .

وله طريق أخرى : عند الخطيب ، وهي ضعيفة ، أنظر تعليقنا على « مناظرة في خلق القرآن» لابن قدامة (ص ٧٠ ـ ٧٢) .

* والحديث فيه : إثبات صفة الكلام لربنا سبحانه ، وأنه يتكلم بصوت يُسمع ، وحرف يُفهم ، وهو معتقد السلف رحمهم الله .

(١) موقوف رجاله ثقات ، أخرجه أحمد في « الزهد » (ص ١٤٢) عن عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب عن أبي قلابة به .

ورجاله ثقات ، لكن في سماع أبي قلابة من أبي الدرداء نظر ، قال الحافظ في « الفتح » (٨/ ١٥٦) : أبو قلابة لم يدرك أبا الدرداء .

قلت : أبو قلابة واسمه عبد الله بن زيد الجرمي من فقهاء التابعين ، وروايته عن مالك بن الحويرث ، وأنس بن مالك ، وثابت بن الضحاك متصلة وهي في الكتب الستة .

وكذا روايته عن عائشة في « صحيح مسلم » [كما في « جامع التحصيل » (ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨)] .

فالجزم بعدم إدراكه لأبي الدرداء فيه ما فيه ، والله أعلم .

وله شاهد : يرويه المروزي في « زوائد الزهد » لابن المبارك (١١٥٥) ، وأبو نعيم (١/ ٢١١ ـ ٢١٢) عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن أبي الدرداء : اعبدوا الله كأنكم ترونه ، وعدُّوا أنفسكم في الموتى ، واعلموا أن قليلا يكفيكم خير من كثير يلهيكم ، واعلموا أن البر لا يبلى ، وأن الإثم لا ينسى .

وعبد الله بن مرة ثقة روى عن ابن عمر وغيره .

وقد جاء الأثر مرفوعًا : عند البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٧٩) من طريق عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب عن أبي قلابة قال : قال رسول الله ﷺ : ... فذكره . =

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال الخطابي : الدَّيان : وهو المُجَاري .

يقال : دِنْت الرجل إذا جزيته ، أَدينُه .

والدِّين : الجزاءُ ، ومنه المَثَل : « كما تَدينُ تُدان » .

والدَّيان أيضًا : الحاكم ، ويقال : مَنْ دَيَّانُ أرضكم ؟ أي : مَنْ الحاكمُ بها ؟ (1).

وقال الحليمي : ومنها « الدَّيان » ، أخذ من ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهو : الحاسبُ والمُجاري ، ولا يُضيع عملاً ، ولكنه يَجزي بالخير خيرًا، وبالشَّر شرًا (2).

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « الدَّيَّان » قيل : هو القَهَّار .

وقيل : هو الحاكمُ القاضي .

وهو فعَّالٌ ، من : دَانَ الناس أي : قهرهم على الطاعة .

يقال : دِنْتُهم فدانوا ، أي : قهرتُهم فأطاعوا (3).

= قال البيهقي : هذا مرسل .

وقال الحافظ : وله شاهد موصول من حديث ابن عمر أخرجه ابن عدي وضعفه .

قلت : هو في ترجمة محمد بن عبد الملك الأنصاري (٦/٢١٦٨) ، ورواه أيضًا أبو نعيم، والديلمي كما في « الضعيفة » (١٥٧٦) .

ومحمد بن عبد الملك قال النسائي : متروك.

وقال مرة : منكر الحديث . وكذا قال الشافعي ومسلم .

(١) « شأن الدعاء » (ص ١٠٦) مختصرًا ، ونقله الأصبهاني في « الحجة » (١/١٦٤) .

(٢) « المنهاج » (١/٢٠٦) وذكره في الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٧٨) ، والحافظ في « الفتح » (١٣/٤٥٨) وعنده : لا يضيع عمل عامل .

(٣) « النهاية » (٢/١٤٨) ، ونقله ابن منظور في « اللسان » ، ولم يعزه له.

* من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ ـ أن الله تعالى هو الدَّيان المحاسب والمجازي للعباد ، وهو الحاكم بينهم يوم المعاد ، كما قال سبحانه : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤] وقال : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧] .

فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يَلومنَّ إلا نفسه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠] .

وقال سبحانه : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

قال القرطبي : فيجب على كل مكلَّف أن يعلم أن الله سبحانه هو «الديَّان» يوم القيامة ، الذي يُجازي كُلاًّ بعمله ، فيقتصُّ للمظلوم من الظالم ، ومن السيد لعبده ، كما في حديث عائشة أن رجلاً قَعَد بين يدي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنَّ لي مملوكين ... الحديث خرَّجه الترمذي[1] وقد تقدم في اسمه الحاسب .

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٦/ ٢٨٠) ، والترمذي (٣١٦٥) عن عبد الرحمن بن غزوان أبي نوح حدثنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة : أن رجلاً قَعَد بين يدي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم ؟ قال : « يُحْسَبُ ما خانوكَ =

وروى مسلم[1] عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أتَدرونَ مَا المُفْلس ؟» قالوا : المفلسُ فينا مَن لا دِرهمَ له ولا مَتَاع ، قال : « إن المُفْلس من أُمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شَتَم هذا ، وقَذَفَ هذا ، وأكَل مالَ هذا ، وسفكَ دَمَ هذا ، وضربَ هذا ، فَيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فَنيتْ حسناته قبل أن يُقْضى ما عليه أُخذَ من خَطَايَاهم فَطُرِحتْ عليه ثم طُرِحَ في النار » .

ثم عليه أن يَدين بطاعته .

وكما يَدين يُدان .

وهل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسان .

فإذا دَانَ نفسه بالطاعة ، وحَكَم قَلبه الذي هو الأميرُ على رعاياه التي هي جوارحه ، واشْتدَّ في الحكم لدين الله الذي به نبيه ﷺ ، وأشَاع هذا في الخَلق ، وأظهر دين الله بالحق ، فهو دَيَّانٌ من دَيَّاني هذه الأمة ، وقد استوجب يومَ الدين : عظيمَ الحُرْمة [2].

= وعَصَوكِ وكذبوك وعقابُك إياهم ، فإنْ كان عِقابُك إيَّاهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا ، لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك ، وإن كان عقابُك إياهم فوق ذنوبهم اقتصَّ لهم منك الفَضْل » قال فتنحَّى الرجل فجعل يبكي ويهتف ، فقال رسول الله ﷺ : « أما تقرأ كتابَ الله ﴿ ونضعُ الموازين القِسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ فقال الرجل : والله ما أجد [illegible] ولهؤلاء شيئًا خيرًا من مفارقتهم ، أشهدكم أنهم أحرارٌ كلهم .

وإسناده [illegible] ، رجاله ثقات رجال الشيخين سوى عبد الرحمن بن غزوان المعروف بقُراد فثقة من [illegible] البخاري وحده . وقال [illegible] ثقة له أفراد .

(1) مسلم في « البر » (4/1997) .

(2) « النكت [illegible] الأسنى » (2/ورقة 381 ب 382 أ) .

٢ ـ ينبغي للعبد أن يحاسب نفسه قبل أن يُحاسب ويستعد للقاء ديان السموات والأرضين قبل مجيء يوم الدين .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزِنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا ، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتَزَيَّنوا للعَرض الأكبر ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية [١].

وقد ورد في حديث جابر السابق أن الناس يحشرون يوم القيامة عُراة غرلاً بُهْما ـ أي : ليس معهم شيءٌ ـ ثم يناديهم بصوت يسمعه البعيد كما يسمعه القريب قائلا لهم : أنا الملِكُ أنا الديان ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحدٍ من أهل الجنة حقٌّ ، حتى أَقُصَّهُ منه .

ولا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يَدخل الجنة ولأحدٍ من أهل النار عنده حقٌّ حتى أقصَّه منه حتى اللَّطمة .

فسأل أصحاب النبي ﷺ عن كيفية القصاص وقد حشروا حفاةً عراة بُهْمًا ليس معهم درهم ولا دينار ؟!

فأجابهم ﷺ : أن القصاص يكون بالحسنات والسيئات ، أي : يأخذ المظلوم من حسنات الظالم ، فإنْ لم يكن عنده حسنات أُخذ من سيئات المظلوم فوضعت على الظالم ، ثم تلا رسول الله ﷺ الآية : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر : ١٧].

قال القرطبي[٢]: ولقد أحسن أبو العتاهية في قوله حين حبسه الرشيد:

(١) أثر موقوف حسن ، رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس والإزراء عليها » برقم (٢) . وذكره الترمذي تعليقًا في « صفة القيامة » (٤/٦٣٨).

(٢) «الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٣٨١ أ) .

أَمَـا واللهِ إنَّ الظُّلْــمَ لُؤْمٌ ... ومازال المُسِيءُ هو الظَّلومُ

إلى ديَّانِ يومِ الدِّين نَمْضي ... وعند اللهِ تجتمعُ الخُصُومُ

* * *

الحَنَّانُ

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١٠)

*** المعنى اللغوي :**

الحَنَان : الرحمة .

يقال منه : حَنَّ عليه يَحِنُّ حنانًا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [مريم: ١٣].

والحَنَّان بالتشديد : ذو الرحمة ، والذي يحنُّ إلى الشيء .

وتحنَّنَ عليه : تَرحَّم .

والعرب تقول : حَنَانَك يا رب ، وَحَنَانَيْكَ يا رب ، بمعنى واحد ، أي : رحمتك ، وحنانًا بعد حنان .

وقال ابن سيده في معناه : كلما كنتُ في رحمةٍ منك وخيرٍ فلا ينقطعنَّ ، وليكن موصولا بآخر من رحمتك [(١)].

وقال طَرَفة :

أبَا مُنْذرٍ أفْنَيتَ فاستَبْقِ بعضَنَا حَنَانَيكَ بعضُ الشرِّ أَهْونُ من بعضِ

والحَنين : الشوقُ وتَوَقَانُ النفس .

---

(١) وقال ابن قتيبة في « غريب الحديث » (١/ ٢٢٠) : حَنانيك ربنا ، أي : هبْ لنا رحمةً بعد رحمة ، أو رحمة مع رحمة ، وكما قالوا : سعديك ، أي سعدًا مقرونًا بسعد .

تقول منه : حَنَّ إليه يحِنُّ حنينًا فهو حَانٌّ .

وحنينُ النَّاقة : صوتُها في نزاعها إلى ولدها .

والحَنُون : ريحٌ لها حَنِينٌ كحنين الإبل .

وما له حانَّةٌ ولا آنَّةٌ : أي ناقة ولاشاة .

وحَنَّةُ الرجل : امرأتُه ، لتحننه عليها .

وطريق حنَّان : بيِّنٌ واضح منبسط [1].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أنس رضي الله عنه قال : كنتُ جالسًا مع النبي ﷺ في المسجد ورجلٌ يُصلِّي فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنتَ الحنَّان المنَّان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلالِ والإكرام، يا حيٌّ يا قيوم ، فقال النبي ﷺ : « **دَعَا اللهَ باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئِل به أعْطى** » [2].

---

(١) « الصحاح » (٥/ ٢١٠٤ ـ ٢١٠٥) ، و« اللسان » (٢/ ١٠٢٩ ـ ١٠٣١) ، و« المفردات » (ص ١٣٣) ، و« غريب الحديث » للهروي (٤/ ٤٠١) ، وابن جرير (١٦/ ٤٤) .

(٢) حديث صحيح ، سبق تخريجه في الجزء الأول من الكتاب .

فقول ابن العربي ـ كما في « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٣٢١ أ) ـ : « وهذا الاسم لم يرد به قرآن ولا حديث صحيح وإنما جاء من طريق لا يعوّل عليه ، غير أن جماعة من الناس قبلوه وتأوّلوه وكثُر إيراده في كتب التأويل والوعظ » .

مما لا يعول عليه ، لأن الحديث صحيح .

وقد قال القرطبي معقبًا عليه : قد اجتلبنا فيه من الأخبار ما صحَّ به مورده وثبت معناه وذكره جماعةٌ من العلماء ...

* ملاحظة : أما حديث أنس مرفوعا : « إن عبدًا في جهنم لينادي ألف سنة : يا حنان يا منان ، قال : فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فائتني بعبدي هذا فينطلق جبريل فيجد =

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

جاء عن ابن عباس أنه قال : لا والله ما أدري ما حنَّانا [1].

وذلك في قوله تعالى : ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣].

وروى عنه أنه قال : ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقول : ورحمةً من عندنا [2].

ونحوه عن قتادة [3].

قال الأزهري : هو بتشديد النون صحيح . قال : وكان بعض مشايخنا أنكر التَّشديد فيه ، لأنه ذهب به إلى الحنين ، فاستوحش أن يكون الحنين من صفات الله تعالى ، وإنما معنى « الحنَّان » : الرحيم ، من الحنان وهو الرحمة [4].

= أهل النار مكبين يبكون ، فيرجع إلى ربه فيخبره فيقول : ائتني به فإنه في مكان كذا وكذا ، فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل فيقول له : ياعبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : أي ربِّ شر مكان وشر مقيل ، فيقول : ردُّوا عبدي ، فيقول : يارب ما كنت أرجو إذْ أخرجتني منها أن تردّني فيها ، فيقول : دعوا عبدي » .

فهو حديث ضعيف ، رواه أحمد (٣/ ٢٣٠)، والبيهقي في «الأسماء» (ص ٨٤) وغيرهما.

وفيه : أبو ظِلال واسمه : هلال بن ميمون ، قال ابن معين : ضعيف ليس بشيء ، وقال النسائي والأزدي : ضعيف ، وقال ابن عدي : عامة ما يرويه لا يتابعه الثقات عليه ، وقال البخاري : عنده مناكير . « الميزان » (٤/ ٣١٦) .

(١) إسناده صحيح ، أخرجه ابن جرير (١٦/ ٤٣) ، وأبو عبيد في « غريب الحديث » (٤/ ٤٠٢) عن حجاج ـ وهو ابن محمد المصيصي ـ عن ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار عن عكرمة به ورجاله ثقات ، وابن جريج قد صرح بالتحديث عند ابن جرير .

(٢) رواه ابن جرير (١٦/ ٤٣) وهو من رواية علي بن أبي طلحة عنه ، وروى البيهقي في «الأسماء» (ص٨٤) عنه قال : التعطف بالرحمة وسنده صحيح .

(٣) المصدر السابق ، بسندين عنه ، وهو صحيح .

(٤) « اللسان » (٢/ ١٠٢٩) .

وقال الخطابي : « الحنَّان » معناه : ذو الرحمةِ والعَطْف .

والحَنَان مخفّف : الرحمة [1].

وقال الحليمي : ومنها « الحنان » : وهو الواسعُ الرحمة ، وقد يكون المُبالغُ في إكرامِ أهلِ طاعته ، إذا وافوا دار القرار ، لأن من حنَّ إلى غيره من الناس ، أكرمه عند لقائه ، وكَلِفَ به عند قدومه [2].

وقال ابن الأعرابي : « الحنَّان » من صفات الله الرحيم [3].

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « الحنَّان » وهو بتشديد النون: الرحيم بعباده ، فعَّال ، من الرحمة للمبالغة[4].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ أن الله تعالى هو الرحيم بعباده ، ذو العطف والحنان ، يكرم المحسنين ، ويغفر ويصفح للمسيئين ، إن تابوا إليه فهو حبيبهم ، وإن أعرضوا عنه فهو طبيبهم، يتحبب إليهم بالنِّعم، ويتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم نازل ، وشرهم إليه صاعد ! وهذا والله هو الحال العجيب .

٢ ـ وإذا كان هذا حال الرب مع العبد ، فالأولى أن يكون العباد كذلك مع بعضهم البعض ، يرحم بعضهم بعضا ، فيتحنن الأخ على أخيه ويعطف عليه ، ويصفح عن زلته ، ويقيل عثرته ، ويكون كما

---

(١) « شأن الدعاء » (ص ١٠٥) ، وبنحوه قال البيهقي في « الاعتقاد » (ص ٦٧) ، والأصبهاني في « الحجة » (١/ ١٦٤) .

(٢) « المنهاج » (١/ ٢٠٧) ، وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٨٤) .

(٣) «الأسماء والصفات» للبيهقي (ص ٨٥) ، و «الكتاب الأسنى» للقرطبي (٢/ ورقة ٣٢٢ ب).

(٤) « النهاية » (١/ ٤٥٣) .

وصف نبي الرحمة ﷺ المؤمنين بقوله : « **مثل المؤمنين في توادِّهم وتَراحُمهم وتعاطُفهم ، مثل الجَسَدِ ، إذا اشتكي منه عُضْوٌ ، تَدَاعى له سائرُ الجَسَدِ بالسَّهر والحُمَّى** »[1].

قال القرطبي : فيجب على كل مسلم أن يتخلَّقَ بهذين الاسمين : (يعني : الحنان والمنان) وسائر الأسماء ... رقيق القلب ، لأن الحنان حقيقته في المخلوق رقةٌ في النفس ، وميلٌ مُفْرطٌ في الجِبلَّة والطبع ، لشوقٍ مزعج وتوق مُفْرط .

فَرِقَّة القلب تَحْملُ على التَّعطف والرحمة والرأفة والشفقة ، وعنها تكون الأُلْفة والفُرقة .

وقد ذَمَّ اللهُ غِلَظ القلب فقال : ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال عليه السلام : « **أتاكم أهلُ اليَمنِ ، هم أَضْعفُ قلوبًا ، وأرقُّ أفئدةً** » وفي رواية : « **ألين قلوبًا** » بدل « **أضعف** »[2].

مَدَحهم بذلك .

كما ذَمَّ الفدَّادين فقال : « **القَسْوة وغِلظ القلوب في الفدادين** »[3].

---

(١) رواه مسلم في « البر والصلة والآداب » (٤/١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠) من حديث الشعبي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في « المغازي » (٨/٩٨ ، ٩٩) ، ومسلم في « الإيمان » (١/٧١ ، ٧٢ ، ٧٣) من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري في « بدء الخلق » (٦/ ٣٥٠)، وفي «المناقب » (٦/٥٢٦)، وفي « المغازي» (٨/٩٨)، وفي « الطلاق » (٩/٤٣٩) ، ومسلم في « الإيمان » (١/٧١) من حديث قيس ابن أبي حازم عن أبي مسعود قال: أشار النبي ﷺ بيده نحو اليمن فقال : « ألا إنَّ الإيمان ههنا ، وإنَّ القَسْوة وغِلَظ القلوبِ في الفدَّادين عند أصول أذناب الإبل ، حيث يطلعُ =

وجعل ﷺ رِقَّةَ القلب علامةَ الجنة ، فقال : « أهل الجنة ثلاثةٌ : ذو سلطانٍ مُقْسط متصدِّق موفَّق ، ورجلٌ رحيمٌ رقيقُ القلب لكلِّ ذي قُرْبى ومسلمٍ ، وعفيفٌ متعفِّفٌ ذو عيال »[1].

ويجب عليه الشكر لنعم الله وآلائه في المزيد من فضله ، ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧][2].

* * *

= قرنا الشيطان في رَبيعة ومُضر » واللفظ لمسلم .

والفدادين : جمع فدَّاد وهو من الفديد وهو : الصوت الشديد ، فهم الذين تعلو أصواتهم في إبلهم وخيلهم وحروثهم ونحو ذلك (نووي) .

وللحديث ألفاظ أخرى من رواية أبي هريرة وجابر رضي الله عنهما .

(١) رواه مسلم في « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » (٤/ ٢١٩٧ ـ ٢١٩٨) من حديث مطرف ابن عبد الله عن عياض بن حمار المجاشعي وأوله : أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : « ألا إنَّ ربي أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتم مما علَّمني يومي هذا ، كلُّ مالٍ نحلته عبدًا حلالٌ ، وإني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمتْ عليهم ما أحللت لهم ...» الحديث .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ١٣٢٣ ـ ب) .

المَنَّان

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١١)

*** المعنى اللغوي :**

مَنَّ عليه يَمُنُّ مَنًّا : أحسنَ وأنعم .

والاسم : المِنَّةُ ، وهي العطية ، والمنُّ : العطاء .

ومَنَّ عليه وامْتَنَّ وتمنَّنَ : قَرَّعه بمِنَّة .

يقال : المِنَّةُ تهدم الصَّنيعة .

والمَنُّ : القَطْعُ ، ويقال : النقص ، ومنه قوله تعالى : ﴿**لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ [فصلت: ٨].

والمَنُّ : شيء حلو كالطَّرَنْجبين ، في قوله تعالى : ﴿**وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ**﴾ [البقرة: ٥٧].

وفي الحديث : « الكمأة من المن »[١].

المُنَّةُ بالضم : القُوة[٢].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أنس السابق .

---

(١) رواه مسلم في « الأشربة » (١٦١٩/٣ ـ ١٦٢١) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه

(٢) « الصحاح » (٢٢٠٧/٦) ، و« اللسان » (٤٢٧٧/٦ ـ ٤٢٧٩) .

وورد في التنزيل فعلاً ، قال الله تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال : ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

* معنى الاسم في حق الله تعالى :

قال الزجاجي : « المنَّان » فعالٌ من قولك : مننتُ على فلان ، إذا اصطنعت عنده صنيعة وأحسنت إليه .

فالله عز وجل منَّانٌ على عباده بإحسانه وإنعامه ورزقه إياهم .

وفلان يمنُّ على فلان : إذا كان يعطيه ويحسن إليه [١].

وقال الخطابي : وأما « المنَّان » فهو كثير العطاء [٢].

وقال الجوهري : و « المنَّان » من أسماء الله تعالى [٣].

وقال الحليمي : ومنها : « المنان » وهو عظيمُ المواهب ، فإنه أعطى الحياة والعقل والنطق ، وصوَّر فأحسن الصور ، وأنْعم فأجزل ، وأسْنَى النِّعم ، وأكثر العطايا والمِنَح ، قال ـ وقوله الحق ـ : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤][٤].

وقال أبو بكر ـ هو الأنباري ـ : وفي أسماء الله تعالى الحنَّان المنَّان، أي الذي يُنْعِم غيرَ فاخرٍ بالإنعام .

وقال في موضع آخر في شرح المنان :

---

(١) « اشتقاق أسماء الله » (ص ١٦٤) .

(٢) « شأن الدعاء » (ص ١٠٠) ، وبنحوه قال البيهقي في « الاعتقاد » (ص ٦٧) .

(٣) « الصحاح » (٦/ ٢٢٠٧) .

(٤) « المنهاج » (١/ ٢٠٣) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٦٥) .

معناه : المُعْطي ابتداءً ، ولله المِنَّةُ على عباده ، ولا مِنَّة لأحدٍ منهم عليه ، تعالى الله علوًا كبيرًا [1].

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « المنَّان » : هو المُنْعم المعطي ، من المنِّ : العَطاء ، لا من المنة .

وكثيرًا ما يَردُ المنُّ في كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يَسْتَثيبُه ولا يطلب الجزاء عليه .

فالمنّان من أبنية المبالغة ، كالسَّفَّاك والوهاب [2].

وقال القرطبي : ومنها المنان جل جلاله وتقدست أسماؤه .

قال : يقال منه : مَنَّ يمنُّ منًّا فهو المنَّـــان ، والاسم : المِنَّة واشتقاقــه في موضـــوع اللســـان من المَـــنّ وهو العطـــاء دون طلب عوض .

ومنه قوله تعالى : ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ [ص: ٣٩] في أحد وجوهه .

ويكون أيضًا مشتقًا من : المِنَّة ، التي هي التَّفاخر بالعطية على المُعْطى ، وتعديد ما عليه .

والمعنيان في حقِّ الله تعالى صحيحان .

ويتَّصف أيضًا بهما الإنسان ، لكن يتصف بالمعنى الواحد على طريق المدح ، وبالمعنى الثاني على طريق الذَّم .

فالأول : الذي هو ممدوح ، نحو أن يكون عطاؤه أو منُّه لوجه الله تعالى ، لا لنيل عوضٍ من الدنيا .

---

(١) « اللسان » (٦/٤٢٧٩) .

(٢) « النهاية » (٤/٣٦٥) .

ومن هذا القسم قوله عليه السلام : « **وإنَّ من أَمَنِّ الناسِ عليَّ في ماله أبو بكر** » .

وقوله : « **ما أَحَدٌ أمنَّ عليَّ من ابن أبي قُحافة** »[1].

والقسم الثاني : وهو أن يَمنَّ الإنسان بالعطية ، أي : يَذكرها ويُكررها، فهو المذموم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ** ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال رسول الله ﷺ : « **ثلاثة لا يُكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم : المُسْبِل ، والمـنَّان ، والمُنَفِّقُ سِلْعَتَه بالحلف الكاذب** » .

والمنَّان : الذي لا يُعطي شيئًا إلا مَنَّة ، كذا جاء مفسَّرًا في كتاب مسلم[2].

والمنان أيضًا : الذي يَمنُّ على الله بعمله .

وهذا كله في حقِّ المخلوق حرامٌ مذمومٌ .

---

(١) رواهما البخاري في « الصلاة » (١/٥٥٨) ، وغيره ، وأحمد (١/ ٢٧٠) (٣/ ٤٧٨) (٣/ ٢١١ ـ ٢١٢) من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس وأبي المعلى رضي الله عنهم بألفاظ متقاربة .

ولفظ حديث ابن عباس : خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عَاصبًا رأسَه بخِرقة فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إنه ليس من الناس أحدٌ أمنَّ علي في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قحافة ، ولو كنت متخذًا من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن خلة الإسلام أفضل ، سدوا عني كل خوخةٍ في هذا المسجد غيرَ خوخة أبي بكر » .

(٢) رواه في « الإيمان » (١/١٠٢) من حديث أبي ذر .

والتفسير المذكور جاء مرفوعا فيه من قوله ﷺ .

وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ : « لا يَدْخل الجنَّةَ منَّان »[1].

ولما كان الباريُ سبحانه يُدر العطاء على عباده منًّا عليهم بذلك وتفضُّلاً ، كانت له المنة في ذلك .

فيرجع المنان إذا كان مأخوذًا من المنِّ الذي هو العطاء إلى أوصاف فعله .

ويرجع المنان إذا أخذتَه من المنَّة التي هي تِعداد النعمة وذكرها والافتخار بفعلها في معرض الامتنان ، إلى صفة كلامه تعالى[2].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إن الله تعالى هو المنَّان الذي مَنَّ على عباده بأنواع الإحسان والإنعام والأرزاق والعطايا .

وهو سبحانه كثير العطاء ، فلا نهاية لتوسعته : ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقال : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد ذكَّر الله تعالى عباده ببعض منته عليهم فمن ذلك قوله : ﴿لَقَدْ

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد (٢/ ٢٠١، ٢٠٢)، والدارمي (٢/ ١١٢)، والنسائي (٨/ ٣١٨)، وابن خزيمة في « التوحيد» (ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦)، وابن حبان (١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ـ زوائد)، والطحاوي في « المشكل » (١/ ٣٩٥) عن سالم بن أبي الجعد عن جابان عن عبد الله بن عمرو مرفوعا به ، وتمامه : « ... ولا عاق والديه ، ولا مدمن خمر ، ولا ولد زنية » . وقد أعلّه ابن خزيمة بجهالة جابان وباسقاطه نبيط من هذا الإسناد ، لكن هو مذكور في الإسناد عند النسائي .

وللحديث شواهد يتقوى بها ، انظر تعليقنا على « إبطال التأويلات » (٢/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧) .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٣١٨ ب ـ ٣١٩ ب) .

مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾

[آل عمران: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء: ٩٤].

فذكَّرهم سبحانه وتعالى بنعمة هدايته لهم وقد كانوا في ظلمات الكفر يترددون، وعلى شفير جهنم هم قائمون.

ونحوها قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

[الحجرات: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص: ٥، ٦].

فيها امتنان على بني إسرائيل وما حصل لهم من العزة والقوة والتمكين في الأرض بعد أن كانوا في ذلة واستضعاف وتبعية لفرعون وملائه.

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٤ - ١١٨].

ويوسف نبي الله عليه الصلاة والسلام يذكر نعمة ربه عليه وعلى

أخيه، وأنه سبحانه لم يضع صبره وتقواه بل أورثه ذلك حسن العاقبة، فيقول لإخوته: ﴿**أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف: ٩٠].

وكذا أهل الجنة يذكرون حالهم في الدنيا وخوفهم من ربهم ثم يذكرون نعمة الله عليهم في الجنان، ونجاتهم من سموم النيران، فيقولون: ﴿**قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ**﴾ [الطور: ٢٦ - ٢٨].

قال القرطبي: فيجب على كلِّ مسلمٍ أن يعلم أن لا منَّان على الإطلاق إلا الله وحده، الذي يبدأ بالنَّوَال قبل السؤال.

ثم يعترف بالمنَّة لله وحده.

كما روي أن النبي ﷺ لما جَمَعَ الأنصار فذكَّرهم، وقال: «**أَلَم يكن أمركم شيئًا فَجمَعه اللهُ بي، أَلم تكونوا عَالةً فأَغناكم الله بي، أَلم تكونوا خائفين فأَمَّنكم اللهُ بي**» وهم في ذلك يقولون: **اللهُ** ورسوله أَمَنُّ... الحديث إلى آخره[1].

(١) أخرجه بنحوه البخاري في «المغازي» (٨/٤٧)، وفي «التوحيد» (١٣/٣٢٥)، ومسلم في «الزكاة» (٢/٧٣٨ _ ٧٣٩) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: «لما أفاءَ اللهُ على رسولِه ﷺ يومَ حُنَينٍ قسمَ في الناس في المؤلفةِ قلوبهم ولم يُعطِ الأنصارَ شيئًا، فكأنهم وَجَدوا إذ لم يُصبهم ما أصابَ الناسَ، فخطَبَهم فقال: يا مَعشَرَ الأنصار، ألم أجدْكم ضُلالًا فهَداكم اللهُ بي، وكنتم متفرِّقين فألَّفكم اللهُ بي، وعالةً فأغناكم اللهُ بي؟ كلَّما قال شيئًا قالوا: اللهُ ورسولُه أمنُّ. قال: ما يَمنعُكم أن تجيبوا رسولَ الله ﷺ؟ قال: كلَّما قال شيئًا قالوا: اللهُ ورسولُه أمنُّ. قال: لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا. ألا ترضَونَ أن يذهبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ، وتذهبونَ بالنبيِّ ﷺ إلى رِحالِكم؟ لولا الهجرةُ، لكنتُ امرءًا من الأنصار. ولو سلكَ الناسُ واديًا وشِعبًا لَسلَكتُ واديَ الأنصارِ وشِعبَها، الأنصارُ شِعار، والناسُ دِثار، إنكم ستَلقَونَ بعدي أثرة، فاصبروا حتى تَلقَوني على الحوْض». =

(فأقرُّوا) لله ثم لرسوله بالنعمة ، وولَّوا النعمة لربِّ النعمة ، والله أعلم. ثم إذا أَعْطى أحدًا من خلقه مما أنْعم الله تعالى به عليه فلا يَمنّ به، بل يَستصغره ، ويَتَناساه ، ويَرى الفضل لغيره في قَبوله منه ، لا له.

وقال بعضهم : المنُّ التَّحدُّثُ بما أعطى حتى يبلغ ذلك المُعْطَى فيؤذيه .

قال العلماء : وإنما على المرء أن يُريد وجه الله تعالى وثوابه بانفاقه على المُنْفَق عليه ، ولا يرجو منه شيئًا ، ولا ينظر من أحواله في حالٍ سوى أن يُراعي استحقاقه .

قال الله تعالى : ﴿ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ﴾ [الإنسان: ٩].

ومتى أنفقَ ليريد من المنفق عليه جزاء بوجهٍ من الوجوه ، فهذا لم يُرِدْ به وجه الله ، فهذا إذا أخْلَف ظنَّه فيه ، مَنَّ بإنفاقه وآذاه .

وكذلك من أنفقَ مضطراً دافعَ غُرمٍ ، إما لأنه المُنْفِقُ عليه ، أو لعلة أخرى ، من اعتناء مُعْتنٍ ، فهذا لم يُرد به وجه الله ، وإنما يقبل ما كان عطاؤه لله ، وأكبر قصده ابتغاء ما عند الله [1].

= قال الحافظ في « الفتح » (٨/ ٥٠) : وقد رتَّب ﷺ ما منَّ الله عليهم على يده من النعم ترتيبًا بالغًا ، فبدأ بنعمة الإيمان التي لا يُوازيها شيءٌ من أمر الدنيا ، وثنَّى بنعمة الألفة وهي أعظم من نعمة المال ، لأن الأموال تبذل في تحصيلها وقد لا تحصل ، وقد كانت الأنصار قبل الهجرة في غاية التنافر والتقاطع لما وقع بينهم من حرب بُعاث وغيرها كما تقدم في أول الهجرة ، فزال ذلك كله بالإسلام كما قال الله تعالى : ﴿ لو انفقتَ ما في الأرض جميعًا ما أَلَّفت بين قلوبهم ولكن الله أَلَّف بينهم ﴾ .

وقال (ص ٥٢) : وفيه : أن المنَّة لله ورسوله على الإطلاق .

(١) « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٣١٩ ب ـ ٣٢٠ ب) باختصار .

وهناك بعض الكلمات وجدت صعوبة في قراءتها بسبب انطماسها ، فكتبتها كما ظهرت لي ومن سياق الجملة .

٢ ـ قد ذكرنا حديث الرسول ﷺ في حرمة المنّ ، وأن المنان من الثلاثة الذين لا يُكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم ، وهو أنه لا يعطي شيئًا إلا منَّه .

وقد قسم الإمام ابن القيم رحمه الله المنَّ في الناس إلى قسمين في كلامه عن المنفقين وأنواعهم فقال :

فالمن نوعان : أحدهما منٌّ بقلبه مِن غير أنْ يُصَرَّحَ به بلسانه ، وهذا إنْ لم يبطلْ الصدقة ، فهو من نقصان شهودِ منَّة الله عليه في إعطائه المال وحِرمان غيره ، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه ، فللَّه المنة عليه من كل وجه ، فكيف يشهد قلبه منة لغيره ؟

والنوع الثاني : أنْ يمنَّ عليه بلسانه ، فيعتدى على من أَحسنَ إليه بإحسانه ، ويُريه أنه اصطنعه وأنه أوجب عليه حقا وطوَّقه مِنةً في عنقه فيقول : أما أعطيتك كذا وكذا ؟ ويعدد أياديه عنده .

قال سفيان : يقول أعطيتك فما شكرت .

وقال عبد الرحمن بن زياد كان أبي يقول : إذا أعطيت رجلا شيئًا ورأيت أن سلامك يثقل عليه فكف سلامك عنه ، وكانوا يقولون : إذا اصطنعتم صنيعةً فانسوها ، وإذا أُسْدِيتْ إليكم صنيعة فلا تنسوها .

وفي ذلك قيل :

وإنْ امرءًا أَهْدى إليَّ صَنيعةً ... وذَكَّرنِيها مرةً لَبَخيلُ

وقيل : صِنْوانٌ مَنْ مَنَحَ سائله ومنَّ ، ومَن مَنعَ نائله وضَنَّ .

*** ثم ذكر اختصاص الله تعالى بالمنِّ وأسباب ذلك فقال :**

وحظر الله على عباده المنَّ بالصنيعة واختص به صفة لنفسه لأنَّ منَّ

العباد تكديرٌ وتَعيير ، ومَنُّ الله سبحانه وتعالى إفضال وتذكير .

وأيضًا : فإنه هو المنعم في نفس الأمر والعباد وسائط ؛ فهو المنعم على عبده في الحقيقة .

وأيضًا فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يمن عليه ولا تصلح العبودية والذل إلا لله .

وأيضًا فالمنة أن يشهد المعطي أنه هو ربُّ الفضل والإنعام وأنه ولى النعمة ومُسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا الله .

وأيضًا فالمانُّ بعطائه يشهد نفسه مترفعًا على الآخذِ مُستعليًا عليه غنيا عنه عزيزًا ، ويشهد ذلَّ الآخذ وحاجته إليه وفاقته ، ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضًا فإنَّ المُعْطي قد تولى الله ثوابه وردَّ عليه أضعاف ما أعطى ، فبقي عِوضَ ما أعطى عند الله ، فأيُّ حق بقى له قبل الآخذ ؟ فإذا امتن عليه فقد ظَلَمه ظُلمًا بيِّنًا ، وادَّعى أنَّ حقه في قلبه ، ومن هنا ـ والله أعلم ـ بَطَلَت صدقته بالمن ، فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله ، وعِوض تلك الصدقة عنده ، فلم يرضَ به ولاَحَظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمنَّ عليه بما أعطاه ، أبطَلُ معاوضته مع الله ومعاملته له.

*** ثم بيَّن رحمه الله تعالى أن المنَّ ولو كان بعد الإنفاق بمدة ضرَّ بصَاحِبِه ، فقال :**

فتأمل هذه النصائح من الله لعباده ، ودلالته على ربوبيته وإلهيته وحده، وأنه يُبْطلُ عملَ مَنْ نازعه في شيءٍ من ربوبيته وإلهيته ، لا إله غيره ولا رب سواه . ونبَّه بقوله : ﴿**ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى**﴾ على أن المنَّ والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطالَ زمنه ضرَّ بصاحِبِه ،

ولم يَحصل له مقصود الإنفاق ، ولو أتى بالواو وقال : ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، لأوهمْت تقييد ذلك بالحال ، وإذا كان المنّ والأذى المتراخي مُبْطلاً لأثر الإنفاق مانعًا مِنَ الثواب فالمقارن أولى وأحرى .

وتأمَّل كيف جَرَّد الخبر هنا عن الفاء فقال : ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ وقرنه بالفاء في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤] فإنَّ الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشَّرط والجزاء وأنه مستحقٌ بما تضمنه المبتدأ من الصِّلة أو الصفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره ، جَرَّد الخبر عن الفاء ، فإنَّ المعنى : إن الذي ينفق ماله لله ، ولا يمنّ ولا يؤذي ، هو الذي يستحق الأجر المذكور ، لا الذي ينفق لغير الله ، ويَمنُّ ويُؤذي بنفقته ، فليس المقام مقام شرطٍ وجزاء ، بل مقام بيان للمستحق دون غيره .

وفي الآية الأخرى : ذَكَرَ الإنفاق بالليل والنهار سرا وعلانية ، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال ، فأتى بالفاء في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقتٍ وُجِدَ من ليلٍ أو نهار ، وعلى أي حالة وُجد من سر وعلانية فإنه سبب للجزاء على كل حال ، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله . ولا يُؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار ، ولا نفقة النهار إلى الليل ، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر ولا بنفقة السر وقت العلانية ، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه ، فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك لا تظفر بها [فيما] يمر بك في التفاسير ، والمنة والفضل لله وحده لا شريك له .

* [ردُّ السائل بالقول المعروف والعفو عنه خيرٌ من التصدق عليه ثم إيذائه بالمنِّ والقول] :ـ

ثم قال تعالي : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣] فأخبر أن القولَ المعروف: وهو الذى تَعرفه القلوب ولا تُنكره ، والمغفرة وهي: العفو عمن أساءَ إليك ، خيرٌ من الصَّدقة بالأذى ، فالقول المعروف إحسانٌ وصدقة بالقول ، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة ، فهما نوعان من أنواع الإحسان ، والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها ، ولا ريب أنَّ حسنتين خير من حسنة باطلة .

ويدخل في المغفرة : مغفرته للسائل إذا وَجَدَ منه بعضَ الجفوة والأذى له بسبب رده ، فيكون عفوه عنه خيرًا منْ أن يتصدَّق عليه ويؤذيه. هذا على المشهور من القولين في الآية .

والقول الثاني : أن المغفرة من الله ، أي : مغفرة لكم من الله بسبب القول المعروف والرد الجميل خير من صدقة يتبعها أذى .

وفيها قول ثالث : أي مغفرة وعفو من السائل إذا رُدَّ وتعذر المسئول، خيرٌ من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى .

وأوضح الأقوال هوالأول ، ويليه الثاني ، والثالث ضعيف جدًا لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسئول لا للسائل الآخذ .

والمعنى أن قول المعروف له والتجاوز والعفو خير لك من أنْ تتصدَّق عليه وتؤذيه .

ثم خَتَم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال :﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ

حَلِيمٌ ﴾ ، وفيه معنيان : أحدهما أنَّ الله غنيٌ عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم ، وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة ، فنفعها عائدٌ عليكم لا إليه سبحانه وتعالى ، فكيف يَمنُّ بنفقته ويُؤذي مع غنى اللهالتام عنها ، وعن كلِّ ما سواه ، ومع هذا فهو حليمٌ إذْ لم يُعاجل المانَّ بالعقوبة ، وضمن هذا الوعيد والتحذير .

والمعنى الثاني : أنه سبحانه وتعالى مع غناه التام من كل وجهٍ فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح ، مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة ، فكيف يُؤذي أحدُكم بمنِّه وأذاه ، مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره !

*** [المنَّ والأذى مما يُحبط الصدقات] :ـ**

ثم قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٦٤] تضمنت هذه الآية الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة ، وهذا دليل على أنَّ الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ [الحجرات: ٢] وقد تقدم الكلام على هذه المسألة في أول هذه الرسالة فلا حاجة إلى إعادته .

وقد يقال : إنَّ المنَّ والأذى المقارن للصَّدقة هو الذي يُبطلها دون ما يلحقها بعدها ، إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا التقييد ، والسياق

يدل على إبطالها به مطلقًا ، وقد يقال : تمثيله بالمُرَائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر يدل على أن المنّ والأذى المُبْطل هو المقارن كالرياء وعدم الإيمان ، فإنّ الرياء لو تأخر عن العمل لم يبطله .

ويجاب عن هذا بجوابين : أحدهما : أن التشبيه وقع في الحال التي يَحْبط بها العمل ، وهي حال المرائي والمانّ المؤذي في أن كل واحد منهما يحبط العمل .

الثاني : أنّ الرياء لا يكون إلا مقارنًا للعمل، لأنه « فِعال » من الرؤية التي صاحبها يَعمل لِيَرَى الناسُ عمله فلا يكون متراخيًا ، وهذا خلاف المن والأذى فإنه يكون مُقارنا ومُتراخيا ، وتراخيه أكثر من مُقارنته.

وقوله : ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ﴾ إما أن يكون المعنى كإبطال الذي يُنفق فيكون قد شبَّه الإبطالَ بالإبطال ، أو المعنى : لا تكونوا كالذي يُنفق ماله رئاء الناس ، فيكون تشبيهًا للمنفق بالمنفق .

وقوله : ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي مثل هذا المنفق الذي قد بَطَلَ ثواب نفقته ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ : وهو الحَجَر الأملس ، وفيه قولان : أحدهما : أنه واحد، والثاني : جَمْع صفوة ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾: وهو الأملس الذي لا شيءَ عليه من نباتٍ ولا غيره ، وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها ، فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المُنفق المُرائي ـ الذي لم يَصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر ـ بالحجر لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به .

وتضمن تشبيه ما عَلق به من أثر الصدقة بالغبار الذي عَلِقَ بذلك الحجر ، والوابلُ الذي أزال ذلك التراب عن الحجر فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها ، كما يُذْهب الوابلُ الترابَ الذي على الحجر فيتركه

صَلْدًا فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله .

وفيه معنى آخر وهو أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملاً يرتب عليه الأجر ، ويزكو له كما تزكو الحبة التي إذا بُذِرتْ في التراب الطَّيب أنبتت سبعَ سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، ولكن وراء هذا الإنفاق مانعٌ يَمنع من نموه ، وزكاته ، كما أن تحت التراب حجرا يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه فلا ينبت ولا يخرج شيئًا .

*** [مثل الذي يُنفق في سبيل الله تعالى لا يريد من الناس جزاء ولا شكوراً ولا يمنٌ ولا يؤذي] :ـ**

ثم قال : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [البقرة: ٢٦٥] هذا مَثَلُ الذي مَصْدر نفقته على الإخلاص والصدق ، فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص ، والتَّثبت مِنَ النفس هو : الصِّدقُ في البَذْل ، فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان، إنْ نجا منهما كان مثله ما ذكره في هذه الآية : إحداهما طلبه بنفقته محمدة أو ثناء أو غرضًا من أغراضه الدنيوية ، وهذا حال أكثر المنفقين .

والآفة الثانية : ضعفُ نفسه وتقاعسها وترددها : هل يفعل ، أم لا ؟ فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله ، والآفة الثانية تزول بالتثبيت ، فإنَّ تثبيت النفس : تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل ، وهذا هو صدقها . وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها .

فإذا كانَ مصدرُ الإنفاق عن ذلك ، كان مثله كجنة ـ وهي البستانُ الكثير الأشجار ـ فهو مجتنٌ بها ، أي : مستتر ليس قاعًا فارغًا . والجنة بربوة ـ وهو المكان المرتفع ـ فإنها أكمل من الجنة التي بالوهاد

والحضيض ، لأنها إذا ارتفعتْ كانت بمدرجة الأهوية والرياح ، وكانت ضاحيةً للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها ، فكانت أنضجَ ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره ، فإن الثمار تزداد طيبا وزكاء بالرياح والشمس ، بخلاف الثمار التي تَنشأ في الظلال .

وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع لم يُخش عليها إلا من قلة الماء والشراب فقال تعالى : ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وهو المطرُ الشَّديد العظيم القدر فأدتْ ثمرتها ، وأعطت بركتها فأخرجت ثمرتَها ضعفي ما يُثمر غيرها أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل ، فهذا حالُ السابقين المقربين .

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فهو دون الوابل ، فهو يكفيها لكَرم منبتها، وطيبِ مغرسها فتكتفي في إخراج بركتها بالطَّل ، وهذا حال الأبرار المقتصدين في النفقة ، وهم درجات عند الله ، فأصحاب الوابل أعلاهم درجة ، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ، ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة .

وأصحاب الطَّل مقتصدوهم .

فمثَّل حال القِسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطَّل . وكما أن كل واحد من المطرين يوجب زكاء أو ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف فكذلك نفقتهم ـ كثيرة كانت أو قليلة ـ بعد أنْ صَدَرتْ عن ابتغاءِ مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم ، فهي زاكيةٌ عند الله نامية مضاعفة .

واختلف في الضِّعفين ، والصواب أن الضعفين هما المثلان فقط : الأصل ومثلـه ، وعليه يدل قـوله تعـالى : ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]. أي : مِثْلين ، وقوله تعالى : ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾

[الاحزاب: ٣٠] أي مثلين ، ولهذا قال في الحسنات: ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الاحزاب: ٣١] وأما ماتوهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية فوهم منشأه ظن أن الضعف هو المثل مع الأصل ، وليس كذلك ، بل المثل له اعتباران : إن اعتبر وحده فهو ضعف ، وإن اعتبر مع نظيره فهما ضعفان والله أعلم .

واختلف في رافع قوله : ﴿فَطَلٌّ﴾ فقيل : هو مبتدأ خبره محذوف أي : وطلُّه يكفيها ، وقيل : خبر مبتدأه محذوف ، فالذي يُرويها ويصيبها طَلٌّ ، والضمير في ﴿أَصَابَهَا﴾ إما أن يرجع إلى الجنة أو إلى الربوة وهما متلازمان [١].

٣ ـ روى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « **الكَمأة من المنِّ ، وماؤُها شفاءٌ للعين** » [٢].

قال أبو عبيد : « الكمأة من المن » يقال ـ والله أعلم ـ إنه إنما شبهها بالمن الذي كان يَسقط على بني إسرائيل ، لأن ذلك كان يَنْزل عليهم عفواً بلا علاجٍ منهم ، إنما كانوا يصبحون وهو بأفنيتهم فيتناولونه [٣].

وكذلك « الكمأة » ليس على أحدٍ منها مؤنة في بَذْرٍ ولا سقي ولا غيره ، وإنما هو شيء يُنبته الله في الأرض حتى يصير إلى مَنْ يَجتْنيه [٤].

* * *

---

(١) « طريق الهجرتين وباب السعادتين » (ص٣٦٥ ـ ٣٧٠) باختصار يسير .

(٢) سبق تخريجه قريبا .

(٣) كما قال عز وجل ممتنًّا عليهم : ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

(٤) « غريب الحديث » (٢/١٧٣) .

الحَيِيُّ

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١٢)

* المعنى اللغوي :

اسْتَحْياه واسْتَحْيا منه ، بمعنى ، من الحَيَاء .

ويقال اسْتَحَيتُ بياء واحدة ، وأصله اسْتَحييتُ مثل : اسْتَعْيَيت ، فأعلُّوا الياء الأولى وألقَوا حركتها على الحاء ،

وقال أبو الحسن الأخفش : استَحَى بياءٍ واحدة : لغة تميم ، وبياءين لغة أهل الحجاز ، وهو الأصل .

قال الأزهري : والقرآن نزل بهذه اللغة الثانية ، في قوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ [البقرة: ٢٦].

والحيا مقصورٌ : المطرُ والخصب .

والحياءُ ممدود : الاستِحْياء .

ورَجَلٌ حَيِيٌّ ذو حياء ، بوزن فَعيل .

وامرأة حَيِيَّةٌ [١].

وعرف الراغب الحياء عند المخلوق بقوله : انْقباضُ النفس عن القبائح وتركه لذلك [٢].

---

(١) « الصحاح » (٦/ ٢٣٢٤) ، و« اللسان » (٢/ ١٠٧٩ ـ ١٠٨٠) مادة (حيا) .

(٢) « المفردات » (ص ١٤٠) .

* وروده في الحديث الشريف :

١ ـ ورد في حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ رأى رَجلاً يغتسلُ بالبَرَازَ بلا إزار ، فصعد المنبر ، فحمدَ الله وأثنى عليه، ثم قال ﷺ : « **إنَّ الله عز وجل حَيِيٌّ ستِّيرٌ يُحبُ الحياءَ والسَّتْرَ ، فإذا اغْتَسَلَ أحدُكم فَلْيَسْتَتِرْ** »[١].

٢ ـ وفي حديث سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ ربَّكم تبارك وتعالي حَيِيٌّ كريم ، يَستحي من عَبْدِهِ إذا رفع يَدَيه إليه أنْ يَردَّهما صِفرًا** »[٢].

* وقد ورد بصيغة الفعل في الكتاب العزيز في قوله عز وجل : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ [البقرة: ٢٦].

١ ـ وفي حديث أبي واقد اللَّيثي أن رسول الله ﷺ بينما هو جالسٌ في المسجد والناسُ معه إذْ أقبل ثلاثةُ نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود (٤/ ٤٠١٢) ، والنسائي (١/ ٢٠٠) ، والبيهقي من طريق أبي داود (١/ ١٩٨) عن النُّفيلي حدثنا زهير عن عبد الملك بن أبي سليمان العَرزمي عن عطاء عن يعلى به .

ورجاله ثقات ، عطاء هو ابن أبي رباح ، وزهير هو ابن معاوية .

وانظر بقية تخريجه في كتابنا « إبطال التأويلات » (٢/ ٤١١) .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أبو داود (٢/ ١٤٨٨) ، ومن طريقه البيهقي في « الأسماء والصفات» (ص ٩٠) ، والترمذي (٥/ ٣٥٥٦) ، وابن ماجه (٣٨٦٥) ، وصححه ابن حبان (٢٤٠٠) ، والحاكم (١/ ٤٩٧) ، والخطيب في تاريخه (٣/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦) من طرقٍ عن جعفر بن ميمون عن أبي عثمان النهدي عن سلمان مرفوعًا به .

قال الذهبي في « العلو » (ص ٥٢) : هذا حديث مشهور .

وحسنه الحافظ في « الفتح » (١١/ ١٤٣) وهو كما قال .

وله طرق أخرى وشواهد يتقوى بها ، انظر : « إبطال التأويلات » الموضع السابق .

ﷺ وذهبَ واحدٌ ، قال : فوقَفَا على رسول الله ﷺ فأما أحدُهما فرأى فُرْجةً في الحَلْقَة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خَلْفهم ، وأما الثالثُ فأدْبرَ ذاهبًا ، فلما فَرغَ رسول الله ﷺ قال : « **ألا أُخبركم عن النَّفَر الثلاثة؟ أما أحدُهم فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاسْتَحيا فاستَحيا اللهُ منه ، وأما الآخر فأعْرضَ فأعْرضَ الله عنه** »[1].

٢ ـ وفي حديث أم سلمة رضى الله عنها قالت : جاءت أم سُليم إلى النبي ﷺ فقالت : يا رســول الله ! إنَّ الله لا يَسْتحيي من الحقِّ ، فهل على المرأة من غُسلٍ إذا احتلمت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **نعم إذا رأتِ الماء** ... »[2].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال ابن الجوزي : الحياء بالمد : الانقباض والاحتشام ، غير أن صفات الحق عز وجل لا يُطَّلع لها على ماهية ، وإنما تُمَرُّ كما جاءت ، وقد قال النبي ﷺ : « **إن ربكم حيي كريم** »[3].

وقال ابن القيم[4]:

وهو الحَيِيُّ فليسَ يَفْضَحُ عَبْده ... عند التَّجاهــرِ منـه بالعِصْيان

لكنــه يُلْقِــي عليــه سِتْـــرهُ ... فهو السِّتِّيرُ وصاحبُ الغُفْران

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٩٦٠ ـ ٩٦١) ، ومن طريقه البخاري في « العلم » (١/ ١٥٦) ، وفي «الصلاة» (١/ ٥٦٢) ، ومسلم في « السلام » (٤/ ١٧١٣) عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ان أبا مُرة مولى عقيل بن أبي طالب أخبره عن أبي واقد الليثي به .

(٢) رواه مسلم في « الحيض » (١/ ٢٥١) .

(٣) « زاد المسير » (١/ ٥٤) .

(٤) « النونية » (٢/ ٢٢٧) بشرح أحمد بن عيسى .

وقال المباركفوري : قوله : « إن الله حيي » فَعيلٌ من الحياء ، أي كثير الحياء .

ووصفه تعالى بالحياء يُحمل على ما يَليق له ، كسائرِ صفاته ، نُؤمنُ بها ولا نكيفها [1].

وذكر « الاستحياء » في صفات الله تعالى شيخ الحرمين : أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرجي في كتابه الذي سمّاه « الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزامًا لذوي البدع والفضول » وكان من أئمة الشافعية، ونقله إقرارًا له شيخ الإسلام ابن تيمية [2].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إثبات صفة الحياء لربنا تبارك وتعالى على ما يليق بجلاله وكماله، إثباتًا من غير تمثيل لها بخلقه .

قال الإمام أبو يعلى الفراء بعد أنْ ساق الأحاديث الواردة في صفة الحياء : اعلم أنه غير ممتنعٍ وَصْفُ الله تعالى بالحياء ، لا على معنى ما يُوصف به المخلوقين من الحياء الذي هو انقباضٌ وتغيُّرٌ وخَجَل ، لاستحاله كونه جسمًا متغيرًا تحلُّه الحوادث [3].

لكن نُطلق هذه الصفة كما أطْلقنا وَصفه سبحانه بالإرادة وإنْ خالفت

---

(١) « تحفة الأحوذي » (٩/٥٤٤) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (٤/١٨١) .إذْ قال في أول كلامه : وقد ذكرنا في غير هذا الجواب ، مذهب سلف الأمة وأئمتها بألفاظها وألفاظ من نقل ذلك من جميع الطوائف ، بحيث لا يبقى لاحدٍ من الطوائف اختصاص بالإثبات . ومن ذلك : ما ذكر شيخ الحرمين أبو الحسن محمد بن عبد الملك ... إلخ

(٣) الصواب الإعراض عن ذكر هذا النفي ، لعدم وروده في الكتاب أو السنة .

إرادة المخلوقين ، لأن إرادته تقتضي وجوب المراد ، وإرادتنا لا تقتضي وجوبه .

وكذلك علمه يقتضي العلم بالمعدوم والموجود خلاف علمنا[١] .

وقال الهراس : ورد في السنة وَصْفه تعالى بالحياء ، كقوله ﷺ : «**إن الله حيي يستحي من عبده إذا مدَّ يديه إليه أن يردهما صِفْرا** » . وكقوله عليه السلام في شأن النفر الثلاثة الذين وقفوا على مجلسه : « **أما أحدُهم فأقبل فأقبل الله عليه ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله عز وجل منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عز وجل عنه** » .

وحياؤُه تعالى وصفٌ يليق به ، ليس كحياء المخلوقين الذي هوَ تغير وانكسار يَعْتري الشخص عند خوفِ ما يُعاب أو يُذم ، بل هو تركُ ما ليس يتناسب مع سعةِ رحمته ، وكمالِ جوده وكرمه ، وعظيم عفوه وحلمه .

فالعبد يجاهره بالمعصية مع أنه أفقرُ شيءٍ إليه ، وأضعفه لديه ، ويستعين بنعمه على معصيته ، ولكن الربَّ سبحانه مع كمال غناه وتمام قدرته عليه ، يَستحي من هَتْكِ ستره وفضيحته ، فيستره بما يُهيؤه له من أسباب السَّتر ، ثم بعد ذلك يعفو عنه ويغفر ، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما : « **إنَّ الله عز وجل يُدْني المؤمنَ فيضع عليه كَنَفه ثم يسأله فيما بينه وبينه : ألم تفعل كذا يوم كذا ؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه ، وأيقن أنه قد هلك ، قال له : سترتُها عليك في الدنيا وأنا أَغْفرها لك اليوم** » [٢].

وكذلك يستحي سبحانه من ذي الشَّيبة في الإسلام أنْ يُعذبه [٣].

---

(١) « إبطال التأويلات » (٢/ ٤١٢) .

(٢) الحديث في الصحيحين .

(٣) ضعيف جدا ، أخرجه ابن حبان في « المجروحين» (١/ ١٦٨)، ومن طريقه ابن الجوزي =

ويستحي ممن يدعوه ويمدُّ إليه يديه أن يردهما خاليتين .

وهو من أجل أنه حَيِيٌّ ستير : يحب أهل الحياء والسَّتر من عباده ، فمن ستَرَ مسلمًا ستر اللهُ عليه في الدنيا والآخرة ، ويكره المجاهرة بالفسوق والإعلان بالفاحشة ، وإنَّ من أَمْقت الناس عنده من بات على معصيةٍ والله يَسْتره ، ثم يُصبح فيكشف ستر الله عليه .

وقد توعَّد الذين يُحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا بأن لهم عذابًا أليمًا في الدنيا والآخرة [1].

وفي الحديث : « **كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين** » [2] [3].

٢ ـ أوَّلَ كثير من العلماء صفة الحياء الثابتة له سبحانه في الأحاديث الصحيحة المتقدمة : بالترك تارة وبالكراهية تارة ، وبالرحمة تارة ، وعدم

= في «الموضوعات» (١/ ١٧٧) عن سويد بن عبد العزيز عن نوح بن ذكوان عن أخيه أيوب ابن ذكوان عن الحسن عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ عن الله عز وجل : « إني لأستحي من عبدي وأمتي يشيب راس أمتي وعبدي في الإسلام ثم أعذبهما في النار ... » قال ابن حبان عن أيوب بن ذكوان : منكر الحديث .

وفيه أيضًا سويد بن عبد العزيز وهو ضعيف .

وله طرق أخرى ، انظر : « إبطال التأويلات » (٢/ ٤١٠ ـ ٤١١) .

(١) في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩] .

(٢) وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كلُّ أُمتي معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجلُ بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستَره الله ، فيقول : يا فلان عملتُ البارحةَ كذا وكذا ، وقد بات يستره ربُّه ويُصبح يكشف سترَ الله عنه » .

رواه البخاري في « الأدب » (١٠/ ٤٨٦) ، ومسلم في « الزهد » (٤/ ٢٢٩١) .

(٣) « شرح النونية » (٢/ ٨٠ ـ ٨١) للشيخ محمد خليل هراس رحمه الله تعالى .

العقاب والعذاب أخرى ، وكلها من لوازم الحياء .

أ ـ منهم الحليمي في قوله ﷺ : « **إنَّ الله حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً** » .

قال : ومعناه أنه يكره ! أن يردَّ العبد إذا دعاه فسأله ما لا يمتنع في الحكمة إعطاؤه إياه ، وإجابته إليه ، فهو لا يفعل ذلك ، إلا أنه لا يخاف من فعله ذمًّا ، كما يخافه الناس فيكرهون لذلك فعلَ أمورٍ وتركَ أمور ، فإنَّ الخوف غير جائز عليه [1].

ب ـ والبيهقي في قوله : « **فاستحيا فاستيحا الله منه** » قال : أي جازاه على استحيائه بأن ترك عقوبته على ذنوبه [2].

جـ ـ والنووي في قوله ﷺ : « **وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه** ... » الحديث .

قال : أي رَحِمه ولم يُعذِّبه ، بل غَفر ذنوبه .

وقيل : جازاه بالثواب [3].

د ـ والحافظ ابن حجر في الحديث نفسه قال : أي رَحِمِه ولم يُعاقبه[4].

هـ ـ والأُقليشي إذْ يقول : وأما وصف الله تعالى بأنه « حيي » فوزنه فعيل من الحياء ، وهذا الوصف في حق الله تعالى مُتأوَّل !!

---

(١) نقله البيهقي عنه في « الأسماء » (ص٩١) ، والقرطبي في « الأسنى » (٢/ورقة ٤٢٢ ب) مع اختلاف في أوله .

(٢) الكتاب « الأسنى » (٢/ورقة ٤٢٣ أ) .

(٣) شرحه على مسلم (١٤/١٥٩) .

(٤) « الفتح » (١/١٥٧) ، وبنحوهما قال الراغب كما في « الذريعة » (ص ١٨٨) .

إذْ العبد هو الموصوف بالحياء ، لأنها حالة يجدها العبد في نفسه ، تَحمله على إجلال المُستَحْيا منه .

ولما كان الله تعالى مُتكرِّمًا على سائله ، وقاضيًا حوائج داعيه ، لا يردهم بكرمه ، وَصَفَ نفسه بالحياء الذي يُوصف به مَن كَرُمت نفسه ، وكانت له سَجِيةٌ حيِّيه ، فإنه من أوصاف المدح في الخَلْق ، وكل وصف كان للمخلوق حسنًا ، فللَّهِ منه الحظُّ الأكمل ، وإنْ كان فيه إيهامٌ فإنه في حقه متأوَّل .

وقد وَصفَ نفسه بأنه يستحي من العبد ، ووصف نفسه بأنه لا يستحيي من الحقِّ ، فحياؤه من عبده يرجع إلى قضاء حاجته ، بصفة كرمه ، وكونه لا يَستحيي من الحق يرجع إلى صفة عَدْله ، القاضية بجريان الحق على أهله ، ولكلٍّ صفةٍ مقام ، وكيف ، فكان هذا الوصف من أوصاف الأفعال ، لأنه عبارةٌ عن إظهار كرمه ، وإدْرار نِعَمه [1].

و ـ والسندي قال : « حيي » بكسر أولى الياءين مخففة ، ورفع الثانية مشددة ، أي : الله تعالى تاركٌ للقبائح ، ساتر للعيوب والفضائح ، يحب السَّتر من العبد ، ليكون مُتخلِّقًا بأخلاقه تعالى !! فهو تعريضٌ للعباد ، وحث لهم على تحري الحياء [2].

---

(١) « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٤٢٢ ب) .

وقد أوَّلَ الحياء بلوازمه : من إجابة داعيه بكرمه وإحسانه ، وحبه لجريان الحق لعدله والأصل أن تثبت الصفة لله تعالى ثم تثبت لوازمها .

(٢) حاشيته على النسائي (١/ ٢٠٠) .

وقوله : « ليكون متخلقًا بأخلاقه تعالى » . من عبارات الفلاسفة وأهل الكلام ، ولم يأت في الكتاب ولا السنة ولا في أقوال سلف الأمة القول بأن لله اخلاقًا !! وإنما له نعوت كمال ، وصفات جلال ، فتنبه ! =

وغيرهم ممن أخطأ في هذا الباب ، عفا الله عنا وعنهم بمنّه وكرمه .

٣ ـ ولما كان الله تعالى موصوفًا بالحياء ، فإنه يحبُّ أهلَه والمتَّصفين به من عباده ، كما ذكرنا سابقًا أنه تعالى عليمٌ يحبُّ العلماء ، كريمٌ يحب الكرماء ، حليم يحب الحلماء ، جميل يحب الجمال .

وقال أبو موسى رضي الله عنه : اللهم إنك مؤمنٌ تحب المؤمن ، ومهيمن تحب المهيمن ، سَلامٌ تحب السَّلام ، صادقٌ تحبُّ الصادق [1].

بل قد جعله رسول الهُدى ﷺ شُعبةً من شُعب الإيمان ، وخصلةً من خصال عباد الرحمن .

فقال ﷺ : **« الإيمانُ بِضعٌ وستون شُعْبةً ، والحياءُ شُعبةٌ من الإيمان »** [2].

ومرَّ ﷺ على رجلٍ من الأنصار وهو يَعظُ أخاه في الحياء ـ وفي رواية : يقول : إنك لتستحي حتى كأنه يقول : قد أضَرَّ بك ـ فقال

= قال ابن القيم بعد أن ذكر أن أدعية الرسل مشتملة على دعاء الله تعالى بأسمائه والثناء عليه بها : وهذه العبارة أولى من عبارة من قال : يتخلَّق بأسماء الله ، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة .

وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان وهي : التَّعبد ، وأحسن منها : العبارة المطابقة للقرآن وهي : الدعاء ، المتضمن للتعبد والسؤال .

فمراتبها أربعة : أشدها إنكارًا عبارة الفلاسفة وهي التَّشبه ، وأحسن منها عبارة من قال : التخلق ، وأحسن منها عبارة من قال : التعبد ، وأحسن من الجميع : الدعاء ، وهي لفظ القرآن اهـ . « بدائع الفوائد » (١/ ١٦٤) .

(١) أثر صحيح ، رواه ابن أبي شيبة (١٠/ ٢٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٥٩) .

(٢) رواه البخاري في « الإيمان » (١/ ٥١) ، ومسلم في « الإيمان » (١/ ٦٣) من حديث أبي هريرة وزاد فيه : « فأفضلُها : قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء ... » .

رسول الله ﷺ : « **دَعْهُ ، فإن الحياء من الإيمان** »[1].

وكان هو ﷺ من أشدِّ الناس حياءً ، كما وصفه أصحابه ، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : كان النبي ﷺ أشدَّ حياءً من العَذْراءِ في خِدْرِها »[2].

أي أشد حياء من البكر إذا دُخل عليها في خلوتها[3].

فإنْ قيل : الحياء من الغرائز ، فكيف جُعل شعبةً من الإيمان ؟

أجيب بأنه : قد يكون غريزةً وقد يكون تخلُّقا ، ولكن استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلمٍ ونية ، فهو من الإيمان لهذا .

ولكونه باعثًا على فعل الطاعة وحاجزًا عن فعل المعصيةِ[4].

ولا يقال : رب حياء يمنع عن قول الحق أو فعل الخير ، لأنَّ ذاك ليس شرعيا .

فإن قيل : لِمَ أفرده بالذكر هنا ؟

أجيب بأنه : كالداعي إلى باقي الشعب ، إذْ الحيي يخاف فضيحة

---

(١) رواه البخاري في « الإيمان » (١/ ٧٤) ، وفي « الأدب » (١٠/ ٥٢١) ، ومسلم في «الإيمان » (١/ ٦٣) من حديث سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في « المناقب » (٦/ ٥٦٦) ، وفي « الأدب » (١٠/ ٥١٣ ، ٥٢١) ، ومسلم في « الفضائل » (٤/ ١٨٠٩ ـ ١٨١٠) وزاد : وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه .

(٣) معنى كلام الحافظ في « الفتح » (٦/ ٥٧٧) وقال : ومحل وجود الحياء منه ﷺ في غير حدود الله ، ولهذا قال للذي اعترف بالزنا : أنكتها ، لا يكني ، كما سيأتي بيانه في الحدود انتهى . وانظر « الحدود » (١٢/ ١٣٥) .

(٤) كما ورد في تعريف الحياء أنه : خُلُقٌ يَبعث على اجتناب القبيح ، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ، « الفتح » (١/ ٥٢) .

ولهذا جاء في الحديث الآخر : « الحياء خيرٌ كله » .

الدنيا والآخرة ، فيَأْتَمر ويَنزجر [1].

٤ ـ اعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أن أعظمَ الحياءِ ينبغي أن يكون من الله تعالى ، الذي نتقلب في نعمه وإحسانه الليل والنهار ، ولا نستغني عنه طرفة عين ، ونحن تحت سمعه وبصره ، لا يغيب عنه من حالنا وقولنا وفعلنا شيء ، كما قال عز وجل : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

وقال بعض السلف : عَلِمتُ أن الله تعالى مطلعٌ علي فاستَحييتُ أن يراني على معصية .

وقد أحسن من قال :

وإذا خَلَوتَ بريبــةٍ في ظُلمــةٍ والنَّفسُ داعيةٌ إلى العصيان

فاسْتحي من نَظَرِ الإلهِ وقُلْ لهـا إنَّ الذي خَلَقَ الظَّلام يَراني

وحكي عن بعض السلف : خفِ الله على قَدْر قدرته عليك ، واستحي منه على قَدر قربه منك [2].

قال الراغب : والذي يستحي منهم الإنسان ثلاثة :

البشر : وهو أكثر ما يستحي منه .

ثم نفسه .

ثم الله عز وجل .

---

(١) « الفتح » (٥٢/١) .

(٢) المصدر السابق (٧٥/١) .

ومن استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه ، فنفسه أخسُّ عنده من غيره .

ومن استحيا منهما ولم يستحي من الله عز وجل ، فلعدم معرفته به .

فإن الإنسان يستحي ممن يُعظمه ويَعلم أنه يراه ، ويَسمع نجواه ، ومَنْ لا يعرف الله فكيف يَسْتعظمه ؟ وكيف يعلم أنه مطلع عليه ؟

وقوله ﷺ : « استحيوا من الله حق الحياء »[1] في ضمنه حثٌّ على معرفته .

وقال الله عز وجل : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] تنبيهًا على أن العبدَ إذا علم أن ربه يراه استحيا من ارتكاب الذنب .

وسُئل الجُنيد عما يُولِّد الحياء من الله تعالى ، فقال : رؤية العبد آلاءَ الله عليه ، ورؤية تقصيره عن شكره[2].

قال القرطبي : فيجب على كلِّ مكلف أن يستحي من خَالقه ، وذلك بأن لا يراه حيث نهاه ، وذلك أن المؤمن يقتضي تعظيم من آمن به ، فينزجر عن القبائح حياءً من نَظَره إليه ، حتى كان بعضهم لا يغتسل إلا وعليه مِئْزرٌ يستره ، ولا يقوم قائمًا منتصبًا بل يتضامُّ ما استطاع في غُسْله[3] .

---

(١) يأتي تخريجه .

(٢) « الذريعة إلى مكارم الشريعة » (ص ١٨٨ ـ ١٨٩) ط دار الكتب العلمية سنة ١٤٠٠ هـ .

(٣) كما جاء في حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : قلت : يانبي الله ! عوراتُنا ما نأتي منها وما نَذَر ؟ قال : « احفظْ عورتَك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » قلتُ : يا رسول الله ! إذا كان القوم بعضهم في بعض ؟ قال : « إنْ استطعتَ أن لا يَراها أحدٌ فلا يراها » قال قلت : يانبي الله ! إذا كان أحدُنا خاليا ؟ قال : « فالله أحقُّ أن يُستحيا منه » وفي رواية : « فالله أحق أن يَستحي منه الناس » . =

وكان موسى عليه السلام حَيِيًّا ستيرا يغتسل بناحيةٍ من قومه [1].

وروى الترمذي : عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « استَحيوا من الله حقَّ الحياء » قال فقلنا : إنا نَستحي والحمد لله ، قال : «ليس ذاك ! ولكن الاستحياء من الله حقَّ الحياء ، أنْ تحفظَ الرأسَ وما وَعَى ، والبطنَ وما حوَى ، وتَذكرَ الموتَ والبِلَى ، ومَنْ أرادَ الآخرة تركَ زينةَ الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء » .

قال : حديث غريب [2].

فمن كَثُر من الله حياؤه انقبضتْ نفسُه عن مجاهرتِه بالعصيان ، إذْ علمه معه في كل مكانٍ فمن عصاه فقد جاهره ، ثم مهما أفشى معصيته في الخَلْق فِعلا وقولا فقد أعظم المجاهرة ، إذْ من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله ، ولذلك كان الحياء الغريزي محموداً في العبد لكونه منقبضًا به عن مجاهرة الخَلْق فيما يُنكرونه من الفعل .

= وإسناده حسن ، رواه أحمد (٥/ ٣ ـ ٤) ، والترمذي (٢٧٦٩ ـ ٢٧٩٤) وغيرهما .

(١) أخرجه البخاري في « الأنبياء » (٦/ ٤٣٦)، وفي « التفسير » مختصراً (٨/ ٥٣٤) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلا حَيِيًا ستيرًا لا يُرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه مَن آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده : إما برص وإما أُدْرَة وإما آفة ... » الحديث .

(٢) حديث حسن ، رواه الترمذي في « صفة القيامة » (٢٤٥٨) ، وأحمد (١/ ٣٨٧) ، وأبو يعلى (٨/ ٤٦١) ، والحاكم (٤/ ٣٢٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٦/ ٧٧٣٠) (٨/ ١٠٥٦١) ، والبغوي في « شرح السنة » (١٤/ ٢٣٤) وفي سنده : الصباح بن محمد الأحمسي الكوفي ، ضعيف .

لكن له طريق آخر ، رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٨٨) ، وفي « الصغير » (١/ ١٧٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٠٩) يتقوى به .

وله شاهد مرسل ، انظر تعليقنا على كتاب « الورع » لابن أبي الدنيا رقم (٥٩) .

وفي البخاري عن أبي مسعود قال : قال النبي ﷺ : « إنَّ مما أدركَ الناسُ من كلام النبوة الأُولى : إذا لم تَسْتحي فاصْنَعْ ما شئت »[1].

وعن ابن عمر مَرَّ النبي ﷺ على رَجلٍ وهو يعاتبُ في الحياء، يقول: إنَّك تستحي حتى كأنه يقول : قد أضرَّ بك ، قال رسول الله ﷺ : «دَعْه! فإن الحياءَ من الإيمان »[2][3].

٥ ـ والوقاحة مذمومةٌ بكل إنسان ، إذْ هي انْسلاخٌ من الإنسانية .

وحقيقتها : لجاج النَّفس في تعاطي القبيح .

واشتقاقه : من حافرٍ وَقَاحٌ ، أي : صُلْب .

وبهذه المناسبة قال الشاعر :

يا ليتَ لي من جِلْد وجْهك رِقْعةً ... فأَقُـدُّ منها حَافـرًا للأشْهَـبِ

---

(١) رواه البخاري في « الأنبياء » (٦/ ٥١٥) ، وفي « الأدب » (١٠/ ٥٢٣) .

وقوله : « من كلام النبوة الأولى » أي مما اتفق عليه الأنبياء .

وقوله : « فاصنع ما شئت » هو أمر بمعنى الخبر ، أو هو للتهديد أي : اصنع ما شئت فإنَّ الله يجزيك ، أو معناه : انظر إلى ما تريد أن تفعله فإن كان مما لا يُستحى منه فافعله ، وإن كان مما يستحي منه فدعه . « الفتح » (٦/ ٥٢٣) .

وقد قال أبو عبيد في « غريب الحديث » (٣/ ٣١ ـ ٣٢) : إنما وجهه عندي أنه أراد بقوله: « إذا لم تستحي فاصنع ما شئت » إنما هو مَن لم يستحي صَنَع ما شاء ، على جهة الذَّم لترك الحياء ، ولم يُرِد بقوله: « فاصنع ما شئت » أن يأمر بذلك أمرًا ، وهذا جائز في كلام العرب أن يقول : افعل كذا وكذا ، وليس يأمره ، ولكنه أمر بمعنى الخبر ، ألم تسمع حديث النبي عليه السلام : « من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » أي : كان له مقعد من النار ، إنما هي لفظة أمرٍ على معنى الخبر وتأويل الجزاء ، وإنما يراد من الحديث أنه يحث على الحياء ويأمر به ويعيب تركه اهـ .

(٢) تقدم تخريجه قريبًا .

(٣) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٤٢٣ أ ـ ب) .

وما أصدق قول الشاعر :

صَلاَبَةُ الوجهِ لم تَغْلبْ على أحدٍ إلا تكَاملَ فيه الشَّرُّ واجْتَمَعا [1].

* * *

(١) « الذريعة » (ص ١٨٨) للراغب .

السَّتِّير
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٣)

*** المعنى اللغوي :**

سَتَرَ الشيء يَسْتُرُه ويَسْتِره سَتْرًا وسَتَرًا : أخفاه .

والسَّتْرُ بالفتح : مصدر سَتَرْتُ الشيءَ أَسْتُرُه إذا غطيتُه ، فاستَتَر هو .

وتَسَتَّر أي : تغطَّى .

ورجلٌ مَسْتُورٌ وسَتِيرٌ : أي عَفيف ، والجارية سَتِيرة .

والسِّتْر معروف : ما سُتِرَ به ، والجمع أَسْتَار وسُتُور وسُتُر . والسُّتْرُ : التُّرس .

والسُّتْرَةُ ما استَتَرتَ به من شيء كائنًا ما كان [1].

*** وروده في الحديث الشريف :**

١ ـ ورد في حديث يعلى بن أمية رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالبَرَاز بلا إزار ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال ﷺ : **« إنَّ الله عز وجل حَيِيٌّ سِتيرٌ ، يحبُّ الحياءَ والسَّتر ، فإذا اغتسل أحدكم فَلْيَسْتَتر »** [2].

وللستير روايتان : إحداهما : كسر السين وتشديد التاء مكسورة .

---

(١) « الصحاح » (٢/٦٧٦)، و « اللسان » (٣/١٩٣٥) ، و « المفردات » (ص ٢٢٣) ، مادة « ستر ».

(٢) سبق تخريجه .

والثانية : فتح السين وكسر التاء مخفَّفة [1].

*** معنى الاسم في حق الله تعالى :**

قال البيهقي : وقوله « ستير » يعني أنه سَاتِرٌ يَسْتر على عباده كثيرًا ، ولا يَفضحهم في المَشاهد .

كذلك يحبُّ من عباده السَّتْر على أنفسهم ، واجتناب ما يَشينهم ، والله أعلم [2].

وقال ابن الأثير : « إن الله حيي ستيرٌ يحب الحياء والستر » : ستير : فعيل بمعنى فاعل ، أي : من شأنه وإرادته حبُّ السَّتر والصون [3].

وقال ابن القيم [4]:

وهو الحَيِيُّ فليس يَفضحُ عَبْدَه ... عند التَّجاهرِ منه بالعصْيان

لكنه يُلْقي عليه سِتْره ... فهو السِّتِّيرُ وصَاحبُ الغُفْران

وقال المُنَاوي : « ستير » بالكسر والتشديد ، أي : تاركٌ لحب القبائح ، ساتر للعيوب والفضائح ، فعيل بمعنى فاعل .

وجَعْلُه بمعنى مفعول ، أي : مستورٌ عن العيون في الدنيا ، بعيدٌ من السَّوق ، كما لا يَخفى على أهل الذَّوق [5].

---

(١) انظر حاشية سنن أبي داود (٤/ ٣٠٢) ، و« مختصر السنن » (٦/ ١٥) للحافظ المنذري بتحقيق أحمد شاكر ومحمد الفقي رحمهما الله تعالى .

(٢) « الأسماء والصفات » (ص ٩١) .

(٣) « النهاية » (٢/ ٣٤١) .

(٤) « النونية » (٢/ ٢٢٧) بشرح أحمد بن عيسى .

(٥) « فيض القدير » (٢/ ٢٢٨) .

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ إن الله تعالى ستِّير يحبُّ السَّتر والصَّون ، فيستر على عباده الكثير من الذنوب والعيوب ، ويكره القبائح والفضائح والمجاهرة بها .

٢ ـ وقد أمر تبارك وتعالى بالسَّتر ، وكره المفاخرة بالمعصية ، أو مجرد محبة ذكرها وشياعها بين المؤمنين .

قال سبحانه : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [النور: ١٩].

أي : الذين يريدون ويقصدون أن تَنْتشرَ الفاحشة في أهل الإيمان وتفشو فيهم ، والفاحشة : هي الفعلة القبيحة ، قيل هي : الزنا ، وقيل : الرمي بالزنا ، ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا**﴾ مما يصيبهم من البلاء كالشلل والعمى ﴿**وَالآخِرَةِ**﴾ من عذاب النار ونحوه .

وفي الآية دليل : على أن أعمال القلب السيئة ، كالحقد والحسد ومحبة شيوع الفاحشة ، يُؤاخذ بها العبد إذا وطَّن نفسه عليها [١].

وأخبر الرسول ﷺ أن المجاهر بالمعاصي لا يُعافى منها فقال : «**كلُّ أمتي مُعافى إلا المجاهرين ، وإنَّ من المُجاهَرَة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يُصبح وقد سَتَرهُ الله فيقول : يا فلان عملتُ البارحةَ كذا وكذا ، وقد باتَ يَسْتُره ربُّه ، ويُصبح يكشفُ سترَ الله عنه**» [٢].

قال الكرماني : ومحصل الكلام : كلُّ واحدٍ من الأمة يُعفى عن ذنبه، ولا يؤاخذ به إلا الفاسق المُعْلن [٣] .

---

(١) انظر : «روح المعاني» (١٨/ ١٢٢) وغيره .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) «الفتح» (١٠/ ٤٨٦) .

وقال ابن بطَّال : في الجهر بالمعصية استخفاف بحق الله ورسوله وبصالحي المؤمنين ، وفيه ضربٌ من العناد لهم ، وفي الستر بها : السلامة من الاستخفاف ، لأن المعاصي تذل أهلها ، من إقامة الحدِّ عليه إنْ كان فيه حدٌّ ، ومن التعزير إنْ لم يوجب حداً ، وإذا تمحَّضَ حقُّ الله فهو أكرمُ الأكرمين ، ورحمته سبقت غضبه ، فلذلك إذا ستره في الدنيا، لم يفضحه في الآخرة .

والذي يُجاهر يفوته جميع ذلك [1].

٣ ـ وأما المؤمن فإنه لو وقع في معصية أو تقصير في واجب بالغ في السَّتْر على نفسه ، كما ورد عن بعض السلف : أنه خرج إلى الصلاة فاستقبله الناس خارجين من المسجد ، فغطَّى وجهه ورجع .

وجاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلا سأله : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النَّجوى ؟ قال : « **يَدْنوا أحدُكم من ربه حتى يضع كنَفَه عليه ، فيقول : عملتَ كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، ويقول : عملتَ كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، فَيُقرِّره ثم يقول : إني سَتَرتُ عليك في الدنيا ، فأنا أغفرها لك اليوم** » [2].

وفي رواية : « **فإني قد سَتَرتُها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم ، فيُعطى صحيفةَ حَسَناته ، وأما الكفارُ والمنافقون فَيُنَادى بهم على رُؤوس الخلائق : هؤلاء الذين كَذَبوا على الله** » [3].

---

(١) المصدر السابق » (١٠/٤٨٧) .

(٢) رواه البخاري في « الأدب » (١٠/٤٨٦) ، وفي « التوحيد » (١٠/٤٧٥) .

(٣) رواها البخاري في « المظالم » (٥/٩٦) ، وفي « التفسير » (٨/٣٥٣) ، ومسلم في «التوبة» (٤/٢١٢٠) .

وقد جاءت البشارة بذلك للمؤمنين : أن مَنْ سَتَرَ الله عيبه في الدنيا، فإنه سيستره في الآخرة .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يَسْتُرُ اللهُ على عَبدٍ في الدنيا، إلا ستَرَه الله يوم القيامة »[1].

٤ ـ كما حثَّ ﷺ على الستر على عباد الله ، ورغَّب في ذلك لموافقته رضى مولاه ، وصفةَ خالقه ، فقال : « ... ومَن ستَرَ مُسْلمًا ستَرهُ اللهُ يومَ القيامة »[2].

ولما جاء رجل اليه ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني عَالجتُ امرأةً في أقصى المدينة ، وإني أصبتُ منها مادون أن أمسَّها ، فأنا هذا فاقض فيَّ ماشئت ، فقال له عمر : لقد ستَرَكَ اللهُ ، لو سترتَ على نَفسك قال : فلم يَرُدَّ النبي ﷺ شيئًا ، فقام الرجل فانطلق ، فأتبعه النبي ﷺ رُجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية : ﴿وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] فقال رجلٌ من القوم : يانبي الله ، هذا له خاصة ؟ قال : « بل للناس كافة »[3].

وسكوته ﷺ على مقولة عمر دليل رضاه ومحبته لها ، إذ هو لا يُقر أحدًا على باطل كما هو معلوم .

ونهى عليه الصلاة والسلام عن تتبع عورات المسلمين والبحث عنها

---

(١) رواه مسلم في « البر والصلة والآدب » (٢٠٠٢/٤) .

(٢) رواه البخاري في «المظالم » (٩٧/٥) ، ومسلم في « البر والصلة » (١٩٩٦/٤) من حديث سالم بن عبد الله عن أبيه مرفوعًا وأوله : « المُسْلم أخو المسلم ، لا يظلمه ... » .

(٣) رواه مسلم في « التوبة » (٢١١٦/٤) من حديث عبد الله رضي الله عنه .

وكشفها ، فقال : « **يا معشرَ من آمن بلسانه ولم يَدْخلِ الإيمانُ قلْبَه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تَتَّبعوا عَوراتهم ، فإنه مَن يَتَّبعْ عوراتهم ، يَتَّبع اللهُ عورته، ومَنْ يتَّبعْ عورتَه يَفْضَحْه في بيته** »[(1)].

٥ ـ وكان من دعائه ﷺ في هذا الباب : ما حفظه ابن عمر رضي الله عنه قال : لم يكن رسول الله ﷺ يَدَع هؤلاء الدعوات حين يُمسي وحين يُصبح : « **اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي ، وأهلي ومالي ، اللهم استُر عوراتي وآمنْ روعاتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خَلفي ، وعن يميني وشمالي ، ومن فوقي ، وأعوذُ بعظمتك أن أُغتال من تحتي** »[(2)].

تنبيه : جرى على ألسنة كثير من الناس اسم « ساتر » فيقولون : يا ساتر، ولم يرد هذا الاسم في سُنَّة صحيحة ـ فيما أعلم ـ فينبغي أن يقال: يا ستِّير ، فتنبه!

* * *

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠ ـ ٤٢١) ، وأبو داود (٥/ ٤٨٨٠) عن الأسود بن عامر حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن سعيد بن عبد الله بن جريج عن أبي برزة الأسلمي مرفوعًا به .

وسنده حسن ، سعيد بن عبد الله صدوق ربما وهم ، قاله الحافظ .

وللحديث طرق أخرى يتقوى بها ، لبسطها موضع آخر .

(٢) حديث صحيح .

انظر تخريجه في الجزء الأول من الكتاب .

القَابِض ـ البَاسِط
جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه
(١٤ ـ ١٥)

* **المعنى اللغوي :**

قَبَضْتُ الشيءَ قَبْضًا : أخذته .

والقَبْضُ : خلاف البسطِ .

ويقال : صار الشيءُ في قبضتك ، أي في مِلْكك .

والانْقباض : خلاف الانبساط .

والقَبْضُ أيضًا : الأخذُ بجميعِ الكفِّ ، والقَبْص : بأطراف الأصابع .

والقَبَضُ بالتحريك : ما قُبِضَ من الأموال والغنائم وغيرها .

وقُبِضَ الرجل : مات ، فهو مَقبوض [١].

وقال الراغب : فقَبْضُ اليد على الشيء جمعُها بعد تناوله .

وقَبْضها عن الشيء جمعُها قبل تناوله ، وذلك إمساكٌ عنه .

ومنه قيل لإمساك اليد عن البذل : قبضٌ .

قال تعالى : ﴿يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي : يمتنعون من الإنفاق[٢].

---

(١) « الصحاح » (٣/ ١١٠٠) ، و« اللسان » (٥/ ٣٥١٢) ، و « غريب الحديث » لأبي عبيد (٤/ ٤٦٨) ، و« اشتقاق الأسماء » للزجاجي (ص٩٧) .

(٢) « المفردات » (ص ٣٩١) .

وأما الباسط :

فالبَسْط نقيضُ القَبْضِ

وبَسَط الشيء : نَشَرَه ، وبالصاد أيضًا .

والبَسْطَةُ : السَّعةُ .

وانْبَسطَ الشيء على الأرض .

وتَبَسَّطَ في البلاد : أي سار فيها طُولاً وعرضًا .

والبِسَاط : ما يُبْسط .

والبَسَاط : الأرض الواسعة .

ورجل بَسِيط اليدين : مُنْبسِطٌ بالمعروف .

وبَسَط يده : مدَّها .

ويَدٌ بِسْطٌ أي مُطْلَقةٌ .

وفي قراءة عبد الله « بل يَدَاه بِسْطانِ » أي : مبسوطتان .

وفلانٌ بَسِيطُ الجسم : فيه سعة وامتداد وزيادة وطول كما في قوله تعالى عن طالوت : ﴿ **إنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ** ﴾ [البقرة: ٢٤٧][1].

وقال الراغب : وبَسْط الكفِّ يُستعمل تارةً للطلب نحو : ﴿ **كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ** ﴾ [الرعد: ١٤].

وتارةً للأخذ نحو : ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ** ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وتارةً للصَّوْلة والضرب ، قال تعالى : ﴿ **وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ** ﴾ [الممتحنة: ٢].

---

(١) « الصحاح » (٣/١١١٦) ، و« اللسان » (١/٢٨٢ ـ ٢٨٤) ، و« اشتقاق الأسماء » للزجاجي (ص٩٩) .

وتارة للبَذْل والإعطاء نحو : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] [(١)].

*** وروده في الحديث الشريف :**

ورد في حديث أنس رضي الله عنه قال : غَلاَ السِّعْـر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، لو سَعَّرتَ ، فقال : « **إنَّ الله هو الخَالقُ القَابِضُ الباسِط الرازِق المُسَعِّر ، وإني لأرجو أن ألْقى الله ولا يَطْلبني أَحَدٌ بمظْلَمةٍ ظلمتها إياه في دمٍ ولا مالٍ** » [(٢)].

وقد وردت فِعلاً في القرآن في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وفي أحاديث كثيرة ، كقوله ﷺ : « **إنَّ اللهَ يَبْسطُ يدَه بالليل ، ليتوبَ مُسيء النهار ، ويبْسط يده بالنهار ليتوب ...** » [(٣)].

وقوله ﷺ : « **يَقْبضُ اللهُ الأرضَ يوم القيامة ويَطوي السماء بيمينه ...** » الحديث [(٤)].

*** معنى الاسمين في حق الله تعالى :**

قال الزجَّاجي « القابض » اسم الفاعل من قَبَضَ فهو قابض ،

---

(١) « المفردات » (ص ٤٦) .

(٢) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٣/١٥٦ ، ٢٨٦) ، وأبو داود في « البيوع » (٣٤٥١) ، والترمذي في « البيوع » أيضًا (١٣١٤) ، وابن ماجه (٢٢٠٠)، والدارمي (٢/٢٤٩) ، وابن حبان (١١/ ٤٩٣٥) ، وابن جرير (٢/ ٣٧٢) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص٨٥) ، وفي السنن (٦/٢٩) من طرقٍ عن حماد بن سلمة عن ثابت وقتادة وحميد عن أنس مرفوعًا به .

ورجاله ثقات رجال الشيخين ، سوى حماد فمن رجال مسلم .

(٣) رواه مسلم في « التوبة » (٤/٢١١٣) ، وأحمد (٤/٣٩٥ ، ٤٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٤) سبق تخريجه في الكتاب .

والمفعول مقبوض ، وذلك على ضروب .

فأما في هذه الآية التي ذُكر فيها هذا الحَرْف في سورة البقرة في قوله عزّ وجل : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ ويَبْصُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] فقالوا : تأويله : يُقتّر على مَن يشاء ، ويتوسع على مَن يشاء على حسب ما يرى من المصلحة لعباده.

فالقَبضُ هاهنا : التَّقتير والتَّضييق .

والبسط : التَّوْسعة في الرزق والإكثار منه .

فالله عزَّ وجل القابضُ الباسط ، يُقتِّر على من يشاء ، ويُوسِّع على من يشاء .

ومخرجُ ذلك من اللغة ، أن أصلَ القبض : ضَمُّ الشيء المنبسط من أطرافه ، فيَقْبضه القابضُ إليه أولاً أولاً حتى يَحوزه ويجمعه والبَسط : نَشرُ الشيء المجتمع أو المنضم أو المطْوي .

فمن قُبضَ رزقُه فقد ضُيِّقَ عليه ، ومَن بُسط رزقه فقد فُسح له فيه ، ووُسِّعَ عليه .

ومن ذلك قيل : فلانٌ قَبيض ، أي : بخيل شديد كأنه لا يبسط كفَّه بخير إلى أحد ، ولا يَسمح بذلك ، وفلان باسط الكف ، وباسط الجاه، وإنما يُراد به السخاء وبذله ماله وجاهه [1].

وقال في الباسط : الباسط الفاعل من بسط يَبسط فهو باسط ، فالله عز وجل كما ذكرنا باسط رزق مَن أراد من عباده أن يوسع عليه ، ومقتر على من أراد ، كما يَرى في ذلك من المصلحة لهم ، وهو كما قال عز

---

(١) « اشتقاق الأسماء » (ص ٩٧) .

وجل : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧].

فهذه الآية قد بيَّنتْ لك معنى الباسط ، وبيَّنت أيضًا أنه عز وجل إنما يَقبض ويَبسط على حسب ما يراه عز وجل من المصلحة لعباده .

والباسط أيضًا : باسطُ الشيء الذي ليس بمفروش يَبسطه ويفرشه ، كما بَسَطَ الأرضَ للأنَام ، وبثَّ فيها أقواتهم [(١)].

وقال الحليمي : ومنها « الباسط » : ومعناه النَّاشر فضله على عباده، يرزق ويوسّع ويَجود ويُفضِّل ويُمكِّن ويُخوِّل ، ويُعطي أكثر مما يحتاج إليه.

قال : ومنها « القابض » : يَطوي بره ومعروفه عمن يريد ، ويُضيِّق ويُقتِّر أو يَحْرم فيُفْقِر .

ولا ينبغي أن يُدْعى ربَّنا جل جلاله باسم : القابض ، حتى يقال معه: الباسط [(٢)].

وقال البيهقي : « القابض الباسط » هو الذي يوسِّع الرزق ويقتره ، يبسطه بجوده ورحمته ، ويقبضه بحكمته .

وقيل : القابض : الذي يَقبض الأرواح بالموت الذي كَتَبه على العباد.

والباسط : الذي بَسَطَ الأرواحَ في الأجساد [(٣)].

---

(١) « اشتقاق الأسماء » (ص ٩٩) .

(٢) « المنهاج » (١/ ٢٠٣) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون ما سواه ، ونقله البيهقي في «الأسماء» (ص ٦٤ ـ ٦٥) ، والقرطبي في «الأسنى» (٢/ ورقة ٣٥٧ أ ـ ب).

(٣) « الاعتقاد » (ص ٥٧) .

وقال الغزالي : « القابض الباسط » هو الذي يَقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات ، ويَبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة .

ويَقبض الصَّدقات من الأغنياء ، ويبسط الأرزاق للضعفاء ، ويَبْسطُ الرِّزقَ على الأغنياء حتى لا يَبقى فاقَةٌ ، ويَقبضه عن الفقراء حتى لا يَبقى طَاقة .

ويقبض القلوب فيضيقها بما يكشف لها من قلةِ مبالاته وتعاليه وجلاله ، ويبسطها بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله [1].

وقال ابن الأثير : في أسماء الله تعالى « القابض » : هو الذي يمسك الرزق وغيرَه من الأشياء عن العباد بلطفه وحكمِته ، ويقبض الأرواح عند الممات [2].

وقال : في أسماء الله تعالى « الباسط » : هو الذي يَبسط الرزق لعباده ، ويُوسِّعه عليهم بجوده ورحمته ، ويَبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة [3].

وقال قوَّام السنة الأصبهاني : ومن أسماء الله تعالى « القابض الباسط»: قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] .

ومعناه : يُوسِّع الرزقَ ويُقتِّره ، يَبسطه بجُوده ، ويقبضه بعدْله ، على النَّظَر لعبده ، قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧][4].

---

(١) « المقصد الأسنى » (ص ٥٢) .

(٢) «النهاية » (٤/٦) .

(٣) المصدر السابق (١/ ١٢٧) ، ونقلهما عنه ابن منظور في « اللسان » ولم يشر إليه .

(٤) « الحجة في بيان المحجة » (١/ ١٤٠) .

وقال السعدي : « القابض الباسط » : يقبض الأرزاق والأرواح ، ويَبْسط الأرزاق والقلوب ، وذلك تَبَعٌ لحكمته ورحمته [1].

*** اقتران الاسمين :**

الأدب في هذين الاسمين ، أن يُذْكرا معًا ، لأن تمام القُدرة بذكرهما معًا .

ألا ترى أنك إذا قلت : إليِ فلانٍ قبضُ أمري وبَسْطُه ، دَلاَّ بمجموعهما أنك تريد أن جميع أمرك إليه ؟

وتقول : ليس إليك من أمري بَسْطٌ ولا قبض ، ولا حَلٌّ ولا عقدٌ ، أراد ليس إليك منه شيء .

قاله الزجاج [2].

وقال الخطَّابي : قد يَحْسُنُ في مِثل هذين الاسميـــن أن يُقْرَن أحدُهما في الذِّكر بالآخر ، وأن يوصلَ به ليكون ذلك أنْبأ عن القُدْرة ، وأدلَّ على الحكمة ، كقوله تعالى : ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [البقرة: ٢٤٥] .

وإذا ذكرتَ القابضَ مُفردًا عن الباسط ، كنتَ كأنك قد قَصَرْتَ بالصفةِ على المنع والحرمان .

وإذا أَوْصلتَ أحدَهما بالآخر فقد جمعت بين الصفتين ، مُنْبِئًا عن وجه الحكمة فيهما .

ثم قال :

---

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (٥/٣٠٣) .

(٢) « تفسير أسماء الله الحسنى » (ص ٤٠) .

فالقابض الباسط : هو الذي يُوسع الرزق ويُقتِّره ، ويَبسطه بجوده ورحمته ، ويَقبضه بحكمته ، على النظر لعبده ، كقوله : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ [الشورى: ٢٧].

فإذا زاده لم يَزِدْه سَرَفًا وخَرَقًا ، وإذا نَقَصه لم ينقُصه عَدَمًا ولا بُخلا.

وقيل : القابض : هو الذي يَقبض الأرواح بالموت الذي كتبه على العباد [(١)].

وقال ابن القيم[(٢)] :

هو قابضٌ هو باسِطٌ هو خَافضٌ ... هو رَافــعٌ بالعَــدْل والميـزانِ

قال الهراس في شرحه : هذه الأسماء الكريمة من الأسماء المتقابلات التي لا يجوز أن يُفردَ أحدهما عن قرينه ، ولا أنْ يُثنى على الله عز وجل بواحدٍ منها إلا مقرونًا بمقابلة ، فلا يجوز أن يُفرد القابض عن الباسط ، ولا الخافض عن الرافع ... إلخ .

قال : لأنَّ الكمال المطلق إنما يَحصل بمجموع الوصفين .

فهو سبحانه القابض الباسط ، يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات ، ويبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة ، ويقبض الصدقات من الأغنياء ، ويَبسط الأرزاق للضعفاء ، ويبسط الرزق لمن يشاء حتى لا تبقى فَاقة ، ويَقبضه عمن يشاء حتى لا تبقى طاقة .

ويقبض القلوب فَيُضيِّقها حتى تصير حَرجًا كأنما تصَّعَّدَ في السماء ، ويبسطها بما يُفيض عليها من معاني بِره ولُطفه وجماله ، قال تعالى :

---

(١) « شأن الدعاء » (ص ٥٨) .

(٢) «النونية » (٢/ ٢٣٦) بشرح أحمد بن عيسى .

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥][1].

* من آثار الإيمان بهذين الاسمين :

١ - إن الله تعالى هو القابض الباسط ، وهما من الطَّي والنَّشر ، والتوسعة والتضييق ، والأخذ والعطاء ، وهو يتناول أموراً كثيرة ، كما مرَّ معنا في أقوال العلماء .

قال ابن الحصار : وهذان الاسمان يختصان بمصالح الدنيا والآخرة، قال الله العظيم : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧] .

وذلك يتضمَّن قوام الخَلْق باللُّطف والخِبْرة، وحُسن التَّدبير والتقدير، والعلم بمصالح العباد في الجملة والتفاصيل ، وبحسب ذلك يُرسل الرياح ، ويُسخِّر السحاب ، فيُمطر بلداً ، ويمنع غيره ، ويُقل ويُكثر[2].

وكذلك يُصرِّف جُملة العوالم لجملة العالمين .

وقال بعض العلماء : إنَّ أعظمَ البسطِ : بَسْطُ الرحمة على القلوب حتى تَستضيءَ ، وتخرجَ من وَضَرِ الذنوب ، وهذا هو الشرح المذكور في قوله عز وجل : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقوله : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وضده المذكور في قوله : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا

(١) « النونية » بشرح الهراس رحمه الله (٢/ ١٠٤) .

(٢) كما في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨].

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] .

فأما قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٣].

إلى آخر المعنى ، فليس بفتحٍ عليهم ولا بسط لهم ، وإنما حقيقته : مَكْرٌ بهم ، واستدراجٌ لهم ، لحرمانٍ شاءه بهم .

كذلك ليس المذكور في قوله عز وجل : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ [التوبة: ١٦].

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٣].

وما ذُكِرَ من خطيئة آدم عليه السلام ، وداود ، وبلاء أيوب عليهما السلام ، وشبه ذلك ليس بقبضٍ في الحقيقة ، لكن ذلك محنة عاجلة موصلة إلى جُوده[1] المتصل لهم في الآجل .

قال القرطبي معقبًا : قلت : وهذا من هذا العالِم إشارة إلى أنَّ ما أصابَ المؤمنَ من مِحن الدنيا نعمةٌ ، وما أصابَ الكافر من نِعَم الدنيا فتنةٌ[2].

٢ ـ وقال ابن جرير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥]. يعني تعالى ذكره بذلك : أنه الذي بيده

---

(١) في الأصل : وجوده ! ولا معنى لها .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ورقة ٣٥٧ ب ـ ٣٥٨ أ) .

قَبْضُ أرزاق العباد وبسطها دون غيره ممن ادَّعى أهل الشرك به أنهم آلهة، واتخذوه ربًّا دونه يعبدونه ، وذلك نظير الخبر الذي روى عن رسول الله ﷺ ... عن أنس قال : غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ قال : فقالوا: يا رسول الله ، غَلاَ السعر فأَسْعِر لنا ، فقال رسول الله ﷺ : «إنَّ **الله الباسط القَابضُ الرازق ، وإني لأرجو أن ألقى الله ليس أحدٌ يَطْلُبني بمظلمة في نفسٍ ومال** »(١).

قال أبو جعفر : يعني بذلك ﷺ أن الغَلاءَ والرُّخصَ والسَّعةَ والضيق بيد الله دون غيره ، فكذلك قوله تعالى ذكره : ﴿ **وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ** ﴾ يعني بقوله : ﴿ **يَقْبِضُ** ﴾ يُقتِّر بقبضه الرزق عمن يشاء من خلقه ، ويعني بقوله: ﴿ **وَيَبْصُطُ** ﴾ يوسع ببسطه الرزق على مَن يشاء منهم ، وإنما أراد تعالى ذكره بِقيله ذلك : حثَّ عباده المؤمنين الذين قد بَسَط عليهم من فضله فوسَّع عليهم من رزقه ، على تَقْوية ذوي الإقتار منهم بماله ، ومعونته بالإنفاق عليه ، وحَمُولته على النهوض لقتال عدوه من المشركين ـ في سبيله ـ فقال تعالى ذكره : من يُقَدِّم لنفسه ذُخرًا عندي بإعطائه ضعفاء المؤمنين ، وأهل الحاجة منهم ما يستعين به على القتال في سبيلي فأضاعف له من ثوابي أضعافًا كثيرة مما أعطاه وقَوَّاه به ، فإني أنا المُوسِّع الذي قبضتُ الرزقَ عمن نَدَبْتُك إلى معونته وإعطائه ، لأبتليه بالصَّبر على ما ابْتَليته به ، والذي بَسَطتُ عليك لأمتحنك بعملك فيما بَسطتُ عليك فأنظر كيف طاعتك إياي فيه ؟ فأُجازي كلَّ واحدٍ منكما على قَدْر طاعتكما لي فيما ابْتَليتكما فيه وامتحنتكما فيه ، من غِنًى وفاقةٍ ، وسَعَةٍ وضيق ، عند رجوعكما إليَّ في آخرتكما

---

(١) تقدم تخريجه قريبا .

ومَصيركما إليَّ في مَعَادكما [1].

٣ ـ ثم حذَّر الله تعالى من استعمال ما بَسَطَ من الرزق في معاصيه فقال : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني تعالى ذكره بذلك : وإلى الله معادكم أيها الناس ، فاتقوا الله في أنفسكم أن تُضيِّعوا فرائضه ، وتتعدوا حدوده ، وأن يَعمل مَن بسط عليه منكم في رزقه بغير ما أَذِن له بالعمل فيه ربُّه ، وأن يحمل بالمقتر منكم فيقبض عنه رزقه اقتاره على معصيته ، والتقدم على ما نَهَاه ، فيستوجب بذلك منه ـ بمصيره إلى خالقه ـ ما لا قِبَل له به من أليم عقابه .

وكان قتادة يتأول قوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإلى التراب ترجعون [2].

٤ ـ فينبغي لمن امتن الله عليه ببسطةٍ في المال أو العلم أو الجسم أو الجاه ، أن يتفضَّلَ على عباد الله تعالى كما تفضَّل الله عليه وأحسن ، فإن هذا من شكر هذه النعم .

ويجب على من ضيق عليه في شيء من ذلك أن لا يلجأ إلا إلى القابض الباسط الذي يملك ما يتمنى ويريد ، وأن يعلم أن ذلك بعدله سبحانه وهو لا يظلم أحدًا .

قال القرطبي : فيجب على كل مكلَّفٍ أن يعتقد أن لا قابضَ ولا باسطَ إلا الله سبحانه ، هو الذي يَقبض الجميع ويبسطه ، وهو الذي يَبسطُ القلوبَ والألسنةَ والأيدي وسائر الأسباب .

فإنْ كنتَ مبسوطَ القلب بالمعارف، والحقيقة والعلوم الدينية، فابْسطْ

---

(١) « جامع البيان » (٢/ ٣٧٢) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٧٣) . وما ذكره عن قتادة رواه عنه بعد ذلك بسند حسن .

بساطَك، وابسطْ وجْهك، واجلسْ للناس حتى يَقتبسوا من ذلك النِّبْراس.

وإنْ كنت ذا بسطة في الجسم ، فابْسطه في العبادة التي تُفْضي بك إلى السعادة ، وفي الصَّولة على الأعداء ، بما خُوِّلتَ من المنَّة والشِّدة .

وإنْ كنت ذا بَسطٍ في المال ، فابسطْ يدكَ بالعَطَاء ، وأزِلْ ما على مالك من الغِطَاء ، ولاَ تُوكي[1] فيوكي الله عليك ، ولا تُحْصي فيحصي اللهُ عليك.

وإنْ كنت لم تَنَلْ حظًا من هذه البَسَطاتِ فابسط قلبكَ لأحكام ربِّك ، ولسانَك لذكره وشكره ، ويدك لبذل الواجبات عليك ، ووجهك للَخْلق، كما قال ﷺ في بَذل المعروف : « فإن لم تَجِدْ فالْقَ أخاكَ بوجه طَلْقٍ » ويروى « طليق » .

ولقد أحسنَ القائل :

بُنَيَّ إنَّ البِـرَّ شـيءٌ هَيِّـن   وَجـهٌ طليـقٌ ولسـانٌ لَيِّـنٌ[2] .

٥ ـ ما ورد في النصوص السابقة من إثبات القبض والبسط لله تعالى، هو من الأدلة الكثيرة التي تؤيد ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من إثبات صفة « اليد » لله جل شأنه على ما يليق بذاته سبحانه من غير تمثيل، إذْ هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وذلك أن القَبضَ والبسط قد ورد إضافتهما إلى أشياء محسوسة تُقبض باليد الحقيقية ، ولا يَصح حملها على القبض والبسط المعنوى ، كقوله جلَّ ذكره : ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

---

(١) من الوكاء وهو رباط القربة ، أي : لا تمنع العطاء فيمنع الله عنك عطاءه .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٣٥٨ ب) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «**يَطوي اللهُ عز وجل السماواتِ يوم القيامة ثم يَأخذُهنَّ بيده اليمنى ثم يقول: أنا المَلكُ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضينَ بشماله ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟** »[1].

وعن عبد الله بن مسعود قال : جاء حَبرٌ إلى النبي ﷺ فقال : يا محمد ! أو يا أبا القاسم ! إن الله تعالى يُمْسِكُ السماواتِ يومَ القيامة على إصْبَع ، والأرضين على إصْبع ، والجبال والشجر على إصْبع ، والماءَ والثَّرى على إصبع ، وسائر الخَلْق على إصْبع ، ثم يهزُّهن فيقول : أنا الملك أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال الحَبر ، تَصديقًا له ، ثم قرأ : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [الزمر: ٦٧][2].

وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنَّ الله خَلَق آدمَ من قَبْضة قَبَضها من جميعِ الأرض ، فجاء بنو آدم منهم الأحمر والأسود والأبيض وبينَ ذلك ، والسَّهل والحَزْن ، والخَبيث والطَّيب** »[3].

---

(١) سبق تخريجه في الجزء الأول من الكتاب .

(٢) سبق تخريجه في الموضع السابق .

(٣) حديث صحيح ، أخرجه ابن سعد (١/ ٢٦) ، وأحمد (٤/ ٤٠٠ ، ٤٠٦) ، وأبو داود (٤٦٩٣) ، والترمذي (٥/ ٢٠٤) ، وابن جرير في تفسيره (١/ ١٧٠) ، وابن خزيمة في «التوحيد » (ص ٦٤) ، وابن حبان (٨/ ١١) وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٠٤) (٨/ ١٣٥)، والحاكم (٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢) ، والبيهقي في « الأسماء » (ص ٣٢٧ ، ٣٨٥) وفي « السنن » (٩/ ٣) من طرق عن عوف الأعرابي عن قسامة بن زهير المازني البصري عن أبي موسى الأشعري مرفوعًا به.

قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وقال الحاكم : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي . وهو كما قالوا .

وعن أبي نضرة قال : إن رجلا من أصحــاب النبي ﷺ يقال له : أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكي ، فقالوا له : ما يبكيك ؟ ألم يقل لك رسول ﷺ : « **خُذْ من شاربك ، ثم أقرره حتى تلقاني**» قال : بلى ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله قَبَضَ قبضةً بيمينه وقال : هذه لهذه ولا أبالي ، وقَبَضَ قَبْضةً أخرى بيده الأخرى جلَّ وعلا فقال: هذه لهذه ولا أبالي ، فلا أدري في أيِّ القبضتين أنا ؟** »[1].

وغيرها من الأحاديث .

وقد بَيَّن الأمام أبو بكر بن خزيمة في كتاب « التوحيد » أن ذِكْر القبضة في الأحاديث دليل على إثبات صفة اليد لربنا سبحانه .

فقال : باب ذكر صفة آدم عليه السلام .

والبيان الشافي أنه خلقه بيده لا بنعمته ، على ما زعمت الجهمية المعطِّلة ، إذْ قالت : إن الله يقبض بنعمته ! من جميع الأرض قبضةً فيخلق منها بشراً .

وهذه السُّنَّة السادسة في إثبات اليد للخالق الباري جل وعلا .

ثم ذكر حديث أبي موسى الأشعري المتقدم[2].

وقال الشيخ الهراس معلقًا على تأويل الجهمية القبض بالنِّعمة : وهذا تأويل باطل ! فإن القبض إنما يكون باليد الحقيقية لا بالنعمة ! فإن قالوا:

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه أحمد (٤/١٧٦ ، ١٧٦ ـ ١٧٧) (٥/٦٨) عن حماد بن سلمة حدثنا الجريري عن أبي نضرة به .

قال الهيثمي في « المجمع » (٧/١٨٦) : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

وهو كما قال .

وله طرق انظرها في « إبطال التأويلات » (١/١٧٥) .

(٢) « التوحيد » (ص ٦٣ ـ ٦٤) .

إن الباء هنا للسببية ، أي بسبب إرادته الإنعام .

قلنا لهم : وبماذا قَبَضَ ؟ فإنَّ القبض محتاجٌ إلى آلة فلا مناص لهم لو أنصفوا من أنفسهم ، إلا أنْ يعترفوا بثبوت ما صَرَّح به الكتابِ والسنة[1].

وقال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتابه « الرد على بشر المريسي العنيد » : وأما دعواك أيها المريسي في قول الله : ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ [المائدة: ٦٤] فزعمتَ أن تفسيرها عندك : رزقاه رزقٌ موسع ورزق مقتور ، ورزقٌ حلال ورزق حرام .

فقوله يداه عندك رزقاه ! فقد خرجت بهذا التأويل من حدٍّ العربية كلها ، ومن حدٍّ ما يفقهه الفقهاء ، ومن جميع لغات العرب والعجم ، فممن تلقيته ؟ وعمن رَوَيته من أهل العلم بالعربية والفارسية ؟

وإنك جئت بمحال لا يَعْقله أعجميٌّ ولا عربي ، ولا نعلم أحدًا من أهلِ العلم والمعرفة سبقك إلى هذا التفسير ، فإنْ كنت صادقًا في تفسيرك هذا فأثره عن صاحب علمٍ أوصاحب عربية ، وإلا فانك مع كفرك بها من المدلسين .

وإن كان تفسيرهما عندك ما ذهبت إليه فإنه كذب محالٌ ، فضلاً عن أن يكون كفرًا ، لأنك ادعيت أن لله رزقًا موسعًا ، ورزقًا مُقتَّرا ، ثم قلت: إنَّ رزقيه جميعًا مبسوطان ، فكيف يكونا مبسوطين ، والمقتور أبدًا في كلام العرب غير مبسوط ؟ وكيف قال الله : إن كلتيهما مبسوطتان ، وأنت تزعم أن إحداهما مقتورة ؟

---

(١) المصدر السابق .

فهذا أولُ كذبك وجهالتك بالتفسير ، وقد كفانا الله ورسوله مَؤُنة تفسيرك هذا بالناطق من كتابه ، وبما أخبر الله على لسان رسوله .

أما الناطق من كتابه فقوله : ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ [ص: ٧٥] . وقوله :﴿ **بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ** ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله : ﴿ **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ [الفتح: ١٠].

وقوله : ﴿ **بِيَدِكَ الْخَيْرُ** ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقوله : ﴿ **وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ** ﴾ [الحديد: ٢٩].

وقوله : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ [الملك: ١].

وقوله : ﴿ **لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ [الحجرات: ١].

فهل يجوز لك أنْ تتأوَّل في جميع ما ذكرنا من كتابه أنه رزقاه ، فتقول : برزقه الخير ! وبرزقه الفضل ! وبرزقه المُلك ! ولا تقدموا بين رزق الله ورسوله !!

وأما المأثور من قول رسول الله ﷺ فقوله : « **إنَّ المُقْسطِينَ على منابرَ من نورٍ عن يمين الرحمن ، وكِلتا يديه يمين** »[1].

فتفسير قول النبي ﷺ في تأويلك أيها المريسى : أنهم على منابر من نور عن رزقي الرحمن ، وكلتا رزقيه يمين !!

وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يأخُذُ الجبار سمواته وأرضه بيديه ـ وقبض كفيه أو قال يديه ـ فجعل يَقبضها ويَبسطها ، ثم يقول : أنَا الملك ، أنَا الجبار ، أين المتكبرون** » ويميل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن شماله حتى نظرتُ إلى المنبر أسفل شيءٍ منه حتى إني لأقول:

---

(١) رواه مسلم (١٤٥٨/٣) ، وأحمد (٢/ ١٦٠) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما .

أَسَاقطٌ هو برسول الله ﷺ ؟ » [١].

فيجوز أيها المريسي أن تتأول هذا الحديث أنه يأخذ السموات والأرض برزقيه ! مَوْسُوعه ومقتوره ، وحلاله وحرامه ! وما أراك إلا وستعلم أنك تتكلم بالمُحال ، لتُغَالط بها الجهال ، وتروج عليهم الضلال. وقول النبي ﷺ : « **والذي نفسي بيده** » و « **نفس محمد بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ...** » الحديث [٢].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « **يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمنه ، ثم قال : أنا الملك أين الملوك ؟** » [٣].

أفيجوز أن يطوي الله السموات بأحد رزقيه ؟ فأيهما الموسع عندك من المقتور ؟ وأيهما الحلال من الحرام ؟ لأن النبي ﷺ قال : « **كلتا يديه يمين** » .

وادعيت أنت أن أحدهما موسع والآخر مقتور .

وعن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « **إنَّ اللهَ يَبْسطُ يده بالليل ليتوب مُسِيءُ النَّهار ، يَبسطُ يَدَه بالنهار ليتوب مُسيءُ الليل ، حتى تطلعَ الشمس من مغربها** » [٤].

أفَيجوز أن يقال: يبسط حلاله بالليل وحرامه بالنهار ليتوب المسيئان؟

فلو أنك إذْ أردت معاندة الله ورسوله ومخالفة أهل الإسلام احتججت بكلامٍ أستر عورة ، وأقل استحالة من هذا ، لكان أنجع لك في قلوب

---

(١) سبق تخريجه في الجزء الأول .

(٢) سبق تخريجه في الجزء الأول .

(٣) سبق تخريجه في الجزء الأول .

(٤) سبق تخريجه قريبًا .

الجهال ، من أنْ تأتي بشيء لايشك عاقلٌ ولا جاهل في بُطُوله واستحالته [1].

٦ ـ قد ثبت عن النبي ﷺ أنه دعا ربَّه وأثنى عليه ، بذكر قبضه وبسطه وتفرده في ذلك سبحانه .

فعن عبيد بن رفاعة الزرقي عن أبيه قال لما كان يوم أحد وانْكَفأ المشركون قال رسول الله ﷺ : « **استَوُوا حتى أُثني على ربي** » فصاروا خلفه صفوفًا فقال : « **اللهم لكَ الحمدُ كلُّه ، اللهم لا قابضَ لما بَسَطتَ ، ولا باسطَ لما قبضتَ ، ولا هاديَ لما أضْلَلتَ ، ولا مضلٌّ لمن هَدَيت ، ولا مُعطي لما منعتَ ، ولا مانعَ لما أعطيتَ ، ولا مُقرِّبَ لما باعدت ولا مُباعدَ لما قرَّبت ، اللهم ابْسطْ علينا من بركاتك ورحمتك وفضْلك ورزقك ، اللهم إني أسألكَ النَّعيمَ المُقيم الذي لا يَحول ولا يزول ، اللهم إني أسألك النَّعيم يوم القيامة[2] والأمنَ يومَ الخوف ، اللهم إني عائذٌ بك من شرِّ ما أعطيتنا ، وشَرِّ ما مَنعتَ ، اللهم حبِّبْ إلينا الإيمانَ وزينْه في قلوبنا ، وكرِّه إلينا الكفرَ والفُسوق والعصيان ، واجْعلنا من الراشدين ، اللهم تَوفَّنا مسلمين ، وأَحْينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزَايا ولا مَفْتُونين ، اللهم قَاتل الكفرةَ الذين يُكَذِّبون رسلك ، ويَصدون عن سبيلك ، واجعلْ عليهم رِجْزَكَ وعَذَابك ، اللهم قاتلْ الكفرةَ الذين أُوتوا الكتاب ، إله الحقِّ** » [3].

---

(١) رد الدارمي على المريسي (ص ٣٠ ـ ٣٣) باختصار .

(٢) كذا عند البزار ، وعند أحمد : العلية ! وفي المجمع : الغلبة !

(٣) إسناده حسن ، رواه أحمد (٣/ ٤٢٤) ، والبزار (١٨٠٠ ـ زوائد) عن مروان بن معاوية حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكي عن عبيد بن رفاعة الزرقي عن أبيه مرفوعًا به .
قال البزار : لا نعلمه مرفوعًا إلا من حديث رفاعة ولا رواه عن عبيد إلا عبد الواحد (وقع في المطبوعة عبد الرحمن وهو خطأ وهو مشهور لا بأس به روى عنه أهل العلم . =

= قلت : وهو عبد الواحد بن أيمن أبو القاسم المكي وثقه ابن معين ، وقال أبو حاتم : صالح الحديث ، وقال النسائي : ليس به بأس ، وهو من رجال الصحيحين .

وقال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والبزار واقتصر على عبيد بن رفاعة عن أبيه وهو الصحيح ، وقال اللهم قاتل كفرة أهل الكتاب ، ورجال أحمد رجال الصحيح .اهـ .

وعبيد بن رفاعة تابعي ثقة وهو من رجال الأربعة ، ومروان قال مرة : عبيد الله بن عبد الله الزرقي ، عند أحمد ، والصواب الأول والله أعلم .

السَّـــيِّد

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١٦)

*** المعنى اللغوي :**

سَادَ قومه يَسودُهم سيادةً وسُودَدًا وسَيْدودةً فهو سَيِّدُهم ، وهم سادةٌ، تقديره : فَعَلَةٌ بالتحريك .

لأن تقدير سيد : فَعِيلٌ .

وقال أهل البصرة : تقدير سَيِّد فَيْعِلٌ ، وجُمع على فَعَلَة .

والسُّؤْدُد : الشَّرَف .

قال ابن شُمَيل : السيد الذى فاق غيرَه بالعقل والمال والدَّفع والنَّفع، والمُعْطي ماله في حقوقه ، المُعين بنفسه ، فذلك السيد .

وقال عكرمة : السَّيِّد الذي لا يَغلبه غَضَبُه .

وقال أبو خَيْرَة : سُمِّي سيدًا لأنه يَسـود سوادَ الناس ، أي : عُظْمِهم.

وقال الأصمعي : العرب تقول : السيد كلُّ مقهورٍ مغمورٍ بحلمه .

وقيل : السيد الكريم .

وقال الفراء : السَّيِّد المَلك ، والسَّيِّد الرئيس ، والسيد السَّخي ، وسيِّد العبد مولاه والأنثى من كل ذلك بالهاء ، وسيد المرأة زوجها ،

وفي التنزيل ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ [يوسف: ٢٥].

وسيدُ كل شيء أَشْرَفُه وأرفعه [١].

وقال الراغب: السَّيد: المتولِّي للسَّواد، أي: الجماعةِ الكثيرة، ويُنْسب إلى ذلك فيقال: سيِّد القوم، ولا يقال: سيد الثوب وسيد الفَرَس، ويقال: سادَ القومَ يَسودُهم.

ولما كان من شَرَطِ المتولِّي للجماعةِ أن يكون مهذَّبَ النَّفس، قيل لكلٍّ من كان فاضلاً في نفسه: سَيِّدٌ، وعلى ذلك قوله: ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ [آل عمران: ٣٩] وقوله: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا ﴾ [يوسف: ٢٥] فسمَّى الزوج سيّدًا لسياسة زوجته، وقوله: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا ﴾ [الأحزاب: ٦٧] أي: وُلاتَنا وسائسِينا [٢].

*** وروده في الحديث الشريف:**

جاء في حديث مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير قال: قال أبي: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنتَ سيِّدنا، فقال: «**السَّيِّدُ اللهُ تباركَ وتعالى**» قلنا: وأَفْضَلنا فضلاً وأَعْظمنا طَوْلاً، فقال: «**قُولُوا بقولكم، أو بعضِ قولكم، ولا يَسْتَجرِيَنّكم الشَّيطان**» [٣].

---

(١) «الصحاح» (٢/ ٤٩٠ ـ ٤٩١)، و«اللسان» (٣/ ٢١٤٤ ـ ٢١٤٥).

(٢) «الراغب» (ص ٢٤٧).

(٣) حديث صحيح، أخرجه أحمد (٤/ ٢٤ ـ ٢٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١١)، وأبو داود (٥/ ٤٨٠٦) واللفظ له، ومن طريقه البيهقي في «الأسماء» (ص ٢٢) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧) من طرق عن مطرف به. قال الحافظ في «الفتح» (٥/ ١٧٩): ورجاله ثقات وقد صححه غير واحد.

* **المعنى في حق الله تعالى :**

قال الخطابي : قوله « السَّيدُ الله » ويريد : أن السُّؤْدُد حقيقةً لله عز وجل ، وأن الخلقَ كلَّهم عبيدٌ له [١].

وقال الحليمي : ومنها « السيد » وهو اسمٌ لم يأت به الكتاب ، ولكنه مأثورٌ عن النبي ﷺ ، فإنه روي عنه أنه قال لوفد بني عامر : « **لا تقولوا السيد فإن السيد الله** » .

ومعناه : المحتاج إليه بالإطلاق .

فإن سيد الناس إنما هو رأسهم الذي إليه يرجعون ، وبأمره يعملون، وعن رأيه يَصْدرون ، ومن قوله يَستَهدون .

فإذا كانت الملائكةُ والإنس والجن خَلْقًا للباري جل ثناؤه ، ولم يكن بهم غُنْية عنه في بدءِ أمرهم وهو الوجود ، إذْ لو لم يوجدهم لم يوجدوا، ولا في الإبقاءِ بعد الإيجاد ، ولا في العَوَارض العارضة أثناء البقاء ، كان حقًّا له جل ثناؤه أن يكون سَيدًا ، وكان حقًّا عليهم أن يَدْعوه بهذا الاسم [٢].

وقال الأزهري : وأما صفةُ الله جل ذكره بالسَّيد فمعناه : أنه مالك الخَلْق ، والخَلْق كلُّهم عبيده [٣].

وقال ابن الأثير في قوله «السيد الله»: أي هو الذي تَحِقُّ له السيادةُ[٤].

---

(١) « معالم السنن » بهامش مختصر السنن للمنذري (٧/ ١٧٦) .

(٢) « المنهاج » (١/ ١٩٢) وذكره ضمن الأسماء التي تتبع إثبات الابتداع والاختراع له ، ونقله البيهقي في « الأسماء » (ص ٢٣) .

(٣) « اللسان » (٣/ ٢١٤٤) .

(٤) « النهاية » (٢/ ٤١٧) .

وقال الأصبهاني : ومن أسمائه تعالى : « السيد » وهذا اسم لم يأتِ به الكتاب ، وإنما ورد في الخبر عن النبي ﷺ . ثم ذكر الخبر ، وذكر نحواً من كلام الغزالي المتقدم [1].

وقال ابن القيم [2]:

وهو الإلهُ السَّيِّـدُ الصَّمَـدُ الذي صَمَدتْ إليه الخلق بالإذْعَانِ

الكَامِلُ الأوصـاف مِن كلِّ الوُجُو هِ كمَالَهُ مـا فيه مِـن نُقْصانِ

وقال : السيد إذا أُطلق عليه تعالى فهو بمعنى : المَالِك والمولى والربّ ، لا بالمعنى الذي يُطلق على المخلوق ، والله سبحانه وتعالى أعلم [3].

*** من آثار الإيمان بهذا الاسم :**

١ ـ الله تبارك وتعالى هو السَّيد الذي قد كَمُل في سُؤْدُدِه ، والشَّريف الذي قد كمُل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عَظَمته ، والحليم الذي قد كمل في حِلْمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والجبَّار الذي قد كمل في جَبروته ، والعَالم الذي قد كمل في عِلمه ، والحكيم الذي قد كمل في حِكْمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشَّرف والسُّؤْدُد ، وهذه صفاتٌ لا تنبغي إلا له وحده لا شريك له [4].

٢ ـ يجوز إطلاق هذا الاسم على المخلوق ، فقد قال تعالى عن نبيه يحيى بن زكريا عليهما السلام : ﴿**وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِّنَ**

(١) « الحجة في بيان المحجة » (١/ ١٥٥ ـ ١٥٦) .

(٢) « النونية » (٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) .

(٣) « الفوائد » (٣/ ٢١٣) .

(٤) روي عن ابن عباس نحوه ، انظر : آثار الإيمان بالصمد في الجزء الثاني من الكتاب .

الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] .

قال ابن الأنباري : إن قال قائل : كيف سمَّى الله عز وجل يحيى سيدًا وحصورًا ، والسَّيد هو الله ، إذْ كان مالك الخلق أجمعين ، ولا مالك لهم سواه ؟

قيل له : لم يُرِدْ بالسَّيد ههنا المالك ، وإنما أراد الرئيسَ والإمامَ في الخير ، كما تقول العرب : فلانٌ سيدنا ، أي : رئيسنا والذي نُعظِّمه[1] .

ونحوه ما جاء في حديث مطرف السابق إذْ قالوا للنبي ﷺ : أنتَ سيدنا ، فقال : « **السيد الله تبارك وتعالى** » قلنا : وأَفْضلنا فضلاً ، وأعظمنا طولا ، فقال : « **قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان** » .

قال أبو منصور الأزهري : كره النبي ﷺ أن يُمدح في وجهه ، وأحبَّ التواضع لله تعالى ، وجَعلَ السيادة للذي ساد الخلق أجمعين وليس هذا بمخالف لقوله لسعد بن معاذ حين قال لقومه الأنصار: « **قوموا إلى سيدكم** » أراد أنه أفضلكم رجلاً وأكرمكم .

وأما صفة الله جلَّ ذكره بالسيد فمعناه أنه مالكُ الخلقِ ، والخَلقُ كلُّهم عبيده .

وكذلك قوله : « **أنا سيِّدُ وَلَدِ آدم ولا فخرَ** » أراد أنه أولُ شفيعٍ وأولُ من يُفتح له بابُ الجنة ، قال ذلك إخبارًا عما أكرمه اللهُ به من الفَضل والسُّؤْدَدِ ، وتحدُّثًا بنعمة الله عنده ، وإعلامًا منه ليكونَ إيمانُهم به على حَسَبه وموجبه .

---

(١) « اللسان » (٣/ ٢١٤٥) .

ولهذا اتْبَعَه بقوله : « **ولا فخر** » أي : إنَّ هذه الفضيلة التي نلتُها كرامةٌ من الله ، لم أَنَلها من قِبَل نفسي ، ولا بَلغْتُها بقوتي فليس لي أن أَفْتَخَر بها .

وقيل في معنى قوله لهم لما قالوا له : أنت سيدنا : « **قولوا بقولكم** » أي: ادعوني نبيًّا ورسولاً كما سمَّاني الله ، ولا تُسموني سيِّدًا كما تُسمون رُؤساءَكم، فإني لست كأحدِهم ممن يَسودُكم في أسباب الدنيا [١].

وقال الخطابي : وإنما منعهم ـ فيما نرى ـ أن يَدْعوه سيدًا ، مع قوله: « **أنا سيد ولد آدم** » وقوله لبني قريظة[٢] : « **قوموا إلى سيدكم** » يريد سعد بن معاذ ، من أجل أنهم قومٌ حديثٌ عهدهم بالإسلام ، وكانوا يحسبون أن السِّيادة بالنبوة كهي بأسباب الدنيا ، وكان لهم رؤساء يعظمونهم ، وينقادون لأمرهم ، ويسمونهم السادات ، فعلمهم الثناء عليه وأرشدهم إلى الأدب في ذلك فقال : « **قولوا بقولكم** » يريد : قولوا بقول أهل دينكم وملتكم ، وادعوني نبيا ورسولاً ، كما سماني الله عز وجل في كتابه فقال: ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ ﴿ **يا أيها الرسول** ﴾ ولا تُسموني سيداً كما تُسمون رؤساءَكم وعظماءكم ، ولا تجعلوني مثلهم فإني لست كأحدهم ، إذْ كانوا يَسُودنكم بأسباب الدنيا ، وأنا أسُودكم بالنبوة والرسالة فسموني نبيا ورسولاً .

وقوله : « **بعض قولكم** » فيه حذفٌ واختصار ومعناه : دعوا بعض قولكم واتركوه ، يديد بذلك الاقتصار في المقال ، قال الشاعر :

---

(١) « المصدر السابق » (٣/ ٢١٤٤).

(٢) كذا جاء في المطبوعة وأشار المحققان إلى أنه هكذا وجد في نسختين خطيتين وصوابه : لبني الخزرج قبيلة سعد .

فبعــضَ القــول عاذِلتي فإني سَيَكْفينــي التَّجــاربُ وانْتِســابي

وقوله : « **لا يستجرينكم الشيطان** » معناه : لا يتخذنَّكم جَرِيًّا والجَرِيُّ: الوكيل ، ويقال : الأجير أيضًا [1].

وقال الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله تعالى :

اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر ، فمنعه قومٌ ونُقل عن مالك ، واحتجوا بأنه ﷺ لما قيل له: يا سيدنا قال: «**إنما السيد الله**».

وجوزه قومٌ واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار : « **قوموا إلى سيدكم** » وهذا أصح من الحديث الأول .

قال هؤلاء : السيد أحدُ ما يُضاف إليه ، فلا يقال لتميمي : إنه سيدُ كندة ولا يقال لمالك أنه سيد البشر ، قال : وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم !

وفي هذا نظر ، فإنَّ السيد إذا أُطلق عليه تعالى فهو بمعنى: المالك والمولى والرب لا بالمعنى الذي يطلق على المخلوق ، والله سبحانه وتعالى أعلم [2].

ومما يؤيد جواز إطلاقه على المخلوق ، قوله ﷺ : « **إذا نَصَحَ العبدُ سيِّده وأحسن عباده ربِّه ، كان له أجره مرتين** » [3].

---

(١) « معالم السنن » بهامش مختصر السنن (٧/١٧٦ ـ ١٧٧) .

تنبيه : لم يثبت لفظ السيادة للنبي ﷺ في التشهد ولا في الشهادة له بالرسالة في شيء من الأحاديث ، كما استقرأ ذلك جماعة من المحققين ومنهم الحافظ ابن حجر والقاسمي . انظر : « معجم المناهي » للشيخ بكر أبو زيد (ص ١٨٩) .

(٢) « الفوائد » (٣/٢١٣) .

(٣) رواه البخاري في « العتق » (٥/١٧٧) ، ومسلم في « الإيمان » (٣/١٢٨٤) من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما .

وقوله : « **لا يَقلْ أحدُكم : أطعم ربَّك ، وَضِّئ ربك ، وليَقُل : سيدي مولاي ، ولا يَقُل أحدُكم : عبدي ، أمتي ، وليَقُل : فَتَاي وفتاتي وغُلامي** »[1].

وقول عمر رضي الله عنه : « أبو بكر سيِّدُنا ، وأعتقَ سيِّدَنا ، يعني بلالاً »[2].

وقال الحافظ ابن حجر بعد أن ذكر حديث « **السيد الله** » : ويمكن الجمع بأن يُحمل النهي عن ذلك على إطلاقه على غير المالك ، والإذن بإطلاقه على المالك .

وقد كان بعض أكابر العلماء يأخذ بهذا ويكره أن يخاطب أحدًا بلفظه أو كتابته بالسيد ، ويتأكَّد هذا إذا كان المخاطب غير تقي ، فعند أبي داود والمصنف في « الأدب » من حديث بريدة مرفوعًا : « **لا تقُولوا للمنافقِ سيِّدًا** » الحديث ونحوه عند الحاكم[3].

* * *

---

(١) رواه البخاري (٥/ ١٧٧) ، ومسلم في « الألفاظ من الأدب » (٤/ ١٧٦٥) من حديث همام ابن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في « فضائل الصحابة » (٧/ ٩٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) « الفتح » (٥/ ١٧٩) .

وحديث « لا تقولوا للمنافق ...» في سنن أبي داود (٤٩٧٧) ، والبخاري في « الأدب » (٧٦٠) وهو صحيح .

المُحْسن

جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه

(١٧)

*** المعنى اللغوي :**

الحُسْنُ : نقيض القُبح ، والجمع مَحَاسِن على غير قياس ، كأنه جمع مَحْسَن .

ويقال : رجل حَسَنٌ ، وامرأة حَسَنَةٌ وحَسْناء وجمع الحَسَنَ : حِسَان.

وحسَّنتُ الشيء تَحْسينًا : زيَّنْتُه وأَحْسنتُ إليه وبه .

وروى الأزهري عن أبي الهيثم أنه قال في قوله تعالى في قصة يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] أي : قد أحسنَ إليَّ .

وقوله تعالى : ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٦] قيل : أراد الجنة .

وكذلك قوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

فالحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله تعالى [١].

والمحاسن في الأعمال ضد المساوئ.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] الذين يحسنون التأويل .

---

(١) وهو تفسير الرسول ﷺ للآية كما في حديث صهيب رضي الله عنه عند مسلم .

وقوله عز وجل : ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال ثعلب : هو الذي يتبع الرسول ﷺ .

والمَحاسِن : المواضعُ الحسنة من البدن ، يقال : فلانة كثيرةُ المحاسن .

ووجهه مُحَسَّنٌ : حَسَنٌ ، حَسَّنَه الله تعالى [١].

وقال الراغب : والإحسان يقال على وجهين :

أحدهما : الإنعام على الغير ، يُقال أحسَنَ إلى فلان .

والثاني : إحْسَانٌ في فعله ، وذلك إذا عَلِمَ عِلْمًا حَسَنًا ، أو عَمِل عملاً حسنا .

وعلى هذا قول أمير المؤمنين رضي الله عنه : الناسُ أبناء ما يحسنون، أي : مَنْسوبون إلى ما يَعْلمون ، وما يعملونه من الأفعال الحسنة .

قال : وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] .

فالإحسان فوق العَدْل ، وذاك أن العَدْل هو أنْ يُعطيَ ما عليه ويأخذَ ما له ، والإحسانُ أن يُعطي أكثر مما عليه ويأخذ أقلَّ مما له .

فالإحسان زائدٌ على العدْل ، فتحري العدل واجبٌ ، وتحري الإحسان نَدْبٌ وتطوُّعٌ ، وعلى هذا قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

وقوله : ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ولذلك عظَّم الله تعالى ثوابَ المحسنين فقال تعالى : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ

---

(١) « الصحاح » (٥/٢٠٩٩) ، و« اللسان » (٢/٨٧٧ ـ ٨٧٩) .

الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩][1].

وقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾ [التوبة: ٩١].

﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ**﴾ [الزمر: ١٠][2].

*** وروده في الحديث الشريف:**

١ـ ورد في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **إذا حكَمتُم فاعْدلوا، وإذا قُلتم فأَحْسِنوا، فإن الله محسنٌ يحبُ الإحْسان** »[3].

٢ـ وورد في حديث شدَّاد بن أوس قال: حفظت من رسول الله ﷺ اثنتين أنه قال: « **إن الله عز وجل مُحْسنٌ يُحبُّ الإحسان، فإذا قتلتم فأحْسنُوا القتْلةَ، وإذا ذَبحتُم فأحسنوا الذِّبْحِ، وليُحِدَّ أحدُكم شَفْرتَه ثم ليُرِحْ ذَبيحتَه** »[4].

---

(١) في المطبوعة: « إن الله مع المحسنين » وهو خطأ!.

(٢) « المفردات » (ص ١١٩).

(٣) سنده حسن، رواه ابن أبي عاصم في « الديات » (ص ٥٦)، وابن عدي في « الكامل » (٢١٤٥/٦)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢١٣/٢) من طرق عن محمد بن بلال التمار ثنا عمران القطان عن قتادة عن أنس به.

عمران القطان هو ابن داور قال أحمد: أرجوه أن يكون صالح الحديث، وقال أبو داود: هو من أصحاب الحسن وما سمعت إلا خيرًا، وقال النسائي: ضعيف، وقال الحافظ: صدوق يهم.

ومحمد بن بلال ذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به.

وقال الحافظ: صدوق يغرب.

والحديث ذكره الألباني في « الصحيحة » (٤٧٠).

(٤) صحيح، رواه عبد الرزاق في مصنفه (٨٦٠٣)، ومن طريقه الطبراني في « الكبير » =

* المعنى في حق الله تعالى :

قال القرطبي : المحسن جل جلاله وتقدست أسماؤه ، لم يرد في القرآن اسمًا ، وإنما ورد فعلاً ، فقال : ﴿ وَقَدْ أَحْسَن بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ومعناه راجع إلى معنى المُفضلِ وذي الفَضل والمنَّان والوهَّاب[1] .

وقال : المُحْسن اسم فاعل من أحسن ، ولا خفاءَ بإحسان الله تعالى إلى خَلْقه ، ومَنِّه عليهم بما غَمَرهم من الإحْسان والفَضل والجود والإنعام [2].

وقال ابن العربي : وأما مُحسن ومُجْمل ومفضل ، فلم يرد بها توقيف[3] ولكنها ألفاظ كريمة المعاني ولا يسمَّى إلا بما سمَّى به نفسه ، أكثر من أن الفعل منها قد جاء ، والتصريف لها قد وَرَدَ ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وجاء في الحديث « جميل » وقيل أنه بمعنى : مُجمل .

وجاء : ذو الفضل العظيم [4].

= (٧/ ٧١٢١) عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن شداد به .

ورجاله ثقات رجال الشيخين ، سوى أبي الأشعث الصنعاني واسمه شراحيل بن آدة فمن رجال مسلم .

وأصله في صحيح مسلم ، فقد رواه (٣/ ١٥٤٨) عن إسماعيل بن علية عن خالد الحذَّاء عن أبي قلابة به ، بلفظ : « إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة ... » الحديث .

(١) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٤١٤ أ) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ورقة ٤١٤ب) .

(٣) كذا قال ! وقد مرَّ معك ثبوت الحديث في « المحسن » .

(٤) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٤١٤ أ) .

وقال المُناوي في قوله ﷺ : « **إن الله تعالى محسن** » أي : الإحسان له وصفٌ لازمٌ لا يخلو موجودٌ عن إحسانه طَرْفَةَ عين ، فلابدَّ لكل مُكوَّن من إحسانه إليه بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد [1].

❋ من آثار الإيمان بهذا الاسم :

١ ـ ربنا تبارك وتعالى هو المُحسنٌ الذي غَمرَ الخلق جميعًا بإحسانه وفضله ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ، لاغنىً لهم عنه طرفة عين، ولا قيام لهم ولا بقاء إلا به سبحانه وبجوده وإنعامه ، ولو غفل عن ذلك الغافلون، وجَحَد به الجاحدون، وأعْرض عن شكره العاصون .

وللأُقليشي توسع جميل في بيان الجود والفضل والإحسان وأنواعه على الخلق ، إذْ يقول : وذلك ينحصر في ثلاثة أقسام : قاعدة وواسطة ومُتممة.

● أما القاعدة : فتشتمل من الإحسان والمن على ثلاث شعب :

الأولى : إخراجه من عدمٍ إلى وجود ، بمقتضى صفة الكرم والجود، وقد ذكَّره بهذا في مَعرض الامتنان ،فقال جل وعز : ﴿**هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**﴾ [الإنسان: ١].

الشُعبة الثانية : بعد خلقه تصويره في صورة آدم ، وهي أحسنُ صورِ العالَم ، وقد امتنَّ عليه بذلك في قوله : ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٤] إلى غير ذلك من الآي المتكرره في هذا النوع .

الشعبة الثالثة : جَعْلُه إياه عاقلاً لا معتُوها ولا سفيها حتى يمتاز من البهائم ، وقد ذكَّره بهذا الثَّناء فقال : ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ**﴾ [الإنسان: ٣].

وقال : ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ [البلد: ١٠].

---

(١) « فيض القدير » (٢/ ٢٦٤) .

وقال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

إلى غير ذلك من هذه الأمثلة .

● وأما الواسطة فهي للقسمين رابطة ، ويشتمل من الإحسان والإنعام والمنِّ على ستِ شُعب :

الأولى : هدايته إياه للإسلام .

وهذا أعظمُ الإحسان والإنعام ، وهو المراد بما ذكر في القرآن من الهدي والنور ، والشَّرح للصدور ، وغير ذلك من هذا النوع(١) .

الثانية : إحسانه إليه أن جَعَله من أُمةِ محمد عليه السلام : خير الأنبياء وخير الأمم ، وعلى هذا نبّه بقوله : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي : كنتم في الغيب حتى خرجتم إلى الوجود علي وفاق العلم .

الثالثة : إحْسانه إليه بأن حفِظ كتابه العظيم حتى يكون مُعبِّرًا عن كلام ربه بلسانه ، وراغبًا إليه بجنابه ، وهذا من أعظم إحسانه ، وقد قال ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] أنه القرآن .

الرابعة : عَلَّمه بعد حفظه من معانيه ، ومن شريعة نبيه ، ومن حقائق علمه أثرًا ونظرًا ، وقد قال تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

---

(١) قال القرطبي هنا : قلت : ومن هذا المعنى ما روي عن وهب بن منبه قال : رؤس النعم ثلاثة : فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمةٌ إلا بها . والثانية : نعمة العافية التي لا تطيبُ الحياةُ إلا بها . والثالثة : نعمة الغِنى التي لا يتم العيشُ إلا بها .

الخامسة : ما أحسنَ به إليه ، وأنعم عليه من : العمل بما عَلِم ، وهذا هو ثمرةُ العلم ، وقد قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

السادسة : إحسانه إليه وتوفيقه حتى يَنْشرَ ما علم في عباده ، ويكون نور بلاده ، يُسْتَضاءُ بسِراجه ، ويُقْتَفَى واضحَ مِنهاجه ، وبهذا يَستحقٌّ أن يُدْعى عظيمًا في مَلكوت السماء ، ويكونَ من أشرافِ العلماء الوارثين للأنبياء .

● وأما المتمِّمة : فهو ما أنعمَ به عليه ، وأحسنَ إليه ، من إظهارِ عَوارف ، وإدْرار لطائف ، شرفَ بها نوعَه ، وأكمل بها وَصْفه ، ويشتمل على أربع شُعبٍ :

الأول : ما أنعمَ به عليه : من كمال الصُّورة ، واعتدال الخِلْقة ، وفصاحة اللسان ، وسلامة الهيئة من تشوهٍ ، ونقصِ عضوٍ ، ولحوقِ خَلَلٍ ، حتى يبقى صحيحًا سليما ، ويسلك من طاعة الله طريقًا قويمًا ، وتستحْسنُ الأبصار والبصائر صورتَه ، ولا تمج الطباع خلقته ، وهذه نعمة من الله عليه ، وهي مَوهبةٌ وخصوصية .

الثانية : ما أنعم به عليه : من انْتظامِ الحال ، واتِّساعِ المال ، حتى لا يحتاج إلى أحدٍ من الخلق في اكتساب الرزق ، ويحتاج إليه غيره فيعُمهم خيره ، وهذه نعمةٌ يجب شكرها ، إذْ ليس كل أحدٍ يُعطاها .

الثالثة : ما أنعمَ به عليه : من عصبَةٍ وعَشيرة وأصحابٍ وأتباع ، تألَّفت قلوبهم على محبته واصطفائه ، وقاموا جُنَّةً بينه وبين أعدائه ، فلم يطرقه من الأعداء طارق ، بل عاش في أمنٍ من جميع الخلائق ، يُنْظر إليه بعَين الإجْلال والوقار ، وتقضى حوائجه في قطره وفي جميع

الأقطار، ويثني عليه الحاضر ، ويفخر بذكره الأعاصر .

الرابعة : ما يُنعمُ به عليه : من المرأة الصالحة الموافقة ، فتسكن إليها نفسه ، ويتم له بها أُنْسه ، ويكْثر منها نَسْله حتى يكونَ من ذُريَّته في أمة محمد ﷺ عَدَدٌ وَافر ، وكلُّهم لله موحدٌ ، ولآلائه ذاكرٌ شاكر ، فَيَشْتَدُّ بهم في الدنيا أَزْره ، ويحبط بهم في الآخر وِزْره .

قلت (أي القرطبي) : وشعبة خامسة : وهي ما أنعمَ عليه من صحة الجسم ، وفَراغِ البال ، قال ﷺ : « **نعْمتان مَغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ** » خرجه البخاري [1][2].

٢ ـ ذكرنا مراراً أن الله تعالى يحب من خلقه التعبد بمعاني أسمائه وصفاته ، فهو عليم يحب العلماء ، جميل يحب الجمال ، محسنٌ يحب الإحسان ، ولذا كتب الإحسان على كل شيء حتى في القتل والذبح [3].

قال سبحانه : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [المائدة: ١٣].

والإحْسان نوعان : إحسانٌ في عبادة الله تعالى وهو « أن تعبد الله تعالى كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » كما جاء في حديث جبريل عليه السلام المشهور .

وإحسان إلى عباد الله تعالى، وذلك بإيصال جميع أنواع الخير لهم، وكليهما قد وعده الله تعالى بالثواب فقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [التوبة: ١٢٠].

قال ابن القيم رحمه الله في بيان أسباب شرح الصدر : ومنها :

---

(١) البخاري في أول « الرقاق » (١١/ ٢٢٩) .

(٢) « الكتاب الأسنى » (٢/ ورقة ٤١٤ ب ـ ٤١٦أ) .

(٣) فأمر الرسول ﷺ بأن تحدَّ الشفرة وتُشحذ لئلا تؤذي الذبيحة ، وأن لا يكون ذلك أمامها ، وأن يريح ذبيحته فلا يربط قوائمها ، ويسوقها سوقًا جميلا .

الإحسان إلى الخَلق ونفعُهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن ، وأنواع الإحسان ، فإن الكريم المحسنَ أشرحُ الناس صدرًا ، وأطيبهم نفسًا ، وأنعمهم قلبًا ، والبخيلُ الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرًا، وأنكدهم عَيشًا ، وأعظمُهم همّا وغما .

وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلاً للبخيل والمتصدِّق ، كمثل رجلين عليهما جُنَّتَان من حديد ، كلَّما همَّ المتصدِّق بصدقة اتَّسعت عليه وانبسطت حتى يَجُرَّ ثيابه ويُعْفي أثَره ، وكلما همَّ البخيل بالصدقة ، لَزِمَتْ كلُّ حَلقة مكانها ، ولم تتَّسع عليه [1].

فهذا مَثَلُ انشراح صدر المؤمن المتصدِّق ، وانفساح قلبه ، ومثلُ ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه [2].

٣ـ ومن أعظم الإحسان إلى الخلق : تعليمهم ما ينفعهم في دينهم ، ويكون سببًا في نجاتهم في الدنيا والآخرة ، من علوم الكتاب والسنة وفقه السلف، وإرشادهم إلى طرق الخيرات والقربات، وتحذيرهم مسالك الشرِّ والهلكات، وهى وظيفة الرسل وأتباع الرسل، وبهذا كانوا أعظمَ الناس إحسانًا إلى الخلق ، ولهم عليهم من المنة والفضل مالا يُؤدى شكره .

قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

* * *

(١) هو معنى حديث أخرجه البخاري في مواضع أولها في « الزكاة » (٣/ ٣٠٥) ، ومسلم في «الزكاة» (٢/ ٧٠٨ ـ ٧٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) « زاد المعاد » (٢/ ٢٥ ـ ٢٦) .

الفهارس

* فهرس أطراف الحديث.
* فهرس المواضيع.

فهرس أطراف الحديث

فهرس المواضيع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة